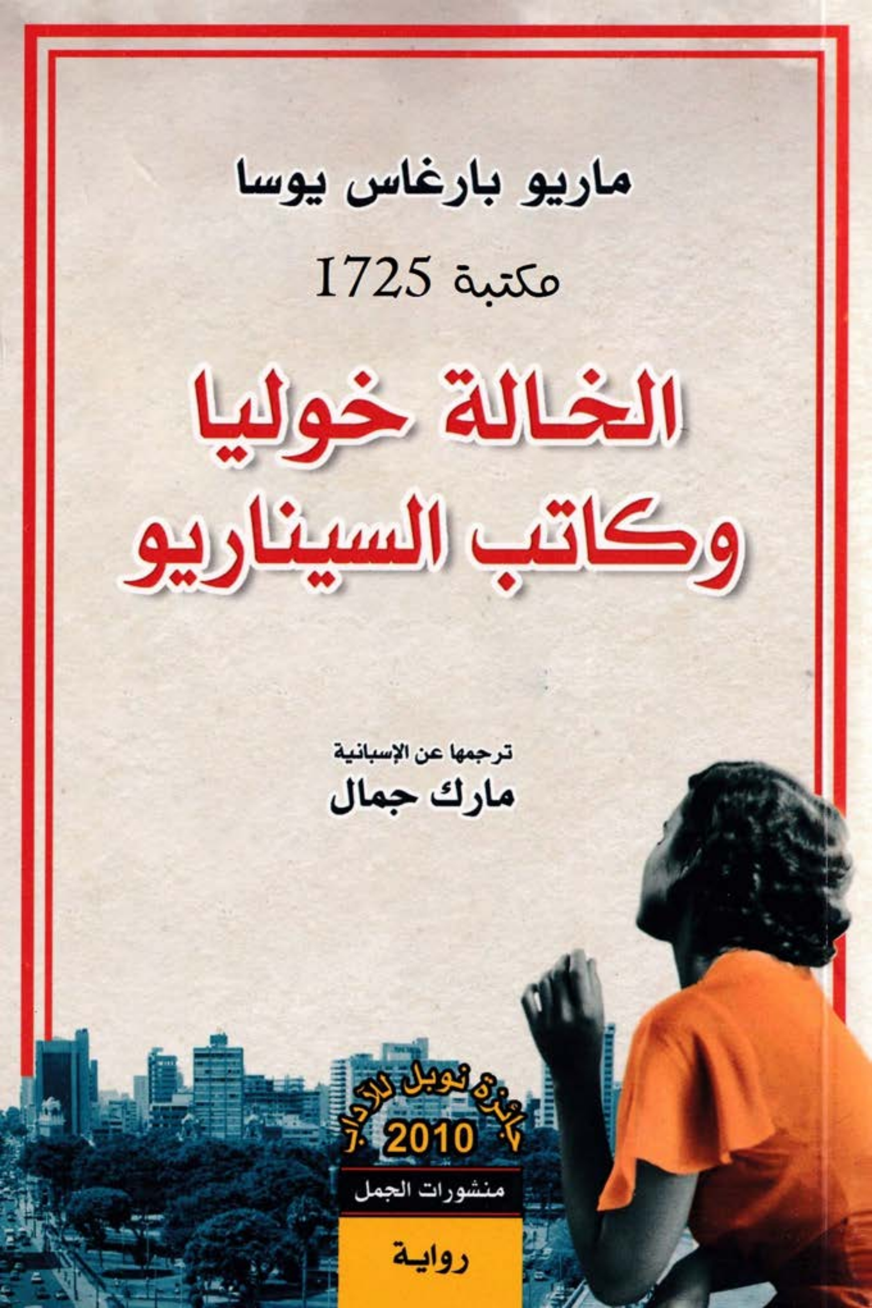

ماريو بارغاس يوسا
مكتبة 1725
الخالة خوليا
وكاتب السيناريو
ترجمها عن الإسبانية
مارك جمال
جائزة نوبل للآداب
2010
منشورات الجمل
رواية

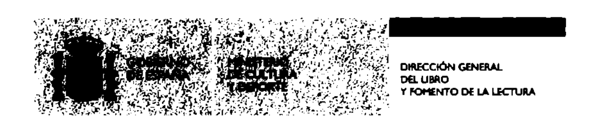


ماريو بارغاس يوسا: **الخالة خوليا وكاتب السيناريو**، رواية، الطبعة الأولى
ترجمها عن الإسبانية: مارك جمال

ص.ب: ٧٣١١١ - الشارقة - الإمارات العربية المتحدة

Mario Vargas Llosa: *La tía Julia y el escribidor*, roman

Postfach 1127 . 71687 Freiberg a. N. - Germany
WebSite: www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com



Esta obra ha sido publicada con una subvención del
Ministerio de Cultura y Deporte de España
نُشِر هذا العمل بدعم من وزارة الثقافة والرياضة الإسبانية

ماريو بارغاس يوسا

مكتبة | 1725

الخالة خوليا وكاتب السيناريو

رواية

ترجمها عن الإسبانية مارك جمال

منشورات الجمل

بدأتُ هذه الرواية في ليما، وعام ١٩٧٢ في أواسطه، ثم تابعتُ الكتابة، وإن تخلَّلَتها عدة فترات انقطاع طال بعضُها، في برشلونة ولا رومانا (بجمهورية الدومينيكان)، ونيويورك، ثم ليما من جديد، هناك حيث فرغتُ من الرواية بعد مضي أربعة أعوام. ولقد أوحى إليَّ بهذه الرواية مُؤلِّفُ مسلسلات إذاعية تعرَّفتُ به في شبابي، ذلك المُؤلِّف الذي أودَت حكاياته الميلودرامية برأسه، لفترة من الزمن. وحتى لا تبدو الرواية شديدة الاصطناع، حاولتُ أن أضفي عليها قصاصات من سيرتي الذاتية: أولى مغامرات الزواج التي خضتُها. وهو المسعى الذي أكَّد لي أن اللون الروائي لم يُولَد ليحكي الحقائق. فلطالما صارت الحقائق أكاذيب إذا انتقلَت إلى الخيال (أي حقائق مثيرة للشكوك، يتعذَّر التحقُّق منها).

ولقد وجدتُ صعوبةً في إضفاء شكل مقبول على تلك الحلقات التي تشبه سيناريوهات بِدرو كاماتشو، مع أنها ليست كذلك، كما شقّ عليَّ أن أضع فيها الأنماط والأهوال وضروب الشطط والابتذال التي يتَّسم بها ذلك اللون من ألوان الفنّ، مع الحفاظ على المسافة الساخرة التي لا يمكن الاستغناء عنها، من دون أن تصطبغ تلك الصور بالطابع الكاريكاتوري. كانت الميلودراما واحدة من مواطن ضعفي المُبكِّرة، فجاءت أفلام الخمسينيات المكسيكية التي تنفطر لها

القلوب لتزيد الطين بلة. ولقد سمح لي موضوع هذه الرواية بتقبُّل الأمر من دون شعور بوخز الضمير. أما الابتسامات والدعابات، فلا تخفي الشخصية العاطفية لراوي هذا الكتاب تمامَ الإخفاء، تلك الشخصية المولعة بأغاني البوليرو، والأهواء الجامحة، وحبكات الروايات المتسلسلة.

ماريو بارغاس يوسا

لندن، ٣٠ يونيو ١٩٩٩

إلى خوليا أوركيدي إيانيس، تلك التي
ندين إليها بالكثير، أنا وهذه الرواية

أكتب. أكتب أنني أكتب.

وفي ذهني، أراني وأنا أكتب أنني أكتب، وأستطيع أن أراني إذ أراني وأنا أكتب. أذكرني وأنا أكتب، كما أذكرني وأنا أراني حين كنتُ أكتب. أراني وأنا أذكرني إذ أراني وأنا أكتب، كما أذكرني إذ أراني وأنا أذكرني حين كنتُ أكتب وأكتب إذ أراني وأنا أكتب أنني أذكر أنني رأيتُني وأنا أكتب أنني رأيتُني أكتب أنني أذكر أنني رأيتُني أكتب أنني كنتُ أكتب وكتبتُ أنني أكتب أنني كنتُ أكتب. كما أستطيع أن أتخيَّلني وأنا أكتب أنني قد كتبتُ أنني سوف أتخيَّلني وأنا أكتب أنني كتبتُ أنني قد تخيَّلتُني وأنا أكتب أنني أراني أكتب أنني أكتب.

سالبادور إليسوندو

الخطَّاط

١



في ذلك الزمن البعيد، وأنا في مقتبل العمر، كنتُ أسكن مع جدّي وجدّتي في بناء جدرانه بيضاء يقع بشارع أوتشاران، في ميرافلوريس، وأدرس القانون، بجامعة سان ماركوس، على ما أعتقد. وفي وقت لاحق، أذعنتُ لضرورة كسب العيش بمزاولة مهنة حرّة، وإن كنتُ في قرارة الأمر أفضّل أن أغدو كاتبًا. التحقتُ بوظيفة رنّانة المُسمّى، هزيلة الراتب، مطّاطة المواعيد، تنطوي على انتحالات محظورة: مدير قطاع الأخبار براديو پانامريكانا. العمل الذي يقوم على اقتصاص الأخبار الجديرة بالاهتمام الواردة في الصحف اليومية، وتزيينها قليلًا من أجل قراءتها في نشرات الأخبار الإذاعية. أما فريق التحرير الذي عمل تحت إمرتي، فاقتصر على فتى يضمّخ شعره بالدهان، يعشق الكوارث، ويُدعَى پاسكوال. كانت نشرات الأخبار تُذاع مرة كل ساعة، وتمتدّ لدقيقة واحدة، باستثناء نشرة الظهيرة، ونشرة التاسعة، إذ تمتدّ كل منهما خمسة عشر دقيقة. كنا نجهّز عددًا من النشرات دفعةً واحدة، وهكذا أكثرتُ من الخروج إلى الشارع، حيث كنتُ أتناول فناجين القهوة في شارع كولمينا، وأحضر الدروس في بعض الأحيان، أو أبقى في مكاتب راديو سنترال، الأكثر حيويةً من محطة الراديو التي عملتُ بها.

كانت الإذاعتان لمالك واحد، وتقع كلٌّ منهما بجوار الأخرى،

في شارع بيلين، على مقربة شديدة من ميدان سان مارتين. لم تكُن إحداهما تشبه الأخرى في أي شيء. بل كانتا بالأحرى كهاتين الشقيقتَيْن المعهودتَيْن في الأعمال التراجيدية، إذ تُولَد الأولى وكلها محاسن، بينما تُولَد الثانية وكلها نقائص، فتتميَّز كلتاهما عن الأخرى بالتفاوتات القائمة بينهما. كان راديو پانامريكانا يشغل سطح بناء حديث العهد، والطابق الثاني منه أيضًا. أما الفِرَق العاملة بالمحطة الإذاعية وطموحاتها وبرامجها، فلقد اتسَّم جميعها بالاختيال، والميل إلى ما هو أجنبي، وادّعاء العصريَّة والشباب والأرستقراطية. لم يكن المُعلِّقون العاملون بالمحطة الإذاعية من الأرجنتين (حسبما كان پِدرو كاماتشو سيقول)، وإن استحقّوا أن يكونوا من الأرجنتين. أكثرَت محطة الراديو من إذاعة الفقرات الموسيقية، التي تخلَّلها كثير من الجاز والروك، وقليل من الموسيقى الكلاسيكية، كما تحقَّقَت لموجات المحطة الريادة في نشر آخر الأغاني الناجحة الواردة من نيويورك وأوروبا في ليما. وعلى الرغم من ذلك، فلم تستخفّ المحطة الإذاعية بموسيقى أمريكا اللاتينية، ما توفَّر فيها الحدّ الأدنى من الرقيّ. لقيَت الموسيقى المحلية قبولًا محفوفًا بالحذر، واقتصرَت على مستوى الفالس. كما أُذيعَت برامج على قدر من الجاذبية الثقافية، من قبيل **لمحات من الماضي**، و**تقارير عالمية**، وحتى البرامج التافهة مثل **مسابقات الأسئلة**، أو **منصَّة الشهرة**، التي لوحِظ فيها ترفُّع عن الإغراق في الابتذال أو الغباء المفرط. ومن أدلة الاهتمام الثقافي، نجد **الخدمة الإخبارية** التي كنتُ أقدِّمها أنا وپاسكوال، من علّية خشبية أُقيمَت في السطح، من حيث يمكن للناظر أن يرى مكبّات القمامة وآخر كوَّات الإضاءة في أسطح ليما. كنا نصل إلى السطح بذلك المصعد الكهربائي الذي اكتسبَت أبوابه عادة تبثّ القلق في النفوس، إذ كانت تنفتح قبل الأوان.

أما راديو سنترال، فكان مُكَدَّسًا في بيت عتيق حافل بالباحات والأركان الوعرة، هناك حيث يكفي المرء أن يسمع المُعلِّقين الهادئين الذين يغالون في استخدام اللغة الدارجة حتى يميِّز مهنتهم ذات الشعبية الواسعة، العامية، شديدة الكريوليَّة[١]. قلّما أُذيعَت الأخبار هناك، حيث هيمنَت وتسيَّدَت الموسيقى البيروفية، بما في ذلك موسيقى الأنديز. وفي مرات غير قليلة، شارك المغنّون الهنود القادمون من قاعات الموسيقى في تلك البرامج المفتوحة للجمهور، البرامج التي كانت تجتذب الجموع التي تحتشد أمام باب المحطة الإذاعية قبل ساعات من بدء البثّ. وكانت موجات الإذاعة تختلج بقوة على وقع الموسيقى الاستوائية والمكسيكية وموسيقى بوينوس آيرس. كما اتَّسمَت برامجها بالبساطة والفعالية وانعدام الخيال: **ما يطلبه المستمعون عَبْر التليفون، وألحان عيد الميلاد، ونمائم الوسط الفني، وأشرطة التسجيلات، والسينما**... ولكن الفقرة الرئيسية المُتكرِّرة المُقدَّمة بجرعات وفيرة، تلك التي ضمنَت للإذاعة إقبالًا جماهيريًا هائلًا طبقًا لجميع استطلاعات الرأي، فكانت المسلسلات الإذاعية التي تُقدَّم نصف دزينة منها كل يوم على أدنى تقدير. كثيرًا ما تسلَّيتُ بالتلصّص على مُقدِّمي المسلسلات في أثناء البثّ: على أولئك المُمثِّلات والمُمثِّلين الآفلة نجومهم، الجائعين، المنكوبين، الذين كانت أصواتهم الشابة البلّورية التي تداعب الأسماع مختلفةً أشدّ الاختلاف عن وجوههم الطاعنة في السنّ وأفواههم التي تشوبها المرارة وعيونهم التي أدركها التعب. «يومَ

---

(١) كريولي: للكلمة أكثر من معنى، غير أنها تُستخدَم في هذا السياق تحديدًا لنسبة الأشخاص أو الأشياء (من قبيل الموسيقى والأطعمة) إلى المنطقة الساحلية من بيرو. (المترجم)

يصل التلفزيون إلى بيرو، لن يبقى أمامهم طريق سوى الانتحار»، هكذا تنبَّأ خينارو الابن، وهو يشير إليهم من خلال زجاج الأستوديو، حيث كان الناظر يراهم وكأنهم في حوض سمك كبير، مُتحلِّقين حول الميكروفون، ممسكين بكتيبات النصوص، مُتأهِّبين للبدء في الحلقة الرابعة والعشرين من **عائلة ألبيار**. وبالفعل، أي خيبة أمل كانت ستُمنَى بها ربَّات البيوت اللاتي يذبن على صوت لوسيانو پاندو لو رأين جسده المُشوَّه ونظرته الحولاء! وأي خيبة أمل كان سيُمنَى بها المتقاعدون الذين تُوقِظ همسات خوسيفينا سانتشيس في نفوسهم الذكريات لو أنهم تعرَّفوا بلغدها وشواربها وأذنَيْها الخفَّاقتَيْن ودواليها! ولكن وصول التلفزيون إلى بيرو كان لا يزال بعيدًا، ما جعل الأجر الهزيل الذي كانت كائنات المسرح الإذاعي تقتات عليه يبدو مُؤمَّنًا في اللحظة الراهنة.

لطالما شعرتُ بالفضول يدفعني لأعرف أي أقلام تصنع تلك المسلسلات التي كانت تسلِّي جدّتي في أمسياتها، تلك القصص التي عادةً ما يلتقطها سمعي جزئيًّا في بيت الخالة لاورا وزوجة خالي أولغا وزوجة خالي غابي أو في بيوت بنات الأخوال الكثيرات متى زرتهن (كانت عائلتنا من حيّ ميرافلوريس، شديدة التقارب، مُتشعِّبة، كما يليق بعائلة توراتية). حدَّثتني الشكوك بأن تلك المسلسلات الإذاعية واردة الخارج، ولكني فوجئتُ حين بلغني أن آل خينارو لا يشترونها من المكسيك ولا الأرجنتين، بل من كوبا، حيث تنتجها شبكة سي إم كيو، إمبراطورية الإذاعة والتلفزيون الخاضعة لحكم غوار ميستري، ذلك السيد صاحب الشعر المُفضَّض الذي رأيتُه ذات مرة لدى مروره بليما، بينما هو يقطع أروقة راديو پانامريكانا التي رافقه أصحابها في خنوع، تحت النظرات المفعمة بالإجلال التي مضى يرمقه بها الحضور جميعًا. كثيرًا ما سمعت بشبكة سي إم كيو

الكوبية من مُقدِّمي المحطة الإذاعية ومهندسيها وفنِّييها - أولئك الذين كانت شبكة سي إم كيو تمثِّل لهم شيئًا أسطوريًّا، وكأنها هوليود العصر عند صنَّاع السينما - إلى حدٍّ جعلني أنا وخابيير، في بعض المرات، بينما نحن نتناول القهوة في برانسا، نتخيَّل ذلك الجيش من كُتَّاب السيناريو طويلًا، أولئك الكُتَّاب الذين يجب عليهم أن ينتجوا ما يعادل ثماني ساعات من المسلسلات يوميًّا، وهم في تلك المكاتب المُكيَّفة القائمة بقلعة غوار ميستري، في مدينة هافانا البعيدة، بما حوَت من نخيل وشطآن فردوسية ومُسلَّحين وسائحين، هناك حيث يكتبون على الآلات الكاتبة الهادئة ذلك السيل المُؤلَّف من قصص الزنى والانتحار والشغف واللقاء وتقسيم الميراث والورع والمصادفة والجريمة، تلك القصص التي تنطلق من الجزيرة الأنتيلية وتنتشر في أرجاء أمريكا اللاتينية وقد تبلورَت بأصوات لوسيانو باندو وخوسيفينا سانتشيس وأمثالهما، فتملأ بالأحلام أمسيات الجدات والخالات وبنات الأخوال والمتقاعدين في كل بلد.

كان خينارو الابن يشتري المسلسلات الإذاعية (أو بالأحرى، كانت شبكة سي إم كيو تبيعه إياها) بالوزن، عَبْر التلغراف، كما أخبرني بنفسه ذات مساء، بعد أن تملَّكَته الدهشة حين سألتُه إن كان هو أو إخوته أو والده يعتمدون النصوص قبل إذاعتها. «أتقدر أنت على قراءة سبعين كيلوغرامًا من الورق؟»، أجابني سائلًا، ناظرًا إليَّ بذلك التنازل الحميد الذي خوَّلَتني إياه مرتبةُ المُثقَّف التي وضعني فيها منذ رأى لي قصةً منشورة في ملحق إل كومِرسيو الصادر يوم الأحد: «احسبْ كم يستغرق ذلك من الوقت، شهرًا، شهرَيْن؟ ومَن يمكنه أن ينفق شهرَيْن لقراءة مسلسل إذاعي واحد؟ نترك الأمر للحظّ. ولقد شملنا ربُّ المعجزات بالحماية حتى الآن، مِن حسن الحظ».

في أحسن الأحوال، كان خينارو الابن يتحقَّق من عدد البلدان التي اشترَت المسلسل الإذاعي المعروض ومدى الإقبال الجماهيري عن طريق وكالات الإعلان أو الزملاء والأصدقاء. أما في أسوأها، فكان يتَّخذ قراره بالحكم على العنوان، أو ببساطة يجري قرعةً بالعملة المعدنية. كانت المسلسلات الإذاعية تُباع بالوزن، لأن تلك الطريقة أقل مراوغةً من حساب عدد الصفحات أو الكلمات، بمعنى أنها الطريقة الوحيدة الممكنة لقياس المسلسلات. «طبعًا، فما دام الوقت لا يكفي لقراءتها، دع عنك حساب هذا العدد من الكلمات»، هكذا قال خابيير. أثارته فكرةُ روايةٍ تزن ثمانية وستين كيلو وثلاثين غرامًا، يُحدَّد سعرها بالميزان، كما يُحدَّد سعر الأبقار والزبد والبيض.

وإن سبَّبَت الطريقة سالفة الذكر مشكلات لآل خينارو، إذ كانت النصوص تأتي موبوءة بالمصطلحات الدارجة الكوبية التي يترجمها لوسيانو وخوسيفينا وزملاؤهما بأنفسهم إلى اللهجة البيروفية ما وسعهم ترجمتها (أي بصورة رديئة في كل مرة)، وذلك قبل إذاعة المسلسل بدقائق. ومن جهة أخرى، ففي بعض الأحيان، كانت أكداس الأوراق المكتوبة على الآلة، خلال الرحلة التي تقطعها الأوراق من هافانا إلى ليما في جوف السفن أو الطائرات، أو بينما هي في الجمارك، تتعرَّض للتلف، أو تضيع منها فصول كاملة، أو تصبح عصيةً على القراءة بسبب الرطوبة، أو تختلط الأوراق، أو تأتي عليها الفئران في مخزن راديو سنترال. فما كان يُكتشَف الأمر إلَّا في اللحظات الأخيرة، بينما خينارو الأب يوزِّع كتيبات النصوص، ما أسفر عن مواقف حرجة، كانت تُحَلّ بتجاوزِ الفصول المفقودة بلا أدنى اعتبار لأي شيء. وإلَّا، ففي الحالات الأشدّ حرجًا، كان القائمون على العمل يتظاهرون بمرض الشخصية التي تؤدِّي دورها

خوسيفينا سانتشيس أو لوسيانو پاندو ليوم واحدة، وهكذا يمكن ترقيع الغْرامات أو الكيلوغرامات المختفية من النصّ، أو إقامتها من الموت، أو حذفها من دون الإضرار بالعمل أكثر مما ينبغي، على مدى الأربعة والعشرين ساعة التالية. زد على ذلك أسعار شبكة سي إم كيو الباهظة. ولذا كان من الطبيعي أن يشعر خينارو الابن بالسعادة حين عرف بوجود پِدرو كاماتشو، وبمَلَكاته الإعجازية.

أذكر جيدًا يومَ حدَّثني عن ذلك النابغة الإذاعي، ففي موعد الغداء من ذلك اليوم، وقع بصري لأول مرة على الخالة خوليا - شقيقة أولغا، زوجة خالي لوتشو - التي وصلَت في الليلة السابقة من بوليفيا. جاءت تلتمس الراحة والتعافي من زواجها الخائب، إذ طُلِّقَت منذ عهد قريب. «بل إنها، في واقع الأمر، جاءت تبحث عن زوج جديد»، حسبما أدلَت بحكمها الخالة أورتينسيا، أسلط أقربائي لسانًا، في أحد اللقاءات العائلية. كنتُ أتناول الغداء كل خميس في بيت الخال لوتشو وزوجته أولغا. وفي ظهيرة ذلك اليوم، ألفيتُ أفراد العائلة وهم ما زالوا بالبيجامة، يداوون آثار الخمار بالمحار الحرّيف والبيرة المُثلَّجة، بعد أن سهر الخال وزوجته والواصلة حديثًا حتى الفجر وهم يتجاذبون أطرافَ النميمة، فشرب ثلاثتهم قنينة من الويسكي فيما بينهم. آلَمَتهم رؤوسهم، وتذمَّر الخال لوتشو من الفوضى التي عمَّت مكتبه، وقالت زوجة خالي أولغا إن السهر في غير ليالي السبت أمر مُخزٍ، بينما راحت الواصلة حديثًا تفرغ حقيبتها وهي بالروب، بلا حذاء، والبكرات في شعرها. لم تنزعج لأني رأيتُها وهي بذلك المظهر الذي ما كان ليحمل أحدًا على الظنّ بأنها ملكةٌ من ملكات الجمال.

- «إذن، فأنت ابن دوريتا»، قالَت لي وهي تطبع قبلةً على وجنتي. «تخرَّجتَ من المدرسة، أليس كذلك؟».

كرهتُها حدّ الموت. كان السبب في الصدامات الطفيفة القائمة بيني وبين العائلة حينذاك أنهم ما زالوا يصرّون على معاملتي كالطفل، لا الرجل مكتمل النضج الذي كنتُه آنذاك، الرجل البالغ من العمر ثمانية عشر عامًا. لم أضِق بشيء كما ضقتُ بلقب **ماريتو**[1]، شعورًا مني بأن تصغير الاسم يردّني إلى السروال القصير مرة أخرى.

- «لقد وصل إلى الفرقة الثالثة من كلية الحقوق وأصبح يشتغل بالصحافة»، أوضح لها الخال لوتشو وهو يناولني قدح البيرة.

- «الحق أنك ما زلت تبدو طفلًا صغيرًا يا ماريتو»، سدَّدَت إليَّ الخالة خوليا ضربتها القاصمة.

ثم إنها، خلال الغداء، وبذلك المظهر الحاني الذي يكتسبه الكبار إذا توجَّهوا بالحديث إلى الحمقى والصغار، سألَتني أي رياضة أمارس، كما سألَتني إن كانت لي حبيبة، وإن كنتُ أرتاد الحفلات، كما نصحَتني بإطلاق شاربي «حالما يتسنَّى لي ذلك»، لأن الشارب يليق بأصحاب البشرة السمراء، ما قد يُسهِّل أموري مع الفتيات، النصيحة التي أسدَت إليَّ بانحراف لم أعرف إن كان مُتعمَّدًا أم بريئًا، ولكنه قد لمس روحي على كل حال.

- «لا يفكِّر في التنانير ولا الحفلات الصاخبة»، أوضح لها الخال لوتشو. «بل إنه مُثقَّف. نُشِرَت له قصة في ملحق إل كومِرسيو الصادر يوم الأحد».

---

(١) ماريتو: تصغير اسم ماريو، ولقد روعي الحفاظ على تصغير الأسماء كما جاء في النص الأصلي. ولصيغة التصغير باللغة الإسبانية أكثر من دلالة، من بينها التدليل أو إظهار المودَّة أو الألفة. وغالبًا ما تكون صيغة التصغير بإضافة مقطع «يتو» (للمذكَّر) أو «يتا» (للمؤنَّث)، مثال بِدريتو وخوليتا. (المترجم)

- «حذار وإلَّا اتَّضح أن ابن دوريتا مِن الصنف الآخر من الرجال!»، ضحكَت الخالة خوليا، فشعرتُ نحو زوجها السابق بموجة من التضامَن. غير أنني ابتسمتُ وسايرتُها.

وفي أثناء الغداء، انصرفَت إلى العبث معي وإلقاء النكات البوليفية البشعة. وبينما كنتُ ألقي تحية الوداع، بدا لي أنها ترغب في الاعتذار عن سيئاتها، إذ طلبَت مني مرافقتها إلى السينما ذات ليلة، في لفتة ودود منها، لأنها مفتونة بالسينما.

وصلتُ إلى راديو پانامريكانا في الوقت المناسب تحديدًا لمنع پاسكوال من أن يفرد نشرة أخبار الثالثة كاملةً للخبر المنشور في جريدة آخر ساعة عن نشوب معركة مُرتَّبة بين حفَّاري القبور ومرضى الجذام في شوارع مدينة راوالپيندي العجيبة. وعقب إعداد نشرتَي الرابعة والخامسة، خرجتُ لتناول فنجان من القهوة، فالتقيتُ على باب راديو سنترال خينارو الابن، الذي بدا في غاية السعادة. اقتادني إلى مقهى برانسا ممسكًا بذراعي: «لا بدّ أن أخبرك بشيء رائع». أمضى خينارو الابن بضعة أيام في مدينة لا پاس لدواعي العمل. وهناك، رأى ذلك الرجل مُتعدِّد المَلَكات وهو في أوج النشاط: پِدرو كاماتشو.

- «ليس رجلًا، بل إنه مصنع متكامل»، قال مُتدارِكًا، بإعجاب. «يؤلِّف كل الأعمال المسرحية المُقدَّمة في بوليفيا ويشارك بالتمثيل فيها. زد على ذلك أنه هو الذي يكتب كل المسلسلات الإذاعية ويخرجها ويؤدِّي دور البطل الرئيسي فيها».

وعلى الرغم من ذلك، فلقد تأثَّر خينارو الابن بشعبية پِدرو كاماتشو أكثر مما تأثَّر بتنوّعه وغزارة إنتاجه. إذ اضطُرّ خينارو الابن إلى شراء تذاكر أُعيد بيعها له نظير ضعفَي ثمنها الأصلي حتى يتمكَّن من رؤية پِدرو كاماتشو في مسرح سابيدرا بمدينة لا پاس.

- «وكأنها مصارعة الثيران، تصوَّر!»، قال مُنبهِرًا. «مَن ذا استطاع أن يملأ مسرحًا في ليما ذات يوم؟».

أخبرني بأنه، على مدى يومَيْن متتاليَيْن، قد رأى أعدادًا غفيرة من الشابات والنساء البالغات والعجائز اللائي تزاحمن على أبواب راديو إليماني، في انتظار أن يخرج معبود الجماهير حتى يطلبن منه توقيعه. ومن جهة أخرى، فلقد أكَّدَت له وكالة إعلان ماكان إريكسون بمدينة لا پاس أن مسلسلات پِدرو كاماتشو الإذاعية هي الأوفر حظًّا من الإقبال الجماهيري على موجات الإذاعة في بوليفيا. كان خينارو الابن نموذجًا لما بدأ يُطلَق عليه آنذاك رجل الأعمال التقدُّمي: وهو الذي أولى الأنشطة التجارية اهتمامًا أكبر من ذلك الذي أولاه مراتب الشرف، فلا كان عضوًا في نادي ناسيونال، ولا تمنَّى الانضمام إليه. كما جمعَته الصداقة بجميع الناس، وبلغ من النشاط حدًّا أرهق مَن حوله. بعد زيارته إلى راديو إليماني، أقنع پِدرو كاماتشو بأن يحضر إلى بيرو حتى يعمل حصريًّا لدى راديو سنترال، علمًا أنه رجل سريع القرار.

- «لم يكُن ذلك بالشيء الصعب، لأنهم تركوه يتضوَّر جوعًا هناك»، أوضح لي. «سوف يتولَّى المسلسلات الإذاعية، وهكذا أستطيع أن أقول لقروش سي إم كيو أن يذهبوا إلى الجحيم».

حاولتُ تسميم أحلامه، فقلتُ له إنني قد تأكَّدتُ لتوِّي من ثقل الظلّ الشديد الذي يعيب أهل بوليفيا، وإن علاقة پِدرو كاماتشو بفريق راديو سنترال سوف تكون في غاية السوء. وأردفتُ أن لهجته سوف تتساقط كالأحجار على الأسماع، وأنه سوف يرتكب الأخطاء الجسيمة في كل لحظة لأنه لا يدري شيئًا عن بيرو. ولكنه ابتسم غير مُكترِث لتنبُّؤاتي الانهزامية، فلقد حدَّثه پِدرو كاماتشو عن روح مدينة ليما وكأنه من أبناء حيّ باخو إل پوينتي، مع أنه لم يحضر إلى هنا

قطّ، أضف إلى ذلك لهجته الرائعة التي لا يعيبها شيء، وكأنها قطعة من المخمل.

- «من شأن لوسيانو پاندو وباقي المُمثِّلين أن يأكلوا ذلك الأجنبي المسكين حيًّا فيما بينهم»، قال خابيير حالمًا. «وإلَّا، سوف تغتصبه خوسيفينا سانتشيس الجميلة».

كنا في العلّية، نتجاذب أطراف الحديث، بينما رحتُ أكتب على الآلة، وأنقل أخبارًا نُشِرَت في جريدتَي إل كومِرسيو ولا پرِنسا، مُبدِّلًا الصفات والأحوال، من أجل برنامج پانامريكانو المُزمَع بثّه في الثانية عشرة. كان خابيير أعزّ أصدقائي الذي أقابله يوميًّا وإن لم يدُم لقاؤنا أطول من لحظات، حتى يبرهن كلٌّ منا على وجوده. كان كائنًا صاحب نوبات حماسة مُتقلِّبة ومتناقضة، ولكنها صادقة دائمًا. سطع نجمه في كلية الآداب بالجامعة الكاثوليكية، حيث لم يُرَ طالب أشدّ منه اجتهادًا، ولا قارئ شعرٍ أكثر منه فطنةً، ولا مُفسِّر نصوص عسيرة أثقب منه نظرًا. ولقد أعدّه الجميع شيئًا مفروغًا منه أن يتخرَّج بأطروحة عبقرية، ثم يغدو أستاذًا عبقريًّا، وينبغ بالقدر نفسه في الشعر والنقد. غير أنه، ذات يوم، وبلا أدنى تفسير، خيَّب آمال الجميع، فهجر الأطروحة التي كان يعمل عليها، وتخلَّى عن الأدب وعن الجامعة الكاثوليكية، ثم التحق بجامعة سان ماركوس، وسجَّل نفسه طالبًا في قسم الاقتصاد. كان كلّما سأله أحدهم عن السبب الذي دفعه إلى ذلك الانشقاق يعترف (أو يمزح) قائلًا إن الأطروحة التي عمل على كتابتها قد فتحَت عينَيْه. كان يُفترَض بالأطروحة أن تحمل عنوان: **الأقوال المأثورة في أعمال الكاتب ريكاردو الما**. ولقد اضطُرّ خابيير إلى قراءة عمل المُؤلِّف الذي يُدعَى **الموروث البيروفي** بالعدسة المُكبِّرة حتى يقتنص الأمثال الواردة فيه. تمكَّن خابيير من تعبئة جارور كامل بالبطاقات الحافلة

بالمعلومات الغزيرة، وهو الباحث الدقيق صاحب الضمير اليقظ. وذات صباح، أضرم النار في الجارور الذي يضمّ البطاقات في إحدى الأراضي الخلاء، بينما رحنا نرقص معًا كما يليق بقبائل الأپاتشي حول ألسنة اللهب بما حوَت من فقه اللغة. استقرَّ على أنه يمقت الأدب، وأنه حتى الاقتصاد أحبّ إليه من الأدب. أصبح خابيير مُتدرِّبًا لدى مصرف سنترال دي ريسيربا، ولطالما وجد ذريعةً ليمرّ براديو پانامريكانا كل نهار. أما كابوس المأثورات، فلقد خرج منه بتلك العادة التي جعلَته يتحفني بالأقوال المأثورة بمناسبة وبغير مناسبة.

كانت مفاجئتي شديدة حين عرفتُ أن الخالة خوليا لم تسمع بكاتب السيناريو پِدرو كاماتشو قطّ، مع أنها من بوليفيا، وعاشَت في مدينة لا پاس. ثم أوضحَت لي أنها لم تستمع إلى مسلسل إذاعي واحد، ولم تضع قدمًا في المسرح منذ أن لعبَت دور الشفق في باليه **رقصة الساعات**، عامَ تخرَّجَت من مدرسة الراهبات الأيرلنديات («إياك وأن تجرؤ على سؤالي كَم عامًا مضى منذ ذلك الحين يا ماريتو!»). مضينا في اتجاه سينما بارّانكو سيرًا على الأقدام، من بيت الخال لوتشو الواقع في نهاية جادة أرمينداريس. فرضَت عليَّ الدعوة بنفسها ظهيرة ذلك اليوم، بالطريقة الأشدّ مكرًا. وافق ذلك يوم الخميس الذي أعقب وصولها. لم أجد طرافةً في احتمال أن أغدو ضحية نكاتها البوليفية مرة أخرى. وعلى الرغم من ذلك، فلم أرغب في التغيُّب عن الغداء الأسبوعي. آملتُ ألّا أجدها، ففي عشية اليوم السابق - علمًا أن ليلة الأربعاء كانت مُخصَّصة لزيارة زوجة خالي غابي - سمعتُ الخالة أورتينسيا وهي تعلن بنبرة المُطَّلعة على أسرار الآلهة:

- «خلال أول أسبوع لها في ليما، خرجَت أربع مرات، برفقة

خاطب جديد في كل مرة. بل إن واحدًا من الرجال الأربعة مُتزوِّج. يا للمُطلَّقة الساهية الداهية!».

وصلتُ إلى بيت الخال لوتشو، بعد برنامج پانامريكانو الذي أُذيع في الثانية عشرة، فوجدتُها مع واحد من خُطَّابها على وجه التحديد. شعرتُ بلذة الانتقام حلو المذاق عندما دلفتُ إلى الصالة فوجدتُ پانكراسيو، أحد أبناء خال جدّتي من الدرجة الأولى، وألفيتُه جالسًا معها، ناظرًا إليها بعينَيْن تليقان بغزاة القلوب، غارقًا في الهزل ببدلته التي عفا عليها الزمن، والبابيون الذي لفّه حول عنقه، وزهرة القرنفل التي وضعها في عروة البدلة. كان الخال پانكراسيو قد ترمَّل منذ قرون، وبات يمشي فاتحًا ساقَيْه وكأنهما عقربا الدقائق والساعات يشيران إلى العاشرة وعشر دقائق. في إطار العائلة، كانت الألسنة تلوك زياراته بخبث، وهو الذي لم يخجل من قرص الخادمات على مرأى من الجميع. كان يصبغ شعره، ويستخدم ساعة جيب تتدلَّى من سلسلة مُفضَّضة، ويُشاهَد وهو يتغزَّل بالمُوظَّفات على نواصي شارع أونيون يوميًّا في السادسة مساءً. ملتُ على البوليفية حتى أقبِّلها، فهمستُ في سمعها قائلًا، بكل ما في العالَم مِن سخرية: «أي انتصار عظيم يا خوليتا!»، فأومأت غامزةً بعينها.

وعلى الغداء، ألقى الخال پانكراسيو خطبة رنانة في الموسيقى الكريوليَّة التي كان خبيرًا فيها، ولطالما قدَّم عزفًا منفردًا على طبل الكاخون خلال الاحتفالات العائلية. ثم التفت إليها لاعقًا شفتَيْه كالقطط، قائلًا: «بالمناسبة، يجتمع أفراد نادي فيليپي پينغلو في ليالي الخميس، بحيّ لا بيكتوريا، هناك في قلب الكريوليَّة. أتودّين الاستماع إلى قليل من الموسيقى البيروفية الحقيقية؟».

ومن دون أن تتردَّد ثانية واحدة، أجابَت الخالة خوليا مشيرةً إليَّ، راسمةً على وجهها أمارات الغمّ التي زادَت الطين بلَّة: «يا له

من شيء مؤسف! لقد دعاني ماريتو إلى السينما». فانحنى الخال پانكراسيو، بروح رياضية، قائلًا: «ها أنا أفسح الطريق للشباب».

في وقت لاحق، بعد أن رحل، وظننتُ أنني قد نجوتُ بنفسي، سألَتها زوجة خالي أولغا: «هل أخبرتِه بأمر السينما لمُجرَّد أن تتخلَّصي من ذلك العجوز المتصابي؟». ولكن الخالة خوليا تداركَت باندفاع: «لا شيء من ذلك يا أختي، فأنا أتحرَّق شوقًا لمشاهدة الفيلم المعروض في سينما بارَّانكو، المُصنَّف على أنه: لا يليق بالآنسات». التفتَت إليَّ، بينما رحتُ أنصت كيف يتقرَّر مصيري الليلي، ثم أردفَت مُزيِّنةً حديثها بالزهرة الرائعة الآتية، كي تطمئنني: «لا تقلق بشأن النقود يا ماريتو، فأنا أدعوك إلى السينما».

وإذا بنا هناك، نسير في وادي أرمينداريس المعتم، وجادة غراو الفسيحة، في طريقنا إلى مشاهدة الفيلم الذي اتَّضح أنه، فوق كل شيء، فيلمٌ مكسيكي يُدعَى **أمٌّ وعاشقة**.

- «ليس الجانب السيئ في طلاق المرأة أن جميع الرجال يحسبون أنفسهم مُضطرّين إلى مراودتها عن نفسها، بل ظنّ الرجال بأن الرومانسية أصبحَت بلا ضرورة، لأنها امرأة مُطلَّقة، فلا يتودَّدون إليها، ولا يبادرونها بكلمات الغزل الرقيق. بل إنهم يراودونها عن نفسها بلا أي مُقدِّمات، بأشدّ الطرائق سوقية. الأمر الذي يجعلني أستشيط غضبًا. ولذا أفضِّل الذهاب إلى السينما برفقتك، بدلًا من تلبية دعوة آخرين إلى الرقص»، أخبرَتني الخالة خوليا.

شكرتُها كثيرًا على ما قالت عني.

- «إنهم من الغباء بحيث يحسبون كل مُطلَّقة امرأة من نساء الشوارع»، تابعَت حديثها، من دون أن يبدو عليها الانتباه إلى ما قلت. «إنهم لا يفكِّرون إلَّا في ''أمورٍ'' بعينها، مع أنها ليسَت بالأمور الجميلة، بل إن الجمال يكمن في الحبّ، أليس كذلك؟».

أوضحتُ لها أن الحبّ لا وجود له، بل إنه من اختراع الشاعر الإيطالي الذي يُدعَى بِتراركا، والتروبادور البروڤنساليين[١]. وقلتُ إن ما يحسبه الناس فيضًا من العواطف الرائقة، ودفقةً من المشاعر النقية، لا يعدو أن يكون رغبةً غريزية تليق بالقطط في موسم التزاوج، رغبة تتوارى خلف الكلمات الجميلة وأساطير الأدب. لم أؤمن بشيء مما قلت، ولكني أردتُ الظهور بمظهر الشخص الجدير بالاهتمام. أما نظريتي الإيروتيكية-البيولوجية، فلقد أوقعَت الخالة خوليا في ارتياب شديد: هل كنتُ أصدِّق تلك الحماقة بحقّ؟

- «أنا مُعترِض على الزواج»، قلتُ لها، بكل ما وسعني من حذلقة. «فأنا من أنصار ذلك الذي يطلقون عليه الحبّ الحرّ. ولكن، لو توخَّينا الأمانة، لوجب علينا أن نطلق عليه الجماع الحرّ، ببساطة».

- «أتقصد بالجماعِ تلك "الأمور"؟»، ضحكَت. ولكنها ما لبثَت أن رسمَت على وجهها أمارات الإحباط. «في زمني، كان الفتية ينظمون الشعر في الفتيات، ويرسلون إليهن الأزهار، ويستغرقون أسابيع قبل أن تواتيهم الجرأة على تقبيلهن. كم ابتُذِل الحبّ وسط شباب اليوم يا ماريتو!».

وأمام شباك التذاكر، كادَت تنشب بيني وبينها مشادة، إذ اختلفنا على مَن يشتري تذاكر الدخول، وبعد أن تحمَّلنا ساعةً ونصف مِن المُمثِّلة دولورِس دِل ريو التي راحَت تطلق الآهات وتنهل من اللذة وتعانق وتنتحب وتعدو في الأدغال بشعرها المتطاير في مهبّ الريح،

---

(١) تروبادور: اسم أُطلِق على مجموعة من الشعراء والموسيقيين الذين كانوا يُؤلِّفون أعمالهم ويؤدّونها في العصور الوسطى. أما پروڤنس، فهي منطقة تقع في جنوب شرق فرنسا. (المترجم)

عدنا إلى بيت الخال لوتشو، فرجعنا سيرًا على الأقدام أيضًا، والرذاذ يبلِّل شعرنا وثيابنا. عند ذاك، تطرَّقنا إلى پِدرو كاماتشو مرة أخرى. هل كانت مُتأكِّدة أنها لم تسمع به في أي وقت بحقّ؟ لأنه من مشاهير بوليفيا، حسبما قال خينارو الابن. بالفعل، ما كانت تعرف حتى اسمه. طاف بخلدي أن خينارو قد تعرَّض للاحتيال، أو ربما كان «مصنع المسلسلات الإذاعية البوليفي المزعوم» مُجرَّد اختراع تفتَّق عنه ذهنه على سبيل الدعاية لترويج كاتب ضحل من السكان الأصليين. وبعد مضي ثلاثة أيام، التقيتُ پِدرو كاماتشو بلحمه وشحمه.

كانت مشادة قد وقعَت بيني وبين خينارو الأب منذ وقت قصير، لأن پاسكوال، الذي يميل إلى الفظائع ميلًا عصيًّا على السيطرة، قد أفرد نشرة الحادية عشرة بالكامل لزلزال ضرب أصفهان. لم ينزعج لأن پاسكوال قد أغفل أخبارًا أخرى حتى يسرد بأدقّ التفاصيل كيف تعرَّض الإيرانيون - الناجون بحياتهم من الانهيارات الأرضية - لهجمات الأفاعي التي برزَت على السطح ثائرةً، مُطلقةً فحيحها، بعد أن دُكَّت جحورها. وإنما انزعج خينارو الأب لأن الزلزال قد وقع منذ أسبوع مضى. كان عليَّ الإقرار بأنه لم يعدم الأسباب الوجيهة للانزعاج، ونعتُّ پاسكوال بأنه عديم المسؤولية، مُنفِّسًا بذلك عما في صدري. من أين جاء بذلك الخبر البائت؟ من مجلة أرجنتينية. ولماذا فعل شيئًا عبثيًّا من هذا القبيل؟ نظرًا إلى غياب أخبار الساعة المهمة، ولأن الخبر كان مُسلِّيًا على الأقل. أوضحتُ له أننا لا نتلقَّى أجورنا حتى نسلِّي المستمعين، وإنما لنقدِّم موجز أخبار اليوم، فأومأ پاسكوال برأسه إيماءة استرضاء، وإن عارضني بحجته التي لا يمكن دحضها: «الأمر يا دون ماريو أن كلينا يملك مفهومًا مختلفًا عن الصحافة». هممتُ بالردّ قائلًا إنه لو أصرّ على الاستمرار في تطبيق مفهومه عن الصحافة كلّما أوليته ظهري، ذلك المفهوم الذي يتعمَّد

الإثارة، فلن يلبث كلانا أن يجد نفسه في الشارع، وإذا بخيال غير مُتوقَّع يظهر على باب العلّية، كائن صغير ضئيل، يقف على مشارف الحدّ الفاصل بين قصر القامة والتقزُّم. كان له أنف ضخم، وعينان مفعمتان بحيوية استثنائية، يهدر فيهما بريق مفرط الشدّة. جاء يرتدي ثيابًا سوداء اللون: بدلة تنمّ عن الاستهلاك الشديد، وقميصًا وبابيون كليهما مُلطَّخ. وفي الوقت نفسه، كانت الطريقة التي ارتدى بها ثيابه تشي بأن في نفسه شيئًا أنيقًا، رصينًا، صارمًا، مثله كمثل السادة الذين يظهرون في الصور العتيقة، أولئك الذين يبدون كالأسرى داخل معاطفهم الطويلة المُنشَّاة وقبعاتهم شديدة الضيق. وبالنظر إليه، بشعره الأسود الدهني الذي يصل إلى كتفَيْه، فربما كان في أي عمرٍ ما بين الثلاثين والخمسين عامًا. أما لفتاته وحركاته وتعابير وجهه، فبدَت وكأنها تقف على أقصى النقيض من التلقائية والعفوية، ذلك أنها لا تلبث أن تحمل المرء على التفكير في الدمى الناطقة، وخيوط الدمى المُتحرِّكة. حيَّانا بانحناءة مُهذَّبة من رأسه. وفي رصانة استثنائية بقدر شخصه، قدَّم نفسه قائلًا:

- «سيدَي، لقد جئتُ أسرق منكما آلة كاتبة. أغدو مُمتنًّا للمساعدة. أي الآلتَيْن أفضل؟».

قالها مشيرًا بإصبع السبابة التي تأرجحَت بين آلتي وآلة پاسكوال. ومع أنني قد ألفتُ التفاوت بين الصوت والمظهر، بفضل زياراتي إلى راديو سنترال، فلقد ذهلتُ لأن صوتًا رصينًا رخيمًا وإلقاءً مثاليًّا إلى هذا الحدّ قد يصدران من جسد في غاية الضآلة وقوام في غاية الهزال. في ذلك الصوت، بدا وكأنما الحروف كلها تسير في موكب لا يحيد عنه حرف واحد، وتسير معها جزيئات الحروف وذرَّاتها، وحتى أصوات الأصوات. بصبر نافد، ومن دون أن ينتبه إلى المفاجأة التي أثارها في نفسَيْنا بمظهره وجرأته وصوته، مضى

يتفحَّص الآلتَيْن الكاتبتَيْن وكأنه يتشمَّمهما، حتى استقرَّ على آلتي العتيقة الضخمة من طراز رِمينغتون، تلك المركبة الجنائزية التي لم تَنَل منها الأعوام، فكان پاسكوال أول من جاء بردة فعل:

- «هل أنت لصٌّ أم ماذا؟»، سأل مُؤنِّبًا، فلاحظتُ أنه يحاول تعويضي عن زلزال أصفهان. «أتظنّ أنك سوف تأخذ الآلة الكاتبة الخاصة بالخدمة الإخبارية بكل هذه البساطة؟».

- «الفن أهمّ من خدمتك الإخبارية، أيها **التراسغو!**» - رماه ذلك الشخص بكلامه وهو يرمقه كمن ينظر إلى حشرة دهسَتها الأقدام، ثم استأنف العملية.

وأمام نظرة الذهول التي رشقه بها پاسكوال، الذي لا شكّ أنه مضى يخمِّن معنى كلمة «**تراسغو**» (مثلما فعلتُ أنا أيضًا)، حاول الزائر أن يرفع آلة الرِمينغتون. تمكَّن من رفع الآلة الثقيلة بمشقَّة هائلة، فانتفخَت العروق في عنقه، وكادَت عيناه تخرجان من محجرَيْهما. اصطبغ وجهه باللون القرمزي، وتفصَّد جبينه الضئيل عرقًا، غير أنه لم ينثنِ عما هو فاعل، بل إنه مضى يكزّ على أسنانه، مُترنِّحًا. أفلح في التقدّم خطوات نحو الباب، حتى اضطُرّ إلى الاستسلام: وإلَّا كان ذلك الحِمْل سيطرحه أرضًا لو استمرّ ثانية أخرى. ترك الرِمينغتون فوق مكتب پاسكوال، لاهثًا. غير أنه ما كاد يستردّ أنفاسه، وهو غافل تمام الغفلة عن الابتسامات التي رسمها الاستعراضُ على وجهَيْنا أنا وپاسكوال (الذي رفع إصبعه إلى صدغه عدة مرات في إشارة إلى جنون الرجل)، حتى وبَّخنا في حزم:

- «دعا عنكما اللامبالاة يا سيدَيّ! قليلًا من التضامن البشري! مُدَّا لي يد المساعدة».

قلتُ له إنني في غاية الأسف، ولكنه لن يتمكَّن من الخروج بتلك الرِمينغتون ما لم يمرّ على جثة پاسكوال أولًا، ثم جثتي. أصلح

الرجل الهزيل وضع البابيون الذي تحرَّك من موضعه قليلًا تحت وطأة الجهد المبذول. وأمام مفاجأتي، رسم أمارات الضيق على وجهه، وقد ظهر عليه أنه لا يملك أدنى أثر لحسّ الدعابة، ثم أجاب وهو يومئ بنبرة خطيرة:

- «كريم الأصل لا يستنكف أبدًا عن قبول التحدِّي وخوض المبارزة. حدِّدا المكان والزمان يا سيدَيّ».

وإذا بظهور خينارو الابن، الذي أرسلَته العناية الإلهية إلى العلّية، يُحبِط ما بدا وكأنه اتفاق على خوض مبارزة. دلف إلى المكان في تلك اللحظة، بينما الرجل صعب المراس يحاول أن يطوِّق آلة الرِمينغتون بذراعَيْه مرة أخرى، وبشرته تصطبغ باللون الأرجواني.

- «مهلًا يا بِدرو، سأساعدك بنفسي»، قال، ثم انتزع الآلة من بين ذراعَيْه كما لو كانت علبة ثقاب. وبالنظر إلى وجهَيْنا، أنا وپاسكوال، أدرك أنه مدين لنا بتفسير. فاسترضانا باسمًا: «لا داعي للحزن، فلم يمُت أحد. قريبًا يعوِّضكما أبي عن الآلة الكاتبة».

- «نحن زائدان عن الحاجة!» - قلتُ مُحتجًّا، لحفظ ماء الوجه

- «لقد ألقيتم بنا في هذه العلّية الرثة، وأخذتم مكتبي لصالح المحاسب، وها أنتم الآن تأخذون آلة الرِمينغتون، من دون أن تخطروني حتى بالأمر».

- «لقد حسبنا السيدَ لصًّا»، أيَّدني پاسكوال. «دخل إلى المكان مُتغطرِسًا، وانطلق يوجِّه إلينا السباب».

- «لا مكان للخصومة بين الزملاء»، قال خينارو الابن وكأنه سليمان الحكيم، بعد أن وضع آلة الرِمينغتون على كتفه، بينما لاحظتُ أن الرجل الضئيل يصل إلى طيات سترته بالتحديد. «ألم يأتِ أبي حتى يقدِّمكم؟ إذن، فلأقدِّمكم بنفسي، ولتعمّ السعادة».

وما هي إلَّا ثانية حتى مدَّ الرجل الهزيل إحدى ذراعَيْه النحيفتَيْن بحركة سريعة أوتوماتيكية، قاطعًا بضع خطوات نحوي، وقدَّم لي يدًا صغيرة تليق بطفل، مُحيِّيًا بانحناءة مُهذَّبة أخرى، قائلًا بصوتِ مُغنِّي التينور الجميل:

- «أقدِّم لك نفسي: صديقك، پدرو كاماتشو، بوليفي وفنان».

ثم كرَّر اللفتة والانحناءة والعبارة نفسها على پاسكوال، الذي ظهر عليه بوضوح أنه يعيش لحظة من لحظات التشوّش المطبق، ويعجز عن البتّ في أمر الرجل الهزيل، إذ لم يدرِ إن كان يستهزئ بنا أم يتصرَّف بطبيعته. شدّ پدرو كاماتشو على يدَيْنا بحفاوة، ثم التفت إلى فريق الخدمة الإخبارية كاملًا. ومن موضعه وسط العلّية، في ظلّ خينارو الابن الذي تراءى من خلفه كالعملاق وأخذ يراقبه في جدية شديدة، رفع پدرو كاماتشو شفته العليا، قابضًا وجهه بحركة كشفَت أسنانه الضاربة إلى الصفرة، راسمًا شبح ابتسامة، أو صورة كاريكاتورية لها. استغرق بضع لحظات قبل أن ينعم علينا بهذه الكلمات الموسيقية، التي جاءت مصحوبة بلفتة ساحرٍ يلقي على المُتفرِّجين تحيةَ الوداع:

- «لا أضمر لكما أحقادًا، فعهدي بالناس ألَّا يتفهَّموا. وداعًا إلى الأبد يا سيدَيّ!».

وإذا هو يختفي وراء باب العلّية، ويقفز قفزات قصيرة تليق بقزم حتى يلحق برجل الأعمال التقدُّمي الذي ابتعد بخطى واسعة، حاملًا آلة الرِمينغتون على كتفه، ماضيًا صوب المصعد.

٢

في واحد من تلك النهارات المشمسة، نهارات ربيع ليما التي يشرق فيها الوردُ أذكى عطرًا، وأزهارُ الغرنوقي أكثر تفتُّحًا، والجهنميات أشدّ تموُّجًا، فتح عينَيْه طبيب المدينة الشهير - دكتور ألبِرتو دي كينتيروس، صاحب الجبين العريض والأنف المعقوف والنظرة الثاقبة والروح المستقيمة الصالحة - وأخذ يتمطَّى في بيته الفسيح الواقع بمنطقة سان إسيدرو. ومن خلال الستائر، رأى الشمس تُذهِّب عشب الحديقة المُعتنَى بها المُسوَّرة بسياجات من نبات الكروتو، ورأى نقاء السماء وبهجة الأزهار، وسرى إليه ذلك الإحساس الطيب الذي تبثّه في النفس ثماني ساعات من النوم المنعش، وراحة الضمير.

كان يوم سبت، ولذا فهو لن يذهب إلى العيادة - ما لم يطرأ تعقيد في اللحظة الأخيرة على حالة السيدة صاحبة التوائم الثلاثة - ويمكنه أن يمضي النهار في ممارسة قليل من التمارين الرياضية والذهاب إلى الساونا قبل زفاف إليانيتا. كانت زوجته وابنته في أوروبا، تغذِّيان الروح وتجدِّدان الثياب، ولن تعودا قبل مضي شهر. لو كان رجل آخر مكانه - له ما لألبِرتو دي كينتيروس من الثراء والوسامة وشيب الفودَيْن والرقيّ والأناقة، تلك الأشياء التي كانت توقظ نظرات الطمع حتى في السيدات العفيفات - لاغتنم العزوبية

المُؤقَّتة ليحظى ببعض اللهو. ولكن ألبِرتو دي كينتيروس رجل لا يفرط في الانجذاب إلى القمار ولا تنانير النساء ولا الكحول. ولقد ذاع وسط معارفه - الذين تبلغ أعدادهم آلافًا مُؤلَّفة - أن: «مواطن ضعفه العلم والأسرة والألعاب الرياضية».

أمر بإعداد الفطور. وفي تلك الأثناء، اتَّصل بالعيادة، فأخبره الطبيب المناوب بأن السيدة صاحبة التوائم الثلاثة قد أمضَت ليلة هادئة، وبأن نزيف المرأة التي خضعَت لجراحة استئصال الورم الليفي قد انقطع. أصدر تعليماته طالبًا الاتصال به في نادي رِميخيوس الرياضي في حال طرأ شيء خطير. وإلّا، ففي بيت شقيقه روبِرتو خلال الغداء، كما أخبر الطبيب المناوب بأنه سوف يمرّ بالعيادة في ساعة المغيب. وعندما أحضر إليه كبير الخدم فطوره المُؤلَّف من عصير البابايا والقهوة الداكنة والتوست المُحلَّى بعسل النحل، كان ألبِرتو دي كينتيروس قد حلق ذقنه وارتدى سروالًا رماديًّا من قماش الكوردوروي، وكنزة خضراء ذات ياقة عالية، وانتعل صندل موكاسين بلا كعب. تناول الفطور وهو يلقي نظرة شاردة على الكوارث والمؤامرات الصباحية الواردة في الصحف، ثم أخذ حقيبته الرياضية وغادر البيت. توقَّف بضع ثوانٍ في الحديقة مُربِّتًا على بوك، الكلب الفوكس تيرير المُغتَرّ بنفسه، الذي ودَّعه بنباح مفعم بالمودة.

ولمَّا كان نادي رِميخيوس الرياضي يبعُد عن البيت مُربَّعات سكنية قليلة، ويقع بشارع ميغيل داسو، فلقد راق لدكتور كينتيرو قطع المسافة سيرًا على قدمَيْه، ببطء، وهو يردّ تحيات الجيران بمثلها، ويراقب حدائق البيوت التي كانت في تلك الساعة قد رُوِيَت وشُذِّبَت أشجارها. تعوَّد أن يمرّ بمكتبة كاسترو سوتو للحظات حتى يختار بعض الكتب الأكثر مبيعًا. وعلى الرغم من الساعة المُبكِّرة، فها هم الفتيان أمام مطعم دابوري بأقمصتهم المفتوحة وشعرهم المُتناثِر،

أولئك الفتيان الذين لا يتغيَّبون أبدًا. راحوا يتناولون المُثلَّجات جالسين فوق درجاتهم البخارية أو مصدَّات سياراتهم الرياضية، بينما هم يطلقون النكات، ويرتِّبون حفلة الليلة. بادروه بالتحية في احترام. ولكنه ما كاد يتركهم خلفه حتى تجرَّأ أحدهم وأسدى إليه واحدة من النصائح التي كثيرًا ما تُكرَّر عليه في النادي الرياضي، تلك النكات الأبدية التي يُراد بها السخرية من عمره ومهنته، فيتقبَّلها الطبيب صبورًا رائق المزاج: «لا ترهق نفسك كثيرًا يا دكتور، فكِّر في أحفادك!». كاد لا يسمعه، إذ مضى يتخيَّل جمال إليانيتا بثوب العروس الذي صمَّمه من أجلها بيتُ الأزياء الباريسي كريستيان ديور. لم يزدحم النادي الرياضي بالرواد نهارَ ذلك اليوم. إذ خلا المكان إلَّا من المُدرِّب كوكو، واثنَيْن من المولعين برفع الأثقال، أوميًّا الأسود وسارمينتو العصفور: ثلاثة جبال لهم من العضلات مثل ما لعشرة من الرجال العاديين. لا بدّ أنهم قد وصلوا منذ وقت غير طويل، فهم ما زالوا يؤدّون تمارين الإحماء.

- «ها هو طائر اللقلق آتٍ!»، مدّ له كوكو يده.

- «أما زلتَ تمشي على قدمَيْك، برغم عمرك الذي يُقدَّر بالقرون؟»، حيَّاه أوميًّا الأسود.

أما العصفور، فاكتفى بطقطقة لسانه ورفع إصبعَيْه بتحيته المعهودة التي استوردها من تكساس. كان يروق لدكتور كينتيروس ما يلقاه من رفاق النادي الرياضي مِن مظاهر الألفة ورفع الكلفة. وكأنهم، إذا رأوا بعضهم بعضًا عراة، وتصبَّب عرقهم جنبًا إلى جنب، تساوَت رؤوسهم ونشأ بينهم رابط أخوي حيث تتلاشى فوارق العمر والمكانة. أجابهم بأنه رهن أوامرهم لو احتاجوا إلى خدماته، وطلب منهم أن يسرعوا إلى عيادته مع أول بوادر الدوار أو الوحم، فهو مُستعِدّ بقفازه المطاطي ليتحسَّس مناطقهم الحميمية.

- «بدّل ثيابك واحضر للإحماء قليلًا»، قال له كوكو، الذي شرع يقفز في المكان مرة أخرى.

- «لو أُصِبتَ بنوبة قلبية، فلا ينتظرك ما هو أشدّ من الموت أيها العجوز!»، قال العصفور مُشجِّعًا، وهو يجاري كوكو في وتيرة التمارين.

- «راكبُ الأمواج في الداخل»، سمع أوميًّا الأسود يقول وهو داخل إلى حجرة تبديل الملابس.

وبالفعل، هناك وجد ابن أخيه ريتشارد ينتعل الحذاء، وقد ارتدى ثياب التدريب الزرقاء. كان يفعلها على مضض، بيدَيْن مرتخيتَيْن كالأسمال، في حين ارتسمَت على وجهه أمارات المرارة والغياب. ظلّ ينظر بعينَيْن زرقاوَيْن في منتهى الشرود، ولا مبالاة مطبقة، إلى الحدّ الذي جعل دكتور كينتيروس يسائل نفسه، لعلّه صار خفيًّا عن الأنظار.

- «وحدهم العشّاق يصيبهم مثل هذا الشرود»، اقترب منه مُداعِبًا شعره. «انزل عن سطح القمر يا ابن أخي».

- «معذرةً يا عمي»، أفاق ريتشارد وتضرَّج وجهه بشده، كما لو أنه قد بوغِت وهو يرتكب فعلةً خبيثة. «كنتُ مستغرقًا في التفكير».

- «أودّ لو علمتُ في أي أمور خبيثة كنتَ تفكِّر»، ضحك دكتور كينتيروس وهو يفتح الحقيبة، ويتخيَّر خزانةً، ويبدأ في خلع الثياب. «لا بدّ أن بيتك في حالة فوضى عارمة. هل سيطر التوتُّر على إليانيتا؟».

نظر إليه ريتشارد نظرة كراهية مباغتة، فتساءل الطبيب: «أي شيء لدغ ذلك الفتى!». ولكن ابن أخيه رسم على وجهه ما يشبه الابتسامة وهو يبذل جهدًا ملحوظًا حتى يبدو طبيعيًّا:

- «أجل، فوضى عارمة. ولهذا جئتُ أحرق قليلًا من الدهون، حتى يحين الموعد».

خُيِّل إلى الطبيب أنه سوف يردف قائلًا: «... حتى يحين موعد الصعود إلى المشنقة». جاء صوته مُثقَلًا بالحزن. حتى قسمات وجهه، والارتباك الذي اعتراه وهو يشدّ أربطة الحذاء، وحركات جسده الحادة، كلّها أمور أظهرَت شعوره بالانزعاج والضيق الحميمي والاضطراب. لم يقدر على التركيز بعينَيْه في نقطة واحدة: إذ مضى يفتحهما ويغمضهما ويمعن النظر إلى نقطة مُحدَّدة، ثم يحوِّل عينَيْه ويعود بهما مرة أخرى ويبعدهما من جديد، كمن يفتِّش عن شيء يستحيل العثور عليه. كان أوسم فتى على وجه الأرض، وكأنه إله شاب صقله العراء - يركب الأمواج حتى في الشهور الأكثر رطوبةً من فصل الشتاء، ويبرع في كرة السلة والتنس والسباحة وكرة القدم - ولقد حبَته الرياضة قوامًا أطلق عليه أوميًّا الأسود «حلم المُخنَّثين»: إذ خلا جسده من كل أثر للدهون، بذلك الظهر العريض الذي ينساب في خطٍّ أملس وصولًا إلى خصر نحيف يليق بالدبابير، تليه ساقان طويلتان قويتان رشيقتان كان أفضل الملاكمين يمتقع أمامها من شدة الغيرة. كثيرًا ما سمع ألبِرتو دي كينتيروس ابنته تشارو مع صديقاتها وهن يعقدن المقارنات بين ريتشارد والمُمثِّل تشارلتون هيستون، ويقرِّرن أن ريتشارد أكثر وسامة وأحسن مظهرًا من المُمثِّل. كان في الفرقة الأولى بكلية الهندسة المعمارية، ولطالما كان نموذجًا يُحتذَى به، حسبما وصفه أبواه، روبِرتو ومارغاريتا: فهو طالب مجتهد، مطيع، يحسن معاملة أبوَيْه وأخته، موفور الصحة، ودود. من بين أبناء إخوته، كان ريتشارد وإليانيتا هما الأثيرَيْن لدى دكتور ألبِرتو دي كينتيروس. ولذا، فبينما هو يضع حزام الوقاية ويرتدي ثياب التدريب وينتعل الحذاء، شعر بالأسى لرؤية ابن أخيه مهمومًا إلى هذا الحدّ.

كان ريتشارد ينتظره على مقربة من غرف الاستحمام، حيث مضى ينقر خزف الجدران بأصابعه.

- «هل مِن مشكلة يا ابن أخي؟»، سأله مُتظاهِرًا بالعفوية، راسمًا ابتسامة طيبة. «هل مِن شيء يمكن لعمك أن يساعدك فيه؟».

- «لا شيء، ما الذي جعلك تفكِّر في هذا؟»، عجَّل ريتشارد بالردّ وهو يتضرَّج مرة أخرى كما يشتعل عود الثقاب. «أنا في حالة رائعة، وأشعر برغبة جارفة في الإحماء».

- «هل سلَّموا هديتي لأختك؟»، تذكَّر الطبيب فجأةً. «لقد وعدني العاملون بكاسا مورغيا أنهم سوف يسلِّمونها البارحة».

- «يا له من سوار رائع!»، طفق ريتشارد يقفز فوق البلاط الأبيض في حجرة تبديل الملابس. «لقد افتتنَت به الصبية».

- «عادةً ما تتولَّى زوجة عمك هذه الأمور، ولكني اضطُرِرتُ إلى اختيار السوار بنفسي لأنها ما زالت في جولة بأوروبا»، بدرَت من دكتور كينتيروس لفتة حانية: «إليانيتا، بثوب الزفاف، ستبدو كالملائكة».

ذلك أن إليانيتا، ابنة أخيه روبِرتو، كانت في النساء مثل ريتشارد في الرجال: فهي ذات جمالٍ يرتقي بالجنس البشري، وبالقياس إليه، تبدو التشبيهات التي تصف جمال الفتيات مُبتذَلةً، من قبيل: أسنان كاللؤلؤ، وعيون كالنجوم، وشعر كسنابل القمح، وبشرة مثل قشرة الخوخ. كانت رشيقة القوام، لها شعر داكن، وبشرة شاهقة البياض، ووجه صغير كلاسيكي الملامح، وقسمات تبدو وكأنما صنعها رسَّام مُنمنَماتٍ من الشرق، وحسنٌ يتجلَّى في كل لفتة، حتى وهي تلتقط أنفاسها. كانت تصغر أخاها ريتشارد بعام واحد، تخرَّجَت من المدرسة منذ عهد قريب، ولا يعيبها سوى خجلها الذي كان من

الشدة بحيث تعذَّر إقناعها بالمشاركة في مسابقة ملكة جمال بيرو، ما أصاب مُنظِّمي المسابقة باليأس. لم يملك شخصٌ واحد، حتى دكتور كينتيروس نفسه، أن يفسِّر الدافع الذي أفضى بها إلى الزواج مُبكِّرًا إلى هذا الحدّ، دع عنك الدافع الذي جعلها ترتبط بذلك الشخص. كان لأنتونيس الأصهب بعض الفضائل - فهو في غاية الطيبة، يحمل شهادة في إدارة الأعمال من جامعة شيكاغو، أضفْ إلى ذلك شركة الأسمدة التي سوف يرثها، والكؤوس العديدة التي حصدها في سباقات الدراجات - ولكن، وسط فتيان ميرافلوريس وسان إسيدرو الذين لا يُحصَى لهم عدد، أولئك الذين تغزَّلوا بإليانيتا وكانوا على استعداد لارتكاب الجرائم في سبيل الزواج بها، لا شكّ أن أنتونيس أقلهم حظًّا من الوسامة وأثقلهم ظلًّا وأشدّهم حماقة (شعر دكتور كينتيروس بالخزي لأنه قد سمح لنفسه بإصدار مثل هذا الحكم على الفتي الذي سوف يغدو في حكم ابن أخيه في غضون ساعات قليلة).

- «يا عمي، أنت أبطأ من ماما في تبديل الثياب!»، أخذ ريتشارد يقول مُتذمِّرًا، بين قفزة وأخرى.

دلفا إلى صالة التدريبات، بينما راح كوكو - الذي كان التعليم بالنسبة إليه رسالةً أكثر منه مهنةً - يملي الإرشادات على أوميًّا الأسود، مشيرًا إلى بطنه، مُدليًا بمُسلَّمته الفلسفية الآتية:

- «متى أكلت، ومتى عملت، ومتى ذهبت إلى السينما، ومتى تحسَّستَ امرأتك، ومتى شربت، وفي كل لحظة من لحظات حياتك، بل وحتى في الكفن إن استطعت: أحكِم شدّ بطنك!».

- «عشر دقائق من الإحماء لإدخال البهجة على الهيكل العظمي أيها المومياء!»، أمر المُدرِّب.

وفيما هو ينطّ الحبل مع ريتشارد، ويحسّ بحرارة مُحبَّبة إلى النفس تسري في جسده، جعل يفكِّر أن بلوغ الخمسين من العمر لم

يكُن بالشيء المُروِّع ما دام المرء في مثل هذه الحال. مَن بين أترابه يملك بطنًا أملس وعضلات نشيطة مثل ما يملك؟ ليس هناك ما يدعو إلى الذهاب بعيدًا، فهذا أخوه روبِرتو، يبدو وكأنه يكبره بعشرة أعوام، ببطنه الممتلئ وجسده المكتنز وظهره الذي انحنى قبل الأوان، مع أنه يصغر دكتور كينتيروس بثلاثة أعوام. مسكين روبِرتو، لا بدّ أنه حزين لزواج إليانيتا، قرة عينه، فزواج الابنة ضربٌ من الفقدان. حتى تشارو ابنة دكتور كينتيروس، سوف تتزوَّج في أي لحظة - فخطيبها، تاتو سولدِبيًّا، على وشك الحصول على شهادة الهندسة عما قريب - ومتى تزوَّجَت ابنته، شعر دكتور كينتيروس بالأسى والتقدُّم في السنّ بدوره. مضى ينطّ الحبل من دون أن يتعثَّر أو يبدِّل الإيقاع، بتلك السلاسة التي يسبغها المراس، بينما راح يبدِّل قدمًا بأخرى، ويعقد يدَيْه ثم يردّهما وكأنه لاعب جمباز بارع. في حين رأى ابن أخيه على صفحة المرآة يقفز بسرعة مفرطة، في طيش، ويتعثَّر في الحبل. كزَّ ريتشارد على أسنانه، والعرق يلتمع فوق جبينه، بينما أحكم إغماض عينَيْه وكأنه يحاول الإمعان في التركيز. لعلها واحدة من المشكلات التي يقع فيها المرء بسبب تنانير النساء؟

- «كفاكما نط الحبل أيها الضعيفَيْن!»، لم يغيبا عن ناظرَي كوكو الذي كان يحسب وقت التمارين، مع أنه يرفع الأثقال مع كل من العصفور وأوميًّا الأسود. «تمرين ثني الجذع ثلاث مرات! على مُؤخِّرتك أيها الأحفورة!».

كانت تمارين البطن موطن قوة دكتور كينتيروس، فهو يؤدِّيها بسرعة فائقة، ويداه على عنقه، واضعًا اللوح فوق الدرجة الثانية، رافعًا ظهره فوق الأرض، وهو يكاد يمسّ جبينه بركبتَيْه، ثم ينتظر دقيقةً واحدة مُمدَّدًا بعد كل تمرين يؤدِّي فيه الحركة ثلاثين مرة، ويلتقط أنفاسه بعمق. أدَّى الحركة تسعين مرة، ثم جلس مُتحقِّقًا من

تفوّقه على ريتشارد، راضيًا عن ذاته. الآن أحسَّ بقلبه يخفق سريعًا، والعرق يتصبَّب من رأسه حتى قدمَيْه.

- «ما زلتُ لا أفهم السبب الذي يدفع إليانيتا إلى الزواج بأنتونيس الأصهب»، سمع نفسه يقول بغتة. «ماذا رأت فيه؟».

جاء قوله غير مُوفَّق، وما هي إلَّا ثانية حتى ندم على ما صدر منه، في حين لم تبدُ المفاجأة على ريتشارد، الذي راح يلهث بعد أن انتهى لتوّه من تمارين البطن، وأجابه كالمازح:

- «يُقال إن الحبّ أعمى يا عمي».

- «إنه فتى ممتاز، ومن المُؤكَّد أنه سوف يجعلها في غاية السعادة»، تدارك دكتور كينتيروس، في شيء من التحفّظ - «قصدتُ أن خيرة شباب ليما كانوا من المعجبين بأختك. تصوَّر أنها قد ازدرَتهم جميعًا حتى تنتهي بها الحال وقد قبلَت بالأصهب. إنه فتى صالح، ولكنه في غاية الـ... على كل حال...».

- «في غاية الحماقة، أهذا ما تعنيه؟»، ساعده ريتشارد.

- «ما كنتُ أقولها بمثل هذه القسوة»، مضى دكتور كينتيروس يتنشَّق الهواء ويطلقه، بينما هو يفتح ذراعَيْه ويضمّهما. «غير أنه يبدو على قدر من البلاهة، في حقيقة الأمر. لو ارتبط بأخرى لكان زوجًا مثاليًّا. ولكن المسكين لا يُقارَن بإليانيتا، بكل ما لها من جمال وحيوية»، ضاق بصراحته، فأردف. «اسمع يا ابن أخي، لا تأخذ كلامي على محمل الإساءة»

- «لا تقلق يا عمي»، ابتسم له ريتشارد. «الأصهب طيب، وما دامت الفتاة قد اهتمَّت به، فلديها ما يدعو إلى ذلك».

- «تمرين الانحناء الجانبي ثلاث مرات، أيها العاجزَيْن!»، زمجر كوكو، رافعًا ثمانين كيلوغرامًا فوق رأسه، منتفخًا كما ينتفخ الضفدع. «أحكم شدّ بطنك، ولا تنفخه!».

فكَّر دكتور كينتيروس أنه من شأن التمارين أن تُنسِي ابن أخيه مشكلاته. وعلى الرغم من ذلك، فبينما هو يؤدِّي حركة الانحناء الجانبي، رأى ريتشارد يتمرَّن بسخط مُتجدِّد: إذ انقبض وجهه مرة أخرى وارتسمَت عليه أمارات الغمّ وحدّة المزاج. تذكَّر مرضى الأعصاب الذين يكثُر عددهم في نطاق عائلة كينتيروس، وفكَّر أنه ربما كان ابن روبِرتو الأكبر قد مُنِي بسوء الحظّ الذي جعله يحتفظ بذلك التقليد العائلي في الأجيال الجديدة. ثم التهى عن ذلك مُفكِّرًا أنه، برغم كل شيء، ربما كان الأكثر حكمةً أن يمرّ بالعيادة قبل الذهاب إلى النادي الرياضي، حتى يلقي نظرة على السيدة صاحبة التوائم الثلاثة، والمرأة التي خضعَت لجراحة استئصال الورم الليفي. وبعد ذلك ما عاد يفكِّر في شيء، لأن الجهد البدني قد استغرقه كاملًا. وفيما راح يرفع ساقَيْه ويخفضهما (تمرين رفع الساقَيْن خمسين مرة!)، ويثني جذعه (تمرين ثني الجذع مع رفع الأوزان ثلاث مرات، حتى تنقطع أنفاسك!)، ويشدّ ظهره وجذعه وساعدَيْه وعنقه، ويطيع أوامر كوكو (تحلَّ بالقوة أيها الجدّ الأكبر، أسرع أيها الجثة الهامدة!)، وإذا هو كلّه رئتان تتنشَّقان الهواء ثم تُطلِقانه، وبشرةٌ تبصق العرق، وعضلاتٌ تجاهد حتى يدركها التعب والعناء. ولمَّا صاح كوكو بقوله: «تمرين عضلات الصدر بالأثقال، ثلاث مرات!»، كان دكتور كينتيروس قد بلغ أقصى ما عنده. وعلى الرغم من ذلك، حاول أداء التمرين ولو مرة واحدة باثني عشر كيلوغرام من الأثقال، مدفوعًا بحبّ الذات، فعجز عن ذلك، وقد تمكَّن منه الإجهاد. انفلتَت الأثقال من بين يدَيْه مع المحاولة الثالثة، واضطُرّ إلى احتمال نكات رافعي الأثقال (فلتذهب المومياوات إلى القبر وطيور اللقلق إلى حديقة الحيوان! اتَّصلوا بمستودع الجثث! ارقد في سلامْ، آمين!). وبغيرةٍ صامتة، رأى كيف ينتهي ريتشارد من تمارينه في غير

مشقة، برغم الاستعجال والغضب اللذين استحوذا عليه طوال الوقت. خطر على بال دكتور كينتيروس أنه لا يكفي الانضباط والمواظبة والحمية المتوازنة والحياة المنتظمة، فمن شأن تلك الأمور أن تعوِّضه عن فارق العمر إلى نقطة بعينها، ما إن يتجاوزها حتى يرفع العمرُ أمامه جدرانًا عصية على التخطِّي ومسافات عصية على التجاوز. في وقت لاحق، وبينما هو عارٍ في الساونا، حيث أعماه العرق المتساقط من بين أهدابه، أخذ يردِّد عبارة سبق أن قرأها في أحد الكتب، وقد تملَّكه الشجن: «إنه الشباب الذي تبعث ذكراه في النفس شعورًا باليأس!». وفي طريقه إلى الخروج، رأى أن ريتشارد قد انضمّ إلى رافعي الأثقال وراح يتمرَّن معهم بالتناوب، فأشار إليه كوكو بلفتة هازئة:

- «لقد اتَّخذ الفتى الطيب قراره بالانتحار يا دكتور!».

أما ريتشارد، فلم تصدر عنه حتى ابتسامة. بل إنه رفع الأثقال عاليًا، وقد تصبَّب العرق من وجهه المُتضرِّج، وانتفخَت عروقه، وكشَّر عن شعور بالحنق تراءى وكأنه على وشك الانفجار في وجوه الآخرين. خطر لدكتور كينتيروس أن ابن أخيه قد يسحق رؤوس الأربعة الماثلين أمامه بالأثقال التي كان يرفعها بيدَيْه. ودَّعهم بإشارة من يده، وغمغم قائلًا: «أراك في الكنيسة يا ريتشارد».

عاد إلى البيت، فاطمأنّ لدى علمه أن والدة التوائم الثلاثة تريد أن تلعب لعبة بريدج مع صديقاتها في حجرتها بالعيادة، وأن المرأة التي خضعَت لجراحة استئصال الورم الليفي قد سألَت عن إمكانية تناول رقائق الواتان المغموسة بصلصة التمر الهندي في ذلك اليوم. سمح بلعبة بريدج ورقائق الواتان. وبكل هدوء، ارتدى بدلة زرقاء داكنة وقميصًا من الحرير الأبيض ووضع حول عنقه ربطةً مُفضَّضة ثبَّتها بفصٍّ من اللؤلؤ. كان آخذًا في تعطير منديله حين وصلَته رسالة

من زوجته مرفقة بتذييل أضافَته تشاريتو. وردَت الرسالة من البندقية، المدينة الرابعة عشرة في جولتهما، وجاء فيها: «متى تلقَّيتَ هذه الرسالة، سنكون قد زرنا ما لا يقلّ عن سبع مدن أخرى، كلها في منتهى الجمال». كانتا في غاية السعادة، وافتتنَت تشاريتو بالإيطاليين، «إنهم كمُمثِّلي السينما يا بابا. ليس لك أن تتخيَّل براعتهم في الغزل. ولكن لا تخبر تاتو. إليك مني ألف قبلة. وداعًا».

مشى إلى كنيسة سانتا ماريا، بميدان غوتييريس. كان الوقت لا يزال مُبكِّرًا، وإن بدأ المدعوون في التوافد إلى المكان. استقرّ في الصفوف الأمامية، حيث جعل يتلهَّى بمراقبة الهيكل المُزيَّن بالزنابق والورد الأبيض، والزجاج المُعشَّق الذي يشبه تيجان الأساقفة. ومرة أخرى، تأكَّد له أن تلك الكنيسة لا تروقه البتة، بسبب ذلك المزيج عديم القيمة المُؤلَّف من الجبس والطوب، وتلك القناطر المُدبَّبة المفعمة بالخيلاء. كان يحيِّي معارفه بابتسامة من آن إلى آخر، طبعًا، فالجميع يتوافد على الكنيسة، كالمُتوقَّع: أقرباء في غاية البعد، وأصدقاء عائدون إلى الحياة بعد قرون، وصفوة المدينة، قطعًا، أي الصيارفة والسفراء ورجال الصناعة والساسة. «يا لذلك الألبِرتو وتلك المارغاريتا، لطالما كانا في غاية الطيش!»، أخذ دكتور كينتيروس يفكِّر، من دون حرقة، وقد امتلأ بمشاعر الطيبة أمام مواطن ضعف أخيه وزوجة أخيه. من المُؤكَّد أنهما سوف يبذلان الرخيص والغالي في موعد الغداء. تأثَّر لمرأى العروس وهي تدخل إلى الكنيسة، لحظةَ انطلق مارش الزفاف. كانت آية في الجمال حقًّا، بثوبها الأبيض الشفيف، ووجهها الصغير المرسومة خطوطه تحت طرحة العروس. تجلَّى فيها شيءٌ غاية في الحسن والخفَّة والروحانية، بينما هي ماضية صوب الهيكل، خافضة العينَيْن، مُتعلِّقة

بذراع روبِرتو الذي راح يداري تأثُّره بضخامة جسده ومهابته، مُتظاهِرًا بأنه مالِك هذا العالَم. تراءى الأصهب أقلّ قدرًا من الدمامة، وقد انحشر جسده في السترة الجديدة، وتألَّق وجهه من فرط السعادة. حتى أمه - الإنجليزية عديمة الأناقة التي ما زالت تخلط بين حروف الجرّ بالإسبانية مع أنها عاشت ربع قرن في بيرو - بدَت سيدةً جذّابة بثوبها الطويل الداكن وتصفيفة شعرها المُؤلَّفة من طبقتَيْن. صحيحٌ أن من سار على الدرب وصل، هكذا فكَّر دكتور كينتيروس، لأن أنتونيس الأصهب المسكين ظلّ يلاحق إليانيتا منذ كانا طفلَيْن، ويحاصرها بلفتات اللطف والاهتمام التي كانت تتلقَّاها في كل مرة بازدراء شديد. غير أنه تحمَّل كل ما قابلته به إليانيتا من وقاحة وسوء تهذيب، كما تحمَّل تلك النكات الفظيعة التي كان فتيان الحيّ يطلقونها مستهزئين باستسلامه. إنه لفتى صعب المراس، أخذ دكتور كينتيروس يتأمَّل، لقد تحقَّق له ما أراد، وها هو الآن يبدو شاحبًا من فرط الانفعال، ويضع الخاتم حول بنصر إليانيتا، أجمل فتاة في ليما. انتهَت المراسم، وبينما سار دكتور كينتيروس مُتَّجهًا صوب قاعات الكنيسة، وسط الحشد الصاخب، وهو يومئ برأسه مُحيِّيًا ذات اليمين وذات اليسار، لمح ابنَ أخيه ريتشارد واقفًا بجوار أحد الأعمدة، كمن ينأى بنفسه عن الناس مُشمئِزًّا.

وبينما وقف دكتور كينتيروس في الصفّ حتى يصل إلى العروسَيْن، اضطُرّ إلى الاحتفاء بدزينة من النكات التي راح يلقيها ضد الحكومة الأخوان فيبري، التوأمان اللذان كانا في غاية التطابق، حتى قال القائلون إن زوجتَيهما أيضًا عاجزتان عن التمييز بينهما. احتشد جمعٌ شديد الضخامة، حتى بدا وكأن القاعة على وشك الانهيار. ظلَّ كثير من الحضور في الحدائق، حيث كانوا ينتظرون دورهم في الدخول. بينما انطلق سربٌ من النُدُل يحوم في المكان

مُوزِّعًا كؤوس الشامبانيا. تعالَت الضحكات والنكات والأنخاب، بينما اتَّفق الحضور جميعًا على أن العروس في غاية الجمال. تمكَّن دكتور كينتيروس من الوصول إليها أخيرًا، فوجد إليانيتا لم تزَل محتفظة بهندامها وأناقتها على الرغم من الحرارة والتزاحم. «أتمنى لكِ ألف عام من السعادة أيتها الفتاة الصغيرة»، قال وهو يعانقها، فأسرَّت هي في سمعه قائلةً: «لقد اتَّصلَت بي تشاريتو من روما صباح اليوم لتهنئتي، كما تحدَّثتُ إلى العمة مِرسيدِس أيضًا. كم لطيف منهما أن تتَّصلا بي!». تصبَّب عرق أنتونيس الأصهب، وتضرَّجَت بشرته حتى صار بلون الجمبري، وتوهَّج من فرط السعادة قائلًا: «دون ألبِرتو، هل صار عليَّ أن أناديك بلقب عمي أنا أيضًا؟». «بالطبع يا ابن أخي»، ربَّت عليه دكتور كينتيروس، ثم أردف: «كما يجب عليك أن ترفع الكلفة بيننا في الحديث».

غادر منصة العروسَيْن وهو يكاد يختنق، وبين فلاشات مُصوِّري الفوتوغرافيا والاحتكاكات والتحيَّات، استطاع أن يصل إلى الحديقة، حيث خفَّت الكثافة البشرية، وبات في وسع المرء أن يلتقط أنفاسه. تناول كأسًا، ورأى نفسه محاطًا بحلقة من الأطباء الأصدقاء الذين أمطروه بنكات لا تنتهي عن سفر زوجته: «مِرسيدِس لن تعود، بل إنها سوف تبقى مع أحد الفرنسيين، وها هي القرون بدأت تظهر في جبينه!». وبينما سايرهم دكتور كينتيروس في المزاح، فكَّر - وهو يتذكَّر ما جرى في النادي الرياضي - أنه قد أصبح مثارًا للسخرية يومذاك. كان يرى ريتشارد بين الحين والآخر، وراء بحر من الرؤوس، في أقصى الطرف الآخر من القاعة، وسط فتيات وفتيان ضاحكين: رآه جادًّا، مُتجهِّمًا، يتجرَّع كؤوس الشامبانيا كالماء. «لعلّه يشعر بالأسى لزواج إليانيتا بأنتونيس - دار في خلده - حتى هو كان يريد لأخته زوجًا أكثر تميُّزًا من الأصهب». ولكن لا، الأرجح

أنه يمرّ بواحدة من أزمات التحوُّل. تذكَّر دكتور كينتيروس أنه قد مرَّ بفترة عصيبة وهو في عمر ريتشارد، عندما كان حائرًا بين الطبّ وهندسة الطيران، (فأقنعه والده بحجة قوية مفادها أنه لو اشتغل بهندسة الطيران في بيرو، فليس أمامه إلَّا أن يقضي حياته في صنع الطائرات الورقية أو نماذج الطائرات المُصغَّرة). ربما لم يكُن أخوه روبِرتو، المستغرق في نشاطه التجاري دائمًا، في وضع يسمح له بأن يسدي النصيحة إلى ريتشارد. وفي واحدة من نوبات السخاء التي جعلَته يكسب تقدير الجميع، اتَّخذ دكتور كينتيروس قراره بأن يدعو ابن أخيه في أحد الأيام حتى يستكشف الطريقة الملائمة لمساعدته بما تقتضيه الحالة من كياسة ورهافة.

كان بيت روبِرتو ومارغاريتا يقع في جادة سانتا كروس، على بعد مربعات سكنية قليلة من كنيسة سانتا ماريا، وبانتهاء مراسم الاستقبال في كنيسة الأبرشية، مضى المدعوون إلى الغداء في موكب تحت أشجار منطقة سان إسيدرو وشمسها. انطلقوا نحو الفيلا ذات الآجر الأحمر والأسقف الخشبية، المُطوَّقة بالعشب والأزهار والأسوار، التي كانت مُزيَّنة في أناقة بمناسبة الحفل. ما كاد يصل دكتور كينتيروس إلى الباب حتى أدرك أن الحفل يفوق توقّعاته، وأنه سوف يشهد حدثًا من شأن الصحافيين المُختَصّين في أخبار المجتمع أن يصفوه «بالفخامة».

تراصَّت الطاولات والمظلات بطول الحديقة وعرضها. وفي القسم الخلفي، بجوار بيوت الكلاب، ألقَت مظلةٌ هائلة الضخامة بظلها على الطاولة التي اكتسَت بمفرش في بياض الثلج، وامتدَّت بحذاء الجدار، وحفلَت بصوانٍ ملأى بفواتح الشهية مُتعدِّدة الألوان. نُصِّب البار قرب البِركة التي حوَت أسماكًا يابانية برَّاقة، هناك حيث شُوهِدَت أعداد كبيرة من الكؤوس والقوارير وخلاطات الكوكتيل

ودوارق المُرطِّبات حتى وكأنها قد أُعِدَّت لتروي عطش جيش كامل. استقبل المدعوين نُدُلٌ بالسترات البيضاء وخادمات بالقبعات والمآزر. وبينما هم لا يزالون عند البوابة، غمرهم النُدُل بكؤوس الپيسكو ساور وكوكتيل الخروب والفودكا الممزوجة بفاكهة الماراكويا والويسكي والچن والشامبانيا وأصابع الجبن والبطاطس بالفلفل والكرز المحشو بلحم البيكون والجمبري المقلي ومُعجَّنات القُولوفان وكل ما تفتَّقَت عنه مَلَكات ليما الإبداعية من المُقبِّلات لفتح الشهية. أما في الداخل، فانتعشَت الأجواء بسلال الأزهار الهائلة وطاقات الورد والناردين والغلاديلاس والمنثور والقرنفل التي وُضِعَت بحذاء الجدران، ورُصَّت بطول الدَّرَج وفوق الدرابزين وقطع الأثاث. تراءى الباركيه مدهونًا بالشمع، والستائر مغسولة، وقطع البورسلين والفضيات برَّاقة، فابتسم دكتور كينتيروس حين خُيِّل إليه أن التماثيل الخزفية المُتراصَّة في الخزائن قد لُمِّعَت هي الأخرى. أُقيم البوفيه حتى في البهو، كما تراصَّت في قاعة الطعام الحلوى - المارزيبان والجبن المُثلَّج والمارينغ والبيض المُحلَّى وحلوى الصفار وجوز الهند والجوز المُطعَّم بالشربات - حول كعكة الزفاف المذهلة، ذلك البناء المُشيَّد بالتيل والأعمدة، الذي انتصب شامخًا غنيًّا بالكْريم، فانتزع شهقات الإعجاب من أفواه السيدات. أما الأشياء التي أثارَت الفضول النسائي أكثر من كل ما عداها، فهي الهدايا، التي أُودِعَت في الطابق الثاني. واصطفّ لرؤيتها طابور بالغ الطول، فما لبث دكتور كينتيروس أن اتَّخذ قراره بألَّا ينضمّ إلى المُصطفّين، وإن كان يودّ أن يعرف كيف يبدو السوار الذي قدَّمه في ما قُدِّم إلى العروس من هدايا.

مضى يتطلَّع إلى كل أرجاء المكان قليلًا بشيء من الفضول - بينما هو يشدّ على الأيدي، ويتلقَّى العناقات ويهديها للآخرين - ثم

عاد إلى الحديقة. وفي هدوء، جلس تحت المظلة يتذوّق كأسه الثانية يومذاك. كان كل شيء على خير ما يُرام، فمارغاريتا وروبِرتو يتقنان إقامة الحفلات الباذخة. لم تبدُ له فكرةُ الفرقة الموسيقية في غايةٰ الأناقة - إذ نُحِّيَت الأبسطة والطاولة الصغيرة وصوان العاج حتى يجد أزواج الراقصين مكانًا يرقصون فيه - وعلى الرغم من ذلك، فلقد التمس العذر لتلك اللفتة عديمة الأناقة وعدّها تنازلًا للأجيال الجديدة، فمن المعروف أن حفلًا بلا رقص ليس حفلًا في عرف الشباب. بدأ تقديم الديك الرومي والنبيذ. والآن وقفَت إليانيتا على السلمة الثانية من درج البهو، وهمَّت بإلقاء طاقة أزهار العروس التي ترقَّبَتها عشرات من رفيقات المدرسة وفتيات الحيّ وقد رفعن أيديهن عاليًا. وفي ركن الحديقة، لمح دكتور كينتيروس بينانسيا العجوز، مُربِّية إليانيتا منذ كانت في المهد: تلك المرأة الطاعنة في العمر التي تأثَّرَت من كل روحها، ومضَت تمسح عينَيْها بطرف المئزر.

لم يتمكَّن لسانه من تمييز صنف النبيذ. ومع ذلك، فسرعان ما أدرك أنه وارد الخارج، لعلّه إسباني أو تشيلي. كما لم يستبعد أن يكون النبيذ فرنسيًّا، مع الأخذ في الاعتبار مظاهر البذخ المجنون التي عمَّت ذلك اليوم. كان الديك الرومي لينًا، والبيوريه ناعمًا كالزبد، كما قُدِّمَت سلطة الكرنب والعنب المُجفَّف التي لم يملك إلَّا تناول صحن ثانٍ منها، مع أن مُكوِّناتها الرئيسية تليق بالحمية الغذائية. مضى يتذوَّق كأسه الثانية من النبيذ، وإحساس لطيف بالوسن يبدأ في التسلُّل إليه، عند ذاك رأى ريتشارد آتيًا وكأس الويسكي تترنَّح في يده. تراءت عيناه كالزجاج، وجاء صوته مُتبدِّلًا:

- «يا عمي، هل يوجد ما هو أغبى من حفل الزفاف؟»، تمتم وهو يشير إلى كل ما يحيط بهما في ازدراء، ثم ترك نفسه يتهاوى على المقعد المجاور. كانت ربطة عنقه قد انحلَّت، كما بدَت على

طية البدلة الرمادية بقعةٌ طازجة. وفي عينَيْه تجلّى غضبٌ يليق بالمحيطات، فضلًا عن آثار الشراب الروحي.

- «حسنًا، أعترف لك بأنني لستُ من المولعين بالحفلات»، قال دكتور كينتيروس بدماثة. «ولكن يبدو لي من المدهش ألّا تكون أنتَ مولعًا بالحفلات يا ابن أخي، في عمرك هذا».

- «أكرهها من كل روحي»، همس ريتشارد، شاخصًا بعينَيْه كمن يريد أن يمحو كل شيء من على وجه الأرض. «لا أدري أي شيء لعين جاء بي إلى هنا!».

- «تخيَّل حال أختك لو أنك لم تأتِ إلى حفل زفافها!»، أخذ دكتور كينتيروس يتأمَّل في تلك الحماقات التي يتفوَّه بها المرء تحت تأثير الكحول: ألم يسبق له أن رأى ريتشارد وهو يتسلّى في الحفلات كما يتسلّى غيره من الفتيان؟ ألم يكُن راقصًا بارعًا؟ كم مرة قاد فيها ابنُ أخيه عصابةَ الفتيات والفتية الذين كانوا يحضرون لارتجال الرقصات في حجرة تشاريتو؟ غير أنه لم يُذكِّره بشيء من ذلك. وإنما رأى كيف يتجرَّع ريتشارد الويسكي ثم يطلب من النادل أن يصبّ له كأسًا أخرى.

- «على كل حال، أعدّ نفسك»، قال له. «لأنك متى تزوَّجتَ، أقام والداك حفلًا أكبر من هذا».

وإذا بريتشارد يرفع كأس الويسكي الجديدة إلى شفتَيْه، ويحتسي منها رشفة، ببطء، وقد أغمض عينَيْه نصف إغماضة. وبعد ذلك، غمغم بصوت مكتوم، يكاد لا يُسمَع، وصل إلى دكتور كينتيروس ببطء شديد، من دون أن يرفع ريتشارد رأسَه المُطرِق:

- «لن أتزوَّج أبدًا يا عمي، أقسم بالرَّب».

وقبل أن يتسنَّى له الردّ، ظهرَت أمامهما فتاة رشيقة، شعرها أشقر، وظلُّها أزرق، ولفتاتها حاسمة، وإذا هي تمسك يد ريتشارد

وترغمه على القيام من دون أن تمهله الوقت الكافي ليأتي بردة فعل واحدة:

- «ألا تشعر بالخزي من جلوسك مع المُسنِّين؟ تعال وارقص أيها الأبله!».

رآهما دكتور كينتيروس وهما يختفيان عن ناظرَيْه في بهو البيت، فأحسَّ بأنه قد فقد الشهية فجأة. ظلَّت كلمة «المُسنِّين» تتردَّد في مسمعَيْه كالصدى الخبيث، تلك الكلمة التي نطقَت بها الابنة الصغرى للمعماري أرامبوروه، بكل عفوية، وبصوت في غاية اللذة. تناول القهوة، ثم قام وذهب ليلقي نظرة على القاعة.

بلغ الحفل أوجه، فبعد أن كان الرقص مُقتصِرًا على الرقعة التي استقرَّت فيها الفرقة الموسيقية بجوار المدخنة، امتدّ حتى شغل الحجرات المجاورة، حيث كان هناك أزواج من الراقصين أيضًا، يتغنّون بأغاني التشاتشاتشا والميرينغي والكومبيا والفالس بأعلى صوت. كما تعالَت موجة البهجة التي غذَّتها الموسيقى والشمس والمشروبات الكحولية، فانتقلَت من الشباب إلى الكبار، ومن الكبار إلى المُسنِّين.

مُتفاجئًا، رأى دكتور كينتيروس أنه حتى مارسِلينو أواپايا، الثمانيني الذي تجمعه صلة القرابة بالعائلة، قد انطلق يهزّ جسده المُتيبِّس في مشقةٍ على وقع أغنية **سحابة رمادية**، ونسيبته مارغاريتا بين ذراعَيْه. أحسّ دكتور كينتيروس بدوار خفيف بسبب الأجواء الحافلة بالدخان والصخب والحركة والضوء والسعادة، فتوكَّأ على الدربزين وأغمض عينَيْه لحظةً. وبعد ذلك، أخذ يراقب إليانيتا بدوره، باسمًا، سعيدًا، بينما ترأسَّت ابنة أخيه الحفل وهي لا تزال بثوب الزفاف، وإن خلعَت الطرحة عن رأسها. لم تهنأ بلحظة واحدة من الراحة، إذ كان يحاصرها عشرون رجلًا بعد كل مقطوعة

موسيقية، ويطلبون مراقصتها، فتتخيَّر منهم رجلًا مختلفًا في كل مرة، بوجنتَيْن مُتضرِّجتَيْن وعينَيْن برَّاقتَيْن، ثم تعود إلى الدوَّامة مرة أخرى. ظهر بجوار دكتور كينتيروس أخوه روبِرتو، الذي ارتدى بدلة خفيفة بنية اللون بدلًا من السترة الرسمية، وراح يتصبَّ عرقًا بعد أن فرغ من الرقص لتوّه.

- «لا أصدِّق أنها تتزوَّج يا ألبِرتو»، قال مُشيرًا إلى إليانيتا.

- «تبدو آية من الجمال»، ابتسم له دكتور كينتيروس. «وأي حفل باذخ أقمتَ يا روبِرتو!».

- «أفضل ما في العالَم من أجل ابنتي!»، صاح أخوه، فتجلَّت في صوته لمحة من الحزن.

- «أين يقضيان شهر العسل؟»، سأل دكتور كينتيروس.

- «بين البرازيل وأوروبا. الرحلة هدية من والدَي الأصهب»، أشار إلى البار مُتلهِّيًا. «يجب عليهما المغادرة في الصباح الباكر. ولكن، بهذه الوتيرة، لن يكون زوج ابنتي في وضع يسمح له بذلك».

تحلَّق جمع من الفتية حول أنتونيس الأصهب، وتناوبوا شرب الأنخاب معه. تضرَّج العريس أكثر من أي وقت مضى، وأخذ يضحك في شيء من اللهفة، ويبلِّل شفتَيْه بالكأس مُحاوِلًا خداعهم، فيحتجّ الأصدقاء مطالبين بأن يأتي على الكأس تمامًا. فتَّش دكتور كينتيروس عن ريتشارد بعينَيْه، غير أنه لا رآه في البار، ولا في ذلك القسم الذي يُرَى عَبْر النوافذ مِن الحديقة، ولا رآه يرقص.

وقع الأمر في تلك اللحظة، فبينما كان فالس **إيدولو** على وشك الانتهاء، وأزواج الراقصين على أهبة التصفيق، والعازفون يرفعون أيديهم عن آلات الجيتار، والأصهب يتصدَّى للنخب العشرين، رفعَت العروس يمينها إلى عينَيْها كمن تطرد بعوضةً، وإذا هي تترنَّح

وتسقط أرضًا قبل أن يجد زوجها الوقت الكافي ليسندها. ظلّ أبوها ودكتور كينتيروس جامدَيْن بلا حراك، ظنًّا منهما بأنها قد تكون انزلقَت، وما هي إلَّا ثانية حتى تنهض مستغرقةً في الضحك. ولكن الفوضى التي عمَّت القاعة - الصيحات، والدفعات، وصرخات الأم التي انطلقَت تنادي: «ابنتي الصغيرة، إليانا، إليانيتا!» - جعلَتهما يهرولان لمدّ يد المساعدة أيضًا. كان أنتونيس الأصهب قد انطلق قافزًا، ورفعها بين ذراعَيْه سائرًا في حراسة جمع من الحضور، ثم ارتقى الدَّرَج وهو يحمل إليانيتا ماضيًا في أثر السيدة مارغاريتا التي طفقَت تقول: «مِن هنا، إلى حجرتها، ببطء، بحذر»، وتطلب «الطبيب، اتَّصلوا بالطبيب!». أخذ بعض الأقرباء - العم فِرناندو وابنة العم تشابوكا ودون مارسِلينو - يهدِّئون الأصدقاء، كما أمروا الفرقة الموسيقية باستئناف العزف. أما دكتور كينتيروس، فرأى شقيقه روبِرتو وهو يشير إليه من مكانه فوق الدَّرَج. يا للغباء! ألم يكُن هو نفسه طبيبًا؟ فماذا ينتظر إذن؟ تسلَّق الدَّرَج بخطى واسعة، مُنطلِقًا وسط الحضور الذين أفسحوا له الطريق.

حُمِلَت إليانيتا إلى مخدعها، تلك الحجرة المُزيَّنة باللون الوردي المُطِلَّة على الحديقة. ظلَّ روبِرتو والأصهب والمربية بينانسيا مُتحلِّقين حول فراشها، حيث بدأت الفتاة تستردّ وعيها وترمش بعينَيْها، وهي لم تزَل في غاية الشحوب، في حين جلسَت الأم إلى جوارها، ومضَت تفرك جبينها بمنديل مغموس بالكحول. أمسك الأصهب بيدها، ناظرًا إليها في ذهول وجزع.

- «قبل كل شيء، تفضَّلوا جميعًا إلى الخارج، واتركوني وحدي مع العروس»، أملى دكتور كينتيروس أوامره، بينما هو يتولّى دور الطبيب. ومضى بهم إلى الباب قائلًا: «لا تقلقوا، لا يمكن أن يكون شيئًا ذا بال. تفضَّلوا إلى الخارج واسمحوا لي بفحصها».

وحدها بينانسيا العجوز تمنَّعَت، فاضطُرَّت مارغاريتا إلى اقتيادها خارجًا، وهي تكاد تجرّها جرًّا. عاد دكتور كينتيروس إلى الفراش، حيث جلس بجوار إليانيتا التي رمقَته بنظرة من بين أهدابها الطويلة السوداء، في خوفٍ وذهول. طبع قبلة على جبينها، وبينما هو يقيس درجة حرارتها، ابتسم لها قائلًا إنه ليس بالشيء الخطير، وليس هناك ما يدعو إلى الخوف. كانت نبضاتها مضطربة بعض الشيء، ومضَت تلتقط أنفاسها بمشقَّة. لاحظ الطبيب أن الثوب يضغط على صدرها أشدّ مما ينبغي، فساعدها على حلّ الأزرار.

- «يجب عليكِ أن تبدِّلي ثيابكِ في جميع الأحوال، وهكذا تكسبين بعض الوقت يا ابنة أخي».

انتبه إلى المِشدّ مفرط الضيق، فما لبث أن أدرك ما يجري، غير أنه لم يأتِ بأدنى لفتة ولم يطرح سؤالًا واحدًا قد يكشف لابنة أخيه أنه يعرف ما كان من أمرها. وبينما هي تخلع ثوبها، تضرَّجَت إليانيتا إلى درجة مُروِّعة، وتملَّكها حرج شديد، حتى إنها لم ترفع عينَيْها أو تحرِّك شفتَيْها. قال لها دكتور كينتيروس إنها ليستَ مُضطرّة إلى خلع الثياب الداخلية، طالبًا منها الاكتفاء بخلع المشدّ الذي خنق أنفاسها. ابتسم، وبمظهر شارد، أكَّد لها أن سقوط العروس مغشيًا عليها يُعَدّ أكثر الأشياء طبيعية في العالَم بأسره، مع الأخذ في الاعتبار أنه يوم زفافها، بكل ما ينطوي عليه الحدث من انفعال وإجهاد وفوضى ما قبل الزفاف، وبخاصة لو كانت العروس مولعةً بالرقص لساعات وساعات بلا هوادة. أخذ يتحسَّس صدرها وبطنها (الذي ما كاد يتحرَّر من عناق المشدّ القوي حتى برز بالمعنى الحرفي للكلمة)، وبيقين المُتخصِّص الذي مرَّت من بين يدَيْه آلاف النساء الحوامل، خلص إلى نتيجة مفادها أنها لا بدّ أن تكون حبلى في الشهر الرابع. تفحَّص حدقتَيْها بينما جعل يسألها عن أمور تافهة

لإلهائها، وأوصاها بالراحة بضع دقائق قبل أن تعود إلى القاعة. وعلى الرغم من ذلك، نهاها عن الإفراط في الرقص كما سبق لها أن فعلَت.

- «كما ترين، إنه مُجرَّد قليل من التعب يا ابنة أخي. على كل حال، سأناولكِ شيئًا لأخفِّف عنكِ إثارة اليوم».

ربَّت على شعرها، ثم طرح عليها بضعة أسئلة عن شهر العسل حتى يعطيها الوقت الكافي لتهدأ قبل أن يدخل أبواها إلى الحجرة. أجابت بصوت مُتراخٍ. إن رحلةً كهذه مِن أفضل ما يمكن أن يحدث للمرء، ولكنه لا يملك أن يسمح لنفسه بإجازة للذهاب في رحلة متكاملة كهذه أبدًا، بالنظر إلى مشاغله بالغة الكثرة. بل إنه لم يذهب إلى لندن، مدينته الأثيرة، منذ ثلاثة أعوام. وفيما راح يتكلَّم، رأى إليانيتا وهي تداري المشدّ خلسةً، وترتدي الروب، وتضع فوق أحد الكراسي حذاء وثوبًا وبلوزة مُطرَّزة الياقة والأردان، ثم تستلقي على الفراش مرة أخرى وتغطِّي نفسها باللحاف. تساءل عمَّا إذا لم يكُن خيرًا له التحدُّث إلى ابنة أخيه بصراحة، وتوصيتها ببعض النصائح من أجل الرحلة. ولكن لا، فلو فعل لمرَّت ابنة أخيه بوقت عصيب، وشعرَت بضيق بالغ. وليس من شكٍّ في أنها تابعَت حالتها مع أحد الأطباء سرًّا طوال الفترة الماضية، وأنها على أتمّ دراية بما يجب عمله. ولكن لفّ بطنها بمشدّ ضيق إلى هذا الحدّ أمر ينطوي على خطورة في جميع الأحوال، وربما أفضى إلى عواقب وخيمة بحقّ، أو أضرّ بالجنين مستقبلًا. شعر بالتأثُّر لأن إليانيتا، ابنة أخيه التي لا يمكنه أن يتصوَّرها إلَّا طفلةً عفيفة، قد حبلَت. مضى إلى الباب، ثم فتحه، وأخذ يهدِّئ من روع الأسرة بصوت مرتفع حتى تسمعه العروس:

- «إنها في حالة صحية أفضل منكم ومني، ولكنها مرهقة

للغاية. أرسلوا في شراء هذا المُهدِّئ، واسمحوا لها بالراحة لبعض الوقت».

هرولَت بينانسيا العجوز إلى المخدع، فرآها دكتور كينتيروس من فوق كتفه وهي تلاطف إليانيتا. كما دخل إلى الحجرة أبواها، وهمَّ أنتونيس الأصهب بالدخول، فأمسك دكتور كينتيروس بذراعه في الخفاء، ومضى به إلى الحمام الذي أوصد بابه خلفهما.

- «أيها الأصهب، من الطيش أن ترقص العروس كما رقصَت طوال المساء وهي في مثل هذه الحالة»، قال له بالنبرة الأكثر تلقائية في العالَم بأسره، بينما هو يغسل يدَيْه بالصابون. «كان مِن الممكن أن تُسقِط الجنين. انصحها بألَّا تستخدم المشدّات، ولا سيما المشدّات الضيقة إلى هذا الحدّ. في أي شهر صارت؟ الشهر الثالث أو الرابع؟».

وفي تلك اللحظة، انقضّ الشكُّ على ذهن دكتور كينتيروس، سريعًا، مميتًا، كلدغة الكوبرا. نظر إلى صفحة المرآة مرعوبًا، وأحسَّ بالكهرباء تسري في ذلك الصمت المُخيِّم على الحمام. اتَّسعَت عينا الأصهب العاجز عن التصديق، بينما التوى فمه راسمًا تعبيرًا عبثيًّا على وجهه الذي صار في شحوب الموتى.

- «الشهر الثالث أو الرابع؟»، سمعه يتفوَّه بذلك السؤال مُتلعثِمًا. «تُسقِط الجنين؟».

أحسّ دكتور كينتيروس وكأنما الأرض تغوص به. يا لك من أحمق، يا لك من حيوان! فكَّر بينه وبين نفسه. والآن، تذكَّر، وبدقَّة مُروِّعة، أن خطوبة إليانيتا وزيجتها لم تستغرقا أطول من أسابيع قليلة. أشاح بناظرَيْه عن أنتونيس وهو يجفِّف يدَيْه ببطء مفرط. وفي استماتة، انطلق ذهنه يبحث عن أكذوبة، عن حجة ينتشل بها ذلك

الفتى من الجحيم الذي دفعه إليه من فوره. فلم يسعه إلَّا التفوّه بكلام تراءى له على القدر نفسه من الغباء:

- «لا بدّ أن إليانيتا لم تدرك أنني انتبهتُ إلى الأمر. لقد أقنعتُها بغير ذلك. أهم شيء أن لا تقلق، فهي في خير حال».

خرج مسرعًا، ورمقه بطرف عينه حين مرّ بجواره، فرآه في الموضع نفسه، شاخصًا بعينَيْه إلى الخواء، وقد انفرج فمه واكتسى وجهه بالعرق. سمعه يوصد الباب بالمفتاح من الداخل، وفكَّر أنه «سوف يجهش بالبكاء، ويضرب رأسه، ويشدّ شعره، سوف يلعنني ويكرهني أكثر مِنها ومِن. . . ولكن مَن يكون؟». نزل على الدَّرَج ببطء، وقد استحوذ عليه شعور مُفجِع بالذنب، وامتلأت نفسه بالشكوك، بينما راح يكرِّر على الناس أن إليانيتا بخير، وأنها سوف تنزل حالًا، كما لو كان تمثالًا آليًّا. خرج إلى الحديقة، وشعر بتحسُّن عندما تنشَّق دفقةً من الهواء. اقترب من البار، وشرب كأسًا من الويسكي الخالص، ثم اتَّخذ قراره بأن يذهب إلى بيته، وألَّا ينتظر أن تُرفَع الستار عن تلك الدراما التي أثارها بسذاجته، وبأحسن ما يملك من نوايا. شعر برغبة في إقفال باب مكتبه على نفسه، والاستغراق في موزارت مستلقيًا على أريكته المصنوعة من الجلد الأسود.

وعند الباب المفضي إلى الشارع، وجد ريتشارد في حالة مزرية، جالسًا على العشب، عاقدًا ساقَيْه وكأنه بوذا، مستندًا بظهره إلى السياج، وقد تجعَّدَت بدلته التي علق بها الغبار والبقع والحشائش. ولكن وجه ريتشارد كان هو الشيء الذي ألهى دكتور كينتيروس عن ذكرى إليانيتا والأصهب، واستوقفه مكانه: إذ رأى في عينَيْه المُتورِّمتَيْن أن منسوب الكحول ومنسوب الغضب قد ارتفعا بالقدر نفسه. ومن شفتَيْه، تدلَّى خيطان من اللعاب، بينما ارتسمَت على وجهه تعابير أليمة مُتنافِرة.

- «ريتشارد، غير معقول!»، همس وهو يميل على ابن أخيه، مُحاوِلًا حمله على النهوض. «لا يمكن أن يراك والداك على هذه الحال. تعالَ، هيا نذهب إلى البيت حتى يزول السكر عنك. لم يُخيَّل إليَّ قطّ أنني سأراك وأنت على هذه الحال يا ابن أخي».

وبرأس مُتدلٍّ، أخذ ريتشارد ينظر إليه فلا يراه. حاول النهوض مُذعِنًا، فخارَت ساقاه. واضطُرّ الطبيب إلى الإمساك بكلتا ذراعَيْه، حتى كاد يرفعه رفعًا. حمله على السير وهو يسند كتفَيْه، فمضى ريتشارد يترنَّح وكأنه دمية من القماش. بدا وكأنه يكاد ينكفئ على وجهه في أي لحظة. «لعلّنا نستوقف سيارة أجرة»، غمغم الطبيب وهو يقف على حافة جادة سانتا كروس، ويسند ريتشارد بإحدى ذراعَيْه: «لأنك لو ذهبتَ سيرًا لما وصلتَ حتى إلى الناصية يا ابن أخي». مرَّت بضع سيارات أجرة، ولكنها كانت مشغولة. ظلّ الطبيب رافعًا يده. جاء الترقُّب مُضافًا إلى ذكرى إليانيتا وأنتونيس، والانشغال بحالة ابن أخيه، فبدأ يستحوذ عليه التوتُّر، وهو الذي لم يسبق له أن فقد الهدوء قطّ. في تلك اللحظة ميَّز كلمة «مُسدَّس» في التمتمة الخفيضة غير المُتَّسقة التي انسلَّت من بين شفتَي ريتشارد، فلم يملك غير الابتسام. وفي محاولة منه للتصدِّي إلى الوقت العصيب بوجه بشوش، مضى يسأل، كمن يتحدَّث إلى نفسه، وهو لا يتوقَّع أن يسمعه ريتشارد أو يجيب عن سؤاله:

- «ولمَ ترغب في مُسدَّس يا ابن أخي؟».

أما ريتشارد، الذي حدَّق إلى الخواء بعينَيْن هائمتَيْن قاتلتَيْن، فجاء ردُّه بطيئًا، خشنًا، وفي غاية الوضوح:

- «حتى أقتل الأصهب»، نطق بكل مقطع بكراهية جليدية. وسكت هنيهة، ثم أردف بصوته الذي انطلق بحدَّة قائلًا: «أو أقتل نفسي».

تلعثم لسانه مُجدَّدًا، فما عاد ألبِرتو دي كينتيروس يفهم شيئًا مما يقول. وفي تلك الأثناء، توقَّفَت سيارة أجرة. دفعه الطبيب إلى داخل السيارة، وأخبر السائق بالعنوان، ثم ركب هو أيضًا. وفي تلك اللحظة، عندما انطلقَت السيارة، أجهش ريتشارد بالبكاء. التفت إليه الطبيب، في حين ارتمى الفتى مُستنِدًا برأسه على صدر دكتور كينتيروس. ظلّ ينشج، وجسده ينتفض على وقع الرجفات المفعمة بالانفعال. مرَّر الطبيب يده على كتفَي ريتشارد، ثم داعب شعره كما داعب شعر أخته منذ حين. وبلفتةٍ أراد بها أن «الفتى قد أفرط في الشرب»، طمأن السائقَ الذي أخذ ينظر إليه على صفحة مرآة الرؤية الخلفية. ترك ريتشارد منكمشًا، مُستكِنًّا إليه، يبكي ويلوِّث بدلة الطبيب الزرقاء وربطة عنقه المُفضَّضة بالدموع واللعاب والمخاط. وسط نحيب ريتشارد العصي على الفهم، تمكَّن من فهم العبارة الآتية، فلا رفّ جفنه ولا اضطرب قلبه، تلك العبارة التي كرَّرها ابن أخيه مرتَيْن أو ثلاثًا، فجاءت جميلة، بل ونقية، على الرغم من فظاعتها: «لأنني أحبُّها كما يحبّ الرجال، ولا يهمّني شيء يا عمي».

وفي حديقة البيت، أفرغ ريتشارد ما في جوفه وهو يتشنَّج بقوة، فأفزع الكلب الفوكس تيرير وأثار النظرات الرقيبة التي رشقه بها كبير الخدم والخادمات. أخذ دكتور كينتيروس بذراع ريتشارد ماضيًا به إلى حجرة الضيوف، حيث جعله يمضمض فمه. ثم جرَّده من ثيابه، ومدَّده على الفراش، وناوله قرصًا مُنوِّمًا شديد المفعول. ظلّ بجواره، يهدِّئه بكلمات ولفتات مفعمة بالمودة - على علمه بعجز الفتى عن سماعها أو رؤيتها - حتى أحسّ بأنه قد استغرق في سبات الشباب العميق.

عند ذاك اتَّصل بالعيادة وأخبر الطبيب المناوب بأنه لن يذهب

إلى هناك حتى اليوم التالي، ما لم تقع كارثة. كما أخبر كبير الخدم بأنه ليس في حال تسمح له بالردّ على المُتَّصلين أو لقاء الزائرين. وصبَّ لنفسه كأس ويسكي مزدوجة، ثم ذهب إلى حجرة الموسيقى حتى يوصد بابها على نفسه. وضع في مُشغِّل الأسطوانات كومة من مقطوعات ألبينوني وفيفالدي وسكارلاتي، إذ رأى أن بضع ساعات بندقية، باروكية، سطحية، هي العلاج الناجع لطرد الأشباح المعتمة التي ألقَت بظلّها على روحه. وبينما غاص في تلك النعومة الدافئة، نعومة أريكته المصنوعة من الجلد، والدخان يتصاعد من الغليون المرشومي الأسكتلندي الذي وضع طرفه بين شفتَيْه، أغمض عينَيْه مُترقِّبًا ريثما تصنع الموسيقى معجزاتها المُحقَّقة. خطر على باله أنها فرصة ملائمة ليبرهن على ذلك المبدأ الأخلاقي الذي تبنّاه منذ الشباب، والذي يقول إن تفهُّم البشر خيرٌ من إصدار الأحكام في حقّهم. لا روَّعه الأمر، ولا شعر بالسخط، ولا كانت مفاجأته أشدّ مما ينبغي. بل إنه لاحظ عاطفةً خفيةً، وطيبة لا يغلبها شيء، ممزوجة بالرحمة والحنان. قال في نفسه إن السبب الآن قد أصبح في غاية الوضوح، ذلك السبب الذي جعل فتاة على تلك الدرجة من الجمال تقرِّر الزواج بذلك الأبله فجأة، وجعل مَلِكَ ركوب أمواج هاواي، فتى الحي الوسيم، يظلّ بلا حبيبة معروفة ويتمسَّك بدور مُرافِق أخته الصغرى طوال الوقت، بهمَّةٍ جديرة بالثناء، من دون أن يبدي اعتراضًا. وفيما راح يتلذَّذ بعبق التبغ، ويتذوَّق نيران الشراب الشهية، قال لنفسه إنه لا يجدر به الإفراط في القلق بشأن ريتشارد، فلسوف يجد الطريقة الملائمة حتى يقنع روبِرتو بإرسال ابنه للدراسة في الخارج، إلى لندن على سبيل المثال، تلك المدينة التي سيجد فيها من المستجدات والمغريات ما يكفي لنسيان الماضي. وعلى الرغم من ذلك، فلقد انشغل بأمر بطلَيّ القصة الآخرَيْن، وشعر

بالفضول يأكله لمعرفة ما سيكون من أمرهما. وبينما الموسيقى تسكره رويدًا رويدًا، دارت في ذهنه دوَّامة من أسئلة بلا جواب، أسئلة جاءت أكثر فأكثر خفوتًا، أشدّ وأشدّ تباعُدًا في ما بينها: أيهجر الأصهب زوجته الطائشة مساء اليوم نفسه؟ تراه قد هجرها بالفعل؟ أم تراه يلزم الصمت ويستمرّ مع تلك الصبية المخادعة التي كثيرًا ما لاحقها، فيبرهن بذلك على أخلاقه النبيلة، أو حماقته، بالدليل القاطع؟ أتدوِّي الفضيحة، أم ينسدل ستارٌ كثيف من الكتمان والكبرياء الجريحة على مأساة سان إسيدرو إلى الأبد؟

٣

رأيتُ بِدرو كاماتشو مرة أخرى عقب الحادث بأيام قليلة. في السابعة والنصف صباحًا، وبعدما أعددتُ أولى نشرات اليوم الإخبارية، كنتُ ذاهبًا لتناول القهوة بالحليب في مقهى برانسا. وحين مررتُ بجوار النافذة الصغيرة لغرفة الحراسة في راديو سنترال، لمحتُ آلة الرِمينغتون الخاصة بي. سمعتُها تعمل، وسمعتُ وقع مفاتيحها السميكة على الأسطوانة، غير أنني لم أرَ خلفها أحدًا، كائنًا من كان. زججتُ برأسي من خلال النافذة، وإذا الكاتب على الآلة هو بِدرو كاماتشو، الذي نُصِّب من أجله مكتبٌ في حجيرة الحراسة. في تلك الغرفة ذات السقف الخفيض والجدران التي عاث فيها الزمن والغرافيتي والرطوبة، استقرَّ مكتب مُتداعٍ، في ضخامة الآلة الكاتبة التي راحت تدوِّي فوقه. وهكذا «ابتلعَت» أبعادُ قطعة الأثاث وآلة الرِمينغتون قوامَه الهزيل، بالمعنى الحرفي للكلمة. وضع بِدرو كاماتشو وسادتَيْن فوق المقعد. وعلى الرغم من ذلك، كاد وجهه لا يبلغ مستوى لوحة المفاتيح، فمضى يكتب ويداه في مستوى عينَيْه، حتى كان يترك في نفس الناظر انطباعًا بأنه يخوض مباراة ملاكمة. كان تركيزه مُطلَقًا، فلم ينتبه إلى حضوري مع أنني بجواره. أخذ يحدِّق إلى الورق بعينَيْه اللتين كادتا تخرجان من محجرَيْهما، ويضرب المفاتيح بإصبعَيْه، ويعضّ على لسانه، ببدلته السوداء التي حضر بها

في اليوم الأول، من دون أن يخلع السترة أو البابيون. رأيتُه على تلك الحال، مُستَغرِقًا، مُنشَغِلًا، مُتصلِّبًا، جادًّا، بشَعره ومظهره الخليقَيْن بشاعر من القرن التاسع عشر، جالسًا أمام آلةٍ كاتبة ومكتبٍ كلاهما بالغ الضخامة بالقياس إليه، في كهف بالغ الصغر بالقياس إلى الآلة والمكتب وكاتب السيناريو معًا، فتولَّد لديَّ شعور يتراوح بين الأسف والهزل.

- «كم تُبكِّر يا سيد كاماتشو!»، بادرتُه بالتحية وقد تسلَّلتُ بنصف جسدي إلى الحجرة.

ومن دون أن يرفع عينَيْه عن الورق، اكتفى بأن أشار إليَّ بإيماءة مُستبِدَّة من رأسه حتى أخرس أو أنتظر أو كلا الأمرَيْن معًا. استقررتُ على الخيار الأخير، وفيما هو ينتهي من عبارته، لاحظتُ أن المكتب قد اكتسى بالأوراق المكتوبة على الآلة، فضلًا عن الأوراق المُجعَّدة التي أُلقِيَت أرضًا في غياب سلة المهملات. وما هو إلَّا قليل حتى رفع يدَيْه عن لوحة المفاتيح، ثم هبّ واقفًا، ومدَّ لي يمينه بحفاوة، وردّ تحيتي مُدلِيًا بحكمه الآتي:

- «لا موعد للفنّ. طاب صباحك يا صديقي».

لم أسأل إن كان يعاني من رهاب الأمكنة المُغلَقة في ذلك الجحر يقينًا مني بأنه كان سيجيب قائلًا إن المشقة تلائم الفن. ولكني دعوتُه إلى تناول القهوة بدلًا من ذلك. تحقَّق من أداةٍ تعود إلى ما قبل التاريخ، تتراقص على ساعده النحيل، وقال مُغمغِمًا: «بعد ساعة ونصف من الإنتاج، يحقّ لي أن آخذ قسطًا من الراحة». وفي الطريق إلى برانسا، سألتُه عما إذا كان يبدأ في العمل مُبكِّرًا إلى هذه الدرجة دائمًا، فأجابني بأن الإلهام يأتي مُنسجِمًا مع ضوء النهار، في حالته، بخلاف مبدعين آخرين.

- «مع الشمس يُشرِق الإلهام، ويحمَى رويدًا رويدًا»، أوضح لي

موسيقيًّا، بينما أخذ شاب ناعس يحوم حولنا وهو يكنس أرضية برانسا بما عليها من نشارة الخشب الملأى بأعقاب السجائر والوسخ. «أبدأُ في الكتابة مع أولى خيوط الفجر، حتى يصبح دماغي شعلة مُتوهِّجة عند منتصف النهار. ثم تبدأ النار في الخمود. وقرب المساء، أتوقَّف عن الكتابة، إذ لا يبقى لي آنذاك سوى الجمر. ولكن لا يهمّ، لأن المُمثِّل يبلغ أقصى قدراته الإنتاجية في المساء والليل. لديَّ منظومة مُرتَّبة بعناية».

مضى يتحدَّث بجدية مفرطة، فتراءى لي أنه كاد لا يلاحظ أني ما زلتُ هناك. كان من أولئك الرجال الذي لا يقبلون مُتحدِّثين، بل مُستمِعين. ومثلما جرى في المرة الأولى، فوجِئتُ بأنه لا يملك أدنى أثر لحسّ الدعابة، على الرغم من ابتسامات الدمى التي كان يُطعِّم بها المونولوج، إذ ترتفع الشفتان، ويتجعَّد الجبين، وتبرز الأسنان. كان يُدلِي بكل كلمة بأقصى قدر ممكن من الرصانة، الأمر الذي يسبغ عليه مظهرًا شديد الغرابة متى أُضيف إلى إلقائه المثالي وقامته وثيابه المبهرجة ولفتاته المسرحية. بدا جليًّا أنه يؤمن بكل ما يقول بالحرف الواحد: حتى يراه الناظرُ أصدق رجال العالَم وأشدّهم افتعالًا في آن واحد. حاولتُ النزول به من علياء الفن التي راح يلقي منها خطبته إلى الأرض الضحلة، أرض الشؤون العملية، وسألتُه إن استقرّ به المقام، وإن كان له أصدقاء هنا، وكيف وجد ليما. أما تلك الشؤون الأرضية، فما كان يلقي إليها أدنى بال. أجابني نافد الصبر بأنه قد عثر على أتيليه في موقع لا يبعد عن راديو سنترال، بشارع كيلكا، وقال إنه يجد راحته في أي مكان، أوليس العالَمُ موطنَ الفنان؟ بدلًا من القهوة، طلب فنجانًا من عشبة الليمون والنعنع، وأخبرني بأن ذلك المشروب «مُنعِش للذهن»، كما أنه طيب المذاق. عجَّل بتناوله على رشفات قصيرة مُتناسِقة، وكأنه يحسب الوقت بدقَّة حتى يرفع

الفنجان إلى فمه. وما كاد ينتهي حتى هبَّ واقفًا، وأصرَّ على اقتسام الحساب، ثم طلب مني أن أرافقه لشراء خارطة أحياء ليما وشوارعها. وجدنا ما يبحث عنه في أحد الأكشاك بشارع أونيون، فأخذ يدرس الخارطة التي فردها قبالة السماء. وفي شعور بالرضى، أبدى موافقته على الألوان التي ميَّزَت الأحياء بعضها عن بعض. طلب من البائع إيصالًا بالعشرين صول التي دفعها مقابل الخارطة.

- «إنها أداة من أدوات العمل، ولا بدّ أن يسدِّد التجَّار قيمتها»، أدلى بحكمه ونحن في طريق العودة إلى العمل.

حتى مشيته كانت أصيلة: فهي حثيثة، مفعمة بالتوتُّر، وكأنه يخشى أن يفوته القطار. وعند الوداع، بينما نحن على باب راديو سنترال، أشار إلى مكتبه الضيِّق وكأنه يستعرض قصرًا:

- «المكتب يكاد يقع في الشارع»، قال راضيًا عن نفسه وعن الأشياء. «وكأنني أعمل على الرصيف».

- «ألا يُشتِّتك الصخب العارم الذي يُحدِثه الناس والسيارات؟»، تجرَّأت على السؤال مُلمِّحًا.

- «بالعكس»، طمأنني بسعادة، لأنه سوف ينعم عليَّ بقول رنَّان أخير: «أكتبُ عن الحياة، وأعمالي في حاجة إلى ذلك الأثر الناشئ عن الواقع».

كنتُ أهمُّ بالذهاب عندما ناداني مرة أخرى بسبابته مشيرًا إلى خارطة ليما. وفي غموض، طلب مني أن أزوِّده ببعض المعلومات في وقت لاحق، أو في اليوم التالي، فرحَّبتُ بكل سرور.

وفي علِّيتي، بمقر بانامريكانا، وجدتُ پاسكوال قد أعدَّ نشرة أخبار التاسعة، التي بدأت بخبرٍ من تلك الأخبار التي ولع بها كثيرًا، نقله عن جريدة لا كرونيكا، وطعَّمه بنعوت مُستقاة من حصيلته اللغوية الخاصة: «في بحر الأنتيل الهائج، غرقَت عشية البارحة سفينة شحن

من بنما تُدعَى شَارْك، ولقي طاقمها المُؤلَّف من ثمانية بحارة مصرعهم غرقًا، ثم مضغَتهم القروش المنتشرة في البحر آنف الذكر».
وقبل الموافقة على الصيغة، وضعتُ «افترسَتهم» بدلًا من «مضغَتهم»، وحذفتُ «هائج» و«آنف الذكر»، فلم يغضب، لأن پاسكوال ما كان يغضب قطّ، وإنما سجَّل اعتراضه قائلًا:

- «ها هو دُوُن ماريو يخرِّب أسلوبي كعهده في كل مرة!».

أمضيتُ أسبوعي كاملًا وأنا أحاول كتابة قصة تقوم على حكاية أخبرني بها الخال پِدرو، الطبيب الذي يعمل في واحدة من ضياع أنكاش، إذ حكى لي أن قرويًّا تنكَّر ذات ليلة في هيئة الپيشتاكو (الشيطان)، وأفزع قرويًّا آخر، مُعترِضًا طريقه وسط الأرض المقصبة. وإذا ضحية المزحة يتملَّكه ذعر شديد إلى الحدّ الذي جعله ينهال بساطوره على الپيشتاكو، فأرسله إلى العالَم الآخر وقد شُجَّت جمجمته نصفَيْن، ثم ولَّى هاربًا إلى الجبل. وبعد فترة، كان جمعٌ من الناس في طريقهم إلى الخروج من حفلة، وإذا هم يباغتون الپيشتاكو يجوس في البلدة، فقتلوه ضربًا بالعصي. ثم اتَّضح أن القتيل هو نفسه قاتل الپيشتاكو الأول، إذ بات يتنكَّر في هيئة الشيطان حتى يزور أسرته ليلًا. وهكذا ولَّى القتلة هاربين إلى الجبل بدورهم، ثم باتوا يتنكَّرون في هيئة الپيشتاكو ويحضرون ليلًا إلى البلدة، حيث قُتِل اثنان منهم ضربًا بالسواطير، إذ قتلهما القرويّون المذعورون الذين فعلوا الشيء نفسه، وهكذا دواليك. لم يكُن الحادث الذي وقع في ضيعة الخال پِدرو هو الشيء الذي أردتُ أن أحكيه، وإنما الخاتمة التي خطرَت على بالي: ففي لحظة بعينها، يتسلَّل الشيطان الحقيقي وسط كثيرٍ من الپيشتاكو الزائفين، مفعمًا بالحياة. كنتُ سأختار لقصتي عنوان **القفزة النوعية**، وأردتُ لها أن تكون باردة، عقلانيّة، مُكثَّفة، ساخرة، على غرار قصص بورخيس، الذي كنتُ

قد اكتشفتُه لتوّي في تلك الأيام. نذرتُ للقصة جميع الثغرات التي وجدتُها بين نشرات پانامريكانا الإخبارية والجامعة وفناجين القهوة في برانسا. كنتُ أكتب في بيت جدي وجدتي، ظهرًا وليلًا. وفي ذلك الأسبوع، لا تناولتُ الغداء في بيوت أخوالي، ولا زرتُ بنات أخوالي كالمعهود، ولا ذهبتُ إلى السينما. بل إنني رحتُ أكتب وأمزِّق ما أكتب. أو بالأحرى، كنتُ كلّما كتبتُ عبارةً، رأيتُها بشعة، وبدأتُ من جديد. كنتُ على يقين بأن الخطأ الكتابي أو الإملائي لا يقع عرضًا على الإطلاق، بل إنه دعوة إلى الانتباه، أو تحذير (من العقل الباطن، أو من الرَّب، أو من شخص آخر)، تحذير مفاده أن العبارة لا جدوى منها، ولا بدّ من إعادة كتابتها. مضى پاسكوال يمتعض قائلًا: «سحقًا، لو اكتشف آل خينارو هذا الإهدار في الورق، لدفعنا ثمنه من رواتبنا». وأخيرًا، ذات خميس، ظننتُ أنني قد أتممتُ القصة التي كتبتُها على شكل مونولوج من خمس صفحات، يكتشف القارئ في نهايته أن الراوي هو الشيطان بعينه. قرأتُ **القفزة النوعية** على خابيير في علّيتي، بعد برنامج پانامريكانو الذي أُذيع في الثانية عشرة.

- «ممتاز يا أخي»، أدلى بحكمه مُصفِّقًا. «ولكن، أما زالَت الكتابة عن الشيطان ممكنة؟ لماذا لا تكتب قصة واقعية؟ لماذا لا تُقصِي الشيطان وتترك الأمر برمّته بين الپيشتاكو الزائفين؟ وإلَّا، فاكتبْ قصة خيالية، بكل ما يحلو لك من الأشباح. ولكن من دون شياطين، من دون شياطين، فذلك شيء تنبعث منه رائحة الدين والتقوى وأمور عفا عليها الزمن».

وحين غادر، مزَّقتُ **القفزة النوعية**، وتركتُها نُتَفًا صغيرة، وألقيتُها في سلة المهملات، ثم اتَّخذتُ قراري بنسيان الپيشتاكو، وذهبتُ لتناول الغداء في بيت الخال لوتشو، حيث عرفتُ بظهور ما

يشبه العلاقة الرومانسية بين المرأة البوليفية وشخص كنتُ أعرفه سماعًا، جمعَته بالعشيرة صلة قرابة: أدولفو سالسيدو، السيناتور وصاحب الأراضي ابن أريكيپا.

- «ميزة الخاطب أنه صاحب مال ومكانة، وأنه جادٌّ في نواياه مع خوليا»، قالت زوجة خالي أولغا مُعقِّبة. «لقد عرض عليها الزواج».

- «ولكن ما يعيب دون أدولفو أنه ما زال لم يفنِّد الاتهام الفظيع المُوجَّه إليه، مع أنه في الخمسين من العمر»، أجابها الخال لوتشو. «لو تزوَّجَت منه أختك، لاضطُرَّت إلى العفة أو الزنى».

- «إن حكايته مع كارلوتا واحدة من الافتراءات الشائعة في أريكيپا»، احتجَّت زوجة خالي أولغا. «أدولفو يملك جميع مقومات الرجل مكتمل الرجولة».

أما «**حكاية**» السيناتور ودونيا كارلوتا، فكنتُ على أتمّ دراية بها، إذ اتَّخذتُها موضوع قصة أخرى، أفضى بها مديحُ خابيير إلى سلة المهملات بدورها. أحدثَت زيجة دون أدولفو ودونيا كارلوتا دويًّا صاخبًا في جنوب الجمهورية، لأن كليهما يمتلك الأراضي في پونو، فترتَّبَت على ذلك التحالف الناشئ بينهما آثارٌ إقطاعية. أقاما احتفالًا هائلًا، ووليمة باذخة، كما عقدا الزواج في كنيسة ياناوارا الجميلة، فحضر المدعوون من أنحاء بيرو كافة. وبعد أسبوعَيْن من شهر العسل، هجرَت العروس زوجها في إحدى بقاع العالَم، ثم عادَت وحدها إلى أريكيپا عودةً فاضحة. وأمام الذهول الذي عمَّ الجميع، أعلنَت أنها سوف تطلب من روما إبطال الزواج. ثم كان أن التقَتها أمُّ أدولفو سالسيدو ذات أحد، في طريق الخروج من قداس الحادية عشرة، وفي ساحة الكاتدرائية وبَّخَتها قائلة:

- «لماذا هجرتِ ابني المسكين كما فعلتِ أيتها المجرمة؟».

وبلفتة رائعة، أجابتها ابنة پونو صاحبة الإقطاعيات بصوت مرتفع حتى يسمعها الحضور جميعًا:

- «لأن ذلك الشيء الذي يملكه الرجال، لا يقدر ابنُكِ على استخدامه إلَّا في التبوُّل يا سيدتي».

أفلحَت في إبطال الزواج الديني، وصار أدولفو سالسيدو منبعًا لا ينضب للنكات في التجمُّعات العائلية. منذ تعرَّف بالخالة خوليا، لاحقها بالدعوات إلى مطعمَي ٩١ وغريل بوليفار، وطفق يهديها العطور ويقصفها بسلال الورد. كنتُ سعيدًا بخبر العلاقة الرومانسية، وتوقَّعتُ من الخالة خوليا أن تحضر لترمي المُرشَّحَ الجديد بأحد سهامها. ولكنها خيَّبَت ظنّي. لأنها هي التي أعلنَت، بضحكة مجلجلة، حين جاءت مُحمَّلةً بكومة من صناديق المشتريات إلى قاعة الطعام في موعد القهوة:

- «لقد كانت الشائعات صحيحة، فالسيناتور سالسيدو عاجز عن الأداء!».

- «خوليا، رباه، لا تكوني عديمة التهذيب!»، احتجَّت زوجة خالي أولغا. «مَن سمعكِ قال إن. . .».

- «لقد أخبرني بنفسه صباح اليوم»، أوضحَت الخالة خوليا، سعيدةً بمأساة الرجل الإقطاعي.

كان طبيعيًّا حتى الخامسة والعشرين من العمر. عند ذاك، وخلال إجازة مشؤومة في الولايات المُتَّحدة، نزلَت به النكبة. في شيكاغو أو سان فرانسيسكو أو ميامي - لم تتذكَّر الخالة خوليا - أوقع الشاب أدولفو بامرأة في كباريه (أو خُيِّل إليه أنه قد أوقع بها)، فمضَت به إلى أحد الفنادقِ، وبينما هو في أوج اللقاء، أحسّ بنصل السكين ينخز ظهره. التفت، وإذا أمامه رجل أعور يبلغ من الطول مترَيْن. لم يجرحاه أو يضرباه، بل اكتفيا بسرقة الساعة والميدالية

والدولارات. وهكذا بدأت الورطة. إذ لم يستردّ قدرته على الأداء قطّ. ومنذ ذلك الحين، صار كلّما أوشك على خوض لقاء مع امرأة، يحسّ ببرودة المعدن تسري في العمود الفقري، ويرى وجه الأعور المُشوَّه، ويتصبَّب عرقًا، وترتخي معنوياته. طلب مشورة أعداد كبيرة من الأطباء والأطباء النفسيين. بل إنه استعان بأحد المداوين من أريكيپا، كان يدفن جسده حيًّا طوال الليالي المقمرة في سفوح البراكين.

- «لا تكوني خبيثة، ولا تسخري منه، يا للمسكين»، أخذَت زوجة خالي أولغا تنتفض من شدّة الضحك.

- «لو كنتُ على يقين من بقائه على تلك الحال دائمًا، لتزوَّجتُه من أجل نقوده»، قالت الخالة خوليا في غير حرج. «ولكن، ماذا لو عالجتُه بنفسي؟ أتتخيَّلين ذلك العجوز وهو يحاول أن يعوِّض الزمن المفقود معي؟».

فكَّرتُ في السعادة التي كانت ستُدخِلها مغامرةُ سيناتور أريكيپا على نفس پاسكوال، والحماسة التي كان سيفرد بها نشرة أخبار كاملة للقصة. مضى الخال لوتشو يحذِّر الخالة خوليا، ويقول إنها لو أظهرَت مغالاتها في الطلب، لما وجدَت زوجًا بيروفيًّا. تحسَّرَت لأن أصحاب الوسامة فقراء، وأصحاب الثراء لا حظّ لهم من الوسامة، شأنهم في ذلك شأن أهل بوليفيا. أما لو ظهر ثريٌّ وسيم، فلا بدّ أن يكون مُتزوِّجًا. وإذا هي تواجهني فجأة، وتسألني إن كنتُ قد امتنعتُ عن الحضور طوال الأسبوع الماضي خشية أن تسوقني إلى السينما مرة أخرى. فأنكرتُ، واختلقتُ امتحانات، وعرضتُ عليها أن نذهب الليلة إلى السينما.

- «رائع! إلى لِوْرو. - اتَّخذَت قرارها في ديكتاتورية - الفيلم المعروض يجعل المشاهدين يبكون بحرقة».

وعلى متن سيارة الأجرة المشتركة التي ركبتُها عائدًا إلى راديو بانامريكانا، رحتُ أقلِّب في رأسي الفكرة التي حدَّثَتني بأن أحاول كتابة قصة قصيرة بالاستناد إلى حكاية أدولفو سالسيدو مرة أخرى، على أن تكون قصة خفيفة مبهجة على طريقة الكاتب سومرت موم، أو إيروتيكية خبيثة مثل أعمال موباسان. وفي الراديو، ألفيتُ نيلي، سكرتيرة خينارو الابن، تضحك وحيدة في مكتبها. ما الدعابة التي أضحكَتها؟

- «لقد وقعَت مشكلة في راديو سنترال بين بِدرو كاماتشو وخينارو الأب»، أخبرَتني نيلي. «لأن البوليفي لا يريد مُمثِّلًا واحدًا من الأرجنتين في المسلسلات الإذاعية، وإلَّا فلقد هدَّد بالرحيل. استطاع أن يقنع لوسيانو پاندو وخوسيفينا سانتشيس بدعمه، فتحقَّق له ما أراد. وسوف تُلغَى عقود المُمثِّلين الأرجنتينيين، أليس هذا رائعًا؟».

كانت المنافسة محتدمة بين مُقدِّمي البرامج الإذاعية والفنِّيين والمُمثِّلين المحليين من جهة، ونظائرهم الأرجنتينيين من جهة أخرى - أولئك الذين جاؤوا إلى بيرو في موجات من الهجرة، إذ نُفِي كثير منهم لأسباب سياسية - فخُيِّل إليَّ أن كاتب السيناريو البوليفي قد نفَّذ تلك العملية ليكسب ودّ زملاء العمل المحليين. ولكن لا، فسرعان ما اكتشفتُ عجزه عن إجراء حسبة من هذا القبيل. أما شعوره بالكراهية نحو الأرجنتينيين على وجه العموم، والمُمثِّلات والمُمثِّلين الأرجنتينيين على وجه الأخصّ، فبدا مُنزَّهًا عن الأغراض. ذهبتُ لرؤيته بعد نشرة أخبار السابعة حتى أخبره بأن لديّ مُتَّسعًا من الوقت وفي إمكاني مساعدته وتزويده بالمعلومات التي كان في حاجة إليها. سمح لي بالدخول إلى جحره. وبلفته سخية، قدَّم لي المقعد الوحيد المتاح، إلى جانب كرسيه: أي ركن الطاولة التي اتَّخذها مكتبًا. ما

زال يرتدي السترة ويضع البابيون حول عنقه، وقد أحاطَت به الأوراق المكتوبة على الآلة، تلك التي رصّها بعناية قرب آلة الرِمينغتون. أما خارطة ليما، فحجبَت جزءًا من الجدار الذي ثُبِّتَت فوقه بالدبابيس، واكتسَت بمزيد من الألوان، وأشكال غريبة رُسِمَت بقلم رصاص أحمر اللون، وحروف مختلفة تُميِّز كل حي من الأحياء. سألتُه عن تلك العلامات والحروف، فأومأ راسمًا واحدة من تلك الابتسامات المقتضبة الآلية التي طالما انطوَت على شعور حميمي بالرضى عن الذات، وشيء من الطيبة. ثم شرع يلقي خطبة وهو يعتدل في جلسته على الكرسي:

- «أشتغلُ بالحياة، وتتمسَّك أعمالي بالواقع كما يتشبَّث العنب بالكروم. ولذا أحتاج إليك. أريد أن أعرف إن كان ذلك العالَم مطابقًا لتلك الحال أم لا».

أشار إلى الخارطة بينما قرَّبتُ رأسي في محاولة مني لكشف مغزى كلامه. كانت الحروف ملغزة، فهي لا تشير إلى مُؤسَّسة واحدة أو شخص معروف واحد. لم يتَّضح لي مما فعل سوى فصل الأحياء المختلفة الآتية بدوائر حمراء اللون: ميرافلوريس وسان إسيدرو ولا بيكتوريا وكاياو. قلتُ له إنني لم أفهم شيئًا، وطلبت منه أن يوضح مقصده.

- «إنه شيء في غاية السهولة»، أجابني نافد الصبر، بصوت كاهن. «أهم ما في الأمرِ الحقيقة، فلطالما كانت الحقيقة فنًّا. أما الأكذوبة، فلا. أو قلّما تغدو الأكذوبة فنًّا. يجب عليَّ أن أعرف إن كانت ليما كما وضَّحتُ على الخارطة. على سبيل المثال، أتليق بسان إسيدرو **الألِفان** اللتان أشرتُ بهما إليه؟ أهو حي **الأصالة العريقة، والأرستقراطية الثرية؟**».

قالها مُشدِّدًا على الألِفَيْن اللتين تبدأ بهما الكلمتان، بنبرة أراد

بها: «وحدهم العميان لا يرون ضوء الشمس!». صنَّف بِدرو كاماتشو أحياء ليما حسب أهميتها الاجتماعية. أما الشيء الجدير بالفضول، فتلك النعوت التي لجأ إليها وطبيعة المُسمَّيات التي أطلقها. حالفه التوفيق في بعض الحالات، بينما اتَّسمَت اختياراته بعشوائية مُطلَقة في حالات أخرى. فعلى سبيل المثال، أقررتُ له بأن الأحرف التي وسم بها حيَّ خيسوس ماريا تليق به: **ط. أ. ر.** (**طبقة وسطى. أصحاب مهن. ربات بيوت**). ولكني حذَّرتُه من الإجحاف الذي تنطوي عليه الإشارة إلى منطقتَي لا بيكتوريا وپوربِنير بتلك السمات الفظيعة: **ك. م. م. ع.** (**كسالى. مُخنَّثون. مُخرِّبون. عاهرات**)، وأنه من المثير للجدل بشدة اختزال حيّ كاياو في **ب. ص. ز.** (**بحارة. صيادون. زنوج**)، أو اختزال منطقتَي سيركادو وأغوستينو في **خ. ع. ق. هـ.** (**خادمات. عُمَّال. قرويّون. هنود**).

- «ليس توصيفًا علميًّا، وإنما فنيًّا»، أخبرني مُلوِّحًا بيدَيْه القزمتَيْن بحركات سحرية. «لا يهمّني **مجمل** السكان في كل حي، وإنما أكثرهم جذبًا للأنظار، أولئك الذين يصبغون كل مكان بألوانهم وعطورهم. ما دام أحد الأبطال يعمل طبيب نساء، فلا بدّ أن يعيش حيث يلائمه، وبالمثل ما دام رقيبًا في الشرطة».

أخضعني لاستجواب مسهب ومُسلٍّ (من وجه نظري الشخصية، لأنه ظلّ محتفظًا بجديته الجنائزية)، سألني فيه عن الطبوغرافيا البشرية لمدينة ليما، فلاحظتُ أن الدرجات القصوى هي أكثر ما يهمّه: فإما أصحاب الملايين وإما الشحاذون، إما البيض وإما السود، إما القديسون وإما المجرمون. وبالحكم على الردود التي رحتُ أدلي بها، كان يضيف إلى الخارطة أحرفًا أو يبدِّل أحرفًا أو يحذف أحرفًا، بلفتة سريعة، من دون أن يتردَّد لحظةً واحدة، ما جعلني أفكِّر أنه قد ابتكر منظومة التصنيف تلك منذ زمن. لماذا اكتفى

برسم الدوائر حول مناطق ميرافلوريس وسان إسيدرو ولا بيكتوريا وكاياو؟

- «لأنها سوف تكون مسرحًا رئيسيًّا للقصص، من دون شكّ»، قال وهو يجيل عينَيْه الجاحظتَيْن في الأحياء الأربعة باستعلاء نابليوني. «أنا رجل يكره أنصاف الحلول، والماء العكر، والقهوة المائعة. يروقني أن تكون الإجابة إما بنعم وإما بلا، إما الرجال المسترجلون وإما النساء المُتأنِّثات، إما الليل وإما النهار. لطالما كان أبطال أعمالي من الأرستقراطيين أو من عامة الشعب، العاهرات أو القديسات. أما الطبقة الوسطى، فلا تلهمني ولا تلهم جمهوري».

- «إنك تشبه الكتَّاب الرومانسيين»، خطر لي أن أقول له، فلم تكُن خاطرة مُوفَّقة.

- «بل إنهم هم الذين يشبهونني في جميع الأحوال»، هبَّ قافزًا من كرسيه، بصوت مفعم بالاستياء. «لم يحدث أن انتحلتُ أعمال غيري يومًا. قد يلومني اللائم على كل شيء، إلَّا تلك الوصمة. بل إنني أنا الذي تعرَّضتُ للسرقة بالطرائق الأشدّ إجحافًا».

وددتُ لو أوضح له أنني لم أخبره بوجه الشبه بينه وبين الرومانسيين حتى أهينه، بل إنها مُجرَّد دعابة. غير أنه لم ينصت إليَّ، بل استشاط غضبًا، ومضى يلوِّح بيدَيْه كمن يقف أمام جمهور مُترقِّب. وبصوته البديع، انطلق يهدر في ثورة عارمة:

- «لقد انتشرَت أعمالي في كل أرجاء الأرجنتين، بعد أن انحطّ قدرها على أيدي كُتَّاب أرجنتينيين ضِحال. هل التقيتَ أحد الأرجنتينيين يومًا؟ متى رأيتَ أحدهم، فاعبر الطريق إلى الرصيف المقابل، لأن داء الأرجنتينيّة مثل الحصبة، ينتقل بالعدوى!».

تراءى وجهه مُمتقِعًا، وأنفه مُرتجِفًا، بينما راح يكزّ على أسنانه

مُبديًا أمارات الاشمئزاز، فشعرتُ بالحيرة أمام ذلك الجانب الجديد من جوانب شخصيته، وتلعثمتُ مُتحدِّثًا عن أمور مبهمة عمومية، مُعبِّرًا عن أسفي لغياب قوانين حقوق المُؤلِّفين ولعدم حماية الملكية الفكرية في أمريكا اللاتينية، وإذا بي أرتكب خطأً جديدًا بما قلت.

- «لم أقصد هذا، فأنا لا أكترث لانتحال أعمالي»، أجابني وقد احتدمَت ثائرته أكثر وأكثر. «إننا، معشر الفنانين، لا نعمل من أجل المجد، بل من أجل حبّ الإنسان. وأي شيء أحب إلى نفسي من انتشار أعمالي في أرجاء العالَم، حتى وإن صدرَت بتوقيع آخرين! ولكن الذنب الذي لا يُغتفَر لأولئك الكتاب الأرجنتينيين السيئين أنهم يُدخِلون التغييرات على نصوصي ويبتذلونها. أتعرف ماذا يفعلون بها؟ بخلاف تغيير العناوين وأسماء الشخصيات، طبعًا... إنهم يضيفون إليها تلك السمات الأرجنتينيّة».

- «إنه الغرور»، قاطعتُه وأنا على يقين بإصابتي الهدف هذه المرة. «والابتذال».

هزَّ رأسه نافيًا بازدراء، وفي رصانة مأساوية أدلى بالكلمتَيْن النابيتَيْن اللتين لم أسمعه ينطق بغيرهما، بصوت أجوف بطيء ظلّ يتردَّد في ذلك الجحر:

- «بل إنه العهر والتخنُّث».

شعرتُ برغبة تدفعني إلى استدراجه في الكلام، والوقوف على السبب الذي جعله يكره الأرجنتينيين بأشدّ مما يكره سواهم من الناس. ولكني رأيتُه في تلك الحالة العصبية، فلم تواتِني الجرأة. أشار بلفتة تنمّ عن مرارة، ماسحًا النظارة بيده وكأنما ليطمس أشباحًا بعينها. بعد ذلك، أوصد نوافذ جحره، وقد ارتسمَت على وجهه أمارات الألم، ثم ترك أسطوانةَ آلةِ الرمينغتون في المنتصف، واضعًا فوقها الغطاء، وأصلح وضع البابيون. أخرج من مكتبه كتابًا ضخمًا،

وتأبَّطه مشيرًا إليَّ بالخروج معه، ثم أطفأ النور، وأقفل باب كهفه من الخارج بالمفتاح. سألتُه عن ذلك الكتاب، فمسح بيده على كعب المُجلَّد في حنان، وكأنه يربّت على قطٍّ.

- «إنه رفيق مغامرات قديم»، غمغم في تأثُّرٍ، وهو يمدّ لي الكتاب. «صديق مخلص، ومساعد جيد في العمل».

أما الكتاب، الذي صدر عن دار إسپاسا كالپي ما قبل التاريخ - بأوراقه الضاربة إلى الصفرة، ودفَّتَيْه السميكتَيْن اللتين ظهر عليهما كل ما في العالَم بأسره من بقع وخدوش - فكان لمُؤلِّف مجهول، على الرغم من التعريف الرنَّان الذي قُدِّم به (أدالبِرتو كاستيخون دي لا ريغيرا، الحاصل على ليسانس الآداب الكلاسيكية والنحو والبلاغة من جامعة مورسيا). أما العنوان، فجاء مُطوَّلًا: **عشرة آلاف مقولة أدبية لأفضل مئة كاتب في العالَم**. أضفْ إلى ذلك العنوان الفرعي: «ما رواه ثربنتس وشكسبير وموليير وغيرهم عن الرَّب والحياة والموت والحب والشقاء إلى آخره...».

كنا قد بلغنا شارع بيلين. وحين مددتُ له يدي، خطر لي أن ألقي نظرة على ساعتي، فانتابني الهلع: كانت العاشرة ليلًا. شعرتُ بأنني قد أمضيتُ نصف ساعة برفقة الفنان، مع أن تحليل المدينة في ضوء النمائم والطبقات الاجتماعية، فضلًا عن حديث كراهية الأرجنتينيين، قد استغرقا ثلاث ساعات في واقع الأمر. هرولتُ إلى مقرّ پانامريكانا وأنا على قناعة بأن پاسكوال قد أفرد الخمس عشرة دقيقة التي تستغرقها نشرة أخبار التاسعة لأحد المهووسين بإشعال الحرائق في تركيا أو أحد قتلة الأطفال بحيٍّ پوربِنير. وعلى الرغم من ذلك، فلا بدّ أن الأمور لم تكُن بهذا السوء، إذ التقيتُ خينارو الأب والابن في المصعد، فلم أرَ عليهما أمارات السخط العارم. أخبراني بأنهما قد وقَّعا عقدًا مع المُغنِّي لوتشو غاتيكا مساء اليوم، يحضر

بموجبه أسبوعًا إلى مدينة ليما، حيث يجري لقاءً حصريًا مع راديو پانامريكانا.

في علّيتي، راجعتُ نشرات الأخبار، التي كانت مقبولة. ومن دون استعجال، ذهبتُ إلى ميدان سان مارتين لأستقلّ سيارة أجرة مشتركة إلى ميرافلوريس.

وصلتُ إلى بيت جدّي وجدّتي في الحادية عشرة ليلًا، فوجدتُهما قد خلدا إلى النوم. لطالما تركا الطعام في الفرن من أجلي. وفي تلك المرة، فضلًا عن اللحم المُحمَّر والأرز والبيض المقلي - وجبتي التي لا تتغيَّر - وجدتُ رسالةً مكتوبة بخط مرتجف، جاء فيها: «اتَّصَل بك الخال لوتشو وقال إنك قد أخلفتَ موعدك مع خوليتا بعد أن اتَّفقتما على الذهاب إلى السينما. كما قال إنك همجي، ويجب عليك الاتصال بها وطلب المعذرة. جدُّك».

فكَّرتُ أن السهو عن نشرات الأخبار وموعد مع امرأة من أجل كاتب السيناريو البوليفي ضربٌ من الشطط. أويتُ إلى الفراش مُنزعِجًا، حادّ المزاج، بسبب وقاحتي غير المُتعمَّدة. رحتُ أقلِّب الأمر في ذهني قبل الاستغراق في النوم، محاولًا إقناع نفسي بأن الذنب يقع على عاتقها لأنها ترغمني على الذهاب إلى السينما لمشاهدة تلك الأعمال الرهيبة الحافلة بالدراما، مُفتِّشًا عن حجةٍ أتعلَّل بها متى اتَّصلَت في اليوم التالي، فلم تخطر على بالي حجة واحدة مقنعة، ولم تواتِني الجرأة على الاعتراف بالحقيقة. ولكني بادرتُ بلفتة بطولية، فبعد نشرة أخبار الثامنة، ذهبتُ إلى دكان أزهار في وسط المدينة، وأرسلت إليها طاقة ورد كلَّفَتني مئة صول، مُرفَقة ببطاقة كتبتُ فيها، بعد طول تردُّد، النصَّ الذي بدا لي آيةً من آيات الإيجاز والأناقة: «خالص الاعتذار».

في المساء، بين نشرة أخبار وأخرى، وضعتُ بعض الرسوم

التخطيطية لقصتي الإيروتيكيّة-البيكاريسكيّة[1] عن مأساة سيناتور أريكيپا، التي نويتُ العمل عليها بجدٍّ في تلك الليلة. وعلى الرغم من ذلك، فلقد حضر خابيير بعد برنامج پانامريكانو، واصطحبني إلى جلسة تحضير أرواح في باريوس ألتوس، حيث كان الوسيط كاتبًا إداريًّا تعرَّف به خابيير في مكاتب مصرف ريسيربا. سبق أن حدَّثني عنه كثيرًا، فلطالما أخبره الوسيط بحوادث تقع بينه وبين الأرواح، التي لا تكتفي بالحضور إذا استحضرها في الجلسات الرسمية وحسب، بل إنها تحضر من تلقاء نفسها أيضًا، في الظروف الأبعد عن التوقُّع. كما درجَت الأرواح على مداعبته بأمور من قبيل دقّ جرس التليفون فجرًا: فلا يكاد يرفع السماعة حتى يسمع على الجانب الآخر ضحكة جدّته الكبرى التي لا يخطئها السامع، مع أنها قد فارقَت الحياة قبل نصف قرن واستقرَّ بها المقام في المطهر منذ ذلك الحين (حسبما أخبرَته بنفسها). كانت الأرواح تظهر له في الحافلات، أو في سيارات الأجرة المشتركة، أو بينما هو يسير في الشارع، وتهمس له في سمعه، فيُضطَرّ إلى الصمت والجمود (أو «التعامي عنها»، حسبما قال) لئلَّا يحسبه الناس مجنونًا. فُتِنتُ بالأمر، وطلبتُ من خابيير أن يرتِّب جلسةً مع الكاتب الإداري وسيط الأرواح، فقبل الأخير، وإن ظلَّ يسوِّفنا طوال أسابيع، مُتعلِّلًا بأعذار جوّية: فلا بدّ من انتظار طور بعينه من أطوار القمر، والمدّ والجذر، وعوامل أخرى أكثر تخصُّصًا. لأن الأرواح، على ما يبدو، أكثر حساسيةً تجاه الرطوبة وكوكبات النجوم والرياح. وأخيرًا، حان اليوم الملائم.

---

(١) البيكاريسكيّة أو الشُّطَّاريّة أو الصعلوكيّة: لون أدبي ظهر في إسبانيا خلال القرن السادس عشر، يروي عادات وتقاليد الطبقات الدنيا من المجتمع ومغامرات الشطار والصعاليك. (المترجم)

وجدنا مشقة بالغة في العثور على بيت الكاتب الإداري وسيط الأرواح، الذي كان يعيش في شقة رثَّة، محشورة في القسم الخلفي من أحد الأبنية بشارع كانغاياو. في الواقع، كان ذلك الشخص أقل إثارة للاهتمام كثيرًا مما جاء في حكايات خابيير. كان ستينيًّا، أعزب، أصلع، تنبعث منه رائحة دهان مروخ، له نظرة خليقة بالأبقار، وحديثه مغرق في التفاهة مع سبق الإصرار، إلى حدٍّ لا يسمح للمُستمِع بأن يعتقد بوجود تلك العلاقة الوثيقة بينه وبين الأرواح. استقبلنا في صالة صغيرة، متهالكة، قذرة. دعانا إلى تناول بعض المقرمشات وقطع الجبن الطازج ونزر يسير من شراب البيسكو. أخذ يحكي لنا عن تجاربه مع العالَم الآخر حتى الثانية عشرة، بنبرة تقريرية. بدأت تجاربه بعد أن ترمَّل، منذ عشرين عامًا، حين أغرقه موت زوجته في حزن بلا عزاء. حتى كان يومٌ أنقذه فيه أحد الأصدقاء، إذ كشف له طريق تحضير الأرواح، فاتَّضح أنه الحدث الأهم في حياته.

- «لم يكُن السبب الوحيد أن تحضير الأرواح فرصة تسمح بالاستمرار في رؤية الأحبَّاء وسماعهم»، قال بنبرة تليق بمن يعقِّب على حفل معمودية. «بل إن تحضير الأرواح فوق ذلك يصرف الذهن كثيرًا، فتمرّ الساعات والمرء لا يدري».

كان كلامه يترك في نفس المستمع انطباعًا بأن التحدُّث إلى الموتى، من حيث الجوهر، أمرٌ يضاهي مشاهدة الأفلام أو مباريات كرة قدم (بل إنه أقل حظًّا من التسلية، بلا أدنى شك). أما نسخته من الحياة الأخرى، فكانت رهيبة في رتابتها اليومية وإغراقها في الإحباط. وبالحكم على الأشياء التي أخبرنا بها، فلم يكُن هناك اختلاف بين هنا وهناك من حيث الكَيْف: ذلك أن الأرواح تمرض وتعشق وتتعب وتتكاثر وتسافر، والفارق الوحيد أنها لا تموت أبدًا.

وبينما رحتُ أرشق خابيير بنظرات قاتلة، دقَّت الساعة معلنة تمام الثانية عشرة. وعند ذاك، أجلسنا الكاتب الإداري حول طاولة (لم تكُن مستديرة، بل مُربَّعة)، ثم أطفأ النور، وأمرنا بأن يمسك كل منا يد الآخر. مرَّت ثوانٍ من الصمت، والأمل يحدِّثني بأن يصبح الأمر جديرًا بالاهتمام، في حين توتَّرَت أعصابي من فرط الترقُّب. بدأت الأرواح في الحضور، فأخذ الكاتب الإداري يسألها عن الأمور الأشدّ ضجرًا في العالَم بأسره، بالصوت الداجن نفسه: «وكيف حالكِ يا سويليتا؟ سعدتُ بسماع صوتك. هأنذا مع هذين الصديقَيْن. كلاهما شخص في غاية الطيبة، مُهتَّمٌ بالاتصال بعالمكِ يا سويليتا. كيف؟ ماذا؟ هل أبلغهما تحيتكِ؟ طبعًا يا سويليتا. تطلب مني أن أبلغكما تحيتهما المفعمة بالمودة، كما تطلب أن تصلِّيا من أجلها بين الحين والآخر، لو أمكن، لتخرج من المطهر في القريب العاجل».

وبعد سويليتا، حضر عددٌ من الأقرباء والأصدقاء الذين دارَت بينهم وبين الكاتب الإداري حوارات مشابهة. كلهم في المطهر، وكلهم يرسل إلينا تحياته، وكلهم يطلب أن نصلِّي من أجله. أصرّ خابيير على استحضار روح من الجحيم، حتى نقطع الشكّ باليقين. ولكن الوسيط الروحاني أوضح لنا استحالة الأمر من دون أن يتردَّد ثانية واحدة: فالساكنون **هناك** لا يمكن **استحضارهم** إلَّا خلال الأيام الثلاثة الأولى من الشهور الفردية، أضف إلى ذلك أن أصواتهم خافتة، تكاد لا تُسمَع. عندئذ طلب خابيير استحضار المُربِّية التي ربَّته هو وإخوته ومن قبلهم أمه، فحضرَت دونيا غومِرسيندا، التي أرسلَت إلينا تحياتها، وقالت إنها تذكر خابيير بكثير من المودة، وأنها تحزم حقائبها تأهُّبًا لمغادرة المطهر ثم لقاء ربِّها. طلبتُ من الكاتب الإداري الاتِّصال بشقيقي خوان، والشيء المفاجئ أنه قد حضر (وأنا الذي لم يكُن لي أشقاء قطّ)، وطلب مني، بصوت الوسيط الحميد،

ألّا أقلق بشأنه لأنه في كنف الرَّب، وقال إنه يصلّي من أجلي دائمًا. اطمأنَّت نفسي إلى ذلك الخبر، وفقدتُ اهتمامي بالجلسة، ثم انصرفتُ إلى كتابة قصة السيناتور في ذهني. خطر على بالي عنوان مفعم بالغموض: **وجه غير مُكتمِل**. وبينما أصرّ خابيير، بلا كلل، على مطالبة الكاتب الإداري باستحضار أحد الملائكة، أو على الأقل أحد الشخصيات التاريخية من أمثال مانكو كاپاك، استقررتُ أنا على حلٍّ مشكلة السيناتور في الخاتمة عن طريق خيال فرويدي: واضعًا على عين زوجته رقعةً مثل القراصنة، متى حانَت لحظة الحبّ.

انتهَت الجلسة قرابة الثانية فجرًا. وبينما سرنا في شوارع باريوس ألتوس بحثًا عن سيارة أجرة تحملنا إلى ميدان سان مارتين حتى نستقلّ سيارة الأجرة المشتركة، كدتُ أدفع خابيير إلى حافة الجنون وأنا أقول له إن العالَم الآخر قد فقد الشاعرية والغموض بسببه، وإنني قد رأيتُ ما يدلّ على حماقة الموتى جميعًا بسببه، وإنني ما عدتُ قادرًا على التمسُّك باللاأدرية بسببه، وصرتُ مُضطَرًّا إلى العيش مُوقِنًا بأن أبديةً كاملة من البلاهة والضجر تنتظرني في الحياة الأخرى، **التي كانت على قيد الوجود بالفعل**. وجدنا سيارة، فدفع خابيير الأجرة عقابًا له على ما جرى.

وفي البيت، وجدتُ مع اللحم المُحمَّر والبيض والأرز رسالةً أخرى: «اتَّصلَت بك خوليتا. تلقَّت الورد، وتقول إنه في غاية الجمال، وأعجبها كثيرًا. ولكن لا تحسب أنك سوف تتهرَّب من اصطحابها إلى السينما في أحد الأيام لمُجرَّد أنك أهديتَها وردًا. جدُّك».

صادف اليومُ التالي عيدَ ميلاد الخال لوتشو، فاشتريتُ ربطة عنق حتى أهديه إياها، وهممتُ بالذهاب إلى بيته ظهرًا، وإذا بخينارو الابن يحضر إلى العلّية في وقت غير مناسب، ويرغمني على الذهاب

لتناول الغداء معه في مطعم رايموندي. أراد مني أن أساعده في كتابة الإعلانات التي يزمع نشرها يوم الأحد في الصحف مُعلِنًا عن مسلسلات پِدرو كاماتشو الإذاعية التي يبدأ بثُّها يوم الإثنين. ألم يكُن الأكثر منطقيةً أن يشارك الفنان بنفسه في كتابة هذه الإعلانات؟

- «المشكلة أنه يأبى ذلك»، أوضح لي خينارو الابن وهو يدخِّن كالمدخنة. «يدَّعي بأن أعماله ليست في حاجة إلى دعاية مدفوعة الأجر، بل إنها تفرض نفسها بنفسها، وحماقات أخرى لا أدري لها كنهًا. يبدو الرجل مُعقَّدًا، بهواجسه الكثيرة. عرفتَ بشأن الأرجنتينيين، أليس كذلك؟ لقد أرغمنا على فسخ عقود، ودفع تعويضات. آملُ أن تبرِّر برامجه تلك الغطرسة».

كتبنا الإعلانات ونحن نأكل سمكتَي قاروس، ونشرب البيرة المُثلَّجة، ونشاهد الفئران الرمادية الصغيرة التي كانت تمرّ على العوارض الخشبية في مطعم رايموندي بين الحين والآخر، وكأنما قد وُضِعَت هناك دليلًا على عراقة المكان. أخبرني خينارو الابن بنزاع آخر نشب بينه وبين پِدرو كاماتشو، والسبب في ذلك شخصيات المسلسلات الإذاعية الأربعة التي يبدأ تقديمها في ليما، لأن البطل الرئيسي في الأعمال الأربعة رجلٌ خمسيني «يحتفظ بالشباب على نحو مدهش».

- «أوضحنا له أن استطلاعات الرأي كلها قد أثبتَت رغبة المستمعين في وجود أبطال رئيسيين تتراوح أعمارهم بين الثلاثين والخامسة والثلاثين عامًا، إلَّا أنه كالبغال»، قال خينارو الابن مغمومًا، وهو ينفث الدخان من فمه وأنفه. «وماذا لو أنني ارتكبتُ خطأً جسيمًا؟ ماذا لو ثبت أن البوليفي مُجرَّد إخفاق فادح؟».

تذكَّرتُ أن الفنان، في لحظة بعينها، خلال حديثنا الذي دار بجحره عشية الأمس في راديو سنترال، قد تمسَّك بآرائه القاطعة في

عمر الخمسين لدى الرجال، وقال إنه عمر الخبرة الوافية الذي تصل فيه القدرات العقلية والقوى الحسّية أوجها، فتبلغ رغبة النساء في الرجل ذروتها، وتبلغ رهبة الرجال منه أقصى مداها. وبطريقة مثيرة للشبهات، أصرّ على أن التقدّم في العمر شيء **اختياري**. وهكذا استنتجتُ أن كاتب السيناريو البوليفي في الخمسين، وأنه يرتعد خوفًا من التقدّم في العمر: وإذا هي لمحة من الضعف البشري تظهر في تلك الروح الجامدة كالرخام.

حين فرغنا من كتابة الإعلانات، كان الوقت قد تأخّر أكثر مما يسمح لي بالذهاب إلى ميرافلوريس، فاتّصلتُ بالخال لوتشو لأخبره بأنني سأمرّ في الليل حتى أعانقه بمناسبة عيد ميلاده. افترضتُ أنني سأجد حشدًا من الأقرباء المُحتفِلين، ولكنني لم أجد أحدًا سوى زوجة خالي أولغا والخالة خوليا. أما الأقرباء، فلقد توافدوا على البيت طوال النهار.

كان ثلاثتهم يحتسون الويسكي، فقدّموا لي كأسًا. شكرَتني الخالة خوليا مرة أخرى على الورد - الذي رأيتُه فوق صوان بالصالة، فوجدتُ طاقة الورد في غاية الهزال - وشرعَت تمازحني كعهدها، وتطلب مني الاعتراف بحقيقة «**البرنامج**» الذي طرأ ليلةَ أخلفتُ موعدي: أهي صبية من الجامعة، أم فتاة مبتذلة من الراديو؟ كانت الخالة خوليا ترتدي ثوبًا أزرق، وتنتعل حذاء أبيض، في حين زيَّنَت وجهها وصفَّفَت شعرها في صالون التجميل. مضَت تطلق ضحكات قوية مباشرة، بصوت أجشّ، وعينَيْن جريئتَيْن. اكتشفتُ أنها امرأة جذّابة، وإن جاء اكتشافي مُتأخِّرًا بعض الشيء. في نوبة من نوبات الحماس، قال الخال لوتشو إن المرء لا يتمّ الخمسين إلّا مرة واحدة في العمر: ولذا فنحن ذاهبون إلى غريل بوليفار. فكَّرتُ أنني سوف أُضطَرّ إلى تنحية قصتي جانبًا لليوم الثاني على التوالي،

قصة السيناتور الخصيّ المُنحرِف (وماذا لو اخترتُ لها ذلك العنوان؟). غير أنني لم آسف لذلك، بل سعدتُ سعادةً غامرة بانضمامي إلى هذا الحفل. أما زوجة خالي أولغا، فبعد أن نظرَت إليَّ نظرة فاحصة، أدلَت بحكمها قائلةً إن مظهري لم يكُن الأكثر ملائمةً لغريل بوليفار. وطلبَت من الخال لوتشو أن يعيرني قميصًا نظيفًا وربطة عنق تلفت الأنظار لتعويضي عن البدلة البالية المُجعَّدة قليلًا. كان القميص أكبر من قياسي، وأزعجني الإحساس بعنقي يتراقص في الهواء (الأمر الذي أعطى الخالة خوليا فرصةً لتطلق عليَّ **باباي**).

لم يسبق لي الذهاب إلى غريل بوليفار قطّ، فتراءى لي أنه المكان الأكثر أناقة ورقيًّا في العالَم، بأطعمته التي وجدتُها أشهى ما ذقتُ في حياتي. مضَت فرقةٌ موسيقية تعزف أغاني البوليرو والپاسودوبليه والبلوز. أما نجمة العرض، فكانت فرنسية، بيضاء كالحليب، تلقي أغانيها مُداعِبةً، تاركةً في النفس انطباعًا بأنها تداعب الميكروفون جنسيًّا بكلتا يدَيْها. أما الخال لوتشو، بمزاجه الرائق الذي صفا أكثر وأكثر مع كؤوس الشراب، فانطلق يحيّيها برطانة لا معنى لها، أطلق عليها فرنسية: «براڤووو! براڤووو ماموازيل شيري!». كنتُ أول المقبلين على الرقص، وسحبتُ زوجة خالي أولغا معي إلى المنصة، الأمر الذي فاجأني أنا نفسي، لأنني ما كنتُ أتقن الرقص (إذ تمسَّكتُ آنذاك بقناعتي الراسخة بأن الرسالة الأدبية لا تتَّفق مع الرقص والرياضة)، ولكن المكان ازدحم بالكثيرين، من حسن الحظّ، وفي المساحة الضيقة والغبش، لم ينتبه إلى ذلك أحد. حتى الخالة خوليا أرهقَت الخال لوتشو بإرغامه على الرقص مفترقًا عنها، بينما هي تأتي بحركات جامحة. كانت تجيد الرقص، فتابعها كثيرٌ من السادة بأنظارهم.

في المقطوعة الموسيقية التالية، دعوتُ الخالة خوليا إلى الرقص معي، وحذَّرتُها من أنني لا أجيد الرقص. ولكن الفرقة عزفَت أغنية بلوز في منتهى البطء، فأدَّيتُ مهمتي بكفاءة. رقصنا معًا على مقطوعتَيْن، فمضينا نبتعد عن طاولة الخال لوتشو وزوجته أولغا ونحن لا ندري. وفي تلك اللحظة، عندما كانت الخالة خوليا تهمّ بالافتراق عني، بعد أن سكتَت الموسيقى، استبقيتُها طابعًا قبلةً على وجنتها، قرب شفتَيْها، فنظرَت إليَّ في دهشة، وكأنها تشهد معجزة. جاءت فرقة موسيقية أخرى لتحلّ محلّ الأولى، فصار علينا أن نعود إلى الطاولة. وهناك، انطلقَت الخالة خوليا تطلق النكات ساخرةً من الخال لوتشو لأنه قد أتمّ الخمسين، العمر الذي يغدو الرجال فيه شيوخًا متصابين. جعلَت ترشقني بنظرات سريعة، بين الحين والآخر، وكأنما لتتأكّد من وجودي هناك، وفي عينَيْها تجلَّى بوضوح أنها ما زالت عاجزة عن التصديق أنني قد قبَّلتُها. تعبَت زوجة خالي أولغا، فقالت إنها تريد الذهاب، ولكني ألححتُ في الرقص على أغنية أخرى. «ها هو المُثقَّف يفسد!»، صرَّح الخال لوتشو، وإذا هو يقتاد زوجته أولغا لترقص معه على أغنية **إستريبو**. بينما دعوتُ أنا الخالة خوليا إلى الرقص معي، فسكتَت (لأول مرة) وهي تراقصني. ابتعد عنا الخال لوتشو وزوجته أولغا وسط جموع الراقصين، فضممتُها إليَّ قليلًا، واضعًا وجنتي على وجنتها. سمعتُها تغمغم، حائرةً: «ماريتو، اسمع. . .»، ولكني قاطعتُها هامسًا في سمعها: «أحظرُ عليكِ أن تناديني ماريتو ثانيةً». أبعدَت وجهها عني لتنظر إليَّ، مُحاوِلةً رسم ابتسامة على شفتَيْها. وعند ذاك، في ردة فعل كادَت تبدو آلية، ملتُ طابعًا قبلةً على شفتَيْها. كان تلامسًا في غاية السرعة، بَيْد أنها لم تتوقَّعه. في هذه المرة، جعلَتها المفاجأة تكفّ عن الرقص لحظةً، والآن بات ذهولها مطبقًا: فاتَّسعَت عيناها وانفرج

فمها. ولمَّا انتهَت المقطوعة الموسيقية، دفع الخال لوتشو الحساب، ثم ذهبنا. وفي الطريق إلى ميرافلوريس، جلستُ والخالة خوليا في المقعد الخلفي، فأخذتُ بيدها، وضممتُها بحنان، مستبقيًا إياها بين يدَيّ، فلم تسحبها، ولكني لاحظتُ أنها ما زالت مُتفاجِئة. لم تفتح فمها بشيء. وبينما نحن نترجَّل عن السيارة، في بيت الجدّ والجدّة، رحتُ أسائل نفسي كم عامًا يفصل بينها وبيني.

٤

في ليلِ كاياو، الرطب المعتم كفوّهة الذئب، رفع الرقيب ليتوما طيات سترته، وفرك يدَيْه بعضهما ببعض، ثم تأهَّب لأداء واجبه. كان رجلًا في زهرة العمر، الخمسين، يحترمه جهاز الحرس المدني كاملًا. سبقَت له الخدمة في أقسام الشرطة الأكثر تطلُّبًا للتضحية، فلم يشكُ حاله. وما زال جسده مُحتفِظًا بالندوب التي خلَّفَتها معاركه ضد الجريمة. بل إن سجون بيرو قد اكتظَّت بالمُخرِّبين الذين وضع حول معاصمهم الأصفاد بنفسه. كان يُضرَب به المثل نموذجًا في الاجتماعات اليومية، كما أُشيد به في الخطابات الرسمية، وكُرِّم مرتَيْن. ولكن تلك الأمجاد لم تُبدِّل شيئًا من تواضعه الذي كان عظيمًا بقدر شجاعته ونزاهته. مضى عليه عامٌ وهو يخدم في قسم شرطة كاياو الرابع. ومنذ ثلاثة أشهر، تولَّى أصعب مهمة قد يضعها القَدَر على عاتق رقيبٍ في المرفأ: وردية الليل.

دقَّت النواقيس البعيدة في كنيسة سيدة الكارمِن دي لا ليغوا مُعلِنَةً منتصف الليل، فانطلق الرقيب ليتوما - صاحب الجبين العريض والأنف المعقوف والنظرة الثاقبة والروح المستقيمة الصالحة - وهو الذي طالما كان يراعي المواعيد بدقة. بدأ يمشي تاركًا خلفه البيت الخشبي الذي يشغله قسم الشرطة الرابع، وكأنه شعلةٌ في الظلام. تخيَّل أن المُلازِم خايمي كونتشا يقرأ مجلات بطوط، والحارسَيْن

كاماتشو المُخاطي وأريبالو التفاحة يحلّيان القهوة المُصفّاة لتوّها بالسكر، والحبيس الوحيد يومذاك يستغرق في النوم مُتكوّرًا على نفسه فوق أرضية الزنزانة، ذلك الذي كان نشّالًا ضُبِط مُتلبِّسًا على متن الحافلة المُتَّجهة من تشوكويتو إلى پرادا، فجيء به إلى القسم وفي جسده عدد كبير من الرضوض التي أصابته بها نصف دزينة من الركّاب الغاضبين.

بدأت مسيرة الرقيب ليتوما بثكنة پويرتو نويبو، حيث كان يؤدِّي الخدمة سولدِبيًّا الأفطس، ابن مقاطعة تومبيس الذي يغنِّي أغنيات التونديروس بصوتٍ مُلهَم. كان پويرتو نويبو مصدر رعب لحرس منطقة كاياو ومُحقِّقيها، ففي متاهة الأكواخ المصنوعة من الألواح الخشبية والصفائح والزنك والآجر كان قليل من سكّان المنطقة يكسبون قوتهم بالاشتغال عُمَّالًا في المرفأ وصيادين. أما غالب السكّان، فكانوا من المُشرَّدين واللصوص والسكارى ومدمني المخدرات والقوَّادين والمُخنَّثين (حتى لا نأتي على ذكر العاهرات اللاتي لا يُحصَى لهن عدد)، وكانوا يشتبكون طعنًا بالنصال تحت أي ذريعة، بل ورميًا بالرصاص في بعض الأحيان. ولقد اصطبغَت تلك المنطقة بدماء رجال القانون مرات غير قليلة، تلك المنطقة التي لا رُصِفَت أرضها ولا وصلَتها المياه ولا الكهرباء ولا خدمات الصرف الصحي. بَيْد أنها، في تلك الليلة، بلغَت قدرًا استثنائيًّا من الهدوء. وفي حين مضى الرقيب ليتوما يجوب منعطفات الحيّ مفتِّشًا عن الأفطس، مُتعثِّرًا في الأحجار الخفية، وقد انقبض وجهه بسبب انبعاثات الغائط والمواد المُتعفِّنة المُتصاعِدة إلى منخاريه، قال في نفسه: «لقد أرسل البردُ مُحبّي السهر إلى الفراش مُبكِّرًا». إذ كان أغسطس في أواسطه، والشتاء في أوجه، فانتشر ضباب كثيف شوَّه كل شيء وطمسه طمسًا، بينما تساقط الرذاذ عنيدًا، فترك في الهواء رطوبةً، وجعل من الليل

شيئًا حزينًا قاسيًا. أين زجَّ بنفسه سولدِبيًّا الأفطس؟ كان ذلك المُخنَّث الكبير، ابن مقاطعة تومبيس، على استعداد للذهاب إلى حانات جادة أواسكار بحثًا عن الدفء والشراب، خوفًا من البرد والسفاحين. «كلا، ما كان ليجرؤ على ذلك»، فكَّر الرقيب ليتوما. «يعرف أنني أتولَّى الدورية، وأنه لو ترك موقعه لنغَّصتُ عيشه».

تحت واحد من أعمدة الإنارة، على الناصية الواقعة أمام المجزر القومي، عثر على الأفطس الذي راح يفرك يدَيْه في سخط، وقد تخفَّى وجهه خلف لثام شبحي لم يكشف إلَّا عينَيْه. رأى الرقيبَ فانتفض مذعورًا، رافعًا يدَيْه إلى حزام السلاح. ولكنه ما كاد يتعرَّفه حتى ضرب كعبَيْه بعضهما ببعض.

- «لقد أخفتَني، سيدي الرقيب»، قال ضاحكًا. «رأيتُك من بعيد، خارجًا من العتمة، فحسبتُك شبحًا».

- «دع عنك حديث الأشباح واللغو الفارغ»، مدّ ليتوما يده مُسلِّمًا. «بل حسبتَني سفَّاحًا».

- «في هذا البرد، لا يوجد سفَّاحون طُلَقاء، لا أمل في ذلك»، عاود فرك يدَيْه بعضهما ببعض. «لا مجانين يخطر لهم السير في العراء في هذه الليلة سوانا، أنت وأنا. وأولئك أيضًا».

أشار إلى سطح المجزر، فأمعن الرقيب النظر حتى استطاع أن يرى نصف دزينة من العقبان منزوية على نفسها، وقد وضعَت المناقير تحت الأجنحة، وشكَّلَت خطًّا مستقيمًا على قمة السقف المصنوع من الصفيح. «أيّ إحساس بالجوع يحملها على البقاء هناك، حيث تتشمَّم رائحة الموت، حتى وإن تجمَّدَت من فرط البرودة!»، دار في خلده. ذيَّل سولدِبيًّا الأفطس التقريرَ بتوقيعه على ضوء عمود الإنارة الخافت ببقايا قلم رصاص ممضوغ ينزلق من بين أصابعه. لم يطرأ شيء جديد: لا حوادث ولا جرائم ولا حالات سكر.

- «إنها ليلة هادئة، سيدي الرقيب»، قال ماضيًا برفقته على امتداد بضعة مربعات سكنية، في اتجاه جادة مانكو كاپاك. «آملُ أن تظلَّ على هذه الحال حتى يأتي مَن يحلّ محلّي. وعسى أن ينهار العالَم بعد ذلك، سحقًا!».

ضحك وكأنه قد أدلى بشيء في غاية الطرافة، فدار في خلد الرقيب ليتوما: «يا لعقلية بعض أفراد الحرس المدني!». عند ذاك أردف الأفطس في جدية، وكأنما قد خمَّن أفكار الرقيب:

- «لأنني لستُ مثلك، سيدي الرقيب، فأنا لا تروقني هذه الحال، بل أرتدي الزيّ الرسمي لكسب القوت وكفى».

- «لو كان الأمر بيدي، ما ارتديتَه»، غمغم الرقيب. «وما كنتُ أترك في جهاز الحرس المدني إلَّا من آمن بعمله».

- «لو فعلتَ، لكاد يخلو جهاز الحرس المدني»، أجاب الأفطس.

- «الوحدة خير مِن رفقة السوء»، ضحك الرقيب. كما ضحك الأفطس أيضًا.

وسارا تحت جنح الظلام، عَبْر الأرض الخلاء المحيطة بمصنع غوادالوپِه، حيث يرشق الصبيةُ الأشقياء مصابيح الإنارة بالأحجار دائمًا. تعالى هدير البحر آتيًا من بعيد، ومُحرِّكات سيارات الأجرة التي تقطع جادة الأرجنتين بين الحين والآخر.

- «تودّ لو كنا جميعًا من الأبطال»، قال الأفطس فجأة. «لو ضحَّينا بأرواحنا دفاعًا عن تلك النفايات...»، أشار إلى كاياو، وليما، والعالَم. «أتراهم يشكروننا؟ ألم تسمع الأشياء التي ينعتوننا بها جهرًا في الشوارع؟ أهناك من يضمر لنا الاحترام؟ الناس يحتقروننا، سيدي الرقيب».

- «هنا نفترق»، قال ليتوما على حافة جادة مانكو كاپاك. «لا

تخرج من منطقتك. ولا تشغل بالك أكثر مما ينبغي. تتحرَّق شوقًا لترك الجهاز، ولكنك يومَ أُعفيتَ من الخدمة، عانيتَ أشدّ معاناة. مثلما جرى لبِتشيتو أنتيسانا، الذي كان يحضر إلى قسم الشرطة حتى يرانا، فتمتلئ عيناه بالدموع، ويقول: لقد فقدتُ عائلتي».

سمع الأفطس يتأفَّف وراء ظهره: «عائلة بلا نساء، أي صنف من العائلات هذا!».

ربما كان الأفطس مُحِقًّا، أخذ الرقيب ليتوما يفكِّر ماضيًا في الجادة المهجورة، في قلب الليل. صحيح أن الناس لا يحبّون رجال الشرطة، ولا يذكرونهم إلَّا متى شعروا بالخوف من شيء ما. وماذا في ذلك؟ إنه لا ينظِّف الوسخ حتى يفوز باحترام الناس أو حبّهم. «لا أكترث للناس مطلقًا»، فكَّر. ولكن، لماذا لا يستخفّ بالحرس المدني كما يفعل زملاؤه، فيكفّ عن التفاني في العمل، بل ويحاول تمضية الوقت بأفضل ما يمكن، ويغتنم الفرص حتى يستريح أو يربح بعض المال القذر حين لا يكون رؤساؤه على مقربة منه؟ لماذا يا ليتوما؟ دار في خلده: «لأنك تحبّ ذلك. لأنك تحبّ عملك، مثلما يحبّ الآخرون كرة القدم أو السباقات». خطر على باله أنه، في المرة القادمة، متى سأله أحد مجانين كرة القدم: «ليتوما، أتشجِّع فريق سپورت بويز أم تشالاكو؟»، سوف يجيبه قائلًا: «أشجِّع الحرس المدني». وبينما هو يضحك في الليل الذي لفّه الضباب وتخلَّله الرذاذ، سعيدًا بالخاطرة التي طافَت بخلده، سمع ذلك الصوت، فانتفض رافعًا يده إلى حزام السلاح، وجمد في موضعه. بوغِت بذلك الصوت حتى كاد يشعر بالذعر. «ولكنه كاد يشعر بالذعر، ليس إلَّا»، فكَّر الرقيب. «لأنك لا شعرتَ بالخوف يومًا ولن تشعر به ما حييت، فأنت لا تعرف ما الخوف يا ليتوما».

كانت الأرض الخلاء على يساره، والمرسى الملحق بمستودع

المرفأ الأول على يمينه. جاء الصوت من هناك: في غاية القوة، كدوي صناديق وصفائح تنهار فتجرف معها المزيد من الصناديق والصفائح. على الرغم من ذلك، فلقد عاد كل شيء إلى هدوئه مرة أخرى، وما عاد يُسمَع إلّا تلاطم البحر بعيدًا، وصفير الريح إذا هبَّت على الصفيح ومرَّت من خلال أسلاك المرفأ الشائكة. «إنه قطٌّ يطارد جرذًا، أطاح بصندوق، فآخر، وآخر، وهكذا عمَّت الفوضى»، فكَّر الرقيب. كما فكَّر في القط المسكين الذي انسحق مع الجرذ تحت تلال الصناديق والبراميل. كان قد بلغ منطقة الحارس المدني رومان عود الذرة. ولكن المُؤكَّد أن عود الذرة لم يكُن هناك. عرف ليتوما جيدًا أنه في أقصى أطراف المنطقة، في هابي لاند، أو بلو ستار، أو أي من حانات البحَّارة ومواخيرهم التي يعجّ بها القسم الأخير من الجادة، في ذلك الشارع الصغير الذي يطلق عليه أهل كاياو سليطو اللسان «شارع الزهري». لعلّه هناك، أمام واحد من تلك البارات المُتهالِكة، يعبّ من البيرة. وفيما هو ماضٍ صوب تلك الجحور، فكَّر ليتوما في أمارات الذعر التي سوف ترتسم على وجه رومان إن ظهر من خلفه، وباغته قائلًا: «إذن، فأنت تحتسي المشروبات الروحية في أثناء الخدمة. لقد انتهى أمرك يا عود الذرة!».

قطع مئتَي مترًا على وجه التقريب، ثم توقَّف بحدة، مُلتفِتًا برأسه إلى هناك، في الظلّ، حيث يقوم المستودع الذي بات الصمت يخيِّم عليه الآن، بينما تساقط بريقٌ خافت على أحد جدرانه آتيًا من عمود الإنارة الذي نجا من حملات الصبية الأشقياء بمعجزة. «ليس قطًّا»، فكَّر. «وليس جرذًا». بل إنه لصّ. بدأ صدره يخفق بقوة، وأحسَّ بالعرق يبلِّل جبينه ويدَيْه. إنه لصّ، لصّ. جمد مكانه بضع ثوانٍ، برغم علمه أنه سوف يعود. تأكَّد مما حدَّثَته به مشاعره: التي سبق أن

سمع صوتها في مرات أخرى. جرَّد المُسدَّس من الجراب فاتحًا صمام الأمان، وأمسك كشَّاف الإضاءة بيده العسراء. عاد أدراجه بخطى واسعة، وأحسَّ بقلبه يكاد ينفجر في صدره. أجل، إنه لصّ، بكل تأكيد. وبحذاء المستودع، توقَّف مرة أخرى لاهثًا. وماذا لو لم يكُن لصًّا، بل لصوصًا؟ ألا يحسن به أن يعود ليحضر ومعه الأفطس وعود الذرة؟ هزَّ رأسه: فهو ليس في حاجة إلى أحد، بل إنه يكفي ويفيض عن الحاجة. لو كانوا عدة لصوص، فذلك من سوء حظهم، وحسن حظه. أرهف السمع وقد ألصق وجهه بالخشب: فوجد صمتًا مطبقًا. لم يسمع إلَّا هدير البحر آتيًا من بعيد، وصوت بعض السيارات. «ليتوما، أيّ لصّ وأي لغو فارغ!»، فكَّر. «أنت تحلم. إنه مُجرَّد قطّ... جرذ». زال عنه البرد، وأحسّ بالحرّ والتعب. أخذ يحوم حول المستودع باحثًا عن الباب. ولمَّا وجده، تأكَّد على ضوء الكشَّاف أن القفل لم يُفتَح قسرًا. كان يهمّ بالمغادرة قائلًا لنفسه «ما هذا يا ليتوما! لم تعُد حاسة الشمّ لديك مثلما كانت من قبل»، وإذا بشقٍّ في الجدار ينكشف أمامه، على الضوء الآتي من قرص الكشاف الضارب إلى الصفرة، عندما حرَّك يده بحركة آلية، على بعد أمتار قليلة من الباب. شُقّ الجدار على نحوٍ غاشم، إذ حطَّم المقتحمُ الخشبَ ضربًا بالفأس أو ركلًا بالقدم، حتى شقّ فوَّهة ضخمة بما يسمح لرجل بالمرور زحفًا على أربع.

أحسَّ بقلبه في غاية الاضطراب، والجنون. أطفأ الكشاف، وتحقَّق من فتح صمام الأمان في المُسدَّس، مُتلفِّتًا حوله: خلا المكان إلَّا من الظلال وأعمدة الإنارة المترامية بعيدًا، في جادة أواسكار، وكأنها أعواد ثقاب. ملأ رئتَيْه بالهواء، وزمجر بكل ما أوتي من قوة:

- «أيها العريف، طوِّق هذا المخزن مع رجالك. لو حاول

أحدهم الهرب، فأطلقوا النيران متى رأيتم ضرورة لذلك. أسرعوا أيها الفتيان!»

وليضفي مزيدًا من المصداقية على ما صدر منه، أخذ يركض هنا وهناك، ضاربًا الأرض بقدمَيْه ضربًا شديدًا. ثم ألصق وجهه بجدار المستودع صارخًا بأعلى صوت:

- «لقد انكشف أمركم، ووقعتم! أنتم محاصرون. اخرجوا من حيث دخلتم، واحدًا تلو الآخر. أمامكم ثلاثون ثانية كي تخرجوا بالتي هي أحسن».

سمع صدى صرخاته يغيب في قلب الليل، متبوعًا بهدير البحر، ونباح بعض الكلاب. لم يعدّ ثلاثين ثانية، وإنما ستين. وفكَّر: «لقد صرتَ مُهرِّجًا يا ليتوما». أحسَّ بفورة من الغضب، فصرخ قائلًا:

- «أبقوا عيونكم مفتوحة أيها الفتيان! واقتنصوهم مع أول حركة تبدر منهم!».

وبعزم، مضى يزحف على أربع، فتجاوز فوَّهة الجدار بخفَّة، على الرغم من سنوات عمره وزيّه الرسمي الثقيل. وما كاد يدخل إلى المكان حتى نهض بسرعة، وهرول إلى أحد الجوانب على أطراف أصابعه، ثم ألصق ظهره بالجدار، فلا رأى شيئًا، ولا أراد أن يضيء الكشاف. لم يسمع صوتًا واحدًا، ولكن يقينًا مطلقًا قد استحوذ عليه مرة أخرى، وحدَّثه بأن أحدهم هناك، رابض في العتمة، مثله، يرهف السمع والبصر. تراءى له أنه يسمع أنفاسًا، لهاثًا. كانت إصبعه فوق زناد المسدَّس الذي رفعه إلى مستوى صدره. عدّ حتى ثلاثة، ثم أضاء الكشاف. وإذا الصرخة تباغته في غفلة منه، فتملَّكه الذعر حتى انسلّ الكشاف من يده وتدحرج أرضًا، كاشفًا خيالات، وحزمًا بدَت من القطن، وبراميل، وعوارض خشبية، وتلك الهيئة (الخاطفة، غير المُتوقَّعة، العصية على التصديق)، هيئة الرجل

الأسود العاري المنزوي على نفسه، الذي حاول إخفاء وجهه بيدَيْه، وإن مضى ينظر من بين أصابعه بعينَيْه المُنَّسعِتَيْن، المذعورتَيْن، الشاخصتَيْن إلى الكشاف، وكأنما الضوء مصدر الخطر الأوحد.

- «الزمْ مكانك وإلَّا أطلقتُ النيران! الزم مكانك وإلَّا أرديتُك قتيلًا أيها الزنجي!»، زمجر ليتوما بقوة هائلة، حتى أحسَّ بألم في حلقه، بينما جعل يتلمَّس الأرض بيدَيْه، محني الظهر، مُفتِّشًا عن الكشَّاف. ثم أردف وقد غمره شعور جامح بالرضى عن الذات: «لقد انتهى أمرك أيها الزنجي! لقد وقعتَ أيها الزنجي!».

أخذ يصرخ بشدة، إلى درجة جعلَته يحسّ بدوار. استردّ الكشاف، فاختلجَت هالة الضوء بحثًا عن الأسود. لم يهرب، وإنما ظلَّ مكانه. أما ليتوما، العاجز عن التصديق، المرتاب في ما يرى، فأخذ يفتح عينَيْه بشدة. لم يكُن المشهد من نسج الخيال أو الأحلام. بل كان الرجل عاريًا، أجل، كما ولدَته أمه: لا ينتعل حذاء، ولا يرتدي ثوبًا داخليًّا، ولا قميصًا، ولا أي شيء. لم يبدُ عليه الشعور بالخزي، أو الوعي بتجرُّده من الثياب، إذ لم يحاول ستر عوراته المُتراقِصة في غير مبالاة تحت ضوء الكشاف. ظلَّ منزويًا على نفسه، لا يحرِّك ساكنًا، وقد أخفى جزءًا من وجهه خلف أصابعه، مسحورًا بهالة الضوء.

- «ضع يدَيْك فوق رأسك أيها الزنجي»، أمر الرقيب، من دون أن يتقدَّم نحوه. «ابقَ هادئًا، ما لم ترِد مني أن أرميك بعيار ناري! سوف يُزَجّ بك في السجن لأنك اقتحمتَ ملكية خاصة، ولأنك كشفتَ كرتَيْك على الملأ».

وفي تلك الأثناء، أخذ الرقيب يرهف سمعه، لعلَّ صوتًا يشي بوجود شريك للرجل في ظلال المستودع، بينما راح يقول في نفسه: «لستَ لصًّا. بل إنك مجنون». لم يخلص إلى تلك النتيجة لمُجرَّد أنه

قد تعرَّى من الثياب في أوج الشتاء، وإنما بالحكم على الصرخة التي أطلقها عندما كُشِف أمره. لم تكُن صرخة رجل طبيعي، فكَّر الرقيب، بل إنه صوت في منتهى الغرابة، شيء يتراوح بين العواء والنهيق والقهقهة والنباح. صوت لا يبدو آتيًا من الحلق فحسب، بل من البطن، والقلب، والروح أيضًا.

- «قلتُ لك أن تضع يدَيْك فوق رأسك أيها الحقير»، صرخ الرقيب وهو يتقدَّم خطوة نحو الرجل، فلا امتثل ولا حرَّك ساكنًا. كان شديد الدكنة، في غاية الهزال، حتى رأى ليتوما في الغبشِ تلك الأضلاع التي ملأت جلد الرجل، ورأى ساقَيْه النحيلتَيْن كعودَيْن من القصب، برغم ضخامة بطنه الذي تهدَّل فوق عانته، فما لبث الرقيب أن تذكَّر أطفال الأحياء العشوائية، بأجسادهم التي تشبه الهياكل العظمية وبطونهم المنتفخة بسبب الطفيليات. ظلَّ الزنجي يداري وجهه بيدَيْه، ساكنًا، فتقدَّم الرقيب نحوه خطوتَيْن أخريين، وهو يقيِّمه، موقنًا بأن الرجل سوف ينطلق راكضًا في أي لحظة. دار في خلده أن «المجانين لا يقيمون للمُسدَّسات وزنًا»، فقطع خطوتَيْن أخريين. صار على بعد مترَيْن من الزنجي. والآن فحسب، تمكَّن من رؤية الندوب المُتشعِّبة على كتفَيْه وذراعَيْه وظهره. «سحقًا! يا للشيطان!»، فكَّر ليتوما. أتراه مرضًا، أم جروحًا، أم حروقًا؟ تكلَّم بصوت خفيض لئلَّا يفزعه: «الزم الهدوء والسكون أيها الزنجي. ضع يدَيْك فوق رأسك، واخرج من الشقّ الذي دخلتَ منه. لو أحسنتَ الأدب، سأقدِّم لك القهوة في قسم الشرطة. لا بدّ أنك تتجمَّد من شدة البرد، وأنت عارٍ في مثل هذا الطقس».

همَّ بالتقدُّم خطوة نحوه، وإذا بالأسود يرفع يدَيْه عن وجهه بغتة، فصُعِق ليتوما حين اكتشف تحت لبدة الشعر الأشعث الكثيف هاتين العينَيْن المذعورتَيْن، وتلك الندوب الرهيبة، وذلك الخطم العملاق

الذي تبرز منه سنٌّ وحيدة، طويلة، مُدبَّبة. عاود إطلاق ذلك الهجين من الأصوات، ذلك الصراخ الوحشي العصي على الفهم. تلفَّت الرجل الأسود يمنة ويسرة، في جزع، وجموح، وانفعال، كحيوان يفتِّش عن طريق الهرب. وأخيرًا، اتَّخذ قرارًا غبيًّا، إذ استقرَّ على الطريق التي ما كان ينبغي له اختيارها، الطريق التي سدّها الرقيب بجسده. إذ لم ينقضّ عليه الرجل، وإنما حاول الهرب من خلاله. انطلق راكضًا على غير المُتوقَّع، فلم يسعف ليتوما الوقتُ لاعتراض سبيله، وإذا هو يحسّ بالرجل يرتطم به. أحكم الرقيب السيطرة على أعصابه: فلم تهتزّ إصبعه على الزناد، ولم يفلت منه عيار ناري. أما الزنجي، فما كاد يرتطم به حتى أطلق خوارًا. عند ذاك دفعه الرقيب، فرآه يسقط على الأرض وكأنه دمية من القماش. أخذ ليتوما يركله بقدمه حتى يبقى ساكنًا مكانه.

- «قف»، أمره الرقيب. «لستَ مجنونًا وحسب، بل إنك أحمق أيضًا. وما أنتن رائحتك!».

كانت له رائحة عصية على الوصف، تتراوح ما بين القطران والأسيتون والبول والقطط. التفت الرجل حتى بات مستلقيًا على الأرض بظهره، مُحدِّقًا إليه في هلع.

- «ولكن، من أين يمكن لمثلك أن يأتي؟»، غمغم ليتوما. ثم قرَّب الكشاف قليلًا. وفي حيرة، أمضى بعض الوقت وهو يتأمَّل ذلك الوجه العجيب الذي تتخلَّله الندوب المستقيمة بالطول والعرض، وشبكة الجروح الصغيرة المُمتدَّة في الوجنتَيْن والأنف والجبين والذقن، وتتلاشى في العنق. كيف يمكن لرجل بمثل هذا المظهر أن يسير في شوارع كاياو كاشفًا كرتَيْه على الملأ من دون أن يبلغ عنه أحد؟

- «انهض وإلَّا صفعتُك على وجهك»، قال ليتوما. «مجنونًا كنتَ أم لم تكُن، لقد تعبتُ منك».

فلم يتحرَّك الرجل، وإنما بدأ في إطلاق أصوات من فمه، غمغمة لا تُكشَف رموزها، قرقرة، هسيس، شيء بدا أقرب إلى الطيور والحشرات والوحوش منه إلى البشر. وظلَّ يرنو إلى الكشاف برعب لا ينتهي.

- «انهض، ولا تخَف»، قال الرقيب، ومدّ يده ممسكًا بذراع الزنجي، فلا قاوم الأخير ولا بذل أدنى جهد حتى يقف على قدمَيْه. «ما أنحفك!»، فكَّر ليتوما، وهو يكاد يتسلَّى بمواء الرجل وقرقرته وأصواته التي لا تنقطع: «وما أشدّ خوفك مني!».

أرغمه على القيام، فلم يصدِّق أنه بتلك الخفة. وما كاد يدفعه دفعةً خفيفة صوب فتحة الجدار، حتى أحسّ به وهو يترنَّح ويسقط أرضًا. غير أنه، في تلك المرة، قام وحده، بمشقة بالغة، مُتَّكئًا على برميل زيت.

- «هل أنت مريض؟»، سأله الرقيب. «تكاد تعجز عن السير أيها الزنجي. ولكن، من أي موضع لعين يمكن لشبح مثلك أن يأتي؟».

اقتاده من خلال فتحة الجدار، وأرغمه على الانحناء والخروج إلى الشارع أمامه. ظلّ الرجل الزنجي يصدر أصواتًا، بلا انقطاع، وكأنه يحاول أن يلفظ قطعةً من الحديد عالقة في فمه. «أجل، إنه مجنون»، فكَّر الرقيب. كان الرذاذ الخفيف قد انقطع، والآن اكتسحَت الشوارع ريحٌ عاتية هادرة، أخذَت تعوي من حولهما، في حين مضى ليتوما في اتجاه قسم الشرطة وهو يدفع الزنجي دفعات خفيفة ليحثّه على السير، بينما أحسَّ بالبرودة تحت معطفه الثقيل.

- «لا بدّ أنك تتجمَّد من فرط البرودة يا رفيق»، قال ليتوما. «تعرَّيتَ من الثياب في مثل هذا الطقس وهذه الساعة، ستكون معجزة لو لم تُصَب بالتهاب الرئة!».

اصطكَّت أضراس الأسود الذي مشى عاقدًا ذراعَيْه على صدره،

وهو يفرك جانبَيْه بيدَيْه الكبيرتَيْن الضامرتَيْن، وكأن البرد يهاجم أضلاعه بأشدّ مما يهاجم باقي مواضع جسده. ظلَّ يطلق خوارًا أو زئيرًا أو نعيقًا، وإن كان يطلقه الآن بينه وبين نفسه، وينعطف بوداعة حيثما أشار له الرقيب. لم يقابلا سيارات ولا كلاب ولا سكارى في الشوارع. وعندما وصلا إلى قسم الشرطة - الذي رأى ليتوما الأنوارَ من خلال نوافذه المضاءة بذلك البريق الزيتي، فتهلَّلَت أساريره كالغريق إذا وقع بصره على الشاطئ - كان الجرس المُدوِّي في كنيسة سيدة الكارمِن دي لا ليغوا يعلن تمام الساعة الثانية.

أما المُلازِم الشاب الوسيم خايمي كونتشا، الذي وقع بصره على الرقيب ومعه الرجل الأسود العاري، فلم تسقط من بين يدَيْه مجلة بطوط - كانت رابعة مجلات بطوط التي قرأها في تلك الليلة، فضلًا عن ثلاث مجلات سوبرمان ومجلتَي ماندريك - بل انفرج فمه عن آخره حتى كاد ينخلع فكّه. وأما الحارسان كاماشتو وأريبالو، اللذان كانا يلعبان مباراة داما صينية، فكلاهما فتح عينَيْه بشدّة.

- «من أين جئتَ بهذه الفزّاعة؟»، سأل الملازم أخيرًا.

- «أهو بشر أم حيوان أم جماد؟»، سأل أريبالو التفاحة وهو ينهض ويتشمَّم الرجل الأسود، الذي لزم الصمت منذ وطأت قدماه أرضية القسم، في حين مضى يهزّ رأسه في الاتجاهات كافة، وقد ارتسمَت على وجهه أمارات الرعب، كما لو كانت أول مرة يرى فيها الإضاءة الكهربائية والآلات الكاتبة والحرس المدني. غير أنه رأى التفاحة يقترب، فأطلق عواءه المُروِّع مرة أخرى. عند ذاك وقعَت عينا ليتوما على الملازم كونتشا الذي كاد يسقط على الأرض آخذًا معه الكرسي وكل شيء، كما رأى كاماتشو المُخاطي الذي أطاح بالداما الصينية. حاول الرجل الأسود أن يخرج إلى الشارع مرة أخرى، فاستوقفه العريف بإحدى يدَيْه، وهزَّه قليلًا :

- «اهدأ أيها الزنجي، لا تخَف».

- «عثرتُ عليه في مخزن المرفأ الجديد، سيدي الملازم»، قال. «لقد حطَّم الجدار الخشبي وتسلَّل إلى الداخل. هل أُعِدّ المحضر بتهمة السرقة أم اقتحام الملكية أم الفعل الفاضح أم جميع ما سبق؟».

ومرة أخرى، قبع الزنجي منزويًا على نفسه، بينما راح الملازم وكاماتشو وأريبالو يتفرَّسون فيه من رأسه حتى قدمَيْه.

- «لم تنشأ تلك الندوب عن إصابة بالجدري، سيدي الملازم»، قال التفاحة وهو يشير إلى الجروح في وجه الرجل وجسده. «بل إنها جروح تركَتها المدية، حتى وإن تراءى ذلك عصيًّا على التصديق».

- «إنه أنحف مَن رأيتُ في حياتي مِن الرجال»، قال المُخاطي ناظرًا إلى عظام الرجل العاري. «وأقبحهم أيضًا. رباه، ما هذا الشعر المُجعَّد، وما هاتان اليدان!».

- «أشبعْ فضولنا أيها الزنجي الهزيل، واحكي لنا حياتك»، قال له الملازم.

خلع الرقيب ليتوما قبعته وحلّ أزرار المعطف، ثم جلس أمام الآلة الكاتبة، حيث شرع يُحرِّر المحضر. ومن مكانه، صاح قائلًا:

- «يعجز عن الكلام، سيدي الملازم. ويُصدِر أصواتًا غير مفهومة».

- «هل أنت ممن يتصنَّعون الجنون؟»، أبدى الملازم اهتمامًا. «لقد كبرنا على مثل هذا الخداع. قل لنا مَن تكون، ومِن أين جئت، ومن كانت أمك».

- «وإلَّا رددنا لك القدرة على الكلام ضربًا»، أردف التفاحة قائلًا. «غرِّد كما تغرِّد طيور الكناري أيها الزنجي الهزيل!».

- «ما دامت تلك الجروح قد تركَتها المدية، فلا بدّ أنه قد جُرِح بالمدية ألف مرة»، تعجَّب المُخاطي وهو ينظر إلى الجروح المُتقاطِعة

على بشرة الرجل الأسود مرة تلو أخرى. «ولكن كيف لرجل أن يحمل مثل هذه العلامات؟».

- «إنه يرتعد من شدة البرد»، قال التفاحة. «وتصطكّ أسنانه مثل الخشخيشة».

- «بل أضراسه»، تدارك المُخاطي وهو يتفحَّص الرجل كالنملة، عن كثب. «ألم ترَ أن فمه قد خلا إلَّا من سنٍّ واحدة، ناب الفيل الذي يُطلّ من فمه هذا؟ سحقًا، ما هذا الرجل! يبدو كالكابوس!».

- «أعتقد بأنه مجنون»، قال ليتوما وهو لم يتوقَّف عن الكتابة. «فالخروج في هذا البرد على تلك الحال شيء لا يليق بالعاقلين. أليس كذلك، سيدي الملازم؟».

وإذا الفوضى العارمة التي اندلعَت في المكان لحظتئذ تحمله على النظر إلى ما يجري: إذ هبَّ الزنجي فجأةً، وقد صعقه شيء ما، فدفع المُلازِمَ جانبًا، ومرّ كالسهم بين كاماتشو وأريبالو، غير أنه لم ينطلق إلى الشارع، بل انقضّ على طاولة الداما الصينية. رآه ليتوما يسارع بمداهمة الشطيرة التي أُكِل بعضها، ويحشرها في فمه، ويبتلعها بحركة واحدة، مُتلهِّفة، وحشية. أدركه أريبالو وكاماتشو، فانهالا عليه صفعًا، والرجل الأسود يلتهم بقايا الشطيرة الأخرى بالنهم نفسه.

- «لا تضرباه يا فتيين!»، قال الرقيب. «حري بكما أن تقدِّما له القهوة، أحسنا إليه».

- «ليست هذه مُؤسَّسة خيرية»، قال الملازم. «لا أدري أي شيء لعين أفعل بهذا الرجل هنا». ظلَّ شاخصًا إلى الزنجي الذي ابتلع الشطائر، ثم تلقَّى ضربات المُخاطي والتفاحة من دون أن يبدو عليه أدنى قدر من التأثُّر، والآن بقي مُستلقِيًا على الأرض، هادئًا، يلهث برقة. انتهَت الحال بالملازم إلى الشعور نحوه بالشفقة، فقال مُتأفِّفًا:

- «حسنًا. قدِّموا له قليلًا من القهوة وأدخلوه إلى الزنزانة».

ناوله المُخاطي نصف فنجان من ترمس القهوة، فراح الزنجي يشربه على مهل، مغمض العينَيْن. وحين فرغ من تناول القهوة، أخذ يلعق الألومينيوم بحثًا عن القطرات الأخيرة، حتى تركه لامعًا، وسلَّم قياده إلى الزنزانة في سلام.

أعاد ليتوما قراءة المحضر: شروع في سرقة، اقتحام ملكية، فعل فاضح. كان الملازم خايمي كونتشا قد عاود الجلوس إلى مكتبه، وشرد بعينَيْه:

- «لقد عرفت، عرفتُ من يشبه...»، ابتسم سعيدًا، مُبدِيًا للرقيب ليتوما كوم المجلات المُلوَّنة. «إنه يشبه الزنوج الوارد ذكرهم في قصص طرزان، زنوج إفريقيا».

استأنف كاماتشو وأريبالو مباراة الداما الصينية، في حين اعتمر ليتوما القبعة وعقد أزرار المعطف. وبينما هو في طريق الخروج، تناهَت إلى سمعه صرخات النشَّال الذي أفاق لتوّه، فانطلق يحتجّ على رفيق الزنزانة:

- «النجدة، الغوث! سوف يغتصبني!».

- «اخرس وإلَّا اغتصبناك بأنفسنا»، توعَّده الملازم. «دعوني أقرأ مجلاتي في سلام».

ومن الشارع، وجد ليتوما ما يكفي من الوقت ليرى الرجل الأسود وقد استلقى أرضًا، غير حافل بصرخات النشَّال الصيني النحيف الذي لم يزُل عنه الشعور بالخوف. «تصوَّر أن تفيق وتجد مثل هذا الغول!»، ضحك ليتوما. ومرة أخرى، خاض بجسده القوي في الريح والضباب والظلال. رفع ياقة المعطف، ووضع يدَيْه في جيبَيْه، ثم مضى مطأطئ الرأس، في غير استعجال، مُستأنِفًا جولته. ذهب أول ما ذهب إلى «شارع الزهري»، حيث وجد رومان عود

الذرة وقد ارتفق بار هاپي لاند، ومضى يحتفي بنكات الحمامة الباكية، ذلك المُخنَّث العجوز صاحب الشعر المصبوغ وطاقم الأسنان الذي يعمل ساقيًا. دوَّن في تقريره أن الحارس رومان «قد ظهرَت عليه آثار تناول المشروبات الروحية خلال ساعات الخدمة»، برغم علمه التام أن الملازم كونتشا سوف يغضّ الطرف عما جرى، وهو الرجل الذي يبدي أقصى حدٍّ من التسامح تجاه مواطن ضعفه ومواطن ضعف الآخرين. سار مُبتعِدًا عن البحر، مُتَّخذًا جادة ساينس پينيا، التي خيَّم عليها الموت في تلك الساعة أشدّ مما يخيِّم على القبور. وجد صعوبة كبيرة في العثور على أومبِرتو كيسپي، الذي يتولَّى منطقة السوق. كانت الأكشاك مُقفَلة. وبالقياس إلى مرات أخرى، قلَّ عدد المُشرَّدين الذين رقدوا منزوين على أنفسهم فوق الجوالات أو الصحف، تحت الأدراج والشاحنات. وبعد أن قطع عدة جولات لا جدوى منها، وأطلق الصفارة المُتَّفق عليها مرات كثيرة، وجد كيسپي على ناصية شارعَي كولون وكوتشراني، حيث كان الأخير يساعد قائد سيارة أجرة شجّ رأسه اثنان من قطَّاع الطرق بغرض سرقته منذ قليل. مضى به ليتوما وكيسپي إلى مستشفى عمومي لخياطة الجرح. ثم تناولا حساء رؤوس السمك في أول كشك يفتح أبوابه في السوق، كشك السيدة غوالبِرتا، بائعة الأسماك الطازجة. أقلَّت سيارة دورية ليتوما في ساينس پينيا، وأوصلَته إلى حصن ريال فيليپي، حيث كان رودريغيس صغير اليدَيْن، أصغر أفراد قسم الشرطة، يؤدِّي خدمة الحراسة عند أسوار الحصن. باغته وهو يلعب لعبة الحجلة، وحيدًا، في العتمة. مضى يقفز بجدية بالغة، من مربع إلى آخر، على قدم واحدة تارة، وعلى قدمَيْن تارة، غير أنه ما كاد يرى الرقيب حتى اتَّخذ وضع الانتباه:

– «التمرين يساعد على تدفئة الجسد»، قال له مشيرًا إلى الرسم

الذي صنعه بالطبشور على الرصيف. «ألم تكُن تلعب الحجلة في طفولتك، سيدي الرقيب؟».

- «بل كنتُ ألعب بالنحلة الدوَّارة، وبرعتُ كثيرًا في اللعب بالطائرات الورقية»، أجابه ليتوما.

أخبره رودريغيس صغير اليدَيْن بواقعةٍ قال عنها إنها قد أدخلَت البهجة إلى نوبة الحراسة: كان يقطع شارع پاس سولدان، قرابة منتصف الليل، حين لمح رجلًا يتسلَّق نافذة. أمره بالتوقُّف شاهرًا مسدسه، فأجهش الرجل بالبكاء وهو يقسم قائلًا إنه ليس لصًّا، بل زوجًا، ولقد طلبَت منه زوجته التسلُّل بتلك الطريقة عَبْر النافذة، تحت جنح الظلام. ولماذا لا يدخل من الباب شأنه شأن الناس جميعًا؟ «لأنها تكاد تكون مجنونة»، أخذ الرجل يتباكى. «تصوَّر أنها تراني أتسلَّل كاللص، فتصير أكثر مودَّةً. في مرات أخرى، أُفزعها بالسكين، بل وأتنكَّر في هيئة الشيطان نزولًا عند رغبتها. وإن لم أُرضِها، لا أنال منها ولو قبلة واحدة يا سيدي».

- «رأى على وجهك براءة الأطفال، فخدعك بشدة»، ابتسم ليتوما.

- «إنها الحقيقة المحضة»، أصرّ صغير اليدَيْن. «فلقد طرقتُ الباب، ودخلنا إلى البيت، حيث قالت السيدة الزنجية المُعتدَّة بنفسها إن تلك هي الحقيقة، وتساءلَت إن لم يكُن لهما الحقّ هي وزوجها في أن يلعبا لعبة اللصوص. يا للأشياء التي يراها المرء في هذه المهنة! أليس كذلك، سيدي الرقيب؟».

- «بلى يا فتى»، أومأ ليتوما وهو يفكِّر في الرجل الأسود.

- «ولكن، مع امرأة كهذه، لا يشعر المرء بالضجر أبدًا، سيدي الرقيب»، قالها صغير اليدَيْن وهو يعضّ شفتَيْه.

سار برفقة ليتوما حتى وصلا إلى جادة بوينوس آيرس، وهناك

ودَّع كلٌّ منهما الآخر. مضى ليتوما حتى بلغ حدود بيَّابيستا - شارع بيخيل، وميدان غوارديا تشالاكا - ذلك المسار الطويل، هناك حيث يبدأ في الإحساس بالتعب والنعاس، كما هو دأبه. وفي تلك الأثناء، تذكَّر الرجل الأسود. أتراه قد ولَّى هاربًا من مستشفى المجانين؟ ولكن مستشفى لاركو إريرا يقع على مسافة بعيدة جدًّا، ما يسمح بأن يراه أو يلقي القبض عليه أحد رجال الحرس المدني أو الدوريات. وماذا عن تلك الندوب؟ أتراها جروح سكين؟ سحقًا! لا بدّ أنه شيء مؤلم حقًّا، كالاحتراق على نار هادئة. أن يُجرَح المرء جرحًا صغيرًا تلو الآخر، حتى يكتسي الوجه بالندوب تمامًا، يا للهول! وماذا لو أنه قد وُلِد على تلك الحال؟ كانت ليلة مدلهمة لم تزَل، وإن لاحَت علامات تنبئ بقرب الفجر: سيارات، بعض الشاحنات، خيالات المستيقظين مُبكِّرًا. مضى الرقيب يتساءل: «وفيمَ يهمّك أمر العاري، وأنت الذي رأيتَ كل أولئك الغرباء؟». هزَّ كتفَيْه: إن هو إلَّا فضول، طريقة يشغل بها الذهن ما استمرَّت الجولة.

لم يجد صعوبة في العثور على ساراتي، الحارس المدني الذي سبق أن خدم برفقته في أياكوتشو. وجده وقد ذيَّل التقرير بتوقيعه: لم تقع إلَّا حادثة سير واحدة بلا جرحى، لا شيء ذا بال. أخبره ليتوما بقصة الرجل الأسود، فلم يستطرف ساراتي إلَّا واقعة الشطائر. كان مولعًا بجمع طوابع البريد، وبينما هو ماضٍ برفقة الرقيب، على امتداد بضعة مربعات سكنية، بدأ يقول إنه قد حصل صبيحة اليوم على طوابع أثيوبية مثلثة الشكل، مُزيَّنة برسوم الأسود والأفاعي، مُلوَّنة بالأخضر والأحمر والأزرق. قال إنها في منتهى الندرة. ومع ذلك، حصل عليها مقابل خمسة طوابع أرجنتينية بلا أدنى قيمة.

- «ولكن لا شكّ أنهم حسبوها ذات قيمة كبيرة»، قاطعه ليتوما.

سبق أن احتمل ولع ساراتي بمزاج رائق في مرات أخرى، ولكنه

شعر الآن بنفاد صبر، وسُرّ بافتراقهما. تبدَّى في السماء بريق ضارب إلى الزرقة. ومن قلب السواد، انبثقَت بناءات كاياو الشبحية، الصدئة، المزدحمة، المائلة إلى الرمادية. مضى الرقيب يعدّ المربعات السكنية التي ما زال عليه أن يقطعها حتى يصل إلى قسم الشرطة، في ما يشبه الركض. وفي تلك المرة، اعترف لنفسه بأن تعب الليل والمسير لم يكُن هو السبب في الاستعجال، وإنما الرغبة في رؤية الرجل الأسود من جديد. «ليتوما، يبدو أنك تظنّ الأمر برمته حلمًا، وتحسب أن ذلك الأسود لا وجود له».

بَيْد أنه كان على قيد الوجود: فها هو ذا ينام وقد التوى على نفسه كالأنشوطة فوق أرضية الزنزانة، بينما النشَّال نائم في أقصى الطرف المقابل من الزنزانة، وما زالت أمارات الذعر مرتسمة على وجهه. حتى الآخرون استغرقوا في النوم: إذ نام الملازم كونتشا منكفئًا على وجهه، مُتوسِّدًا كوم المجلات الهزلية. بينما نام كاماتشو وأريبالو كتفًا إلى كتف على الدكة القائمة في مدخل قسم الشرطة. راح ليتوما يتأمَّل الرجل الأسود طويلًا: بعظامه البارزة، وشعره الأشعث، وخطمه الضخم، وسنّه اليتيمة، وندوبه الألف، ورجفات جسده. مضى يفكِّر: «ولكن، من أين جئتَ أيها الزنجي!». وأخيرًا، سلَّم التقرير إلى الملازم الذي فتح عينَيْه المنتفختَيْن المحمرتَيْن: «أوشكَت الوردية على الانتهاء»، قال له بفم مُتثاقِل. «ها قد انقضى يوم آخر من أيام الخدمة يا ليتوما».

«وانقضى يوم آخر من أيام الحياة»، دار في خلد الرقيب الذي استأذن منه ضاربًا كعبَيْه بعضهما في بعض بقوة بالغة. كانت السادسة صباحًا، وصار ليتوما حرًّا. كعادته، ذهب إلى دونيا غوالبِرتا في السوق ليتناول حساء يغلي، وبعض الفطائر، والأرز، والفاصوليا، وحلوى الحليب. ثم ذهب إلى الحجرة الصغيرة حيث يسكن في

شارع كولون. استغرق طويلًا حتى راح في السبات، ولكنه ما كاد يخلد إلى النوم حتى بدأ يحلم بالرجل الأسود. رآه محاطًا بالأسُود والأفاعي الحمراء والخضراء والزرقاء، في قلب الحبشة، وقد اعتمر القبعة، وانتعل البوط، وأمسك بعصا مُروِّضي الحيوانات. كانت الوحوش تؤدِّي الحيل على إيقاع العصا، في حين مضى يصفِّق له بحرارة جمعٌ من الجالسين وسط النباتات المُتسلِّقة والجذوع وغصون الأشجار التي نشرَت فيها البهجة تغاريد الطيور وصيحات القرود. ولكن الرجل الأسود، بدلًا من الانحناء للجمهور، خرَّ جاثيًا على ركبتَيْه، مادًّا يدَيْه كالمُتوسِّل، وقد فاضت الدموع من عينَيْه، وانفرج خطمه الضخم، ثم بدأت الرطانة والموسيقى العبثية تتدفَّقان من فمه، باندفاع، وصخب، وغمّ.

أفاق ليتوما قرابة الثالثة مساء، حادّ المزاج، وقد أدركه تعبٌ شديد، مع أنه استغرق في النوم سبع ساعات. «لا بدّ أنهم قد رحَّلوه إلى ليما»، دار في خلده. وبينما هو يغسل وجهه كالقطط، ويرتدي ثيابه، مضى يتخيَّل مسيرة الرجل الأسود: أقلَّته سيارة دورية التاسعة، كما ناولوه بعض الأسمال البالية حتى يغطِّي جسده، وسلَّموه في مقرّ المديرية، وفتحوا له ملفًّا، وأرسلوه إلى زنزانة الانتظار، حيث مكث الآن يرتعد من فرط البرودة، ويتضوَّر جوعًا، ويحكّ القمل في شعره، في ذلك الكهف المعتم، وسط المُتشرِّدين واللصوص والمعتدين والمشاغبين الذي أُلقِي القبض عليهم في الساعات الأربع والعشرين الأخيرة.

كان يومًا رماديًّا، رطبًا، مضى الناس يتحرَّكون خلاله وسط الضباب كما يتحرَّك السمك في الماء القذر، بينما سار ليتوما خطوة إثر خطوة، مُفكِّرًا. ذهب لتناول الغداء لدى السيدة غوالبِرتا: رغيفَيْن بالجبن الطازج وقهوة.

- «تبدو لي غريبًا يا ليتوما»، قالَت له السيدة غوالبِرتا، المرأة العجوز التي خبرَت الحياة. «أهي مشكلة نقود أم حبّ؟».

- «أفكِّر في رجل أسود عثرتُ عليه ليلة أمس»، قال الرقيب وهو يتذوَّق القهوة بطرف لسانه. «تسلَّل إلى مستودع المرفأ».

- «وما الغريب في هذا؟»، سألَت دونيا غوالبِرتا.

- «كان عاريًا، عاجزًا عن الكلام، شعره كالغابة، وتنتشر الندوب في جسده»، أوضح لها ليتوما. «من أين يمكن أن يأتي رجل كهذا؟».

- «من الجحيم»، ضحكَت العجوز وهي تتلقَّى منه النقود.

ذهب ليتوما إلى ميدان غراو حتى يلتقي پِدرالبِس، عريف البحرية. تعرَّف كل منهما بالآخر منذ سنوات، عندما كان الرقيب مُجرَّد فرد من أفراد الحرس المدني، وپِدرالبِس جنديًّا في البحرية، عندما كان كلاهما يؤدِّي خدمته في پيسكو. ثم فرَّقَت بينهما المسارات المختلفة لما يقرب من عشر سنوات، حتى التقيا مُجدَّدًا قبل عامَيْن. كانا يقضيان العطلات معًا، وصار ليتوما يشعر في بيت آل پِدرالبِس وكأنه في بيته. ذهبا إلى پونتا لتناول بضع قوارير من البيرة ولعب «الكرة والضفدع»، في نادي العرفاء ورجال البحرية. كان أول ما فعل الرقيب أن حكى له قصة الرجل الأسود، فما لبث پِدرالبِس أن عثر على تفسير للقصة:

- «إنه رجل همجي من إفريقيا، تسلَّل إلى أحد السفن القادمة إلى هنا، فسافر مُتخفِّيًا، وحين وصل إلى كاياو، قفز إلى الماء ليلًا، ثم تسلَّل إلى بيرو خلسةً».

شعر ليتوما وكأنما الشمس تشرق ساطعة: وإذا كل شيء يغدو في منتهى الوضوح أخيرًا.

- «أنت على حق، هو كذلك»، قالها مُطقطِقًا بلسانه، مُصفِّقًا.

«لقد جاء من إفريقيا. طبعًا، هو كذلك. وهنا، في كاياو، أنزلوه من السفينة لسبب ما. حتى لا يُضطَرّوا إلى دفع الثمن، لأنهم قد عثروا عليه في قبو السفينة... حتى يتخلَّصوا منه...».

- «لم يسلِّموه للسلطات علمًا منهم أنها لن تقبله»، مضى پِدرالبِس يتمِّم القصة. «بل أرغموه على النزول من السفينة قسرًا: تدبَّر أمرك وحدك أيها الهمجي!».

- «إذن، فالزنجي لا يدري حتى أين يكون»، قال ليتوما. «إذن، فتلك الأصوات ليست لرجل مجنون، وإنما لرجل همجي. إذن، فهي لغته».

- «الأمر وكأنك ركبتَ طائرة ونزلتَ على سطح المريخ يا أخي»، ساعده پِدرالبِس.

- «ما أذكانا!»، قال ليتوما. «لقد اكتشفنا حياة الزنجي كاملة».

- «لعلّك تقصد ما أذكاني أنا!»، احتجّ پِدرالبِس. «والآن، ماذا هم فاعلون بالرجل الأسود؟».

فكَّر ليتوما: «مَن يدري!». لعبا ست مباريات من لعبة الكرة والضفدع، فاز الرقيب بأربعٍ منهما، فدفع پِدرالبِس حساب البيرة. ثم ذهبا إلى شارع تشانتشامايو، حيث يسكن پِدرالبِس، في بيت صغير نوافذه مُسيَّجة بالقضبان. كانت دوميتيلا، زوجة پِدرالبِس، تنتهي من إطعام الأطفال الثلاثة، وما كادت تراهما حتى وضعَت أصغر الأطفال في الفراش وأمرَت الآخرَيْن بألّا يطلّا حتى برأسَيْهما من خلف الباب. صفَّفَت شعرها قليلًا، وتأبَّطَت ذراعَيْهما، ثم خرج ثلاثتهم. ذهبوا إلى سينما پورتِنيو، في ساينس پينيا، لمشاهدة فيلم إيطالي. لم يرُق الفيلم لپِدرالبِس وليتوما، في حين قالت هي إنها على استعداد لمشاهدته مرة أخرى. مضوا سيرًا على الأقدام حتى وصلوا إلى شارع تشانتشامايو - حيث كان الأطفال قد خلدوا إلى

النوم - وسخَّنَت دوميتيلا بطاطس الأويوكيتو باللحم المُجفَّف من أجلهما. استأذن ليتوما وعقارب الساعة تشير إلى العاشرة والنصف.

وصل إلى القسم الرابع في الموعد المُحدَّد لبدء الخدمة: في تمام الحادية عشرة.

لم يمهله الملازم خايمي كونتشا الوقت الكافي حتى يلتقط نفسًا واحدًا، بل إنه استدعاه وانتحى به جانبًا، ثم أصدر إليه التعليمات دفعة واحدة، في عبارتَيْن مقتضبتَيْن، تركَتا في رأسه دوارًا وفي أذنَيْه طنينًا.

- «القيادات تعرف ما هي فاعلة»، شجَّعه الملازم وهو يربِّت على كتفه. «ولديها ما لديها من الأسباب التي يجب على المرء أن يتفهَّمها. القيادات لا تخطئ أبدًا، أليس كذلك يا ليتوما؟».

- «بالطبع»، همهم الرقيب.

تظاهر كلٌّ من التفاحة والمُخاطي بالانشغال. وبطرف عينه، رأى ليتوما أولهما يراجع مخالفات المرور كما لو كانت صور نساء عارية، وثانيهما يرتِّب محتويات مكتبه ثم يبعثرها ويرتِّبها مرة أخرى.

- «هل لي بسؤال، سيدي الملازم؟»، سأل ليتوما.

- «لك بسؤال»، أجابه الملازم. «أما قدرتي على الإجابة، فذلك شيء لا أعرفه».

- «لماذا وقع اختيار القيادات عليَّ أنا لإنجاز هذه المهمة الصغيرة؟».

- «أستطيع الإجابة عن هذا السؤال»، قال الملازم. «لسببَيْن، أولهما: أنك أنت الذي ألقيتَ القبض عليه، ومِن العدل أن ينتهي مِن المهمةِ الشخصُ الذي بدأها. وثانيهما: أنك أفضل رجال الحرس المدني في هذا القسم، وربما في كاياو».

- «ذلك شيء يُشرِّفني»، غمغم ليتوما، وإن لم يبدُ عليه أدنى أثر للبهجة.

- «القيادات تعلم جيدًا أنه عمل شاق، ولذا كلَّفَتك به»، قال الملازم. «يجب عليك أن تشعر بالزهو لأنك أنت الذي وقع عليك الاختيار من بين مئات الأفراد بجهاز الحرس المدني في ليما».

- «والآن يجب عليَّ التعبير عن امتناني، فوق كل شيء!»، هزّ ليتوما رأسه، في ذهول. جعل يتأمَّل لحظةً، ثم أردف بصوت خفيض للغاية: «أمِن الضروري أن يتمّ الأمر الآن؟».

- «للتوّ واللحظة»، قال الملازم وهو يحاول أن يبدو بشوشًا. «لا تؤجِّل عمل اليوم إلى الغد».

أخذ ليتوما يفكِّر بينه وبين نفسه: «الآن عرفتَ لماذا لم يفارق رأسك وجه الرجل الأسود».

- «أتريد أن تصطحب واحدًا من هذين الاثنين حتى يساعدك؟»، سمع ليتوما صوتَ الملازم، فأحسَّ بكاماتشو وأريبالو يتحجَّران مكانهما. ران على قسم الشرطة صمت خليق بالقطب المُتجمِّد، في حين أخذ الرقيب ليتوما يراقب فردَي الحرس المدني، وتمهَّل في اختيار أحدهما عن عمد، حتى يُكدِّرهما حينًا. ظلَّ التفاحة ممسكًا بكومة مخالفات المرور التي تراقصَت بين يدَيْه، بينما غاص المُخاطي بوجهه في المكتب.

- «هذا»، قال ليتوما مشيرًا إلى أريبالو، فأحسّ بكاماتشو يلتقط نفسًا عميقًا، ورأى كراهية العالَم بأسره تتفجَّر في عينَي التفاحة مُوجَّهةً إليه هو، وأدرك أنه يسبّ أمه ويلعنها.

- «أنا مزكوم، وكنتُ أنوي التقدُّم بطلب إعفائي من الخروج الليلة، سيدي الملازم»، تلعثم أريبالو وقد ارتسمَت على وجهه أمارات البلاهة.

- «دعْ عنك أمور المُخنَّثين وارتدِ معطفك»، مرَّ ليتوما بجواره وتجاوزه من دون أن ينظر إليه. «سوف نذهب فورًا».

ذهب إلى الزنزانة، ثم فتح بابها، وأخذ يراقب الرجل الأسود الذي رآه في وضح النهار لأول مرة حينذاك. كانوا قد ألبسوه سروالًا باليًا يكاد لا يصل إلى ركبتَيْه، كما غطّوا صدره وظهره بجوال الحمَّالين الذي جعلوا فيه فتحةً للرأس. كان حافي القدمَيْن، هادئًا. نظر إلى عينَي ليتوما نظرةً لا بهجة فيها ولا خوف. راح يلوك شيئًا بفمه، جالسًا على الأرض. وبدلًا من الأصفاد، شُدّ معصماه بحبل طويل بالقدر الذي يسمح له بحكّ جسده أو تناول الطعام. أشار إليه الرقيب حتى يقف على قدمَيْه، فلم يبدُ على الرجل الأسود أنه قد فهم شيئًا. اقترب منه ليتوما آخذًا بذراعه، فنهض الرجل بوداعة. سار أمامه باللامبالاة التي استقبله بها. كان أريبالو التفاحة قد ارتدى معطفه ولفَّ عنقه بالوشاح. لم يلتفت الملازم كونتشا حتى يراهما وهما يغادران: بل دفن وجهه في مجلة بطوط («ولكنه لم يلحظ أنه قد أمسكها مقلوبة»، فكَّر ليتوما). في حين ابتسم لهما كاماتشو كمن يقدِّم تعازيه.

مضى الرقيب في الشارع على حافة الرصيف، وترك أريبالو يسير بحذاء الجدار، في حين مشى الرجل الأسود بينهما بالإيقاع نفسه، بخطى واسعة، وهو يلوك شيئًا، من دون أن يحفل بأي شيء.

- «ما زال يمضغ قطعة الخبز تلك منذ قرابة ساعتَيْن»، قال أريبالو. «الليلة، حين جيء به من ليما مرة أخرى، قدَّمنا له كل ما في المخزن من خبز جاف مُتحجِّر، فأتى عليه بالكامل، ومضغه كالطاحون. أي جوع رهيب! أليس كذلك؟».

«يأتي الواجب في المقام الأول، والمشاعر في مقام لاحق»، راح ليتوما يفكِّر. تأمَّل الطريق: يجب عليهم السير صعودًا عَبْر شارع كارلوس كونتشا، إلى كونترالميرانتي مورا، ثم السير نزولًا عَبْر الجادة حتى يبلغوا ضفاف نهر ريماك، والمضي بحذاء النهر وصولًا

إلى البحر. طبقًا لحساباته: سوف يستغرق الأمر خمسًا وأربعين دقيقة ذهابًا وعودة، أو ساعة على أقصى تقدير.

- «الذنب يقع على عاتقك أنت، سيدي الرقيب»، تذمَّر أريبالو. «فمَن طلب منك إلقاء القبض عليه! كان يجب عليك أن تطلق سراحه عندما تأكَّد لك أنه ليس لصًّا. انظر في أي مأزق ورَّطتَنا! والآن، قُلْ لي، أتوافق القيادات في رأيها القائل بأنه قد جاء مُتخفِّيًا على متن أحد السفن؟».

- «ذلك ما خطر لبِدرالبِس أيضًا»، قال ليتوما. «ربما كان صحيحًا. وإلَّا، فأي لعنة تفسِّر ظهور رجل عاري يتكلَّم بحديث غير مفهوم في مرفأ كاياو، على غير المُتوقَّع، رجل كهذا، له مثل هذا المظهر، وهذا الشعر، وهذه الندوب! لا بدّ أنهم على حق في ما يقولون».

وفي الشارع المعتم، تردَّد وقع أقدام رجلي الحرس المدني، في حين لم تُحدِث قدما الزنجي الحافيتان أدنى صوت.

- «لو كان الأمر رهنًا بي، لتركتُه في السجن»، استأنف أريبالو حديثه. «ليس ذنب الهمجي الإفريقي أنه همجي إفريقي، سيدي الرقيب».

- «ولهذا تحديدًا لا يمكنه البقاء في السجن»، غمغم ليتوما. «لقد سمعتَ كلام الملازم بنفسك: السجن للقتلة واللصوص وقطَّاع الطرق. بأي ذريعة تبقيه الدولة في السجن؟».

- «إذن، يجب عليهم ردّه إلى بلده»، قال أريبالو مُتبرِّمًا.

- «وبأي طريقة لعينة يمكن التحقُّق من بلده؟»، رفع ليتوما صوته. «سمعتَ كلام الملازم بنفسك. لقد حاولَت القيادات التواصل وإياه بكل اللغات: الإنجليزية والفرنسية، وحتى الإيطالية. لا يتكلَّم لغات: بل إنه مُجرَّد همجي».

- «إذن، أتوافق على رميه بعيار ناري لمُجرَّد أنه رجل همجي؟»، تبرَّم أريبالو التفاحة مرة أخرى.

- «لم أقُل إنني أوافق»، غمغم ليتوما. «بل أكرِّر ما أدلَت به القيادات، حسبما قال الملازم. لا تكُن أحمق».

دخلا إلى جادة كونترالميرانتي مورا وأجراس كنيسة سيدة الكارمِن دي لا ليغوا تدقّ معلنةً تمام الثانية عشرة، فوجد ليتوما رنين الأجراس كئيبًا. مضى يرنو إلى الأمام، في إصرار. غير أن وجهه كان يلتفت رغمًا عنه جهة اليسار، بين الحين والآخر، وعندئذ يلقي الرقيب نظرةً إلى الرجل الأسود، فيراه لثانية واحدة بينما هو يقطع رقعة الضوء المخروطية الشاحبة الآتية من أحد أعمدة الإنارة. ظلّ الرجل على الحال نفسها طوال الوقت: يحرِّك فكَّيْه بجدية، ويجاري الآخرَيْن في السير من دون أن يبدو عليه أدنى أثر للجزع. «يبدو أنه لا يكترث لشيء في العالَم سوى المضغ»، خطر على بال ليتوما. وما هي إلَّا لحظة حتى فكَّر أنه: «محكوم بالإعدام لا يدري أنه محكومٌ بالإعدام». وبعد ذلك مباشرة، فكَّر أنه: «رجل همجي، من دون شكّ». وفي تلك الأثناء، سمع التفاحة يقول:

- «وختامًا، لماذا لا تطلق القيادات سبيله، وتتركه في تلك الأنحاء يتدبَّر حاله كيفما استطاع»، تأفَّف بمزاج عكر. «وليكُن مُتشرِّدًا آخر، من أولئك الذين يكثُر حضورهم في ليما. فسيان قلَّ المتشرِّدون واحدًا أم زادوا!».

- «لقد سمعتَ كلام الملازم بنفسك»، أجاب ليتوما. «لا يمكن للحرس المدني أن يحرِّض على الجريمة. ولو أطلقتَ سراح هذا في ميدان، فلن يجد بديلًا عن السرقة، وإلَّا نفق مثل الكلاب. إنما نحن نسدي إليه خدمة، في واقع الأمر، فالرصاصة تستغرق ثانية واحدة.

وذلك أفضل من الموت البطيء شيئًا فشيئًا، تحت وطأة الجوع والبرد والوحدة والحزن».

وعلى الرغم من ذلك، شعر ليتوما بأن صوته لم يكُن على درجة كبيرة من الإقناع. سمع نفسه، فتولَّد لديه إحساس بأنه ينصت إلى شخص آخر سواه.

- «مهما يكُن، دعني أقُل لك شيئًا»، سمع التفاحةَ يقول مُحتجًّا. «لا يروق لي هذا الأمر، ولقد نغَّصتَ عيشي حين اخترتَني لهذه المهمة».

- «أتظنّه يروق لي؟»، غمغم ليتوما. «وأنا، ألم تنغِّص القيادات عيشي حين اختارَتني؟».

مرّوا أمام ترسانة البحرية، من حيث تناهى إليهم صوت صفارة إنذار. وبينما هم يقطعون الأرض الخلاء، على مقربة من خزان المياه الجاف، خرج كلبٌ من بين الظلال نابحًا عليهم. ساروا في صمت، وهم يسمعون دبيب البوط على الأرض وهدير البحر المجاور، ويتنشَّقون الهواء الرطب المالح بأنوفهم.

- «في العام الماضي، جاء بعض الغجر ملتجئين إلى هذه الأرض»، قال التفاحة فجأةً، بصوت مُتهدِّج. «نصبوا الخيام، وقدَّموا عروض السيرك والسحر وقراءة الطالع. ولكن العمدة أمرنا بطردهم لأنهم لا يحملون رخصة من البلدية».

لم يحِر ليتوما جوابًا، وإنما شعر بالأسى، فجأة. لم يشعر بالأسى للرجل الأسود فحسب، وإنما للتفاحة والغجر أيضًا.

- «وهل نتركه مُلقى هناك، على الشاطئ، لتنهشه طيور الأطيش؟»، كاد التفاحة يغصّ بالبكاء.

- «سوف نتركه في مكبّ النفايات لتعثر عليه شاحنات البلدية، ثم يُحمَل إلى المشرحة ويُقدَّم إلى كلية الطبّ حتى يتمكَّن الطلّاب من

تشريحه»، غضب ليتوما. «سمعتَ التعليمات جيدًا يا أريبالو، لا تجعلني أكرِّرها عليك».

– «سمعتُها، ولكني لا أتقبَّل الفكرة القائلة بضرورة قتله، هكذا، بدم بارد»، قال التفاحة بعد مضي دقائق. «حتى أنت لا تتقبَّلها، وإن حاولت ذلك. لاحظتُ أنك حتى أنت لم تتقبَّل الأوامر الصادرة، بالحكم على صوتك».

– «واجبنا لا يملي علينا تقبُّل الأوامر الصادرة، بل تنفيذها»، قال الرقيب في وهن. وبعد هنيهة من الصمت، أردف بمزيد من البطء: «ولكنك على حق. حتى أنا لم أتقبَّل الأوامر، بل أذعن لها لأن الإذعان واجب».

وفي تلك اللحظة، وصلوا إلى حيث تنتهي الطريق المرصوفة بالأسفلت، وتنتهي الجادة أيضًا، وأعمدة الإنارة. شرعوا في السير وسط الظلمات، على الأرض الرخوة، فغشيتهم رائحة نتنة، كثيفة، شبه صلبة. وصلوا إلى مكبّات النفايات القائمة على ضفاف نهر ريماك، في غاية القرب من البحر، تلك الرقعة المربعة المُمتدّة بين الشاطئ، ومجرى النهر، والجادة التي تتوافد إليها شاحنات القمامة ابتداءً من السادسة صباحًا للتخلّص من نفايات بيَّابيستا ولا پِرلا وكاياو، هناك حيث تبدأ حشود الصغار والرجال والنساء والمُسنِّين في نبش المُخلَّفات ابتداءً من الوقت نفسه تقريبًا، فيبحثون عن الأغراض القيمة، وينازعون الطيور البحرية والعقبان والكلاب الضالة على بقايا الأطعمة الصالحة الضائعة وسط النفايات. اقتربوا من تلك الصحراء كثيرًا، باتجاه بينتانيَّا وأنكون، حيث تصطفّ مصانع طحين الأسماك في كاياو.

– «هذا أفضل مكان»، قال ليتوما. «لأن كل شاحنات القمامة تمرّ من هنا».

تعالَى هدير البحر قويًّا. في حين توقَّف التفاحة، ومعه الرجل الأسود أيضًا. أضاء رجلا الحرس المدني كشافَيْهما. وعلى الضوء المرتجف، جعلا يتفحَّصان ذلك الوجه الذي تتقاطع فيه الندوب، المُستمِرّ في المضغ من دون أن يبدو عليه أدنى قدر من التأثُّر.

- «أسوأ ما في الأمر أنه لا يتفاعل ولا يخمِّن شيئًا مما يجري»، غمغم ليتوما. «لو كان رجل آخر في موقفه لانتبه وشعر بالفزع مُحاوِلًا الهرب. يزعجني هدوءه واطمئنانه لنا».

- «لقد خطر لي أمر، سيدي الرقيب»، أخذَت أسنان أريبالو تصطكّ وكأنه يتجمَّد من فرط البرودة. «فلنسمح له بالهرب. سنقول إننا قد أرديناه قتيلًا، ونختلق أي قصة نفسِّر بها اختفاء الجثمان...».

كان ليتوما قد استلّ مسدسه وهمّ بفتح صمام الأمان.

- «أتجرؤ وتقترح عليَّ عصيان أوامر القيادات، والكذب عليهم أيضًا؟»، تردَّد صوت الرقيب مرتجفًا، ويمينه تصوِّب ماسورة السلاح إلى صدغ الرجل الأسود.

ولكن مرَّت ثانيتان، وثلاث... مرَّت بضع ثوانٍ وهو لم يطلق الرصاص بعد. أيطلق الرصاص؟ أيذعن للأوامر؟ أيدوِّي العيار الناري؟ أيسقط المُهاجِر الغامض فوق النفايات التي لا يُسبَر لها غور؟ أم يُعفَى من الموت، فيولِّي هاربًا، أعمى، همجيًّا، عَبْر شطآن الضواحي، بينما يبقى هناك الرقيب الذي لا لوم عليه، وسط الروائح العفنة ورجفات الأمواج، حائرًا، مُتألِّمًا، لأنه قد أخلّ بواجبه؟ كيف تنتهي تلك المأساة، مأساة كاياو؟

٥

وصف پاسكوال زيارةَ المُغنِّي لوتشو غاتيكا إلى مدينة ليما في نشرات الأخبار التي نقدِّمها بأنها: «حدثٌ فني من الطراز الرفيع ونجاح مُدوٍّ للإذاعة الوطنية». أما أنا، فلقد كلَّفَتني الواقعةُ قصةً، فضلًا عن ربطة عنق وقميص كلاهما كالجديد، كما اضطرَّتني إلى التخلّف عن موعدي مع الخالة خوليا للمرة الثانية. قبل وصول مُغنِّي البوليرو التشيلي، طالعتُ في الصحف عددًا كبيرًا من الصور والمقالات التي أشادَت به («إنها دعاية غير مدفوعة الأجر، أعظم صنوف الدعاية قيمةً»، حسبما قال خينارو الابن)، ولكني لم أدرك مدى الشهرة التي يحظى بها إلّا حين انتبهتُ إلى طوابير النساء اللاتي اصطففن في شارع بيلين، على أمل الحصول على تذاكر لحضور جلسة البثّ. ولمَّا كانت القاعة صغيرة - تضمّ مئة مقعد على وجه التقريب - فلم تتمكَّن من حضور البرامج إلَّا نساء قليلات. في ليلة الافتتاح، احتشد جمع غفير على أبواب راديو پانامريكانا، حتى بات لزامًا عليَّ أنا وپاسكوال أن نصعد إلى العلّية عن طريق بناء مجاور يشترك وبناؤنا في سطح واحد. أعددنا نشرة أخبار السابعة، غير أننا لم نجد طريقة واحدة لتسليمها إلى الطابق الثاني:

- «لقد احتشد عدد هائل من النساء اللاتي سددن الطريق إلى

الدَّرَج والباب والمصعد»، قال لي پاسكوال. «حاولتُ الاستئذان، فحسبنني مُتسلِّلًا».

اتَّصلتُ بخينارو الابن عَبْر التليفون، فوجدتُه لا تسعه الدنيا من الفرحة:

- «لقد عطَّل الناس حركة المرور في شارع بيلين، وما زالت أمامنا ساعة قبل إذاعة برنامج لوتشو. بيرو بأسرها تتابع راديو پانامريكانا في هذه اللحظة».

سألتُه عما إذا كنا سنضحِّي بنشرتَي أخبار السابعة والثامنة بسبب ما يجري، غير أنه ما كان يعدم الوسيلة قطّ، بل تفتَّق ذهنه عن فكرة إملاء الأخبار على المُعلِّقين عن طريق التليفون، وقد كان.

في فترات الراحة، أخذ پاسكوال ينصت إلى صوت لوتشو غاتيكا عَبْر الراديو مسحورًا، بينما رحتُ أعيد قراءة النسخة الرابعة من قصتي، قصة السيناتور الخصيّ التي اخترتُ لها في آخر المطاف عنوانًا يليق برواية رعب: **الوجه المُشوَّه**. سمعنا نهاية البرنامج في تمام التاسعة، إذ تناهى إلينا صوت مارتينيس موروسيني وهو يودِّع لوتشو غاتيكا، وتصفيق الجمهور الذي لم يكُن مُسجَّلًا على أسطوانة في تلك المرة، بل كان حقيقيًّا. وبعد عشر ثوانٍ، رنّ جرس التليفون، فسمعتُ صوت خينارو الابن منفعلًا:

- «انزلا كيفما تسنَّى لكما، فالوضع خارج عن السيطرة».

وجدنا صعوبة بالغة في اختراق جدار النساء المتزاحمات على الدرج، أولئك اللاتي اعترض طريقهن حارس العقار الضخم خيسوسيتو الذي وقف أمام باب القاعة. انطلق پاسكوال صائحًا: «إسعاف! إسعاف! جئنا لإسعاف أحد المصابين!». أما النساء، اللاتي كان أغلبهن في مقتبل العمر، فنظرن إلينا مبتسمات، أو غير

آبهات، ولم يفسحن لنا الطريق، حتى اضطررنا إلى دفعهن جانبًا. وفي الداخل، كان في انتظارنا استعراض مُحيِّر: إذ وجدنا الفنان الشهير يطالب بحماية الشرطة. كان قصير القامة، وبدا شاحبًا، مفعمًا بالكراهية نحو معجباته. حاول رجل الأعمال التقدُّمي أن يهدِّئ من روعه قائلًا إن الاتصال بالشرطة قد يترك انطباعًا في غاية السوء، علمًا أن ذلك الجمع من الفتيات يُعَدّ احتفاءً بموهبته. ولكن الرجل الشهير لم يقتنع.

- «أعرف هؤلاء الفتيات»، قال بين مذعور وساخط. «يبدأن بطلب الأوتوغراف، وينتهين إلى الخدش والعضّ!».

ضحكنا، ولكن الواقع أكَّد نبوءاته. قرَّر خينارو الابن الانتظار نصف ساعة، ظنًّا منه بأن المعجبات سوف يضجرن ويغادرن المكان. في العاشرة والربع (مع الأخذ في الحسبان أنني قد ضربتُ موعدًا للخالة خوليا حتى نذهب إلى السينما)، أدركنا التعب من طول ما انتظرنا أن تتعب النساء، فاتَّفقنا على الخروج، وشكَّلنا دائرة مُؤلَّفة من خينارو الابن وپاسكوال وخيسوسيتو ومارتينيس موروسيني وأنا، إذ أمسك كلٌّ منا بذراع الآخر، وأوقفنا المُغنِّي الشهير في وسط الدائرة. ما كدنا نفتح الباب حتى اشتدّ شحوب وجهه إلى أن بلغ حدّ البياض. تمكَّنا من النزول على سلالم الدَّرَج الأولى بلا إصابات فادحة، ونحن نصدّ البحر الأنثوي بالمرافق والركب والرؤوس والصدور، فقنعن في الوقت الراهن بالتصفيق والتنهُّد ومدّ الأيدي حتى يلمسن معبودهن - الذي بات في لون الثلج، وراح يبتسم هامسًا من بين أسنانه: «حذار يا رفاق، لا تفلتوا أيديكم» - ولكننا سرعان ما اضطُرِرنا إلى مواجهة اعتداء حقيقي. إذ أمسكن بنا، وجذبن ثيابنا صارخات. وبالأظفار، حاولن انتزاع نُتَف من قميص المعبود وبدلته. وصلنا إلى رواق المدخل، بعد عشر دقائق من الاختناق

والتدافع، فظننتهن سوف يطلقن سراحنا، وراودَتني رؤيا: رأيتُ فيها مُغنِّي البوليرو الضئيل وهو يُنتزَع من بين أيدينا انتزاعًا، ثم تمزِّقه المعجبات إربًا على مرأى منا. لم تتحقَّق الرؤيا. وعلى الرغم من ذلك، فعندما زُجّ به في سيارة خينارو الأب، الذي كان ينتظر أمام المقود منذ ساعة ونصف، بدا لوتشو غاتيكا وحراسه الحديديون وكأنما قد نجوا بحياتهم من كارثة. انتزعَت النساء ربطة عنقي ومزَّقن قميصي إربًا، كما مزَّقن زي خيسوسيتو وسرقن قبعته، في حين تورَّم جبين خينارو الابن، الذي تعرَّض لضربة بحقيبة يد. أما النجم، فلم يمسسه أذى، وإن لم تبقَ قطعةٌ واحدة من ثيابه سليمة إلّا الحذاء والسروال الداخلي. وفي اليوم التالي، بينما رحنا نتناول قهوة العاشرة في مقهى برانسا، حكيتُ لبِدرو كاماتشو عن بطولات النساء المعجبات. فلم يُفاجأ مطلقًا.

- «يا صديقي الشاب...»، قال مُتفلسِفًا، شاخصًا بعينَيْه من بعيد جدًّا. «حتى الموسيقى تصل إلى روح الجماهير».

بينما كنتُ أصارع دفاعًا عن سلامة لوتشو غاتيكا البدنية، نظَّفَت السيدة أغراديسيدا العلّية وألقَت النسخة الرابعة من قصتي عن السيناتور في سلة المهملات. ولكني، بدلًا من الأسى، شعرتُ بالتخفُّف من عبء ثقيل. وخلصتُ إلى أن تلك الواقعة تنطوي على تحذير من الآلهة. أبلغتُ خابيير بأنني لن أعيد كتابتها، فلم يحاول أن يثنيني عن قراري، وإنما هنَّأني.

تسلَّت الخالة خوليا كثيرًا بتجربتي في الحراسة الخاصة. كدنا نلتقي كل يوم منذ ليلة القبلات المُختلَسة في غريل بوليفار. في اليوم الذي أعقب عيد ميلاد الخال لوتشو، حضرتُ إلى بيت أرميندَاريس على غير المُتوقَّع، فوجدتُ الخالة خوليا وحيدةً، من حسن الحظ.

- «ذهبا لزيارة خالتك أورتينسيا»، قالت وهي تسمح لي

بالدخول إلى الصالة. «لم أذهب علمًا مني أن تلك النمَّامة تقضي حياتها في اختلاق القصص عني».

أحطتُ خصرها بذراعي، ثم جذبتُها إليَّ مُحاوِلًا أن أقبّلها. لم تعرض عني، غير أنها لم تبادلني القبلة: فشعرتُ بفمها باردًا على فمي. ابتعد كلٌّ منا عن الآخر، فرأيتُها ترمقني غير باسمة. لم تنظر إليَّ بمفاجأة كما حدث عشية البارحة، وإنما بفضول، وشيء من السخرية.

- «اسمع يا ماريتو»، جاء صوتها ودودًا، هادئًا. «لقد ارتكبتُ كل فعلة مجنونة في العالَم طوال حياتي. أما **هذه الفعلة**، فلن أرتكبها»، أطلقَت ضحكة مجلجلة. «أنا، أُفسِد قاصرًا؟ ذلك شيء مستحيل!».

جلسنا وتجاذبنا أطراف الحديث قرابة ساعتَيْن. حكيتُ لها حياتي كلها، لا الماضية، بل حياتي التي سوف أعيشها مستقبلًا، متى سكنتُ في باريس وأصبحتُ كاتبًا. قلتُ لها إنني أرغب في الكتابة منذ قرأتُ ألكساندر دوما لأول مرة، وإنني أحلم بالسفر إلى فرنسا منذ ذلك الحين، وأحلم بسكنى حجرة علوية في حيّ الفنانين، حيث أنذر نفسي تمامًا للأدب، أعظم شيء في هذا العالَم. أخبرتُها بأنني أدرس القانون حتى أرضي العائلة، ولكن المحاماة تبدو لي أشدّ المهن بلادةً وبلاهةً، ولن أزاولها ما حييت. في لحظة بعينها، أدركتُ أنني أتحدَّث بطريقة مفعمة بالحرارة، وقلتُ إنها أول مرة أعترف بتلك الأمور الحميمية لامرأة، وليس لصديق.

- «تَراني كما لو كنتُ أمك، ما يجعلك ترغب في البوح إليَّ بتلك الأمور»، مضت الخالة خوليا تحلّلني نفسيًّا. «إذن فابن دوريتا من البوهيميين، يا للمفاجأة! مشكلة البوهيمية يا بنيّ أنك سوف تتضوَّر جوعًا».

حكَت لي أنها في الليلة الفائتة قد جافاها النوم، إذ مضَت تفكّر في قبلاتنا المُختلَسة في غريل بوليفار. لم تصدِّق أن ابن دوريتا قد طبع على فمها قبلة بلا مُقدِّمات، وكأنه رجل مكتمل الرجولة، وهو الصغير الذي كانت بالأمس ترافق أمه لتوصيله إلى مدرسة لا سال في كوتشابامبا، ذلك الطفل الذي حسبَته ما زال يرتدي السروال القصير، الصبي الذي كانت تطلب منه مرافقتها إلى السينما حتى لا تذهب وحيدة.

- «أنا رجل مكتمل الرجولة»، قلتُ مُؤكِّدًا وأنا آخذ بيدها وأقبِّلها. «لقد بلغتُ الثامنة عشرة من العمر. وفقدتُ عذريتي منذ خمسة أعوام».

- «ماذا أكون إذن، وأنا قد بلغتُ الثانية والثلاثين، وفقدتُ عذريتي منذ خمسة عشر عامًا؟»، ضحكَت. «عجوزًا طاعنة في العمر!».

كانت ضحكتها رنانة، قوية، مباشرة، مفعمة بالبهجة، تُطلِقها فينفرج فمها عن آخره، وكذلك شفتاها الممتلئتان، بينما تضيق عيناها. نظرَت إليَّ بسخرية وخبث. لم ترَني بعد رجلًا مكتمل الرجولة، ولكنها ما عادت تراني طفلًا صغيرًا. نهضَت لتصبّ كأس ويسكي من أجلي.

- «بعد الجرأة التي أبديتَها ليلة البارحة، ما عدتُ أستطيع أن أدعوك إلى الكوكاكولا»، قالت وهي تتظاهر بالأسف. «يجب عليَّ أن أعاملك بصفتك واحدًا من خُطَّابي».

قلتُ لها إن الفارق العمري لم يكُن فظيعًا إلى هذا الحدّ.

- «ليس فظيعًا إلى هذا الحدّ»، أجابَتني. «ولكنه يكاد يبلغ هذا الحدّ، فأنت صغير بالقدر الذي يجعلك في عمر ابني».

حكَت لي قصة زواجها. في السنوات الأولى، سار كل شيء

على ما يُرام. كان زوجها يملك أرضًا في ألتيپلانو، فألِفَت هي حياة الريف حتى لم تعُد تذهب إلى مدينة لا پاس إلَّا في ما ندر. كان البيت الريفي وثيرًا جدًّا، وفتنها هدوء المكان والحياة الصحية البسيطة: ركوب الخيل، والرحلات، والمشاركة في أعياد الهنود. ثم لاحت السحب الرمادية في الأفق لأنها عجزَت عن الحَمْل. تعذَّب زوجها بفكرة عدم الإنجاب، وبدأ يعاقر الشراب. ومنذ ذلك الحين، سقط الزواج في دوَّامة الشجار والفراق ثم الصلح من جديد، حتى كان الخصام الأخير. وإن ظلَّت تجمعهما صداقة وثيقة بعد الطلاق.

- «لو حدث أن تزوَّجتُ، فلن أنجب أبدًا»، حذَّرتُها. «الأبناء والأدب لا يتَّفقان».

- «أتقصد أن في إمكاني التقدّم بطلب والوقوف في طابور الانتظار؟»، تدلَّلَت الخالة خوليا.

كانت حاضرة البديهة، سريعة الردّ، طريفة الحكي إذا سردَت القصص الفاضحة، بعيدةً عن الآداب إلى درجة مُروِّعة، (شأنها شأن جميع النساء اللاتي عرفتهن حتى ذلك الوقت). تركَت في نفسي انطباعًا بأنها، خلال ساعات الفراغ الطوال في ريف بوليفيا، لم تقرأ سوى المجلات الأرجنتينية وبعض إصدارات ديلي الرديئة وروايتَيْن رأت أنهما لا تُنسَيان: **العربي**، وابن **العربي**، لمُؤلِّف يُدعَى ه م هُوُل. وفيما هي تودِّعني ليلتذاك، سألتُها إن كان في مقدورنا الذهاب إلى السينما، فقالت «السينما نعم». وهكذا بدأنا نذهب إلى الحفلات الليلية منذ ذلك الحين، كل يوم تقريبًا. وبغضّ النظر عن الكم الهائل الذي احتملناه من الميلودراما المكسيكية والأرجنتينية، تبادلنا عددًا مُعتبَرًا من القبلات، وإذا السينما تغدو مُجرَّد حجة، فصرنا نتخيَّر أبعد دور السينما عن بيت أرمينداريس (مونتكارلو، كولينا، مارسانو)، حتى نبقى معًا لوقت أطول، ثم نتمشَّى بعد العرض طويلًا ونحن

«نصنع الشطائر» (إذ علَّمَتني أن ضمّ اليدَيْن في بوليفيا يُسمَّى «صنع الشطائر»)، ونمضي في طرق ملتوية عَبْر شوارع ميرافلوريس الخاوية (وإن كنا نفلت يدَيْنا كلّما ظهر أحد المارة أو إحدى السيارات)، ونتحدَّث عن كل شيء، بينما الرذاذ الخفيف يبلّلنا، في ذلك الموسم الموحش الذي يطلقون عليه في ليما موسم الشتاء. لطالما كانت الخالة خوليا تذهب لتناول الغداء أو الشاي مع واحد من خطّابها الكثيرين. أما الليالي، فحجزَتها لي أنا. كنا نذهب إلى السينما، ونجلس في الصفوف الخلفية، حيث يتسنَّى لنا تبادل القبلات (ولا سيما إن كان الفيلم شديد الرداءة)، من دون أن نُزعِج غيرنا من المشاهدين أو يتعرَّفنا أحدهم. سرعان ما استقرَّت الصلة التي جمعَتنا على طورٍ بلا ملامح، وبلغَت موضعًا مبهمًا يتراوح بين هاتين الفئتَيْن المتضاربتَيْن من العلاقات: الحبّ والعشق. وبات ذلك موضوعًا مُتكرِّرًا في أحاديثنا، فلقد أخذنا عن العاشقين السرّيةَ والخوفَ من افتضاح أمرهم والشعورَ بالخطر، وإن جمعنا عشقٌ روحاني، لا مادي، لأننا لم نمارس الحبّ (بل إننا «لم نلمس بعضنا بعضًا»، الأمر الذي صُدِم به خابيير في وقت لاحق). أما الأحبَّاء، فلقد أخذنا عنهم التمسُّك بطقوس كلاسيكية بعينها شأن مراهقي ميرافلوريس آنذاك (الذهاب إلى السينما، وتبادل القبلات خلال عرض الفيلم، والسير في الشارع وقد أخذ كلٌّ منا بيد الآخر). زد على ذلك التمسُّك بالعفاف (ففي ذلك العصر الحجري، درجَت فتيات ميرافلوريس على الوصول إلى الزواج عذراوات، كما درجن على صدّ الحبيب عن لمس صدورهن أو فروجهن ما لم يترقَّ الحبيب إلى مرتبة خطيب رسمي)، ولكن، كيف لنا أن نحظى بعلاقة كهذه في ظلّ الفارق العمري وصلة القربى التي جمعَتني بها؟ وبالنظر إلى مدى الغرابة والغموض اللذين اتَّسمَت بهما علاقتنا الرومانسية، رحنا

نلعب لعبة إطلاق المسميات على ما بيننا: «خطوبة إنجليزية»، و«علاقة رومانسية سويدية»، و«دراما تركية».

- «غراميات ولد صغير وامرأة عجوز، والأدهى أن تلك المرأة في مكانة خالته»، قالت لي الخالة خوليا ذات ليلة، ونحن نقطع منتزه سنترال. «قصة ممتازة تصلح لمسلسلات پِدرو كاماتشو الإذاعية».

ذكَّرتُها بأنها في مقام خالتي، لا أكثر، فأخبرَتني بأن بطل مسلسل الثالثة مساء، الفتى رائع الوسامة ابن منطقة سان إسيدرو، الذي برع في رياضة ركوب أمواج هاواي، كان على علاقة بأخته نفسها، بل إنه تركها حبلى، في واقعة من أفظع ما يكون!».

- «ومتى بدأتِ في الاستماع إلى المسلسلات الإذاعية؟»، سألتُها.

- «أصابَتني أختي بالعدوى»، أجابَت. «الحق أن مسلسلات راديو سنترال رائعة. إنها أعمال مغرقة في الدراما ينفطر لها القلب».

ثم اعترفَت لي بأنها وزوجة خالي أولغا تمتلئ عيونهما بالدموع في بعض الأحيان. فكان ذلك أول مؤشر أرصده على الأثر الشديد الذي تركه قلمُ پِدرو كاماتشو في بيوت ليما. وفي الأيام التالية، رصدتُ المزيد من المؤشرات في بيوت العائلة. كنتُ أمرّ ببيت الخالة لاورا، فلا تكاد تراني على أعتاب الصالة حتى تأمرني بالصمت واضعةً إصبعها على شفتَيْها، بينما تظلّ هي مائلةً إلى جهاز الراديو حتى يمكنها الإنصات إلى صوت الفنان البوليفي (الذي يأتي مرتجفًا أو خشنًا أو مُتوهِّجًا أو بلّوريًّا)، وحتى يمكنها أن تشمّ صوته وتلمسه أيضًا. أو كنتُ أذهب إلى بيت زوجة خالي غابي، فأجدها مع الخالة أورتينسيا، وقد استغرقَت أصابعهما في حلّ كرة من الخيط، وبينهما حديث مُتَّصل حافل بالألفاظ والأفعال المستقاة من كلام المُمثِّل لوسيانو پاندو والمُمثِّلة خوسيفينا سانتشيس. وحتى في

بيتي، صار شغف جدي وجدتي حقيقيًا، وهما اللذان طالما «راقت لهما المسلسلات الإذاعية»، حسبما قالت الجدة كارمِن. كنتُ أستيقظ في الصباح على صوت مقدمة الراديو الموسيقية - وهما يستعدّان بترقُّبٍ مَرَضي لأول مسلسلات اليوم، الذي يُذاع في العاشرة صباحًا - ثم أتناول الغداء مُنصِتًا إلى مسلسل الثانية مساء. بل إنني كنتُ أعود إلى البيت في أي وقت من أوقات النهار فأجد العجوزَيْن مع الطاهية في ركن من أركان صالة الاستقبال، مستغرقين بعمق في الإنصات إلى الراديو الضخم الثقيل كالصوان. والأدهى أنهم كانوا يشغِّلونه بأعلى صوت دائمًا.

- «لماذا تروق لكِ المسلسلات الإذاعية إلى هذا الحدّ؟»، سألتُ جدّتي ذات يوم. «ما الشيء الذي تتميَّز به عن الكتب، على سبيل المثال؟».

- «المسلسلات الإذاعية أكثر حيوية، والإنصات إلى شخصياتها أكثر واقعية»، أوضحَت لي بعد تأمُّل. «أضف إلى ذلك أن السمع في مثل عمري أقوى من البصر».

حاولتُ أن أجري استقصاء مشابهًا في بيوت أقرباء آخرين، فخرجتُ منه بنتائج مبهمة. كانت المسلسلات الإذاعية تروق للخالة أورتينسيا والخالة لاورا وزوجة خالي غابي وزوجة خالي أولغا لأنها مُسلِّية أو حزينة أو مُؤثِّرة، ولأنها تُشتِّت المرء وتجعله يحلم ويعيش أمورًا تُعَدّ على أرض الواقع في عداد المحال، أو لأنها تلقِّن المستمع بعض الحقائق، أو لأن المرأة تحتفظ بقليل من الروح الرومانسية دائمًا. ولما سألتهن عن سبب تفضيل المسلسلات الإذاعية على الكتب، اعترضن قائلات: أي حماقة! وما وجه المقارنة! الكتب ثقافة، أما المسلسلات الإذاعية فمُجرَّد لغو فارغ لتمضية الوقت. ولكن الحق أنهن قد عشن مُتعلِّقات بالراديو، في حين لم

يحدث أن رأيت واحدة منهن تفتح كتابًا قطّ. أحيانًا، وخلال جولاتنا الليلية، كانت الخالة خوليا توجز لي بعض الحلقات التي تركَت في نفسها أثرًا قويًّا، بينما أخبرها أنا بالأحاديث التي جمعَتني بكاتب السيناريو، وهكذا أضحى بِدرو كاماتشو عنصرًا من عناصر علاقتنا الرومانسية، من دون أن نشعر بذلك.

ولقد أكَّد لي خينارو الابن شخصيًّا نجاحَ المسلسلات الإذاعية الجديدة يومَ أفلحتُ أخيرًا في الحصول على آلة كاتبة أخرى، بعد أن تقدَّمت بألف احتجاج. يومذاك، حضر إلى العلّية بوجه مشرق، وفي يده ملف:

- «لقد فاق التوقّعات الأكثر تفاؤلًا»، قال لنا. «في غضون أسبوعَيْن، ارتفع إقبال المستمعين على المسلسلات الإذاعية بنسبة عشرين بالمئة. أتدريان ما الذي يعنيه ذلك؟ زيادة فواتير الرعاة بنسبة عشرين بالمئة!».

- «وهل ترتفع رواتبنا بنسبة عشرين بالمئة، دون خينارو؟»، قفز پاسكوال من مقعده.

- «أنتما لا تعملان في راديو سنترال، بل تعملان في پانامريكانا»، ذكَّرنا خينارو الابن. «نحن في محطة تراعي الذائقة الرفيعة، ولا تذيع المسلسلات الإذاعية».

سرعان ما تردَّدَت أصداء الإقبال الجماهيري الذي حصدَته المسلسلات الإذاعية الجديدة في الصحف اليومية والصفحات المُتخصِّصة التي بدأت تثني على بِدرو كاماتشو. وفي عمود غويدو مونتيبيردي، الصادر في جريدة **آخر ساعة**، قدَّمه الصحافي بوصفه: «كاتبَ السيناريو الخبير ذا المخيلة الاستوائية والكلمة الرومانسية، ومُخرِجَ المسلسلات الإذاعية المُتناغِم الجريء، والمُمثِّلَ صاحب الصوت العذب والقدرة على التلوُّن». أما الرجل المعني بتلك

الأوصاف، فلم يُبدِ أدنى انتباه إلى موجات الحماسة التي تعالَت من حوله.

في واحد من تلك النهارات، عندما كنتُ أمرّ به في طريقي إلى برانسا لنحتسي القهوة معًا، وجدتُ لافتة مُلصَقة بنافذة حجيرته، جاء فيها بخطٍّ رديء: «لا يُسمَح بدخول الصحافيين ولا تُقبَل طلبات التوقيع. الفنان يعمل، فاحترموه!».

- «أجدّ هذا أم مزاح؟»، سألتُه وأنا أتذوّق القهوة بالحليب، بينما هو يتذوَّق مشروبه المُنعِش للدماغ المُكوَّن من عشبة الليمون والنعنع.

- «في غاية الجدية»، أجابني. «لقد بدأت الصحافة المحلية تضيِّق عليَّ الخناق، وقريبًا أجد طوابير من المستمعين يطلبون مني الصور والتوقيع ما لم أوقفهم عند حدهم»، أشار إلى ميدان سان مارتين كمن يتمنَّع. «وقتي من ذهب، ولا يسعني إهداره في الحماقات».

جاء قوله لا تشوبه ذرة خيلاء واحدة، إن هو إلَّا قلق صادق. كان يرتدي بدلته السوداء المعهودة، والبابيون، كما راح يدخِّن سجائر كريهة الرائحة تُدعَى أبياسيون، وهو في منتهى الجدية، كالمعتاد. ظننتُه سوف يشعر بالإطراء إذا حكيتُ له أن خالاتي جميعًا صرن من المستمعات المُتحمِّسات لأعماله، وأن خينارو الابن لا تسعه الدنيا من الفرحة بنتائج استطلاعات الرأي بشأن الإقبال على مسلسلاته الإذاعية. غير أنه أخرسني وقد تملَّكه الضجر، وكأن كلّها أمور لا مفرّ منها، وكأنه يعرفها منذ الأزل، بل أخبرني بأنه يشعر بسخط شديد لأن **التجَّار** يفتقرون إلى الرهافة (و**التجَّار** هي الكلمة التي بات يشير بها إلى آل خينارو طوال الوقت، بدءًا من ذلك الحين).

- «في المسلسلات الإذاعية موطن ضعف، وواجبي يحتّم عليَّ علاجه، كما يحتّم عليهم مساعدتي»، قال جازمًا، عاقد الجبين. «ولكن من الواضح أن الفن والمال عدوَّان لدودان، كالخنازير وأزهار الأقحوان».

- «موطن ضعف؟»، تملَّكَتني الدهشة. «ولكنها تشهد نجاحًا مدوّيًا!».

- «التجَّار لا يريدون فصل پابليتو من العمل، مع أنني طالبتُ بذلك»، أوضح لي. «يرفضون بالنظر إلى اعتبارات عاطفية، لأنه أمضى أعوامًا لا أعرف لها عددًا في راديو سنترال، وحماقات من هذا القبيل. وكأنما الفن مُقترِنٌ بالعمل الخيري. إن افتقار ذلك المريض إلى الكفاءة شيء يخرِّب عملي بحق!».

كان پابليتو الكبير واحدًا من تلك الشخصيات العجيبة المبهمة التي تجتذبها أجواء الراديو، أو تصنعها. توحي صيغة التصغير المُستخدَمة في الإشارة إليه بأنه فتى صغير، مع أنه رجل خلاسي خمسيني يجرجر قدمَيْه على الأرض، ويُصاب بنوبات ربو تثير الرذاذ من حوله، ويحوم صباحًا ومساءً في راديو سنترال وپانامريكانا، حيث يفعل كل شيء، بدءًا بمساعدة الكناسين والذهاب لشراء تذاكر السينما وعروض مصارعة الثيران من أجل آل خينارو، وحتى توزيع البطاقات لحضور جلسات الإذاعة. أما عمله الأكثر استقرارًا، فكان في المسلسلات الإذاعية، حيث تولَّى أداء المُؤثِّرات الخاصة.

- «إنهم يحسبون المُؤثِّرات الخاصة مزحة يستطيع أن يؤدِّيها أي شحاذ»، أخذ پدرو كاماتشو يهدر في أرستقراطية وبرود. «مع أنها في حقيقة الأمر فنٌّ. وماذا يدري عن الفن ذلك المدعو پابليتو ذو الرأس المُشوَّه الذي يكاد يحتضر؟».

أكَّد لي أنه «لو اقتضى الأمر» لما تردَّد في إزاحة أي عقبة بيدَيْه،

أي عقبة تمنعه من الارتقاء «بعمله حتى يبلغ درجة الكمال» (القول الذي أورده بطريقة جعلَتني أصدِّقه). ثم أردف، آسفًا، أنه لا يملك الوقت اللازم لتدريب فنّي مُتخصِّص في المُؤثِّرات الخاصة، وتلقينه كل شيء من الألف إلى الياء، ولكنه عثر على ضالته بعد بحث سريع في قنوات الراديو المحلية. خفض صوته، وتلفَّت ملقيًا نظرة من حوله، ثم خلص إلى النتيجة الآتية، بنبرة جهنمية:

- «إن العنصر الذي يناسبنا موجود في راديو بيكتوريا».

مضيتُ أنا وخابيير نحلِّل احتمالات تنفيذ پِدرو كاماتشو نواياه القاتلة ضد پابليتو الكبير، فاتفقنا على أن مصير پابليتو رهن باستطلاعات الرأي دون غيرها: فلو استمرَّ الإقبال على المسلسلات الإذاعية في الزيادة، لقُدِّم پابليتو قربانًا، بلا رحمة. وبالفعل، قبل مضي أسبوع، حضر خينارو الابن إلى العلّية، فباغتني وأنا في أوج الكتابة، إذ كنتُ مُنصرِفًا إلى تأليف قصة جديدة - لا بد أنه انتبه إلى الارتباك الذي اعتراني، والسرعة التي سحبتُ بها الورقة من الآلة الكاتبة، وخلطتُها بين نشرات الأخبار، غير أنه تحلَّى بالرهافة التي جعلَته لا ينبس بشيء - وتوجَّه إليَّ أنا وپاسكوال بالحديث، بلفتة تليق بواحد من رعاة الفنون العظام:

- «لقد آتَت شكواكما العديدة ثمارها، وحصلتما على المُحرِّر الجديد الذي تريدان، أيها الكسولَيْن. سوف يعمل معكما پابليتو الكبير. لا تكتفيا بما تحقَّق لكما!».

أما التعزيزات التي حصل عليها فريق الخدمة الإخبارية، فكانت معنوية أكثر منها مادية، ذلك أن پابليتو الكبير حضر إلى المكتب في تمام السابعة من صباح اليوم التالي، في موعده بمنتهى الدقة، سائلًا عما يجب عليه أن يفعل، فكلَّفتُه بمراجعة تقرير برلماني، وإذا هو

يرسم على وجهه أمارات الهول، ويدخل في نوبة سعال تركَت بشرته زرقاء اللون، ويتلعثم قائلًا إن ذلك ضرب من المحال:

- «ولكني لا أجيد القراءة والكتابة يا سيدي».

اعتبرتُ اختيار مُحرِّر أمّي جديد لينضمّ إلى فريقنا دليلًا مرهفًا على روح الدعابة التي تحلَّى بها خينارو الابن. في حين تلقَّى پاسكوال خبر أمّية المُحرِّر الجديد بفرحة صادقة، بعد أن استحوذ عليه الشعور بالتوتُّر حين تناهى إليه أنه سوف يشترك مع پابليتو الكبير في مهمة التحرير. طفق يؤنِّب زميله الجديد أمامي على فتور الهمّة، لأنه عجز عن تعليم نفسه بنفسه، كما فعل پاسكوال في عمر كبير بحضور الدروس المجانية في المدرسة الليلة. أخذ پابليتو الكبير يومئ برأسه، وقد تملَّكه ذعر شديد، مُردِّدًا كالرجل الآلي: «حقًّا، لم يخطر لي ذلك على بال، صحيح، أنت مُحِقّ في كل ما تقول»، بينما هو ينظر إليَّ وقد ارتسم على وجهه تعبير يليق بمن أوشك على أن يُفصَل من العمل. طمأنتُه، وقلتُ له إنه سوف يتولَّى مهمة تسليم النشرات الإخبارية للمذيعين بالأسفل. وإن بات الرجل، في واقع الأمر، عبدًا لپاسكوال الذي كان يحمله على الركض طوال اليوم، من العلّية إلى الشارع ومن الشارع إلى العلّية، حتى يُحضِر له السجائر أو البطاطس المحشوة من أحد الباعة الجائلين في شارع كارابايا، بل إنه صار يُرسِله إلى الخارج ليتحقَّق من تساقط الأمطار. تحمَّل پابليتو الكبير تلك العبودية بروح تضحية عظيمة، بل إنه صار يُظهِر لمُعذّبه من الاحترام والصداقة أكثر مما أظهر لي. أما في غير الأوقات التي يُنفِّذ خلالها طلبات پاسكوال، فكان ينزوي على نفسه في ركن من أركان المكتب، ولا يلبث أن يخلد إلى النوم مُتّكئًا برأسه على الجدار، بينما يطلق غطيطًا رتيبًا مصحوبًا بالصفير وكأنه صوت مروحة صدئة.

كانت له روح كريمة. ولم يُضمِر أدنى شعور بالحقد لپِدرو

كاماتشو لأنه قد استعاض عنه بدخيل من راديو بيكتوريا، فلطالما امتدح كاتبَ السيناريو البوليفي بأفخم عبارات الإطراء، وشعر نحوه بأصدق الإعجاب.

كثيرًا ما طلب مني الإذن في حضور بروفات المسلسلات الإذاعية، تلك التي يعود منها في كل مرة أكثر وأكثر حماسةً:

- «إن ذلك الرجل نابغة»، كان يقول مختنقًا. «تخطر على باله أمور إعجازية».

ولطالما جاء بنوادر مُسلِّية جدًّا عن المآثر الفنية لِبدرو كاماتشو. ذات يوم، أقسم لنا إن كاتب السيناريو قد أوصى المُمثِّل لوسيانو باندو بالاستمناء قبل تلاوة مقطع غرامي، مُتعلِّلًا بأن ذلك يبثُّ في الصوت وهنًا ولهاثًا في غاية الرومانسية، فما كان من لوسيانو باندو إلَّا أن امتنع.

- «والآن أدركنا السبب في ذهابه إلى حمام الفناء كلّما اضطُرّ إلى تقديم مشهد عاطفي يا دون ماريو»، راح پابليتو الكبير يرسم علامة الصليب مُقبِّلًا أصابعه. «حتى يستمني، وإلَّا فلمَ! ولهذا يأتي صوته في غاية الرقة».

خضتُ أنا وخابيير نقاشًا مُطوَّلًا حول ذلك الأمر، سواء أكان صحيحًا أم من اختراع المُحرِّر الجديد، فخلصنا إلى وجود ما يكفي من الركائز حتى لا نعتبره ضربًا من المحال في المطلق، على كل حال.

- «تلك هي الأمور التي يجدر بك أن تكتب قصة عنها، لا المُمثِّل دوروتيو مارتي»، قال خابيير لائمًا. «إن راديو سنترال منجم أدبي».

أما القصة التي أصررتُ على كتابتها في تلك الأيام، فقامت على إحدى الطرائف التي حكَتها لي الخالة خوليا، واقعة شهدَتها

بنفسها في مسرح سابيدرا في مدينة لا پاس. كان دوروتيو مارتي مُمثِّلًا إسبانيًّا، ذهب في جولة إلى أمريكا، حيث جعل الجماهير تبكي من قوة المشاعر الملتهبة حين قدَّم مسرحيتَي **المكروهة**، **ورجل مُكتمِل الرجولة**، وغير ذلك من المآسي الأشدّ وأشدّ قسوة. وحتى في ليما - حيث كان المسرح يُعتبَر أثرًا عتيقًا جديرًا بالفضول، انقرض منذ القرن الماضي - استطاعَت فرقةُ دوروتيو مارتي أن تملأ مسرح البلدية حين قدَّمَت العرض الذي قالت عنه الأسطورة إنه أقوى عروضها على الإطلاق: **الحياة... آلام الرَّب وموته**. كان الفنان يتَّسم بحسٍّ عملي قوي، وتناقلَت الألسنة الخبيثة أن «السيد المسيح»، في بعض المرات، كان يقطع السهرة الباكية الحافلة بالآلام في جبل الزيتون حتى يعلن للحضور الكرام، بصوت ودود، أن الفرقة سوف تقدِّم عرضًا خاصًّا في اليوم التالي، حيث يمكن لكل سيد نبيل أن يصطحب زوجته بالمجان (ثم تستمرّ آلام المسيح فوق جبل الجلجثة). وكان عرض **الحياة... آلام الرَّب وموته** هو الذي شاهدَته الخالة خوليا في مسرح سابيدرا على وجه التحديد. وفي اللحظة الأسمى، بينما كان يسوع المسيح يلفظ أنفاسه الأخيرة فوق أعالي جبل الجلجثة، أدرك الحضورُ أن الصليب الخشبي الذي شُدَّ إليه وثاق «يسوع المسيح-مارتي»، وسط سحائب من البخور، بدأ يترنَّح. أتراه حادثًا، أم تأثيرًا مقصودًا؟ وبحذر، مضى تلاميذ المسيح والعذراء مريم والجنود الرومان وعموم الشعب يتبادلون النظرات خلسةً، ويتراجعون، ويبتعدون عن الصليب المُتأرجِح. أما «دوروتيو-يسوع»، الذي كان رأسه لا يزال مائلًا على صدره، فبدأ يهمس بصوت خفيض، وإن سمعَته الصفوف الأولى في الصالة: «سوف أسقط، سوف أسقط». لا شكّ أن ذلك التعدِّي على المُقدَّسات قد جمَّدهم في أمكنتهم، فلم يحضر أحدٌ من المشتغلين

بالكواليس المُتخفّين عن الأنظار حتى يسند الصليب الذي يتراقص الآن مُتحدِّيًا عددًا كبيرًا من قوانين الفيزياء، وسط جلبة الخوف التي حلَّت محل الصلوات. وما هي إلَّا ثوانٍ حتى استطاع الحضور من أبناء مدينة لا پاس أن يروا «مارتي الجليلي[1]» وهو ينكفئ على وجهه فوق خشبة المسرح الذي شهد أمجاده، وقد ناء بحمل خشبة الصليب المُقدَّس، فتناهي إلى سمعهم دويٌّ هزَّ المسرح. أقسمَت لي الخالة خوليا إن «المسيح»، قبل أن ينسحق على ألواح الأرضية الخشبية، قد وجد مُتَّسعًا من الوقت حتى يهدر في وحشية قائلًا: «لقد سقطتُ، اللعنة!». وكانت تلك الخاتمة على وجه التحديد هي الشيء الذي شعرتُ برغبة في إعادة تمثيله، فتنتهي قصتي كما يلي، على نحوٍ درامي، بالكلمة النابية التي أطلقها «يسوع» هادرًا. أردتُ لها أن تكون قصة هزلية. وفي سبيل تعلُّم تقنيات السخرية، رحتُ أقرأ أعمال جميع الكُتَّاب الساخرين المتاحة، في سيارات الأجرة المشتركة والمواصلات، وفي الفراش قبل النوم، بدءًا بمارك توين وبرنارد شو وصولًا إلى خارديل پونثيلا وفرنانديث فلوريث. ولكني لم أتمكَّن من كتابة القصة كما ينبغي، كالمعتاد. في حين مضى پاسكوال وپابليتو الكبير يحصيان عدد الأوراق التي ألقيتُ بها في سلة المهملات. من حسن الحظ أن آل خينارو قد أسرفوا في تزويد الخدمة الإخبارية بالأوراق.

مضى أسبوعان أو ثلاثة أسابيع قبل أن أتعرَّف برجل راديو بيكتوريا الذي حلَّ محلَّ پابليتو الكبير. وبعكس الحال قبل مجيء كاتب السيناريو، عندما كان يُسمَح بحضور جلسات تسجيل

(١) الجليلي، نسبة إلى منطقة الجليل، حيث تقع مدينة الناصرة التي يُنسَب إليها يسوع المسيح طبقًا للعقيدة المسيحية. (المترجم)

المسلسلات الإذاعية بحُريَّة، حظر بِدرو كاماتشو الدخول إلى الأستوديو على الجميع، باستثناء المُمثِّلين والفنيين، بل إنه صار يغلق الباب الذي يُنصِّب أمامه قامةَ خيسوسيتو المهيبة لئلَّا يتمكَّن من الدخول أحد، كائنًا من كان. حتى خينارو الابن نفسه لم يُستثنَ من الحظر. أذكر ذلك المساء، لمَّا حضر إلى العلّية وأنفه يرتجف سخطًا، عندما راح يبثّني شكواه كعادته كلّما واجهته المشكلات وصار في حاجة إلى منديل حتى يجفِّف دموعه:

- «حاولتُ أن أدخل إلى الأستوديو، فأوقف البرنامج بحدّة، وأبى الاستمرار في التسجيل حتى أغادر المكان»، قال لي بصوت مضطرب. «بل إنه توعَّدني بأن يرمي رأسي بالميكروفون متى اقتحمتُ البروفة في المرة القادمة. ماذا أفعل؟ هل أطرده شرّ طردة، أم أتجرَّع الإهانة؟».

قلتُ له الشيء الذي أراد أن يسمعه مني: فبالنظر إلى نجاح المسلسلات الإذاعية («وإعلاءً لشأن الإذاعة الوطنية، وما إلى ذلك...»)، يجب عليه أن يتجرَّع الإهانة، وألَّا يحشر أنفه مرة أخرى في منطقة الفنان. وقد فعل. أما أنا فبقيتُ أتحرَّق فضولًا لحضور واحدة من جلسات تسجيل البرامج التي يقدِّمها كاتب السيناريو.

ذات صباح، في ساعة القهوة المعهودة، وبعد لفٍّ ودوران حذِر، تجرَّأتُ على جسّ نبض بِدرو كاماتشو. قلتُ له إنني أتوق لرؤية فني المُؤثِّرات الخاصة الجديد في أثناء العمل، والتحقّق مما إذا كان بارعًا في عمله كما سبق وأخبرني.

- «لم أقُل إنه بارع، بل مقبول»، تدارك من فوره. «ولكنّي أعلِّمه، وربما تحقَّقَت له البراعة».

تناول جرعة من مشروبه الساخن، ومضى يراقبني بعينَيْه الضيقتَيْن

الباردتَيْن الثاقبتَيْن، والشكوك تعتمل في سريرته. وأخيرًا، أومأ برأسه مُسلِّمًا:

- «حسنًا. تعالَ غدًا، واحضر جلسة الثالثة. ولكن هذا شيء لا يمكن أن يتكرَّر، مع الأسف الشديد. لا يروقني أن تُشتَّت أذهان المُمثِّلين. ربما أزعجهم أي حضور، فيضيعون من بين يدَيّ، وعلى الحالة الوجدانية السلام! إن تسجيلَ حلقةٍ إذاعيةٍ مثل القداس الإلهي يا صديقي».

غير أن تسجيل الحلقة الإذاعية كان أكثر مهابةً، في واقع الأمر، فمن بين جميع القداسات الإلهية التي أذكرها (وأنا الذي لم أذهب إلى الكنيسة منذ أعوام)، لم أرَ طقسًا نابعًا من صميم الوجدان، أو شعائر مفعمة بالحيوية، كما رأيتُ في جلسة تسجيل الحلقة السابعة عشر من مسلسل **مغامرات دون ألبِرتو دي كينتيروس ومآسيه**، تلك الجلسة التي سُمِح لي بحضورها. لا بدّ أن العرض لم يتجاوز الثلاثين دقيقة - عشر دقائق للبروفة، وعشرين للتسجيل - وإن بدا لي أنه قد استمرّ ساعات. تأثَّرتُ أول ما تأثَّرتُ بأجواء الخلوة الدينية التي سادَت الحجرة الصغيرة ذات النوافذ الزجاجية والبساط الأخضر المغبر، تلك الحجرة التي أُطلِق عليها **أستوديو تسجيل راديو سنترال الأول**. لم يكُن هناك من المشاهدين سوانا أنا وپابليتو الكبير. أما سائر الحضور، فكانوا من المشاركين الفعالين. وفيما هو داخل إلى المكان، رشقنا پِدرو كاماتشو بنظرة عسكرية نبَّهنا بها إلى ضرورة البقاء في موضعنا كتمثالَيْن من الملح. بدا المُؤلِّف-المخرج وكأنما قد تحوَّل: وإذا به يغدو أطول قامةً، وأشدّ قوة، كالجنرال الذي يدلي بتعليماته إلى القوات المنضبطة. منضبطة؟ بل كانت بالأحرى مسلوبة الإرادة، مسحورة، مفتونة. وجدتُ صعوبة في تمييز خوسيفينا سانتشيس ذات الشارب والدوالي، تلك التي كثيرًا ما رأيتُها قبل ذاك

وهي تمضغ العلك وتطرِّز في أثناء التسجيل، من دون أن تلقي أدنى بالٍ لما هي فاعلة، بمظهرٍ يشي بأنها لا تدري ماذا هي قائلة، إذ رأيتُها الآن وقد تحوَّلَت إلى تلك الشخصية بالغة الجدية التي تستغرق في قراءة النصّ كالمُبتهِلة، أو ترنو إلى الفنان بمهابة ووداعة فلا ترى بعينَيْها سواه، ناظرةً برجفة المبتدئات التي تعتري الطفلة الصغيرة إذا رفعَت عينَيْها إلى المذبح المُقدَّس في المناولة الأولى. والشيء نفسه يسري على لوسيانو باندو والمُمثِّلين الثلاثة الآخرين (امرأتان وفتى في مقتبل العمر). لم يتبادلوا كلمة واحدة، ولا نظرة واحدة: بل كانت عيونهم تتنقَّل بين كتيبات النصوص وپدرو كاماتشو وكأنها مُمغنطة. حتى مهندس الصوت، أوتشوا المُتبجِّح، كان يشاطرهم النشوة من مكانه على الجانب الآخر من الزجاج: فيجرِّب المفاتيح بجدية بالغة، ويضغط الأزرار، ويضيء الأنوار، ويتابع ما يجري في الأستوديو عاقدًا حاجبَيْه بجدية وانتباه.

تحلَّق المُمثِّلون الخمسة في دائرة حول پدرو كاماتشو الذي مضى يلقي عليهم درسًا في الحلقة التي هم في سبيلهم إلى تسجيلها، بزيّه الرسمي الدائم المُؤلَّف من بدلة سوداء وبابيون، أضف إلى ذلك شعره المُبعثَر. لم يملِ عليهم تعليمات، على الأقل بالمعنى المُبتذَل للكلمة الذي يعني إملاء توجيهات مُحدَّدة بشأن طريقة إلقاء الحوار - برصانة أو مُبالَغة أو بطء أو سرعة - بل إنه راح يلقي عظات حول مكنون الجماليات والفلسفة بأسلوبه الأوليمبي النبيل، كما هي عادته. وبطبيعة الحال، كانت كلمتا «الفنّ» و«الفنّي» هما الأكثر تكرارًا خلال تلك الخطبة المُتَّقِدة، وكأنما الفن كلمة سحرية تفتح كل الأبواب وتفسِّر كل الأشياء. ولكن الشيء الأغرب من كلمات كاتب السيناريو البوليفي هو الحرارة التي انطلق يتكلَّم بها، وربما كان الأثر الذي تتركه في النفوس أشدّ وأشدّ غرابة. مضى يتحدَّث مُلوِّحًا بيدَيْه،

ويشبّ على أطراف أصابعه، فجاء صوته مُتعصِّبًا، يليق بالرجل الذي يملك حقيقةً مُلِحَّةً، يجب عليه التبشير بها ومشاطرة الآخرين فيها وفرضها عليهم، الأمر الذي تحقَّق له كليًّا: فلقد أنصت إليه المُمثِّلون الخمسة في ذهول، بينما اتَّسعَت عيونهم بشدة وكأنها يحاولون الاستيعاب على نحو أفضل، استيعاب الأحكام التي راح يطلقها بشأن عملهم (أو «رسالتهم»، حسبما قال المُؤلِّف-المخرج). شعرتُ بالأسف لأن الخالة خوليا لم تكُن هناك، ذلك أنها لن تصدِّقني عندما أحكي لها أنني قد رأيتُ تلك الثلة من المُشتغِلين بالمهنة الأشدّ تعاسة في ليما وهم يتحوَّلون ويتجمَّلون ويكتسبون صبغةً روحانية، طوال نصف ساعة أبدية، مُتأثِّرين بتلك البلاغة الهادرة لِبِدرو كاماتشو. جلستُ أنا وبابليتو الكبير أرضًا، في أحد أركان الأستوديو، فوجدنا أمامنا الهارِبَ الآتي من راديو بيكتوريا، أحدث الوافدين، مُحاطًا بمُعِدَّات غريبة. حتى هو أصغى إلى خطبة الفنان مستغرقًا في حالة روحانية، وما كاد يبدأ التسجيل حتى صار هو مركز الاستعراض، من وجه نظري.

كان رجلًا قصير القامة، متينها، برونزي البشرة، له شعر جاف وثيابٌ رثّة تليق بالشحاذين: إذ ارتدى أوفرول مهترئًا، وقميصًا مُرقَّعًا، وانتعل حذاء ضخمًا بلا أربطة. (في وقت لاحق، عرفتُ أنه يشتهر بلقب «الطاحون» الغامض). كانت الأدوات التي يستعين بها في عمله كالتالي: لوح خشبي، وباب، ودلو من الماء، وصفارة، وقطعة من ورق الألومنيوم، ومروحة، وغير ذلك من الأغراض ذات الطابع المنزلي نفسه. مُنفرِدًا، قدَّم الطاحون استعراض التحدُّث من البطن، والأكروبات، ومضاعفة أعداد الشخصيات، والخيال الفيزيائي، فحالما كان المخرج-المُمثِّل يشير إليه بالإشارة المُتَّفق عليها (تلك الهزَّة الآمرة بسبَّابته التي تشقّ الهواء المُشبَّع بالحوارات والآهات

والتنهيدات) كان الطاحون يسير فوق اللوح الخشبي بإيقاع تناقصي محسوب بحكمة، حتى يبدو للمُستمِع أن الشخصيات تقترب أو تبتعد. وبإشارة أخرى، كان يوجِّه المروحة إلى ورق الألومنيوم بمختلف السرعات، حتى يبدو وكأنه وقع قطرات المطر أو هزيم الريح. وبإشارة أخرى، كان يضع ثلاثًا من أصابعه في فمه، ويصفِّر حتى يغمر الأستوديو بالتغاريد التي توقظ بطلة العمل في بيتها الريفي ذات فجرٍ ربيعي. كان يتميَّز في تقليد أصوات الشوارع بصفة خاصة، ففي لحظةٍ بعينها، قطع اثنان من شخوص العمل ميدانَ أرماس وهما يتجاذبان أطراف الحديث، فشغَّل أوتشوا أسطوانة سُجِّلَت عليها أصوات المُحرِّكات وأبواق التنبيه، أما باقي المُؤثِّرات كلها فنفَّذها الطاحون بطقطقة اللسان والقوقأة والهسيس والهمس (الأصوات التي بدا وكأنه يُصدِرها كلها في آن واحد) حتى كان يكفي المستمع أن يغمض عينَيْه كي تصل إلى أذنَيْه الأصوات والكلمات المُتفرِّقة والضحكات والهتافات التي يسمعها المرء شاردًا في الشوارع المزدحمة بالمارة، مع أنه لا يزال في أستوديو راديو سنترال الصغير. والأدهى من ذلك أنه، بينما هو يُصدِر عشرات الأصوات البشرية، كان الطاحون يسير أو يقفز فوق اللوح الخشبي، مُقلِّدًا خطوات المارة على الأرصفة، وصوت أجسادهم المُتلامِسة. كان يسير على قدمَيْه، وكذلك على يدَيْه (اللتين يحشر كلًّا منهما في فردة حذاء)، ويقعي مُدلِّيًا ذراعَيْه مثل القرود، ضاربًا فخذَيْه بمرفقَيْه وساعدَيْه. وبعد أن أخذَنا (صوتيًّا) إلى ميدان أرماس في وقت الظهيرة، أصبح من المهمات اليسيرة، على نحوٍ ما، أن يعزف لنا تلك الموسيقى التي تصدح في قصر سيدة رفيعة المقام من مدينة ليما تقدِّم الشاي في فناجين من البورسلين الصيني لجمعٍ من صديقاتها - بينما هو يقرع قطعتَيْن من المعدن، ويحكّ الزجاجَ، ويفرك ألواحًا صغيرة من الخشب على مُؤخِّرته مُقلِّدًا صوت

كراسٍ تُزاح من مكانها وأقدام تخطو فوق الأبسطة الناعمة - أو يُجسِّد لنا حديقة حيوانات بارَّانكو تجسيدًا صوتيًّا (ويُثريها بكثير من السلالات)، بالزئير والنعيق والنخير والعواء. وبانتهاء التسجيل، كان يبدو وكأنه قد انتهى من سباق أوليمبي: فيلهث، وتظهر الهالات السوداء حول عينَيْه، ويتصبَّب عرقه غزيرًا.

أصاب بِدرو كاماتشو العاملين معه بعدوى الجدية الجنائزية، فكان ذلك تحوّلًا هائلًا، مع الأخذ في الحسبان أن مسلسلات شبكة سي إم كيو الكوبية كثيرًا ما كانت تُسجَّل وسط أجواء مفعمة بالصخب. بل إن المُمثِّلين أنفسهم كانوا يرسمون على وجوههم أمارات الاستهزاء في أثناء تلاوة النص، أو يشير كلٌّ منهم إلى الآخر إشارات بذيئة، ساخرين من أنفسهم ومما هم قائلون. أما الآن، فصار المشهد يترك في نفس الناظر انطباعًا بأنه لو أطلق أحدهم نكتة لانقضّ عليه الآخرون عقابًا له على تدنيس المقدسات. للحظةٍ، فكَّرتُ أنهم يتظاهرون بالإذعان لرئيسهم في العمل لئلَّا يُطهِّر الأستوديو منهم كما فعل بالأرجنتينيين، وأنهم في قرارة أنفسهم ليسوا على يقين مُطلَق بكونهم **كهنة الفن**، شأن كاتب السيناريو، غير أنني كنتُ مخطئًا. ففي طريق العودة إلى پانامريكانا، قطعتُ بضع خطوات في شارع بيلين، سائرًا بجوار خوسيفينا سانتشيس، التي كانت تذهب إلى بيتها لتناول فنجان من الشاي بين مسلسل ومسلسل، فسألتُها إن كان كاتب السيناريو البوليفي يلقي تلك الخطب الافتتاحية في كل جلسة تسجيل، أم كانت خطبة اليوم مُجرَّد استثناء. نظرَت إليَّ بازدراء جعل لغدها يرتجف:

- «لم يتكلَّم اليوم إلَّا قليلًا، كما لم يحالفه الإلهام. في بعض الأحيان، يشعر المرء بقلبه ينفطر حزنًا على تلك الأفكار التي لن تُحفَظ من أجل الأجيال القادمة».

سألتُها عما إذا كانت، «وهي صاحبة الخبرة الواسعة»، تفكِّر أن بِدرو كاماتشو صاحب موهبة عظيمة حقًّا. استغرقَت بضع ثوانٍ في العثور على الكلمات الملائمة لتصوغ بها الخاطرة التي تبادرَت إلى ذهنها:

- «إن ذلك الرجل يضفي على مهنة الفنان قداسةً».

٦

ذات صباح صيفي مُشرِق، دلف دكتور دُوُن پِدرو باريدا إي سالديبار إلى مكتبه، مكتب قاضي التحقيق في الشعبة الجنائية الأولى بدار القضاء العالي في ليما، فأقبل أنيقًا دقيقًا في موعده، كما هو دأبه. كان رجلًا في زهرة العمر، الخمسين، تتجلَّى في شخصه نزاهة الأخلاق بوجاهة تضمن له احترام الناس على الفور، وهو صاحب الجبين العريض والأنف المعقوف والنظرة الثاقبة والروح المستقيمة الصالحة. كان يرتدي ثيابه في تواضع خليق بقاضٍ يتلقَّى راتبًا هزيلًا، ويترفَّع عن الرشوة ترفُّعًا باتًّا. ومع ذلك، كان مظهره يبدو على درجة من الانضباط تترك في النفس انطباعًا بالأناقة. بدأ قصر العدالة يتمطَّى بعد الراحة الليلية، وأخذ بناؤه الضخم يمتلئ شيئًا فشيئًا بجموع غفيرة تسعى في عملها بجدٍّ: حشود من المحامين، ورجال الادعاء العام، وكُتَّاب العدل، والمحامين المحتالين، والأوصياء، وطلَّاب القانون، والفضوليين. وفي قلب خلية النحل سالفة الذكر، فتح دكتور دُوُن باريدا إي سالديبار حقيبته، وأخرج منها ملفَّيْن، ثم جلس إلى مكتبه مُتأهِّبًا لبدء اليوم. وما هي إلَّا ثوانٍ حتى ظهر في مكتبه السكرتير دكتور سيلايا، الذي جاء رشيقًا صموتًا كنيزك في الفضاء، وهو الرجل صاحب القامة الهزيلة والنظارة والشارب الرفيع الذي يتحرَّك على وقع الحديث.

- «طاب صباحك، سيدي القاضي»، بادر القاضي بالتحية وهو ينحني بشدة.

- «وصباحك أيضًا يا سيلايا»، ابتسم له دكتور دُوُن باريدا إي سالديبار بمودة. «ماذا أعدَّ لنا هذا النهار؟».

- «اغتصاب قاصر في ملابسات مُشدِّدة للعقوبة: العنف الذهني»، أودع السكرتير ملفًّا سميكًا فوق المكتب. «يقطن المُتَّهم في حيّ لا بيكتوريا، وتنطبق على مظهره نظرية لومبروزو في الجريمة، غير أنه ينكر ارتكاب الجريمة. الشهود الرئيسيون في الرواق».

- «أنا في حاجة إلى قراءة محضر الشرطة والادعاء بالحقّ المدني قبل الاستماع إليهم»، ذكَّره القاضي.

- «سوف ينتظرون ما دعَت الحاجة إلى الانتظار»، أجابه السكرتير، ثم غادر المكتب.

تحت ذلك الدرع القضائي الصلب، كانت لدكتور دُوُن باريدا إي سالديبار روحُ شاعر. وكانت قراءة المستندات الفاترة مرة واحدة تكفيه حتى يصل بمخيلته إلى ما جرى من الوقائع، بعد أن ينزع قشرة البلاغة ومواد القانون والمصطلحات اللاتينية المُقعَّرة. وهكذا، وبينما هو يقرأ المحضر الذي تحرَّر في لا بيكتوريا، تمكَّن من إعادة تمثيل تفاصيل البلاغ في ذهنه بحيوية، فرأى صبيةً في الثالثة عشرة من العمر، تلميذة بمدرسة مِرسيدِس كابيّو دي كاربونيرا، وتُدعَى ساريتا أوانكا سالابيريا، رآها تدخل إلى قسم الشرطة الواقع في تلك المنطقة المختلطة التي تفتقر إلى التناغم، يوم الإثنين الماضي. أقبلَت باكيةً، مصابة بالرضوض في الوجه والذراعَيْن والساقَيْن، بين والدها دون كاسيميرو أوانكا پادرون ووالدتها دونيا كاتالينا سالابيريا ميلغار. عشية اليوم السابق، انتُهِك عرض الصبية القاصر بجادة لونا پيسارو،

في المنزل رقم ١٢، حجرة ه، على يدَي المدعو غومِرسيندو تِيّو، مستأجر الحجرة ج في المنزل نفسه. تغلَّبَت ساريتا على الارتباك والحرج، فكشفَت لرجال الشرطة أن الاغتصاب لم يعدُ أن يكون خاتمةً مأساوية انتهَت إليها المطاردة السرّية طويلة الأمد التي خضعَت لها على يدَي المُغتصِب. وبالفعل، كان المغتصب يطاردها منذ ثمانية أشهر - أي منذ اليوم الذي استقرّ به المقام في المنزل رقم ١٢، كالطائر المشؤوم الغريب - في حين لم يتمكَّن والداها أو باقي الجيران من الانتباه إلى ذلك. لاحقها بعبارات غزل تنطوي على سوء ذائقة، وبتلميحات وقحة (من قبيل: «أودّ لو عصرتُ ليمونتَيْكِ»، أو «سوف أحلبكِ يومًا»). وبعد التكهُّنات، انتقل غومِرسيندو تِيّو إلى الأفعال، فحاول غير مرةٍ أن يتحسَّس الفتاة اليافعة ويقبِّلها في باحة المنزل رقم ١٢ والشوارع المجاورة، بينما الطفلة عائدة من المدرسة أو ذاهبة لقضاء الطلبات. لم تُنبِّه الضحية أبوَيْها إلى التحرُّش، مدفوعة إلى ذلك بشعور طبيعي بالحرج.

وفي ليلة الأحد، بعد خروج أبوَيْها مُتَّجهَيْن إلى سينما متروپوليتان بعشر دقائق، سمعَت ساريتا أوانكا دقَّات خافتة على الباب، بينما هي تؤدِّي الواجبات المنزلية. ذهبَت لتفتح الباب، وإذا هي تجد أمامها غومِرسيندو تِيّو. «ماذا تريد؟»، سألَته بأدب، فأبدى لها المُغتصِب مظهرًا هو الأكثر براءةً في العالَم بأسره، زاعمًا بأن موقده قد خلا من الوقود، وبأن الوقت قد تأخَّر وما عاد يسمح بالذهاب لشراء المزيد من الوقود، وبأنه جاء ليقترض نزرًا يسيرًا من الكيروسين حتى يعدّ الطعام (مُتعهِّدًا بردّه غدًا). سمحَت له الطفلة أوانكا سالابيريا بالدخول، في سخاء وسذاجة، ثم أشارَت إلى صفيحة الكيروسين التي استقرَّت بين الموقد والدلو الذي يقوم مقام المرحاض.

(ابتسم دكتور دُوُن باريدا إي سالديبار أمام سهو رجل الشرطة الذي حرَّر البلاغ. ذلك أنه، ومن دون عمد، قد فضح العادة التي اتَّبعها آل أوانكا سالابيريا، تلك العادة الخليقة بأهل بوينوس آيرس الذين يقضون حاجتهم في الدلو، هناك حيث يأكلون ويخلدون إلى النوم).

ما كاد يتمكَّن من الدخول إلى الحجرة ٥، بالحيلة المذكورة آنفًا، حتى أوصد الباب. وإذا هو يجثو على ركبتَيْه، ويضمّ يدَيْه، ويبدأ في الهمس بكلمات الغرام لساريتا أوانكا سالابيريا، التي لم تشعر بالخوف على مصيرها إلَّا في تلك اللحظة فحسب. وبلغة وصفَتها الطفلة بالرومانسية، أوصاها غومِرسيندو تِيّو بالإذعان لرغباته. وما رغباته؟ أن تتعرَّى من ثيابها وتسمح له بلمسها وتقبيلها وفضّ غشاء بكارتها. تمالكَت ساريتا أوانكا نفسها، ورفضَت عروضه رفضًا باتًّا، ثم وبَّخَت غومِرسيندو تِيّو وهدَّدَت بأن تستغيث بالجيران. سمع المُتَّهم ما بدر منها، فتخلَّى عن توسلاته وهو يستلّ السكين من بين طيات ثيابه ويتوعَّد الطفلة بطعنها إن هي أطلقَت صرخة واحدة. هبّ واقفًا، ومضى نحو ساريتا قائلًا: «هيا، هيا، اخلعي ثيابكِ يا حبيبتي». لم تذعن له على الرغم من كل شيء، فانهال عليها بدفقة من اللكمات والركلات حتى طرحها أرضًا. وهناك، استحوذ عليها انفعال جارف جعل أسنانها تصطكّ بشدة، حسبما قالت الضحية، بينما أخذ المُغتصِب يجرِّدها من ثيابها التي انتزعها انتزاعًا، كما شرع يحلّ أزرار ثيابه، وانقضّ عليها، حتى ارتكب على الأرض خطيئة الجسد التي جاءت مصحوبة بضربات جديدة ردًّا مقاومة على الصبية، فتركَت ضرباته آثارًا على شكل كدمات ورضوض. ولمَّا أشبع رغباته، غادر غومِرسيندو تِيّو الحجرة ٥، وإن لم يغادر قبل توصية ساريتا أوانكا سالابيريا بألَّا تنبس بكلمة واحدة عمَّا جرى، لو أرادت

أن تبقى على قيد الحياة حتى تكبر في العمر (قالها مُلوِّحًا بالسكين حتى يثبت لها جديته). عاد أبواها من سينما متروپوليتان، فوجدا ابنتهما غارقة في الدموع، مُنتهكَة الجسد. بعد مداواة الجروح، استحثَّاها على الإفضاء بما جرى، فأبَت شعورًا منها بالخزي. مرَّ الليل كاملًا وهي على تلك الحال. وفي صباح اليوم التالي، أفاقَت الطفلة قليلًا من الصدمة العاطفية التي كان يعنيها فضّ غشاء البكارة بالنسبة إليها، فأفضَت بكل شيء لوالدَيْها اللذين عجَّلا بالذهاب إلى قسم شرطة لا بيكتوريا فورًا للإبلاغ عن الواقعة.

أغمض دكتور دُوُن باريدا إي سالديبار عينَيْه لحظةً. شعر بالأسى لمعاناة الطفلة (وهو الذي لم يتبلَّد قلبه على الرغم من الاحتكاك اليومي بالجريمة)، ثم قال لنفسه إنها، وبالنظر إليها بالعين المُجرَّدة، جريمةٌ تخلو من الغموض، نمطية، وردَت في قانون العقوبات بحذافيرها تحت بند اغتصاب القُصَّر واستغلالهم، مع الأخذ في الحسبان توافر الملابسات المُشدِّدة للعقوبة الأكثر شيوعًا: سبق الإصرار والترصُّد، والقسوة قولًا وفعلًا، والعنف الذهني».

أما المستند التالي الذي أعاد قراءته، فكان محضر رجلَي الشرطة اللذين نفَّذا الأمر بالقبض على غومِرسيندو تِيّو.

بموجب التعليمات الصادرة إليهما من رئيسهما في العمل، كابتن خ س إنريكي سوتو، توجَّه رجلا الشرطة ألبِرتو كوسيكانكي أپيستيغي وأواسي تيتو پاريناكوتشا إلى المنزل رقم ١٢ بجادة لونا پيسارو، ومعهما أمر بإلقاء القبض على المُتَّهم، فلم يعثرا عليه في محلِّ سكنه. وعن طريق الجيران، عرف رجلا الشرطة أنه يعمل ميكانيكيًّا في مشغل إل إينتي لإصلاح المُحرِّكات واللحام، الذي يقع في أقصى الطرف الآخر من المنطقة، في سفح جبل إل پينو تقريبًا، فانتقل رجلا الشرطة إلى هناك فورًا. وفي المشغل، فوجئا بأن غومِرسيندو تِيّو قد

غادر لتوّه. كما أخبرهما مالك المشغل، السيد كارلوس پرينسيپي، بأن المُتَّهم قد طلب الإذن في المغادرة لحضور معمودية. وباستجوابهم عن الكنيسة التي يُحتمَل أن يكون قد ذهب إليها، تبادل العمال ابتسامات ونظرات تنضح بالخبث. ثم أوضح لهما السيد پرينسيپي أن غومِرسيندو تِيّو ليس من الكاثوليك، بل من شهود يَهْوَه، وأن أتباع تلك الديانة لا يحتفلون بالمعمودية في الكنيسة، وعلى يد الكاهن، بل في الهواء الطلق، وبالغطس في الماء.

اشتبه كوسيكانكي أپيستيغي وتيتو پارِناكوتشا في أن تكون تلك جماعةً من المُنحلِّين (وقد أصابا في ما ذهبا إليه)، فطالبا بإرشادهما إلى مكان المُتَّهم. وبعد طول تردُّد ونقاش، أرشدهما مالك مشغل إل إينتي شخصيًّا إلى المكان حيث قال باحتمال وجود غومِرسيندو تِيّو، ذلك أن المُتَّهم، في محاولةٍ منه لهدايتهم إلى عقيدته، قد دعا مالكَ المشغل وزملاء العمل منذ حينٍ إلى ذلك المكان لحضور أحد الطقوس (التجربة التي لم يقتنع بها مالك المشغل مطلقًا).

مضى السيد پرينسيپي برجلَي الشرطة في سيارته إلى تخوم شارع ماياناس ومنتزه مارتينيتي، إلى أرض خلاء يحرق فيها المُخلَّفات سُكَّانُ المناطق المحيطة، يتخلَّلها فرعٌ صغير من نهر ريماك. وبالفعل، كان شهود يَهْوَه هناك، حيث اكتشف كوسيكانكي أپيستيغي وتيتو پاريناكوتشا دزينة من الأشخاص من مختلف الأعمار، ومن الجنسَيْن، فرأوهم وقد خاضوا الماء الموحل حتى بلغ خصورهم، غير أنهم لم يرتدوا ثياب السباحة، وإنما خاضوا الماء بكامل الثياب، وبعضهم بربطة العنق أيضًا، بل إن واحدًا من الرجال كان يعتمر القبعة. لم يحفلوا بالنكات والسخرية والقمامة التي أُلقِيَت عليهم، وغير ذلك من ألاعيب الجيران الذين احتشدوا على الضفة لمشاهدتهم، بل انصرفوا إلى الطقوس وهم في غاية الجدية، تلك

الطقوس التي خُيِّل إلى رجلَي الشرطة، لأول وهلة، أنها تكاد تكون شروعًا في القتل الجماعي بالإغراق. إذ وقع بصرهما على شهود يَهْوَه وهم يترنَّمون بتراتيل غريبة، بأصوات في غاية الاقتناع، وقد أمسكوا بذراعَي رجل عجوز يرتدي عباءة البونتشو ويعتمر القبعة، وراحوا يطمرونه في المياه القذرة. هل وطَّنوا النية على التضحية به وتقديمه قربانًا إلى ربّهم؟ وعلى الرغم من ذلك، فلمَّا أمرهم رجلا الشرطة بالتوقُّف عن ذلك العمل الإجرامي، وقد أشهر كلٌّ منهما المسدس وخاض بالجرموق في الوحل، كان العجوز أول الغاضبين، فطالبهما بالانصراف، ونعتهما بأمور غريبة (من قبيل «الرومانيَّيْن» و«تابعَي البابا»). اضطُرّ رجلا الشرطة إلى التسليم والترقُّب ريثما تنتهي طقوس المعمودية لإلقاء القبض على غومِرسيندو تِيّو، الذي تعرَّفاه بفضل السيد پرينسيپي. استغرقَت الطقوس بضع دقائق أخرى، استمرّ خلالها الابتهالُ وغَمْرُ الرجل المُعمَّد في الماء، حتى بدأت عيناه تدوران في محجرَيْهما، وبدأ يغصّ بالماء ويختنق. وفي تلك اللحظة، استقرّ شهود يَهْوَه على انتشاله والخروج به إلى الضفة، حيث شرعوا يهنِّئونه على الحياة الجديدة التي بدأت في تلك اللحظة، حسبما قالوا.

عند ذاك، ألقى الحارسان المدنيان القبض على غومِرسيندو تِيّو، فلا أبدى الميكانيكي أدنى مقاومة، ولا حاول الهرب، ولا ظهرَت عليه المفاجأة بإلقاء القبض عليه، بل إنه اكتفى بقوله للآخرين، بينما الأصفاد توضَع حول معصمَيْه: «إخوتي، لن أنساكم أبدًا»، فما لبث شهود يَهْوَه أن انطلقوا مُترنِّمين بتراتيل جديدة، ناظرين إلى السماء، وقد ابيضَّت عيونهم، ورافقوه على تلك الحال إلى سيارة السيد پرينسيپي، الذي نقل الحارسَيْن المدنيَّيْن والمُعتقَل إلى قسم شرطة لا بيكتوريا، حيث ودَّعاه وأعربا له عن الامتنان لخدماته.

وفي قسم الشرطة، سأل كابتن خ س إنريكي سوتو المُتَّهمَ إن كان يريد تجفيف حذائه وسرواله في الباحة، فأجابه غومِرسيندو تِيّو بأنه قد تعوَّد البلل، نظرًا إلى الزيادة الكبيرة التي شهدَتها ليما في أعداد المُتحوِّلين إلى الإيمان الحقّ في الآونة الأخيرة. شرع كابتن سوتو في استجوابه على الفور، فاستجاب المُتَّهم بروحٍ مُتعاوِنة. سُئِل عن هويته، فأجاب بأنه يُدعَى غومِرسيندو تِيّو، ابن دونيا غومِرسيندا تِيو، من مواليد موكيغوا، مُتوفَّاة، أما والده فمجهول. كما رجَّح أن يكون قد وُلِد هو أيضًا في موكيغوا، منذ قرابة خمسة وعشرين أو ثمانية وعشرين عامًا. وحيال ذلك الالتباس، أوضح أن أمَّه قد سلَّمَته بعد مولده بزمن قصير إلى دار أيتام للأولاد في هذه المدينة تُشرِف عليها «الطائفةُ البابوية»، التي قال إنه قد تربَّى على ضلالاتها، وإنه قد انعتق منها في عمر الخامسة عشرة أو الثامنة عشرة، من حسن الحظّ. أشار إلى بقائه في دار الأيتام حتى ذلك العمر، حين اختفَت الدار في حريق هائل أتى على الأرشيف كاملًا. ولهذا السبب لم يكُن على يقين من سنِّه بالتحديد. أوضح أن الحادثة قد أفادَته في حياته، لأنه تعرَّف آنذاك برجلَيْن حكيمَيْن سافرا من تشيلي إلى ليما برًّا، وكانا يفتحان أسماع الصُمَّ وعيون العميان على حقائق الفلسفة. بيَّن أنه قد أقبل إلى ليما مع هذين الحكيمَيْن - اللذين أبى ذكر اسمَيْهما زاعمًا بأن العلم بوجودهما يكفي، ولا حاجة إلى وسمهما - وأنه قد عاش هنا منذ ذلك الحين، مُوزِّعًا وقته بين الميكانيكا (الحرفة التي تعلَّمها في دار الأيتام)، والتبشير بمعرفة الحقيقة. قال إنه قد عاش في برينيا وبيتارتي وباريوس ألتوس، حتى استقرّ به المقام في لا بيكتوريا منذ ثمانية أشهر، إذ التحق بمشغل إل إينتي لإصلاح المُحرِّكات واللحام الذي كان يبعُد عن محل سكنه السابق أكثر مما ينبغي.

أقرّ المُتَّهم بأنه قد نزل مُستأجِرًا في المنزل رقم ١٢ بجادة لونا پيسارو منذ ذلك الحين. كما أقرّ بمعرفته أفراد أسرة أوانكا سالابيريا، وقال إنه قدَّم إليهم أحاديث تنويرية وأوصاهم بقراءة نصوص جيدة عدة مرات، من دون أن يحالفه النجاح معهم، لأنهم مُسمَّمون بالهرطقات الرومانية بشدة، شأنهم في ذلك شأن باقي المُستأجرين. وعند مواجهته باسم ضحيته المزعومة، الطفلة ساريتا أوانكا سالابيريا، قال إنه يذكرها، وألمح إلى أنه لم يفقد الأمل في اهتدائها إلى طريق الحقّ ذات يوم، لأنها لم تزَل في سنٍّ غضَّة. عند ذاك، أُحيط المُتَّهم علمًا بتفاصيل الاتهام، فأبدى غومِرسيندو تِيّو مفاجأة شديدة، وأنكر الاتهامات المنسوبة إليه. وما هي إلّا لحظة حتى انطلق في القهقهة بفرح عظيم (هل تظاهر بالاختلال تمهيدًا للدفاع عن نفسه في المستقبل؟)، وزعم بأن تلك هي التجربة التي احتفظ بها الرب من أجله حتى يختبر إيمانه وقدرته على التضحية. كما أردف أنه قد أدرك الآن السبب الذي أعفاه من الخدمة العسكرية، الشيء الذي كان يترقَّبه بنفاد صبر حتى يكون قدوةً للآخرين متى رفض ارتداء الزي العسكري والقسم بالولاء لراية الوطن، فكلاهما أمرٌ خليق بالشيطان. سأله كابتن خ س إنريكي سوتو إن كان يعادي بيرو بكلامه، فأنكر المُتَّهم جملة وتفصيلًا، وقال إن حديثه يقتصر على الشؤون الدينية دون غيرها. وبحرارة، اندفع يوضح لكابتن سوتو ورجال الحرس المدني أن المسيح ليس هو الرَّب، بل «شاهده»، وقال بزيفِ ما يدَّعيه أتباع البابا مِن أن المسيح قد صُلِب، لأنه قد عُلِّق على جذع شجرة بالمسامير، الأمر الذي يبرهن عليه الكتاب المُقدَّس. وبهذا الصدد، أوصاهم بمطالعة أَفِقْ، المجلة نصف الشهرية التي سوف تجلو شكوكهم بشأن تلك المسألة وغيرها من أمور الثقافة، وتوفِّر لهم تسلية صحيةً، مقابل

صولَيْن. أخرسه كابتن سوتو، وأنذره بأن الدعاية التجارية محظورة في قسم الشرطة. ثم أمره بأن يقول أين كان وماذا فعل عشية البارحة، في الأوقات التي أكَّدَت ساريتا أوانكا سالابيريا أنها قد تعرَّضَت للاغتصاب والضرب على يدَيْه خلالها. جزم غومِرسيندو تِيّو أنه قد لزم حجرته ليلتذاك، كما هو دأبه كل ليلة، وحيدًا، مستغرقًا في تأمُّل جذع الشجرة، وتأمُّل بطلان الاعتقاد الذي يزعم به بعض الناس، أي الاعتقاد بأن جميع البشر سوف يُبعَثون في يوم القيامة، مع الأخذ في الحسبان أن كثيرين لن يُبعَثوا أبدًا، الأمر الذي يُعَدّ برهانًا على فناء الروح. ومرة أخرى، دُعِي إلى التقيُّد بالنظام، فاعتذر المُتَّهم قائلًا إنه لا يفعل ما يفعل عن عمد، غير أنه لا يملك التنصُّل من إلقاء قليل من الضوء على الآخرين في كل لحظة، شعورًا منه باليأس لمرأى الظلمات التي يعيش فيها الناس. ثم أقرَّ بأنه لا يتذكَّر رؤية ساريتا أوانكا سالابيريا في تلك الليلة، ولا في الليلة السابقة، وطلب أن يُثبَت في المحضر أنه لا يُضمِر ضغينة لتلك الصبية، برغم الافتراء الذي تعرَّض له، بل إنه يشعر نحوها بالامتنان، ظنًّا منه بأن الرَّب يريد أن يختبر قوة إيمانه من خلالها. تبيَّن لكابتن خ س إنريكي سوتو استحالة الحصول على تفاصيل أخرى من غومِرسيندو تِيّو بشأن التهم المنسوبة إليه، فأنهى الاستجواب آمِرًا بنقل المُتَّهم إلى الحجز القائم في قصر العدالة، حتى يبتّ قاضي التحقيق في سير القضية بما يليق.

أقفل دكتور دُوُن باريدا إي سالديبار ملف القضية، ومضى يتأمَّل، خلال ذلك النهار المُحمَّل بالصخب القضائي. شهود يَهْوَه؟ كان يعرفهم، فمنذ أعوام قليلة، طرق بابه رجلٌ يطوف العالَم بالدرَّاجة، وعرض عليه مجلة **أَفِقْ**، التي اشتراها منه في لحظة من لحظات الضعف. ومنذ ذلك الحين، صار شاهد يَهْوَه يحوم حول بيته

بدقة فلكية، في مختلف ساعات الليل والنهار، ويصرّ على تنويره، ويغمره بالمنشورات والكتب والمجلات بشتّى الأحجام والموضوعات، حتى لجأ القاضي إلى قوة الشرطة، عاجزًا عن إبعاد شاهد يَهْوَه عن بيته بالسبل المُتحضِّرة: الإقناع والتوسُّل والخطابة. إذن، فالمُغتصِب واحدٌ من أولئك المُبشِّرين المندفعين. قال دكتور دُوُن باريدا إي سالديبار لنفسه إن القضية صارت جديرة بالاهتمام.

كان الوقت ظهرًا لم يزَل. بينما راح القاضي الشارد يربِّت على سكين فتح الرسائل الفولاذي الطويل ذي المقبض المُزخرَف على طراز تياواناكو، ذلك السكين الذي احتفظ به في مكتبه رمزًا إلى مودة رؤسائه وزملائه ومرؤوسيه في العمل (إذ تلقَّاه منهم على سبيل الهدية بمناسبة اليوبيل الفضي له في سلك القضاء)، وفيما هو على تلك الحال، استدعى السكرتير مشيرًا إليه بأن يسمح للشهود بالحضور.

دخل إلى المكتب أول مَن دخل الحارسان المدنيان كوسيكانكي أبيستيغي وتيتو پاريناكوتشا، اللذان أكَّدا ملابسات القبض على غومِرسيندو تِيّو بحديث مفعم بالاحترام، وأثبتا في المحضر أنه، باستثناء التنصُّل من التهم المنسوبة إليه، كان مُتعاوِنًا، وإن تسبَّب في قليل من الإزعاج بما له من هوس ديني. مضى دكتور سيلايا يحرِّر المحضر، والنظارة تتأرجح على أنفه، بينما الحارسان المدنيان يدليان بأقوالهما.

ثم دلف إلى المكتب والدا الفتاة القاصر، الزوجان اللذان فوجئ القاضي بعمرهما المُتقدِّم: فكيف لهذين العجوزَيْن أن ينجبا قبل ثلاثة عشر عامًا وحسب؟ ما لبث أن وقَّع الأب، دون إساياس أوانكا، على أقواله في محضر الشرطة، بفمٍ خالٍ من الأسنان وعينَيْن يشوبهما الرمص. وباستعجال مفرط، سألَ إن كانت ساريتا سوف تُزوَّج إلى السيد تيّو. ما كاد يطرح سؤاله، حتى تقدَّمَت السيدة سالابيريا دي

أوانكا نحو القاضي بقامتها الهزيلة وبشرتها المُجعَّدة، ثم طبعَت قبلةً على يده وهي ترجوه بصوت مُتوسِّل أن يتحلَّى بالطيبة ويرغم السيد تيّو على الزواج بساريتا في هيكل الكنيسة. شقَّ على دكتور دُوُن باريدا إي سالديبار أن يوضح إلى العجوزَيْن أن دور الخاطب لم يكُن من بين المهمات الرفيعة التي أُسنِدَت إليه. وإن أبدى الزوجان من الاهتمام بتزويج الطفلة أكثر مما أبديا بعقاب المُتَّهم بانتهاك عرضها، الواقعة التي لم يذكراها إلَّا لمامًا، عندما اضطُرَّا إلى ذلك. كما أهدرا وقتًا طويلًا في تعديد مناقب ساريتا، وكأنهما يعرضانها للبيع.

ابتسم القاضي في سريرته، وفكَّر أن هذين القرويَّيْن المتواضعَيْن - اللذين لا شكّ أنهما من الأنديز، وأنهما عاشا حياتهما على اتِّصال بتربة الأرض - جعلاه يشعر كالأب القاسي الذي يأبى السماح لابنه بالزواج. سعى إلى حملهما على إعادة التفكير: كيف يرغبان في غومِرسيندو تِيّو زوجًا لابنتهما وهو الرجل القادر على اغتصاب طفلة صغيرة لا حول لها؟ وعلى الرغم من ذلك، طفقا ينتزعان من القاضي الكلمة، ويصرّان على أن ساريتا سوف تكون زوجة نموذجية، فهي برغم حداثة عمرها تجيد الطهو والحياكة وكل شيء. لقد تقدَّم والداها في العمر، وهما لا يريدان أن يتركاها يتيمة. أضف إلى ذلك أن السيد تيّو يبدو جادًّا ومجتهدًا. وبخلاف تجاوزاته مع ساريتا ليلتذاك، فهو لم يُرَ مخمورًا قطّ. بل إنه رجل في غاية الاحترام، يذهب إلى عمله في وقت مُبكِّر للغاية، حاملًا حقيبة الأدوات، وصرّة المجلات التي يبيعها من بيت إلى بيت. ألا يُعَدّ الفتى الذي يناضل في الحياة كما يناضل غومِرسيندو تِيّو ملائمًا لساريتا؟ مضى العجوزان يتضرَّعان رافعَيْن أيديهما إلى القاضي: «ارحمنا وساعدنا، سيدي القاضي».

وكالسحابة الصغيرة السوداء المُحمَّلة بالأمطار، طافَت بذهن

دُون باريدا إي سالديبار فرضيةٌ تقول: وماذا لو كان الأمر برمته مكيدة دبَّرها هذان الأبوان لتزويج ابنتهما؟ ولكن التقرير الطبي جاء قاطعًا: لقد اغتُصِبَت الطفلة. صرف الشاهدَيْن، وإن لم يخلُ ذلك من صعوبة. ثم دخلَت الضحية.

أشرق حضورُ ساريتا أوانكا سالابيريا على مكتب قاضي التحقيق الكئيب. كان القاضي رجلًا قد رأى بعينَيْه كل شيء، ومرَّت أمامه كل غرائب البشر وعقلياتهم، الجناة منهم والضحايا. وعلى الرغم من ذلك، قال في نفسه إنه أمام نموذج استثنائي في أصالته من البشر. هل كانت ساريتا أوانكا سالابيريا طفلة؟ لا شكّ أنها طفلة بالحكم على سنِّها، وجسدها الضئيل الذي بدأ يُلمِّح بمنحنيات الأنوثة على استحياء، والضفائر التي ضمَّت شعرها، وتنورة المدرسة وقميصها. أما طريقتها الموغلة في القططية إذا تحرَّكَت، وفي المباعدة ما بين ساقَيْها إذا وقفَت مُبرِزةً ردفها، مائلةً إلى الوراء بكتفَيْها، واضعةً يدَيْها الصغيرتَيْن على خصرها بإثارة، ولا سيما طريقتها في النظر بهاتين العينَيْن الجريئتَيْن المخمليتَيْن، وطريقتها في عضّ شفتها السفلى بتلك الأسنان الدقيقة الخليقة بفأر، فكانت تشي بالخبرة الواسعة وحكمة القرون التي ظهر أن ساريتا أوانكا سالابيريا تملكها.

كان دكتور دُوُن باريدا إي سالديبار يتمتَّع بلباقة هائلة في استجواب القُصَّر، ويعرف كيف يبثُّ في نفوسهم الثقة، وكيف يدور حول الأمور كيلا يجرح مشاعرهم، ويجد سلاسةً في خوض مسائل شائكة في حديثه إليهم، برقة وصبر. غير أن خبرته لم تُجدِ نفعًا في تلك المرة. فما كاد يسأل الفتاة القاصر، بلهجةٍ مُخفَّفة، عن صحّة المضايقات التي تعرَّضَت لها على يدَي غومِرسيندو الذي لاحقها بالعبارات غير المُهذَّبة منذ فترة، حتى انطلقَت ساريتا أوانكا في الحديث: أجل، منذ جاء ليسكن في لا بيكتوريا، في كل وقت وكل

مكان. كان ينتظرها في موقف الحافلة ثم يرافقها إلى البيت وهو يقول لها: «أريد أن ألحس عسلكِ»، و«لكِ برتقالتان ولي موزة واحدة»، و«من أجلكِ سال الحبُّ مني». لم تكُن تلك العبارات المجازية التي لا تليق بفم طفلةٍ على الإطلاق هي السبب الذي ألهب وجنتَيّ القاضي وعاق دكتور سيلايا عن الكتابة على الآلة، وإنما لفتات ساريتا حين بدأت تمثِّل التحرُّش الذي تعرَّضَت له، فلطالما حاول الميكانيكي أن يلمسها، هنا: وإذا بيدَيْها الصغيرتَيْن تعلوان وتتكوَّران حول نهدَيْها الرقيقَيْن وتبثّان فيهما الدفء بحنان. وهنا أيضًا: وإذا بيدَيْها الصغيرتَيْن تنزلان إلى ركبتَيْها، وتمسحان عليهما، ثم تعلوان وتعلوان، فتتركان التنورة مُجعَّدة عند الفخذَيْن (فخذَي الصبية التي لم تصل إلى سنّ البلوغ إلَّا منذ عهد قريب). رفَّت عينا دكتور دُوُن باريدا إي سالديبار، وسَعَل، وبادل السكرتير نظرةً سريعةً، ثم أوضح للطفلة بأبويَّة أن الضرورة لا تدعو إلى مثل هذه الدقة، وأن في وسعها الاكتفاء بالأفكار العامة، فقاطعَته ساريتا قائلةً إنه كان يقرصها هنا أيضًا: وإذا هي تستدير وتمدّ نحوه ردفها الذي بدا وكأنه قد اشتدّ بروزًا وانتفخ مثل كرة من المطاط فجأة. في حين راود القاضي هاجسٌ باعث على الدوار، حدَّثه بأن مكتبه قد يتحوَّل إلى معبدٍ للتعرِّي في أي لحظة.

جاهد القاضي للسيطرة على إحساسه بالانفعال، وبصوت هادئ، أخذ يشجِّع الفتاة القاصر على نسيان المُقدِّمات والتركيز على واقعة الاغتصاب نفسها. أوضح لها أن الإسهاب في التفاصيل ليس بالشيء الضروري، وإن وجب عليها سرد الواقعة بموضوعية، كما أعفاها دكتور دُوُن باريدا إي سالديبار من ذكر أي تفاصيل قد تخدش حياءها (بينما هو يتنحنح بقليل من الحرج). من جهة، أراد القاضي الانتهاء من تلك المقابلة سريعًا. ومن جهة أخرى، أراد لها أن تكون

لائقة. خطر له أن المنطق يقضي بأن تشعر الطفلة بالاستياء وهي تسرد واقعة التعدي الجنسي، وأن يأتي سردُها مقتضبًا، مختصرًا، حذِرًا، سطحيًّا.

أما ساريتا أوانكا سالابيريا، فما كادت تسمع مقترح القاضي حتى صارت كالديك المُصارِع إذا تشمَّم رائحة الدماء، ذلك أنها توهَّجَت، وتمادَت، واستغرقَت بكل ما تملك في مناجاة شبقة، وفي استعراض إيمائي إبداعي قطع أنفاس دكتور دُوُن باريدا إي سالديبار وأغرق دكتور سيلايا في اضطراب جسدي شائن بحقّ (هل كان اضطرابًا استمنائيًّا؟)، فراحت تقول: هكذا طرق الميكانيكي الباب، وهكذا نظر إليها عندما فتحَت له، وهكذا حدَّثها، وهكذا جثا على ركبتَيْه، وهكذا وضع يده على قلبه، وهكذا اعترف لها بحبِّه، وهكذا أقسم لها إنه يحبّها. في ذهول وفتنةٍ، رأى القاضي والسكرتير تلك الطفلة المرأة وهي ترفرف كالطائر، وتشبّ على أطراف أصابعها كالراقصة، تميل وتنتصب، تبتسم وتغضب، تبدِّل صوتها وتحاكي صوت الرجل الآخر، تقلِّد نفسها وغومِرسيندو تِيّو معًا. وأخيرًا، رأياها وهي تخرّ على ركبتَيْها وتبوح بحبّها (أو رأياه يخرّ على ركبتَيْه ويبوح بحبّه). مدَّ دكتور دُوُن باريدا إي سالديبار يده، وتلعثم قائلًا «كفى». بينما استرسلَت الضحية الثرثارة في الحديث: فهكذا هدَّدها الميكانيكي بالسكين، وهكذا انقضَّ عليها، وهكذا طرحها، وهكذا ألقى بنفسه فوقها، وهكذا أمسك بتنورتها... وفي تلك اللحظة استقام القاضي في مقعده، شاحبًا، نبيلًا، جليلًا، كنبيٍّ توراتي غاضب، وزمجر قائلًا: «كفى! كفى! حسبكِ!»، فكانت تلك أول مرة يرفع صوته مدى الحياة.

ومن مكانها على الأرض، حيث تمدَّدَت حين بلغَت تلك النقطة العصبية من أقوالها الصريحة، نظرَت ساريتا أوانكا سالابيريا مذعورةً

إلى السبابة المشهرة في وجهها، تلك التي بدا وكأنها ترمي الصبيةَ بصاعقةٍ.

- «لستُ في حاجة إلى معرفة المزيد»، كرَّر القاضي بقدر أكبر من الرقة. «انهضي، وافردي التنورة، وعودي إلى أبوَيْكِ».

قامت الضحية وهي تومئ بوجهٍ خالٍ من كل أثر للتكلُّف والوقاحة، إذ عادت طفلةً من جديد، طفلة تشعر بالأسف على نحوٍ جليّ. وبينما هي تحني رأسها بتواضع، تراجعَت حتى بلغَت الباب، ثم خرجَت. عند ذاك التفت القاضي إلى السكرتير، وبنبرة محسوبة، خلَت من كل أثر للسخرية، اقترح عليه التوقُّف عن الكتابة، أولم ينتبه السكرتير إلى أن الورقة قد انزلقَت إلى الأرض، وأنه يكتب على أسطوانة خاوية؟ تلعثم دكتور سيلايا وقد تضرَّج باللون القرمزي، وقال إن ما حدث قد أورثه اضطرابًا، فابتسم له دكتور دُوُن باريدا إي سالديبار:

- «لقد شهدنا عرضًا خارجًا عن المألوف»، قال القاضي مُتفلسِفًا. «في دماء تلك الطفلة يسكن الشيطان، والأدهى أنها لا تعرف ذلك، على الأرجح».

- «دكتور، أليسَت هي ما يُطلِق عليه الأمريكان **لوليتا**؟»، حاول السكرتير أن يعزِّز معارفه.

- «لا شك في أنها **لوليتا** نموذجية»، أدلى القاضي بحكمه. حاول التصدِّي للوقت العصيب بوجه بشوش، كالبحَّار الخبير الذي ما زال يستقي دروسًا مفعمة بالتفاؤل من الأعاصير، فأردف قائلًا: «على الأقل، من دواعي سرورنا العلم أن عملاق الشمال لا يملك الامتياز الحصري في هذا المجال، فهذه الصبية المحلية قادرة على سرقة الرجال من أي **لوليتا** أمريكية».

- «أتفهَّمُ أنها قد أفقدَت العامل أعصابه، فاغتصبها»، قال السكرتير شاردًا. «ولكن، بعد رؤيتها والإنصات إليها، خليقٌ بالمرء الجزم بأنها هي التي سلبَته عذريته».

- «قف عند حدّك، أمنعك من الخوض في مثل هذه التكهُّنات»، انتهره القاضي، فامتقع السكرتير. «دع عنك هذه التنبّؤات المريبة تمامًا، وليحضر غومِرسيندو تِيّو».

وبعد مضي عشر دقائق، عندما رآه يدخل إلى المكتب برفقة اثنين من أفراد الحرس المدني، أدرك دكتور دُوُن باريدا إي سالديبار من فوره أن تصنيف السكرتير كان مُتعسِّفًا، لأنه لم يكُن بالشخص الذي تنطبق على مظهره نظرية لومبروزو في الجريمة، بل إنه، على نحوٍ ما، أسوأ من ذلك بكثير: فهو مُتديِّن. وبقشعريرة جاءت من الذاكرة، وجعلَت الشعر ينتصب في مُؤخِّر عنقه، ما كاد القاضي يرى وجه غومِرسيندو تِيّو حتى تذكَّر النظرة العنيدة التي كان يرشقه بها الرجل صاحب الدرَّاجة ومجلة أَفِقْ، الرجل الذي كان يداهمه في الكوابيس، بتلك النظرة الهادئة في عنادها، الخليقة بالرجل العليم، الذي لا تراوده الشكوك، القادر على حلّ المشكلات. كان شابًّا لم يبلغ الثلاثين من العمر، من دون شكّ، له جسد ضامر يفضح شعوره بالازدراء نحو الطعام والمادة، يبدو وكأنه جلدٌ على عظم، وله شعرٌ قصير للغاية، حتى كاد رأسه يبدو حليقًا، وبشرة سمراء، وقامة أقرب إلى القِصَر. كان يرتدي بدلة رمادية، لا رثّة ولا أنيقة، وإنما بين بين. جفَّت البدلة، ولكنها تجعَّدَت كثيرًا بسبب الغطس في الماء بمناسبة المعمودية. كما ارتدى قميصًا أبيض وانتعل بوطًا يُشَدّ بالأبازيم ويصل إلى الكاحل. اكتفى القاضي بنظرة واحدة إليه - وهو الرجل ذو حاسة الشمّ الأنثروبولوجية - حتى يعرف أن سمات غومِرسيندو الشخصية: التكتُّم، والرصانة، ورسوخ الأفكار، ورباطة الجأش،

والروحانية. في أدبٍ جمّ، بادر القاضي والسكرتير بالتحية حالما تخطَّى عتبة الباب.

أما دكتور دُوُن باريدا إي سالديبار، فأمر فردَي الحرس المدني بخلع الأصفاد والمغادرة، كما جرَت العادة التي وُلِدَت مع مسيرته القضائية: فحتى أعتى الجناة كان يستجوبهم على انفراد، بلا إكراه، في أبويَّة، خلال لقاءات يعاملهم خلالها معاملة الندّ للندّ. عادةً ما كان الجاني يفتح له قلبه كالمُعترِف التائب. ولم يُضطَرّ القاضي إلى الندم على تلك الممارسة المحفوفة بالأخطار قطّ. حكَّ غومِرسيندو تِيّو ساعدَيْه، مُعبِّرًا عن امتنانه لدليل الثقة الذي قدَّمه له. أشار القاضي إلى أحد المقاعد، فجلس الميكانيكي على أقصى طرف المقعد، مُتخشِّبًا، وكأنه رجلٌ لا يرتاح إلى فكرة الراحة في حد ذاتها. وفي ذهنه، استحضر القاضي ذلك الشعار الذي لا بدّ أنه يحكم حياة شاهد يَهْوَه: القيام من الفراش ناعسًا، ومغادرة المائدة جائعًا، والخروج من السينما قبل النهاية (لو حدث أن ذهب إلى السينما ذات مرة). حاول أن يتخيَّله وقد أشعلَت النيران في نفسه طفلةُ لا بيكتوريا مصاصة الدماء، ورشقَته بسهامها، ولكنه ما لبث أن ألغى تلك العملية التخيُّلية وأعدَّها مُخِلَّةً بحقوق الدفاع. شرع غومِرسيندو تِيّو في الحديث:

- «صحيح أننا لا نخدم الحكومات ولا الأحزاب ولا الجيوش ولا سائر المُؤسَّسات الظاهرة، لأنها جميعًا من بنات الشيطان»، مضى يقول في عذوبة. «نحن لا نقسم بالولاء لمزقة من النسيج المُلوَّن، ولا نرتدي الأزياء الرسمية، فنحن لا ننجذب إلى البهرجة ولا الملابس التنكرية، ولا نقبل ترقيع الجلد ولا نقل الدماء، لأن ما صنعه الرَّب لا يفرِّقه العلم. ولكن لا شيء مما سبق يعني أننا لا نفي بواجباتنا. سيدي القاضي، أنا رهن أوامرك في كل ما أملك تقديمه،

واعلمْ أنني لن أقلِّل من احترامي لك حتى وإن كان لدي من الأسباب ما يدعو إلى ذلك».

مضى يتكلَّم بتروٍّ، وكأنما ليُسهِّل المهمة على السكرتير الذي صاحب تلك الخطبة المُطوَّلة بموسيقى الآلة الكاتبة. شكره القاضي على تلك المساعي الحسنة، وأخبره بأنه يحترم الأفكار والمعتقدات كافة، ولا سيما الدينية منها، وذكَّره بأنه لم يكُن رهن الاعتقال بسبب الديانة التي يعتنقها، وإنما بتهمة التعدِّي على فتاة قاصر بالضرب والاغتصاب.

مرَّت ابتسامة مبهمة على وجه فتى موكيغوا.

- «إن الشاهد هو مَن يشهد، ويقدِّم الشهادة»، قال كاشفًا عن تبحُّره في علم المعاني، شاخصًا ببصره إلى القاضي. «إنه من يعرف بوجود الرَّب فيخبر الناس به، ومن يقف على الحقيقة فيكشفها للناس. أنا من شهود يَهْوَه، وأنتما أيضًا يمكنكما الانضمام إلينا بقليل من الإرادة».

- «أشكرك، ربما في مناسبة أخرى»، قاطعه القاضي رافعًا ملف القضية السميك الذي أجال فيه عينَيْه وكأنه ينظر إلى طعام شهي. «الوقت ضيق، وهذا ما يعنينا. فلندخل إلى صلب الموضوع. وإليك نصيحة مني حتى نبدأ: الشيء الذي أوصيك به، والشيء الذي يلائمك، هو الحقيقة، الحقيقة الخالصة».

تنهَّد المُتَّهم بعمق، مُتأثِّرًا بذكرى سرية.

- «الحقيقة، الحقيقة»، غمغم في حزن. «أي حقيقة، سيدي القاضي؟ أليسَت هي تلك الافتراءات، تلك الأكاذيب، وحيل الفاتيكان التي يريدون إلباسها ثياب الحقيقة، مُستغلِّين سذاجة العامة؟ أعتقد بأنني أعرف الحقيقة، بكل تواضع، ولكنني أسألك بلا نية للإهانة، أتعرف أنت الحقيقة، سيدي القاضي؟».

- «أسعى إلى معرفتها»، قال القاضي، بدهاء، وهو يضرب الملف براحة يده.

- «حقيقة قصةِ الصليب الخيالية، ومزحة بطرس الرسول والحجر، وتيجان الأساقفة، أو ربما الخدعة البابوية القائلة بخلود الروح؟»، مضى غومِرسيندو تِيّو يتساءل ساخرًا.

- «حقيقة الجريمة التي ارتكبتَها أنت عندما هتكتَ عرض الفتاة القاصر ساريتا أوانكا سالابيريا»، شنّ القاضي هجومًا مضادًّا. «حقيقة التعدِّي على طفلة بريئة في الثالثة عشرة من العمر. حقيقة الضربات التي سدَّدتَها إليها، والتهديدات التي روَّعتَها بها، والاغتصاب الذي انتقصتَ به من شأنها، بل إنك ربما تركتَها حبلى أيضًا».

أخذ صوت القاضي يعلو شيئًا فشيئًا، مفعمًا بالاتهامات، جليلًا. بينما نظر إليه غومِرسيندو تِيّو في غاية الجدية، مُتخشِّبًا كالمقعد الذي شغله، من دون أن يبدو عليه ما يدلّ على الاضطراب أو الندم. وأخيرًا، هزَّ رأسه بوداعة الحملان:

- «أنا على استعداد لخوض أي تجربةٍ، ما دامَت تلك هي مشيئة يَهْوَه»، قال مُؤكِّدًا.

- «ليس الرَّب، بل أنت»، ردّه القاضي إلى أرض الواقع. «أنت ورغباتك وشهواتك وشهوانيتك».

- «بل إنه الرَّب دائمًا، سيدي القاضي»، أصرَّ غومِرسيندو تِيّو. «لا أنت، ولا أنا، ولا أحد، أبدًا. بل إنه هو، هو دون سواه».

- «كُن مسؤولًا عما فعلت»، وعظه القاضي. «التزم بالوقائع، واعترف بخطئك، وربما أخذَت العدالة اعترافك بعين الاعتبار. افعل ما يليق بصورة الرجل المُتديِّن التي تحاول إقناعي بأنها تمثِّلك».

- «أنا نادم على جميع أخطائي، التي لا نهاية لها»، قال

غومِرسيندو تِيّو محزونًا. «أعرف جيدًا جدًّا أنني خاطئ، سيدي القاضي».

- «حسنًا، أخبرني بالوقائع المُحدَّدة»، استعجله دكتور دُوُن باريدا إي سالديبار. «أخبرني بدقة كيف اغتصبتَها، من دون الخوض في لذّةٍ مَرَضية ولا بكائيات».

ولكن شاهد يَهْوَه غصَّ بالبكاء دافنًا وجهه في يدَيْه، فلم يبدُ على القاضي أدنى تأثُّر، وهو الذي ألف تبدُّلَ الحال العاصف الذي ينتاب المُتَّهمين بغتة، وعرِف كيف يغتنم ذلك في سبيل التحقُّق من الوقائع. رأى غومِرسيندو تِيّو على تلك الحال، مطأطئ الرأس، مضطرب الجسد، وقد بلَّلَت الدموع يدَيْه، فشعر دكتور دُوُن باريدا إي سالديبار بالزهو المهني الوقور إذ تأكَّد من فعالية التكنيك الذي لجأ إليه، وقال في نفسه إن المُتَّهم قد بلغ ذروة المشاعر، وأصبح عاجزًا عن المضي قدمًا في الإنكار، والآن حان الوقت ليعترف بالحقيقة اعترافًا وافيًا، مُتلهِّفًا، عفويًّا.

- «أريد معلومات، معلومات»، أصرّ القاضي. «أفعالًا، أمكنة، أوضاعًا، كلمات قيلَت، أشياء ارتُكِبَت. هيا، تحلَّ بالشجاعة!».

- «الأمر أنني لا أعرف كيف أكذب، سيدي القاضي»، تلعثم غومِرسيندو تِيّو، بين فواق وفواق. «أنا على أهبة لتحمُّل أي شيء، السباب، السجن، العار... أما الكذب، فلا أستطيع! لم أتعلَّم الكذب قطّ، ولا أقدر عليه!»

- «حسنًا، حسنًا، إن ذلك العجز عن الكذب شرفٌ لك»، صاح القاضي بلفتة مُشجِّعة. «أثبِت لي ذلك. هيا، كيف اغتصبتَها؟».

- «تلك هي المشكلة...»، قال شاهد يَهْوَه يائسًا، وهو يبتلع ريقه. «المشكلة أنني لم أغتصبها!».

- «دعني أقُل لك شيئًا يا سيد تيّو»، تكلَّم القاضي ناطقًا بكل

مقطع بنعومة الأفاعي التي زادَت كلامه ازدراءً على ازدراء. «أنت شاهد يَهْوَه زائف! مُنتحِل!».

- «لا لمستُها، ولا تحدَّثتُ إليها على انفراد قطّ، بل إنني لم أرَها بالأمس»، قال غومِرسيندو تِيّو، كما يثغو الحمل.

- «أنت مُراءٍ، منافق، مُضلِّل روحي»، أدلى القاضي بحكمه وكأنه جبل من الجليد. «ما دمتَ لا تكترث للعدالة والأخلاق، فعلى الأقل احترمْ ذلك الرَّب الذي كثيرًا ما تلهج بذكر اسمه. فكِّرْ أنه يراك في هذه اللحظة، فكِّرْ أنه لا بدّ أن يكون غاضبًا وهو يسمعك تتفوَّه بالأكاذيب».

- «لم أوجِّه لتلك الطفلة إهانةً واحدة، لا بالنظر ولا حتى بالفكر»، كرَّر غومِرسيندو تِيّو بنبرة تمزِّق القلوب.

- «لقد هدَّدتَها، وتعدَّيتَ عليها بالضرب والاغتصاب»، جاء صوت القاضي هادرًا. «بشهوانيتك القذرة يا سيد تيّو!».

- «بـ شهو انـ يتي الـ قذ رة؟»، كرَّر شاهد يهوه، كمن تلقَّى ضربة بالمطرقة لتوِّه.

- «بشهوانيتك القذرة، أجل يا سيدي»، صدَّق القاضي على قوله، ثم أردف بعد هنيهة من الصمت الإبداعي. «بعضوك الآثم!».

- «بـ عضـ وي الـ آثم؟»، تلعثم المُتَّهم بصوت واهن وقد بدَت عليه أمارات الذهول. «أتـ قول بـ عضـ وي الـ آثم؟».

راحت عيناه الغريبتان اللتان ظهر فيهما الحوَل تقفزان كالجنادب المشدوهة من السكرتير إلى القاضي، ومن الأرض إلى السقف، ومن الكرسي إلى المكتب، هناك حيث تجوَّلَتا بين المستندات والملفات وأوراق النشاف. حتى كان أن لاح في عينَيْه بريقٌ حين وقعَتا على سكين فتح الرسائل المُزخرَف على طراز تياواناكو الذي تلألأ وسط

جميع الأشياء بوميض فني يعود إلى ما قبل الحقبة الإسبانية. عند ذاك، وبحركة بلغَت من السرعة حدًّا لم يسمح للقاضي أو السكرتير بمحاولة الإتيان بلفتة واحدة لردع المُتَّهم، مدَّ غومِرسيندو تِيّر يده مستحوذًا على السكين. لم تبدر منه لفتة تهديد واحدة، بالعكس تمامًا، ذلك أنه ضمّ السكين المُفضَّض إلى صدره، كالأم إذا احتضنَت صغيرها. ورشق الرجلَيْن المصعوقَيْن من هول المفاجأة بنظرةٍ مُطَمْئِنةٍ، طيبة، محزونة.

- «أشعر بالإهانة لأنكما تحسبانني قادرًا على إلحاق الأذى بكما»، قال بصوت يليق بالتائب.

- «لن تتمكَّن من الهرب أبدًا أيها الأحمق»، أنذره القاضي وهو يلملم شتات نفسه. «إن قصر العدالة حافل برجال الحرس المدني، سوف يقتلونك».

- «أهرب؟ أنا؟»، سأل الميكانيكي ساخرًا. «ما أجهلك بشخصي، سيدي القاضي!».

- «ألا ترى أنك تثبت التهمة على نفسك؟»، أصرَّ القاضي. «ردّ لي سكين فتح الرسائل».

- «لقد استعرتُه منك حتى أُثبِت براءتي»، أوضح غومِرسينلو تِيّو بهدوء.

تبادل القاضي والسكرتير نظرة. أما المُتَّهم، فهبَّ واقفًا وقد ظهر على وجهه تعبير يليق بيسوع الناصري. وعلى السكين الذي أمسكه بيده اليمنى، تلألأ بريقٌ مُنذِرٌ مُروِّع. في حين نزلَت يده اليسرى على مهلٍ إلى سحَّاب السروال، وهو يقول بصوت أليم:

- «أنا رجل طاهر، سيدي القاضي. لم أعرف امرأة واحدة. إن ذلك الشيء الذي يستخدمه الرجال الآخرون في ارتكاب الخطيئة، لا أقدر على استخدامه إلّا في التبوُّل...».

- «قف عند حدّك!»، قاطعه دكتور دُوُن باريدا إي سالديبار، وقد اشتبه في أمرٍ فظيع. «ماذا أنت فاعل؟».

- «سوف أبتره وألقي به في سلة القمامة حتى أثبت لك إلى أي مدى لا أكترث به»، أجاب المُتَّهم وهو يشير بذقنه إلى سلة المهملات.

مضى يتكلَّم بعزم هادئ، من دون غطرسة، وكلٌّ من القاضي والسكرتير فاغر الفم. لم يسعفهما الوقت للصراخ، إذ أمسك غومِرسيندو تِيّو جسمَ الجريمة بيساره، ورفع السكين حتى يضرب مُقدِّمًا ذلك البرهان الذي تعجز عن تصوّره العقول، كالجلَّاد الذي يلوِّح بالفأس ويحسب مسار السلاح إلى عنق المحكوم بالإعدام.

أيفعلها؟ أيحرم نفسه من سلامة الجسد بتلك الطريقة، بضربة واحدة؟ أيضحّي غومِرسيندو تِيّو بجسده وشبابه وشرفه من أجل دليل أخلاقي مُجرَّد؟ أيجعل مِن أوقر مكتب قضائي في ليما مذبحًا لتقديم القرابين؟ كيف تنتهي تلك الدراما القضائية؟

٧

سارت علاقتي الغرامية بالخالة خوليا في سلاسة، وإن تعقَّدَت الأمور لأن الحفاظ على السرية شيء عسير. اتَّفقنا على الإقلال من زياراتي إلى بيت الخال لوتشو بدرجة كبيرة لئلَّا أثير الشبهات في إطار العائلة. واكتفيتُ بالمواظبة على غداء الخميس بانتظام. بينما رحنا نبتكر شتّى الحيل حتى نذهب إلى السينما ليلًا. كانت الخالة خوليا تخرج مُبكِّرًا، فتتَّصل بزوجة خالي أولغا وتخبرها بأنها سوف تتناول الطعام برفقة إحدى الصديقات، ثم تنتظرني في المكان المُتَّفق عليه. أما الشي غير الملائم في تلك العملية أنها تضطرّ الخالة خوليا إلى تمضية ساعات في الشوارع حتى أخرج من العمل، وتفوِّت عليها العشاء في أغلب المرات. في أيام أخرى، كنتُ أمرّ بها حتى أقلَّها بسيارة الأجرة من دون أن أترجَّل عنها، فأجد الخالة خوليا تنتظر منتبهةً، وتأتي مُهروِلةً حالما ترى السيارة تتوقَّف. غير أنه مُخطَّط محفوف بالأخطار: فلو افتضح أمرنا لعرفوا أن بيني وبينها شيئًا على الفور. وفي جميع الأحوال، فلا شكّ أن صاحب الدعوة الغامض، المُتربِّص في جوف سيارة الأجرة، سوف ينتهي إلى إثارة الفضول والخبث والكثير من الأسئلة...

ولذا استقررنا على الإقلال من اللقاء ليلًا، والإكثار منه نهارًا، فنغتنم بذلك أوقات الراحة في الراديو. كانت الخالة خوليا تستقلّ

سيارة أجرة مشتركة إلى وسط المدينة، حيث تنتظرني قرابة الحادية عشرة صباحًا، أو الخامسة مساءً، بأحد مقاهي كاماناه، أو كْريم ريكا الواقع بشارع أونيون. كنتُ أفرغ من مراجعة اثنتين من نشرات الأخبار وأتركهما جاهزتَيْن للإذاعة، فنتمكَّن بذلك من تمضية ساعتَيْن معًا. استبعدنا مقهى برانسا بشارع كولمينا، لأن جميع العاملين براديو سنترال وپانامريكانا يتردَّدون إليه. بين الحين والآخر (خلال الأيام التي أتقاضى فيها راتبي، لو شئنا المزيد من الدقة)، كنتُ أدعوها إلى الغداء، فنبقى معًا وقتًا يصل إلى ثلاث ساعات. ولكن راتبي الهزيل ما كان يسمح بمثل هذا الشطط. بعد خطاب مسهب، أفلحتُ في إقناع خينارو الابن بزيادة راتبي، ذات نهار التقيتُه فيه وقد تملَّكَته سعادة غامرة بسبب نجاح پِدرو كاماتشو المُدوِّي، فصرت أتقاضى خمسة آلاف صول على وجه التقريب، أعطي منهما ألفي صول لجدّي وجدّتي حتى أساعدهما في البيت. كانت الثلاثة آلاف الباقية في الماضي تكفي وتفيض عن المبلغ الذي أحتاج إليه لتغطية نفقات آفاتي: السجائر والسينما والكتب. ولكن ذلك المبلغ صار يتبخَّر سريعًا منذ بدأت علاقتي الغرامية بالخالة خوليا، وبِتُّ في ضائقة مالية مُستمِرَّة، ما دفعني إلى الاقتراض في مناسبات كثيرة، بل وإلى رهن مُتعلِّقاتي لدى صندوق الرهونات الوطني القائم بميدان أرماس. ومن جهة أخرى، كانت لديّ أحكام سابقة هسبانية راسخة بشأن العلاقات بين الرجال والنساء، فلم أسمح للخالة خوليا بدفع الحساب قطّ، ما أفضى بحالتي الاقتصادية إلى مشارف المأساة. ولتحسين الوضع المادي، أقدمتُ على ما وصفه خابيير وصفًا قاسيًا لمَّا قال إنني «أعرض قلمي للدعارة»، إذ شرعتُ أكتب مراجعات الكتب والتقارير في الملحقات الثقافية والمجلات الصادرة في ليما. كنتُ أنشرها باسم مستعار حتى يكون شعوري بالخزي من رداءتها

أخفّ وقعًا. ولكن المئتي صول أو الثلاثمئة صول الإضافية التي كنتُ أجنيها فوق راتبي قد أنعشَت ميزانيتي.

خلَت لقاءاتنا في مقاهي وسط ليما إلّا من نزرٍ يسير من الإثم، إذ كنا نتجاذب أطراف الأحاديث المُطوَّلة المُغرِقة في الرومانسية ونحن «نصنع الشطائر»، وكلٌّ منا يرنو إلى عينَي الآخر، بينما تتلامس ركبتاي وركبتاها (ما دامت طبوغرافيا المكان تسمح بذلك). لم نكُن نتبادل القبلات ما لمَ نتوارَ عن أنظار الجميع، الأمر الذي لم يتهيَّأ لنا إلّا في ما ندر، فلطالما حفلَت المقاهي في تلك الأوقات بمُوظَّفي المكاتب الوقحين. كنا نتحدَّث عن نفسَيْنا، طبعًا، وعن المجازفة بأن يباغتنا واحدٌ من أفراد العائلة، فضلًا عن الطريقة الملائمة لتجنُّب تلك المخاطر. وكان كلٌّ منا يحكي للآخر بأدق التفاصيل عما فعل منذ اللقاء الأخير (أي منذ بضع ساعات، أو في اليوم السابق)، وعلى الرغم من ذلك، فنحن لم نضع مُخطَّطًا واحدًا من أجل المستقبل، إذ كان التطرُّق إلى المستقبل في أحاديثنا محظورًا بموجب اتفاق صامت، اقتناعًا منها ومني بأن علاقتنا لا مستقبل لها، من دون شكّ. وعلى الرغم من ذلك، أعتقد بأن ذلك الشيء الذي قد بدأناه لهوًا، مضى يصطبغ بصبغة جدية على مدى اللقاءات العفيفة التي جمعَتنا في مقاهي وسط ليما المُعبَّأة بالأدخنة. وهناك، وقع كلٌّ منا في حبِّ الآخر وهو لا يدري.

كُنَّا نكثر من الحديث في الأدب. أو بمعنى أصحّ، كانت الخالة خوليا تصغي إليَّ بينما أتحدَّث أنا عن الحجرة العلوية في باريس (العنصر الذي لا غنى عنه في مسيرتي الأدبية)، وعن كل الروايات والأعمال الدرامية والمقالات التي سوف أكتبها متى أصبحتُ كاتبًا. في ذلك المساء، حين كشف خابيير أمرنا في كْريم ريكا الذي يقع بشارع أونيون، كنتُ أقرأ على الخالة خوليا قصتي التي كتبتُها عن

دوروتيو مارتي. كانت تقع في خمس صفحات، وجاءت بعنوان: **امتهان الصليب**، على طريقة العصور الوسطى. كانت تلك أول قصة أقرأها عليها، ولقد قرأتُها ببطء شديد حتى أداري شعوري بالقلق من حكمها، فأدَّت تلك التجربة إلى عواقب كارثية على حساسية كاتب المستقبل، إذ راحت الخالة خوليا تقاطعني وأنا أتقدَّم في القراءة:

- «ولكن ليس هذا ما جرى... ولكنك قلبتَ الأمر برمته رأسًا على عقب»، مضَت تقول متفاجئةً، بل وغاضبة أيضًا. «ولكن ليس هذا ما قال... ولكن...».

استحوذ عليَّ غمٌّ شديد، ورحتُ أقطع القراءة حتى أخبرها بأن ما تنصت إليه ليس نسخة وافية من الواقعة الطريفة التي أخبرَتني بها، وإنما **قصة**، **قصة**، كما قلتُ لها إن الغرضَ من جميع الأشياء التي زِدتُها على القصة أو حذفتُها منها إضفاءُ مُؤثِّرات بعينها:

- «**مُؤثِّرات هزلية**»، قلتُ مُشدِّدًا على الكلمة لعلّها تفهم، فابتسمَت، وإن يكُن بدافع الشفقة.

- «ولكن، بالعكس...»، احتجَّت الخالة خوليا بضراوة، غير هيَّابة. «لقد أفقدتَ الحكاية كل ما فيها من طرافة بتلك التبديلات التي أدخلتَها. مَن يصدِّق أن كل هذا الوقت قد مرَّ منذ بدأ الصليب يتحرَّك وحتى سقط أرضًا. أين المزحة الآن؟».

وفي حميمية نفسي التي تجرَّعَت الإهانة، اتَّخذتُ قراري بإلقاء قصة دوروتيو مارتي في سلة المهملات، غير أنني وجدتُ ذاتي وقد تورَّطتُ في دفاع محتدم، أليم، عن حقوق المخيلة الأدبية في التعدِّي على الواقع. وإذا بي أحسّ بلمسة على كتفي.

- «لو أنني قاطعتُ شيئًا، فقولا، وسأذهب، لأنني أنا أكره إقحام نفسي بين اثنين»، قال خابيير وهو يجذب كرسيًّا، ويجلس، ويطلب قهوة من النادل. ابتسم للخالة خوليا. «سعدتُ بلقائك، أنا

خابيير، أعزّ أصدقاء كاتب النثر هذا. كم أتقنتَ إخفاء أمرها يا رفيق!».

- «إنها خوليتا، أخت زوجة خالي أولغا»، أوضحتُ له.

- «كيف؟ البوليفية الشهيرة؟»، خمدَت روحه المعنوية شيئًا فشيئًا. وجدَنا خابيير وقد أمسك كلٌّ منا بيد الآخر، ولم يفلتها، فمضى يحدِّق إلى أصابعنا المتشابكة، بعد أن زال عنه اليقين الدنيوي الذي كان يشعر به من قبل. «حسنًا، حسنًا يا بارغيتاس».

- «هل أنا البوليفية الشهيرة؟»، سألَت الخالة خوليا. «وبمَ أشتهر؟».

- «بثقل الظلّ، وبتلك الدعابات التي عفا عليها الزمن... كان ذلك حين وصلتِ»، أخبرتُها. «لا يعرف خابيير إلَّا الجزء الأول من القصة».

- «ولكنك حجبتَ عني أفضل جزء من القصة، أنت راوٍ سيئ، وصديق أسوأ»، قال خابيير وقد استردّ الطلاقة في الحديث، مُشيرًا إلى «الشطائر» التي رحنا نصنعها بيدَيْنا. «ماذا تقولان، ماذا تقولان!».

كان ودودًا بحق، وأفرط في الثرثرة وإطلاق النكات بكل صنوفها، فوجدَته الخالة خوليا فاتنًا. سعدتُ لأنه قد اكتشف أمرنا. لم أكُن قد وطَّنتُ النية على البوح إليه بأمر علاقتي الغرامية، عزوفًا مني عن مشاطرة الآخرين أسراري العاطفية (ولا سيما الأسرار شديدة التعقيد، كما في تلك الحالة)، ولكن القدر جعله شريكنا في ذلك السرّ، فسعدتُ كثيرًا لأنني أصبحتُ قادرًا على التحدُّث إليه عن تقلُّبات المغامرة. نهارَ ذلك اليوم، ودَّعنا بقبلة على وجنة الخالة خوليا، ثم بانحناءة: «أنا قوَّاد من الطراز الأول، اعتمدا عليَّ في أي شيء».

- «ولماذا لم تقُل إنك سوف تعدّ لنا الفراش أيضًا؟»، وبَّختُه في مساء ذلك اليوم عندما جاء إلى «قنِّ الدجاج» الذي أعمل فيه براديو پانامريكانا، مُتعطِّشًا إلى التفاصيل.

- «خوليا في مكانة خالتك، أليسَت كذلك؟»، سأل، وهو يربِّت على ظهري. «حسنًا، أنا منبهرٌ بك. عشيقة عجوز، ثرية، مُطلَّقة: عشرون نقطة!».

- «ليسَت خالتي، بل شقيقة زوجة خالي»، أوضحتُ له ما يعرفه بالفعل، بينما رحتُ أراجع خبرًا عن الحرب في كوريا ورد في جريدة لا پرِنسا. «ليسَت عشيقتي، وليسَت عجوزًا، ولا تملك ثروة. لم تُصِب إلَّا في كونها مُطلَّقة».

- «قصدتُ بوصفها عجوزًا أنها أكبر منك في العمر. أما كونها ثرية فلم يكُن ذلك نقدًا، بل تهنئة. وأنا من أنصار العلاقات القائمة على المصلحة»، ضحك خابيير. «إذن، فهي ليسَت عشيقتك؟ وماذا تكون إذن؟ حبيبتك؟».

- «بين هذا وذاك»، قلتُ له علمًا مني أنه سوف يضيق بحديثي.

- «أوه، أتريد أن تتظاهر بالغموض؟ إذن، سحقًا لك بحق!»، قال. «إنك لتعيس: أُخبرُك بأدق تفاصيل علاقتي الغرامية بنانسي الصغيرة. أما أنتَ، فتحجب عني أمر علاقتك القائمة على المصلحة».

أخبرتُه بالقصة من البداية، وصعوبات اللقاء، فأدرك السبب الذي جعلني أقترض منه النقود مرتَيْن أو ثلاثًا على مدى الأسابيع الأخيرة. أبدى اهتمامًا، وأمطرني بوابل من الأسئلة، وأقسم لي إنه سوف يغدو «جنِّيتي». ولكنه، في ساعة الوداع، تحلَّى بالجدية:

- «أفترضُ بأنها مُجرَّد لعبة»، قال واعظًا، ناظرًا إلى عينَيّ كما

ينظر الأب الحنون. «لا تنسَ أننا، برغم كل شيء، ما زلنا صغيرَيْن».

- «لو حَمَلتُ، أقسم لك إنني سوف أجهض الجنين»، قلتُ له مُطَمئِنًا.

ما إن ذهب حتى استغرقتُ في التفكير، بينما راح پاسكوال يُسلِّي پابليتو الكبير بحادث تصادم مُتسلسِل وقع في ألمانيا، حيث ارتطم ما يقرب من عشرين سيارة بعضها ببعض، لأن سائحًا بلجيكيًّا شاردًا ترك سيارته في منتصف الطريق السريعة حتى يسعف كلبًا صغيرًا. أصحيح أن قصتنا غير جادة؟ نعم، صحيح. كانت تجربة مختلفة، أكثر نضجًا وجرأة من سائر القصص التي سبق لي أن عشتها. ولكن، لا ينبغي للقصة أن تستمرّ طويلًا، كي تبقى الذكرى طيبة. كنتُ مستغرقًا في تلك التأمُّلات عندما حضر خينارو الابن لدعوتي إلى الغداء. مضى بي إلى حديقة كريوليَّة في ماغدالينا، حيث فرض عليَّ أرزًا بالبط، وفطائر بالعسل. وعندما حان موعد القهوة، ناولني الفاتورة.

- «أنت صديقه الوحيد، تحدَّث إليه، فلقد أوقعنا في ورطة جهنمية. أما أنا، فلا أستطيع، لأنه ينعتني بالجهل، وعدم الثقافة، بالأمس نعت والدي بأنه ابن الطبقة المُتوسِّطة. أريد أن أتجنَّب وقوع المزيد من المشكلات بيني وبينه، وإلَّا اضطُرِرتُ إلى إقالته، وتلك كارثة على الشركة».

كانت المشكلة تتمثَّل في رسالة من سفير الأرجنتين مُوجَّهة إلى راديو سنترال، بلهجة مُسمَّمة، يحتجّ فيها على التلميحات «التشهيرية المُنحَلَّة المُضطرِبة» والافتراءات على وطن سارميينتو وسان مارتين التي تكرَّرَت في المسلسلات الإذاعية (أو «الحكايات الدرامية المُسلسَلة»، حسبما وصفها الدبلوماسي). أورد السفير بعض الأمثلة

التي أكَّد أنها لم تكُن نتاج بحثٍ مقصود، وإنما عينة جمعها بصورة عشوائية فريقُ المفوضية «الذي يهوى ذلك الصنف من البرامج الإذاعية». في أحد المواضع، يُلمِّح إلى أن فحولة رجال مدينة بوينوس آيرِس، التي كانت مضربًا للأمثال، لا تعدو أن تكون خرافة، لأن الغالبية العظمى من الرجال يمارسون المثلية الجنسية (ويفضِّلون المثلية السلبية). وفي موضع آخر، يُزعَم بأن عائلات مقاطعة بوينوس آيرِس المغرقة في الهمجية تضحِّي بالأفواه عديمة الفائدة جوعًا - أي المرضى والطاعنين في العمر -، وذلك لتخفيف العبء عن الميزانية. وفي موضع آخر، يُزعَم بأن الأبقار الأرجنتينية لا تُربَّى لغير التصدير إلى الخارج، أما الطعام الطيب الذي يشتهي أهلُ البلد تناوله في بيوتهم، فهو لحم الحصان. وفي موضع آخر، يُزعَم بأن ممارسة كرة القدم واسعة الانتشار، ولا سيما ضربات الرأس، قد أضرَّت بالجينات الوطنية، ما يُفسِّر انتشار المُتخلِّفين عقليًا والمصابين بداء تضخُّم الأطراف وغير ذلك من صنوف الخبل على ضفاف النهر الفضي. أضف إلى ذلك المزاعم القائلة بأن بيوت بوينوس آيرِس - «تلك المدينة الكوزموبوليتانية»، كما وصفَتها الرسالة بالتحديد - يشيع فيها قضاء الحاجة البيولوجية حيث يأكل الناس ويخلدون إلى النوم، في الدلاء...

- «ها أنت تضحك، ونحن أيضًا ضحكنا...»، قال خينارو الابن وهو يقرض أظفاره، «ولكن، اليوم حضر مُحامٍ، وأزال الضحكة عن وجوهنا. لو تقدَّمَت السفارة باحتجاج لدى الحكومة، فربما أُلغيَت المسلسلات الإذاعية، وفُرِضَت علينا غرامة مالية، وأُقفِلَت الإذاعة. توسَّلْ إليه، توعَّده، ولينسَ أمر الأرجنتينيين».

وعدتُه بأن أعمل ما في وسعي، وإن لم أمنِّ النفسَ بآمال كبرى، لأن كاتب السيناريو رجلٌ صاحب قناعات لا تلين. صرتُ أشعر

بأنني صديقه، وإلى جانب الفضول الخليق بعلماء الحشرات الذي كان يثيره في نفسي، شعرتُ نحوه بالتقدير. ولكن، هل كان ذلك شيئًا مُتبادَلًا؟ لم يبدُ بِدرو كاماتشو قادرًا على إهدار وقته وطاقته، لا في الصداقة ولا في أي شيء قد يصرف ذهنه عن فنِّه، أي عمله، أو آفته. . . ذلك الاحتياج المُلِحّ الذي يطمس البشر والأغراض والشهية. ولكن، الحقّ أنه قد احتملني أكثر مما يحتمل الآخرين. كنتُ أشرب القهوة برفقته (بينما يتناول هو فنجان النعنع وعشبة الليمون)، كما كنتُ أتردَّد إلى حجيرته، فيتّخذني عذرًا للحصول على قسطٍ من الراحة بين صفحة وأخرى. كنتُ أنصت إليه بانتباه مُطلَق، الأمر الذي ربما أشعره بالإطراء، ولعلّه اتَّخذني تلميذًا، أو ربما كنتُ في نظره ببساطة مثل الكلب الصغير الذي يمضي خلف تنورة المرأة العانس، أو الكلمات المتقاطعة التي يحلّها الرجل المُتقاعِد: كنتُ في نظره شخصًا، أو شيئًا، يسدّ به الفراغ.

أذهلَتني من أمر بِدرو كاماتشو ثلاثة أمور: أقواله، والتقشُّف الذي طغى على حياته المُكرَّسة بالكامل إلى هوسٍ وحيد، وقدرته على العمل. ولا سيما الأمر الأخير. في السيرة التي وضعها الكاتب إميل لودفينغ قرأتُ عن قدرة نابليون على الاحتمال، وكيف كان يستمرّ في إصدار الأوامر بينما ينهار مساعدوه، وتعوَّدتُ رسمَ إمبراطور الفرنسيين في مخيلتي وقد صار له وجه كاتب السيناريو ذي الأنف الكبير، الذي أطلقتُ عليه أنا وخابيير **نابليون الألتيپلانو** (اللقب الذي راوحنا بينه وبين **بلزاك الكريولي**). بدافع الفضول، ذهبتُ إلى حساب ساعات عمل بِدرو كاماتشو، ومع أنني تحقَّقتُ من حساباتي مرات كثيرة، فلطالما بدا لي الأمر ضربًا من المحال.

بدأ بأربعة مسلسلات إذاعية في اليوم الواحد. وبالنظر إلى النجاح المُدوِّي الذي لاقته، ارتفع عددها شيئًا فشيئًا حتى صارت

عشرة، تُذاع من الإثنين إلى السبت، وتستمرُّ كل واحدة من حلقاتها نصف ساعة (أو ثلاثة وعشرين دقيقة في واقع الأمر، إذ تستغرق الإعلانات سبع دقائق). ولمَّا كان يخرجها ويشارك فيها بالتمثيل جميعًا، فلقد صار مُضطَرًّا إلى ملازمة الأستوديو سبع ساعات يوميًّا على وجه التقريب، مع الأخذ في الاعتبار أن التدرُّب على كل حلقة وتسجيلها يستغرقان أربعين دقيقة (بينما تستغرق خُطَب الكاتب الرنانة والإعادات ما بين عشر دقائق وربع ساعة). كان يكتب كل حلقة قبل إذاعتها، ولقد تأكَّدتُ أنه لا يستغرق في كتابة الحلقة الواحدة أطول من ضعفَي الوقت الذي يستغرقه لتقديمها، أي ساعة واحدة. ما يعني عشر ساعات من الكتابة على الآلة في جميع الأحوال، وإن انخفضَت تلك المدة قليلًا بفضل يوم الأحد، عطلته الأسبوعية التي كان يمضيها في حجيرته، طبعًا، حيث ينجز بعض مشاغل الأسبوع سلفًا. وبناء على ما تقدَّم، كان پِدرو كاماتشو يعمل ما بين خمس عشرة وست عشرة ساعة من الإثنين إلى السبت، وما بين ثماني وعشر ساعات أيام الأحد، تكاد كلها تكون ساعات مُثمِرة، تؤتي ثمارًا فنية وفيرة.

كان يصل إلى راديو سنترال في الثامنة صباحًا، ويغادر قرب منتصف الليل، فلا يخرج إلى الشارع إلَّا برفقتي، إلى مقهى برانسا، لتناول المشروبات المُنعِشة للدماغ. في حجيرته، كان يتناول غداءه المُؤلَّف من شطيرة ومُرطِّبٍ يشتريهما له أحدهم بإخلاصٍ، إما پابليتو الكبير وإما خيسوسيتو وإما واحد من العاملين معه. لم يقبل دعوةً قطّ، ولم أسمعه يقول يومًا إنه قد ذهب إلى السينما أو المسرح أو حضر مباراة كرة قدم أو حفلًا. كما لم يحدث يومًا أن رأيته يطالع كتابًا أو مجلة أو صحيفة، فيما عدا مُجلَّد الأقوال الضخم، وتلك الخرائط التي كانت تُعتبَر أدواته في العمل. ولكني كاذبٌ في ما قلتُ: إذ اكتشفتُ معه ذات يوم ألبوم أعضاء نادي ناسيونال.

- «رشوتُ الحارس ببعض النقود»، أوضح لي عندما سألتُه عن الألبوم. «وإلَّا فمن أين أستقي أسماء الأرستقراطيين من أجل أعمالي؟ أما عامة الشعب، فتكفيني أذناي حتى ألتقط أسماءهم من قاع الأرض».

ولطالما اندهشتُ من طريقته في صناعة المسلسل الإذاعي، أي الساعة التي كان يستغرقها في كتابة كل نصٍّ، بلا انقطاع. كثيرًا ما رأيتُه وهو يكتب تلك الحلقات. إذ لم يكُن لديه ما يمنع مشاهدته في أثناء الكتابة، بخلاف جلسات التسجيل التي دافع عن سريتها بضراوة. كان المُمثِّلون أو الطاحون أو مهندس الصوت يدخلون إلى مكتبه ويقاطعونه بينما هو يضرب على مفاتيح آلته (أو آلتي) الرِمينغتون، فيرفع عينَيْه مُجيبًا عن الأسئلة، مُدلِيًا بتوجيهات شديدة الزخرفة، مُودِّعًا الزائر بابتسامة جِلْدية، هي أبعد ما رأيتُ عن الابتسام، ثم يستأنف الكتابة. درجتُ على التسلُّل إلى حجيرته مُتعلِّلًا بحجة استذكار دروسي، زاعمًا بأن «قنّ الدجاج» الذي أعمل فيه شديد الصخب والازدحام (كنتُ أستذكر دروس القانون تأهُّبًا للامتحانات، فلا أكاد أجتازها حتى أنسى الأمر برمته: أما كوني لم أرسب قطّ، فليس بالشيء الذي يرفع من قدري، بل ينتقص من قدر الجامعة). ومع ذلك، فلم يُظهِر بِدرو كاماتشو اعتراضًا، ولم يبدُ عليه الضيق بذلك الحضور البشري الذي ينصت إليه وهو يبدع.

كنتُ أجلس على إفريز النافذة، وأغوص في واحد من كتب القانون بأنفي. غير أنني، في واقع الأمر، كنتُ أتلصَّص عليه وهو يضرب مفاتيح الآلة باثنتين من أصابعه، بسرعة كبيرة، فأراه ولا أصدِّق ما أرى: ذلك أنه لم يتوقَّف يومًا للبحث عن كلمة أو تأمُّل فكرة واحدة. أما عيناه الجاحظتان الحادتان، فلم يُرَ فيهما ظلُّ الشكِّ يومًا. كان يترك في نفس الناظر انطباعًا بأنه ينقل نصًّا حفظه عن ظهر

قلب، أو يكتب على الآلة نصًّا يُملَى عليه. كيف يُعقَل أن يبقى على تلك الحال تسع ساعات أو عشر ساعات كل يوم، وإصبعاه الصغيرتان تضربان المفاتيح بتلك السرعة، بينما هو يبتكر المواقف والطرائف والحوارات في عديد من القصص المختلفة؟ وعلى الرغم من ذلك، فلقد تحقَّق له الأمر: إذ كانت نصوص المسلسلات تتدفَّق من ذلك الرأس صعب المراس، وهاتين اليدَيْن اللتين لا تكلّان، واحدًا تلو آخر، بالحجم المطلوب، كما تخرج حبال النقانق من آلة الفرم. كان كاتب السيناريو يفرغ من الحلقة، فلا يصحِّحها أو حتى يقرأها، وإنما يسلِّمها للسكرتيرة كي تصنع منها نسخًا، ثم يباشر إعداد الحلقة التالية، بلا فاصل بين حلقة وأخرى. ذات مرة، قلتُ له إن رؤيته وهو يعمل تُذكِّرني بنظرية السرياليين الفرنسيين في الكتابة الآلية، تلك الكتابة التي تنبع من العقل الباطن مباشرةً، وتراوغ الرقابة التي يفرضها العقل، فحصلتُ منه على ردٍّ قومي:

- «إن أدمغة أمريكتنا الخلاسية قادرة على الإتيان بأشياء أفضل من تلك التي يأتي بها الفرنسيون. دع عنك عقدة النقص يا صديقي».

لماذا لا يتَّخذ القصص التي كتبها في بوليفيا قاعدةً يرتكز إليها لكتابة قصص عن ليما؟ سألتُه، فأجابني بواحدة من تلك العبارات الفضفاضة التي يستحيل أن يخرج المرء منها بشيء مُحدَّد: يجب أن تكون القصص طازجة لتصل إلى الجمهور، مثل الفاكهة والخضروات، لأن الفن لا يحتمل المُعلَّبات، دع عنك الأطعمة التي تعفَّنَت بفعل الزمن. ومن جهة أخرى، يجب أن تكون القصص نابعة «من البلد الذي ينتمي إليه المستمعون». وإلَّا، فكيف يهتمُّ أهل ليما بحوادث وقعَت في مدينة لا پاس. غير أنه مضى يسوق تلك الأسباب لأن حاجته إلى التنظير، وتحويل كل شيء إلى حقيقة موضوعية ومُسلَّمة أبدية، كانت قهريةً بقدر حاجته إلى الكتابة. لا شكّ أن

السبب الذي حال دونه ودون الاستعانة بمسلسلاته الإذاعية القديمة كان بسيطًا: فهو لا يملك أدنى اهتمام بإعفاء نفسه من العمل. كانت الحياةُ عنده تعني الكتابة. أما صمود أعماله في وجه الزمن، فذلك شيء لم يكترث له مطلقًا، بل إنه كان ينسى أمر نصوصه فور إذاعتها. ولقد أكَّد لي أنه لا يحتفظ بنسخة واحدة من مسلسلاته الإذاعية، تلك المسلسلات التي ألَّفها بموجب قناعة ضمنية تنصّ على ضرورة أن تتبخَّر تلك الأعمال حالما يهضمها الجمهور. ذات مرة، سألتُه إن لم يفكِّر في النشر قطّ، فما لبث أن قال مُلقِّنًا:

- «سوف تُحفَظ كتاباتي في مكان يجعلها أعصى على المحوِ مما لو كانت بين دفات الكتب: ذاكرة المُستمِعين».

يومَ تناولتُ الغداء مع خينارو الابن، حدَّثتُ كاتب السيناريو عن احتجاج الأرجنتين. قرابة السادسة، مررتُ بحجيرته ودعوته إلى مقهى برانسا، حيث أفضيتُ إليه بالخبر رويدًا رويدًا، مخافة ردة الفعل التي قد تصدر منه. قلتُ له: إن بعض الناس يفرطون في الحساسية، ويعجزون عن تقبُّل السخرية، أضف إلى ذلك أن قوانين التشهير في بيرو بالغة الصرامة، وقد تُوصَد أبواب محطة إذاعية لأمر شديد التفاهة. كما أن سفارة الأرجنتين قد أثبتَت ضيق الأفق عندما أحسّ القائمون عليها بأن مشاعرهم قد انجرحَت لمُجرَّد بعض التلميحات، وهدَّدوا بالتقدُّم بشكوى رسمية لدى وزارة الخارجية...

- «في بوليفيا، بلغ الأمر حدَّ التهديد بقطع العلاقات»، قاطعني. «بل إن واحدة من الصحف الصفراء نشرَت شائعةً عن حشد القوات على الحدود».

قالها مُسلِّمًا أمره، كمَن يفكِّر أن: واجب الشمس أن تسطع. ولو تسببَت أشعتها في اندلاع بعض الحرائق، فليسَت في اليد حيلة.

- «يطلب منك آل خينارو أن تتجنَّب ذكر الأرجنتينيين بالسوء في

مسلسلاتك الإذاعية قدر المستطاع»، اعترفتُ له، وعثرتُ على الحجة التي افترضتُ أنها قد تترك في نفسه أثرًا: فعلى كل حال، الأفضل ألّا يشغل نفسه حتى بأمرهم، أتراهم يستحقّون العناء؟

- «يستحقّون العناء **لأنهم** يلهمونني»، أوضح لي، وأقفل بذلك باب الحديث.

وفي طريق العودة إلى الراديو، قال وقد لاحت في صوته نبرة شقية إن فضيحة لا بأس «جعلَتهم يستشيطون غضبًا»، تلك الفضيحة التي أثارها مسلسلٌ إذاعي عن «عادات الغاوتشو[1] الوحشية».

وفي مقرّ بانامريكانا، قلتُ لخينارو الابن ألّا يمنّي نفسه بالآمال على فعاليتي في الوساطة.

بعد يومَيْن أو ثلاثة أيام، رأيتُ النزل الذي أقام فيه پِدرو كاماتشو. كانت الخالة خوليا قد حضرَت للقائي في موعد إذاعة نشرة الأخبار الأخيرة، رغبةً منها في مشاهدة الفيلم المعروض بسينما مترو، الذي يلعب فيه دور الحبيبَيْن واحدٌ من الثنائيات الرومانسية العظيمة: غْرِير غارسون ووالتر پيدچون. قرب منتصف الليل، كنا نقطع ميدان سان مارتين حتى نستقلّ سيارة الأجرة المشتركة، وإذا بي ألمح پِدرو كاماتشو خارجًا من راديو سنترال. ما كدتُ أشير إليه حتى أرادت الخالة خوليا أن أعرِّفها به. اقتربنا منه، وقلتُ له إنها مواطنته، فقابلها بمودة غامرة.

- «أنا من كبار المعجبين بك»، قالت له الخالة خوليا، وأردفَت كاذبةً، حتى يستلطفها أكثر وأكثر: «لا تفوتني مسلسلاتك الإذاعية منذ كنتُ في بوليفيا».

---

(١) غاوتشو: تُستخدَم للإشارة إلى ساكني بعض السهول في أمريكا الجنوبية، أو إلى أهل الأرجنتين تحديدًا في هذا السياق. (المترجم)

رافقناه سيرًا على الأقدام إلى شارع كيلكا، ونحن لا نكاد ننتبه إلى ذلك. وفي الطريق، تجاذب بِدرو كاماتشو والخالة خوليا حديثًا وطنيًّا استُثنِيتُ منه، جاءا فيه على ذكر مناجم پوتوسي، وبيرة تاكينيا، وحساء الذرة الذي يطلقون عليه لاغوا، والذرة بالجبن الطازج، وطقس كوتشابامبا، وجمال بنات سانتا كروس، وغير ذلك من المفاخر البوليفية. بدا كاتب السيناريو في غاية الرضى عن نفسه وهو يتحدَّث عن روعة الأرض التي ينتمي إليها. بلغنا الباب المفضي إلى بيت له شرفات وشبابيك، فتوقَّف، غير أنه لم يودِّعنا.

- «اصعدا»، عرض علينا. «يمكننا اقتسام عشائي، على بساطته».

كان بنسيون لا تاپادا يقع في واحد من تلك البيوت العتيقة المُؤلَّفة من طابقَيْن في وسط ليما، تلك البيوت التي شُيِّدَت خلال القرن الماضي، وكانت ذات يوم رحيبة، وثيرة، وربما فاخرة أيضًا. ثم راح الموسرون يهجرون وسط المدينة إلى المنتجعات، وأخذَت ليما العتيقة تفقد الرقي وتتداعى وتزدحم وتتشعَّب، فصارت البيوت وكأنها خلايا نحل بحقّ، بسبب الجدران الفاصلة التي ضاعفَت أعداد الحجرات مرتَيْن أو أربعًا، والغرف التي أُقيمَت كيفما اتَّفق في الردهات والأسطح، بل وفي الشرفات وعلى الأدراج أيضًا. كان بنسيون لا تاپادا يورث المرء انطباعًا بأنه على وشك الانهيار. اهتزّ الدَّرَج الذي صعدنا عليه إلى حجرة بِدرو كاماتشو تحت أقدامنا، بينما تعالَت سحبٌ صغير جعلَت الخالة خوليا تعطس. اكتسى كل شيء بطبقة من الغبار، الجدران والأرضيات، وتراءى لنا من الواضح أن البيت لم يُكنَس ولم يُمسَح قطّ. بدَت حجرة بِدرو كاماتشو كالزنزانة، إذ كانت شديدة الصغر، وكادت تخلو من الأشياء. ضمَّت الحجرة سريرًا صغيرًا لا ظهر له، اكتسى بمفرش باهت ووسادة بلا

غطاء، كما ضمَّت الحجرة طاولة صغيرة مُغطَّاة بمفرش من المطاط، ومقعدًا من القشّ، وحقيبة، وحبلًا مُعلَّقًا يمتدّ من جدار إلى جدار، تتدلَّى منه السراويل الداخلية والجوارب المُتأرجِحة. لم أُفاجأ بأن يغسل كاتب السيناريو ثيابه بنفسه، وإن فوجِئتُ بأن يعدّ الطعام لنفسه. استقرّ على حافة النافذة موقد بريموس وقارورة كيروسين وبعض الصحون والأكواب وأدوات المائدة المصنوعة من الصفيح. وبلفتة مفعمة بالجلال، قدَّم المقعد للخالة خوليا، وقدَّم لي أنا الفراش:

- «تفضَّلا بالجلوس، فالبيت فقير، ولكن القلب كبير».

في دقيقتَيْن، أعدَّ العشاء الذي كان يحتفظ بمكوناته في كيس من البلاستيك على حافة النافذة لتهويتها. كانت قائمة الطعام تتألَّف من النقانق المسلوقة والبيض المقلي والخبز بالزبد والجبن والزبادي بالعسل. رأيناه يعدّ العشاء بمهارة، كمن درج على إعداده كل يوم، وأيقنتُ أن ذلك هو النظام الغذائي الذي لا بدّ أنه يلتزم به دائمًا.

وبينما رحنا نأكل، بدا لنا ودودًا، كثير الحديث، وتكرَّم علينا بخوض أمور مثل وصفة الكْريم كراميل (التي طلبَتها منه الخالة خوليا) وأوفر أنواع المُنظِّفات لغسيل الثياب البيضاء. لم يأتِ على ما في صحنه. وبينما هو ينحِّيه جانبًا، أشار إلى بقايا الطعام، وسمح لنفسه بإطلاق مزحة:

- «الطعام آفةٌ عند الفنان يا صديقَي».

رأيتُه في مزاج رائق، فتجرَّأتُ على طرح أسئلة بشأن عمله. قلتُ له إنني أحسد قدرته على التحمُّل، فهو لا يبدو متعبًا أبدًا، على الرغم من ساعات العمل الطويلة التي تليق بالعبيد.

- «لديَّ من الاستراتيجيات ما يجعل يومي حافلًا»، اعترف لنا.

خفض صوته، وكأنما ليمنع أشباحًا مُنافِسة من الوقوف على

سرِّه. قال إنه لا يستمرّ لأكثر من ستين دقيقة في قصة واحدة أبدًا، وإن تبديل الموضوع بآخر أمرٌ مُنعِش، فهكذا يشعر كلَّ ساعة وكأنه قد بدأ لتوّه في العمل.

- «اللذة تسكن في التنوُّع يا سيدي»، ردَّد بإيماءات قزمٍ شقي، وعينَيْن يتجلّى فيهما الحماس.

ولهذا السبب، من المهم أن تُرتَّب القصص طبقًا للتفاوت بينها، لا التشابه: لأن التغيير الكلّي، تغيير الطقس والمكان والموضوع والشخصيات، يعزِّز الإحساس بالتجديد. ومن جهة أخرى، فمشروب عشبة الليمون والنعنع مفيد أيضًا، إذ يفتح القنوات الدماغية، الأمر الذي تلقاه المخيلة بامتنان. أما ترك الآلة الكاتبة للذهاب إلى الأستوديو، وترك الكتابة للإخراج والتمثيل، بين الحين والآخر، فيُعَّد راحة أيضًا، ونقلةً تنعش المرء. بَيْد أنه اكتشف على مرِّ الأعوام شيئًا، شيئًا قد يبدو للجهلة وعديمي الإحساس مُجرَّد سخف صبياني. ولكن، أيهمّ رأي البشر؟ رأيناه يتردَّد، ويسكت، والحزن يخيِّم على وجهه الكاريكاتوري:

- «من المؤسف أنني لا أملك ممارسته هنا»، قال في شجن. «باستثناء أيام الأحد، التي أقضيها وحدي. أما باقي الأيام، فيكثر فيها الفضوليون، وأولئك لن يتفهَّموا».

منذ متى يشعر بذلك الحرج، وهو الذي ينظر إلى الفانين من أعالي جبل الأوليمب؟ رأيتُ الخالة خوليا تتلهَّف إلى المعرفة بقدر ما تلهَّفتُ إليها أنا أيضًا:

- «لا يمكنك أن تتركنا مُتشوِّقين هكذا!»، توسَّلَت إليه. «ما ذلك السرّ يا سيد كاماتشو؟».

استغرق في النظر إليها، بصمت، كالساحر الذي يتأمَّل انتباه المشاهد بعدما تمكَّن من الاستئثار به، راضيًا عن نفسه. ثم نهض

ببطء يليق بالكهنة (إذ كان جالسًا على حافة النافذة، قرب موقد بريموس)، وتوجَّه إلى الحقيبة التي فتحها وبدأ يستخرج ما في جوفها، كما يستخرج الساحرُ الحمام أو الرايات من قبعته العالية. وإذا بنا أمام طائفة من الأشياء غير المُتوقَّعة: شعر قاضٍ إنجليزي، وشوارب صناعية بأحجام شتّى، وخوذة رجل إطفاء، وشارة عسكرية، وأقنعة أحدها لامرأة بدينة وثانيها لرجل عجوز وثالثها لطفل أبله، وعصا شرطي مرور، وقبعة بحَّار خبير، وغليونه أيضًا، وروب طبيب أبيض اللون، وأنوف وآذان صناعية، ولحىَ من القطن... راح يُطلِعنا على أدواته كما لو كان تمثالًا يعمل بالكهرباء، ومضى يلبسها ويصلح وضعها ويخلعها بخفَّة وشَت بمواظبته على تلك العادة ومثابرته على تلك الممارسة (حتى نرى أدواته بصورة أوضح، أم ليشبع احتياجًا حميميًا في نفسه؟). وهكذا، بينما رحنا أنا والخالة خوليا نراقبه مسحورَيْن، شرع پدرو كاماتشو يبدِّل زيًّا بآخر، ويتحوَّل إلى طبيب، فبحَّار، فقاضٍ، فعجوز، فشحَّاذ، فامرأة تقية، فكاردينال كاثوليكي... وبينما هو يُجري تلك التحوّلات، انطلق يتكلَّم مفعمًا بحماسة مُتَّقدة:

- «لماذا لا يحقّ لي التشبّه بشخوص أبتكرهم بنفسي، حتى أتماهى وإياهم؟ من يحظر عليَّ أن تكون لي أنوفهم، وشعورهم، وستراتهم، بينما أكتبُهم؟»، مضى يتساءل، وهو يبدِّل الغليون بعمامة الكاردينال، ثم البالطو بالغليون، ثم العكَّاز بالبالطو. «مَن يبالي لو أنني شحَّمتُ مخيلتي بقطع من الأقمشة؟ ماذا تكون الواقعية يا سيدَي، ماذا تكون تلك الواقعية الشهيرة؟ لو شئنا صنع فنٍّ واقعي، فأي طريقة أفضل من تعرُّف المرء على ذاته في الواقع بصورة مادية؟ أولن يكون اليوم بذلك أهون على الاحتمال، وأكثر بهجةً، وأشدّ إثارةً؟».

ولكن، طبعًا... - في البدء جاء صوته غاضبًا، ثم تعيسًا - ولكن بلاهة الناس وعجزهم عن الفهم يسيئان تفسير كل شيء. لو وقع بصرهم عليه في راديو سنترال وهو يكتب مُتنكِّرًا، لتدفَّقَت الشائعات، وتناقلَت الألسن أنه يتشبَّه بالنساء، وبات مكتبه مغناطيسًا يجتذب فضولَ العامة المَرَضي. فرغ من الاحتفاظ بالأقنعة وباقي الأغراض. بعد ذلك أقفل الحقيبة، ثم عاد إلى النافذة وقد صار الآن محزونًا. غمغم قائلًا إنه، في بوليفيا، هناك حيث دَرَج على العمل في الأتيليه الخاص به دومًا، لم يواجه مشكلة قطّ بسبب «تلك الأقمشة». أما هنا، فلا يستطيع أن يكتب كما ألِف الكتابة إلّا في أيام الأحد.

- «ماذا عن تلك الأزياء التنكُّرية، هل تحصل عليها كي تلائم شخصيات أعمالك، أم أنك تبتكر الشخصيات بالاستناد إلى الأزياء المُتوفِّرة لديك بالفعل؟»، سألتُه، لمُجرَّد أن أقول شيئًا، وأنا لم أتجاوز دهشتي بعد.

نظر إليَّ كمن ينظر إلى طفل حديث الولادة:

- «مِن الواضح أنك في مقتبل العمر»، وبَّخني برقَّة. «ألا تدري أنه في البدء تكون الكلمة، دائمًا؟».

عدنا إلى الشارع بعد أن شكرناه على الدعوة بحرارة. قلتُ للخالة خوليا إن بِدرو كاماتشو، حين شاركنا سرَّه، قد أعطانا دليلًا على الثقة الاستثنائية، وإنني قد تأثَّرت بذلك. كانت مسرورة: إذ لم يُخيَّل إليها يومًا أن المُثقَّفين قد يكونوا مُسلِّين إلى هذا الحدّ.

- «حسنًا، ولكن ليس جميع المُثقَّفين هكذا»، قلتُ ساخرًا. «إن بِدرو كاماتشو "مُثقَّفٌ" بين علامتَي تنصيص. ألاحظتِ أن حجرته لا تحوي كتابًا واحدًا؟ لقد أوضح لي أنه لا يقرأ حتى لا يتأثَّر أسلوبه بالآخرين».

عدنا أدراجنا عَبْر شوارع وسط المدينة الساكتة، وقد أخذ كلٌّ منا

بيد الآخر، ومضينا صوب موقف سيارات الأجرة المشتركة. قلتُ لها إنني سوف أحضر إلى راديو سنترال ذات أحدٍ لمُجرَّد رؤية كاتب السيناريو وقد تحوَّل إلى واحد من كائناته بتلك الأزياء التنكُّرية.

- «يعيش كالشحَّاذ، غير معقول!»، احتجَّت الخالة خوليا. «حسبتُه يجني أموالًا طائلة، مع الأخذ في الاعتبار الشهرة الكبيرة التي تحظى بها مسلسلاته الإذاعية».

شعرَت بالقلق لأنها لم ترَ مغطسًا ولا دشًّا في بنسيون لا تاپادا، إن هو إلَّا مرحاض وحوض عفِن في طرقة الطابق الأول. وسألَتني إن كنتُ أعتقد بأن پِدرو كاماتشو لا يغتسل قطّ، فقلتُ لها إن كاتب السيناريو لا يلقي لتلك التفاهات أدنى بال. أقرَّت لي بأنها أحسَّت بالاشمئزاز حين رأت قذارة البنسيون، وبذلَت جهدًا خارقًا لتناول البيض والنقانق. ركبنا سيارة الأجرة المشتركة، قطعة الخردة العتيقة التي مضَت تتوقَّف عند كل ناصية على امتداد جادة أريكيپا، بينما رحتُ أطبع القبلات على أذنها وعنقها ببطء. سمعتُها تقول مندهشة:

- «إذن، فالكُتَّاب يتضوَّرون جوعًا. ما يعني أنك سوف تعيش معدمًا مدى الحياة يا بارغيتاس».

منذ سمعَت خابيير يناديني بهذا اللقب، صارت تناديني بارغيتاس هي أيضًا.

٨

نظر دُوُن فيديريكو تِيِّيس أونساتيغي إلى ساعته، وتحقَّق من أن عقاربها تشير إلى الثانية عشرة، فأعطى الإذن لنصف دزينة المُوظَّفين العاملين لدى شركة س أ لمكافحة القوارض في الذهاب لتناول الغداء، ولم يُذكِّرهم بضرورة العودة في الثالثة على وجه الدقة، بلا تأخير دقيقة واحدة، لأن جميعهم يعرف تمام المعرفة أن عدم احترام المواعيد في هذه الشركة يُعَدّ انتهاكًا للمُقدَّسات: ويُدفَع ثمنه بالغرامة أو حتى بالفصل من العمل. ما كادوا يذهبون حتى أقفل دُوُن فيديريكو المكتب بقفلَيْن، كما هو دأبه، ثم اعتمر قبعته الرمادية بلون الفئران، ومشى على الأرصفة المُكتظَّة بالمارة في شارع أوانكابيليكا مُتَّجهًا إلى ساحة الانتظار حيث يترك سيارته (الدودج سيدان).

كان رجلًا يبثّ في النفس رهبةً وأفكارًا قاتمةً، يكفي أن يمرّ به المرء في الشارع حتى يدرك أنه مختلف عن باقي مواطنيه. كان في زهرة العمر: الخمسين. أما سماته - الجبين العريض والأنف المعقوف والنظرة الثاقبة والروح المستقيمة - فكانت قادرة على أن تجعل منه دون جوان لو أنه أبدى اهتمامًا بالنساء، ولكن دُوُن فيديريكو تِيِّيس أونساتيغي قد نذر وجوده «لحملة حربية»، ولم يسمح لأحد أو شيء - ما لم تكُن ساعات النوم الضرورية، أو المأكل، أو الحياة الأسرية - بأن يصرف ذهنه عن تلك الحملة. لقد خاض تلك

الحرب منذ أربعين عامًا، ووضع نصب عينَيْه هدف القضاء على جميع القوارض على أرض الوطن.

أما السبب الذي جعله يطمح إلى ذلك الأمل المستحيل، فلم يدرِ به معارفه، ولا حتى زوجته وأبناؤه الأربعة. أخفى دُوُن فيديريكو تِيِّيس أونساتيغي ذلك السبب عن الآخرين، وإن لم ينسَ أمره: إذ كان يتبادر إلى ذاكرته ليل نهار، ذلك الكابوس الدؤوب الذي استمدّ منه قوى جديدة وكراهية طازجة للمثابرة في تلك المعركة التي وجدها بعض الناس غريبة، في حين أعدّها بعضهم الآخر مُنفِّرة، أما الباقون فاعتبروها تجارية. والآن، بينما هو يدخل إلى ساحة الانتظار، مضى يتحقَّق بعينَي صقرٍ مما إذا كانت السيارة الدودج قد نُظِّفَت. وبعد تشغيل السيارة، انتظر دقيقتَيْن (حسبهما بالساعة) ريثما يسخن المُحرِّك، بينما عادت أفكاره بالزمان والمكان مرة أخرى إلى بلدة طفولته القائمة في الغابات، وإلى الرعب الذي شكَّل مصيره، كالفراشات إذا رفَّت بأجنحتها ماضيةً صوب ألسنة اللهب التي سوف تحرق أجنحتها.

وقعَت الحادثة في العقد الأول من القرن، عندما كانت تينغو ماريا مُجرَّد نقطة على الخارطة، أرض خلاء تضمُّ بعض الكبائن وتطوِّقها الغابة الكثيفة. في بعض الأحيان، وبعد مشقَّات لا تنتهي، كان المغامرون يتوافدون إليها تاركين رخاء العاصمة على أمل غزو الأدغال. وهكذا وصل إلى المنطقة المهندس إلديبراندو تِيِّيس، برفقة زوجة شابة تجري الدماء الباسكية الزرقاء في عروقها، كما وشى اسمها واسم عائلتها: مايتيه أونساتيغي. ومعهما طفل صغير: فيديريكو. كان لدى المهندس مشروعات كبرى: قَطْع الأشجار، وتصدير الأخشاب الفاخرة لبناء البيوت وصنع الأثاث من أجل الموسرين، وزرع الأناناس والأفوكادو والبطيخ وفاكهة القشدة

واللوكوما من أجل تقديم النكهات الغريبة للعالم، كما أراد تسيير المراكب البخارية عَبْر أنهار الأمازون بعد فترة من الزمن. ولكن الآلهة والبشر أخمدوا تلك النيران، وتركوها رمادًا. انهارت مشروعاته الكبرى واحدًا تلو الآخر بفعل الكوارث الطبيعية من جهة (السيول، والأوبئة، والفيضانات) ونقائص البشر من جهة أخرى (نقص الأيدي العاملة، وخمول الأيدي العاملة المتاحة وبلادتها، والكحول، ونقص الرصيد) حتى اضطُرّ المُستكشِف بعد أن وصل تينغو ماريا بعامَيْن إلى كسب القوت بمشقة عن طريق زراعة البطاطس في مزرعة صغيرة على نهر پيندينسيا. وهناك، في إحدى الكبائن المبنية بالجذوع وسعفات النخيل، التهمَت الجرذان الطفلةَ الرضيعة ماريا تِيِّيس أونساتيغي وهي على قيد الحياة، في مهدها الخالي من الناموسية، ذات ليلة دافئة.

وقعَت الحادثة ببساطة وبشاعة في آن واحد. كان الأبُّ والأمُّ قد وقع عليهما الاختيار بصفتهما عرَّابَيْن في معمودية أحد الصغار، فأمضيا ليلتهما في الحفل الذي عادةً ما يُقام بتلك المناسبة، على ضفة النهر الأخرى. تولَّى مسؤولية المكان خولي المزرعة الذي كان يسكن في كوخٍ مع العاملَيْن الآخرَيْن، بعيدًا عن كابينة صاحب المزرعة حيث ينام كلٌّ من فيديريكو وأخته. ولكن الطفل قد تعوَّد وضعَ فراشه على ضفاف نهر پيندينسيا في أوقات القيظ، هناك حيث ينام على هدهدة الماء. وذلك ما فعل ليلتذاك (وظلّ يلوم عليه نفسه مدى الحياة). تحمَّم على نور القمر، وأوى إلى الفراش، ثم خلد إلى النوم. بين حلم وآخر، تراءى له أن بكاء طفلة صغيرة يتناهى إليه. غير أنه لم يكُن عاليًا أو طويلًا بالقدر الكافي لإيقاظه. وعند بزوغ الفجر، أحسَّ على قدمه بأسنان من الفولاذ. فتح عينَيْه وقد خُيِّل إليه أنه في سبيله إلى الموت، أو أنه بالأحرى قد مات وذهب إلى الجحيم: كانت عشرات

من الجرذان قد طوَّقَته وهي تتدافع وتتعثَّر وتتلوَّى، والأدهى أنها راحت تنهش كل ما تجد أمامها. وإذا هو يقفز تاركًا الفراش، ويلتقط العصا. تمكَّن من إيقاظ الخولي والعاملَيْن، فتعاونوا في ما بينهم على صدّ مستعمرة الغزاة بألسنة اللهب وضربات العصي والركلات. ولكن، حين دخلوا إلى الكابينة، لم يكُن باقيًا من الطفلة (الوجبة الرئيسية في وليمة الجائعين) إلَّا كوم صغير من العظام.

مرَّت الدقيقتان، فغادر دُوُن فيديريكو تِيِّس أونساتيغي. تقدَّم في طريق أفعوانية من السيارات عَبْر جادة تاكنا، حتى يتَّخذ جادة ويلسون وأريكيپا مُتَّجهًا إلى مقاطعة بارّانكو، حيث ينتظره الغداء. كان يضغط المكابح في إشارات المرور، فيغمض عينَيْه، ويحسّ بذلك الإحساس المرير الهادر، كما هو دأبه كلّما تذكَّر ذلك الفَجْر المُروِّع. ولأن «المصائب لا تأتي فرادى»، كما تقول الحكمة، أصابَت المأساةُ أمَّه الشابة سليلة الباسك بفواق مزمن، سبَّب لها تشنُّجات، ومنعها من تناول الطعام، وبات مثارًا لسخرية الناس. لم تعاود النطق بكلمة واحدة: إن هي إلَّا قرقرة وغرغرة. ظلَّت على تلك الحال، مصابةً بالفواق، والذعر يسكن عينَيْها، والضنى يأتي عليها، حتى قضَت نحبها خلال بضعة أشهر من فرط الوهن. وإذا الأب يعدِم التحضُّر والطموح والطاقة وعادة الاغتسال. وحين خسر المزرعة الصغيرة من شدة الإهمال، شرع يكسب قوته لبعض الوقت بالعمل على طَوْفٍ، ونقل الركاب والبضائع والحيوانات من إحدى ضفتَي نهر أوايَّاغا إلى الضفة الأخرى. ولكن مياه الفيضان جرفَت الطَوْف ذات يوم إلى الأشجار، فلم يجد من الروح المعنوية ما يسمح بصنع طَوْفٍ سواه، وهكذا توغَّل في المنحدرات الحسّية لذلك الجبل الذي يُطلَق عليه **الجميلة النائمة**، ذي النهدَيْن الخليقَيْن بأمٍّ والردفَيْن الشرهَيْن، وابتنى الأبُّ لنفسه ملاذًا من الأوراق والأغصان، كما أطلق شعره ولحيته،

ومكث هناك أعوامًا، أمضاها في تناول الأعشاب وتدخين الأوراق التي تبعث في الرأس دوارًا. وحين هجر فيديريكو الأدغال، وهو في طور المراهقة، كان المهندس السابق قد اشتهر بلقب المشعوذ في تينغو ماريا، حيث عاش بالقرب من كهف پاباس، وعاشر ثلاث نساء هنديات من أوانوكو أنجبن له أطفالًا بطونهم منتفخة، من أشباه الهمج.

وحده فيديريكو عرف كيف يواجه الكارثة بطريقة إبداعية. نهارَ ذلك اليوم، بعد أن ضُرِب بالسوط لأنه قد ترك أخته وحيدة في الكابينة، أقسم الطفل (الذي بات رجلًا في غضون ساعات) جاثيًا على ركبتَيْه أمام تلك الرقعة المرتفعة من الأرض التي كانت تمثِّل قبر ماريا، مُتعهِّدًا بأنه سوف ينذر نفسه حتى آخر لحظة في حياته للقضاء على تلك السلالة القاتلة. ثم روى التراب الذي يغطِّي الصغيرة بالدم النازف من جروح السياط، مُغلِّظًا بذلك في القسم.

بعد مضي أربعين عامًا، وبينما هو يقطع الجادات بسيارته السيدان حتى يتناول غداءه اليومي البسيط، استطاع دُوُن فيديريكو تِيِّس أونساتيغي - الدليل الحي على أن الشرفاء قادرون على تحريك الجبال - أن يقول لنفسه إنه رجل صادق العهد. فمن المُرجَّح أن يكون عدد القوارض التي نفقَت بفضل عمله وإلهامه أكبر من عدد المواليد في بيرو طوال تلك الفترة. كان عملًا شاقًّا، يقتضي التفاني، ولا يُجزَى المرء عليه، جعله كائنًا صارمًا، بلا أصدقاء، غريب الأطوار. في البدء، وهو لا يزال طفلًا، كان أصعب ما في الأمر أن يتغلَّب على الاشمئزاز من تلك الكائنات الضاربة إلى اللون الرمادي. بدأ باستخدام تقنية بدائية: المصيدة، فاشترى بمصروفه واحدةً من متجر ومخزن النوم العميق القائم بجادة رايموندي، ثم اتَّخذها نموذجًا لصنع مصائد أخرى كثيرة. كان يقطع الأخشاب والأسلاك،

ثم يؤلِّف بينها، وينصبها في نطاق المزرعة مرتين يوميًّا. في بعض الأحيان، كان يجد بعض الحيوانات الصغيرة العالقة في المصائد لا تزال حية، فيجهز عليها بحماسةٍ، على نيران هادئة، أو يذيقها العذاب بطعنها وتشويه أجسادها وفقئ عيونها.

ومع أنه كان في طور الطفولة لم يزَل، فلقد أدرك بذكائه أنه لو استسلم لتلك الأهواء لمُنِي بالإخفاق: إذ كان واجبه كَميًّا، وليس نوعيًّا، فلا يجب عليه أن يذيق وحدات العدو أكبر قدر ممكن من العذاب، بل يجب عليه تدمير أكبر عدد من الوحدات في أقصر وقت ممكن. وبعزم وصفاء ذهن يسترعيان الانتباه في مثل سنِّه، استأصل من نفسه كلَّ أثرٍ للعاطفية، ومضى قدمًا، في مهمة الإبادة الجماعية التي أخذها على عاتقه بمعايير جليدية، إحصائية، علمية. كان يسترق أوقات الدراسة بمدرسة الإخوة الكنديين، وساعات النوم (وإن لم يُضطَرّ إلى استراق أوقات الراحة بين الدروس، لأنه لم يعاود اللعب منذ وقعَت المأساة)، أتقن صنع المصائد، كما أضاف إليها نصلًا يمزِّق جسد الضحية لئلَّا تبقى على قيد الحياة أبدًا (وإن لم يكُن الغرض من ذلك إعفاءها من الألم، بل توفير الوقت الذي يقضيه في الإجهاز عليها). وفي وقت لاحق، صنع مصيدة بالحجم العائلي، مُزوَّدة بقاعدة عريضة وشوكة مُسنَّنة قادرة على سحق الأب والأم وأربعة من صغار الجرذان دفعة واحدة. سرعان ما ذاع خبر أعماله في المنطقة. ومن دون أن يدري، بعد أن اقتصر الأمر على الثأر والكفارة الشخصية، صار خدمةً مجتمعية يتلقَّى عنها الحد الأدنى من الأجر (ولكن الأجر الهزيل أفضل من لا شيء). أصبح الطفل يُستدعَى إلى مزارع مجاورة ومزارع أخرى بعيدة حالما تظهر بوادر الغزو، فيمحو كل أثر للقوارض في أيام قليلة، بمثابرة النملة القادرة على كل شيء. كما بدأ يتلقَّى طلبات من تينغو ماريا لتقديم خدماته

هناك، في الكبائن والبيوت والمكاتب. ونال الطفل لحظة المجد حين عهد إليه قائد الحرس المدني بتطهير قسم الشرطة الذي تعرَّض لاحتلال الجرذان. كان ينفق مكاسبه المالية بالكامل في صنع المصائد الجديدة، للتوسُّع في ما ظنّه الساذجون تجارةً أو انحرافًا. وعندما توغَّل المهندس السابق في «الأدغال الجنسية» في جبل **الجميلة النائمة**، كان فيديريكو الذي هجر المدرسة قد شرع في تعزيز السلاح الأبيض بسلاح آخر أكثر رهافة: السموم.

سمح له العمل بأن يكسب القوت وهو في ذلك العمر الذي يلهو فيه الأطفال بترقيص النحلة الدوَّارة، وإن جعله منبوذًا أيضًا. استدعاه الناس حتى يقتل تلك الكائنات السريعة من أجلهم، غير أنهم لم يُجلِسوه إلى موائدهم ولم يُسمِعوه كلمات المودة قط. لو أنه شقي بذلك، فهو لم يسمح لتلك المشاعر بأن تظهر عليه، بل ويمكن القول إن إحساس مواطنيه بالنفور منه قد أشعره بالإطراء. كان مراهقًا انطوائيًا، قليل الكلام، لا يقدر أحد على الزهو قائلًا إنه قد أضحكه أو رآه يضحك. لم يشغف بأمر سوى القضاء على تلك الكائنات القذرة. كان يتقاضى أجرًا رمزيًّا عن خدماته، زد على ذلك الحملات التي شنّها بالمجان في بيوت الفقراء التي كان يذهب إليها مُحمَّلًا بسلال المصائد وقوارير السموم حالما يبلغه أن العدو قد نصب خيامه هناك. وبخلاف القضاء على تلك الكائنات الرصاصية، بتقنيات ظلَّ الشاب يطوِّرها بلا هوادة، واجهَته مشكلة التخلُّص من الجثث: أشدّ ما كان يثير نفور العائلات وربات البيوت والخادمات. توسَّع فيديريكو في مهمته بتدريب أبله القرية، الأحدب الأحول الذي عاش في دير خادمات القديس يوسف، حتى يلملم بقايا الكائنات المُعذَّبة مقابل الطعام، ثم يحرقها خلف مسرح آباد، أو يقدِّمها وليمةً للكلاب والقطط والخنازير والنسور في تينغو ماريا.

كم مضى منذ ذلك الحين! في إشارة مرور خابيير پرادو، قال دُون فيديريكو تِيِّيس أونساتيغي لنفسه إنه قد شهد تطوُّرًا لا شكّ فيه، منذ كان مراهقًا يجوب شوارع تينغو ماريا الموحلة، ويشنّ الحرب على قَتَلة ماريا بيدَيْه العاريتَيْن، من مطلع الشمس إلى مغربها، وأبله القرية ماضٍ في أثره. كان في تلك الحقبة شابًّا لا يملك إلَّا الثياب التي يرتديها، وليس له إلَّا مساعد واحد. وها هو ذا بعد خمس وثلاثين عامًا يقود مُؤَسَّسةً تقنية-تجارية تمتدّ أذرعها إلى مدن بيرو كافة، وتضمّ خمس عشرة شاحنة وثمانية وسبعين خبيرًا في رشّ المخابئ ومزج السموم ونصب المصائد، يؤدّون مهماتهم في الصفوف الأمامية - شوارع البلد وبيوته وحقوله - وينذرون أنفسهم للتفتيش عن العدو وحصاره وإبادته، ويتلقّون الأوامر والمشورة والدعم اللوجيتسي من فريق أركان الحرب الذي ترأسه بنفسه (التكنوقراطيين الستة الذين غادروا لتناول الغداء منذ قليل). كما شارك في تلك الحملة، فضلًا عن الكوكبة سالفة الذكر، مختبران أبرم دُون فيديريكو معهما عقودًا (أو اتفاقيات يتلقَّى بموجبها المختبران دعمًا ماديًّا، من الناحية العملية)، تنصّ على اختبار سموم جديدة بصفة مُستمِرَّة، مع الأخذ في الحسبان أن العدو يمتلك قدرة إعجازية على اكتساب المناعة: فما هي إلَّا حملتان أو ثلاث حتى تنتهي صلاحية السموم، وتغدو طعامًا شهيًّا لتلك الكائنات التي يجب القضاء عليها. أضف إلى ذلك أن دُون فيديريكو - الذي كان في تلك اللحظة يدفع ذراع نقل الحركة إلى الترس الأول، بعد أن ظهر الضوء الأخضر، وينطلق في طريقه إلى الأحياء المُطِلَّة على البحر - قد رصد منحةً دراسية، تُرسِل بموجبها شركةُ س أ لمكافحة القوارض طالبًا حديث التخرُّج من قسم الكيمياء إلى جامعة باتون روچ كل عام، ليتخصَّص في مبيدات الجرذان.

كان ذلك الغرض على وجه التحديد - أي وضع العلم في خدمة الديانة التي اعتنقها - هو ما حمل دُون فيديريكو تِيِّيس أونساتيغي على الزواج قبل عشرين عامًا، فهو من البشر برغم كل شيء. وذات يوم، بدأت تختمر في رأسه فكرة إنشاء كتيبة ذكور شديدة الإحكام، من دمه وروحه، يسقيهم الشعور بالغضب من تلك الكائنات المُقزِّزة مع حليب الأم، ويوفِّر لهم تربية استثنائية، فيحملون لواء رسالته، وربما تسنَّى لهم الذهاب بها إلى ما وراء حدود الوطن. أما تلك الصورة التي رأى فيها ستة أو سبعة من أبناء آل تِيِّيس وقد حصلوا على شهادات الدكتوراة من جامعات القمة، الأبناء الذين سوف يؤدّون قَسَمَ والدهم ويخلِّدونه، فلقد أفضَت به إلى الاستعانة بوكالة للبحث عن شريك، مع أن دُوُن فيديريكو تِيِّيس أونساتيغي هو الزُّهد في الزواج مُتجسِّدًا. ونظير أجر مفرط الضخامة، وفَّرَت له الوكالةُ زوجةً في الخامسة والعشرين من العمر، ربما لم تكُن ذات جمال باهر، إذ تنقصها بعض الأسنان، ويكتنز اللحم في خصرها وربلتَيْها، شأنها في ذلك شأن سيدات المنطقة التي يسقيها النهر المدعو بذلك الاسم الطنَّان: ريو دي لا پلاتا (نهر الفضَّة). وعلى الرغم من ذلك، فلقد توفَّرت فيها السمات الثلاث التي طالب بها: الصحة الموفورة، وغشاء البكارة السليم الذي لم يُمَسّ، والقدرة على الإنجاب.

كانت دونيا سويلا سارابيا دوران، ابنة منطقة أوانوكو، سليلةَ عائلة انحدرَت من أرستقراطية الأقاليم إلى ما دون بروليتاريا العاصمة، في لعبة من ألعاب الحياة التي تلهو صعودًا وهبوطًا. تعلَّمَت بالمدرسة الخيرية التي كانت تنفق عليها راهبات الساليزيان - بواعز من الضمير أم لأغراض دعائية؟ - المجاورة لمدرستهن مدفوعة الأجر، فكبرَت وفي نفسها العقدة الأرجنتينية، شأن سائر الزميلات، تلك العقدة التي تُرجِمَت في حالتها إلى وداعة، وسكوت، وشهية

مفتوحة. أمضَت حياتها في العمل مُشرِفةً بمدرسة راهبات الساليزيان، فتفاقم شعورها الذليل بعدم الأمان بسبب مكانتها المبهمة غير المُحدَّدة - هل كانت خادمة، أم عاملة، أم مُوظَّفة؟ - ذلك الشعور الذي جعلها تومئ برأسها وتهزّها كالأغنام ردًّا كل شيء. تيتَّمَت وهي في سن الرابعة والعشرين، فتجرَّأت على الذهاب إلى وكالة البحث عن شريك، بعد شكوك مُتأجِّجة، فأوصلَتها الوكالة بالرجل الذي سيكون سيدها. أما افتقار الزوجَيْن إلى الخبرة الإيروتيكية، فقضى بأن تتمّ طقوس الزواج ببطء شديد، حتى وكأنه مسلسل تتعاقب حلقاته ويزيد فيه التشويق، بين البدايات الفاشلة، والإخفاقات الناجمة عن الانتهاء قبل الأوان وعدم الدقة في التصويب والانحراف عن المسار. وهكذا بقي غشاء البكارة العنيد على حاله، منيعًا على الفضّ. وللمفارقة، فقدَت دونيا سويلا عذريتها أول ما فقدَتها بطريقة مُخالِفة، علمًا أنهما زوجان فاضلان، يمكن القول إنها فقدَت عذريتها من الخلف (وإن لم يكُن السبب في ذلك آفة أخلاقية، بل المصادفة الغبية، ونقص خبرة الزوجَيْن).

وبغضّ النظر عن تلك الحادثة الكريهة العارضة، كانت حياة الزوجَيْن في غاية الاستقامة، فدونيا سويلا زوجة مجتهدة ومُدبِّرة، عقدَت العزم على مراعاة مبادئ الزوج (تلك التي قد يسمِّيها البعض غرابة أطوار). على سبيل المثال، لم يحدث قطّ أن اعترضَت على حظر استخدام المياه الساخنة الذي فرضه الزوج (زعمًا منه بأنها تصيب الإرادة بالخدر وتُسبِّب الزكام)، مع أن دونيا سويلا ما زالت، بعد عشرين عامًا، تصطبغ باللون الأرجواني كلّما اغتسلَت. كما لم تحتجّ يومًا على ذلك البند (المحفوظ عن ظهر قلب، وإن لم يأتِ ذكره نصًّا) من بنود القانون العائلي، الذي يقضي بألَّا ينام أحدٌ في البيت أطول من خمس ساعات، كيلا يستحوذ عليه الخمول، حتى

وإن ارتجف الزجاج من شدة تثاؤبهم الذي يليق بالتماسيح عندما يدقّ المنبه في الخامسة من فجر كل يوم. مغلوبةً على أمرها، قبلَت الزوجة حظر السينما والرقص والمسرح والراديو من وسائل الترفيه العائلية، لأنها تخلُّ بالأخلاق الروحية. كما حُظِرَت المطاعم والرحلات وأي بهرجة في زينة الجسد أو البيت، لأنها تمثِّل عبئًا ثقيلًا على الميزانية. لم تعجز الزوجة عن الامتثال لربِّ البيت إلَّا في خطيئتها: الشراهة. فكثُر إدراج اللحوم والأسماك والحلوى الغنية بالكْريم في قائمة الطعامِ. في ذلك الجانب وحسب من جوانب الحياة، عجز دُوُن فيديريكو تِيِّيس أونساتيغي عن فرض إرادته، ولم يتمكَّن من فرض حمية نباتية صارمة.

ولكن دونيا سويلا لم تحاول قطّ الانغماس في آفتها سرًّا، من وراء زوجها الذي كان في تلك اللحظات يدخل إلى حيّ ميرافلوريس الحيوي بسيارته السيدان، ويقول في نفسه إن أمانة زوجته جعلَت خطيئتها أخفّ وطأةً، حتى وإن لم تعفِها منها. كانت، متى اشتدّ احتياجها وصار أقوى من روحها المطيعة، تلتهم شريحة من اللحم بالبصل أو سمكة قاروس بالفلفل الحريف أو كعكة تفاح بالكْريم شانتي، على مرأى ومسمع منه، وقد تضرَّجَت من شدة الخجل، وسلَّمَت بالعقاب الملائم سلفًا. لم تحتجّ على العقوبة قطّ، فلو حظر عليها دُوُن فيديريكو الكلام ثلاثة أيام (بسبب شواء أو لوح من الشكولاتة)، كانت تضع الكمامة على فمها بنفسها، لئلَّا تعصى أمره ولا حتى في الأحلام. أما لو حكم عليها بعشرين ضربة على ردفَيْها، فكانت تسارع بحلّ المِشدّة وتحضير عود الخيزران بنفسها.

«ولكن لا»، هكذا فكَّر دُوُن فيديريكو تِيِّيس أونساتيغي، قائلًا لنفسه إن دونيا سويلا لم تخدعه برغم كل شيء، بينما راح يلقي نظرة ساهمة إلى المحيط الهادي، بلونه الرمادي (الذي يمقته)، المحيط

المترامي وراء كاسر أمواج ميرافلوريس الذي وصلَت إليه السيارة السيدان للتو. أما الإخفاق الأعظم في حياته، فكان يتمثَّل في أبنائه. شتَّان بين طلائع أُمَراء الإبادة البواسل الذين حلم بهم، وبين الورثة الأربعة الذين ابتلاه بهم الرَّبُ والزوجةُ الشرهة.

مبدئيًا، لم ينجب سوى ذكرَيْن. الأمر الذي نزل عليه كالضربة الشديدة غير المُتوقَّعة. إذ لم يخطر على باله يومًا أن دونيا سويلا قد تلد إناثًا. كانت الأنثى الأولى مصدر إحباط، شيئًا قد يعزوه المرء إلى المصادفة. ولكن الحمل الرابع أيضًا أسفر عن كائن خلا جسده من القضيب والخصيتَيْن. ذعر دُوُن فيديريكو من احتمال الاستمرار في إنجاب كائنات غير مكتملة، فوضع حدًّا صارمًا لكل نزوة قد تفضي إلى مزيد من الأبناء (ومن أجل هذا، استبدل بفراش الزوجية سريرَيْن كلاهما لفردٍ واحد). لم يكره النساء، ولكن، بأي شيء قد يستفيد من النساء اللاتي يُعَدّ أفضل ملكاتهن الجماعُ والطهو؟ علمًا أنه ليس بالرجل الشره إلى الجماع ولا إلى الطعام. لم يكُن للإنجاب عنده سبب آخر سوى تخليد الحملة التي أطلقها، فتبخَّرت تلك الآمال بمجيئ تيريسا ولاورا، إذ لم يكُن دُوُن فيديريكو واحدًا من أولئك العصريين الذين يقولون بأن للمرأة عقلًا - فضلًا عن الفرج - وبأنها قادرة على العمل مع الرجل ندًّا لندّ. ومن جهة أخرى، استحوذ عليه القلق خشية أن يتمرَّغ اسمه في الوحل. ألم تردِّد الإحصائيات إلى حدّ السأم أن خمسة وتسعين بالمئة من النساء كُنّ أو ما زلن أو سوف يكنّ من العاهرات؟ وحتى يضمن لابنتَيْه مكانًا وسط الخمسة بالمئة من النساء الفاضلات، رتَّب دُوُن فيديريكو حياتهما طبقًا لنظام صارم: فُرِضَت بموجبه الجوارب الداكنة والأقمصة والكنزات ذات الأكمام الطويلة صيفًا وشتاءً، كما حُظِرَت الثياب مكشوفة الصدر تمامًا، وكذلك طلاء الأظافر والشفاه، كما حُظِر

تزيين العينَيْن والخدَّيْن وإطلاق خصلة الشعر الأمامية وصنع الضفائر وضمّ الشعر على شكل ذيل الحصان، وكل ما يندرج تحد بند الطعوم المُستخدَمة في اصطياد الذكور. كما حُظِرَت ممارسة الرياضة ووسائل الترفيه التي تنطوي على القرب من الرجال، كالذهاب إلى الشاطئ أو حضور حفلات أعياد الميلاد. أما عقاب المخالفة، فلطالما كان جسديًّا.

ولكن اقتحام ذريته من قبل العنصر الأنثوي لم يكُن هو الشيء الوحيد الذي ثبَّط همته. إذ لم يرث الولدان - ريكاردو وفيديريكو الابن - مزايا الأب. كان كلاهما رخوًا، كسولًا، يعشق الأنشطة العقيمة (كمضغ العلك ولعب كرة القدم). لم يبديا أدنى قدر من الحماسة لمَّا أخبرهما دُون فيديريكو بالمستقبل الذي ادَّخره من أجلهما. كان يحملهما على العمل برفقة محاربي الصفّ الأول خلال الإجازات حتى يدرِّبهما على المهنة، فيبديان تراخيًا، ويذهبان إلى ساحة القتال والاشمئزاز بادٍ عليهما بصورة ملحوظة. بل إنه باغتهما ذات مرة وهما يتهامسان بأمور بذيئة عن العمل الذي أفنى فيه حياته، ويعترفان بأنهما يشعران بالخجل من والدهما، فحلق رأسَيْهما كالمُتَّهمين، طبعًا، العقاب الذي لم يخفِّف الشعور بالخيانة الذي تركه ذلك الحديث المُتآمِر في نفسه. والآن لم يعُد دُون فيديريكو يمنِّي النفس بالآمال الواهية، علمًا منه أنه ما إن يقضي نحبه أو يصاب بالعجز تحت وطأة الأعوام حتى يبتعد ريكاردو وفيديريكو الابن عن الدرب الذي رسمه من أجلهما، فيبدِّلان عملهما (ويختاران بدلًا منه عملًا آخر، سعيًا وراء المغريات الربحية)، فيبقى صنع يدَيْه غير مكتمل (مثل إحدى السيمفونيات الشهيرة).

وفي تلك الثانية على وجه التحديد، من سوء حظِّه البدني والنفسي، وقع بصر دُون فيديريكو تِيِّيس أونساتيغي على المجلة التي

دسّها بائع الجرائد من خلال نافذة السيارة السيدان، فرأى الغلاف بألوانه التي التمعَت آثمةً في شمس النهار. ارتسمَت على وجهه أمارات الكدر عندما تنبَّه إلى صورة الغلاف التي أظهرَت شاطئًا وسابحتَيْن في نسخة زائفة من ثياب البحر، تجرؤ على ارتدائها عاهرات بعينهن، وإذا هو يحسّ بما يشبه التمزُّق في العصب البصري، ويفغر فمه كالذئب إذا انطلق في العواء لمرأى القمر، حين تعرَّف السابحتَيْن المُتعرِّيتَيْن الضاحكتَيْن في مجون. تملَّكه رعبٌ يكاد يضاهي شعوره في ذلك الفَجْر الأمازوني البعيد، على ضفاف نهر بيندينسيا، حين تبيَّن هيكل شقيقته المتناثر في المهد الذي صبغَته فضلات الجرذان باللون الأسود. تبدَّل ضوء إشارة المرور إلى الأخضر، ومضَت السيارات التي اصطفَّت خلفه تطلِق أبواق التنبيه.

بيدَيْن مرتبكتَيْن، أبرز حافظته ليدفع ثمن المنشور الإباحي. ثم انطلق بالسيارة، وضغط المكابح ليوقف السيارة بحذاء الرصيف وقد تملَّكه شعور بأنه على وشك الاصطدام، إذ انسلّ المقود من بين يدَيْه وترنَّحت السيارة بشدة.

وهناك، مضى يراقب ذلك الدليل المُروِّع لدقائق طوال، بينما هو يرتجف مُشوَّشًا. لم يبقَ لديه مُتَّسع للشك: فهما ابنتاه. لا بدّ أن مُصوِّرًا مبتذلًا قد التقط صورتهما وهما لا تدريان، مُتخفِّيًا وسط السابحين، إذ لم تكُن الصبيتان تنظران إلى الكاميرا، وإنما ظهر عليهما الاستغراق في الحديث، واستلقَت كلتاهما على رمال الشهوة التي ربما كانت رمال شاطئ آغوا دولسي أو لا إرَّادورا. أخذ دُوُن فيديريكو يستردّ أنفاسه رويدًا رويدًا. وفي غمرة الذهول، استطاع أن يفكِّر في تلك السلسلة المدهشة من المصادفات: بدءًا بالمُصوِّر الجائل الذي أوقع بلاورا وتيريسا في صورة، مرورًا بالمجلة الوضيعة التي فضحَتهما أمام العالَم العفِن، وصولًا إليه هو الذي كشف أمرهما

بنفسه... وإذا الحقيقة المرعبة تتجلّى أمام عينَيْه، بفعل القدر. إذن، فابنتاه لا تمتثلان لأوامره ما لم يكُن حاضرًا. إذن، فهما تستهزئان بأوامره حالما يوليهما ظهره، وتذهبان إلى الشاطئ وتتعرَّيان وتكشفان جسدَيْهما، بتواطؤ الشقيقَيْن، و... آه! - أحسَّ دُون فيديريكو بسهم يصيب قلبه - وتواطؤ زوجته نفسها! بلَّلَت الدموع وجهه. ألقى نظرة فاحصة على ثياب السباحة: فوجدها مُؤلَّفة من قطعتَيْن في منتهى الدقَّة، لم يكُن الغرض منهما ستر أي شيء، وإنما دفع المخيلة إلى أقصى غايات الرذيلة. ها هما لاورا وتيريسا، في متناول أي شخص، وقد كشفَت كلٌّ منهما عن: ساقَيْها وذراعَيْها وبطنها وكتفَيْها وعنقها. شَعَر بسخفٍ لا يوصف، وتذكَّر أنه لم يرَ بعينَيْه قطّ هذه الأطراف والمواضع التي صارت الآن مكشوفةً أمام الكَوْن بأسره.

جفَّف عينَيْه، ثم عاود تشغيل المُحرِّك بعد أن هدأ هدوءًا سطحيًّا، وإن ظلَّ موقد النار يهدر في أحشائه. وبينما مضَت السيارة السيدان ببطء شديد إلى البيت القائم بجادة پِدرو دي أوسما، راح يقول لنفسه إنه من الطبيعي أن تتردَّد ابنتاه إلى الحفلات في غيابه أيضًا، وترتديا السراويل، وتتعرفا بالرجال، وتبيعا نفسَيْهما، الآن وقد ثبت أنهما تذهبان إلى الشاطئ عاريتَيْن. أتراهما تستقبلان الرجال في بيته؟ أتكون دونيا سويلا هي المُكلَّفة بتحديد الأسعار وتقاضي الثمن؟ الأرجح أن ريكاردو وفيديريكو الابن قد تولَّيا تلك المهمة القذرة، مهمة البحث عن الزبائن. وبأنفاس منقطعة، رأى دُون فيديريكو تِيِّيس أونساتيغي ذلك الفريق المشؤوم وقد وُزِّعَت الأدوار على أفراده كما يلي: الابنتان عاهرتان، والابنان كلاهما سمسار بغاء، والزوجة قوَّادة.

كانت معايشة العنف بصفة يوميّة - علمًا أنه قد أودى بحياة آلاف مُؤلَّفة من الكائنات الحية، برغم كل شيء - قد جعلَت من

دُوُن فيديريكو رجلًا لا يمكن استفزازه إلّا وترتَّب على ذلك خطر شديد. ذات مرة، تجرَّأ مهندس زراعي يدَّعي بأنه خبير غذائي، وقال في حضوره إن الضرورة تقتضي التوسُّع في تربية قوارض الكابياء واعتمادها مصدرًا للغذاء في البلد، نظرًا إلى نقص أعداد الأغنام في بيرو. فما كان من دُوُن فيديريكو تِيِّس أونساتيغي إلّا أن خاطب المُتطاوِل بنبرة مُهذَّبة، مُذكِّرًا إياه بأن الكابياء والجرذان بنات عمومة من الدرجة الأولى. فعاد الرجل إلى ما اقترف مرة أخرى، مُستشهِدًا بالإحصائيات، مُتكلِّمًا عن فوائد الكابياء الغذائية ولحومها الشهية. وإذا بدُوُن فيديريكو ينهال عليه صفعًا، وينعته بأنه وقح يروِّج للقتلة، بينما الخبير الغذائي يتدحرج على الأرض مُتحسِّسًا وجهه. والآن، بينما هو يترجَّل عن السيارة، ويوصد بابها، ماضيًا في غير استعجال، عاقد الحاجبَيْن، ممتقعًا بشدة، ذاهبًا إلى باب البيت، أحسّ رجل تينغو ماريا بالحمم البركانية تتصاعد في جوفه، كما جرى يومَ أنزل عقابه بالخبير الغذائي. أمسك في يمينه بالمجلة الجهنمية، وكأنها قضيب ملتهب من الفولاذ، كما أحسّ بحكة شديدة في عينَيْه.

بلغ منه الكدر مبلغًا شديدًا، حتى لم يستطِع أن يتخيَّل عقابًا يضاهي الجريمة في الشدة. أحسَّ بذهنه مُشوَّشًا، وانصهرَت الأفكار تحت وطأة الغضب العارم، ما زاده مرارةً على مرارة، فلطالما كان دُوُن فيديريكو رجلًا يتصرَّف بعقله، ويزدري سلالة الكائنات الهمجية التي تتصرَّف كالبهائم، مدفوعة بالحدس والغريزة، وليس عن اقتناع. غير أنه، في تلك المرة، بينما هو يبرز المفتاح بمشقة، ويفتح باب البيت ويدفعه بأصابع مرتبكة من شدة الغضب، أدرك أنه لا يملك التصرُّف بهدوء، ولا بطريقة محسوبة، بل إنه صار مدفوعًا بالغضب وإلهام اللحظة. أوصد الباب، وتنفَّس عميقًا، مُحاوِلًا أن يهدِّئ من

روعه، ثم تملكه الخزي علمًا منه أن أولئك الجاحدين سوف يدركون فداحة شعوره بالمذلة.

كان الطابق الأرضي من بيته يضمّ بهوًا وصالة كليهما صغير، فضلًا عن حجرة الطعام والمطبخ، بينما كانت حجرات النوم في الطابق العلوي. تبيَّن دُوُن فيديريكو زوجته من رواق الصالة، ورآها على مقربة من الصوان، حيث راحت تمضغ الحلوى المُقزِّزة في نشوة، فكَّر دُوُن فيديريكو أنها ربما تكون الشكولاتة أو الكراميل أو البونبون أو الطوفي الذي ما زالت بقاياه عالقةً بأصابعها. رأته، فابتسمَت له بعينَيْن تتجلَّى فيهما الرهبة، وأشارت إلى ما تأكله بلفتةِ تسليم دبقة.

تقدَّم دُوُن فيديريكو في غير استعجال، فاردًا المجلة بكلتا يدَيْه، حتى يتسنَّى لزوجته أن تتأمَّل الغلاف بكل ما فيه من خِسَّة. وضعه أمام عينَيْها، ولم يتفوَّه بكلمة واحدة، مُتلذِّذًا برؤيتها وهي تمتقع بشدة، وقد أوشكَت عيناها على الخروج من محجرَيْهما، بينما انفرج فمها وبدأ يسيل منه خيط رفيع من ريقها المُلوَّث بالحلوى. رفع رجل تينغو ماريا يمينه، وصفع زوجته المرتجفة بكل ما أوتي من قوة، فأطلقَت آهة، وتعثَّرَت، وخرَّت على ركبتَيْها. ظلَّت ترنو إلى الغلاف وقد بدَت عليها أمارات الورع والتنوير الروحاني. أما دُوُن فيديريكو، الذي انتصب فارع القوام، مُتصلِّبًا، صارمًا، فمضى يتأمَّلها بنظرة مفعمة بالاتهام. ثم نادى المذنبتَيْن بجفاء:

- «لاورا! تيريسا!».

التفت على وقع الصوت الذي تناهى إليه، فوجدهما هناك، أسفل الدَّرَج. لم يسمعهما وهما تنزلان. جاءت الكبرى، تيريسا، وهي ترتدي البالطو، كما لو كانت تنظِّف المكان. بينما أقبلَت لاورا بالزي المدرسي. في حيرة، نظرَت الفتاتان إلى الأم الجاثية على

ركبتَيْها، وإلى الأب الذي تقدَّم نحوهما، ببطء، ووقار، وكأنه الكاهن الأعلى في طريقه إلى حجر القرابين، حيث ينتظره كلٌّ من السكين وحارسة المعبد. وأخيرًا، نظرتا إلى المجلة التي وضعها دُوُن فيديريكو على مرأى منهما، مُتَّهِمًا، وهو يدنو منهما. لم تأتِ ابنتاه بردة الفعل التي كان يتوقَّعها، فبدلًا من الشحوب والسجود على الأرض والتلعثم بالمُبرِّرات، تبادلَت الفتاتان اللتان نضجَتا قبل الأوان نظرةً سريعة، لا يمكن إلَّا أن تكون نظرة تواطؤ، واحمرّ وجه كلٍّ منهما. وبينما هو في قاع الأسى والغضب، قال دُوُن فيديريكو في نفسه إن كأس المرارة التي فُرِض عليه أن يتجرَّعها اليوم ما زالت لم تنفد بعد. كانت لاورا وتيريسا **على دراية** بأن صورتهما قد التُقِطَت فعلًا، وبأنها سوف تُنشَر، بل إنهما سعيدتان بذلك (وإلَّا، فبمَ يشي البريق البادي في الأحداق؟). اكتشف أن بيته، الذي حسبه طاهرًا، قد احضتن رذيلة التعرِّي على الشطآن، والأفعال الفاضحة في الطرق العامة (ولمَ لا يكون وكرًا للهوس الجنسي أيضًا!)، فتراخَت عضلاته، وأحسّ بمذاق الكلس في فمه، حتى ذهب إلى حدّ التساؤل إن كان للحياة ما يُبرِّرها. ومع أن الأمر لم يستغرق أطول من ثانية واحدة، فلقد وصل إلى حدّ التساؤل إن لم تكُن الكفارة الوحيدة المشروعة لأهوال من هذا القبيل هي الموت. لم تعذِّبه فكرة قتل ابنتَيْه بقدر ما عذَّبه العلم بأنّ آلافًا من البشر قد أجالوا عيونهم (عيونهم وحسب؟) في المواضع الحميمية من جسدَي ابنتَيْه.

عند ذاك، انتقل إلى الأعمال، فترك المجلة تسقط على الأرض ليتحرَّك بقدر أكبر من الحرية، وأمسك ثيابَ لاورا المدرسية بيساره، ثم قرَّبها إليه بضعة سنتيمترات ليضعها في نطاق الضربة، ورفع يمينه بالقدر الكافي لتصيبها الضربة بأقصى قوة ممكنة، ثم انهال عليها بكل ما أوتي من حقد. وإذا هو أمام ثانيةِ المفاجآت الهائلة - يا له من يوم

عجيب! - التي ربما كانت أشدّ وطأةً من مفاجأة الغلاف البذيء: فبدلًا من خدِّ لاوريتا الناعم، لم تجد يدُه سوى الفراغ، فأصيبَت بالتواء، في هزلٍ وإخفاق. لم يكُن هذا كل شيء: بل إن الأسوأ جاء لاحقًا. إذ لم تقنع الفتاة الصغيرة بتفادي الصفعة - الشيء الذي لم يسبق لأحدٍ من أفراد أسرته أن أقدم عليه قطّ، كما تذكَّر دُوُن فيديريكو وهو في غمرة الشعور الهائل بالجزع - بل إنها تراجعَت إلى الخلف وقد انقبض وجهها الصغير البالغ من العمر أربعة عشر عامًا، بما ارتسم عليه من أمارات الكراهية، وإذا هي تنقضّ على أبيها - تنقضّ عليه هو... هو! - وتضربه بقبضتَيْها، وتخدشه، وتدفعه، وتركله.

تملَّكه شعورٌ بأن دماءه قد توقَّفَت عن الجريان من فرط الذهول المحض. وكأنما الكواكب قد هربَت من مساراتها، فتدافعَت وتصادمَت وتحطَّمَت وتناثرَت محمومةً عَبْر الفضاءات. لم يسعفه الوقت ليأتي بردة فعل، بل إنه مضى يتراجع، وقد اتَّسعَت عيناه بشدة، بينما راحت الفتاة الصغيرة تلاحقه، وتتزوَّد بالشجاعة، وتصبّ جام غضبها. لم تكتفِ الآن بضربه، بل إنها راحت تصرخ فيه أيضًا: «ملعون أنت، أيها المؤذي، أكرهك، مُتْ، اذهبْ إلى الأبد». حسب أنه قد فقد عقله، وإذا هو ينتبه إلى تيريسا التي جاءت مهرولة إليه، غير أنها، بدلًا من صدّ شقيقتها عما هي فاعلة، طفقَت تمدّ لها يد العون. جرى كل شيء بسرعة بالغة، حتى كان كلّما أدرك ما يحدث، تبدَّل الوضع في الحال. والآن، ها هي ابنته الكبرى تعتدي عليه، وتزمجر بالسباب الأشدّ بغضًا - «بخيل، غبي، مخبول، مُقزِّز، مُستبِدّ، مجنون، صائد جرذان!» - وبسخطهما المراهق، حاصرتاه في أحد الأركان. بدأ يدافع عن نفسه، ويخرج أخيرًا من تلك الدهشة التي شلَّت أطرافه، محاولًا تغطية وجهه، وإذا هو يحسّ

بوخزة في ظهره. التفت: فوجد دونيا سويلا قد نهضَت وأنشبَت فيه أسنانها.

وبرغم كل شيء، وجد في نفسه القدرة على الاندهاش حين أدرك أن زوجته قد شهدَت تحوّلًا أقوى من ذلك الذي شهدَته ابنتاه.

هل كانت دونيا سويلا - الزوجة التي لم يحدث في أي وقت أن صدرَت منها شكوى أو ارتفع صوتها أو تعكَّر مزاجها - هي نفسها الكائن صاحب العينَيْن الجامحتَيْن واليدَيْن الوحشيتَيْن الذي انهال على رأسه باللكمات والضربات والبصاق، ومزَّق قميصه، وصرخ في جنون قائلًا: «هيا نقتله، وننتقم منه، ونجعله يختنق بهواجسه، اقتلعا عينَيْه»؟ انطلقَت ثلاثتهن في العواء، فخطر لدُون فيديريكو أن الصراخ قد مزَّق طبلة أذنه. دافع عن نفسه بكل ما أوتي من قوة، وحاول ردّ الضربات بمثلها، فلم يتسنَّ له ذلك، إذ تناوبن على تكبيل ذراعَيْه اثنتين اثنتين، بينما كانت الثالثة توسعه ضربًا (هل وضعن في حيز التنفيذ تقنيةً سبق أن تدرَّبن عليها غدرًا؟). أحسَّ بحرقة وتورُّم وألم ثاقب، ورأى النجوم في أوج الظهيرة. وإذا هو يكتشف أنه ينزف حين رأى بقع دماء صغيرة على أيدي المعتديات. لم يمنِّ النفس بالآمال حين رأى ريكاردو وفيديريكو الابن يُطِلّان من فوَّهة الدَّرَج، وهو الذي تحوَّل إلى شخصٍ كثير الارتياب في لحظات قليلة. عرف أنهما قد حضرا للانضمام إلى المعتديات، وتسديد الطعنة القاتلة إليه. مرعوبًا، فاقد الكرامة والشرف، لم يفكِّر إلَّا في بلوغ الباب المفضي إلى الشارع، والفرار، فلم يكُن ذلك بالأمر اليسير. تمكَّن من القفز مرتين أو ثلاثًا قبل أن تصيبه عرقلةٌ جعلَته يتدحرج على الأرض بشدة. وهناك، بينما هو منكمش على نفسه ليحمي رجولته، رأى وريثَيْه ينقضَّان على إنسانيته بركلات مُتوحِّشة، بينما تسلَّحت زوجته وابنتاه بالمكنسة ومنفضة الغبار ومِسعار المدفأة للاستمرار في

ضربه. وقبل أن يقول لنفسه إنه ما عاد يفهم شيئًا سوى أن العالَم قد غرق في العبث، أسعفه الوقت لسماع ابنَيْه وهما ينعتانه بالمهووس، البخيل، القذر، صائد الجرذان، على وقع الركلات التي سدَّداها إليه. وبينما هو يغرق في الظلام، برز فأرٌ أبيض الأنياب، رمادي اللون، صغير، دخيل، مُباغِت، خرج من ثغرة صغيرة خفية في ركنٍ بحجرة الطعام، فمضى يتأمَّل الرجلَ الساقط وبريق السخرية يتجلَّى في عينَيْه المفعمتَيْن بالحيوية...

هل مات دُوُن فيديريكو تِيِّيس أونساتيغي، جلَّاد قوارض بيرو الذي لا يهاب شيئًا؟ هل قتل الأبناء والدهم أم أنه سقط مغشيًا عليه وحسب، ذلك الزوج والأب الذي استلقى وسط فوضى منقطعة النظير، تحت الطاولة، في حجرة الطعام، بينما انطلق أفراد أسرته يهجرون البيت في جذل، بعد أن حزموا حوائجهم على وجه السرعة؟ كيف تنتهي تلك القصة التي وقعَت في بارَّانكو؟



٩

أورثني الإخفاق الذي مُنِيَت به قصتي عن دوروتيو مارتي شعورًا بخمود الهمة لبضعة أيام. ولكني شعرتُ بالنداء الأدبي يعود إلى الحياة نهارَ ذلك اليوم الذي سمعتُ فيه پاسكوال يخبر پابليتو الكبير بالاكتشاف الذي انتهى إليه في المطار، وبدأتُ أضع مُخطَّطًا لكتابة قصة جديدة. باغت پاسكوال عددًا من الصبية الأشقياء وهم يمارسون رياضة خطيرة مثيرة، إذ كانوا يستلقون على الأرض، في أقصى طرف مدرج الإقلاع بمطار ليماتامبو، عندما يخيِّم الظلام. وأقسم پاسكوال إنهم، كلّما أقلعَت طائرة، كانوا يرتفعون بضعة سنتيمترات عن الأرض، ويسبحون في الهواء بتأثير من الضغط الناشئ عن الإقلاع، وكأنهم في عرض من عروض السحر، ثم يعودون إلى الأرض بغتةً، بعد أن يتلاشى الأثر الذي تركَته الطائرة. في تلك الأيام، شاهدتُ فيلمًا مكسيكيًّا أثار حماستي بعنوان: **المنسيون** (لم أدرِ أنه للمُخرِج بونيويل، ولا مَن هو بونيويل، إلَّا بعد مضي أعوام). وهكذا اتَّخذتُ قراري بأن أكتب قصة بالروح نفسها: قصة «أطفال رجال»، ذئاب صغار، جعلَتهم الحياة القاسية في الضواحي أكثر صلابةً. أبدى خابيير ارتيابًا، وأكَّد لي أن تلك الحكاية الطريفة زائفة، وأن ضغط الهواء الذي تثيره الطائرات لا يكفي لرفع طفل حديث ولادة في الهواء. تجادلنا، فقلتُ له إن شخوص قصتي يسبحون في الهواء،

ولكنها تظلّ قصة واقعية، (فمضى يصيح: «بل فانتازية»). وفي النهاية، اتفقنا على الذهاب ذات ليلة إلى الأراضي الخلاء في كورپاك برفقة پاسكوال حتى نتأكَّد مما تنطوي عليه من حقائق وأكاذيب تلك الألعاب الخطيرة (وذلك هو العنوان الذي اخترتُه للقصة).

لم أكُن قد رأيتُ الخالة خوليا يومذاك، وإن توقَّعتُ لقاءها يوم الخميس التالي في بيت الخال لوتشو. غير أنني لم أجدها حين وصلتُ إلى بيت أرمينداريس ظهيرةَ ذلك اليوم حتى أنضمّ إلى الغداء المعهود. أخبرَتني زوجة خالي أولغا بأن **شخصًا ملائمًا** قد دعاها إلى الغداء: دكتور غيِّيرمو أوسوريس، الطبيب الذي تجمعه بالعائلة صلة قرابة مبهمة. كان رجلًا خمسينيًّا، حسن المظهر، على قدرٍ من الثراء، ترمَّل منذ زمن غير بعيد.

- «شخص ملائم»، كرَّرَت زوجة خالي أولغا وهي تغمز لي بعينها. «جاد، ثري، وسيم، ليس له سوى ابنان كبرا بالفعل. أليس هو الزوج الذي تحتاج إليه شقيقتي؟».

- «في الأسابيع الأخيرة، أهدرَت وقتها سدى»، عقَّب الخال لوتشو، وقد بدا عليه شعور غامر بالرضى هو أيضًا. «لم ترغب في مواعدة أحد، وعاشت حياة العانس. ولكنها استلطفَت طبيب الغدد الصماء».

شعرتُ بغيرة أفقدَتني شهيتي، وصار مزاجي عكرًا مريرًا، فتراءى لي أن خالي وزوجته قد يحدسان بما كان من أمري بسبب الانزعاج الذي استحوذ عليّ. لم تكُن بي حاجة إلى الاحتيال كي أستطلع المزيد من التفاصيل بشأن الخالة خوليا ودكتور أوسوريس، لأن خالي وزوجته لم يتحدَّثا عن سواهما. تعرَّفَت إليه منذ قرابة عشرة أيام، في حفل كوكتيل بسفارة بوليفيا. عرف دكتور أوسوريس أين

تقيم، فجاء لزيارتها. أرسل إليها أزهارًا، واتَّصل بها عَبْر التليفون، ثم دعاها إلى تناول الشاي في بوليفار، كما دعاها الآن إلى الغداء بنادي أونيون. كان طبيب الغدد الصماء قد مازح الخال لوتشو قائلًا:

- «إن نسيبتك امرأة من الطراز الأول يا لويس، أتراها المُرشَّحة التي أبحث عنها حتى «أنتحر زواجًا» للمرة الثانية؟».

حاولتُ أن أبدي عدم الاهتمام، ولكني فشلتُ في ذلك فشلًا ذريعًا، فسألني الخال لوتشو عما بي، في تلك اللحظة، عندما بقينا وحدنا: هل دسستُ أنفي حيث لا ينبغي وأُصِبتُ بالسيلان؟ من حسن الحظّ أن زوجة خالي أولغا شرعَت في الحديث عن المسلسلات الإذاعية، فأمهلَتني بذلك فرصة حتى ألتقط أنفاسي. مضَت تقول إن بِدرو كاماتشو يبالغ في التمادي أحيانًا وإن جميع صديقاتها وجدن قصة الراعي الذي بتر نفسه بسكين فتح الرسائل أمام القاضي حتى يثبت براءته من اغتصاب الفتاة ضربًا من الشطط. أما أنا، فرحتُ أتنقَّل من الغضب إلى الإحباط، ومن الإحباط إلى الغضب، في صمت. لماذا لم تقُل لي الخالة خوليا كلمة واحدة بشأن الطبيب؟ لم تأتِ على ذكره قط، مع أننا التقينا عدة مرات في الأيام العشرة الأخيرة. أصحيح أنها قد اهتمَّت بأحدهم أخيرًا، حسبما قالت زوجة خالي أولغا؟

على متن سيارة الأجرة المشتركة، وأنا في طريق العودة إلى راديو بانامريكانا، تبدَّلَت حالي من الشعور بالمهانة إلى الغطرسة، بقفزة واحدة. لقد استمرَّت علاقتنا الغرامية طويلًا، ولذا فربما انكشف ما بيننا في أي لحظة، الأمر الذي من شأنه أن يغدو مثارًا للسخرية ويفجِّر فضيحة في إطار العائلة. وبخلاف ذلك، ماذا أنا فاعل بإهدار الوقت مع سيدة تكاد تكون في عمر أمي، على حدّ قولها؟ أما باعتبارها تجربة، فلقد نلتُ كفايتي منها. بل إن دكتور

أوسوريس قد جاء مُرسَلًا من العناية الإلهية كيلا أُضطَرّ إلى التخلُّص من البوليفية؟ شعرتُ بالجزع، وراودَتني نزوات غير معهودة من قبيل الرغبة في السُّكْر أو التعدِّي على أحدهم ضربًا. وفي مقرّ الراديو، وقع شجار بيني وبين پاسكوال الذي أفرد نصف نشرة أخبار الثالثة لحريق شبّ في هامبورغ وأدَّى إلى تفحُّم دزينة من المهاجرين الأتراك، مخلصًا لطبيعته التي جُبِل عليها، فحظرتُ عليه أن يدرج المزيد من أخبار القتلى في المستقبل ما لم أوافق عليها بنفسي. زد على ذلك أنني عاملتُ أحد زملائي في جامعة سان ماركوس بجفاء حين اتَّصل يذكِّرني بأن الكلية ما زالت قائمة على قيد الوجود وينبِّهني إلى امتحان قانون المرافعات الذي ينتظرني في اليوم التالي. ما كدتُ أنهي المكالمة حتى رنّ جرس التليفون مرة أخرى، وكانت المُتَّصلة هي الخالة خوليا:

- «بارغيتاس، لقد أخلفتُ موعدي معك من أجل طبيب الغدد الصماء، أفترض بأنك افتقدتَني»، قالت لي، بكل هدوء. «ألم تغضب؟».

- «أغضب، ولمَ؟»، أجبتُها. «ألستِ حرّة في فعل ما يحلو لكِ؟».

- «آها، إذن فلقد غضبت»، سمعتُها تقول وقد تحلَّت بمزيد من الجدية. «لا تكُن أبله. متى نلتقي حتى أفسِّر لك؟».

- «اليوم لا أستطيع»، أجبتُها بجفاء. «سأتَّصل بك».

وضعتُ السماعة، غاضبًا من نفسي بأشدّ مما كنتُ غاضبًا منها، شاعرًا بالهزل. نظر إليَّ پاسكوال وپابليتو الكبير وهما يشعران بالتسلية. وبرهافة، انتقم مني عاشق الكوارث لأنني قد وبَّختُه:

- «أوه، ما أقسى قلب دون ماريو على النساء!».

- «حسنًا فعلتَ بتلك المعاملة»، دعمني پابليتو الكبير. «فلا شيء يروقهن بقدر الجفاء».

قلتُ لمُحرِّرَيّ أن يأكلن الخراء، ثم أعددتُ نشرة أخبار الرابعة، وذهبتُ لرؤية پِدرو كاماتشو، الذي كان يسجِّل إحدى الحلقات. انتظرتُ في مقصورته، حيث ألقيتُ نظرة فضول على أوراقه، وإن لم أفهم شيئًا مما قرأتُ، لأنني اكتفيتُ بالتساؤل عما إذا كانت تلك المكالمة الهاتفية مع الخالة خوليا تعني الفراق. وما هي إلَّا ثوانٍ حتى شعرت نحوها بكراهية حتى الموت، وافتقدتُها من كل روحي.

- «تعالَ معي لنشتري السموم»، قال لي پِدرو كاماتشو بكآبة وهو في مكانه عند الباب، يهزّ لبدته الخليقة بالأسود. «ولاحقًا نجد مُتَّسعًا من الوقت لتناول المشروبات».

وبينما رحنا نجوب الشوارع الجانبية المُتفرِّعة من شارع أونيون بحثًا عن السمّ، أخبرني الفنان بأن الفئران قد بلغَت حدًّا لا يُطاق في بنسيون لا تاپادا.

- «لو اكتفَت بالجري تحت فراشي، لما ألقيتُ إليها بالًا، فهي ليسَت أطفالًا، وأنا لا أعاني رهاب الحيوانات»، أوضح لي وهو يتشمَّم بأنفه البارز مسحوقًا أصفر قال عنه البائع إنه قادر على قتل بقرة. «ولكن تلك الكائنات ذات الشوارب تأكل طعامي، وتقرض المؤن التي أتركها في النافذة لتهويتها في كل ليلة. لم تترك لي خيارًا، وصار عليَّ أن أبيدها».

ساوم على الثمن بحجج أوقعَت البائع في حيرة، ثم دفع الحساب وطلب لفّ أكياس السم، بعد ذلك ذهبنا للجلوس بمقهى في شارع كولمينا، حيث طلب مشروب الأعشاب وطلبتُ أنا القهوة.

- «أشعر بألم الحبّ يا صديقي كاماتشو»، اعترفتُ له مباشرةً، وفاجأتُ نفسي بتلك الصيغة التي تليق بالمسلسلات الإذاعية. ولكني

شعرتُ بأنني إذا تحدَّثتُ إليه بتلك النبرة، نأيتُ بنفسي عن قصتي وتمكَّنتُ من التنفيس عما يجيش بصدري في آن واحد. «المرأة التي أحبُّها تخونني مع رجل آخر».

مضى يتفحَّصني بنظرة عميقة، بعينَيْه الدقيقتَيْن الجاحظتَيْن اللتين رأيتُهما أشدّ برودًا وكدرًا من أي وقت مضى. كانت بدلته السوداء قد غُسِلَت وكُوِيَت واستُخدِمَت حتى صارت لامعة كأوراق البصل.

- «في هذه البلدان التي انحدرَت إلى السوقية، يعاقب القانون على المبارزة بالسجن»، أدلى بحكمة، في غاية الجدية، وهو يحرِّك يدَيْه حركات مُتشنِّجة. «أما الانتحار، فما عاد أحدٌ يوفِّي تلك اللفتة قدرها. بل صار المرء يقتل نفسه، فيثير السخرية، بدلًا من الندم والقشعريرة والإعجاب. أفضل ما يمكن عمله أن تستعين بالوصفات العملية يا صديق».

شعرتُ بسعادة لأنني أفضيتُ إليه بسرّي. كنتُ أعرف أن الوجود عند بِدرو كاماتشو يخلو إلَّا من نفسه، ولذا فهو لن يذكر مشكلتي. كانت تلك مُجرَّد وسيلة لتفعيل منظومة التنظير لديه، فمن شأن الإنصات إليه أن يواسيني أكثر مما قد يفعل السُّكْر (وبقدر أقل من العواقب). وبعد أن رسم على وجهه ما يشبه الابتسامة، أعطاني بِدرو كاماتشو وصفته بأدق التفاصيل:

- «رسالة شديدة اللهجة، جارحة، رنَّانة، إلى الخائنة»، قال وهو يطلق النعوت واثقًا من نفسه. «رسالة تجعلها تشعر وكأنها سحلية لا قلب لها، ضبعة قذرة، وتثبت لها أن المرء ليس مُغفَّلًا، بل إنه يعرف ما الخيانة. رسالة تنضح بالازدراء، تجعلها تدرك أنها خائنة».

سكت لحظة مُتأمِّلًا، ثم بدَّل نبرته قليلًا، وقدَّم لي أقوى دليل على الصداقة قد ينتظره المرء منه:

- «لو شئت، كتبتُها من أجلك».

أعربتُ له عن امتناني بحرارة، ولكنني قلتُ له إنني أعرف الساعات الطوال التي يستغرقها في العمل كل يوم كالعبيد، وإنني لن أقبل إثقال كاهله بأموري الخاصة أبدًا (ثم ندمتُ لاحقًا على ذلك الحرج الذي حرمني من نصٍّ بخط يد كاتب السيناريو).

- «أما الرجل الذي أغواها...»، ما لبث أن استرسل پدرو كاماتشو في حديثه، وقد لاح في عينَيْه بريق خبيث، «فالأفضل أن ترسل إليه رسالة مجهولة المصدر، تسبّه فيها بكل الشتائم الضرورية. وإلّا، فلماذا يبقى الضحية مستغرقًا في السبات، والقرون مرفوعةٌ على رأسه؟ ولماذا يسمح للخائنَيْن بأن ينعما بالجماع؟ لا بد من إفساد حبهما، وتوجيه ضربات مؤلمة لكلٍّ منهما، ودسّ السمّ لهما عن طريق الشكوك. عسى أن تنعدم الثقة بينهما، فيبدأ كلٌّ منهما في النظر إلى الآخر نظرات ارتياب، والشعور نحوه بالكراهية. أوليس الانتقام حلو المذاق؟».

ألمحتُ إليه أن الاستعانة بالرسائل مجهولة المصدر قد لا تكون شيئًا يليق بالنبلاء، ولكنه سرعان ما طمأنني قائلًا: على المرء أن يتحلَّى بالنبل مع النبلاء، والنذالة مع الأنذال، فهكذا يكون «الشرف كما يحسُن فهمه». أما ما عدا ذلك، فحماقة.

- «برسالتي إليها، ورسائلي مجهولة المصدر إليه، أكون قد عاقبتُ العشيقَيْن»، قلتُ له. «ولكن، ماذا عن مشكلتي أنا؟ من يزيل عني مشاعر الاستياء والإحباط والألم؟».

- «لا أفضل من حليب المغنيسيا لشفاء كل هذا»، أجابني، فأحبطني إلى الحد الذي جعلني عاجزًا حتى عن الضحك. «أعرف أنه قد يبدو لك شيئًا مفرط المادية. ولكن، صدِّقني، فأنا قد خبرتُ الحياة. في أغلب المرات، لا يعدو ذلك الذي يُطلَق عليه ألم

القلوب وما شابهه أن يكون عسرًا في الهضم، بسبب الفاصوليا العنيدة التي لا تذوب في المعدة، أو السمك المعطوب، أو الإمساك. إن مُطهِّر المعدة الجيد يقضي على جنون الحب تمامًا».

في تلك المرة، لم يبقَ لديَّ مجالٌ للشك في أنه رجل صاحب حسٍّ فكاهي مرهف، يسخر مني ومن مستمعيه، لا يؤمن بكلمة واحدة مما يقول، بل إنه يمارس تلك الرياضة الأرستقراطية التي يسعى لاعبُها إلى إثبات حماقة البشر المطبقة أمام نفسه.

- «هل كانت لك غراميات كثيرة، وحياة عاطفية حافلة؟»، سألتُه.

- «حافلة، نعم»، أومأ شاخصًا إلى عينَيَّ من فوق فنجان النعنع وعشبة الليمون الذي رفعه إلى فمه. «ولكني لم أعشق امرأة من لحم ودم قطّ».

وبعد برهة صمت درامية، كمن يقيس مدى براءتي أو غبائي.

- «أتعتقد بأنني قد أتمكَّن من تأدية عملي لو امتصَّت النساء طاقتي؟»، وعظني وقد تجلَّى الاشمئزاز في صوته. «أتعتقد بإمكانية إنجاب الأبناء وإنتاج القصص في آن واحد؟ أتعتقد بقدرة المرء على التخيُّل والاختراع لو عاش تحت تهديد الزهري؟ المرأة والفن طرفا نقيض يا صديقي. في كل فرج من فروج النساء، فنان مدفون. التكاثر... ما وجه الطرافة في ذلك؟ ألا تتكاثر الكلاب والعناكب والقطط؟ لا بد أن نتحلَّى بالأصالة يا صديقي».

ومن دون فاصل بين ذلك وما تلاه، هبَّ واقفًا بقفزة واحدة، وأخبرني بأن وقته بالكاد يتَّسع لإعداد مسلسل الخامسة الإذاعي. شعرتُ بخيبة أمل، إذ كنتُ على استعداد لتمضية المساء كاملًا في الإنصات إليه، وتولَّد لديَّ انطباع بأنني قد لمستُ وترًا حساسًا في شخصيته، من دون عمد.

ألفيتُ الخالة خوليا تنتظرني بمقرّ پانامريكانا، جالسة إلى مكتبي كالملكة، حيث استقبلها پاسكوال وپابليتو الكبير بحفاوة، وأطلعاها على نشرات الأخبار بعناية ولهفة، كما أوضحا لها كيف تعمل الخدمة الإخبارية. بدَت باسمة، هادئة. ولكنها تحلَّت بالجدية وامتقعَت قليلًا حين دلفتُ إلى المكتب.

- «أوه، يا لها من مفاجأة»، قلتُ، لمُجرَّد أن أقول شيئًا.

ولكن الخالة خوليا لم تكُن في مزاج يسمح لها بسماع كلام مُنمَّق.

- «لقد جئتُ أخبرك بأنني لا أسمح لأحد بأن يغلق سماعة التليفون في وجهي»، قالت لي، بصوت حازم. «دع عنك أن يفعلها طفلٌ صغير مثلك. هلّا قلتَ لي ماذا دهاك؟».

جمد پاسكوال وپابليتو الكبير مكانهما، وظلّا يتلفَّتان برأسَيْهما منها إليَّ ومني إليها، وقد استأثرَت تلك البداية الدرامية باهتمامهما كثيرًا. طلبتُ منهما أن يغادرا المكتب للحظة، فارتسمَت على وجهيهما أمارات السخط، وإن لم يتجرَّآ على التمرُّد، فغادرا وهما يرشقان الخالة خوليا بنظرات ملأى بالخواطر الخبيثة.

- «لقد أغلقتُ سماعة التليفون في وجهك، ولكني في حقيقة الأمر كنتُ أودّ لو اعتصرتُ عنقكِ بكلتا يدَيّ»، قلتُ لها حين بقينا وحدنا.

- «لم أعرف عنك مثل هذه النوبات من الغضب»، قالت شاخصةً إلى عينَيّ. «هل لي بأن أعرف ماذا دهاك؟».

- «تعرفين جيدًا جدًّا ماذا دهاني، فلا تتصنَّعي البلاهة»، قلتُ لها.

- «أتشعر بالغيرة لأنني ذهبتُ لتناول الغداء برفقة دكتور

أوسوريس؟»، سألَتني، بنبرة ساخرة. «كم تبدو طفلًا صغيرًا يا ماريتو!».

- «لقد حظرتُ عليكِ أن تناديني ماريتو»، ذكَّرتُها. شعرتُ بالغيظ يستحوذ عليَّ شيئًا فشيئًا، وأحسستُ بصوتي يرتجف، فلم أعُد أدرِ ماذا أنا قائل. «والآن أحظر عليكِ أن تصفيني بالطفل الصغير».

جلستُ على ركن المكتب، بينما وقفَت الخالة خوليا وقطعَت بضع خطوات صوب النافذة، وكأنها توازن الأمور. استغرقَت في النظر إلى النهار الرمادي الرطب الذي تراءى شبحيًّا بقدرٍ طفيف، بينما عقدَت ذراعَيْها على صدرها. غير أنها لم ترَ النهار، وإنما راحت تفتِّش عن الكلمات لتدلي بشيء. كانت ترتدي ثوبًا أزرق، وتنتعل حذاء أبيض. وإذا بي تنتابني رغبة مفاجئة في تقبيلها.

- «دعنا نضع الأمور في نصابها»، قالت لي أخيرًا، وهي توليني ظهرها طوال الوقت. «أنت لا تملك أن تحظر عليَّ شيئًا، ولا حتى على سبيل الدعابة، لسبب بسيط مفاده أنك لا تمتّ لي بصلة: فلا أنت زوجي، ولا أنت خطيبي، ولا أنت عشيقي. إن تلك اللعبة الصغيرة، لعبة ضمّ اليدَيْن وتبادل القبلات في السينما، ليسَت بالأمر الجاد، والأهم أنها لا تعطيك عليَّ حقًّا. يجب أن تضع هذا في رأسك يا بني».

- «الحقّ أنكِ تتكلَّمين كما لو كنتِ أمي»، قلتُ لها.

- «أنا في عمر أمك»، قالت الخالة خوليا، بينما ارتسمَت على وجهها أمارات الحزن، وكأنما قد زال عنها الغضب، ولم يبقَ مكانه إلَّا ضيق قديم، وكرب دفين. التفتَت، وقطعَت بضع خطوات صوب مكتبي، ثم وقفَت على مقربة مني، ونظرَت إليَّ في أسى وأردفَت:

- «تجعلني أشعر كما لو كنتُ عجوزًا، مع أنني لستُ بالمرأة

العجوز يا بارغيتاس. لا يروق لي ذلك. لا علّة وجود لما بيننا، دع عنك أن يكون له مستقبل».

طوّقتُ خصرها بذراعي، فتركَتني أجذبها إليَّ، وإن استرسلَت في الحديث بالنبرة نفسها، بينما رحتُ أقبّل وجنتها وعنقها وأذنها بحنان غامر، وبشرتها الدافئة تنبض تحت شفتَيّ، وشعور جارف بالسعادة ينتابني إذ أحسستُ بالحياة السرية التي تجري في شرايينها.

- «لقد فكّرتُ طويلًا، ولم يعُد الأمر يروقني يا بارغيتاس. ألم ترَ أنه عبثي؟ أنا في الثانية والثلاثين، مُطلّقة، هلّا قلتَ لي ماذا أنا فاعلة مع طفل صغير في الثامنة عشرة من العمر؟ إن ذلك الانحراف يليق بالنساء الخمسينيات... وأنا لم أبلغ تلك الدرجة بعد».

وبينما رحتُ أقبّل عنقها ويدَيْها وأعضّ أذنها ببطء وأمرِّر شفتَيّ على أنفها وعينَيْها وأمشّط شعرها بأصابعي، شعرتُ بتأثُّر وعشق جارفَيْن إلى الحدِّ الذي جعلني لا أدرك ماذا تقول في بعض الأحيان. جاء صوتها مُتقلّبًا، وغلب عليه الوهن في بعض الأحيان حتى كان يبلغ حدّ الهمس.

- «في البدء كان الأمر طريفًا، لأننا اضطُرِرنا إلى التخفّي عن العيون»، قالت، بينما تركَتني أقبّلها، وإن لم تبادلني لفتة واحدة، - «ولا سيما لشعوري بأنني في مقتبل العمر من جديد».

- «على أي الأمرَيْن استقررنا؟»، همستُ في سمعها. «هل أجعلكِ تشعرين بأنك امرأة خمسينية مُنحَلّة أم شابة في مقتبل العمر؟».

- «أن أكون مع شاب صغير، يتضوَّر جوعًا، فنكتفي بضمِّ اليدَيْن والذهاب إلى السينما وتبادل القبلات بمنتهى الرهافة، الأمر برمّته ردَّني فتاةً في الخامسة عشرة مرة أخرى»، استرسلَت الخالة خوليا في

الحديث. «بطبيعة الحال، إنه لشيء جميل أن تقع المرأة في حبّ فتى خجول، يحترمها، ويعاملها كفتاة صغيرة في المناولة الأولى، فتى لا يعبث بجسدها، ولا يجرؤ على مشاركتها الفراش. ولكنها لعبة خطيرة يا بارغيتاس، قائمة على أكذوبة. . . ».

- «بالمناسبة، أكتب الآن قصة بعنوان **الألعاب الخطيرة**»، همستُ في سمعها. «وتدور حول بعض الصبية الأشقياء الذين يسبحون في هواء المطار، بسبب ضغط الهواء الناشئ عن إقلاع الطائرات».

سمعتُها تضحك. وما هي إلَّا لحظة حتى طوَّقَت عنقي بذراعَيْها وقرَّبَتني من وجهها.

- «حسنًا، لقد ذهب عني الغضب»، قالت. «لأنني جئتُ عازمةً على اقتلاع عينَيْك. ويل لك إن عاودتَ إغلاق سماعة التليفون في وجهي».

- «ويل لكِ إن عاودتِ الخروج مع طبيب الغدد الصماء»، قلتُ لها مُفتِّشًا عن ثغرها. «عديني بألَّا تعاودي الخروج معه أبدًا».

ابتعدَت ناظرةً إليَّ وفي عينَيْها بريق مشاغب.

- «لا تنسَ أنني قد جئتُ إلى مدينة ليما بحثًا عن زوج»، قالت في ما يشبه المزاح. «وأعتقد بأنني قد عثرتُ على ما يلائمني في هذه المرة، فهو وسيم، مُثقَّف، له وضع مناسب، أشيب الفودَيْن».

- «هل أنتِ واثقة بأن ذلك الرجل المذهل سوف يتزوَّجكِ؟»، سألتُها، ومرة أخرى شعرتُ بالغضب والغيرة معًا.

وضعَت يدَيْها على خصرها، في وضع مثير، وأجابت:

- «أستطيع حمله على الزواج بي».

غير أنها رأت وجهي، فضحكَت، وطوَّقَت عنقي بذراعَيْها مرة

أخرى. كنا على تلك الحال، نتبادل القبلات بحبٍّ وشغف، حين سمعنا صوت خابيير قائلًا:

- «سوف يُزَجّ بكما في السجن بتهمة ارتكاب الأفعال الفاضحة والإباحية»، كان سعيدًا. وبينما هو يعانقنا، زفَّ إلينا الخبر الآتي: «قبلَت نانسي الصغيرة دعوتي إلى عرض مصارعة الثيران، ولا بدّ من الاحتفال بذلك».

- «لقد خضنا أول شجار كبير لنا منذ قليل، وأمسكتَ أنتَ بنا في أوج عملية المصالحة»، أخبرتُه.

- «كم يظهر عليك أنك لا تعرفني!»، حذَّرَتني الخالة خوليا. «فأنا في الشجارات الكبرى أحطِّم الصحون، وأخدش، وأقتل».

- «أفضل ما في الشجار المصالحة»، قال خابيير، الذي كان خبيرًا في المسألة. «ولكن، اللعنة، جئتُ إلى هنا وأنا أكاد أطير فرحًا بعد ما كان بيني وبين نانسي الصغيرة، فلم تلقيا إليَّ أدني بال، أي صنف من صنوف الأصدقاء أنتما؟ دعونا نحتفل بهذا الحدث على الغداء».

انتظراني حتى فرغتُ من تحرير نشرتَي أخبار، ثم نزلنا إلى مقهى صغير في شارع بيلين، كان خابيير مولعًا به لأنه يقدِّم أطيب أنواع المقالي بمدينة ليما، على الرغم من ضيق المكان وقذارته. على باب راديو پانامريكانا، وجدتُ پاسكوال وپابليتو الكبير يتغزَّلان بالنساء العابرات، فأرسلتُهما إلى مكتب التحرير مرة أخرى. كنا في قلب المدينة نهارًا، حيث يمكن لعيون الأقرباء وأصدقاء العائلة الذين لا يُحصَى لهم عدد أن ترصدنا. ومع ذلك، مضيتُ أنا والخالة خوليا وقد أمسك كلٌّ منا بيد الآخر. رحتُ أقبِّلها طوال الوقت، بينما احمرّ وجهها وظهرَت عليها السعادة.

- «كفاكما إباحة، أيها الأنانيَّيْن، فكِّرا في أمري أنا!»، احتجّ خابيير. «دعونا نتكلَّم عن نانسي الصغيرة قليلًا».

كانت نانسي الصغيرة واحدة من بنات أخوالي، وهي فتاة جميلة، في غاية الدلال، وقع خابيير في حبها منذ أن وعى على الدنيا، ولاحقها بمثابرة كلاب الصيد. أما هي، فلم تلقِ إليه بالًا قطّ. وعلى الرغم من ذلك، فلطالما أفلحَت في إقناعه بأنها ربما اهتمَّت لأمره، قريبًا، في المرة المقبلة. استمرّ ذلك الطور السابق على الرومانسية منذ كنا في المدرسة، فتابعتُ أدق تفاصيله باعتباري موضع أسرار خابيير، وصديقه الحميم، وشريكه في الجريمة أيضًا. أخلفَت نانسي الصغيرة مواعيدها معه مرات لا تُعَدّ، وتركَته ينتظرها على أبواب سينما لِوْرو خلال حفلات صباحية لا تُحصَى، بينما كانت هي تذهب إلى سينما كولينا أو مترو، كما ظهرَت أمامه برفقة رجال آخرين في حفلات السبت أيامًا لا حصر لها. سكرتُ لأول مرة في حياتي بصحبة خابيير. إذ كنتُ برفقته عندما ذهب ليطفئ أحزانه بكوكتيل كاپيتان والبيرة في حانة صغيرة بحي سوركيّو، يومَ تناهى إلى علمه أن نانسي الصغيرة قد وافقَت على طالب الهندسة المدعو إدواردو تيرابانتي (الذي اكتسب شعبية كبيرة في ميرافلوريس لأنه يجيد وضع السيجارة مشتعلة في فمه، ثم إخراجها ومواصلة التدخين وكأن شيئًا لم يكُن). مضى خابيير يتباكى، وكنتُ أنا المنديل الذي جفَّف دموعه. أضف إلى ذلك أنني قد عُهِد إليَّ بمهمة حمله إلى البنسيون ووضعه في الفراش لاحقًا، متى دخل في الغيبوبة («سوف أسكر حتى النخاع»، سبق أن حذَّرني وهو يقلِّد المُمثِّل خورخي نيغريتي). وإن كنتُ أنا الذي رحتُ ضحية السُّكْر، واستغرقتُ في نوبة قيء هادر وهذيان جهنمي، بل إنني، طبقًا لنسخة خابيير الدنيئة من القصة، قد تسلَّقتُ البار ومضيتُ أخطب

في السكارى والمشاغبين روّاد حانة إل تريونفو قائلًا :
- «أنزِلوا سراويلكم، فأنتم في حضرة شاعر!».
لطالما لامني لأنني، بدلًا من الاعتناء به ومواساته في تلك الليلة الحزينة، أرغمتُه على أن يحملني عَبْر شوارع ميرافلوريس حتى وصلنا إلى بناء أوتشاران، وأنا في حالة من الضياع جعلَته يسلِّم البقية الباقية مني إلى جدّتي المذعورة وهو يدلي بذلك التعقيب الطائش:
- «سيدتي كارمنسيتا، أعتقد بأن بارغيتاس يكاد يموت بين أيدينا».

ومنذ ذلك الحين، قبلَت نانسي الصغيرة وفارقَت نصف دزينة من أبناء ميرافلوريس. حتى خابيير عرف عددًا من العشيقات اللاتي لم يُذهِبن حبّه العظيم لابنة خالي، وإنما جعلنه أقوى مما كان، فظلّ خابيير يتَّصل بها ويزورها ويدعوها ويبوح لها بحبه، غير حافل بالرفض والغلظة والازدراء والتخلُّف عن المواعيد. كان خابيير من أولئك الرجال الذين يضعون الشغف في مقام سابق على الكبرياء، ولم يلقِ أدنى بال لسخرية جميع أصدقاء ميرافلوريس الذين اتَّخذوا مطاردته لابنة خالي مثارًا للسخرية. (أقسم أحد فتيان الحيّ إنه قد رآه وهو يقترب من نانسي الصغيرة ذات أحدٍ، بعد قدَّاس الحادية عشرة، ويبادر مقترحًا: «أهلا نانسيتا، يا له من صباح جميل، هلَّا تناولنا شيئًا معًا؟ كوكاكولا؟ كأس صغيرة من الشامبانيا؟»). كانت نانسي الصغيرة تخرج معه في بعض الأحيان، بين عشيق وآخر، كما هو دأبها، وترافقه إلى السينما أو تذهب معه إلى إحدى الحفلات، فيمنّي خابيير نفسه بآمال كبرى، ويدخل في حالة من السعادة الغامرة. هكذا تراءى الآن، إذ طفق يتكلَّم بلا انقطاع، ونحن نتناول القهوة بالحليب وشطائر المقالي في ذلك المقهى الذي يُدعى إل پالميرو، القائم بشارع بيلين. أما أنا والخالة خوليا، فتلامسَت ركبتانا تحت الطاولة،

وتشابكَت أصابعنا، وتلاقَت عيوننا، وكلانا مُنصِتٌ إلى خابيير الذي مضى يتكلَّم عن نانسي الصغيرة وكأن صوته موسيقى تُسمَع في الخلفية.

- «لقد تركَت دعوتي في نفسها بالغ الأثر، فهلَّا قلتَ لي مَن مِن أبناء ميرافلوريس النكرة يقدر على دعوة فتاة إلى عرض مصارعة الثيران؟»، مضى يخبرنا.

- «كيف فعلتَها؟»، سألتُه. «أربحتَ جائزة اليانصيب؟».

- «بعتُ الراديو الخاص بالبنسيون»، قال بلا أدنى شعور بوخز الضمير. «خُيِّل إليهم أن الطاهية هي الفاعلة، فطردوها بتهمة السرقة».

أوضح لنا أنه قد أعدّ مُخطَّطًا لا يخيب، ففي منتصف العرض، سيفاجئ نانسي الصغيرة بهدية من شأنها أن تقنعها: وشاح إسباني. كان خابيير من كبار المعجبين **بالوطن الأمّ** وبكل ما يتَّصل به: مصارعة الثيران، وموسيقى الفلامنكو، والفنانة ساريتا مونتييل. كان يحلم بالذهاب إلى إسبانيا (كما حلمتُ أنا بالذهاب إلى فرنسا)، وخطر له أمر الوشاح عندما وقع بصره على إعلان في الجريدة. كلَّفه الوشاح راتب شهر كامل في مصرف دي ريسيربا، ولكنه كان على يقين بأن ذلك الاستثمار سوف يؤتي ثماره. أوضح لنا كيف ستجري الأمور: فلقد وطَّن النية على أن يمضي إلى عرض مصارعة الثيران بالوشاح مُغلَّفًا بلفافة لا تلفت الأنظار، ثم يترقَّب لحظة من لحظات الإثارة الكبرى حتى يفضّ اللفافة، ويبسط الوشاح على كتفَي ابنة خالي المرهفتَين. ما رأينا؟ وكيف تأتي ردة فعلها؟ نصحتُه بأن يمضي في الطريق حتى النهاية، فيهديها مع الوشاح مشطًا من إشبيلية، وصناجات، ويغنِّي لها أغنية فاندانغو شعبية، ولكن الخالة خوليا أعربَت عن تأييدها له في حماسة، وقالت له إن كل ما رتَّب له

جميل، وإن مشاعر نانسي سوف تتحرَّك بقوة ما دامت تملك قلبًا، فلو أن واحدًا من الفتيان أظهر لها مثل هذه المشاعر لفاز بقلبها.

- «ألا ترى ما أُخبرُك به طوال الوقت؟»، قالت، كالمُؤنِّبة. «إن خابيير رومانسي حقًّا، يقع في الحبّ كما ينبغي».

مفتونًا، اقترح علينا خابيير أن نخرج نحن الأربعة معًا، في أي يومٍ من أيام الأسبوع المقبل، فنذهب إلى السينما أو لتناول الشاي أو الرقص.

- «وماذا تقول نانسي الصغيرة لو رأتنا معًا في موعدٍ غرامي؟»، رددتُه إلى أرض الواقع.

ولكنه ألقى علينا دلوًا من الماء البارد بقوله:

- «لا تكُن أبله، فهي تعرف كل شيء وتراه حسنًا، لقد أخبرتُها منذ أيام». رأى المفاجأة بادية علينا، فأردف وقد ارتسمَت على وجهه أمارات الشقاوة: «ولكن، لا أسرار بيني وبين ابنة خالك، لأنها سوف تتزوَّجني في النهاية، مهما فعلَت».

عرفتُ أن خابيير قد أخبرها بعلاقتنا الرومانسية، فتملَّكني القلق. جمعَتني بنانسي صلة وثيقة، وكنتُ مُتأكِّدًا من أنها لن تشي بنا. ولكن ربما انفلت لسانها، فينتشر الخبر كالنار في هشيم العائلة. انعقد لسان الخالة خوليا، ولكنها راحت الآن تتظاهر بتشجيع خابيير في مشروعه العاطفي خلال مصارعة الثيران. ودَّعتُهما على باب پانامريكانا، واتَّفقتُ مع الخالة خوليا على اللقاء ليلتذاك، بحجة الذهاب إلى السينما. همستُ إليها في سمعها، وأنا أقبِّلها: «بفضل طبيب الغدد الصماء، أدركتُ أنني قد وقعتُ في حبكِ»، فأومأت قائلةً: «هذا ما رأيتُ يا بارغيتاس».

مكثتُ مكاني وأنا أراها تبتعد مع خابيير، مُتَّجهَيْن إلى موقف

الحافلات. عند ذاك وحسب، انتبهتُ إلى الجمع المحتشد على أبواب راديو سنترال، الجمع الذي طغى عليه حضور النساء الشابات، وإن لم يخلُ من بعض الرجال أيضًا. وقف الحضور في صفَّيْن متجاورَيْن، وإن ظلّ الناس يتوافدون على المكان، فتشتّت الصفّان بين تزاحمٍ وتدافعٍ بالمرافق. اقتربتُ لألقي نظرة فضول، إذ افترضتُ أن السببَ لا بدَّ أن يكون بِدرو كاماتشو. وبالفعل، كان الحاضرون من جامعي التوقيعات. رأيتُ كاتب السيناريو، بصحبة خيسوسيتو وخينارو الأب، من خلال نافذة الحُجَيْرة، حيث كان يخربش توقيعه المُزخرَف في الدفاتر والمُفكِّرات والأوراق المنفرطة وصفحات الجرائد، ثم يصرف معجبيه بلفتة تليق بساكني الأوليمب، بينما هم ينظرون إليه مسحورين، ويقتربون منه في خجل، متلعثمين بكلمات التقدير.

- «يسبِّب لنا صداعًا شديدًا، ولكن لا شكّ في أنه مَلِك الإذاعة بهذا البلد»، قال لي خينارو الابن واضعًا يده على كتفي، مشيرًا إلى الحشد: «ما رأيك في هذا؟».

سألتُه متى بدأت جلسات التوقيع.

- «منذ أسبوع، نصف ساعة كل يوم، من السادسة إلى السادسة والنصف، يا قليل الملاحظة!»، قال لي رجل الأعمال التقدُّمي. «ألا تقرأ الإعلانات التي ننشرها، ألا تستمع إلى محطة الراديو التي تعمل بها؟ كانت لديَّ شكوكي. ولكن، انظرْ كم كنتُ مخطئًا! ظننتُ الناس لن يحضروا إلّا يومَيْن، والآن يبدو لي أن جلسات التوقيع قد تستمرّ شهرًا».

دعاني إلى شراب في حانة بوليفار، حيث طلبتُ كوكاكولا، فأصرّ على أن أجاريه بكأس من الويسكي.

- «أتدري ماذا تعني هذه الطوابير؟»، قال مُفسِّرًا. «إنه دليل

علني على النجاح المُدوِّي الذي لاقته مسلسلات بِدرو في صفوف الشعب».

قلتُ له إنني لا أشكّ في ذلك، ثم تضرَّج وجهي عندما أوصاني بأن أقتدي بالكاتب البوليفي، فأتعلَّم الطرائق التي يلجأ إليها حتى يفوز بقلوب الجماهير، مع الأخذ في الحسبان **ميولي الأدبية**. «لا يجب عليك أن تنعزل في برجك العاجي»، قال ناصحًا.

كان قد أرسل في طباعة خمسة آلاف صورة لبِدرو كاماتشو حتى يتلقَّاها صيادو التوقيع على سبيل الهدية بدءًا من يوم الإثنين. سألتُه إن كان كاتب السيناريو قد خفَّف من هجماته على الأرجنتينيين.

- «ما عاد يهمّ، الآن يمكنه الطعن في من يشاء»، قال لي، بنبرة غامضة. «ألم تصلك الأخبار الكبرى؟ الجنرال لا يفوِّت حلقة واحدة من مسلسلات بِدرو الإذاعية».

ثم وافاني بالتفاصيل حتى يقنعني: لمَّا كانت شؤون الحكم لا تمهل الجنرال وقتًا كافيًا للاستماع إلى المسلسلات الإذاعية نهارًا، فلقد طلب تسجيلها، وهكذا يمكنه الاستماع إليها كل ليلة، واحدة تلو أخرى، قبل النوم، حسبما أخبرَت حرم الرئيس شخصيًّا عددًا كبيرًا من سيدات ليما.

- «يبدو أن الجنرال رجل مرهف المشاعر، على الرغم مما يزعمون»، خلص خينارو الابن إلى تلك النتيجة. «وما دامت القيادات العليا معنا، فماذا يهمّ لو هاجم بِدرو الأرجنتينيين؟ ألا يستحقّون؟».

وإذا بشيء يثير في نفسي حماسة جارفة... لعلّه الحديث الذي دار بيني وبين خينارو الابن، أو مصالحة الخالة خوليا. وهكذا عدتُ إلى العلّية، حيث شرعتُ أكتب قصتي عن السابحين في الهواء بزخم،

بينما راح باسكوال يعدّ نشرات الأخبار. وجدتُ نهاية القصة: ففي واحدة من تلك الألعاب، يرتفع أحد الصبية الأشقياء أكثر مما يرتفع الآخرون، ثم يسقط بقوة، فينكسر عنقه ويلقى حتفه. أما العبارة الأخيرة في القصة، فتُظِهر وجوه رفاقه المذعورين وهم يتأمَّلونه تحت هدير الطائرات. ستكون قصة شديدة التقتير، دقيقة كالساعة، على طريقة همينغواي.

بعد أيام، ذهبتُ لزيارة ابنة خالي نانسي، حتى أعرف وقع حكاية الخالة خوليا عليها، فوجدتُها لا تزال واقعة تحت تأثير **عملية الوشاح**:

- «أتدري الموقف الحرج الذي وضعني فيه ذلك الأحمق؟»، قالت وهي تعدو في كل أرجاء البيت بحثًا عن لاسكي. «فجأة، في قلب ساحة أتشو لمصارعة الثيران، وجدتُه يفضّ لفافة، ويُخرِج منها رداء مُصارِع، ثم يغطّيني به. وإذا بجميع الحضور ينظرون إليه، حتى الثور كاد يبكي من شدة الضحك. جعلني أرتديه طوال العرض، وأراد مني الخروج إلى الشارع بذلك الشيء، تصوَّر! لم أشعر بمثل هذا الحرج مدى الحياة!».

تحت فراش كبير الخدم، عثرنا على لاسكي - الكلب القبيح منزوع الشعر الذي يريد أن يعضّني طوال الوقت - فمضينا به إلى قفصه، ثم اقتادَتني نانسي الصغيرة إلى مخدعها لرؤية جسم الجريمة. كانت قطعة حداثية من الثياب، توحي إلى الناظر بالتفكير في الحدائق العجيبة وخيام الغجر والمواخير الفاخرة: كان الوشاح برَّاقًا، يسكن بين طياته الأحمرُ بدرجاته كلها، بدءًا بلون الدم القاني وحتى لون الغسق المُتورِّد، وتنسدل منه أهداب طويلة سوداء متشابكة. أما قطع الزينة والخرز التي رُصِّع بها الوشاح، فبلغَت من البريق حدًّا يبعث في رأس الناظر دوارًا. أخذَت ابنة خالي تخطو كما يخطو مصارعو

الثيران، وتلفّ نفسها بالوشاح مقهقهةً. قلتُ إنني لا أسمح لها بالسخرية من صديقي، وسألتُها إن كانت ستعطيه فرصة أخيرًا.

- «أفكِّر في الأمر»، أجابتني، كعهدها في كل مرة. «ولكني مفتونة به صديقًا».

قلتُ لها إنها مُدلَّلة بلا قلب، وإن خابيير قد اضطُرّ إلى السرقة حتى يقدِّم لها تلك الهدية.

- «وماذا عنك؟»، سألَتني، بينما هي تطوي الوشاح وتحفظه في خزانة الثياب. «أصحيح أنك مع خوليتا؟ ألا تخجل من نفسك؟ مع شقيقة أولغا زوجة خالك؟».

قلت لها إن ذلك صحيح، وإنني لا أخجل منه، بينما أحسستُ بوجهي ملتهبًا. حتى هي اختلط عليها الأمر قليلًا، وإن تغلَّب فضولها الخليق بابنة حيّ ميرافلوريس، فصوَّبَت إلى الهدف:

- «لو تزوَّجتَها، لظللتَ أنت شابًّا بعد عشرين عامًا من الآن، وصارَت هي جدّة»، أخذَت بذراعي واقتادَتني إلى الصالة عَبْر الدَّرَج. «تعالَ، فلنستمع إلى الموسيقى، وهناك تخبرني بغرامياتك من الألف إلى الياء».

تخيَّرَت طائفة من الأسطوانات - نات كينغ كول، وهاري بيلافونتي، وفرانك سيناترا، وخابيير كوغات - بينما هي تعترف لي بأن بدنها يقشعرّ كلّما فكَّرَت في ما قد يجري لو اكتشفَت العائلة ما بيننا، منذ أخبرها خابيير. ألم يكُن أقرباؤنا يدسّون أنوفهم إلى الحدّ الذي يجعل ثمانيًا من الخالات وخمسًا من بنات الخال وعشرة من الأخوال يتَّصلون بأمها حتى يخبروها إذا خرجَت نانسي مع فتى جديد؟ هل أقع في حبّ الخالة خوليا، أنا! أي فضيحة يا ماريتو! ذكَّرَتني بأن العائلة تتوهَّم أنني أمل العشيرة، وتلك حقيقة: فعائلتي السرطانية توقَّعَت مني أن أغدو مليونيرًا ذات يوم، أو رئيسًا

للجمهورية في أسوأ الأحوال. (لم يحدث يومًا أن فهمت السبب الذي جعلهم يعتدّون بي إلى ذلك الحدّ. لم يكُن السبب درجاتي في المدرسة، التي لم تبلغ حدّ النبوغ يومًا، بأي حال من الأحوال. ربما ذهبوا إلى ذلك لأنني شرعتُ أنظم القصائد في خالاتي جميعًا منذ الصغر، أو لأنني كنتُ طفلًا يبدو أكبر من سنه، يُدلِي برأيه في كل شيء، على ما يظهر). استحلفتُ نانسي الصغيرة أن يبقى سرِّي معها في بئر. بينما كانت هي تتحرَّق لمعرفة تفاصيل العلاقة الرومانسية:

- «وماذا عن خوليتا، أتروق لك فحسب، أم أنك مُتيَّم بها؟».

كنتُ أبوح لها بأسراري العاطفية في بعض الأوقات، كما بحتُ لها في تلك المرة، مع الأخذ في الحسبان أنها تعرف بالفعل. بدأت القصةُ لهوًا، وإذا بي أدرك أنني قد وقعتُ في حبِّها، فجأةً، يومَ شعرتُ بالغيرة من طبيب الغدد الصماء على وجه التحديد. وعلى الرغم من ذلك، كنتُ كلّما أدرتُ الأمر في ذهني، زدتُ اقتناعًا بأن تلك العلاقة الرومانسية لغز عصي على الحلّ. لم يقتصر السبب على فارق العمر بيننا، فما زالت أمامي ثلاثة أعوام حتى أنتهي من دراسة المحاماة، المهنة التي رأيتُ أني لن أمارسها أبدًا، لأن شيئًا لم يرُق لي سوى الكتابة. ولكن الكُتَّاب يتضوَّرون جوعًا. في الوقت الراهن، لم أجنِ من المال إلَّا ما يكفي لشراء السجائر وبضعة كتب والذهاب إلى السينما. أتنتظرني الخالة خوليا حتى أغدو رجلًا موسرًا، إن حدث وصرتُ موسرًا ذات يوم؟ بلغَت ابنة خالي نانسي من الطيبة حدًّا جعلها توافقني الرأي، بدلًا من معارضتي:

- «طبعًا، دعْ عنك أنك ربما لا تعود معجبًا بخوليتا عندما يتحقَّق لك ذلك، فتتركها»، قالت لي، بواقعية. «وتكون المسكينة قد أهدرَت وقتها سدى. ولكن، قُلْ لي، أتحبّك أم أنها تلهو فحسب؟».

قلتُ لها إن الخالة خوليا لم تكُن هوائية طائشة مثلها (الأمر

الذي أسعدها بحقّ). ولكني طرحتُ السؤال ذاته على نفسي عدة مرات، كما طرحتُه على الخالة خوليا أيضًا بعد أيام. ذهبنا لنجلس على البحر، في منتزه جميل صغير، اسمه عصي على النطق (دومودوسولا، أو شيء من هذا القبيل). وهناك، بينما رحتُ أنا والخالة خوليا نتعانق ونتبادل القبلات بلا هوادة، دار بيننا أول حديث عن المستقبل.

- «أعرفه بأدقّ تفاصيله، فلقد رأيتُه في كرة من البلّور»، قالت الخالة خوليا، بلا أدنى أثر للمرارة في حديثها. «في أحسن الأحوال، قد يستمرّ ما بيننا ثلاثة أعوام، أو ربما أربعة. أعني حتى تعثر أنت على الصغيرة التي ستكون أمًّا لأبنائك. وعند ذاك تتخلّص مني، فأُضطَرّ إلى إغواء رجل آخر، وتظهر كلمة **النهاية**».

وبينما رحتُ أقبِّل يدَيْها، قلتُ لها إن الاستماع إلى المسلسلات الإذاعية يضرّ بها.

- «كم يظهر عليكَ بوضوح أنك لا تستمع إليها أبدًا»، تداركَت. «في مسلسلات بِدرو كاماتشو الإذاعية، تندر الغراميات والعلاقات من هذا القبيل. الآن، على سبيل المثال، نتابع مسلسل الثالثة أنا وأولغا بمنتهى الاستمتاع. إنها مأساة فتى عاجز عن النوم، لأنه لا يكاد يغمض عينيْه حتى يرى نفسه وهو يصدم الطفلة المسكينة بسيارته من جديد».

تطرَّقتُ إلى الموضوع مُجدَّدًا، فقلتُ لها إنني أكثر تفاؤلًا. ومضيتُ أتكلَّم بحرارة حتى أقنعها وأقنع نفسي معًا، فأكَّدتُ لها أن الحبّ الجسدي المحض لا يدوم إلَّا قليلًا، مهما كانت الاختلافات القائمة، فإذا اختفى عنصر الجِدَّة، وخيَّم الروتين، تضاءل الانجذاب الجنسي حتى الموت (ولا سيما من ناحية الرجل)، وعندئذ لا يعود في إمكان الحبيبَيْن الاستمرار ما لم تكُن بينهما عوامل جذب أخرى:

روحانية، فكرية، معنوية. وفي ذلك اللون من ألوان من الحب، لا يهمّ العمر.

- «يبدو هذا جميلًا، ويلائمني أن يكون حقيقيًّا»، قالت الخالة خوليا وهي تحكّ جبيني بأنفها الذي كان باردًا طوال الوقت. «ولكنها أكذوبة من البداية إلى النهاية. أيكون الجانب الجسدي ثانويًّا؟ إنه العامل الأهم حتى يحتمل شخصان بعضهما بعضًا يا بارغيتاس».

هل عاودَت الخروج مع طبيب الغدد الصماء؟

- «اتَّصل بي عدة مرات...»، قالت، إمعانًا في إثارة الترقُّب. ثم بدَّدَت شكوكي وهي تقبِّلني: «فقلتُ له إنني لن أعاود الخروج معه».

كنتُ في أوج السعادة، وطفقتُ أحدِّثها عن قصة السابحين في الهواء طويلًا: كانت القصة تسير على ما يُرام، وكتبتُ منها عشر صفحات، كما وطَّنتُ النية على محاولة نشرها في ملحق إل كومِرسيو بإهداء مُشفَّر: «إلى خوليو بصيغة المُؤنَّث»[1].

---

(١) «خوليو» بصيغة المُؤنَّث في اللغة الإسبانية: «خوليا». (المترجم)

١٠

بدأت مأساة لوتشو أبريل مارّوكين، مندوب المبيعات الطبية الشاب الذي كان كل شيء يبشِّره بمستقبل واعد، ذات صباح مشمس من فصل الصيف، بضواحي منطقة پيسكو التاريخية. كان قد انتهى لتوّه من الرحلة التي يسافر خلالها إلى قرى بيرو ومدنها منذ التحق بتلك المهنة الجائلة قبل عشرة أعوام، إذ كان يتردَّد إلى العيادات والصيدليات حتى يهديها عينات ونشرات إعلانية من مختبرات باير، ثم يعود مرة أخرى إلى ليما. استغرقَت زيارته إلى الأطباء والكيميائيين في المنطقة ثلاث ساعات على وجه التقريب. كان أحد زملائه في المدرسة قد انضمّ إلى الفرقة الجوية التاسعة بسان أندريس، وأصبح الآن طيارًا برتبة كابتن. درج على تناول الغداء في بيت زميله السابق، غير أنه اتَّخذ قراره بالعودة إلى العاصمة رأسًا. كان مُتزوِّجًا بفتاة بشرتها بيضاء واسمها فرنسي، فحثَّته دماؤه الشابة وقلبه العاشق على العودة إلى ذراعَي زوجته بأسرع ما يمكن.

تجاوز الوقت منتصف الظهيرة بقليل، وتحت شجرة كافور وارفة بالميدان، كانت السيارة في انتظاره، سيارته الفولكس فاجن الحديثة التي اشتراها بالتقسيط حين عقد قرانه، أي منذ ثلاثة أشهر. احتفظ لوتشو أبريل مارّوكين بحقيبة العينات والنشرات الإعلانية، ثم خلع ربطة العنق والسترة (اللتين يجب على المندوب أن يستخدمهما طوال

الوقت حتى يترك في نفوس الآخرين انطباعًا بالجدية، طبقًا لقواعد المختبر السويسرية)، ثم تأكَّد من قراره بأنه لن يزور صديقه الطيار. وبدلًا من الغداء الكامل، استقرَّ على الاكتفاء بمُرطِّب لئلَّا يحسّ بنعاس أشدّ وطأةً من المعتاد طوال الساعات الثلاث التي تستغرقها الرحلة عَبْر الصحراء، بسبب عملية الهضم.

قطع الميدان ماضيًا إلى دكان مُثلَّجات پياڤي، حيث طلب من الرجل الإيطالي كوكاكولا ومُثلَّجات بطعم الخوخ. وبينما راح يتناول غداءه البسيط، لم يفكِّر في الماضي الذي شهده ذلك المرفأ الجنوبي - وإنزال البطل المُتردِّد سان مارتين وجيشه المُحرِّر، في واقعة نابضة بالحيوية - بل إنه راح يفكِّر في زوجته الدافئة، بأنانية الرجال الذين تتأجَّج في نفوسهم الرغبة وشهوانيتهم. في واقع الأمر، كانت زوجته كالطفلة الصغيرة، ببشرتها البيضاء كالثلج، وعينَيْها الزرقاوَيْن، وجعدات شعرها المُذهَّبة. راح يفكِّر كيف تتقن زوجته الوصول به إلى أقصى أمداء الحمَّى النيرونية، في الظلام الرومانسي الذي يغشى لياليه، إذ تغنِّي في سمعه بتلك اللغة الإيروتيكية بامتياز (الفرنسية التي كلّما استعصَت على الفهم زادَت إثارة)، بينما هي تطلق آهات قطة صغيرة واهنة، وترتِّل أغنيةً بعنوان **الأوراق الميتة**. أدرك أن ذكرياته الزوجية قد بدأت تثيره، فصرف ذهنه عنها إلى خواطر أخرى، ثم دفع الحساب وغادر المكان.

عبَّأ السيارة بالبنزين في محطة قريبة، كما عبَّأ الرادياتير بالماء، ثم ذهب. وعلى الرغم من خلوّ شوارع پيسكو في تلك الساعة التي تبلغ فيها الشمس أوج حدّتها، فلقد حرص على قيادة السيارة ببطء وعناية، مُفكِّرًا، لا في سلامة المارة، وإنما في سيارته الفولكس فاجن الصفراء التي كانت قرّة عينه، وإن جاءت في المقام الثاني بعد الشقراء الفرنسية الصغيرة. مضى يفكِّر في حياته: كان في الثامنة

والعشرين من العمر. ولقد اتَّخذ قراره بالعمل بعد انتهائه من الدراسة الثانوية، لأنه أنفَد صبرًا من أن يجتاز المرحلة الجامعية الانتقالية أولًا. نجح في امتحان سمح له بأن يلتحق بمختبرات باير. وعلى مدى الأعوام العشرة الماضية، زاد راتبه وتعزَّزَت مكانته، أضف إلى ذلك أن عمله لم يكُن مضجرًا. آثر العمل في الشارع على الخمول وراء المكتب. وعلى الرغم من ذلك، فلم يعُد قادرًا على أن يمضي حياته مسافرًا، تاركًا زهرة فرنسا المرهفة بليما، تلك المدينة الحافلة بالقروش التي تعيش حياتها مُتربِّصةً بجنيَّات البحر، كما يُعرَف جيدًا. وهكذا تحدَّث لوتشو أبريل مارّوكين إلى رؤسائه في العمل، الذين يوفّونه حقه من التقدير، فطمأنوه بقولهم: إنه لن يستمرّ في السفر أطول من بضعة أشهر أخرى، ثم يتولّى منصبًا بأحد الأقاليم في مطلع العام المقبل. كما أخبره بالتحديد دكتور شوالب، السويسري قليل الكلام، بأن: «تولّيه ذلك المنصب ينطوي على ترقية»، فلم يستطِع لوتشو أبريل مارّوكين الإمساك عن التفكير بأنهم ربما عرضوا عليه إدارة فرع تروخيّو أو أريكيپا أو تشيكلايو. وماذا يمكنه أن يطلب فوق ذلك؟

كان في سبيله إلى الخروج من المدينة وبلوغ الطريق السريعة. كثيرًا ما قطع تلك الطريق جيئةً وذهابًا - بالحافلات، وسيارات الأجرة المشتركة، والسيارة التي يقودها بنفسه أو يقودها أحدٌ سواه - حتى حفظها عن ظهر قلب. على مسافة بعيدة، غاب الشريط الأسود المرصوف بالأسفلت عن الأنظار وسط الكثبان والتلال الخاوية، ذلك الشريط الذي خلا من البريق الزئبقي الذي ينبئ بوجود سيارات أخرى. كانت أمامه شاحنة عتيقة متهالكة. همَّ بتجاوزها، ولكنه لمح الجسر والمفترق حيث تتشعَّب الطريق المُتَّجهة جنوبًا، وتتفرَّع كالشوكة من تلك الطريق السريعة المُمتدَّة إلى جبال كاستروبيرّيينا

المعدنية. عند ذاك استقرَّ على الانتظار حتى يتجاوز الطريق الفرعية، كما يليق برجلٍ يحبّ سيارته ويخشى القانون. لم تكُن سرعة الشاحنة تتجاوز الخمسين كيلومترًا في الساعة، فسلَّم لوتشو أبريل ماروّكين أمره، وخفَّف سرعة السيارة مُحافِظًا على مسافة عشرة أمتار بينه وبين الشاحنة. وفيما هو يقترب، رأى الجسر، ومفترق الطرقات، والهياكل الواهية - أكشاك المشروبات والسجائر وكابينة المرور - أضف إلى ذلك خيالات الرائحين والغادين بالقرب من الكبائن، أولئك الذين لم يُميِّز لهم وجوهًا، لأنه رآهم من الجهة المقابلة للضوء.

وإذا بالطفلة تظهر فجأة، في تلك اللحظة، عندما انتهى من تجاوز الجسر، وكأنها قد انبثقَت من تحت الشاحنة. أما ذلك الجسد الهزيل الذي تبدَّى في طريقه فجأةً، بوجهه المذعور ويدَيْه اللتين ارتفعتا في الهواء، ثم ارتطم بمقدم الفولكس فاجن كالحجر، فلسوف يبقى محفورًا في ذاكرة لوتشو أبريل ماروّكين إلى الأبد. كان الأمر من السرعة بحيث لم يسعفه الوقت لضغط المكابح ولا الانحراف بالسيارة إلَّا بعد الكارثة (أو بداية الكارثة). تملَّكه الهلع، وساوره شعورٌ غريب بأن ما يجري شيء لا يمتّ له بصلة، بينما تناهى إلى سمعه الصوت المكتوم الناشئ عن ارتطام مصدّ السيارة بذلك الجسد الذي رآه يرتفع راسمًا منحنى في الهواء، ثم يسقط على بعد ثمانية أو عشرة أمتار.

والآن ضغط مكابح السيارة بحدَّة جعلَت صدره يرتطم بالمقود. خيَّم عليه ذهولٌ ضارب إلى البياض، وطنين لا ينقطع، بينما ترجَّل عن الفولكس فاجن بسرعة، وانطلق يركض مُتعثِّرًا، قائلًا لنفسه «أنا أرجنتيني، أنا قاتل أطفال»، حتى وصل إلى الطفلة وحملها بين ذراعَيْه. كانت في الخامسة أو السادسة من العمر، حافية القدمَيْن،

رثَّة الثياب، يكتسي وجهها ويداها وركبتاها ببقع من الوسخ. لم يظهر عليها أدنى أثر للنزيف، غير أنها كانت مغمضة العينَيْن، ولم يبدُ عليها أنها تتنفَّس. ترنَّح لوتشو أبريل مارّوكين كالسكارى، ومضى يدور حول المكان ناظرًا يمنةً ويسرةً، صارخًا في كثبان الرمال والرياح والأمواج البعيدة: «سيارة إسعاف! طبيب!». كالحالم، أسعفه الوقت ليحسّ باقتراب شاحنة قادمة من طريق الجبل الفرعية، وربما لاحظ أنها كانت منطلقة بسرعة بالغة، أكبر مما يسمح به مفترق الطرقات. ولكن حتى لو انتبه إلى سرعة الشاحنة، فما لبث أن انصرف ذهنه عنها حين رأى واحدًا من أفراد الحرس المدني قادمًا نحوه، راكضًا، آتيًا من بين الكبائن. جاء الشرطي لاهثًا، مُتعرِّقًا، نشيطًا، وسأله ناظرًا إلى الطفلة: «هل فقدَت وعيها أم لقيت مصرعها؟».

وعلى مدى الأعوام الباقية في حياته، سيظلّ لوتشو أبريل مارّوكين يسائل نفسه عن الإجابة السليمة التي كانت تصلح لتلك اللحظة. هل كانت مصابة بجراح خطيرة، أم أن الطفلة قد فارقت الحياة؟ لم يسعفه الوقت للإجابة عن سؤال الشرطي المُتلهِّف، الذي ما كاد يطرح السؤال حتى ارتسمَت على وجهه أمارات الهول، فالتفت لوتشو أبريل مارّوكين برأسه في اللحظة المناسبة ليدرك أن الشاحنة الآتية من طريق الجبل تتَّجه نحوهم بسرعة جنونية، وهي تطلق بوق التنبيه. أغمض عينَيْه، وإذا بدويٍّ هائل ينتزع الطفلة من بين يدَيْه، ويُغرِقه في ظلمة مُرصَّعة بالنجوم الصغيرة. ظلَّ يسمع ضجيجًا مُروِّعًا، صرخات، وآهات، بينما هو مستغرق في سَكْرةٍ كاد يطغى عليها الطابع الروحاني.

بعد مضي وقت طويل، عرف أن الشاحنة قد اصطدمَت به. لم يكُن السبب في تلك الصدمة وجود عدالةٍ قائمة بذاتها، عدالة تحقِّق

المثلَ المُنصِف القائل بأن: «العين بالعين، والسنّ بالسنّ». بل كان السبب عطلًا أصاب مكابح شاحنة المناجم. كما عرف لاحقًا أن الحارس المدني قد أصيب بكسر في العنق، فقضى نحبه على الفور، وأن الطفلة - ابنة سوفوكليس الحقيقية - لم تلقَ مصرعها وحسب في تلك الحادثة الثانية (في حال لم تقتلها الحادثة الأولى)، بل إن إطار الشاحنة الخلفي المزدوج قد مرَّ من فوقها، فسوَّى جسدها بالأرض على نحوٍ مذهل، في مهرجان حافل بالبهجة من أجل الشياطين.

ولكن، بمضي الأعوام، سيقول لوتشو أبريل مارّوكين لنفسه إنه، من بين جميع التجارب التعليمية التي خاضها نهار ذلك اليوم، لم تكُن الحادثة الأولى ولا الثانية أشدّها رسوخًا، بل ما أعقب ذلك. فمن الجدير بالفضول أن مندوب المبيعات الطبية لم يفقد الوعي، أو لم يفقده لأكثر من بضع ثوانٍ، على الرغم من شدة الصدمة (التي أبقَته أسابيع طوالًا في مستشفى إمپليادو، حتى تعافى هيكله العظمي من خلع المفاصل والكسور والجروح والتمزُّقات التي كانت لا تُعَدّ ولا تُحصَى). فتح عينَيْه، فأدرك أن الأمر برمته قد حدث لتوّه، إذ وقع بصره على عشرة من السراويل والتنانير، أو اثني عشر، أو ربما خمسة عشر، رآها راكضةً، آتية من الكبائن الماثلة أمامه، من الجهة المقابلة للضوء طوال الوقت. لم يقوَ على الحركة، بَيْد أنه لم يحسّ ألمًا، بل مُجرَّد هدوء مفعم بالارتياح. قال في نفسه أنه لم يعُد مُضطرًّا إلى التفكير، وخطر على باله الأطباء والمُمرِّضات المتفانيات وسيارة الإسعاف. ها هم قد وصلوا، حاول أن يبتسم للوجوه التي مالَت عليه. ولكن الإحساس بالدغدغة والوخز والنخز جعله يدرك أن الوافدين حديثًا لم يحضروا لإسعافه: بل إنهم انتزعوا ساعته، ودسّوا أيديهم في جيوبه، وتدافعوا لإخراج حافظته، كما انتزعوا بحركة واحدة ميدالية سيِّد ليمپياس التي كان يضعها حول عنقه منذ المناولة

الأولى. والآن، بعد امتلأت نفسه عجبًا من جنس البشر، غرق لوتشو أبريل مارّوكين في جوف الليل.

استمرَّت تلك الليلة عامًا، من كل النواحي العملية. في البدء ظهر أن عواقب الكارثة لم تتجاوز الإصابات الجسدية. عندما استردَّ لوتشو أبريل مارّوكين وعيه، كان في ليما، بحجرة المستشفى الصغيرة، حيث ضُمِّد من رأسه حتى قدمَيْه، فوجد إلى جانبه الشقراء مُواطِنة المُغنِّية چولييت غريكو، وإلى جانبه الآخر دكتور شوالب من مختبرات باير، وكلاهما ينظر إليه قلِقًا، كما لو كانا ملاكَيْه الحارسَيْن اللذين جاءا يردّا السلام إلى نفسه المضطربة. وفي غمرة الانتشاء الذي سبَّبَته رائحة الكلوروفورم، شعر بالسعادة، وجرَت على وجنتَيْه الدموع لمَّا أحسَّ بشفتَي زوجته على الضمادات التي اكتسى بها جبينه.

أما التئام العظام، وعودة العضلات والأربطة إلى مكانها، والتئام الجروح وشفاؤها، أي تعافي الشطر الحيواني من شخصه، فلقد استغرق بضعة أسابيع. كانت أسابيع هيِّنة على الاحتمال بدرجة نسبية، والفضل في ذلك يرجع إلى براعة الأطباء، واجتهاد المُمرِّضات، وإخلاص زوجته الخليق بمريم المجدلية، وتضامن القائمين على المختبرات، أولئك الذين لقي منهم معاملةً لا يعيبها شيء، من المنظور العاطفي والمالي معًا. وفي مستشفى إمپليادو، بينما هو في أوج فترة النقاهة، زُفَّت إليه أخبارٌ سارّة تقول إن الفرنسية الصغيرة حبلى، وإنها ستكون أمًّا لابنه في غضون سبعة أشهر.

وبعد أن غادر المستشفى عائدًا إلى عمله وبيته في سان ميغيل، انكشفَت الجروح السرِّية المُعقَّدة التي تركَتها الحوادث في روحه. كان الأرقُ أخفّ الأسقام التي ألمَّت به، إذ بات يقضي لياليه ساهرًا، هائمًا في أرجاء البيت المعتم، حيث يدخِّن بلا انقطاع، في حالة من

الاضطراب الشديد، وهو يلقي خطبًا مُتقطِّعة. في حين تعجَّبَت زوجته من ذلك الاسم الذي ورد في خطبه على نحوٍ مُتكرِّر: هيرودس[1].

ولمَّا تغلَّب على الأرق كيميائيًّا بالأقراص المُنوِّمة، صار الوضع أسوأ: إذ داهمَت نومَه الكوابيس التي رأى فيها أبريل مارّوكين نفسه وهو يمزِّق ابنته التي لم تُولَد بعد. في البدء روَّعَت صرخاتُه النشاز زوجته، حتى أفضَت بها في النهاية إلى إسقاط الجنين الذي يُرجَح أنه كان لأنثى. «لقد تحقَّقَت الأحلام، وقتلتُ ابنتي بنفسي، سأذهب للعيش في بوينوس آيرِس»، مضى الرجل الذي قتل ابنته في أحلامه يُردِّد ليل نهار، بكآبة.

حتى هذا لم يكُن أسوأ ما نزل به، إذ جاءت ليالي الأرق والكوابيس متبوعةً بأيام مُروِّعة، فمنذ الحادثة، أُصيب لوتشو أبريل مارّوكين برهاب دفين من كل ما يسير على إطارات، أي السيارات التي صار عاجزًا عن ركوبها، سواء أكان هو القائد أم لم يكُن، وإلَّا أصيب بدوار ونوبة قيء وتصبَّب عرقه غزيرًا وانطلق صارخًا. باءت كل محاولات التغلُّب على تلك العقبة بالفشل، فاضطُرّ إلى التسليم بالعيش وكأنه في عصر حضارة الإنكا (المجتمع الذي لم يعرف الإطارات)، مع أنه في أوج القرن العشرين. لو اقتصرَت المسافات التي ينبغي له قطعها على الكيلومترات الخمسة التي تفصل بين مختبرات باير وبيته، لما أصبح الأمر على تلك الدرجة من الخطورة. بل وربما كان لتلك المسيرات الصباحية والمسائية، التي تُقدَّر كل واحدة منها بساعتَيْن، أثرٌ مُهدِّئ على روحه المُحطَّمة. ولكنه مندوب

---

(١) هيرودس (٧٣ ق. م. - ٢ ميلاديًّا): الملك الذي أمر بقتل جميع أطفال بيت لحم عندما بلغه خبر ميلاد ملك اليهود، أي المسيح، طبقًا لما ورد في الكتاب المُقدَّس. (المترجم)

مبيعات طبية، ويمتدّ مركز عملياته إلى أرض بيرو مترامية الأطراف. لذلك ترتَّبَت على رهاب الإطارات عواقب مأساوية. ولمَّا كانت عودة الحقبة الرياضية لحَمَلة الرسائل العدائين ضربًا من المحال، أصبح مستقبل لوتشو أبريل مارّوكين المهني في خطر حقيقي. وافق المختبر على تكليفه بعمل يقتضي الجلوس في مكتب ليما، فعُهِد إليه بجرد العينات، التغيير الذي كان يمثِّل انحدارًا في المكانة، من المنظور النفسي والمعنوي، مع أن راتبه لم ينخفض. والأدهى من كل ذلك أن فتاته الفرنسية الصغيرة - التي تحمَّلَت الخلل العصبي الذي أصاب زوجها كما يليق بوريثة عذراء أورليان[١] - قد راحت ضحية الهستيريا هي الأخرى، ولا سيما بعد أن فقدَت جنين أبريل. اتَّفقا على الفراق إلى أن تتحسَّن الأوضاع، فسافرَت الفتاة إلى فرنسا تلتمس العزاء في قصر والدَيْها، وعلى وجهها شحوب يُذكِّر الناظر بفَجْر قارة أنتاركتيكا وليلها.

هكذا كان لوتشو أبريل مارّوكين بعد مضي عام على الحادثة: إذ هجرَته زوجته والطمأنينة والقدرة على النوم، كما حُكِم عليه بالمضي في حياته سيرًا (بالمعنى الضيق للكلمة)، نظرًا إلى الكراهية الشديدة التي بات يضمرها للإطارات، ولم يعُد له سوى الغمّ صديق. اكتسَت الفولكس فاجن الصفراء بالنباتات المُتسلِّقة وبيوت العناكب، قبل أن تُباع لشراء تذكرة سفر الزوجة الشقراء إلى فرنسا. مضى رفاقه ومعارفه يتهامسون بشائعة مفادها أنه لم يعُد أمامه سوى الطريق التعيسة المُفضِية إلى مستشفى الأمراض العقلية، أو الحلّ المُدوِّي الذي يتمثَّل في: الانتحار. وفي تلك الأثناء - كما يتساقط المَنّ مِن السماء، وتنهمر الأمطار على الرمال العطشى - بلغه الخبر القائل

---

(١) عذراء أورليان: چان دارك. (المترجم)

بوجود امرأة، لا هي بالكاهنة ولا الساحرة، قادرة على شفاء الأرواح: دكتورة لوسيا أسيميلا. كانت امرأة راقية، بلا عقد، بلغَت السنّ المثالية طبقًا لما أثبَت العلم: سنّ الخمسين. كان لها جبين عريض وأنف معقوف ونظرة ثاقبة وروح مستقيمة صالحة. كانت دكتورة أسيميلا هي النقيض الحيّ لاسمها[1]، الذي تباهَت وافتخرَت به كما لو كان وسامًا، فزيَّنَت به البطاقات المطبوعة ولافتات العيادة على مرأى من البشر الفانين. كان الذكاء فيها سمةً جسدية، يمكن لمرضاها (الذين آثرَت تسميتهم **أصدقاءها**) أن يروه بأعينهم، ويسمعوه بآذانهم، ويتنشَّقوه بأنوفهم. حصلَت على كثير من الدبلومات رفيعة المستوى في مراكز المعرفة الكبرى - برلين التيوتونية، ولندن الباردة، وباريس الآثمة - غير أن الجامعة الأساسية التي تلقَّت منها معارفها الواسعة في التعاسة البشرية وسبل الشفاء منها كانت (بطبيعة الحال): جامعة الحياة. وعلى غرار كل كائن يسمو بنفسه فوق المُتوسِّط، دار بشأنها الجدل، وتعرَّضَت للانتقاد والسخرية الشفاهية من الزملاء، أطباء النفس وعلماء النفس العاجزين عن صنع المعجزات، بعكس دكتورة أسيميلا، التي لم تكترث لنعتها بالمشعوذة والشيطانة ومُفسِدة الفاسدين والمجنونة وغير ذلك من النعوت الخبيثة. غير أنها اكتفَت بامتنان **أصدقائها** لتعرف أن الحقّ إلى جانبها، امتنان جحافل مرضى الشيزوفرانيا والبارانويا والاكتئاب الهوسي والجامود، أضف إلى ذلك مُضرِمي النيران وقتلة الآباء والمُستمنِين والمجرمين والروحانيين والمُتلعثِمين، أولئك الذين ما كادوا يضعون أنفسهم بين يدَيْها، ويخضعون لعلاجها (أو ما آثرَت تسميته: **نصائحها**)، حتى عادوا إلى الحياة آباءً مُحبِّين وأبناءً مطيعين

(١) أسيميلا «Acémila»: يعني «بغلة» باللغة الإسبانية. (المترجم)

وزوجات فاضلات ومهنيين أمناء ومُتحدِّثين لبقين ومواطنين يحترمون القانون إلى حدّ الهوس.

كان دكتور شوالب هو الذي أوصى لوتشو أبريل مارّوكين بزيارة الدكتورة، وهو الذي رتَّب الموعد بخفَّته السويسرية التي أنتجَت لنا ساعات في منتهى الدقَّة. حضر الأرِقُ في موعده مُسلِّمًا أكثر منه واثقًا، فوصل إلى ذلك البيت الكبير ذي الجدران الوردية الذي أحاطت به حديقة ملأى بنباتات الكولونيا في حي سان فيليپي السكني، حيث كانت عيادة لوسيا أسيميلا (أو معبدها، أو مختبرها الروحي، أو كرسي الاعتراف الخاص بها). طلبَت منه بعضَ البيانات مُمرِّضةٌ لا تشوبها شائبة. وبعد ذلك سمحَت له بالدخول إلى مكتب الدكتورة، تلك الحجرة ذات السقف المرتفع والأرفف المُكتظَّة بالكتب المُجلَّدة، حيث استقرّ مكتبٌ من خشب الماهوجني وأبسطة ناعمة وأريكة مخملية خضراء بلون النعنع.

- «اخلع عنك الأحكام المسبقة التي جئتَ بها، والسترة وربطة العنق أيضًا»، توجَّهَت إليه دكتورة لوسيا أسيميلا بتلقائية الحكماء التي تترك المرء أعزل، ثم أشارت إليه حتى يجلس على الأريكة. «واستلقِ هنا على ظهرك، أو على بطنك، لا أريد بذلك أن أضفي مظهرًا فرويديًّا على ما يجري، ولكني حريصة على راحتك. والآن، لا تخبرني بأحلامك ولا تعترف لي بأنك واقع في غرام أمك، بل قُلْ لي بأكبر قدر ممكن من الدقة، كيف حال هذه المعدة؟».

على استحياء، خُيِّل إلى مندوب المبيعات الطبية، الذي استلقى على الأريكة اللينة، أنها تخلط بينه وبين شخص آخر، فواتته الجرأة الكافية ليغمغم قائلًا إنه لم يذهب إلى هذه العيادة بسبب داء في المعدة، وإنما في الروح.

- «لا يمكن التفريق بينهما»، أخبرَته الطبيبة. «فالمعدة المنتظمة

في الإخراج توأمُ الذهنِ الصافي والروحِ السويَّة. أما المعدة الخاملة الكسولة الجشعة، فتبثُّ الأفكار الخبيثة، وتضفي على الطباع مرارةً، وتثير العُقَد والشهوات الجنسية المنحرفة، وتحرِّض على الجريمةِ، وتزرع في المرء احتياجًا إلى عقاب الآخرين للتنفيس عن ذلك العذاب الذي يتسبَّب فيه الغائط».

أما وقد لقَّنَته تلك المعلومات، فاعترف لها لوتشو أبريل مارّوكين بأنه يعاني من عسر الهضم والإمساك في بعض الأحيان، بل إن فضلاته غير مُنتظِمة ومُتقلِّبة من حيث اللون والحجم والملمس ودرجة الحرارة، من دون شك، مع أنه لا يذكر أنه قد تلمَّسها خلال الأسابيع الأخيرة. أومأت الدكتورة بطيبة، وهي تغمغم بقولها: «كنتُ أعرف». ثم أوصَت الشاب بضرورة تناول نصف دزينة من البرقوق المُجفَّف كل صباح على الريق، إلى حين صدور أوامر جديدة.

- «أما وقد حللنا هذه المسألة التي تأتي في المقام الأول، فلنتطرَّق إلى باقي المسائل»، أردفَت الفيلسوفة. «لك أن تحكي لي ماذا بك. ولكن دعني أخبرك مُقدَّمًا بأنني لن أستأصل مشكلتك، بل إنني سوف أعلِّمك كيف تحبِّها، وتزهو بها، كما تباهَى ثربَنتس بالذراع المبتورة، وبيتهوفن بالصمم. تكلَّم».

وبطلاقة هذَّبَتها عشرةُ أعوام من الأحاديث المهنية التي جمعَته بالأطباء والصيادلة، أوجز لوتشو أبريل مارّوكين قصته بصدق، بدءًا بحادثة پيسكو المشؤومة، وصولًا إلى كوابيس عشية البارحة، مرورًا بعواقب الدراما الوخيمة في إطار الأسرة. أخذَته الشفقة بنفسه، فأجهش بالبكاء وهو يسرد الفصول الأخيرة من القصة، وختم تقريره بصيحة لو سمعها أحدٌ سوى دكتورة لوسيا أسيميلا لانفطر قلبه: «دكتورة، ساعديني!».

- «لم أشعر بالأسى لقصتك، وإنما بالملل، من فرط ما انطوَت

عليه من تفاهة وحماقة»، طمأنَته مهندسة الأرواح بحنان. «امسح أنفك واقتنع بأن داءك في جغرافيا الروح يضاهي الظفر الملتهب في جغرافيا الجسد. والآن، أنصت إليّ».

وبأسلوب المرأة التي ألفَت التردّد إلى صالونات المجتمع الراقي، أوضحَت له أن ضياع البشر يكمن في الخوف من الحقيقة وروح التناقض. أما في ما يتعلّق بالشقّ الأول، فأضاءت ذهن الرجل المصاب بالأرق، وأوضحَت له أن **الحوادث** المزعومة والمصادفة لا وجود لهما، فكلاهما مَهْرَب اختلقه البشر لمداراة الشرّ الساكن في نفوسهم.

- «خلاصة القول إنك أردتَ قتل الطفلة، فقتلتَها»، صوَّرَت له الدكتورة خواطره. «ثم تهيَّبتَ فعلتك، وخفتَ من الشرطة، أو من الجحيم، فأردتَ من الشاحنة أن تصدمك، إما لإثارة الأسى في النفوس وإما للتنصُّل من جريمة القتل».

- «ولكن، ولكن. . .»، تلعثم مندوب المبيعات الطبية، في حين وشَت عيناه الجاحظتان وجبينه المُتعرِّق باليأس الجارف الذي استحوذ عليه. «ماذا عن الحارس المدني؟ هل قتلتُه أيضًا؟».

- «ومَن لم يقتل حارسًا مدنيًّا ذات مرة؟»، تأمَّلَت العالمة. «ربما قتلتَه أنت، وربما قتله قائد الشاحنة، وربما كان انتحارًا. ولكن هذا ليس عرضًا خاصًّا يحضره اثنان بتذكرة واحدة. دعنا نهتمّ بأمرك أنت».

أوضحَت له أن المرء متى قمع نزواته الطبيعية، تأذَّت روحه، وانتقمَت منه بالكوابيس والفوبيا والعُقَد والغمّ والاكتئاب.

- «لا يمكن للمرء أن يحارب نفسه، لأن الخاسر في تلك المعركة واحد في جميع الأحوال»، بشَّرَت الرسولة. «لا تخجل مما أنت عليه، وتعزَّ بالتفكير أن البشر كلهم ضباع. أما الطيبة، فتعني

إتقان الرياء، ببساطة. انظر إلى المرآة وقُلْ لنفسك: أنا قاتل أطفال، جبان، أخاف السرعة. كفانا ألفاظًا مُخفَّفة: لا تحدِّثني عن الحادثة ولا عن متلازمة الإطار».

ثم شرعَت تسوق الأمثلة، وأخبرَته بأنها تقدِّم المجلات الإباحية لعلاج المُستمنين أصحاب الأجساد الضامرة الذين يحضرون ويتوسَّلون إليها جاثين على الأرض كي تشفيهم. أما المدمنون الحثالة الذين يزحفون على الأرض وينتفون شعرهم بينما هم يتكلَّمون عن القضاء والقدر، فتقدِّم لهم سجائر محشوة بالماريجوانا وحفنات من أوراق الكوكا.

- «أتصفين لي الاستمرار في قتل الأطفال؟»، زمجر مندوب المبيعات الطبية، كالحمَل الذي انمسخ وبات نمرًا.

- «ما دام ذلك هو الشيء الذي يروق لك، فلمَ لا؟»، أجابَته العالمة النفسية في برود. ثم نبَّهَته: «إياك ورفع صوتك، فأنا لستُ من أولئك التجار الذين يحسبون أن الزبون دائمًا على حقّ».

إنخرط لوتشو أبريل مارّوكين في البكاء مرة أخرى، فلم تحفل به دكتورة لوسيا أسيميلا، وإنما استغرقَت عشر دقائق في كتابة عدد من الأوراق عنوانها الرئيسي: **تمارين لتعلُّم العيش بصدق**. سلَّمَته الأوراق وضربَت له موعدًا بعد ثمانية أسابيع. وبينما هي تودِّعه بشَدَّةٍ على يده، ذكَّرَته بألَّا ينسى النظام الغذائي الصباحي المُكوَّن من البرقوق المُجفَّف.

شأن الغالبية العظمى من مرضى دكتورة أسيميلا، خرج لوتشو أبريل مارّوكين من العيادة شاعرًا بأنه ضحية خدعة نفسية، موقنًا بأنه وقع في حبائل امرأة مجنونة عجيبة سوف تؤدِّي إلى تفاقم متاعبه لو ارتكب حماقةَ الالتزام بوصفاتها. اتَّخذ قراره بالتخلُّص من تلك **التمارين** في المرحاض، من دون أن ينظر إليها. وعلى الرغم من

ذلك، فلقد طالعها في الليلة ذاتها، تحت وطأة الأرق الذي يحرِّض المرء على الشطط. تراءَت له مَرَضيةً في عبثها، فاستغرق في ضحك شديد حتى أصابه الفواق (الذي طرده بتناول كوب الماء مقلوبًا، كما علَّمَته أمه). وبعد ذلك، شعر بالفضول الحارق يأكله، فاستقرّ على ممارسة **التمارين** حتى يشتِّت ذهنه ويملأ ساعات الأرق الخاوية، مع أنه لم يؤمن بخواصها العلاجية.

لم يجد صعوبة في العثور على احتياجاته وشراء السيارة والشاحنة الأولى والشاحنة الثانية في قسم الألعاب القائم بمتجر سيرز، فضلًا عن الدمى التي تمثِّل الطفلة والحارس المدني واللصوص ولوتشو أبريل مارّوكين شخصيًّا. وبمقتضى التعليمات، طلى السيارات بالألوان الأصلية من الذاكرة، كما فعل بثياب الدمى أيضًا. (كان ماهرًا في الرسم، فأتقن رسم زي الشرطي، وثياب الطفلة المتواضعة وبقع الوسخ البادية على جسدها). ولمحاكاة كثبان بيسكو الرملية، استخدم ورقة من أوراق التغليف، كما رسم على طرفها شريطًا أزرق تطوِّقه هالة من الزبد يمثِّل المحيط الهادي، مغالاةً منه في تلبية تلك الرغبة المُلِحَّة التي كانت تدفعه إلى تقديم نسخة وافية. خلال اليوم الأول، استغرق نحو ساعة كاملة في إعادة تمثيل القصة، ساعة أمضاها جاثيًا على الأرض بحجرة المعيشة والطعام في بيته. وحين فرغ من إعادة تمثيل القصة، أي عندما انقضّ اللصوص على مندوب المبيعات الطبية لسرقته، كاد يشعر بالرعب والألم اللذين استحوذا عليه يومَ الحادثة. استلقى أرضًا على ظهره، وأخذ ينتحب، بينما العرق البارد يتصبَّب من جسده. ولكن الصدمة العصبية تضاءلَت على مدى الأيام التالية، فاكتسبَت العملية سمات رياضية، وصارت تمرينًا يعود به إلى الطفولة، ويتلهَّى به لوتشو أبريل مارّوكين طوال الساعات التي ما كان يدري كيف يشغلها الآن وقد

صار بلا زوجة، علمًا أنه لم يفتخر يومًا بالنهم إلى القراءة أو الولع بالموسيقى. كان الأمر أشبه بتجميع أجزاء لعبة أو حلّ أحجية أو كلمات متقاطعة. أحيانًا، في مخزن مختبرات باير، وبينما هو يوزِّع العينات على المندوبين، كان يفاجئ نفسه بالنبش في الذاكرة مُفتِّشًا عن تفصيلةٍ، لفتةٍ، سببٍ قد يسمح له بإدخال مُتغيِّرات جديدة وإطالة تمثيل الحادثة في تلك الليلة. وقع بصر السيدة التي تحضر لتنظيف البيت على أرضية حجرة المعيشة والطعام، فرأتها حافلةً بالدمى الصغيرة الخشبية والسيارات البلاستيكية، عندئذ سألَته إن كان يفكِّر في تبنِّي أحد الأطفال، ونبَّهَته إلى أنها سوف ترفع الأجر في حال تمَّ له ذلك. طبقًا لتسلسل **التمارين** الوارد في وصفة الطبيبة، صار عليه في تلك المرحلة أن يعيد تمثيل الواقعة (الحادثة؟) ست عشرة مرة كل ليلة، بالحجم الصغير.

أما الجزء المُتعلِّق بالأطفال الوارد في **تمارين تعلُّم العيش بصدق**، فتراءى له أشدّ عبثًا من تمثيلية الدمى، ولكنه التزم به أيضًا (أتراه القصور الذاتي الذي يجرف المرء إلى الرذيلة، أم الفضول الذي يرجع إليه الفضل في تطوُّر العلوم؟). انقسم ذلك الجزء إلى قسمَيْن: «التمارين النظرية»، و«التمارين العملية». ولقد أشارت دكتورة أسيميلا إلى ضرورة ممارسة التمارين النظرية قبل العملية، أوليس الإنسان كائنًا عاقلًا يأتي بالأفكار قبل الأفعال؟ أما الجزء النظري، فلقد أعطى مجالًا فسيحًا لمَلَكة الرصد والتأمُّل التي كان مندوب المبيعات الطبية يتحلَّى بها، إذ اقتصر على الوصفة الآتية: «تأمَّل المصائب التي يتسبَّب فيها الصغار للبشرية بصفة يومية»، الواجب الذي كُلِّف بأن يؤدّيه في أي ساعة من ساعات اليوم، وفي أي مكان، على نحو منهجي.

ما الضرر الذي تسبب فيه الصغار الأبرياء للبشرية؟ ألم يكونوا

هم النعمة والنقاء والبهجة والحياة؟ تساءل لوتشو أبريل مارّوكين صبيحة اليوم الأول من أيام التمارين النظرية، بينما هو يقطع الكيلومترات الخمسة في طريق الذهاب إلى المكتب. وعلى الرغم من ذلك، اعترف بأنهم ربما كانوا يتسبَّبون في ضوضاء عارمة، وإن فعلها حتى يساير الوصفة، لا عن اقتناع. بالفعل، يُكثِر الصغار من البكاء في أي وقت ولأي سبب. أضف إلى ذلك عجزهم عن الانتباه إلى الضرر الذي ربما تسبَّبَت فيه تلك النزعة، واستحالة **إقناعهم** بمزايا الصمت، لأنهم ما زالوا بلا عقل. عند ذاك تذكَّر حالة ذلك العامل الذي عاد إلى بيته، بعد أيام مضنية من العمل في المنجم، غير أنه لم يتمكَّن من النوم بسبب البكاء المحموم الذي انخرط فيه الطفل حديث الولادة، فانتهَت بالعامل الحال وقد... هل أردى الطفل قتيلًا؟ كم مليونًا من الحالات المشابهة قد سُجِّلَت على وجه الأرض؟ كم من العاملين والقرويين والتجّار والمُوظَّفين - المُثقَلين بتكاليف الحياة المرتفعة والرواتب البخسة والمساكن غير اللائقة - يعيشون في شقق ضيقة ويشاطرون ذريتهم الحجرات؟ كم منهم يعجز عن الاستغراق في النوم المُستحَقّ بسبب صراخ طفل لا يقدر على البوح بما يحمله على الصياح، سواء أكان يعاني الإسهال... أم تراه يرغب في الرضاعة من الصدر مرة أخرى؟

مساء ذلك اليوم، مضى لوتشو أبريل مارّوكين ينقِّب وينقِّب، طوال الكيلومترات الخمسة التي قطعها في طريق العودة، حتى وجد أنه من الجائز أن يُنسَب للأطفال خراب كثير أيضًا. ذلك أنهم، بخلاف صغار الحيوانات بأنواعها، يستغرقون وقتًا أطول من اللازم قبل أن يتمكَّنوا من الاعتماد على النفس، وما أكثر الأضرار الناجمة عن تلك النقيصة! فهم يخرِّبون كل شيء، اللوحات الفنية والمزهريات المصنوعة من الكريستال، كما يمزِّقون الستائر التي

تحرق ربة البيت عينَيْها كي تصنعها. بل إنهم يضعون أيديهم المُلوَّثة بالغائط على المفرش المُنشَّى أو وشاح الدانتيل الذي يشتريه المرء بالحبّ وحرمان الذات، بلا أدنى شعور منهم بالحرج. دع عنك عادة العبث في المقابس الكهربائية بالأصابع والتسبُّب في الماس الكهربائي أو التعرُّض للصعقات الكهربائية، بطريقة غبية، بكل ما يعنيه ذلك للأسرة: النعش الأبيض، والمدفن، وتشييع الجثمان، والنعي المنشور في جريدة إل كومِرسيو، وثياب الحداد، والحداد.

اكتسب عادة الاستغراق في ذلك التمرين خلال روحاته وغدواته، بين المختبر وسان ميغيل. وحتى لا يكرِّر نفسه، كان إذا بدأ التمرين يعدّ موجزَ التُهَّمِ التي سبق أن وجَّهها إليهم في تأمُّلاته السابقة، ثم ينتقل إلى استكشاف تهمة جديدة. وهكذا تعاقبَت المواضيع بسلاسة، فلم يعدم الحجج يومًا.

على سبيل المثال، وفَّرَت الجرائم الاقتصادية التي يرتكبونها مادةً كافية لمسافة تُقدَّر بثلاثين كيلومترًا. أليس مأساويًّا كيف يخرِّب **الصغارُ** ميزانية الأسرة؟ إنهم يثقلون موارد الأسرة بحملهم الذي يتناسب وحجم الأطفال تناسبًا عكسيًّا. ولا تقتصر أسباب ذلك على الشراهة المُستمِرّة، ورهافة المعدة التي تستلزم أطعمة مُميَّزة، بل إنها تمتدّ لتشمل المؤسَّسات اللامتناهية التي كانوا **هم** السبب في وجودها: خدمات القابلات والمُربِّيات، والحضانات، ومراكز رعاية الطفل، وحدائق الطفل، ودور السيرك، ورياض الأطفال، والحفلات الصباحية، ومتاجر الألعاب، ومحاكم الأحداث، والمُؤسَّسات الإصلاحية، دع عنك التخصُّصات المُتَّصلة بالأطفال - تلك الكائنات الطفيلية المنتشرة التي تخنق الشجرة الأم - في مجالات الطبّ وعلم النفس وطبّ الأسنان وغير ذلك من العلوم. خلاصة القول إنه جيشٌ لا بدّ من إطعامه وإلباسه وإعالته على نفقة **الآباء** المساكين.

ذات يوم، وجد لوتشو أبريل مارّوكين نفسه على شفير البكاء، إذ راح يفكِّر في الأمهات الشابات اللاتي يؤدِّين واجبهم الأخلاقي بعناية، ويحرصن على رأي الآخرين فيهن، فيدفنّ أنفسهن على قيد الحياة لرعاية صغارهن، ويهجرن الحفلات ودور السينما والأسفار حتى يتخلَّى عنهن الأزواج الذين ينتهي بهم المطاف إلى الوقوع في الخطيئة لا محالة، من كثرة ما يُضطَرّون إلى الخروج من دون زوجاتهم. وكيف يعوِّض الصغارُ أمهاتهم عن السهر والعناء؟ بالنمو، والاستقلال في بيت منفصل، وهجران الأمهات في يُتْمِ الشيخوخة.

عَبْر هذه الطريق، وصل إلى هدم أسطورة البراءة والطيبة المنسوجة حول **الصغار** وهو لا يدري. ألَّا ينتزعون أجنحة الفراشات، ويزجّون بالأفراخ الحية في الأفران، ويتركون السلاحف رأسًا على عقب حتى الموت، ويقتلعون أعين السناجب، مُتذرِّعين بتلك الحجة الشهيرة القائلة بأنهم بلا عقل؟ أليس المقلاع الذي يقتلون به الطيور سلاحًا للكبار؟ ألا يُظهِرون قسوةً مع غيرهم من الأطفال الأكثر ضعفًا؟ ومن جهة أخرى، كيف يمكن وصف كائنات من هذا القبيل **بالذكاء**، وهم يترنَّحون بصورة خرقاء، وينكفئون على الجدران ويصيبون أنفسهم بالرضوض، بعمرٍ يتمكَّن فيه أيّ قطٍّ صغير من البحث عن الطعام بنفسه؟

كان لوتشو أبريل مارّوكين يمتلك حسًّا جماليًّا مرهفًا، ما زوَّده بمادة كافية طوال مسيرات كثيرة. كان يودّ لو احتفظَت النساء جميعًا بالنضارة والرشاقة حتى يبلغن سنّ اليأس، وشعر بالأسى حينما أخذ يُعدِّد الأضرار التي تُسبِّبها الولادة للأمّ: إذ تتفجَّر خصور النحلات الرشيقة بعد أن كانت تتَّسع لها راحة اليد، وتمتلئ بالدهون، مثل الصدور والأرداف. أما البطون، فتتراخى وتنتفخ وتتهدَّل وتتجعَّد، بعد أن كانت مصقولة كالمعدن الذي لا تترك فيها الشفاه خدشًا. بل

إن بعض النساء يتمايلن في سيرهن كما يتمايل البطّ من شدة الانقباضات والتشنُّجات التي يتكبَّدن في حالات الولادة المُتعسِّرة. وبارتياح، بينما هو يتذكَّر فتاته الفرنسية الصغيرة التي تحمل اسمه، صاحبة الجسد الرشيق كالتماثيل، ابتهجَت نفسه لأنها لم تلد كائنًا مكتنزًا قد يخرِّب جمالها، وإنما لفظَت فتات بشرٍ. في يوم آخر، وبينما هو يقضي حاجته - بعد أن صارت معدته كالقطار الإنجليزي بفضل البرقوق المُجفَّف - أدرك أنه ما عاد يرتعد جوفًا إذا خطر هيرودس على باله. وذات صباح، وجد نفسه يسدِّد ضربةً إلى رأس طفل مُتسوِّل.

عند ذاك عرف أنه قد بلغ طور «التمارين العملية»، من دون عمد، بالتلقائية التي تسافر بها النجوم من الليل إلى النهار. وضعَت دكتورة أسيميلا تلك التعليمات تحت العنوان الفرعي الآتي: «التحرُّك المباشر». وبينما أخذ لوتشو أبريل مارّوكين يعيد قراءتها، تراءى له أنه يسمع صوت الدكتورة العلمي. كانت تلك التمارين العملية تتَّسم بالدقة، على عكس التمارين النظرية، وتقتضي تنفيذ عمليات انتقامية صغيرة، على المستوى الفردي، بعد إدراك المصائب التي يتسبَّب فيها **الأطفال** بوضوح. اقتضَت الضرورة مراعاة الكتمان، تحسُّبًا لبعض المبادئ الديماغوغية من قبيل «الطفولة المُعذَّبة» و«لا مساس بالطفل» و«الضرب على المُؤخِّرة يصيب الطفل بالعُقَد».

الحقّ أنه وجد مشقة بالغة في البدء. وكان إذا مرَّ بواحد منهم في الشارع لم يدرِ لا هو ولا الطفل إن كانت يده قد استقرَّت على ذلك الرأس الصغير على سبيل العقاب أم المداعبة الغليظة. ولكن، رويدًا رويدًا، أخذ يتغلَّب على الحرج والمحظورات التي فرضها الأسلاف، بالثقة التي تسبغها الممارسة، فتشجَّع وتحسَّن أداؤه وأخذ زمام المبادرة. بعد مضي بضعة أسابيع، وعلى نحو ما تنبَّأت به

التمارين، لاحظ أن الضربات التي يُسدِّدها إلى الرؤوس في الأركان، وقرصاته التي تترك في البشرة رضوضًا، وركلاته التي تحمل مُتلقِّيها على الصراخ، لم تعُد مُجرَّد واجبات فُرِضَت عليه لأسباب معنوية ونظرية، بل صارت مصدرًا للمتعة. راقَت له رؤية الدموع في عيون البائعين الذين يقتربون منه حتى يعرضوا عليه بطاقات اليانصيب، فإذا هو يباغتهم بصفعة على الوجه. كما أصبح يجد إثارةً - كتلك التي يجدها مُشاهِد مصارعة الثيران - متى ركل الطفلَ الذي يرافق الشحاذة العمياء وهو يقرع صحن الصدقةِ في الصباح، فيسقط الطفل أرضًا ويتحسَّس الساق التي ركلها لوتشو أبريل مارّوكين لتوّه. كانت «التمارين العملية» محفوفة بالمخاطر. وعلى الرغم من ذلك، فبدلًا من إقناعه بالعدول عما هو فاعل، حفَّزَت المخاطر مندوبَ المبيعات الطبية الذي اكتشف في نفسه قلبًا جسورًا. لم تفتر عزيمته، ولا حتى في ذلك اليوم حين طارده قطيع من الأقزام بالعصي والأحجار لأنه مزَّق كرتهم.

وهكذا، على مدى الأسابيع التي استغرقها العلاج، ارتكب عددًا كبيرًا من تلك الأمور التي جرَت العادة على وصفها بالأفعال الخبيثة، بسبب الخمول الذهني الذي يفضي بالناس إلى الغباء. مضى يبتر رؤوس الدمى التي تستخدمها المُربِّيات في تسلية **الصغيرات** بالمنتزه، وينتزع المصاصات والطوفي والكراميل قبل أن يضعها الصغار في أفواههم بلحظات، ثم يدهسها بقدمه أو يلقيها للكلاب. كما ذهب يجوس خلال دور السيرك ومسارح العرائس في عروض الأطفال الصباحية، حيث انطلق يجذب الضفائر والآذان ويقرص الأذرع والسيقان والمُؤخِّرات حتى أصيبَت أصابعه بالخدر. وبطبيعة الحال، لجأ إلى حيل قديمة مثل إخراج اللسان ورسم أمارات التجهّم على الوجه. كما انطلق يحدّث الأطفال، حتى بحّ صوته، عن الغول

والذئب المفترس ورجل الشرطة والهيكل العظمي والمشعوذة ومصاص الدماء وغيرهم من الشخصيات التي ابتدعَتها مخيلة الكبار لإخافتهم.

وذات يوم (مثل كرة الثلج التي تنحدر على الجبل حتى تغدو انهيارًا جليديًّا)، تملَّك لوتشو أبريل مارّوكين ذعرٌ شديد، إلى حدٍّ جعله يسارع بالذهاب إلى عيادة دكتورة أسيميلا بسيارة أجرة، حتى يصل في وقت أقصر. ما إن دلف إلى المكتب الصارم، وعرقه يتصبَّب جليدًا، حتى صرخ بصوت مرتجف:

- «كدتُ أدفع طفلةً تحت عجلات ترام سان ميغيل، ولكني تمالكتُ نفسي في اللحظة الأخيرة لأني رأيتُ شرطيًّا»، وبينما هو ينتحب **كالأطفال**، صرخ قائلًا: «كنتُ على وشك أن أصبح مجرمًا يا دكتورة!».

- «أنت مجرم بالفعل أيها الشاب فاقد الذاكرة»، ذكَّرَته العالمة النفسية، وهي تشدِّد على كل مقطع من مقاطع الكلمات. وبعد أن رمقَته بنظرة من رأسه حتى قدمَيْه، أدلَت بحكمها، شاعرةً بالرضى عن نفسها: «لقد شفيت».

عند ذاك - وكأنها ومضة من الضوء الذي يشرق في قلب الظلمات، أو دفقة مطر من النجوم التي تتهاوى في البحر - تذكَّر أنه جاء... بسيارة أجرة! كاد يجثو على ركبتَيْه أمامها، ولكن الحكيمة استوقفَته:

- «لا أحد يلعق يدَيّ سوى كلبي الدانماركي الكبير. كفاك مشاعر فيَّاضة! لك أن تغادر، **فالأصدقاء** الجدد ينتظرون. سوف تصلك الفاتورة في حينه».

«إنها الحقيقة، لقد شفيت»، أخذ مندوب المبيعات الطبية يكرِّر على نفسه بسعادة: في الأسبوع الأخير، أصبح ينام سبع ساعات

يوميًّا. وبدلًا من الكوابيس، أصبحَت تراوده الأحلام الهانئة التي يرى فيها نفسه على شطآن مذهلة، حيث تسمرّ بشرته تحت أشعة الشمس المستديرة مثل كرة القدم، ويرى السلاحف تزحف على مهل وسط نخلات لها سعفات كسنان الرماح، ويرى جماع الدلافين الشقية وسط الموجات الزرقاء. استقلَّ سيارة أجرة أخرى إلى المختبرات، مع سبق الإصرار والترصُّد في تلك المرة، كما يليق بالرجل المُتمرِّس. وفي الطريق، بكى حين تأكَّد له أن **دوران الإطارات** في طريق الحياة ما عاد يورثه مخاوف القبور ومشقات الكون، وإنما اقتصرَت آثاره على دوار خفيف. سارع بتقبيل هاتين اليدَيْن الأمازونيتَيْن، يدي دُوُن فيديريكو تِيِّيس أونساتيغي، الذي وصفه بأنه «الناصح والمُخلِّص، والأب الجديد». فتقبَّل رئيسه في العمل تلك الكلمات واللفتات بالإجلال الذي يدين به كل سيِّد إلى عبيده، ما دام يحترم نفسه. كما أشار إلى أنه، تمّ له الشفاء من العُقَد القاتلة أم لم يتمّ، يجب عليه الوصول في موعده إلى شركة س أ لمكافحة القوارض في موعده بدقة على كل حال، وإلَّا عوقِب بالغرامة، وكأن رئيسه في العمل من أنصار المذهب الكالفيني، لا مكان في قلبه للمشاعر.

وهكذا خرج لوتشو أبريل مارّوكين من النفق الذي غرقَت فيه حياته بعد حادثة پيسكو الغبراء. ومنذ ذلك الحين، بدأ كل شيء يسير في المسار الصحيح. فعادت ابنة فرنسا الحلوة إلى أرض الإنكا بوجنتَيْن نابضتَيْن بالعافية وقلب مفعم بالحبّ، عادَت وقد شفيت من آلامها بفضل تدليل الأسرة، وانتعشَت بفضل نظام نورماندي الغذائي بما حوى من الجبن المثقوب والحلزون اللزج، فكان لقاء الزوجَيْن مرة أخرى شهر عسل مُطوَّلًا، بما انطوى عليه ذلك من قبلات مُسكِرة، وعناقات جامحة، وغير هذا من مظاهر التبذير العاطفي التي

أفضَت بالزوجَيْن العاشقَيْن إلى حافة الأنيميا. سرعان ما استردّ مندوب المبيعات الطبية مكانته البارزة التي كان يشغلها في المختبرات، كالثعبان الذي يتضاعف نشاطه إذا بدَّل جلده. ونزولًا عند الطلب الذي تقدَّم به ليثبت أنه ما زال الشخص الذي كانه في ما مضى، عهد إليه دكتور شوالب مرة أخرى بمسؤولية السفر عَبْر قرى بيرو ومدنها، جوًّا وبرًّا ونهرًا وبحرًا، لترويج منتجات مختبرات باير بين الأطباء والصيادلة. ونظرًا إلى فضائل الزوجة الاقتصادية، سرعان ما تمكَّن الزوجان من تسديد جميع الديون التي نشأت خلال الأزمة، وشراء فولكس فاجن جديدة بالتقسيط، فجاءت صفراء اللون أيضًا، بطبيعة الحال.

عاش الزوجان حياة لا يعيبها شيء، على ما يظهر (ولكن، ألا توصي الحكمة الشعبية «بألَّا يثق المرء بالمظاهر؟»). لم يعُد مندوب المبيعات الطبية يستحضر الحادثة إلَّا فيما ندر، فصار يذكرها مزهوًا، لا مُثقَلًا بالغمّ. إلَّا أنه امتنع عن التباهي في العلَن، وهو ابن الطبقة المُتوسِّطة الذي يُراعِي الأعراف الاجتماعية. ولكن، في حميمية البيت، عُشّ غرام، وفي كنف المدفأة المضرمة على وقع الموسيقى الآتية من كمان فيفالدي، تبقَّى من علاج الأستاذة أسيميلا شيء (وكأنه الضوء الذي يدوم في الفضاء بعد انطفاء النجم، أو الأظافر وخصلات الشعر التي تنمو في الجثة الهامدة). فمن جهة، ولع لوتشو أبريل مارّوكين بألعاب الدمى والمكعبات وتماثيل الجنود والقطارات الصغيرة، فاعتُبِر ذلك الولع ضربًا من الشطط بالنظر إلى عمره. وهكذا امتلأت الشقة بالألعاب التي احتار في أمرها الجيران والخادمات. وخيَّمت الظلال الأولى على التناغم الزوجي، إذ بدأت الفرنسية الصغيرة تمتعض ذات يوم لأن زوجها يمضي الآحاد والأعياد لاهيًا بالمراكب الورقية في المغطس، أو لاعبًا بالطائرات

الورقية في السطح. ولكن الشيء الذي كان أشدّ خطورة، ولم يلائمها بأي حال من الأحوال، هو رهاب الأطفال الذي ظلّ حاضرًا في روح لوتشو أبريل مارّوكين منذ عهد «التمارين العملية». إذ بات من المستحيل عليه أن يمرَّ بأحد **الصغار** في الشارع أو المنتزه أو الميدان العام من دون أن يذيقه شيئًا من «القسوة»، حسبما أطلق عليها العامة. أما في الأحاديث التي جمعَته بزوجته، فدرج على نعتهم بأوصاف تحقيرية من قبيل «المفطومين» و«ساكني الليمبو[1]». وفي ذلك اليوم، عندما حملَت الشقراء مرة أخرى، انقلبَت العداوة غمًّا. وإذا بالرعب يجعل كواحلهما كمراوح الطائرة، فطار الزوجان لطلب النصيحة الأخلاقية والعلمية من دكتورة أسيميلا التي أصغَت إليهما من دون جزعٍ.

- «تعاني من طفولة مُتأخِّرة، أضف إلى ذلك أنك قاتل أطفال يُحتمَل أن يعود إلى الجريمة»، شخَّصَت الحالة بمهارة تلغرافية. «كلا الأمرَيْن حماقة لا تستحقّ الاهتمام، أعالجهما بالسهولة التي أبصق بها. لا تخَف: سوف تبرأ قبل أن تكون للجنين عينان».

هل تشفيه؟ هل تخلِّص لوتشو أبريل مارّوكين من تلك الأشباح؟ أيكون العلاج من رهاب الأطفال و«الهيرودِسية» مُوفَّقًا كالعلاج الذي خلَّصه من عقدة الإطارات والهوس بالجريمة؟ كيف تنتهي تلك الدراما النفسية التي تدور في سان ميغيل؟

---

(١) الليمبو: حيث تذهب أرواح الأطفال غير المُعمَّدين بعد موتهم، وفقًا لبعض العقائد المسيحية. (المترجم)

١١

اقتربَت امتحانات منتصف العام في الكلية، ولم أكُن مُستعِدًّا لتلك اللحظة الحرجة، إذ قلَّلتُ من حضور الدروس وأكثرتُ من كتابة القصص (الانتصارية) منذ بدأت علاقتي الغرامية بالخالة خوليا. كان مُخلِّصي رفيقًا من زملاء الدراسة، من مقاطعة كاماناه، يُدعَى غيِّيرمو بيلاندو، ويقيم في بنسيون بوسط المدينة، في ميدان دوس دي مايو. كان طالبًا نموذجيًّا، لا يفوِّت درسًا واحدًا، بل إنه يدوِّن حتى أنفاس الأساتذة، ويحفظ مواد القانون كما أحفظ أنا الأشعار. لطالما تكلَّم عن بلدته، حيث كانت خطيبته. ولم ينتظر سوى الحصول على شهادة القانون حتى يترك مدينة ليما الكريهة إلى نفسه، ويستقرّ في كاماناه، حيث ينوي الكفاح من أجل ازدهار أرضه. كان يعيرني المحاضرات التي يدوِّنها، ويعينني على الإجابة في الامتحانات بالغشّ. وكنتُ أذهب إلى البنسيون الذي يقيم فيه، كلّما اقتربَت الامتحانات، حتى يعطيني مُلخَّصًا إعجازيًّا لما دار خلال الدروس.

كنتُ آتيًا من هناك في ذلك الأحد، ورأسي يهدر بالمصطلحات القانونية، مذعورًا من كثرة الكلمات اللاتينية المُقعَّرة الواجب حفظها، بعد ثلاث ساعات أمضيتُها في حجرة غيِّيرمو. ولمَّا كدتُ أبلغ ميدان سان مارتين، رأيتُ نافذة الحجيرة التي يشغلها پِدرو كاماتشو مفتوحةً. رأيتُها عن بعد، في واجهة راديو سنترال

الرصاصية. وبطبيعة الحال، قرَّرتُ الذهاب لإلقاء تحية الصباح. كنتُ كلّما تقرَّبتُ إليه زادت فتنتي بشخصه وهيئته الجسدية وبلاغته، وإن اقتصرَت علاقتنا على أحاديث شديدة الاقتضاب حول طاولة المقهى. وبينما كنتُ أقطع الميدان مُتَّجهًا إلى مكتبه، مضيتُ أفكِّر مرة أخرى في تلك الإرادة الحديدية التي أكسبَت ذلك الرجل الضئيل الزاهد قدرَته على العمل وتأليف القصص العاصفة صباحًا ومساءً، مساءً وليلًا. كنتُ متى ذكرتُه، في أي ساعة من ساعات اليوم، قلتُ في نفسي: «إنه يكتب»، ورأيتُه يضرب مفاتيح الرِمينغتون بإصبعَيْن صغيرتَيْن سريعتَيْن، ناظرًا إلى أسطوانة الآلة الكاتبة بعينَيْن ذاهلتَيْن، كما سبق أن رأيتُه مرات كثيرة، وشعرتُ مزيج جدير بالفضول من الشفقة والغيرة.

كانت نافذة الحجيرة مُوارَبة، فأمكنني سماع صوت الآلة الكاتبة الإيقاعي آتيًا منها. دفعتُها وأنا أحيِّيه قائلًا:

- «صباح الخير، سيدي المُجتهِد».

تولَّد لديَّ انطباع بأنني قد أخطأتُ في الشخص أو المكان، ولم أتعرَّف كاتبَ السيناريو البوليفي إلَّا بعد مضي ثوانٍ، إذ رأيتُه بزيٍّ تنكُّري مُؤلَّف من روب أبيض وقبعة طبيب ولحية سوداء كثَّة تليق بحاخام. ظلّ يكتب وقد أكبّ على المكتب قليلًا، فلا أبدى تأثُّرًا ولا نظر إليّ. وما هي إلَّا لحظة حتى سمعته يتكلَّم من دون أن يلتفت برأسه إليّ، كمن يرتاح هنيهةً بين خاطرة وأخرى. فجاء صوته وكأنه جرس مثالي يداعب الآذان:

- «طبيب النساء ألبِرتو دي كينتيروس يولِّد ابنة أخيه، الحبلى في ثلاثة توائم، ولكن أحد الصغار في وضع مقلوب. هلَّا انتظرتَني خمس دقائق؟ دعني أُجرِ للفتاة عملية ولادة قيصرية، ثم نتناول عشبة الليمون والنعنع».

رحتُ أدخِّن سيجارة، جالسًا على حافة النافذة، وأنا أترقَّب ريثما يولِّد التوائم الثلاثة الذين استقرّوا داخل بطن أمهم في وضع مقلوب. وبالفعل، لم تستغرق العملية أطول من دقائق. بعد ذلك، وبينما هو يخلع الزيّ التنكُّري، ثم يطويه بحرص ويحتفظ به في كيس من البلاستيك مع اللحية الصناعية البطريركية، قلتُ له:

- «لتوليد التوائم الثلاثة، وإجراء العملية القيصرية وكل شيء، لستَ في حاجة إلى أكثر من خمس دقائق، وماذا تريد فوق ذلك! أما أنا، فلقد استغرقتُ أكثر من ثلاثة أسابيع حتى أكتب قصةً واحدة عن ثلاثة فتيان يسبحون في الهواء بالضغط الناشئ عن إقلاع الطائرات».

وبينما نحن في طريقنا إلى مقهى برانسا، أخبرتُه بأن قصة السابحين في الهواء تبدو لي ملائمة، بعد كثير من القصص التي باءت بالفشل، وبأنني قد أرسلتُها إلى ملحق إل كومِرسيو الذي يصدر يوم الأحد، وأنا أرتعد من فرط الخوف، فطالعه رئيس التحرير أمامي وأعطاني جوابًا غامضًا: «اتركه، ولاحقًا نرى ماذا نفعل به». ومنذ ذلك الحين، مرّ يوما أحد، سارعتُ فيهما بشراء الصحيفة وأنا أتحرَّق شوقًا، ولكن شيئًا لم يصدر حتى الآن. غير أن بِدرو كاماتشو ما كان يهدر وقته في مشكلات الآخرين.

- «أدعوك إلى التضحية بالمشروب المنعش، والتمشية بدلًا من ذلك»، قال آخذًا بذراعي، وأنا أهمّ بالجلوس، ثم عاد بي إلى شارع كولمينا. «أحسُّ في ربلتَيّ بدغدغة تُنذِر بالتشنُّج. إنها حياة الجلوس. أحتاج إلى ممارسة التمارين».

ولمُجرَّد علمي بجوابه مسبقًا، اقترحتُ عليه أن يقتدي بفيكتور هوغو وهمينغواي: فيكتب واقفًا على قدمَيْه. ولكني أخطأتُ في تلك المرة.

- «في بنسيون لا تاپادا، تقع أمور جديرة بالاهتمام»، قال وهو يقتادني طائفًا بنصب سان مارتين التذكاري في ما يشبه الركض، من دون حتى أن يجيبني. «هناك شاب يبكي في الليالي المقمرة».

قلَّما كنتُ أذهب إلى وسط المدينة في أيام الأحد، ولذا فوجئتُ برؤية اختلاف روَّاد وسط المدينة خلال الأسبوع عن أولئك الذين رأيتُهم الآن، فبدلًا من موظفي الطبقة الوسطى، اكتظّ الميدان بالخادمات اللاتي يقضين يوم الإجازة، وفتيان الجبل أصحاب الوجنات المُتورِّدة والأحذية الضخمة، والصغيرات الحافيات ذوات الضفائر، فضلًا عن المُصوِّرين الجائلين وبائعات الطعام وسط الحشود. استوقفتُ كاتب السيناريو أمام السيدة ذات الرداء التي ترمز إلى الوطن في منتصف النصب التذكاري، وأخبرتُه بسبب وجود حيوان اللاما فوق رأسها بطريقة غريبة، لعلّي أضحكه: فعندما صُبّ البرونز في ليما، اختلطَت إرشادات النحَّات على العمَّال، وحسبوه يعني «حيوان اللاما»، بدلًا من «شعلة القربان»[1]. وبطبيعة الحال، لم تبدر منه حتى ابتسامة. أخذ بذراعي مرة أخرى، وبينما هو يصطدم بالمشاة في سيره، استأنف المونولوج غير حافل بكل ما يحيط به، بدءًا بي أنا.

- «لم ير أحدٌ وجهه، ولكن الافتراض بأنه مسخٌ في محلّه (أتراه ابنًا غير شرعي لمالكة البنسيون؟)، مسخٌ يعاني من التشوُّه، له ظهر أحدب، ورأسان، مُصاب بالتقزُّم، تخفيه دونيا أناتاناسيا عن العيون نهارًا كيلا تخيفنا، ولا تسمح له بالخروج لتنسُّم الهواء إلَّا في الليل».

---

(١) بين كلمتي «لاما» و«شعلة» تطابق تام في اللغة الإسبانية، فكلتاهما تُكتَب على النحو التالي: «Llama». (المترجم)

مضى يتكلَّم بلا أدنى عاطفة، كالمُسجِّل. ولكي أستدرجه في الكلام، قلتُ له إن الافتراضية التي ذهب إليها تبدو لي ضربًا من الشطط: ألا يُحتمَل أن يكون فتى يبكي من ألم الحب؟

- «لو كان عاشقًا، لعزف الجيتار أو الكمان، أو رفع صوته بالغناء»، قال ناظرًا إليَّ بازدراء مُخفَّف بالشفقة. «أما هذا، فيكتفي بالبكاء».

جاهدتُ لحمله على تفسير الأمر برمّته من البداية، غير أنه كان أكثر شرودًا وتشتُّتًا من العادة، فلم أفهم منه سوى شيء واحد، أن هناك من يبكي في أحد أركان البنسيون منذ ليالٍ طوال، وأن ساكني لا تاپادا يتذمَّرون. أما مالكة البنسيون، دونيا أناتاناسيا، فزعمَت بأنها لا تدري شيئًا، وتعلَّلَت «بالأرواح»، حسبما قال كاتب السيناريو.

- «كما يُحتمَل أن يكون السبب في بكائه جريمة ارتكبها»، تكهَّن بِدرو كاماتشو، بنبرة المحاسب الذي يجري عمليات الجمع بصوت مسموع، بينما هو يقتادني إلى راديو سنترال، ممسكًا بذراعي طوال الوقت، بعد أن طفنا بالنصب التذكاري اثنتي عشرة مرة. «أتراها جريمة عائلية؟ أيكون قاتل أبيه الذي يجذب شعره ويخدش جسده ندمًا؟ أيكون ابن صائد الجرذان؟».

لم يُبدِ أدنى قدر من الإثارة، وألفيتُه أكثر فتورًا مما كان عليه في مرات أخرى، وأشدّ عجزًا عن الإنصات والمناقشة والانتباه إلى وجود أحدهم بجواره من أي وقتٍ مضى. أيقنتُ أنه لا يراني. سعيتُ إلى حمله على الاسترسال في ذلك المونولوج، إذ كان الأمر يشبه رؤية مُخيلته وهي في أوج الحركة. غير أنه استغرق في الصمت بالحدّة التي بدأ يتكلَّم بها عن البَكَّاء الخفي. رأيتُه يستقرّ في حجيرته مرة أخرى، ويخلع السترة السوداء والبابيون، ويشدّ شعره بشبكة

واضعًا فوق رأسه باروكة امرأة تنتهي بكعكةٍ، أخرجها من كيس بلاستيكي آخر. لم أقوَ على التحمُّل، فانطلقتُ مُقهقِهًا:

- «مَن هي التي أتشرَّف بالوقوف أمامها»، سألتُه، وأنا ما زلتُ أضحك.

- «يجب عليَّ أن أسدي بعض النصائح إلى رجل يعمل بمختبر، شغوف بفرنسا، أردى ابنه قتيلًا»، أوضح لي بنبرة ساخرة، وهو يضع قرطًا مُلوَّنًا، ويرسم على وجهه طابعَ حُسْنٍ مفعمًا بالدلال، بدلًا من اللحية التوراتية التي كان يضعها على وجهه قبل ذاك. «وداعًا، يا صديقي».

ما كدتُ أدور على عقبي لأنصرف حتى سمعتُ وقع مفاتيح الرِمينغتون وقد عاد إلى الحياة، ثابتًا، واثقًا، قهريًّا، أبديًّا. وعلى متن سيارة الأجرة المشتركة المُتَّجهة إلى ميرافلوريس، مضيتُ أفكِّر في حياة پِدرو كاماتشو. أي وسط اجتماعي وأي سلسلة من الأشخاص والصلات والمشكلات والمصادفَات والوقائع أسفرَت عن تلك الرسالة الأدبية (أتراها أدبية؟ وإن لم تكُن كذلك، فماذا تكون؟)، تلك الرسالة التي تحقَّقَت له، وتبلورَت في أعماله، وصار لها جمهور؟ كيف له أن يكون نسخةً هزلية من الكاتب، مع أنه الشخص الوحيد الذي يستحقّ أن يُسمَّى كاتبًا في بيرو، بالنظر إلى الوقت الذي كرَّسه للكتابة والأعمال التي أنجزها؟ أيكون أولئك الساسة والمحامون والمُعلِّمون الذين يحملون ألقاب الشعراء والروائيين والمسرحيين كُتَّابًا لمُجرَّد أن الواحد منهم قد ألَّف كُتَيِّبًا شعريًّا أو مجموعةً قصصية موجزة في فترة قصيرة من حياتهم التي ينفقون أربعة أخماسها في أنشطة بعيدة عن الأدب؟ لماذا يُعَدّ أولئك الذين يتَّخذون الأدبَ زينةً أو حجةً أحقّ من پِدرو كاماتشو بأن يكونوا كُتَّابًا، وهو الذي عاش من أجل الكتابة **وحدها**؟ لأنهم قرأوا بروست

وفوكنر وجويس (أو على الأقل يعرفون أن الواجب يحتِّم عليهم قراءة أولئك الكُتّاب)، بينما لا يتفوّق بِدرو كاماتشو على الأميين إلّا قليلًا؟ كنتُ أشعر بالحزن والضيق إذا فكَّرتُ في تلك الأمور. ورأيتُ بوضوح متزايد أن الشيء الذي لا أودّ سواه في الحياة أن أكون كاتبًا، كما زدتُ اقتناعًا بأن الطريقة الوحيدة لأصبح كاتبًا تكون بالانغماس في الأدب جسدًا وروحًا. لم أرِد أن أكون شبه كاتب أو نصف كاتب بأي حال من الأحوال، بل كاتبًا بحق... كمَن؟ كان أقرب معارفي من صورة الكاتب المُكِبّ على الكتابة بدوام كامل، المهووس برسالته الأدبية، الشغوف بها، هو كاتب المسلسلات الإذاعية البوليفي، ولذا فتِنتُ به كل هذه الفتنة.

كان خابيير ينتظرني في بيت جدّي وجدّتي، نابضًا بالسعادة، وقد أعدّ ليوم الأحد برنامجًا خليقًا بردِّ الحياة للموتى. تلقَّى خابيير المصروف الشهري الذي يرسله إليه أبواه من پيورا مضافة إليه زيادة سخية بمناسبة الأعياد الوطنية، فاتَّخذ قراره بأن نبدِّد تلك الزيادة نحن الأربعة.

- «لقد أعددتُ برنامجًا ثقافيًّا كوزموبوليتانيًّا على شرفك»، قال وهو يربِّت على كتفي مُشجِّعًا. «فرقة فرانسيسكو پيتروني المسرحية الأرجنتينية، ثم طعام ألماني في رينكون توني، متبوعًا بخاتمة فرنسية في إل نيغرو نيغرو، حيث نرقص على أغاني البوليرو في قلب العتمة».

ومثلما كان بِدرو كاماتشو هو الأقرب إلى الكُتَّاب وسط أولئك الذين رأيتهم في حياتي القصيرة، كان خابيير هو الأقرب إلى أُمَراء عصر النهضة وسط معارفي، نظرًا إلى ما اتَّصف به من سخاء وتبذير. زد على ذلك فعاليته الشديدة: فلقد أخبر الخالة خوليا ونانسي بما ينتظرنا ليلتذاك، وحصل على تذاكر المسرح التي صارت في جيبه

بالفعل. لم يكُن للبرنامج أن يصبح أشدّ إغواءً مما كان، حتى إنه قد بدَّد كل تأمُّلاتي الكئيبة دفعة واحدة: تأمُّلاتي في رسالة الكاتب الأدبية وقَدَر الأدب الذي يقضي على الكاتب بالتسوّل في بيرو. حتى خابيير شعر بسرور غامر: فهو يواعد نانسي منذ شهر مضى، وبدأت ملاحقته المثابرة تأخذ طابعًا رومانسيًّا رسميًّا. استفاد خابيير فائدة كبرى من اعترافي لابنة خالي بالعلاقة الغرامية التي جمعَتني بالخالة خوليا، لأنه بات يرى نانسي عدة مرات أسبوعيًّا، مُتعلِّلًا بحجة إخفاء سرِّنا وتيسير لقاءاتنا. والآن، لم تعُد ابنة خالي نانسي والخالة خوليا تفترقان: بل اجتمعَتا على التسوّق والذهاب إلى السينما وتبادل الأسرار. صارت ابنة خالي جنيَّتنا المُتحمِّسة لعلاقتنا الرومانسية. وذات ليلة، رفعَت من روحي المعنوية بالتأمُّل التالي:

- «لخوليتا طريقةٌ تمحو الفوارق العمرية كلّها يا ابن خالي».

بدأ برنامج الأحد الفخم (الذي أعتقد بأن النجوم قد قرَّرَت فيه جزءًا كبيرًا من مستقبلي) أفضل بداية ممكنة. في ليما الخمسينيات، قلَّت فرص مشاهدة المسرح الجيد، ولكن فرقة فرانسيسكو بيتروني المسرحية الأرجنتينية قد جاءت بمجموعة من الأعمال العصرية التي لم يسبق عرضها في بيرو. مرَّت نانسي بالخالة خوليا في بيت زوجة خالي أولغا، ثم حضرتا معًا إلى وسط المدينة بسيارة أجرة، بينما كنتُ أنا وخابيير ننتظر على باب مسرح سيغورا. حجز خابيير مقصورةً كاملة، وهو الذي دَرَج على المغالاة في مثل هذه الأمور، فاتَّضح لنا أنها المقصورة الوحيدة المحجوزة يومذاك، فصرنا مركزًا للانتباه يكاد يضاهي خشبة المسرح في الوضوح. وتحت وطأة الشعور بوخز الضمير، افترضتُ بأن عددًا من الأقرباء والمعارف سوف يروننا ويشتبهون في أمرنا. ولكن ما إن بدأ العرض حتى تبدَّدَت المخاوف. قدَّمَت الفرقة مسرحيةَ **موت بائع مُتجوِّل** لأرثر

ميلر، فكانت تلك أول مرة أشاهد فيها عملًا مسرحيًّا غير تقليدي، لا يراعي أعراف الزمان والمكان. شعرتُ بحماسة وإثارة بالغتَيْن، حتى شرعت أتكلَّم في الاستراحة بلا انقطاع، وأمدح العمل مديحًا مُتَّقدًا، وأعقِّب على شخوص المسرحية وتقنياتهم وأفكارهم، حتى ونحن نأكل النقانق ونحتسي البيرة الداكنة في رينكون توني بشارع كولمينا، إلى حدٍّ جعل خابيير يؤنِّبني لاحقًا: «كنتَ تبدو وكأنك ببغاء تناول منشطَ اليوهمبين». أما ابنة خالي نانسي، التي طالما وجدَت أهوائي الأدبية عجيبةً بقدر أهواء الخال إدواردو - شقيق جدّي العجوز، القاضي المتقاعد، الذي ولع بتلك الهواية غير المألوفة، هواية جمع العناكب - فبعد أن سمعَتني ألقي خطبة مُطوَّلة عن العمل الذي شاهدناه لتوّنا خُيِّل إليها أن ميولي الأدبية قد تنتهي نهاية وخيمة: «أنت في طريقك إلى الجنون يا فتى».

وقع اختيار خابيير على إل نيغرو نيغرو لختام الليلة بسبب الهالة البوهيمية الثقافية التي أحاطت بالمكان - حيث كانت تُقدَّم العروض الفنية في إطار ضيق أيام الخميس: مسرحيات من فصل واحد ومونولوجات وتلاوات شعرية، كما درج على ارتياد المكان رسامون وموسيقيون وكُتَّاب - أضف إلى ذلك أنه الملهى الأشدّ عتمةً في ليما، إذ يقع في قبو على بوابات ميدان سان مارتين، بزينته التي حسبناها **وجوديّة**، وطاولاته التي لا يربو عددها على العشرين. في زياراتي القليلة إلى ذلك المكان، خُيِّل إليَّ أنني في كهفٍ بمنطقة سان جيرمان دي بري. جلسنا إلى طاولة على ضفاف منصة الرقص. أما خابيير، الذي كان يومذاك أسخى من أي وقت مضى، فطلب أربع كؤوس من الويسكي. ما لبث خابيير ونانسي أن شرعا في الرقص، بينما استرسلتُ أنا في الحديث إلى الخالة خوليا عن المسرح وأرثر ميلر، في ذلك القبو الضيق المزدحم. جلسنا متقاربَيْن للغاية، وقد

تشابكَت يدانا، بينما راحت هي تنصت إليَّ بتفانٍ عندما أخبرتُها بأنني قد اكتشفتُ المسرح ليلتذاك، وقلتُ إنه قد يكون مُعقَّدًا وعميقًا كالرواية، بل ربما كان أرقى منه، لأنه حيّ، تشارك في تجسيده كائنات من لحم ودم، كما يشتمل على فنون أخرى كالرسم والموسيقى.

- «لعلّي أغيِّر اللون الأدبي بآخر، فأكتب الأعمال الدرامية بدلًا من القصص»، قلتُ لها وأنا في غاية الإثارة. «بمَ تنصحينني؟».

- «من جهتي، ليس لديّ ما يمنع»، أجابَتني الخالة خوليا وهي تنهض. «أما الآن يا بارغيتاس، فراقصني واهمس لي بأشياء في سمعي. لو شئتَ، سمحتُ لك بالتحدُّث عن الأدب بين مقطوعة موسيقية وأخرى».

اتَّبعتُ التعليمات بحذافيرها، فرقصنا ونحن نتعانق بقوة ونتبادل القبلات. قلتُ لها إنني أحبّها، فأجابَتني بأنها تحبّني أيضًا. وكانت تلك أول مرة لا أداري فيها الرغبة التي تثيرها في نفسي، بمساعدة الأجواء الحميمية المثيرة الأخَّاذة، وكؤوس الويسكي التي دعانا إليها خابيير. رقصنا وشفتاي تغوصان في عنقها بتمهُّل، ولساني يتسلَّل إلى ثغرها وينهل من ريقها، بينما أخذتُ أضمُّها بقوة حتى أحسّ بنهدَيْها وبطنها وفخذَيْها. ولمَّا جلسنا إلى المائدة، رحتُ أداعب ساقَيْها ونهدَيْها في كنف الظلال. كنا على تلك الحال، مستغرقَيْن في اللذة والذهول، وإذا بابنة خالي نانسي تُجمِّد الدماء في عروقنا، بين أغنية بوليرو وأخرى:

- «رباه! انظروا من هناك: إنه الخال خورخي».

إنه الخطر الذي كان يجب علينا وضعه في الحسبان، لأن خورخي، أصغر أخوالي، قد جمع بين كل صنوف الأعمال والمغامرات التجارية والسهرات الليلية التي تكثر فيها التنانير

والحفلات والكؤوس، في حياة حافلة للغاية. كانت تُحكَى عنه واقعة سوء تفاهم مأساوية وهزلية في آن، حدثَت في ملهى آخر، إل إمباسي: فبعد أن بدأ العرض مباشرة، لم تتمكَّن المغنية من الاستمرار في الغناء لأن سكِّيرًا جالسًا إلى إحدى الطاولات مضى يقاطعها بوقاحة. وعلى مرأى من روَّاد الملهى المزدحم، هبَّ الخال خورخي واقفًا، مُزمجِرًا وكأنه دون كيخوته: «اصمتْ أيها البائس، سأعلِّمك كيف تحترم السيدة». انطلق نحو الأبله كالمُلاكِم، وما هي إلَّا ثانية حتى اكتشف أنه قد جعل من نفسه أضحوكة، لأن تدخُّل الزبون الزائف ومُقاطَعة المغنية جزءٌ من العرض. وبالفعل، كان الخال خورخي هناك، على بعد طاولتَيْن من موقعنا، في غاية الأناقة، بوجهه الذي رأيناه بمشقة على ضوء كشافات النُدُل وأعواد الثقاب التي كان يضرمها المُدخِّنون. تعرفْتُ زوجته غابي جالسةً إلى جواره. كانا على بعد متريْن فحسب، وعلى الرغم من ذلك، فلقد أصرّ كلاهما على الامتناع عن النظر ناحيتنا. كان الأمر في غاية الوضوح: لقد رأياني وأنا أقبِّل الخالة خوليا، وانتبها إلى كل شيء، فاستقرّ كلاهما على التعامي الدبلوماسي. طلب خابيير الحساب، ثم غادرنا إل نيغرو نيغرو على الفور. بينما استمرّ الخال خورخي وزوجته غابي في الامتناع عن النظر إلينا حتى عندما مررنا على مقربة شديدة منهما. وفي سيارة الأجرة المُتَّجهة إلى ميرافلوريس - حيث لزمنا الصمت نحن الأربعة، وارتسمَت على وجوهنا أمارات الوجوم - أوجزَت نانسي الصغيرة الشيء الذي خطر لنا جميعًا: «وداعًا أيها الحرص، لقد تفجَّرَت الفضيحة الكبرى».

ولكنَّ شيئًا لم يحدث على مدى الأيام التالية، كما يليق بفيلم تشويق جيد. ولم نلمح أثرًا واحد يشي بأن الخال خورخي وزوجته غابي قد نبَّها أفراد العشيرة. أما الخال لوتشو وزوجته أولغا، فلم

ينبسا للخالة خوليا بكلمة واحدة قد تحملها على الظنّ بأنهما يعرفان من أمرنا شيئًا. وفي يوم الخميس من ذلك الأسبوع، حين واتتني الشجاعة للذهاب إلى بيتهما وتناول الغداء، عاملاني بالتلقائية والمودة المعهودتَيْن. حتى ابنة خالي نانسي لم تتلقَّ الأسئلة المخادعة من الخالة لاورا أو زوجها خوان. وفي بيتي، رأيتُ جدي وجدتي كالهائمَيْن فوق السحاب، فما برحا يسألان إن كنتُ أرافق خوليتا إلى السينما طوال الوقت، وهما أشبه ما يكونان بالملائكة، علمًا منهما أنها «شديدة الولع بالسينما». كانت أيامًا مفعمة بالقلق، بلغ فيها حرصنا مداه، فقرَّرتُ أنا والخالة خوليا ألَّا نلتقي لمدة أسبوع واحد على الأقل، ولا حتى في الخفاء، وإن استمرّ التواصل بيننا عَبْر التليفون. كانت الخالة خوليا تخرج للاتصال بي من الدكان القائم على الناصية ما لا يقل عن ثلاث مرات يوميًّا، فيخبر كلٌّ منا الآخر بملاحظاته عن ردة فعل العائلة التي كنا نخشاها ونضع بشأنها الافتراضيات بكل صنوفها. هل يُحتمَل أن يكون الخال خورخي قد قرَّر الاحتفاظ بالسرّ؟ كنتُ أعرف أن الاحتمال سالف الذكر شيء لا يخطر على بال في إطار الأعراف العائلية. ولكن، ماذا جرى إذن؟ دفع خابيير بالنظرية القائلة إن الخال خورخي وزوجته غابي قد أفرطا في تناول كؤوس الويسكي إلى حدٍّ جعلهما لا ينتبهان إلى الأمور جيدًا، وإنه لم يبقَ في ذاكرتهما إلَّا ظنون واهية، وإنهما لا يرغبان في إثارة الفضيحة لسبب لم يتأكَّدا منه تمام التأكُّد. خلال ذلك الأسبوع، ذهبتُ في جولة إلى بيوت العشيرة مدفوعًا بقليل من الفضول، وقليل من المازوخية، حتى أقيِّم الوضع. لم ألحظ شيئًا خارجًا عن المألوف سوى إغفال مُتعمَّد أثار فضولي وفجَّر في نفسي أسهمًا ناريةً من التكهُّنات، إذ لم تأتِ الخالة أورتينسيا، التي دعَتني إلى تناول الشاي والكعك، على ذكر الخالة خوليا مرة واحدة طوال

الساعتَيْن اللتين استغرقهما الحديث بيننا. «إنهم يعرفون كل شيء، ويخطِّطون لأمر ما»، أكَّدتُ لخابيير، فأجابني وقد انتابه السأم لأني لا أحدِّثه عن شيء آخر: «في قرارة الأمر، تتحرَّق شوقًا لإثارة تلك الفضيحة، حتى تجد ما تكتب عنه».

في ذلك الأسبوع الحافل، رأيتُني وقد تحوَّلتُ إلى طرفٍ في أحد شجارات الشوارع على غير المُتوقَّع، كما تحوّلتُ إلى ما يشبه الحارس الخاص لبِدرو كاماتشو أيضًا. كنتُ خارجًا من جامعة سان ماركوس، بعد التحقُّق من نتائج امتحان قانون المرافعات، بنفسٍ ملؤها تأنيب الضمير لأنني حصلتُ على درجة أعلى من تلك التي حصل عليها صديقي بيلاندو الذي كان مُلِمًّا بالمادة حقًّا، وبينما أنا في طريقي عَبْر المنتزه الجامعي، التقيتُ خينارو الأب، بطريرك الكتيبة المُتمثِّلة في مالكي راديو پانامريكانا وراديو سنترال. مشينا إلى شارع بيلين معًا، ونحن نتجاذب أطراف الحديث. كان رجلًا وقورًا، يرتدي الثياب الداكنة ويتحلَّى بالجدية دائمًا. أشار إليه كاتب السيناريو البوليفي بلقب **تاجر الرقيق في بعض الأحيان**، لسببٍ يسهل توقّعه.

- «صديقك النابغة يسبِّب لي صداعًا مُستمِرًّا طوال الوقت»، قال لي. «لقد طفح الكيل. لولا غزارة إنتاجه، لألقيتُ به إلى الشارع».

- «هل تقدَّمَت سفارة الأرجنتين باحتجاج آخر؟»، سألتُه.

- «لا أدري أي بلبلة يفتعل»، قال ممتعضًا. «لقد بدأ يستهزئ بالناس، ويمرِّر الشخصيات من مسلسل إذاعي إلى آخر ويبدِّل أسماءهم حتى يزرع الحيرة في نفوس المستمعين. سبق أن حذَّرَتني زوجتي من ذلك، وها أنا الآن أتلقَّى الاتصالات الهاتفية، كما تلقَّيتُ رسالتَيْن أيضًا. يزعم المُتَّصلون أن اسم كاهن ميندوسيتا واسم شاهد يَهْوَه متطابقان. وأنا لديَّ من المشاغل ما يمنعني من الاستماع إلى المسلسلات الإذاعية. أتستمع إليها بين الحين والآخر؟».

وفيما سرنا عَبْر شارع كولمينا نزولًا، في الطريق إلى ميدان سان مارتين، وسط الحافلات المُتَّجهة إلى الأقاليم والمقاهي الصينية الصغيرة، تذكَّرتُ أن الخالة خوليا قد أضحكَتني في حديثها عن بِدرو كاماتشو منذ أيام، وأكَّدَت لي شكوكي التي حدَّثَتني بأن كاتب السيناريو صاحب حسٍّ فكاهي، يتظاهر بغير ذلك.

- «وقع شيء في غاية الغرابة: فلقد ولَدَت الفتاة، وإن قضى الجنين نحبه في أثناء الولادة، ودُفِن جثمانه كما يليق. فبمَ تفسِّر ظهور الطفل وتعميده بالكاتدرائية في الحلقة التي أُذيعَت مساء اليوم؟».

قلتُ لخينارو الأب أن وقتي يضيق عن الاستماع إلى المسلسلات الإذاعية أنا أيضًا، ولكن ربما كان الخلط وتبادل الشخصيات القائم بين الأعمال تقنية مبتكرة يستعين بها كاتب السيناريو في سرد القصص.

- «لا ندفع راتبه ليكون مُبتكَرًا، بل ندفع حتى يسلِّي الناس»، قال خينارو الأب، الذي لم يكُن رجل أعمال تقدُّميًا، بأي حال من الأحوال، بل تقليديًا. «سوف يخسر المستمعين بتلك المزحة، وعند ذاك يسحب الرعاةُ إعلاناتهم. أنت صديقه، فقُلْ له أن يتخلَّى عن تلك التقنيات الحداثية، وإلَّا فربما خسر عمله».

اقترحتُ عليه أن يخبره بالأمر شخصيًا، فهو مالك المحطة الإذاعية: وبذلك يكون التهديد أشدّ وطأة. ولكن خينارو الأب هزّ رأسه، بلفته الأسف التي ورثها عنه خينارو الابن:

- «لا يأذن لي حتى بالتحدُّث إليه. لقد جعله النجاح شديد الغرور، وما عاد يراعي الاحترام إذا حاولتُ التحدُّث إليه».

سبق أن ذهب خينارو الأب إلى بِدرو كاماتشو حتى يخبره بأمر الاتصالات ويُطلِعه على رسالتَي الاحتجاج بأكبر قدر ممكن من

التهذيب، فأخذ كاتب السيناريو الرسالتَيْن، غير أنه لم يفضّهما، بل مزِّقهما وتركهما نتفًا صغيرة ألقى بها إلى سلة المهملات، من دون أن يجيبه بكلمة واحدة. ثم شرع يكتب على الآلة وكأن أحدًا لم يكُن هناك. همّ خينارو الأب بمغادرة ذلك الكهف الوعر وهو على حافة السكتة، فسمع بِدرو كاماتشو يتمتم قائلًا: «مَن تدخَّل في ما لا يعنيه...».

- «لا يمكنني أن أعرِّض نفسي لإهانة كهذه مرةً أخرى، وإلَّا اضطُرِرتُ إلى طرده، وذلك شيء غير واقعي»، خلص إلى تلك النتيجة بلفتة تشي بالضيق. «أما أنت، فليس لديك ما تخسره، ولن يوجِّه إليك السباب. حتى أنت شبه فنان، ألستَ كذلك؟ ساعدنا، افعلها من أجل الشركة، تحدَّث إليه».

أخبرتُه بأنني سأتحدَّث إليه. وبالفعل، بعد برنامج بانامريكانو الذي أُذيع في الثانية عشرة، ساقني حظِّي العاثر إلى دعوة بِدرو كاماتشو إلى تناول فنجان من عشبة الليمون والنعنع. وفي طريق الخروج من راديو سنترال، اعترض سبيلنا رجلان كلاهما ضخم الجرم، تعرَّفتُهما في الحال: فهما الأخوان الشوَّاءان، صاحبا الشاربَيْن الكثيفَيْن، مالكا مطعم الشواء الأرجنتيني الذي يقع بالشارع نفسه، أمام مدرسة راهبات بيلين، حيث يعدّان اللحوم الدامية والأمعاء بنفسَيْهما، بالمئزر الأبيض وقبعة الطهاة العالية. أحاطا بكاتب السيناريو البوليفي وقد بدَت عليهما مظاهر الشغب. وإذا بأضخمهما قامةً وأكبرهما سنًّا يعنِّفه قائلًا:

- «إذن، فنحن قتلة أطفال، أليس كذلك أيها الكاماتشو الحقير؟ ظننتَ هذا البلدَ خاليًا من الرجال القادرين على تلقينك درسًا يجعلك تحترم الناس، أليس كذلك أيها الوقح؟».

تضرَّجَت بشرته، ومضى يحتدّ في كلامه مُتلعثِمًا، بينما أخذ

شقيقه الأصغر يومئ برأسه، ثم تدخَّل في لحظة صمت مفعمة بالسخط العارم تخلَّلَت حديث الشوَّاء الأكبر:

- «وماذا عن القمل؟ أتحسب نساء بوينوس آيرِس يأكلن الحشرات التي يستخرجنها من شعر أبنائهم كما تُؤكَل الحلوى، يا ابن العاهرة الكبيرة؟ أتظنني سأبقى مكتوف اليدَيْن بينما تسبّ أمي؟».

لم يتراجع كاتب السيناريو البوليفي ميليمترًا واحدًا، بل راح يصغي إليهما وهو ينقِّل عينَيْه الجاحظتَيْن بينهما، وأمارات وجهه تشي بالأستاذية. وفجأة، طرح عليهما السؤال الأكثر تحضُّرًا، بنبرة في غاية الرصانة، وقد حنى ظهره كعادته، كما لو كان خبيرًا في المراسم:

- «ألستما من الأرجنتين؟».

زمجر الشوَّاء البدين بوطنيَّةٍ، والزبد يتناثره على شاربه، وقد ارتفع وجهه عشرين سنتيمترًا فوق وجه پدرو كاماتشو، حتى اضطُرّ إلى الانحناء كثيرًا:

- «من الأرجنتين، بلى، يا ابن العاهرة، ولنا جزيل الشرف!».

وأمام ذلك التوكيد - الذي لم تكنُ بنا حاجة إليه، في واقع الأمر، إذ يكفي سماع كلمتَيْن منهما حتى يعرف السامع أنهما من الأرجنتين - رأيتُ كاتب السيناريو البوليفي وكأن شيئًا قد انفجر في داخله، فإذا هو يمتقع راسمًا على وجهه أمارات الوعيد، ويطلق الشرار من عينَيْه، ويسوط الهواء بسبابته قائلًا:

- «لقد تشمَّمتُ رائحتكما. حسنًا إذن: اغربا عن وجهي فورًا، واذهبا لغناء التانغو!».

لم يكُن مازحًا في الأمر الذي أصدره إليهما، وإنما في غاية الجدية. ولثانية، لم يدرِ الشوَّاءان ماذا يقولان، فمن الواضح أن

كاتب السيناريو لا يمزح: ومن ضآلة قامته العنيدة، وعجزه التام عن الدفاع عن جسده، أخذ يرمقهما بشراسة واحتقار.

- «ماذا قلت؟»، نطق الشوَّاء البدين أخيرًا، في حيرة، وسخط. «ماذا؟ ماذا؟».

- «اذهبا لغناء التانغو، واغسلا آذانكما!»، أضاف پِدرو كاماتشو إلى الأمر الذي أصدره من قبل أمرًا جديدًا، بنطقه المثالي. وبعد لحظة صمتٍ بالغة القصر، وبهدوء يبثّ القشعريرة في الأبدان، قال، بذلك التهوُّر المُفتعَل الذي أودى بنا:

- «ما لم ترغبا في التعرُّض للضرب المبرح».

وفي تلك المرة، كانت مفاجأتي أشدّ وأشدّ من مفاجأة الشوَّائَيْن: فأن يتوعَّدهما كاتب السيناريو بالضرب المبرح، وهو صاحب الجسد الضئيل الذي يليق بتلميذ في الصف الرابع الابتدائي، صنف من الهذيان وقرارٌ بالانتحار، علمًا أن كلا الطاهيَيْن عملاق يزيد وزنه على المئة كيلو. وإذا الشوَّاء البدين يأتي بردة فعل، ويأخذ بعنق كاتب السيناريو رافعًا إياه كالريشة وسط ضحكات الناس الذين تجمَّعوا حولنا، صائحًا فيه بصوت كالعواء:

- «أتوسعني ضربا، أنا؟ سترى الآن أيها القزم...».

ولمَّا رأيتُ الشوَّاء الأكبر يستعدّ لتفتيت پِدرو كاماتشو بلطمة واحدة من يمينه، لم أجد بديلًا عن التدخُّل. فأمسكتُ بذراعه وأنا أحاول تحرير كاتب السيناريو الذي احتقن وراح يركل بقدمَيْه مُعلَّقًا في الهواء كالعنكبوت، فأسعفني الوقت لأتفوَّه بشيء من قبيل: «اسمع، لا تكُن مؤذيًا، دعه وشأنه»، وإذا بالشوَّاء الأصغر يسدِّد إليَّ لكمةً طرحَتني أرضًا، بلا مقدمات. من مكاني على الأرض، وبينما كنتُ أحاول النهوض بمشقة وذهول، وأستعدّ لتطبيق فلسفة جدّي، سليل المدرسة القديمة، الذي علَّمني أن ابن أريكيپا الذي يستحقّ

الانتماء إلى تلك الأرض لا يتهرَّب من الدعوة إلى الشجار أبدًا (ولا سيما إذا كانت الدعوة حاسمةً، كاللكمة المُوجَّهة إلى الذقن مباشرة)، رأيتُ الشوَّاء الأكبر وهو يمطر الفنان بوابل شديد من اللطمات (التي فضَّلها على اللكمات شفقةً به، آخذًا في الاعتبار قامة الغريم القزم). بعد ذلك، وبينما تدافعنا واشتبكنا أنا والشوَّاء الأصغر («دفاعًا عن الفن»، كما دار في خلدي)، لم أقدر على رؤية الكثير. لم يستمرّ الشجار كثيرًا. وعلى الرغم من ذلك، وجدتُ نفسي مصابًا بعدد من الرضوض حين تدخَّل عاملون براديو سنترال وخلَّصونا من أيدي الرجلَيْن القويَّيْن. أما كاتب السيناريو، فلقد تورَّم وجهه وانتفخ بشدة، حتى اضطُرّ خينارو الأب إلى اصطحابه إلى قسم الطوارئ. وبدلًا من أن يشكرني لأنني قد جازفتُ بسلامتي الشخصية للدفاع عن نجمه الحصري، أنَّبني خينارو الابن مساء ذلك اليوم بسبب خبرٍ زجّ به پاسكوال في نشرتَي أخبار متعاقبتَيْن، مُستغِلًّا حالة الفوضى، الخبر الذي انطوى على شيء من المبالغة، وجاءت بدايته كما يلي: «رجال عصابات من الأرجنتين يشنّون هجومًا إجراميًّا على مدير الخدمة الإخبارية، الصحافي المعروف...»، إلى آخر الخبر.

مساء ذلك اليوم، عندما حضر خابيير إلى علّيتي براديو پانامريكانا، استغرق في القهقهة حين علم بقصة الشجار، ورافقني لسؤال كاتب السيناريو عن حاله. وضع الأطباء على عينه اليمنى رقعة كالقراصنة، وضمادة طبية على عنقه، وضمادة أخرى تحت أنفه. كيف كانت حاله؟ أشار بلفته تنمّ عن الازدراء، ولم يولِ المسألة أدنى أهمية، كما لم يشكرني لأنني قد ألقيتُ بنفسي في الشجار تضامنًا. فُتِن خابيير بالتعليق الذي لم يُدلِ كاتب السيناريو بشيء سواه:

- «لقد أنقذهما الناس عندما فُضّ الشجار، فلو استمرَّت الحال دقائق لتعرَّفني الحضور وأعدموا هذين المسكينَيْن من دون محاكمة».

ذهبنا إلى مقهى برانسا. وهناك حكى لنا أنه، عندما كان في بوليفيا، حضر لاعب كرة قدم «من ذلك البلد» إلى مقر المحطة الإذاعية مُسلَّحًا بمُسدَّس، بعد أن استمع إلى برامجه، ولكن الحُرَّاس اكتشفوا أمره في الوقت المناسب، من حسن الحظ.

- «يجب عليك أن تنتبه إلى نفسك، فمدينة ليما حافلة بالأرجنتينين في الوقت الراهن»، حذَّره خابيير.

- «سوف تأكلنا الديدان على كل حال، أنا وأنتم، طال الأمد أم قصر»، قال بِدرو كاماتشو مُتفلسِفًا.

ثم لقَّننا درسًا في تناسخ الأرواح، الذي كان بالنسبة إليه مبدأ من مبادئ الإيمان. وأسرَّ إلينا بأنه، لو تمكَّن من الاختيار، لأراد لنفسه أن يكون حيوانًا بحريًّا مُعمِّرًا هادئًا في الحياة الآتية، من قبيل السلاحف أو الحيتان. اغتنمتُ روحه المعنوية المرتفعة لتأدية مهمة الوسيط الشرفي بينه وبين آل خينارو، تلك المهمة التي تولَّيتُها منذ بعض الوقت، فأبلغتُه برسالة خينارو الأب، وأخبرتُه بشأن الاتصالات والرسائل والحلقات التي لا يفهمها بعض الناس من المسلسلات الإذاعية. وقلتُ له إن العجوز يرجوه ألَّا يعقِّد الحبكة، وأن يأخذ المُستمِع المُتوسِّط بعين الاعتبار، ذلك المُستمِع الأقرب إلى المستوى المُتدنِّي. حاولتُ التخفيف من وقع الكلمات، وانحزتُ إلى جانبه (كما كنتُ منحازًا في واقع الأمر)، فقلتُ له: إنه طلب عبثي، بطبيعة الحال، فلا بدّ أن يكون المرء حرًّا في الكتابة كيفما يشاء، ولكن دوري يقتصر على إبلاغه كما طُلِب مني.

أنصت إليَّ وهو في غاية الصمت والجمود، فجعلني أشعر بضيق شديد. ولم ينبس بكلمة واحدة حتى عندما سكتُّ عن الكلام. شرب الرشفة الأخيرة من عشبة الليمون، وهمس قائلًا إن عليه الرجوع إلى مشغله، ثم غادر بلا كلمة وداع واحدة. هل شعر بالإهانة لأنني

حدَّثتُه عن الاتصالات أمام شخص غريب؟ هكذا رأى خابيير، وأوصاني بالاعتذار له. تعهَّدتُ لنفسي بألّا أعاود القيام بدور الوسيط أبدًا لحساب آل خينارو.

طوال الأسبوع الذي لم ألتقِ فيه والخالة خوليا، عاودتُ الخروج في أكثر من ليلة برفقة أصدقاء ميرافلوريس الذين لم أقابلهم منذ بدأت علاقتي الغرامية السرّية. كانوا رفاق المدرسة والحيّ، الذين يدرس بعضهم الهندسة، مثل سالاس الأسود، أو الطبّ، مثل مولفينو الأصهب، في حين التحق بعضهم بالعمل، مثل كوكو لانياس. ولقد شاركتُهم أشياء رائعة منذ الصغر: كرة قدم الطاولة، ومنتزه سالاسار، والسباحة في إل تِرَّاساس، وأمواج ميرافلوريس، وحفلات السبت، والعشيقات، ودور السينما. ولكن في تلك اللقاءات التي جمعَتنا بعد شهور لم نلتقِ خلالها، أدركتُ أن صداقتنا قد خسرَت شيئًا. لم يعُد بيننا كثير من الأمور المشتركة كما في سابق عهدنا. في ليالي ذلك الأسبوع، خضنا المغامرات المعهودة: فذهبنا إلى مقبرة سوركو الصغيرة العتيقة في محاولة لسرقة إحدى الجماجم، ونحن نطوف بالمكان على نور القمر، وسط شواهد القبور التي زعزعَتها الزلازل. كما سبحنا عرايا في ذلك المسبح العملاق الذي كان تحت الإنشاء بمنتجع سانتا روسا القريب من أنْكُون. وذهبنا في جولة إلى مواخير جادة غراو القاتمة. ظلّوا كعهدي بهم، يلقون النكات المعتادة، ويتكلَّمون عن الفتيات المعهودات، ولكني لم أقدر على التحدُّث إليهم عن أهم ما عندي: الأدب والخالة خوليا. لو قلتُ لهم إنني أكتب القصص وأحلم بأن أغدو كاتبًا، لفكَّروا أن صواميل عقلي قد تفكَّكَت، من دون أدنى شكّ، مثلما فكَّرَت نانسي الصغيرة أيضًا. ولو حدَّثتُهم بأمر علاقتي - كما يخبرونني بعلاقاتهم - وقلتُ لهم إنني مع امرأة مُطلَّقة، لم تكُن عشيقتي، وإنما حبيبتي

(بالمعنى الأقرب إلى حيّ ميرافلوريس من معاني الكلمة)، لحسبوني «أحمق بشِراع»، كما يقول التعبير الغامض الجميل الذي شاع كثيرًا آنذاك. لم أضمر لهم أدنى شعور بالاحتقار لأنهم لا يقرأون الأدب، ولم أعتبر نفسي أرقى منهم لأنني في علاقة حبّ مع امرأة مكتملة النضج. ولكن، في تلك الليالي، بينما كنا ننبش قبور سوركو وسط أشجار الكافور والفلفل، أو نخوض الماء تحت نجوم سانتا روسا، أو نحتسي البيرة ونساوم العاهرات على الثمن في ماخور نانيتت، شعرتُ بضجر شديد، ورحتُ أفكِّر في الخالة خوليا وفي **الألعاب الخطيرة** (التي لم تُنشَر على صفحات إل كومِرسيو ذلك الأسبوع أيضًا) أكثر مما كنتُ أفكِّر في حديثهم.

ولمَّا حكيتُ لخابيير عن اللقاء المُخيِّب للآمال الذي جمعني برفاق الحيّ، قال نافخًا صدره:

- «لأنهم ما زالوا صغارًا. أما أنا وأنت، فلقد صرنا من الرجال يا بارغيتاس».



١٢

في قلب المدينة الذي يكسوه الغبار، وسط شارع إيكا، يقوم البيت العتيق ذو الشرفات والمشربيات، بجدرانه التي لطَّخها الزمن والعابرون غير المُتحضِّرين (أصحاب الأيدي العاطفية التي ترسم السهام والقلوب وتخربش أسماء النساء، والأصابع المُنحَلَّة التي تنحت الأعضاء والكلمات النابية). وعلى الرغم من ذلك، فما زالت الجدران تكشف أثار الطلاء الأصلي للناظر وكأنه يراها عن بعد، ذلك اللون الذي كان يزيِّن القصور الأرستقراطية في الحقبة الاستعمارية: الأزرق النيلي. أما البناء - هل كان مسكنًا قديمًا للنبلاء؟ - فصار اليوم مصنعًا متداعيًا مُرقَّعًا، ما زال صامدًا بمعجزة أمام الهزّات الأرضية ورياح ليما المعتدلة وحتى الرذاذ بالغ الخفّة. أكلَته العثّة من أعلى إلى أسفل، كما اتَّخذَته الجرذان والزبابات عشًّا لها. قُسِّم البيت إلى كثير من الأقسام والأقسام الفرعية، فصارت الباحات والحجرات قفائر نحل تحت وطأة الحاجة، لإيواء المزيد والمزيد من المستأجرين. وهناك، عاش جمعٌ من البسطاء بين الفواصل الواهية والحواجز وتحت الأسقف المتهالكة (التي ربما أودَت بحياتهم سَحقًا). وفي الطابق الثاني من ذلك البناء، يقوم بنسيون كولونيال أيضًا، الذي يشغل نصف دزينة من الحجرات

الملأى بالأغراض العتيقة والكراكيب. لم تكُن الحجرات في غاية النظافة، ولكن شيئًا لم يعِبها على الصعيد المعنوي.

كان مالكو البنسيون ومديروه آل بيرغوا، تلك الأسرة المُكوَّنة من ثلاثة أشخاص جاؤوا إلى ليما من أياكوتشو، المدينة الجبلية ذات الكنائس الكثيرة التي لا يُحصَى لها عدد، قبل أكثر من ثلاثين عامًا. منذ ذلك الحين وحالهم تتردَّى بدنيًّا واقتصاديًّا واجتماعيًّا، بل ونفسيًّا أيضًا (يا لأرواح الحياة!)، ولا شكّ أنهم سوف يسلمون أرواحهم في ليما، مدينة الملوك، ثم يعودون إلى الحياة أسماكًا أو طيورًا أو حشرات.

أما في يومنا هذا، فلقد شهد بنسيون كولونيال انحدارًا أليمًا، وبات يأوي إليه النزلاء البسطاء المُتعسِّرون: من أمثال الكهنة الآتين من الأقاليم إلى العاصمة لإتمام بعض الإجراءات الأسقفية (في أحسن الأحوال)، والقرويين أصحاب الوجنات المزرقة والعيون الخليقة بحيوان الفكونة، أولئك الذين يحتفظون بالنقود في المناديل المُتورِّدة ويتلون صلاة المسبحة بلغة الكِتشوا (في أسوأ الأحوال). يخلو البنسيون من الخدم، بطبيعة الحال، وبالتالي يقع ترتيب الأسِرَّة وإجراء التصليحات والتسوُّق وإعداد الطعام على عاتق السيدة مارغاريتا بيرغوا وابنتها العذراء الأربعينية صاحبة الاسم المُعطَّر: روسا[1]. أما السيدة مارغاريتا بيرغوا (كما يبدو من اسمها المُستخدَم بصيغة التصغير) فهي امرأة ذات قوام في غاية الهزال، نحيفة، تعمل بلا هوادة منذ أن يطلع الفجر وحتى يقبل الليل، لها بشرة أكثر تغضُّنًا من حبَّات العنب المُجفَّف، وتنبعث منها رائحة القطط، الشيء الجدير بالفضول، علمًا بخلوّ البنسيون من القطط. أما تحرُّكاتها في

(١) روسا «Rosa»: تعني «وردة» باللغة الإسبانية. (المترجم)

أرجاء البيت والحياة، فمُذهِلة، نظرًا إلى حذائها المُزوَّد بقاعدة من الخشب تشبه صندوق ماسحي الأحذية، ذلك الذي صنعه من أجلها نحَّات بارع من أياكوتشو منذ أعوام طوال، لأن لها قدمًا أقصر من الأخرى بعشرين سنتيمترًا. تمشي السيدة مارغاريتا بيرغوا وهي تجرِّر الحذاء على الأرض الخشبية، فتهتزّ الأرض تحت قدمَيْها. لطالما كانت مُوفِّرة، السمة التي بلغَت حدَّ الهوس بمضي الأعوام. والآن، لا شكّ أن وصفها بالتقتير الشديد صار شيئًا يليق بها. على سبيل المثال، فهي لا تسمح لواحد من نزلاء البنسيون بالاغتسال إلَّا في الجمعة الأولى من كل شهر، كما فرضَت تلك العادة الأرجنتينية - الشائعة جدًّا في بيوت البلد الشقيق - التي تقضي بعدم شدّ ذراع الطرد إلَّا مرة واحدة يوميًّا (إذ تشدّه بنفسها قبل أن تأوي إلى الفراش) الأمر الذي يدين له بنسيون كولونيال بنسبة مئة بالمئة من ذلك النتن الدائم، الكثيف، الفاتر، الذي يصيب النزلاء بالدوار، ولا سيما في البدء (بينما تسوق السيدة مارغاريتا بيرغوا تلك الحجة القائلة إنهم ينعمون بنوم أهنأ بفضل تلك الرائحة، بمخيلة المرأة التي تملك جوابًا لكل شيء).

أما الآنسة روسا، فلها روح فنانةٍ وأصابع فنانةٍ (أو بالأحرى، كانت لها، فحتى هذه السمة تغيَّرَت بعد أن وقعَت المأساة الليلية الكبرى). في طور الطفولة، بأياكوتشو، إبان أزهى عصور الأسرة (التي كانت تملك ثلاثة بيوت من الأحجار وبضعة مراعي أغنام آنذاك)، شرعَت في تعلُّم العزف على البيانو، فأتقنَته إلى الحدّ الذي سمح لها بتقديم حفلٍ في مسرح المدينة، حضره العمدة والمحافظ، الحفل الذي انهمرَت خلاله دموع الوالدَيْن من فرط التأثُّر وهما ينصتان إلى التصفيق. وبتشجيع من تلك السهرة المجيدة، التي رقصَت فيها راقصات النيوستا أيضًا، استقرّ الزوجان بيرغوا على بيع

كل ما يملكان والانتقال إلى ليما كي تصبح ابنتهما موسيقية. ولذا تملَّكا ذلك البيت الكبير (الذي سوف يبيعان منه أقسامًا ويؤجِّران أقسامًا أخرى في وقت لاحق، رويدًا رويدًا)، كما اشتريا آلة البيانو، وألحقا الطفلة الموهوبة بالمعهد الموسيقي الوطني. ولكن المدينة الشهوانية الكبرى سرعان ما بدَّدت آمال الأقاليم، فما لبث أن اكتشف آل بيرغوا أمرًا لم يسبق لهم أن اشتبهوا فيه يومًا: إذ اتَّضح لهم أن ليما عرين لمليون آثم، كلهم يرغب في اغتصاب فتاة أياكوتشو المُلهَمة، بلا استثناء واحد تعيس. أو على الأقل، هكذا كانت المراهقة ذات الضفائر اللامعة تقول صباحًا ومساءً وليلًا، بعينَيْها الواسعتَيْن اللتين يُبلِّلهما الخوف ويضفي عليهما شكلًا مستديرًا: ذلك أن مُعلِّم النوتة الموسيقية قد انقضَّ عليها لاهثًا في محاولةٍ منه لارتكاب الإثم على فراش من النوتات الموسيقية، وحارس المعهد الموسيقي قد طرح عليها السؤال البذيء التالي: «أتريدين أن تكوني عاهرتي؟»، زد على ذلك الرفيقَيْن اللذين دعياها إلى الحمام لتشاهدهما في أثناء التبوُّل، والشرطي الواقف على الناصية الذي سألَته عن أحد العناوين فخلط بينها وبين أخرى وأراد أن يحلبها، فضلًا عن السائق الذي قرص حلمتها في الحافلة وهو يتقاضى منها ثمن التذكرة. . . . ولمَّا كان الزوجان عازمَيْن على الدفاع عن سلامة غشاء بكارة الابنة، بأخلاقهما الجبلية المُطعَّمة بالمبادئ الجامدة كالرخام، ذلك الغشاء الذي لا يجدر بعازفة البيانو الصغيرة أن تضحِّي به إلَّا من أجل سيِّدها وزوجها المستقبلي، فلقد ألغيا الاشتراك في المعهد الموسيقي، واتَّفقا مع آنسة تُعلِّم البيانو في البيت، كما ألبسا روسا ثياب الراهبات، وحظرا عليها الخروج إلى الشارع ما لم تكُن برفقتهما. مرَّت خمسة وعشرون عامًا منذ ذلك الحين، وما زال غشاء البكارة سليمًا، في موضعه، وإن لم تعُد للأمر

قيمة كبيرة عند هذه النقطة، فباستثناء تلك المزية - التي يزدريها شباب العصرِ بشدّة - ما عادت تملك مزايا أخرى لتقديمها، وهي التي أصبحَت عازفة بيانو سابقة (إذ عُلِّقَت الدروس بعد وقوع المأساة، كما بيع البيانو لتغطية تكاليف المستشفى والأطباء). تبلَّدَت، وانحنى ظهرها، وهزلَت، وغاصَت في تلك الأردية القاتلة للرغبة الجنسية التي درجَت على ارتدائها، وتلك القلانس التي تحجب شعرها وجبينها، حتى صارت تبدو أقرب إلى الجوال السائر منها إلى المرأة. كانت تلحّ في الزعم بأن الرجال يتحسَّسونها، ويرهبونها بالعروض الكريهة، ويرغبون في اغتصابها، ولكن، في هذه المرحلة، حتى أبوها وأمها صارا يتساءلان عما إذا كانت تلك الأوهام صحيحة ذات يوم.

أما الشخص المُؤثِّر الواصي على بنسيون كولونيال بحقّ، فهو دُوُن سِباستيان بيرغوا، العجوز صاحب الجبين العريض والأنف المعقوف والنظرة الثاقبة والروح المستقيمة الصالحة. يسعنا القول إنه رجل على الطراز القديم، ورث بعض الطباع عن أسلافه الموغلين في القدم، أولئك الهِسبان الغزاة، الإخوة بيرغوا، أبناء مرتفعات كوينكا الذين وصلوا إلى بيرو مع پيثارّو[1]. بَيْد أنه لم يأخذ عنهم ذلك الشطط الذي جعلهم، أو جعل كل واحدٍ منهم على حدة، يشنق مئات من أبناء الإنكا ويترك عددًا يضاهيه من عذراوات مدينة كوسكو حبالى، بل إنه قد أخذ عنهم تلك الروح النقية في كاثوليكيتها، وتلك القناعة الجريئة التي حدَّثَتهم بأن السادة أبناء العائلات العريقة يمكنهم العيش على النهب وريع الممتلكات، لا بعرق الجبين. منذ كان في

---

(١) فرانثيسكو پيثارّو غونثالِث (١٤٧٨ - ١٥٤١): من قادة حملة الغزو التي شنّتها إسبانيا على أمريكا الجنوبية في مطلع السادس عشر. (المترجم)

طور الطفولة، واظب على حضور القداس الإلهي يوميًّا، كما واظب على المناولة كل جمعة، تمجيدًا لسيِّد ليمبياس الذي أخلص له الوفاء، كما داوم على جلد الذات أو ارتداء المِسح ما لا يقل عن ثلاثة أيام شهريًّا. أما كراهية العمل، تلك العادة الخبيثة التي تليق بأبناء بوينوس آيرس، فلطالما بالغ فيها إلى حدٍّ جعله يمسك عن الذهاب لتقاضي إيجار الممتلكات الذي يسمح له بالعيش. وعندما استقرّ به المقام في ليما، لم يزعج نفسه يومًا بالذهاب إلى المصرف لتقاضي عوائد الشهادات التي استثمر فيها نقوده. أما الالتزامات والشؤون العملية التي كانت في متناول صاحبات التنانير، فلطالما وقعَت على عاتق مارغاريتا المجتهدة، وعازفة البيانو السابقة أيضًا، بعد أن كبرَت.

حتى الفترة السابقة على المأساة التي سرَّعَت وتيرة التدهور - اللعنة التي حلَّت بعائلةٍ لن يبقى منها حتى اسمها - عاش دُوُن سِباستيان في العاصمة حياةً جديرة بالمسيحي الشريف ذي الضمير اليقِظ. درج على الاستيقاظ مُتأخِّرًا، لا عن كسل، بل امتناعًا منه عن تناول الفطور برفقة نزلاء البنسيون، مع الأخذ في الحسبان أنه لم يزدرِ البسطاء، ولكنه آمَن بالحاجة إلى الحفاظ على التباعد الاجتماعي، ولا سيما العرقي. وبعد الاستيقاظ من النوم، كان يتناول فطورًا بسيطًا، ثم يذهب لحضور القداس. لطالما زار كنائس مختلفة - القديس أغسطينوس، والقديس بطرس، والقديس فرنسيس، والقديس دومينغو - بروحه الفضولية المُتعطِّشة إلى التاريخ، حتى يشبع أحاسيسه المرهفة بتأمُّلِ روائع أعمال الإيمان الاستعماري، ويؤدِّي واجبه نحو الرَّب أيضًا. كانت ذكريات الماضي الحجرية تنقل روحه إلى زمن الاستعمار والغزو - الأغنى كثيرًا بالألوان مِن الحاضر الرمادي - ذلك الزمن الذي كان يفضِّل لو عاش

فيه عسكريًّا جسورًا برتبة كابتن، أو رجلًا تقيًّا مُكرَّسًا لتدمير الأوثان.
كان دُون سِباستيان يعود إلى البنسيون عَبْر شوارع وسط المدينة المزدحمة، ممتلئًا بأوهام الماضي، منتصبًا، حذرًا، ببدلته السوداء النظيفة وقميصه ذي الياقة والأكمام القابلة للفصل، الذي يلتمع بفعل النشاء، وحذائه الجلدي الذي يعود إلى منقلب القرن، ماضيًا في سبيله إلى بنسيون كولونيال، حيث يستلقي على كرسي مُتأرجِح أمام الشرفة ذات المشربية، حيث يمضي البقية الباقية من النهار في مطالعة الصحف بما حوَت من إعلانات - مُخلِصًا لروحه البيرّيتشولية[1] أشدّ إخلاص - بينما هو مستغرق في التمتمة، حتى يعرف كيف يسير العالَم. وبعد وجبة الغداء، التي لم يجد بديلًا عن تناولها مع النزلاء الذين عاملهم بتحضُّر على الرغم من كل شيء، كان يمارس طقوس القيلولة المُغرِقة في الإسبانيَّة، مُخلِصًا لأسلافه القدامى. وبعد ذلك يرتدي بدلته الداكنة وقميصه المُنشَّى ويعتمر قبعته الرمادية مرة أخرى، ثم يمشي على مهل إلى نادي تامبو أياكوتشو، المُؤسَّسة الواقعة بشارع كايّوما، حيث يجتمع كثيرٌ من المعارف القادمين من أرضه الجميلة في جبال الأنديز. كان يشاهد المساء ذاهبًا والليل مُقبِلًا، بينما هو يلعب الدومينو والكازينو والروكامبور، ويثرثر في الشأن السياسي، وبعض الأمور التي لا تليق بالآنسات في بعض الأحيان، لأنه من البشر برغم كل شيء. ثم يعود في الليل إلى بنسيون كولونيال، بلا استعجال، حيث يتناول الحساء واليخنة وحيدًا في حجرته، مُنصِتًا إلى أحد برامج الراديو، ثم يخلد إلى النوم في سلام مع ضميره ومع الرَّب.

---

(١) نسبةً إلى لا بيرّيتشولي (١٧٤٨ - ١٨١٩): مُمثِّلة ومغنية من بيرو. (المترجم)

كان ذلك في الماضي. أما اليوم، فدُون سِباستيان ما عاد يلمس أرض الشارع بقدمَيْه أبدًا أو حتى يبدِّل ثيابه المُؤلَّفة من روب أزرق وجورب من الصوف وخفٍّ من فراء الألباكا وبيجامة بلون القرميد، لا يغيِّرها ليلًا أو نهارًا، كما أنه لم يعاود التفوّه بعبارة واحدة منذ وقعَت المأساة. لم يعُد يحضر القداس، أو يقرأ الصحف اليومية. وما دام في حالة جيدة، صار النزلاء الطاعنون في السنّ (لأن مالكي بنسيون كولونيال، منذ اكتشفوا أن رجال العالَم كلهم مُنحَلّون، ما عادوا يقبلون سوى النزيلات أو النزلاء الطاعنين في السنّ الذين يبدو عليهم ضعف الرغبة الجنسية، بالحكم على أعمارهم وأمراضهم بالعين المُجرَّدة) يرونه هائمًا كالشبح في الحجرات المعتمة العتيقة، شارد النظرات، بذقنه غير الحليق، وشعره المبعثر بما حوى من قشور، أو يرونه جالسًا، يتأرجح بنعومة على الكرسي المُتأرجِح، أخرس، ذاهلًا، لساعات وساعات. لم يعُد دُون سِباستيان يتناول الفطور أو الغداء مع النزلاء، إذ بات عاجزًا عن رفع الملعقة إلى فمه، فأصبحَت زوجته وابنته تناولانه الطعام خشية أن يجعل من نفسه أضحوكة، ذلك الشعور الذي يطارد الأرستقراطيين حتى في ملاجئ الفقراء. أما إذا لم يكُن بخير، فلا يراه نزلاء البنسيون: لأن الرجل النبيل يلزم فراشه، في حجرته الموصدة بالمفتاح. مع أنهم يسمعونه، وتتناهى إليهم زمجرته أو آهاته أو أنَّاته أو صرخاته التي يرتجف الزجاج على وقعها. بينما يُفاجأ الواصلون حديثًا إلى بنسيون كولونيال بأن دونيا مارغاريتا والآنسة روسا مُستمِرَّتان في الكنس والترتيب والطهو والخدمة ومجاذبة أطراف الحديث خلال تلك الأزمات الصحية التي يتعرَّض لها، وكأن شيئًا لم يكُن، بينما سليل الغزاة مستغرقٌ في العواء، فيحسب نزلاء البنسيون أن زوجته وابنته مُتبلِّدتا الإحساس، قلباهما من جليد، لا تباليان بشقائه. أما أولئك

الوقحون الذين يشيرون إلى الباب المُوصَد، ويجترؤون على السؤال: «هل أصيب دُوُن سِباستيان بوعكة؟»، فتجيبهم السيدة مارغاريتا على مضض: «لا بأس به، ولكن ذكرى نوبة من الفزع قد حضرَته. لن يلبث أن يفيق». وبالفعل تمرّ الأزمة بعد يومَيْن أو ثلاثة، ويظهر دُوُن سِباستيان في أروقة بنسيون باير وحجراته، وسط بيوت العناكب، فيُرَى شاحبًا، هزيلًا، وقد علَت وجهه أمارات الرعب.

ولكن، أي مأساة؟ أين وكيف ومتى وقعَت؟

بدأ الأمر برمّته منذ عشرين عامًا، حين وصل إلى بنسيون كولونيال رجلٌ في مقتبل العمر، عيناه مفعمتان بالحزن، يرتدي رداء أخويَّة سيد المعجزات. كان مندوب مبيعات جائل من أريكيپا، يعاني إمساكًا مزمنًا، له اسمُ نبيٍّ ولقب سمكة: حزقيال[1] دلفين. ومع أنه في مقتبل العمر، فلقد قُبِل نزيلًا في البنسيون بسبب هيئته الروحانية (مع الأخذ في الاعتبار نحافته المفرطة، وشحوبه المفرط، وعظامه الضامرة)، أضف إلى ذلك تديُّنه البادي للعيان. كان يستخدم وشاحًا وسوارًا وربطة عنق، كلها أرجواني اللون، فضلًا عن الكتاب المُقدَّس المتواري في حقيبته، والشارة الكتفية المُطِلَّة من بين طيات ثيابه، كانت كلها أمورًا تضمن ألَّا يشرع في أي محاولة لهتك عرض الفتاة اليافعة.

وبالفعل، في البدء لم يجلب الشاب حزقيال دلفين إلى أسرة بيرغوا إلَّا السرور. كان قليل الشهية إلى الطعام، مُهذَّبًا، يدفع

(١) غالبًا ما نحرص على نقل الأسماء كما تُنطَق باللغة واللهجة الأصليتَيْن. أما في هذه الحالة، فرأينا ضرورة استخدام الاسم كما ورد في ترجمة الكتاب المُقدَّس إلى العربية حفاظًا على الإحالة الدينية التي ذكرها الكاتب، مع العلم أن «حزقيال» بالعربية يقابله «إسيكييل» بالإسبانية، وبلهجة بيرو على وجه التحديد. (المترجم)

الإيجار في مواعيده بدقة، زد على ذلك لفتات المودة التي كانت تبدر منه بين الحين والآخر، حين يقدِّم لدونيا مارغاريتا أزهار البنفسج، أو يقدِّم لدُوُن سِباستيان زهرة قرنفل ليزيِّن بها عروة السترة، أو يهدي روسا نوتات موسيقية وبندول إيقاعٍ بمناسبة عيد ميلادها. استحسن آل بيرغوا خجله، الذي لم يسمح له بالتحدُّث إلى الآخرين ما لم يبادروه بالكلام أولًا، كما جعله يتكلَّم خافضًا صوته طوال الوقت، وعيناه في الأرض، من دون أن ينظر إلى وجه مُحدِّثه أبدًا. كما استحسنوا سلوكه المهذَّب ومفرداته كثيرًا، وسرعان ما شعروا بالمودة نحو الضيف، وربما بدأ أفراد الأسرة مع الوقت يداعبون في قرارة قلوبهم ذلك المشروع الذي حدَّثهم بترقيته إلى منزلة زوج الابنة، وهم الذين غلبَتهم الحياة وجعلَتهم يتقبَّلون فلسفة «أهون الشرور».

شعر دُوُن سِباستيان على وجه الأخص بمودة جارفة نحو نزيل البنسيون: أتراه وجد في مندوب المبيعات المرهف ذلك الابن الذي لم تقدر على إنجابه الزوجة المجتهدة العرجاء؟ في واحدة من أمسيات ديسمبر، مضى به إلى صومعة سانتا روسا دي ليما، حيث رآه يلقي عملةً ذهبية في البئر، ويتضرَّع طالبًا طِلبةً سرّية. وذات أحدٍ من آحاد الصيف الحارق، دعاه إلى مُثلَّجات الموالح على بوابات ميدان سان مارتين. كان الفتى يبدو له أنيقًا، بسبب الصمت والشجن الذي يخيِّم عليه. هل أصابه مرض غامض من أمراض الروح أو الجسد، داء يلتهمه حيًّا؟ أتراه جرحًا لا يندمل من جراح الحبّ؟ كان حزقيال دلفين كالبئر، لا يبوح بشيء. في بعض المرات، عرض عليه آل بيرغوا مواساته وتجفيف دموعه، مع توخِّي الحذر اللازم، سائلين عن سبب وحدته الدائمة، والسبب الذي يمنعه من الذهاب إلى الحفلات أو دور السينما، ويمنعه من الضحك، ويدفعه إلى التنهُّد بحرقة، بعينَيْن تائهتَيْن في الخواء، مع أنه ما زال في ريعان الشباب،

فكان يكتفي بحمرة الخجل، والاعتذار متلعثمًا، والهرولة إلى الحمام الذي يقفل بابه ويبقى فيه بالساعات أحيانًا، مُتعلِّلًا بحجة الإمساك. كان يسافر ثم يعود من أسفار العمل وكأنه أبو الهول بحقّ، فلم تتمكَّن الأسرة يومًا من التحقُّق حتى من المجال الذي يعمل فيه، والمنتجات التي يبيعها. أما هنا، بمدينة ليما، فكان يلزم حجرته التي يوصد بابها على نفسه في غير أوقات العمل. أتراه كان ينصرف إلى تلاوة الكتاب المُقدَّس أو التأمُّل؟ كان دُوُن سِباستيان ودونيا مارغاريتا يشجِّعانه على الاستماع إلى تمارين البيانو التي تؤدّيها روسيتا «على سبيل التسلية»، مدفوعَيْن إلى ذلك بالشفقة والرغبة في التوفيق بينه وبين ابنتها، فيمتثل هو لطلبهما: ويبقى جامدًا مُتنبِّهًا في أحد أركان الصالة، منصتًا إلى البيانو، وفي النهاية يصفِّق بأسلوب مُتحضِّر. كثيرًا ما رافق دُوُن سِباستيان إلى قدّاساته الصباحية. بل إنه قطع درب الصليب مع آل بيرغوا في أسبوع الآلام من ذلك العام، فتراءى وكأنه فرد من أفراد الأسرة آنذاك.

ولذا شعر آل بيرغوا بقلق شديد يومَ أجهش بالبكاء فجأةً، في أثناء الغداء، بعد عودته من رحلة إلى الشمال مباشرةً، وسكب على المائدة حصة العدس الهزيلة التي قُدِّمَت له منذ قليل، ما أفزع باقي نزلاء البنسيون (قاضي سلامٍ من أنكاش، وكاهن أبرشية من كاخاتامبو، وفتاتَيْن من أوانوكو تدرسان التمريض). رافقه أفراد أسرة بيرغوا الثلاثة إلى غرفته، حيث أعاره دُوُن سِباستيان منديله، بينما أعدَّت له دونيا مارغاريتا فنجانًا من عشبة الليمون والنعنع، في حين دثَّرَت روسا قدمَيْه بالغطاء. هدأ حزقيال دلفين بعد دقائق، واعتذر عن ضعفه، ثم أوضح أنه قد عانى من التوتّر الشديد في الآونة الأخيرة. لم يدرِ لذلك سببًا، ولكن الدموع صارت تسيل من عينَيْه بغزارة، في أي وقت وأي مكان. محرجًا، وبصوت مبحوح، أفضى

إليهم بأن نوبات الرعب تنتابه ليلًا: فيبقى منزويًا على نفسه، أرِقًا، مُفكِّرًا في الأشباح، مشفقًا على نفسه من عزلته، بينما يتصبَّب عرقه باردًا، حتى مطلع الفجر. فاضَت عينا روسا بالدموع، ورسمَت العرجاء علامة الصليب تأثُّرًا بالاعتراف الذي أدلى به. عرض عليه دُوُن سِباستيان أن ينام في الحجرة نفسها حتى يبثّ في نفس الرجل المذعور شعورًا بالطمأنينة والارتياح، فقبَّل الآخر يدَيْه تعبيرًا عن الامتنان.

جيء إلى الحجرة بفراش ثانٍ، جُرّ على الأرضِ جرًّا، ثم رتَّبَته دونيا مارغاريتا وابنتها باجتهاد. كان دُوُن سِباستيان في زهرة العمر آنذاك: الخمسين. ومع أنه قد تعوَّد ممارسةَ تمارين البطن خمسين مرة قبل أن يأوي إلى الفراش (كان يمارس الرياضة قبل النوم، لا بعد الاستيقاظ، حتى يتميَّز عن العامة في هذا الجانب أيضًا)، فلقد امتنع عن أداء التمارين في تلك الليلة حتى لا يزعج حزقيال. أوى الرجل المُتوتِّر إلى الفراش مُبكِّرًا، بعد أن تعشَّى حساء أمعاء الدجاج الذي أُعِدّ بحنان، واطمأنّ إلى الهدوء الذي أدخلَته رفقة دُوُن سِباستيان إلى نفسه مقدمًا، وأيقن من قدرته على الاستغراق في النوم كالأطفال.

أما تفاصيل تلك الليلة، فلن تُمحَى من ذاكرة رجل أياكوتشو الموقر: بل إنها سوف تطارده حتى آخر أيامه، في النوم واليقظة. ومَن يدري، لعلّها تطارده في حياته القادمة أيضًا! أطفأ دُوُن سِباستيان بيرغوا المصباح مُبكِّرًا، فتناهى إليه صوت الأنفاس المنتظمة الآتية من الفراش المجاور، أنفاس الفتى ذي المشاعر المرهفة. جعل دُوُن سِباستيان يفكِّر، شاعرًا بالرضى عن نفسه: «لقد استغرق في النوم». أحسّ بالنعاس يغلبه بدوره، وسمع ناقوس الكاتدرائية وقهقهة أحد السكارى آتية من بعيد. ثم استغرق في النوم. وبهدوء، راوده أهنأ

الأحلام وأروحها للنفس: فرأى قصرًا له برج مُدبَّب، جدرانه مُغطَّاة بالدروع والرقوق وشعارات النبلاء وشجرة العائلة التي امتدَّت مُرورًا بأسلافه حتى آدم. وهناك، كان سيد أياكوتشو (هو نفسه!) يتلقَّى إتاوةً ضخمةً وتكريمًا عظيمًا من جموع الهنود المُقمَّلين الذين راحوا يسمِّنون خزائنه وكبرياءه في آن.

وفجأة، (بعد مضي خمس عشرة دقيقة أم ثلاث ساعات؟) أيقظه شيء... ربما كان صوتًا، أو هاجسًا، أو روحًا زلَّت وهي ماضية في طريقها. وفي جوف العتمة التي لم يخفِّفها إلَّا خيط الضوء الذي جاء من الشارع مُتسلِّلًا من خلال الستارة، لمح على الفراش المجاور خيالًا يرتفع ويطفو مُتَّجهًا إلى الباب في صمت. وتحت وطأة الخدر الذي بثّه النعاس في جسده، افترض أن الشاب مريض الإمساك ذاهب إلى الحمام لقضاء حاجته، أو لعلّه يشعر بأنه على غير ما يرام مرةً أخرى. فسأله بصوت خافت: «حزقيال، هل أنت بخير؟». وبدلًا من الردّ، سمع صوت مزلاج الباب (الصدئ الذي أحدث صريرًا) بمنتهى الوضوح. لم يفهم شيئًا، فاعتدل فوق الفراش بعض الشيء، ثم عاود السؤال وقد تملَّكه ذعر طفيف: «حزقيال، هل جرى لك شيء؟ هل أستطيع مساعدتك؟». عند ذاك أحسّ بالشاب يعود، ويقف هناك، على مقربة من فراشه، حاجبًا عنه خيط الضوء الهزيل الآتي من النافذة (كأولئك الرجال الذين يشبهون القطط، ويبلغون من المرونة حدًّا يجعلهم وكأنهم في كل مكان!). «أجبني يا حزقيال، ماذا بك!»، أخذ يهمهم وهو يتحسَّس بيده، مُفتِّشًا عن مفتاح المصباح. وفي تلك اللحظة، تلقَّى الطعنة الأولى، الطعنة الأعمَق والأنفَذ، التي غاصَت في صدره كما يغوص السكين في الزبد، وشجَّت عظمة الترقوة. كان على يقين بأنه قد صرخ، وصاح مستغيثًا. وعلى الرغم من ذلك، فوجئ بأن أحدًا لم يلبِّ نداءه، لا

زوجته ولا ابنته ولا باقي نزلاء البنسيون، بينما أخذ يحاول الدفاع عن نفسه والتخلُّص من الملاءات التي اشتبكَت فيها قدماه. ولكن أحدًا لم يسمع شيئًا، في واقع الأمر. لاحقًا، عندما حاول رجال الشرطة والقاضي إعادة تمثيل المجزرة، اندهشوا جميعًا لأنه لم يتمكَّن من نزع سلاح المجرم، مع أنه رجل متين البنية، وحزقيال في غاية النحافة. لم يعرفوا أن مندوب المبيعات الطبية، في جوف الظلمات الدامية، بدا وكأن قوة خارقة قد تلبَّسَته: لم يتمكَّن دُوُن سِباستيان إلَّا من إطلاق صرخات من نسج الخيال، ومحاولة التخمين لتوقّع مسار الطعنة التالية حتى يصدّها بيدَيْه.

تلقَّى أربع عشرة طعنة، أو خمس عشرة (إذ رأى الأطباء أن تلك الفُوَّهة المفتوحة في ردفه الأيسر ربما كانت نتاج طعنتَيْن أصابتا الموضع نفسه، في واحدة من المصادفات النادرة التي تصبغ شعرَ الرجل بالأبيض في ليلة واحدة، وتحمله على الإيمان بالرَّب). جاءت الطعنات مُوزَّعة بالتساوي، بطول الجسد وعرضه، ما عدا الوجه الذي لم يُصَب ولو بخدش واحد (أتراها معجزة صنعها سيد ليمپياس، كما فكَّرَت دونيا مارغاريتا؟ أم معجزة صنعَتها القديسة روسا، كما قالَت الفتاة التي سُمِّيَت تيمنًا بها؟). كان السكين لأسرة بيرغوا، كما ثبت لاحقًا، ذلك السكين ذو النصل الحادّ الذي يبلغ طوله خمسة عشر سنتيمترًا، الذي اختفى من المطبخ في ظروف غامضة منذ أسبوع، وترك في جسد رجل أياكوتشو ندوبًا وجراحًا أكثر مما في أجساد القتلة المأجورين.

ولماذا لم يفارق الحياة؟ إنها المصادفة، ورحمة الرَّب، و(فوق ذلك) المأساة التي كادَت تكون أشدّ فداحة. لم يسمع أحدٌ شيئًا مما جرى. أما دُوُن سِباستيان، الذي أصيب جسده بأربع عشرة طعنة - أم خمس عشرة طعنة؟ - فلقد غاب عن الوعي، وراح ينزف تحت

جنح الظلام، فبات في مقدور الشاب المُتهوِّر أن يخرج إلى الشارع ويختفي عن الأنظار إلى الأبد. ولكن نزوةً غريبة قد أودَت به، كما أودَت بكثير من مشاهير التاريخ، فما كاد الضحية يكفّ عن المقاومة حتى أفلت حزقيال دلفين سكينه، ومضى يتجرَّد من ثيابه، بدلًا من ارتدائها، حتى أمسى عاريًا كما جاء إلى الدنيا. بعد ذلك فتح الباب، وتجاوز الرواق وصولًا إلى حجرة دونيا مارغاريتا بيرغوا. ومن دون مزيد من الإيضاح، انقضّ على فراشها وقد أضمر تلك النية التي لا لبس فيها: نية الزنى بها. ولكن، لماذا هي؟ لماذا يحاول اغتصاب سيدة خمسينية، عرجاء، هزيلة، ضامرة، وباختصار دميمة على نحو لا يمكن إنكاره أو علاجه مهما كان المنظور الجمالي الذي ينظر به المرء إليها، على الرغم من أصالة نسبها؟ ولماذا لم يحاول قطف الثمرة المُحرَّمة، ثمرة عازفة البيانو المراهقة، العذراء، المفعمة بالحيوية، صاحبة الشعر الكثيف الفاحم، والبشرة الصافية كالمرمر؟ لماذا لم يسعَ إلى انتهاك «جناح الحريم» السرّي الذي تسكنه مُمرِّضتا أوانوكو، العشرينيتان، اللتان يُرجَّح أن تكون كلتاهما ذات لحم بضٍّ شهي؟ كانت تلك الاعتبارات المهينة هي التي أفضَت بالسلطة القضائية إلى قبول حجة الدفاع القائلة بأن حزقيال دلفين مُختَلٌّ، والأمر بإرساله إلى مستشفى لاركو إريرا للأمراض العقلية بدلًا من الزجّ به في السجن.

ولمَّا تلقَّت زيارة الشابّ الغرامية غير المُتوقَّعة، أدركَت السيدة مارغاريتا بيرغوا أن شيئًا في غاية الخطورة قد وقع. كانت امرأة واقعية، لا تداعبها الأوهام بشأن مفاتنها: «لا أحد يقدم على اغتصابي، ولا حتى في الأحلام. ولذا عرفتُ أن الرجل العاري مجنون، أو مجرم»، هكذا صرَّحَت. دافعَت عن نفسها كاللبؤة الشرسة - وأقسمَت بالعذراء في شهادتها إن الرجل المحموم لم يفلح

في تقبيلها ولو قبلة واحدة - بل إنها تمكَّنَت من إنقاذ حياة زوجها أيضًا، كما دافعَت عن شرفها من التعدِّي. وفي الوقت نفسه، بينما هي تصدّ الرجل المُنحَلَّ عضًّا، وخدشًا، وضربًا بالمرفقَيْن والركبتَيْن، مضَت تطلق صرخات أيقظَت ابنتها وسائر النزلاء (بخلاف زوجها الذي لم يصرخ). وبالتعاون في ما بينهم، تمكَّنت روسا وقاضي أنكاش وكاهن كاخاتامبو ومُمرِّضتا أوانوكو من تكبيل حركة الرجل الذي افتضح أمره، ثم شدّوا وثاقه، وسارع الكل إلى البحث عن دُوُن سِباستيان: هل كان على قيد الحياة؟

استغرقوا نحو ساعة في العثور على سيارة الإسعاف التي حملَته إلى مستشفى رئيس الأساقفة لوايسا، واستغرقَت الشرطة قرابة ثلاث ساعات في الوصول وإنقاذ لوتشو أبريل مارّوكين من أظافر عازفة البيانو الشابة التي ثارَت ثائرتها، فأرادَت أن تقتلع عينَيْه وتشرب من دمائه (بسبب الجراح التي ألحقها بوالدها؟ أم التعدِّي على أمها؟ أو ربما لأنه قد خذلها، وهي صاحبة الروح البشرية ذات اللبّ العكِر والحواف السامة؟). وفي قسم الشرطة، أنكر مندوب المبيعات الطبية الشاب تلك الواقعة الجلية على نحوٍ قاطع، مستعيدًا رقةَ الصوت واللفتات المعهودة، مُتضرِّجًا من فرط الخجل، وقال إن آل بيرغوا ونزلاء البنسيون قد افتروا عليه: لأنه لم يتعدَّ على أحد يومًا، ولم يحاول أن يغتصب امرأة قطّ، دع عنك امرأة عاجزة مثل مارغاريتا بيرغوا، التي كانت أكثر امرأة يحترمها ويحبّها في العالَم بأسره، مع الأخذ في الاعتبار طيبتها وكياستها، وإن جاءت في المقام الثاني بعد زوجته، بطبيعة الحال، زوجته الشابة ذات العينَيْن الإيطاليتَيْن والمرفقَيْن والركبتَيْن الموسيقيتَيْن، تلك التي جاءت من بلد الحبّ والغناء. أما سمات الهدوء والتحضُّر والوداعة التي كان يتميَّز بها، أضف إليها خلوّ صحيفته الجنائية من كل شائبة، والتوصيات الرائعة

التي أدلى بها رؤساؤه ورفاقه في مختبرات باير، فكلها أشياء حملَت رجال القانون على التردّد. أيُحتمَل أن يكون الأمر برمّته مؤامرة حاكَتها زوجةُ الضحية وابنته ونزلاء البنسيون ضد ذلك الشاب ذي الأحاسيس المرهفة، بسحرِ المظاهر الخدَّاعة التي لا يُسبَر لها غور؟ أظهرَت السلطة الرابعة في الدولة ميلًا وتأييدًا لتلك الفرضية.

وإمعانًا في تعقيد الأمور وحفاظًا على عنصر التشويق في المدينة، عجز ضحية الجريمة، دُوُن سِباستيان بيرغوا، عن تبديد الشكوك، إذ كان يتأرجح بين الحياة والموت في المستشفى الشعبي بجادة ألفونسو أوغارتيه. نُقِلَت إليه جرعات وفيرة من الدماء، حتى صار عدد كبير من أبناء بلدته - أعضاء نادي تامبو أياكوتشو الذين هرولوا مُتبرِّعين بدمائهم حالما تناهى إليهم خبر المأساة - على حافة الإصابة بداء السلّ. أما عمليات نقل الدماء والمحاليل وخياطة الجروح وتطهيرها والضمادات وخدمات المُمرِّضات اللاتي تناوبن على خدمته والأطباء اللذين جبَّروا عظامه وعالجوا أعضاءه وهدَّأوا أعصابه، فلقد التهمَت موارد الأسرة خلال بضعة أسابيع (الموارد التي هزُلَت بالفعل تحت وطأة التضخُّم وتكلفة المعيشة الباهظة). اضطُرّ آل بيرغوا إلى بيع السندات بثمن بخس، فضلًا عن اقتطاع أجزاء من ملكيتهم وعرضها للإيجار، والانزواء في ذلك الطابق الثاني حيث يذبلون الآن.

نجا دُوُن سِباستيان بحياته، أجل، ولكن تعافيه لم يبدُ كافيًا لتبديد شكوك الشرطة، لأنه قد أصيب بالخرس (بل وتناقلَت الألسنة شائعةً تقول إنه قد أصيب بالبله أيضًا) تحت وطأة الطعنات، أو نوبة الذعر، أو وصمة العار الأخلاقية التي لوَّثت شرف زوجته. وهكذا بات عاجزًا عن التفوّه بكلمة واحدة، وأصبح ينظر إلى كل شيء وكل شخص بتبلُّد السبات الخليق بالسلاحف. حتى أصابعه ما عادت

تطيعه، فلم يستطِع أن يجيب عن الأسئلة المُوجَّهة إليه كتابةً في أثناء محاكمة المُختَلِّ (أم تراه لم يرغب في ذلك؟).

اكتسبَت المحاكمة أبعادًا شديدة الضخامة، فظلَّت مدينة الملوك محبوسة الأنفاس طوال الوقت الذي استغرقَته الجلسات. وإذا بمدينة ليما، وبيرو (أو أمريكا الخلاسية بأسرها؟) تتابع بشغف المناظرات القضائية، وشهادات المُختَصّين والشهادات المضادة، ومرافعة وكيل النيابة، فضلًا عن مرافعة المحامي والفقيه القضائي الشهير الذي حضر خصيصًا من روما، مدينة الرخام، للدفاع عن لوتشو أبريل مارّوكين، لأنه زوج الإيطالية التي لم تقتصر صلتها بالمحامي على المُواطَنة وحسب، بل كانت ابنته أيضًا.

انقسم البلد إلى فرقتَيْن: فزعم أولئك الذين اقتنعوا ببراءة مندوب المبيعات الطبية - جميع الصحف اليومية - بأن دُوُن سِباستيان كاد يروح ضحية على أيدي زوجته وابنته، فضلًا عن قاضي أنكاش ومُمرِّضتَي أوانوكو وكاهن كاخاتامبو الذين كانوا شركاءهما في الجريمة، رغبةً منهم في الحصول على الإرث والمكاسب المادية، من دون شكّ. ولقد دافع الفقيه القضائي الروماني عن تلك الفرضية بجلال، مُؤكِّدًا أن الأسرة ونزلاء البنسيون قد تآمروا على تلفيق التهمة للوتشو أبريل مارّوكين عندما انتبهوا إلى إصابته الطفيفة بالخبل (أم تراهم قد تآمروا على تحريضه حتى يرتكب الجريمة بنفسه؟). ومضى يراكم الحُجج التي هوَّلَتها الصحافة وصفَّقَت لها وقالت بثبوت صحتها: وإلَّا، فهل مِن شخص في كامل قواه العقلية يقدر على التصديق بأن رجلًا قد يتلقَّى أربع عشرة طعنة، أو ربما خمس عشرة، في صمتٍ وقور؟ ولو كان دُوُن سِباستيان قد صرخ ألمًا، كما يقضي المنطق، فهل مِن شخص في كامل قواه العقلية يقدر على التصديق بأن لا الزوجة ولا الابنة ولا المُمرِّضتَيْن ولا القاضي ولا الكاهن قد

سمعوا تلك الصرخات، مع الأخذ في الاعتبار جدران بنسيون كولونيال المصنوعة من القصب والآجر، تلك التي يتخلَّلها صوت طنين الذباب وزحف العقارب؟ وكيف يُعقَل ألَّا تفلح النزيلتان القادمتان من أوانوكو في تقديم الإسعافات الأولية للجريح، وهما طالبتا التمريض الحاصلتان على تقديرات ممتازة؟ وكيف يُعقَل أن تنتظرا وصولَ سيارة الإسعاف بلا اكتراث، بينما السيد المحترم ينزف الدماء؟ وكيف يُعقَل أن واحدًا من أولئك الأشخاص الستة الكبار لم تخطر على باله فكرة البحث عن سيارة أجرة عندما انتبهوا إلى تأخُّر سيارة الإسعاف، تلك الفكرة البدائية حتى بالنسبة إلى المعاقين ذهنيًّا، مع العلم بوجود موقف سيارات أجرة على ناصية بنسيون كولونيال؟ ألم يكُن الأمر برمته غريبًا، ملتويًا، كاشفًا؟

ولكن، بعد أن ظلَّ كاهن كاخاتامبو رهن الاعتقال في ليما لمدة ثلاثة أشهر، توقَّف قلبه، وفارق الحياة مرعوبًا من احتمال إدانته بالشروع في القتل، وقضاء البقية الباقية من أيامه في السجن، وهو الذي حضر إلى العاصمة لتمضية أربعة أيام فحسب، للحصول على مسيح جديد من أجل كنيسة بلدته، لأن الصبية الأشقياء قد أطاحوا برأس المسيح السابق بضربات المقاليع. أشعلَت وفاته الرأي العام، وكانت لها آثار مُدِّمرة على الدفاع. والآن، انقلبَت الصحف اليومية على الفقيه القضائي وارد الخارج، واتَّهمَته بأنه سفسطائي، أوبرالي، استعماري، أجنبي، كما اتَّهمَته بالتسبُّب في موت ذلك الراعي الصالح بتلميحاته الضالّة المعادية للمسيحية، فجرَّده القضاة من امتيازاته لأنه غريب عن البلد، بوداعة القصب الذي يتمايل في مهبّ رياح الصحافة، كما حرموه من الحقّ في الترافع أمام هيئة المحكمة، وقُضِي بردّه إلى إيطاليا باعتباره شخصًا غير مرغوب، بقرار قابلَته الصحف اليومية بحفاوة قومية.

وبفضل وفاة كاهن كاخاتامبو، نجَت الأم والابنة والنزلاء من إدانة مُرجَّحة بالشروع في القتل والتستُّر على الجريمة. وعلى أنغام الصحافة والرأي العام، عاد وكيل النيابة إلى الشعور بالتعاطف نحو آل بيرغوا، وتقبَّل نسختهم من الواقعة، كما سبق أن فعل في أول الأمر. أما محامي لوتشو أبريل مارّوكين الجديد، رجل القانون المحلّي، فبدَّل الاستراتيجية المُتَّبعة من الأساس: مُعترِفًا بأن مُوكِّله قد ارتكب الجريمتَيْن، وإن ادَّعى فقدانه التام للأهلية، نظرًا إلى إصابته بالخطل في الرؤية والكساح بسبب داء الأنيميا، فضلًا عن الشيزوفرانيا وغيرها من الإعاقات التي تدخل في نطاق الأمراض العقلية، حسبما أكَّد أطباء نفس بارزون في تقارير سلسة. وهنا احتُجّ بأن المُتَّهم قد تخيَّر المرأة الأكبر عمرًا، والعرجاء الوحيدة من بين النساء الأربعة الحاضرات في بنسيون كولونيال، باعتبار ما بدر منه دليلًا دامغًا على جنون المُتَّهم. وخلال مرافعة وكيل النيابة الأخيرة، في ذروة الدراما التي ترتقي بالمُمثِّلين إلى مصاف الآلهة وتبثّ القشعريرة في أبدان المشاهدين، رفع دُوُن سِباستيان يده ببطء - بعدما ظلّ صامتًا أرمص العينَيْن في مقعده حتى ذلك الوقت وكأن المحاكمة لا تعنيه في شيء - وظلّ يشير بيدٍ ثابتة إلى لوتشو أبريل مارّوكين طوال دقيقة كاملة احتُسِبَت بالساعة (كما قال أحد الصحافيين)، بعينَيْه اللتين احمرَّتا من شدة الجهد المبذول أو الغضب أو الشعور بالإهانة، فاعتُبِرَت لفتة دُوُن سِباستيان ظاهرة خارقة، وكأن تمثال سيمون بوليفار على صهوة الجواد قد انطلق راكضًا... وهكذا قبلَت المحكمة بحجج وكيل النيابة كلها، فزُجّ بلوتشو أبريل مارّوكين في مستشفى الأمراض العقلية.

أما آل بيرغوا، فلم يعاودوا الوقوف على أقدامهم مرة أخرى، وإنما بدأ الانهيار المادي والمعنوي. أفلسوا مُثقَلين بتكاليف العيادات

وأتعاب مُدَّعي العلمِ بالقانون، فاضطُرّوا إلى هجر دروس البيانو (والتخلّي عن الطموح الذي كان يحدِّثهم بإعداد روسا لتصبح فنانة عالمية) كما أُرغِموا على خفض مستوى المعيشة إلى الحدّ الأقصى، حتى صاروا على مشارف العادات الخبيثة كالامتناع عن الطعام والتغاضي عن القذارة. هرم البيت العتيق أكثر فأكثر، فزحف إليه الغبار واجتاحَته بيوت العناكب وأكلَته العثّة. أما النزلاء، فتناقصَت أعدادهم، وتدنَّت مكانتهم، حتى صاروا من الخادمات والحمَّالين. ولقد وصل البنسيون إلى القاع يومَ طرق باب البنسيون أحد الشحاذين مُوجِّهًا السؤال المُروِّع الآتي: «أهذه حظيرة كولونيال؟».

وهكذا، تعاقبَت الأيام وتوالَت الشهور، حتى مرَّت ثلاثون عامًا.

ظهر على آل بيرغوا أنهم قد ألفوا تردّي الأحوال. وإذا بأمر يقع فجأة، ويثير الهرج والمرج، مثل القنبلة الذرية التي تنسف المدن اليابانية فجرًا. منذ أعوام طوال، توقَّف الراديو عن العمل، كما لم تسمح ميزانية الأسرة بشراء الصحف، فما عادت أخبار العالَم تبلغ آل بيرغوا إلَّا فيما ندر، عبر طرائق غير مباشرة، من خلال التعقيبات والنمائم التي يتناقلها نزلاؤهم عديمو الثقافة.

ولكن، في ذلك المساء - ويا للمصادفة! - أطلق سائق شاحنة من كاستروبيرينا قهقهةً سوقية ممزوجة بالبصاق الأخضر، وغمغم قائلًا: «يا للمخبول». ثم ألقى بنسخة **آخر ساعة** التي فرغ من قراءتها لتوّه على طاولة الصالة المخدوشة، فالتقطَتها عازفة البيانو السابقة وألقَت عليها نظرة. وإذا هي تهرول إلى الحجرة مناديةً أمها بأعلى صوت، ممتقعةً وكأنها قد تلقَّت قبلةً من مصاص الدماء. قرأتا الخبر المُجعَّد معًا، وأعادتا قراءته. ثم قرأتاه صراخًا، بالتناوب في ما بينهما، على دُون سِباستيان الذي أدرك فحوى الخبر بلا أدنى شكّ،

فما هي إلَّا ثانية حتى داهمته واحدة من تلك النوبات الصاخبة التي تجعله يستغرق في الفواق ويتفصَّد عرقًا ويبكي صارخًا ويتقلَّب كمن أصابه مَسٌّ مِن الأرواح الشريرة.

ولكن ما الخبر الذي روَّع الأسرة الآفل نجمها إلى هذا الحدّ؟

في فجر اليوم السابق، وفي جناح مزدحم من أجنحة مستشفى بيكتور لاركو إيريرا للأمراض العقلية الذي يقع بماغداليناً دِل مار، أقدم نزيلٌ على ذبح أحد المُمرِّضين بالمبضع، كما شنق العجوز المشلول النائم في الفراش المجاور، ثم ولَّى هاربًا إلى المدينة، قافزًا من فوق أسوار لا كوستانيرا بحركات رياضية، بعد أن قضى زمنًا طويلًا خلف تلك الجدران. ولقد جاء سلوكه مفاجئًا، فلطالما كان النزيل مسالمًا على نحو نموذجي، ولم تبدُ عليه لفتةٌ واحدة تنمّ عن حدّة المزاج، كما لم يُسمَع صوته عاليًا في أي وقت مضى. بل إن شيئًا واحدًا لم يشغله، على مدى الأعوام الثلاثين الماضية، إلَّا رفع القدَّاسات الإلهية المُتخيَّلة إلى سيِّد ليمپياس، وتوزيع القربان المُقدَّس الخفي على حضورٍ لا وجود لهم. كان لوتشو أبريل مارّوكين قد بلغ العمر الأمثل منذ عهد قريب: الخمسين، وقبل أن يلوذ بالهرب من المستشفى، كتب رسالة الوداع المُهذَّبة الآتية: «أنا آسفٌ، ولكني لم أجدّ من الخروج مفرًّا. ينتظرني حريقٌ في بيت عتيق من بيوت ليما، هناك حيث يُزدرَى الرَّب حدَّ الموت على يدَي امرأةٍ عرجاء مُتوهِّجة كالشعلة، ومعها أسرتها. ولقد تلقَّيتُ أمرًا بإطفاء ألسنة اللهب».

أيفعلها؟ أيطفئ ألسنة اللهب؟ أيحضر الرجل الذي قام من قاع السنين حتى يُغرِق آل بيرغوا في الهولِ للمرة الثانية، كما أغرقهم الآن في الخوف؟ كيف تنتهي الحال بأسرة أياكوتشو المُروَّعة؟

١٣

بدأ ذلك الأسبوع الحافل بواقعة طريفة (خلَت من السمات العنيفة التي ميَّزَت اللقاء بالشوَّائَيْن)، واقعة شهدتُها وشاركتُ فيها بصورة جزئية. كان خينارو الابن يمضي حياته كاملةً في إدخال التجديدات على البرامج. وذات يوم، اتَّخذ قراره بضرورة إرفاق نشرات الأخبار بالمقابلات لإضفاء طابع حيوي عليها. كلَّفني أنا وپاسكوال بتلك المهمة، ومنذ ذلك الحين، بدأنا في بثّ لقاء يومي عن أحد مواضيع الساعة في برنامج پانامريكانو الليلي، الأمر الذي وضع على عاتق الخدمة الإخبارية المزيد من العمل (من دون زيادة في الراتب)، ولكنني لم آسف لذلك، إذ كان الأمر مُسلِّيًا. وفيما رحتُ أستجوب فناني الملاهي الليلية ونوَّاب البرلمان ولاعبي كرة القدم والأطفال النوابغ في أستوديو شارع بيلين، أو أمام جهاز التسجيل، تعلَّمتُ أن كل واحد بلا استثناء يصلح لأن يكون موضوع قصة.

قبل الواقعة الطريفة، كان أكثر ضيوف البرنامج إثارةً للفضول مصارع ثيرانٍ من فنزويلا، لقي نجاحًا مُدوِّيًا في ساحة أتشو خلال الموسم الجاري. في جولته الأولى، بتر العديد من آذان الثيران. وفي الثانية، بعد أداء إعجازي، تلقَّى ظلفًا، فحملَته الحشود على الأكتاف من ريماك إلى الفندق حيث كان يقيم، بميدان سان مارتين.

أما في جولته الثالثة والأخيرة - التي أُعيد بيع تذاكر الدخول إليها بأسعار فلكية، من أجله هو - فلم يقترب من الثيران إلى الحدّ الذي يسمح له برؤيتها، إذ تملَّكه الرعب الخليق بالغزلان، فراح يركض هاربًا من الثيران طوال المساء، ولم ينفِّذ ولو مناورة واحدة لائقة، بل إنه مضى يحاول قتلها بارتباك، حتى إنه كان قد تلقَّى أربعة إنذارات بعد الثور الثاني له يومذاك. اندلع شغب عارم في المُدرَّجات، وحاول المُتفرِّجون إضرام حريق في ساحة أتشو وإعدام الفنزويلي الذي اضطُرّ إلى الذهاب في حماية الحرس المدني إلى الفندق، وسط صيحات الاستهجان المُدوِّية وأمطار الوسائد. وفي صباح اليوم التالي، قبل أن يستقلّ الطائرة بساعات، أجرَيتُ معه لقاء في بهو صغير بفندق بوليفار. أورثني المصارع شعورًا بالحيرة عندما تأكَّد لي أنه يقلّ ذكاءً عن الثيران التي يصارعها، ويكاد يضاهيها في العجز عن التعبير بالكلمات. كان عاجزًا عن إنشاء جملة واحدة مُتَّسقة، ولم يحالفه التوفيق في صياغة أزمنة الفعل مطلقًا، بل كانت طريقته في تنسيق الأفكار تحدو المستمع إلى التفكير في الأورام وفقدان القدرة على الكلام والرجال القِرَدة. أما أسلوب الكلام، فلم يقلّ عن المحتوى استثنائيةً: إذ كان يتكلّم بلهجة تعيسة، مُؤلَّفة من صيغ التصغير وأدوات الجزم التي يضيف إليها الأصوات الحيوانية في فترات الخواء الذهني الكثيرة.

أما المكسيكي الذي أجريتُ معه لقاء يوم الإثنين، في ذلك الأسبوع المشهود، فكان رجلًا ألمعيًا - بعكس المصارع - ومُتحدِّثًا لبقًا، يعمل مديرًا بإحدى المجلات، وله مُؤلَّفات عن الثورة المكسيكية. جاء على رأس وفد من علماء الاقتصاد، ونزل بفندق بوليفار. وافق على الحضور إلى مقرّ الراديو، فذهبتُ إليه حتى أوصله بنفسي. كان رجلًا طويلًا، منتصب القوام، مُهندَم الثياب،

أشيب الشعر، لا بد أنه في العقد السابع من العمر. جاءت معه زوجته، المرأة ذات العينَيْن النابضتَيْن بالحياة والجسد الضئيل، التي كانت تعتمر قبعة صغيرة مُزيَّنة بالأزهار. أعددنا اللقاء في الطريق من الفندق إلى الراديو، ثم سجَّلناه في خمس عشرة دقيقة، في ظلّ شعور خينارو الابن بالخوف، لأن عالم الاقتصاد والمُؤرِّخ، في معرض الإجابة عن أحد الأسئلة، قد شنّ هجومًا ضاريًا على الديكتاتوريات العسكرية (التي كنا نرزح تحت وطأة إحداها، برئاسة المدعو أودريا).

جرت الواقعة وأنا سائر برفقة الزوجَيْن، في طريق العودة إلى فندق بوليفار. كان الوقت ظهرًا، واكتظّ شارع بيلين وميدان سان مارتين بالناس، في حين مضى ثلاثتنا: السيدة على الرصيف، وزوجها في الوسط، وأنا على الجانب المجاور للطريق. مررنا أمام مقرّ راديو سِنترال، بينما رحتُ أكرِّر على الرجل المهم أن اللقاء كان رائعًا، لمُجرَّد أن أقول شيئًا، وإذا السيدة المكسيكية تقاطعني بصوتها الرفيع، بمنتهى الوضوح:

- «يا يسوع، يا يسوع، سأفقد الوعي...».

نظرتُ إليها فرأيتُها ممتقعة، تفتح عينَيْها وتغمضهما، وتحرِّك فاها بطريقة في منتهى الغرابة. أما الشيء المفاجئ، فكان ردة فعل عالم الاقتصاد والمُؤرِّخ، ذلك أنه سمع التحذير الذي أطلقَته زوجته، فألقى عليها نظرة سريعة، وألقى عليَّ نظرةً أخرى، بتعبير يشي بالحيرة. وما هي إلَّا ثانية حتى نظر إلى الأمام مُجدَّدًا، وانطلق يحثّ الخطى، بدلًا من التوقّف. ظلَّت السيدة المكسيكية إلى جانبي، وقد انقبض وجهها. أسعفني الوقت للإمساك بذراعها وهي على وشك السقوط مغشيًا عليها. كانت في غاية الرهافة، من حسن الحظّ، فتمكَّنتُ من مساندتها ومساعدتها، بينما ولَّى الرجل ذو الشأن هاربًا،

بخطى واسعة، تاركًا لي تلك المهمة الدقيقة، المُتمثِّلة في جرّ زوجته. أفسح الناس الطريق، وتوقَّفوا ناظرين إلينا. بلغنا سينما كولون، أما السيدة المكسيكية، فمضَت منقبضة الوجه، في حين بدأ يسيل لعابها ومخاطها ودموعها. سمعتُ بائع سجائر يقول: «إنها تتبوَّل على نفسها أيضًا». وكان على حقّ: لأن زوجة عالم الاقتصاد والمُؤرِّخ (الذي تجاوز شارع كولمينا وتلاشى وسط المتزاحمين على أبواب حانة بوليفار) مضَت تاركة خلفنا أثرًا أصفر اللون. بلغنا الناصية، فلم أجد بدًّا من حملها وقطع الأمتار الخمسين المُتبقِّية وأنا على تلك الحال، رائعًا، شهمًا، وسط السائقين الذين أطلقوا أبواق التنبيه، ورجال الشرطة الذين أطلقوا الصفير، والناس الذين أشاروا إلينا. بين ذراعَيّ، مضَت السيدة المكسيكية الضئيلة تتلوَّى بلا هوادة، ووجهها ما زال منقبضًا، بينما تأكَّدتُ بأنفي ويدَيّ أنها، فضلًا عن التبوُّل، قد فعلَت شيئًا أشدّ قبحًا. أصدر حلقها صوتًا واهنًا، مُتقطِّعًا. دخلنا إلى فندق بوليفار، فسمعتُ أمرًا يُوجَّه إليَّ بجفاء: «غرفة ٣٠١!». وإذا هو الرجل المهم يكاد يتوارى خلف الستائر. ما إن أملى عليَّ أمره، حتى عاود الهرب والابتعاد بخطى حثيثة، ماضيًا صوب المصعد. وفي طريق الصعود، لم يتكرَّم بالنظر إليَّ أو إلى زوجته ولو مرة واحدة، كمن لا يريد أن يبدو وقحًا. ساعدني عامل المصعد على حمل السيدة إلى الغرفة، فما كدنا نضعها في الفراش حتى دفَعَنا الرجلُ المهم إلى الباب دفعًا، بالمعنى الحرفي للكلمة. ومن دون كلمة شكر أو وداع، أوصد الباب في وجهَيْنا بعنف، وقد ظهرَت أمارات المرارة على وجهه في تلك اللحظة.

- «ليس بالزوج السيئ»، أوضح لي پدرو كاماتشو في وقتٍ لاحق. «بل إنه رجل مرهف الأحاسيس، يولي المظاهر اهتمامًا كبيرًا».

في مساء ذلك اليوم، كان عليَّ أن أقرأ على الخالة خوليا وخابيير القصة التي انتهيتُ منها لتوّي: **الخالة إليانا**. لم تُنشَر قصة السابحين في الهواء على صفحات إل كومِرسيو قطّ، فعزَّيتُ نفسي بكتابة قصة أخرى استقيتُها من واقعة جرَت في إطار عائلتي. كانت إليانا واحدة من الخالات الكثيرات اللاتي يحضرن إلى البيت في طفولتي، ولقد آثرتُها على الأخريات لأنها كانت تهديني الشكولاتة، بل كانت تصحبني إلى كْريم ريكا في بعض الأحيان لتناول الشاي. كان ولعها بالحلوى مثارًا للسخرية في لقاءات العشيرة، وقيل إنها تنفق راتبها كاملًا، الذي تتقاضاه بوصفها سكرتيرة، على الفطائر الغنية بالكْريم والكرواسون المقرمش والكعكات الإسفنجية والشكولاتة الثقيلة التي تشتريها من لا تينديِسيتا بلانكا. كانت بدينة، حنونًا، باسمةً، كثيرة الكلام. وكنتُ أدافع عنها متى قيل إنها سوف تظلّ عانسًا من وراء ظهرها، في إطار العائلة. ذات يوم، وعلى نحو غامض، انقطعَت الخالة إليانا عن الحضور إلى البيت، ولم يأتِ أفراد العائلة على ذكر اسمها مرة أخرى. لعلّي كنتُ في السادسة أو السابعة آنذاك. أذكر شعوري بالريبة حيال ردود الأقرباء كلّما سألتُهم عنها: «لقد سافرَت»، «إنها مريضة»، «قريبًا تحضر، في واحد من تلك الأيام». وبعد خمسة أعوام على وجه التقريب، اتَّشح جميع أفراد العائلة بثياب الحداد فجأةً. ليلتذاك، في بيت الجدّ والجدّة، عرفتُ أنهم قد حضروا جنازة الخالة إليانا التي فارقَت الحياة لتوّها مريضةً بالسرطان. وعند ذاك انجلى الغموض. كانت الخالة إليانا، عندما تراءى أنها محكومة بالعنوسة، قد تزوَّجَت من رجل صيني يملك دكانًا في خيسوس ماريا، على غير المُتوقَّع. أما أفراد العائلة، بدءًا بوالدَيْها، فهالَتهم الفضيحة، وقضوا عليها بالموت وهي على قيد الحياة، فلم يعاودوا زيارتها أو استقبالها قطّ. كنتُ أظنّ الفضيحة

تكمن في جنسية الزوج الصيني، ولكني الآن استنتجتُ أن عيبه الأكبر أنه مالك دكان. وبعد أن فارقَت الحياة، صفحَت عنها العائلة - كانت عائلة من العاطفيين، في قرارة الأمر - فذهب الأقرباء لتشييع الجثمان، كما حضروا الجنازة وبكوا من أجلها بالدمع الغزير.

كانت قصتي عبارة عن مونولوج، يلقيه طفلٌ صغير، مُستلقيًا في فراشه، بينما هو يحاول كشف طلاسم الغموض الذي يلفّ اختفاء خالته، ثم ينتهي المونولوج بتشييع جثمان البطلة. كانت قصة اجتماعية، مُحمَّلة بالغضب العارم من الأقرباء ذوي الأحكام المسبقة. استغرقتُ في كتابتها أسبوعَيْن، وأكثرتُ من الحديث عنها إلى الخالة خوليا وخابيير، حتى سلَّم كلاهما أمره، وطلبا مني أن أقرأها عليهما. ولكني أخبرتُهما بما جرى مع السيدة المكسيكية والرجل المهم مساء الإثنين من ذلك الأسبوع، قبل أن أقرأ عليهما القصة، فارتكبتُ بذلك خطأ دفعتُ ثمنه فادحًا، إذ وجدا واقعة السيدة المكسيكية أطرف من قصتي كثيرًا.

صارَت من عادة الخالة خوليا أن تحضر إلى بانامريكانا، فلقد اكتشفنا أنه المكان الأوفر حظًّا من الأمان، مع الأخذ في الحسبان تواطؤ باسكوال وبابليتو الكبير. كانت تحضر بعد الخامسة، الساعة التي تبدأ فيها فترة الهدوء التي يندُر أن يحوم خلالها أحدٌ حول العلّية: بعد أن يغادر خينارو الابن والأب. أما زميلاي في العمل، فكانا يطلبان الإذن في الذهاب لتناول فنجان من القهوة، بموجب اتفاق صامت بيننا، وهكذا أتمكَّن أنا والخالة خوليا من تبادل القبلات والتحدُّث على انفراد. في بعض الأحيان، كنتُ أنصرف إلى الكتابة، بينما تطالع هي إحدى المجلات أو تتحدَّث إلى خابيير، الذي يحضر لينضمّ إلينا في كل مرة قرابة السابعة. أصبحنا نشكِّل مجموعة لا يفترق أفرادها. وفي تلك الحجرة الصغيرة ذات الجدران

الفاصلة، اكتسبَت علاقتي الغرامية بالخالة خوليا عفويةً رائعة. بات في وسعنا أن نضمّ أيدينا أو نتبادل القبلات، من دون أن يسترعي ذلك انتباه أحد، كائنًا من كان. الأمر الذي سعد به كلانا. كان عبور حدود العلّية إلى الداخل يعني أننا قد تحرَّرنا وصرنا على سجيتنا، وبات في مقدورنا أن نحبّ بعضنا بعضًا ونتحدَّث عما يهمّنا ونشعر بأن هالةً من التفاهم تحيط بنا. أما عبور حدود العلّية إلى الخارج، فيعني الخروج إلى بيئة معادية، نُرغَم فيها على الكذب والتخفِّي.

- «أيمكن القول بأنه **عشّ حبّنا**؟»، سألَتني الخالة خوليا. «أم أنه قول مُبتذَل أيضًا؟».

- «إنه قول مُبتذَل طبعًا، ولا يمكن التفوّه به»، أجبتُها. «ولكن يمكننا أن نطلق عليه مونمارتر[١]».

كنا نلعب لعبة المُعلِّم والتلميذة، فأشرح لها ما الأشياء المُبتذَلة، وما لا يمكن قوله أو فعله، كما فرضتُ على قراءاتها رقابةً تليق بمحاكم التفتيش، فحظرتُ عليها أن تقرأ كُتَّابها المُفضَّلين جميعًا، بدءًا بفرانك يربي وانتهاءً بكورين تِيَّادو. تسلَّينا حدَّ الجنون بلعبة **الابتذال** التي كان يشاركنا فيها خابيير أحيانًا، بجدليَّة مُتَّقدة.

أما قراءة قصة **الخالة إليانا**، فلقد حضرها پاسكوال وپابليتو الكبير أيضًا، إذ كانا هناك، ولم تواتِني الجرأة على طردهما، الأمر الذي اتَّضح أنه من حسن حظي، فوحدهما قابلا قصتي بحفاوة، وإن بدَت حماستهما محلَّ ارتياب، لأن كليهما مرؤوسي. وجد خابيير القصة لا واقعية، فلا أحد يصدِّق أن عائلةً قد تقضي على فتاة بالنبذ لأنها تزوَّجَت رجلًا صينيًّا. كما أكَّد لي أنه لو كان الزوج أسود أو هنديًّا، لأمكن إنقاذ القصة. بينما سدَّدَت لي الخالة خوليا طعنةً قاتلة

---

(١) مونمارتر: اسم حيّ في باريس. (المترجم)

بقولها إن القصة ميلودرامية، وإن بعض الكلمات قد تراءَت لها مُبتذَلة، من قبيل «مرتعشة» و«منتحبة». بدأتُ أدافع عن **الخالة إليانا**، وإذا بي ألمح نانسي الصغيرة على باب العلّية. كانت رؤيتها تكفي لمعرفة ما الذي جاء بها.

- «الآن عمَّت الفوضى في العائلة بحقّ»، قالَت، دفعةً واحدة.

تشمَّم پاسكوال وپابليتو الكبير رائحة نميمة شهية، ومالا برأسَيْهما إلى الأمام، فاستوقفتُ ابنة خالي، طالبًا من پاسكوال أن يعدّ نشرة أخبار التاسعة، ثم نزلنا لتناول القهوة. وحول إحدى طاولات برانسا، أخبرَتنا بتفاصيل الخبر. بينما كانت تغسل رأسها، فوجِئَت بحديث عَبْر التليفون بين أمها والخالة خيسوس. سمعَت الحديث يدور عن **العاشقَيْن**، واكتشفَت أننا نحن المعنيان بذلك، فاقشعرّ بدنها. لم يكُن الأمر واضحًا كل الوضوح، ولكنهم انتبهوا إلى غرامياتنا منذ وقت غير قصير. ففي لحظة بعينها قالت الخالة لاورا: «حتى كامونتشيتا رأت الوقحَيْن وقد أمسك كلٌّ منهما بيد الآخر في بستان زيتون سان إسيدرو، تصوَّري!» (الشيء الذي فعلناه بحقّ ذات مساء وحيد، منذ شهور مضَت). خرجَت نانسي الصغيرة من الحمام (وقد سرَت في جسدها «رجفة»، حسبما قالت)، فوجدَت نفسها في وجه أمها. حاولَت الإنكار، وادَّعَت بأن صوت مُجفِّف الشعر قد ترك في أذنَيْها طنينًا، فلم تتمكَّن من سماع أي شيء، ولكن الخالة لاورا أخرسَتها وانتهرَتها وقالت إنها «تتستَّر على تلك المرأة الضائعة».

- «هل أنا المرأة الضائعة؟»، سألَت الخالة خوليا، بفضول أكثر منه بغضب.

- «نعم، أنتِ»، أوضحَت ابنة خالي وقد تضرَّجَت بشرتها. «يحسبونكِ أنتِ مُدبِّرة الأمر برمّته».

- «حقًّا، فأنا قاصر، كنتُ أعيش هانئًا، وأدرس المحاماة، حتى كان أن. . .»، مضيتُ أقول، ولكن أحدًا لم يحتفِ بما قلت.

- «لو عرفوا أنني قد أخبرتكما، لقتلوني»، قالت نانسي الصغيرة. «إياكما والتفوّه بكلمة واحدة، أقسما بالرَّب على ذلك».

حذَّرها أبواها رسميًّا، وتوعَّداها بالحبس عامًا لا يسمحان لها خلاله بالخروج حتى لحضور القدَّاس الإلهي لو باحَت بشيء. تحدَّثا إليها بصرامة بالغة، إلى الحدّ الذي أورثها حيرةً وجعلها لا تدري إن كان يجب عليها أن تخبرنا. كانت العائلة على دراية بكل شيء منذ البداية، غير أنها توخَّت الكتمان ظنًّا بأنه أمر تافه، مُجرَّد دلال امرأة طائشة من دون عواقب، امرأة أرادَت أن تضع على قائمتها انتصارًا مدهشًا وتضمّ إليها: فتى مراهقًا. ولمَّا لم تجد الخالة خوليا حرجًا في التبختر بالشوارع والميادين مع الطفل الصغير، واكتشف المزيد من الأصدقاء والأقرباء أمر غرامياتنا - حتى الجدّ والجدّة اكتشفا أمرنا بسبب نميمة الخالة سيليا -، ولمَّا كان ما بيننا شيئًا يدعو إلى الخزي، ولا شكّ أنه يضرّ بالفتى (أنا)، الذي يُرجَّح أنه ما عاد يهتمّ حتى بالدراسة منذ لعبَت المُطلَّقة برأسه، فلقد قرَّرَت العائلة أن تتدخَّل.

- «وماذا هم فاعلون لإنقاذي؟»، سألتُ، وإن لم أشعر بالذعر المفرط بعد.

- «مُراسَلة والدَيْك»، أجابَتني نانسي الصغيرة. «لقد راسلهما الخالان الكبيران بالفعل: خورخي ولوتشو».

عاش أبواي في الولايات المتحدة. وكان أبي رجلًا صارمًا، شعرتُ نحوه بخوف جارف. تربَّيتُ بعيدًا عنه، مع أمي وعائلتها. ولطالما كانت علاقتي به في غاية السوء عندما صالح أمي وذهبتُ للعيش معه. كان محافظًا، مُستبِدًّا، غضباته باردة. ولو أنهم راسلوه

بحقّ، لنزل عليه الخبر مُدوِّيًا كالقنبلة، وجاءت ردة فعله عنيفة. أخذَت الخالة خوليا بيدي من تحت الطاولة:

- «لقد شحب وجهك يا بارغيتاس. الآن صار لديك موضوع لقصة جيدة بحقّ».

- «أفضل ما يمكن عمله التفكير بهدوء والسيطرة على الأعصاب»، قال لي خابيير مُشجِّعًا. «لا تخَف، ولنضع استراتيجية جيدة لمواجهة الطوفان».

- «إنهم غاضبون منك أيضًا»، حذَّرَته نانسي. «وينعتونك أنتَ أيضًا بذلك الوصف القبيح».

- «قوَّاد؟»، ابتسمَت الخالة خوليا. ثم ارتسمَت على وجهها أمارات الحزن وهي تلتفت إليَّ. «الشيء الذي يشغلني أنهم سوف يفرِّقون بيننا، ولن أتمكَّن من رؤيتك مرة أخرى».

- «إنها عبارة مُبتذَلة، ولا يمكن أن تُقال بهذه الطريقة»، أوضحتُ لها.

- «كم أتقنوا إخفاء الأمر!»، قالت الخالة خوليا. «حتى أختي، وحتى نسيبي... لم يجعلني واحد من أقربائك أشتبه في علمهم بما يجري، وشعورهم بالكراهية نحوي، فلطالما أظهروا لي الحنان، أولئك المنافقون!».

- «قبل كل شيء، يجب عليكما التوقُّف عن اللقاء»، قال خابيير. «ولتخرج خوليتا مع رجال ممن يتودَّدون إليها، بينما تدعو أنت فتيات أخريات إلى الخروج. عسى أن تظنّ العائلة أن شجارًا قد نشب بينكما».

وبخمود همة، اتَّفقتُ والخالة خوليا على أنه الحلّ الوحيد. ولكن، بعدما ذهبَت نانسي الصغيرة - التي أقسمنا لها إننا لن نخونها

أبدًا - ثم تبعها خابيير، رافقَتني الخالة خوليا إلى پانامريكانا، فمضى كلٌّ منا مطأطئ الرأس في شارع بيلين الذي تركه الرذاذ رطبًا، ممسكًا بيد الآخر، مُدرِكًا أن تلك الاستراتيجية من شأنها أن تجعل الأكذوبة حقيقةً لو اتَّبعناها، ولم تكُن بنا حاجة إلى الجهر بذلك، فلو امتنعنا عن اللقاء، وخرج كل منا على حدة، لانقضى ما بيننا، طال الأمد أم قصر. اتَّفقنا على التحدُّث عَبْر التليفون كل يوم، في ساعات مُحدَّدة، وودَّع كلٌّ منا الآخر بقبلة مُطوَّلة على الفم.

وفي المصعد الذي يهتزّ بشدة، في طريقي إلى العلّية، شعرتُ برغبة لا تفسير لها تحملني على الإفضاء بتعاستي إلى پِدرو كاماتشو، كما شعرتُ في مرات أخرى. كان الأمر وكأنه نذير شرّ، إذ وجدتُ معاوني پِدرو كاماتشو الأسياسيين، لوسيانو پاندو وخوسيفينا سانتشيس والطاحون، يترقَّبون وصولي في المكتب، وقد انخرطوا في حديث مفعم بالحيوية مع پابليتو الكبير، بينما راح پاسكوال يضخّ الكوارث في نشرة الأخبار (بطبيعة الحال، لم يراعِ پاسكوال حظر إدراج أخبار الموتى الذي أمرتُ به قطّ). انتظروا في وداعةٍ ريثما أساعد پاسكوال في وضع الأخبار الأخيرة. ثم ودَّعنا پاسكوال وپابليتو الكبير، وتمنَّيا لنا ليلةً هانئة، فبقينا نحن الأربعة وحدنا في العلّية. عند ذاك تبادلوا النظرات في ما بينهم، وقد تملَّكهم الضيق، قبل الشروع في الحديث. لم يكُن هناك مُتَّسع للشكّ في أن موضوع الحديث هو الفنان.

- «أنت أعزّ أصدقائه، ولذا جئنا إليك»، غمغم لوسيانو پاندو. كان رجلًا محني القوام، ستينيًّا، تنظر عيناه كلٌّ في اتجاه معاكس، يلفّ عنقه بوشاح مُشحَّم في الليل والنهار، في الصيف والشتاء. لم أرَه إلَّا بتلك البدلة بنية اللون ذات الخطوط الزرقاء التي بليَت من فرط الغسل والكيّ. كانت الفردة اليمنى من حذائه مصابةً بندبة في

باطن القدم يطلّ منها الجورب. «المسألة في منتهى الحساسية. لك أن تتخيَّل. . .».

- «الحقّ أنني لا أتخيَّل يا دون لوسيانو»، قلتُ له. «أتقصد بِدرو كاماتشو؟ حسنًا، نحن صديقان، صحيح، ولكنه شخص لا يعرفه المرء تمام المعرفة أبدًا، كما تدري. هل جرى له شيء؟».

أومأ برأسه، وإن ظلّ صامتًا، ناظرًا إلى حذائه، وكأنه ينوء بما كان على وشك الإفضاء به. استفهمتُ بعينَيّ من رفيقته والطاحون اللذين خيَّم عليهما الجمود والجدية.

- «نفعل ما نفعل شعورًا منا بالعطف والامتنان»، غرَّدَت خوسيفينا سانتشيس، بصوتها المخملي البديع. «لأن أحدًا لا يدري كم ندين لبِدرو كاماتشو أيها الشاب، نحن الذين نعمل في هذه المهنة التي نتلقى عنها أجورًا هزيلة».

- «لطالما كنا زائدين عن الحاجة، فلم يوف قدرنا أحدٌ، وعشنا حياتنا نعاني من عقدة نقص شديدة جعلتنا نحسب أنفسنا من المُخلَّفات»، قال الطاحون، وقد بلغ به التأثُّر حدًّا جعلني أتخيَّل أن حادثة قد وقعَت فجأة. «ولكننا اكتشفنا المهنة التي نشتغل بها، وتعلَّمنا أنها مهنة فنية، والفضل في ذلك يرجع إليه».

- «تتكلَّمون وكأنما قد لقي مصرعه»، قلتُ لهم.

- «وإلَّا، فماذا يفعل الناس من دوننا؟»، استشهدَت خوسيفينا سانتشيس بقول معبودها، وهي لا تنصت إليّ. «مَن يهب لهم الآمال والعواطف التي تعينهم على الحياة؟».

كانت امرأةً حظيَت بذلك الصوت الجميل تعويضًا لها عن مجموع الأخطاء المُتمثِّلة في جسدها، بطريقة ما. كان تخمين عمرها ضربًا من المحال. وعلى الرغم من ذلك، فلا بدّ أنها قد تجاوزَت النصف قرن. كانت سمراء البشرة، تصبغ شعرها بالأكسجين، فيبدو

أصفر بلون القشّ، ويتسلَّل خارج العمامة القرمزية مُنسدِلًا على أذنَيْها اللتين لا تفلح في إخفائهما، مع الأسف، لأنهما في غاية الضخامة، منفتحتَيْن بشدة، وكأن أذنَيْها مُوجَّهتان إلى أصوات العالَم بشراهة. وإن كان لغدها أكثر ما يسترعي الانتباه في مظهرها، إذ يبدو وكأنه جوال من الجلد المُتهدِّل على بلوزتها مُتعدِّدة الألوان. كان لها زغبٌ كثيف، تجوز تسميته شاربًا، درجَت على تمسيده بيدها في أثناء الكلام بحكم العادة البشعة التي اكتسبَتها. وكانت تلفّ ساقَيْها بالجوارب المطاطية التي يستخدمها لاعبو كرة القدم نظرًا إلى إصابتها بداء الدوالي. لو جاءت زيارتها في أي لحظة أخرى، لملأت نفسي بالفضول. ولكني انشغلتُ بمشكلاتي أكثر مما ينبغي في تلك الليلة.

- «بالطبع، أعرف أنكم مدينون لپِدرو كاماتشو بكل شيء»، قلتُ، نافد الصبر. «ولا بدّ من وجود أسباب قوية جعلَت مسلسلاته الإذاعية هي الأكثر شعبية في البلد».

رأيتُهم يتبادلون نظرةً، ويشجِّعون بعضهم بعضًا.

- «بالضبط»، قال لوسيانو پاندو أخيرًا، بلهفة وأسى. «في البدء لم نولِ الأمر أهمية. ظنًّا بأنه ضرب من السهو والشرود الذي قد يصيب أي شخص، ولا سيما إن كان يعمل من مطلع الشمس إلى مغربها».

- «ولكن ما خطب پِدرو كاماتشو؟»، قاطعتُه. «لا أفهم شيئًا يا دون لوسيانو».

- «المسلسلات الإذاعية أيها الشاب...»، غمغمَت خوسيفينا سانتشيس، وكأنها تنتهك المُقدَّسات. «تزداد غرابةً أكثر فأكثر».

- «يتناوب المُمثِّلون والفنِّيون على تلقِّي الاتصالات الهاتفية الواردة إلى راديو سِنترال، واحتواء شكاوى المستمعين»، تدخَّل في الحديث الطاحون، صاحب الشعر اللامع الخليق بالنيص، الذي يبدو

وكأنما قد دهنه بمُلمِّع الشعر. كان يرتدي أوفرول الحمَّالين، وينتعل حذاء بلا أربطة، ويبدو على وشك البكاء، كما هو عهده. «حتى لا يطرده آل خينارو يا سيدي».

- «تعرف حقّ المعرفة أنه معدم، ويعيش على نزر يسير»، أردف لوسيانو پاندو. «ولكن ماذا يكون من أمره لو طردوه؟ سوف يقضي نحبه جوعًا!».

- «وماذا يكون من أمرنا نحن أيضًا؟»، قالَت خوسيفينا سانتشيس بكبرياء. «ماذا يكون من أمرنا بدونه؟».

بدأوا يتنازعون في ما بينهم على مَن يتولّى دفة الحديث ويخبرني بكل شيء بأدقّ التفاصيل. منذ شهرَيْن على وجه التقريب، بدأت تظهر التناقضات (أو «الزلّات»، كما وصفها لوسيانو پاندو). في البدء كانت هيِّنة للغاية، فلم ينتبه إليها سوى المُمثِّلون، في غالب الظنّ. لم يتفوَّه أحدهم بكلمة واحدة لپِدرو كاماتشو، لأن أحدًا لم يجرؤ على ذلك، علمًا منهم بطباعه. زد على ذلك أنهم تساءلوا طويلًا، لعلّها حيل مقصودة. ولكن الأمور تفاقمَت بشدة بالغة في الأسابيع الثلاثة الأخيرة.

- «الحقّ أنها صارت فوضى عارمة أيها الشاب»، قالَت خوسيفينا سانتشيس، في تعاسة. «لقد اختلطَت المسلسلات الإذاعية بعضها ببعض، حتى نحن لم نعُد قادرين على كشف طلاسمها».

- «لطالما كان إيوليتو ليتوما هو رقيب الشرطة الذي يبثّ الرعب في نفوس المجرمين بمنطقة كايّاو، في مسلسل الساعة العاشرة»، قال لوسيانو پاندو، بصوت يشي بالاستياء. «ولكن، منذ ثلاثة أيام، ورد اسمه بصفته قاضي مسلسل الرابعة، مع أن القاضي يُدعَى پِدرو باريدا، على سبيل المثال».

- «والآن صار دون پِدرو باريدا يصطاد الجرذان، لأنها التهمَت

ابنته الصغيرة»، امتلأت عينا خوسيفينا سانتشيس بالدموع. «مع أن تلك التي التهمَتها الجرذان هي الابنة الصغرى لدُوُن فيديريكو تِيِّيس أونساتيغي».

– «تصوَّر حالنا في أثناء جلسات التسجيل، ونحن نقول ونفعل أمورًا في غاية الشطط»، قال الطاحون، مُتلعثِمًا.

– «لا سبيل إلى إصلاح تلك الفوضى»، همسَت خوسيفينا سانتشيس. «لقد رأيتَ الطريقة التي يتحكَّم بها السيد كاماتشو في البرامج. لا يسمح بتغيير فاصلة واحدة. وإلَّا استحوذَت عليه نوبات غضب مُروِّعة».

– «لقد أدركه التعب، إليكم تفسير ما يجري»، قال لوسيانو پاندو وهو يهزّ رأسه مهمومًا. «لا يمكن للمرء أن يعمل عشرين ساعة يوميًّا إلَّا واختلطَت عليه الأفكار. إنه في حاجة إلى إجازة، حتى يعود إلى ما كان عليه من قبل».

– «تجمعك صلةٌ طيبة بخينارو الأب والابن»، قالت خوسيفينا سانتشيس. «ألا يمكنك أن تتحدَّث إليهما، وتقول لهما إنه مُجرَّد تعب، وتطلب منهما أن يمهلاه بضعة أسابيع حتى يستردّ عافيته؟».

– «سيكون أصعب ما في الأمر إقناعه هو بأن يأخذ إجازة»، قال لوسيانو پاندو. «ولكن بقاء الوضع على ما هو عليه شيء مستحيل. سوف تنتهي الحال بطرده».

– «يتَّصل الناس بالراديو طوال الوقت»، قال الطاحون. «الأمر يقتضي معجزة لإلهائهم. ولقد نُشِر خبرٌ عما يجري منذ أيام في لا كرونيكا».

لم أقُل لهم إن خينارو الأب يعرف بالفعل، وإنه قد اتَّخذني وسيطًا بينه وبين پِدرو كاماتشو. اتَّفقنا على أن أجسّ نبض خينارو الابن، وبناء على ردة فعله نقرِّر إن كان حضورهم بأنفسهم للدفاع عن

كاتب السيناريو باسم جميع الزملاء شيئًا يُوصَى به. شكرتُهم على الثقة، وحاولتُ أن أبثّ فيهم قليلًا من التفاؤل قائلًا إن: خينارو الابن أكثر عصريةً وتفهُّمًا من الأب، ومن المُؤكَّد أنه سوف يقتنع ويسمح له بتلك الإجازة. استمررنا في الحديث بينما رحتُ أطفئ الأنوار وأوصد باب العلّية. وفي شارع بيلين، شددتُ على أيديهم، ورأيتُهم يغيبون في الشارع الخاوي، بما لهم من قبحٍ وسخاء، تحت الرذاذ.

أمضيتُ الليلة كلها ساهرًا. كما جرَت العادة، وجدتُ الطعام مُعَدًّا ومُغطّى في بيت الجدّ والجدّة، غير أنني لم أذُق لقمة واحدة (فألقيتُ اللحم المحمَّر والأرز في سلة القمامة لئلَّا ينشغل بال الجدّة). أوى العجوزان إلى الفراش، ولكن كليهما لم يزَل مستيقظًا. وحين دلفتُ إلى الحجرة لأقبِّلهما، ألقيتُ نظرةً فاحصة تليق برجال الشرطة، وحاولتُ أن أكتشف على وجهَيْهما القلق الذي تسبّبَت فيه غرامياتي الفاضحة. ولكن لا شيء. لم ألمح لذلك أدنى أثر: بل إنني لمستُ فيهما الحنان والعناية، كما سألني الجدّ عن شيء ورد في الكلمات المتقاطعة. ثم زفّا إليَّ الخبر السار الذي كان مؤدّاه: أن أمي قد راسلَتهما، وقالت إنها قادمة مع أبي لتمضية الإجازة في ليما عما قريب، وإنهما سوف يبلغاننا بموعد الوصول. لم يمكنهما أن يطلعاني على الرسالة، لأن واحدةً من الخالات قد أخذَتها. لا شكّ أن تلك هي ثمار الرسائل الواشية. ربما قال أبي: «نحن ذاهبان إلى بيرو لوضع الأمور في نصابها الصحيح»، وقالَت أمي: «كيف لخوليا أن تفعل شيئًا كهذا!». (جمعَتها صداقةٌ بالخالة خوليا عندما كانت أسرتي تعيش في بوليفا، ولم أكُن أنا قد وعيتُ على الدنيا بعد).

كنتُ أنام في حجرة صغيرة ملأى بالكتب والحقائب والصناديق حيث احتفظ الجدّ والجدّة بذكرياتهما: كثير من الصور التي تعود إلى

عهد الرخاء البائد، عندما كانا يملكان مزرعة قطن في كاماناه، وكان الجدّ مزارعًا رائدًا في سانتا كروس دي لا سييرًا، كما شغل منصب القنصل في كوتشابامبا أو منصب المحافظ في پيورا. مستلقيًا على ظهري في الفراش، تحت جنح الظلام، أطلتُ التفكير في الخالة خوليا، وحدَّثتُ نفسي بأنهم سوف يفرِّقون بيننا من دون شك، بطريقة أو بأخرى، طال الأمد أم قصر. شعرتُ بغضب شديد، وتراءى لى الأمر برمّته غبيًّا خبيثًا، وإذا بصورة پِدرو كاماتشو تحضر في ذهني فجأة. فكَّرتُ في الاتصالات الهاتفية التي أجراها الأخوال والخالات وأبناؤهم وبناتهم، مُتحدِّثين عن الخالة خوليا وعني، وبدأتُ أسمع اتصالات المستمعين المرتبكين بسبب أبطال المسلسلات الذين يبدِّلون أسماءهم ويقفزون من مسلسل الثالثة إلى مسلسل الخامسة، وبسبب الحلقات المُتشابِكة مثل الأدغال، بينما جاهدتُ لأخمِّن ما يدور في رأس كاتب السيناريو الفوضوي. ولكني لم أجد الأمر مضحكًا، بالعكس، إذ أثار مشاعري التفكير في مُمثِّلي راديو سنترال ومهندسي الصوت والسكرتيرات وحراس العقار الذين تآمروا لاعتراض الاتصالات وإنقاذ الفنان من الطرد. شعرتُ بالعطف لأن لوسيانو پاندو وخوسيفينا سانتشيس والطاحون قد خُيِّل إليهم أنني قادر على التأثير في آل خينارو، مع أنني زائد عن الحاجة. كم يشعرون بالضآلة، وأي أجور تعيسة يجنون، حتى يروني صاحب شأن كبير! في بعض الأحيان، كانت تراودني رغبة جامحة في رؤية الخالة خوليا ولمسها وتقبيلها للتوّ واللحظة. وفيما أنا على تلك الحال، رأيتُ أولى خيوط الضوء، وسمعتُ نباح الكلاب فجرًا.

ذهبتُ إلى علّيتي براديو پانامريكانا في وقت أبكر من المعتاد. وحين وصل پاسكوال وپابليتو الكبير، في الساعة الثامنة، كنتُ قد انتهيتُ من إعداد نشرات الأخبار، كما قرأتُ جميع الصحف التي

دوَّنتُ فيها الملاحظات وتركتُ العلامات (بغرض انتحال الأخبار). رحتُ أنظر إلى الساعة وأنا أؤدِّي تلك المهمات. وفي الموعد المُتَّفق عليه بالتحديد، اتَّصلَت بي الخالة خوليا.

- «لم يغمض لي جفن طوال الليل»، همسَت بصوت يتلاشى. «أحبُّك كثيرًا يا بارغيتاس».

- «وأنا أيضًا، من كل روحي»، همستُ وقد تملَّكني السخط لمرأى پاسكوال وپابليتو الكبير اللذين اقتربا مني للتصنُّت على الحديث بشكل أوضح. «حتى أنا لم يغمض لي جفن، بل رحتُ أفكِّر فيكِ».

- «لا تتصوَّر المودة التي أظهرَت لي أختي وزوجها»، قالت الخالة خوليا. «سهرنا على أوراق اللعب. يصعب عليَّ التصديق بأنهما يعرفان، ويتآمران».

- «ولكنها الحقيقة»، قلتُ لها. «لقد أعلن والداي عن مجيئهما إلى ليما، وذلك هو السبب الوحيد. وإلَّا فهما لا يسافران في تلك الفترة من العام أبدًا».

سكتَت، فخمَّنتُ تعبيرات وجهها المحزون الغاضب المُحبَط على الطرف الآخر من الخطّ. كرَّرتُ عليها أنني أحبّها.

- «سأتَّصلُ بكَ في الرابعة، كما اتَّفقنا»، قالت أخيرًا. «أنا في دكَّان الصيني، على الناصية، وخلفي طابور من المنتظرين. إلى اللقاء».

نزلتُ إلى مكتب خينارو الابن، غير أنه لم يكُن هناك. تركتُ له خبرًا مؤدَّاه أنني أريد التحدُّث إليه على وجه السرعة، ثم ذهبتُ إلى الجامعة، حتى أفعل شيئًا، وأملأ الخواء الذي استحوذ عليّ، بطريقة ما. كانت من نصيبي محاضرة في القانون الجنائي، فتراءى لي الأستاذ المُحاضِر وكأنه شخصية من إحدى القصص، إذ اجتمع له

مزيج مثالي من الشبق والبذاءة، فكان ينظر إلى الطالبات وكأنه يعرّيهن من الثياب، ويجد في كل شيء ذريعةً للإدلاء بعبارات تنطوي على معانٍ مزدوجة وأمور بذيئة. كانت في المحاضرة فتاة ذات صدر مُسطَّح، أحسنَت الإجابة عن أحد الأسئلة ذات مرة، فهنَّأها مُتلذِّذًا بالكلمات قائلًا: «أنتِ في غاية **الاستواء** يا آنستي»، وفي معرض حديثه عن واحد من مواد القانون، ألقى علينا خطبة مُطوَّلة عن الأمراض المنقولة جنسيًا.

كان خينارو الابن ينتظرني في مكتبه بالراديو.

- «أفترض بأنك لن تطلب مني زيادة في الراتب»، حذَّرني وأنا على عتبة الباب. «نحن على وشك الإفلاس».

- «أودّ التحدُّث إليك عن بِدرو كاماتشو»، طمأنتُه.

- «هل تعرف أنه بدأ يرتكب الفظائع بكل أنواعها؟»، سألني، كمن يحتفي بفعلةٍ شقية. «يخلط بين شخوص هذا المسلسل وذاك، ويبدِّل أسماءهم، ويربط الحبكات المختلفة، ويجعل القصص كلها قصةً واحدة. أليس هذا رائعًا؟».

- «حسنًا، سمعتُ شيئًا بهذا الصدد»، قلتُ له حائرًا في أمر حماسه. «تحدَّثتُ إلى المُمثِّلين ليلة أمس على وجه التحديد. إنهم يشعرون بالقلق. ويرون أنه قد ينهار من شدة الإجهاد، لأنه يفرط في العمل، وعندئذ تخسر الدجاجة التي تبيض لك ذهبًا. لماذا لا تسمح له بإجازة حتى يسترد عافيته قليلًا؟».

- «إجازة لكاماتشو؟»، ذُعِر رجل الأعمال التقدُّمي. «هل طلب منك شيئًا كهذا؟».

نفيتُ، وقلتُ إنه اقتراح معاونيه.

- «لقد سئموا العمل كما يطلب منهم، ويريدون التخلُّص منه

لبضعة أيام»، أوضح لي. «سيكون ضربًا من الجنون أن أمنحه إجازة الآن»، التقط بضع أوراق مُلوِّحًا بها في الهواء بانتصار. «لقد ضربنا الرقم القياسي في عدد المستمعين مُجدَّدًا في الشهر الجاري. ما يعني أن فكرة ربط القصص ناجحة. كان أبي قلقًا حيال تلك الأمور الوجودية، ولكنها تؤتي ثمارها، وإليك استطلاعات الرأي». ضحك مرة أخرى. «على كل حال، ما دام الجمهور يحبّه، فلا بد من احتمال غرابة أطواره».

لم أصرّ على رأيي، لئلّا أرتكب خطأ بذلك. ومع الأخذ بكل شيء في الاعتبار، لماذا لا يكون خينارو الابن مُحِقًّا في ما قال؟ لماذا لا تكون تلك التضاربات شيئًا خطَّط له كاتب السيناريو البوليفي تخطيطًا مثاليًّا. لم أشعر برغبة في الذهاب إلى البيت، واتَّخذتُ قراري بالتبذير، فأقنعتُ صرَّاف الراديو بأن يصرف لي دفعة مُقدَّمة من الراتب. وبعد إذاعة برنامج پانامريكانو، ذهبتُ إلى حجيرة پِدرو كاماتشو لدعوته إلى الغداء. وجدتُه يضرب مفاتيح الآلة الكاتبة كالمحموم، طبعًا. قبِل دعوتي في غير حماس، ونبَّهني إلى ضيق وقته.

ذهبنا إلى مطعم كريولي يقع خلف مدرسة لا إنماكولادا بشارع تشانكاي، حيث تُقدَّم أطباق من أريكيپا. قلتُ له إن تلك الأطباق ربما ذكَّرَته بأطعمة بوليفيا الحرّيفة الشهيرة. ولكن الفنان، المُخلِص لنظامه الغذائي المُتقشِّف، قنع بحساء البيض وقليل من الفاصوليا المهروسة التي كاد لا يمسّها. لم يطلب الحلوى، واحتجَّ بكلمات مُقعَّرة أذهلَت النُدُل لأنهم لم يحسنوا إعداد مشروبه المُكوَّن من عشبة الليمون والنعنع.

– «أمرُّ الآن بفترة عصيبة»، قلتُ له، حالما طلبنا الطعام. «لقد اكتشفَت عائلتي أمر العلاقة الغرامية التي تجمعني بمُواطِنتك، فثارَت

ثائرتهم لأنها مُطلَّقة، وأكبر مني سنًّا. سوف يفعلون شيئًا للتفريق بيننا، ولهذا أشعر بالمرارة».

- «مُواطِنتي؟»، فوجئ كاتب السيناريو. «هل أنت على علاقة غرامية بامرأة أرجنتينية، معذرة، أقصد بوليفية؟».

ذكَّرتُه بأنه قد تعرَّف إلى الخالة خوليا، وبأننا قد ذهبنا إلى حجرته في نزل لا تاپادا، حيث شاركناه الطعام، وبأنني قد بحتُ له بمشكلتي الغرامية فوصف لي البرقوق على الريق والرسائل مجهولة المصدر لعلاج مشكلتي. تعمَّدتُ أن أخبره بذلك، وأصررتُ على الخوض في التفاصيل، بينما رحتُ أراقبه. أنصت إليَّ في غاية الجدية، من دون أن يرفّ له جفن.

- «لا بأس بمواجهة تلك المصاعب»، قال وهو يرشف أول ملعقة من حسائه. «الشقاء يُهذِّب المرء».

ثم إنه بدَّل مسار الحديث، وشرع يلقي خطبةً مُطوَّلة حول فنّ الطهي والحاجة إلى الاعتدال حفاظًا على سلامة الروح. أكَّد لي أن الإفراط في تناول الدهون والنشويات والسكريات يصيب المبادئ الأخلاقية بالخدر، ويجعل في الناس ميلًا إلى الجريمة والرذيلة.

- «أجرِ إحصائية بين معارفك، ترَ أن المنحرفين أكثرهم من البدناء. أما أصحاب القوام النحيل، فلا ميول خبيثة لديهم»، هكذا أوصاني.

كان يشعر بالضيق، على الرغم من الجهود التي بذلها حتى يداري ذلك. لم يتكلَّم بالعفوية والاقتناع اللذين عهدتُهما فيه مرات أخرى، بل ظهر من الواضح أنه يقول ما لا يعني، وأنه شارد البال، منشغل بأمور أراد أن يخفيها. في عينَيْه الدقيقتَيْن الجاحظتَيْن تجلّى ظلٌّ مشؤوم، خوفٌ، خزي، ومضى كاتب السيناريو يعضّ شفتَيْه بين الحين والآخر. امتلأ شعره الطويل بالقشور، واكتشفتُ ميداليةً رأيتُها

تتدلَّى من عنقه المتراقص داخل القميص، كان يربِّت عليها بإثنتين من أصابعه في بعض الأحيان. وبينما هو يطلعني عليها، أوضح قائلًا: «إنه السيد صاحب المعجزات العظيمة: سيد ليمپياس». انزلقَت سترته السوداء على كتفَيْه، وتراءى شاحبًا. كنتُ قد اتَّخذتُ قراري بألا آتي على ذكر المسلسلات الإذاعية، وإذا بفضول مَرَضي يراودني فجأة، في ذلك المكان، حين رأيتُه ناسيًا وجود الخالة خوليا وأحاديثنا بشأنها. فرغنا من تناول حساء البيض، ورحنا نترقَّب الطبق الرئيسي ونحن نشرب التشيتشا الأرجوانية.

- «تحدَّثتُ إلى خينارو الابن عنك نهارَ اليوم»، قلتُ له، بأكثر نبرة عفوية وسعني التحدُّث بها. «إليك خبرًا سارًّا: لقد ارتفعَت نسبة الإقبال الجماهيري مرة أخرى بسبب مسلسلاتك الإذاعية، طبقًا لاستطلاعات الرأي التي أجرَتها وكالات الدعاية. حتى الأحجار تستمع إليها».

لاحظتُه يتصلَّب، ويحوِّل عينَيْه، ويبدأ في طي المنديل وفرده مرة أخرى، بسرعة بالغة، وعيناه تطرفان باستمرار. حرتُ بين الاسترسال وبين تغيير دفة الحديث، فكان الفضول أشدّ قوة.

- «يعتقد خينارو الابن بأن الفضل في زيادة الإقبال الجماهيري يرجع إلى فكرة خلط الشخصيات في مختلف المسلسلات الإذاعية، وربط القصص بعضها ببعض»، قلتُ، وأنا أراه يفلت المنديل، ويفتِّش عني بعينَيْه، ممتقعًا. «يبدو له ذلك شيئًا رائعًا».

لم يقُل شيئًا، وإنما اكتفى بالنظر إليّ، فتابعتُ الحديث، وأحسستُ بلساني ينعقد. تكلَّمتُ عن التيار الطليعي، وعن التجريبية، واستشهدتُ بكُتَّاب، أو اخترعتُهم، مُؤكِّدًا له أنهم قد شهدوا نجاحًا مُدوِّيًا في أوروبا، والفضل في ذلك يرجع إلى عناصر التجديد المشابهة التي أدخلوها على أعمالهم: من قبيل تغيير هويات

الشخصيات في منتصف القصة، والتظاهر بوجود التناقضات لتشويق القارئ. جيء إلينا بالفاصوليا المهروسة، وبدأتُ في تناول الطعام، سعيدًا بتلك الفرصة التي سمحَت لي بالسكوت وخفض عينَيَّ كيلا أستمرّ في رؤية الاستياء الظاهر على كاتب السيناريو البوليفي. ران علينا صمت طويل، بينما رحتُ أتناول الطعام، وأخذ هو يقلِّب الفاصوليا المهروسة وحبَّات الأرز بالشوكة.

- «أعاني من شيء مُزعِج»، سمعتُه يقول أخيرًا، بصوت خفيض، وكأنه يتحدَّث إلى نفسه. «لم أعُد أتتبَّع سير النصوص جيدًا. تساورني الشكوك، ويتسلَّل الخلطُ إلى أعمالي»، نظر إليَّ بلهفة. «أعرف أنك شاب مخلص، وصديق يمكن الوثوق به. إياك وأن تتفوَّه بكلمة واحدة إلى رجلَي الأعمال!».

تظاهرتُ بالمفاجأة، وغمرتُه بكلمات المودة. وإذا هو رجل آخر: مُعذَّب، مرتاب، هشّ، تلتمع قطرات العرق على جبينه المائل إلى الخضرة. أخذ يتلمَّس صدغَيْه.

- «إن هذا بركان من الأفكار، طبعًا»، قال مُؤكِّدًا. «ولكن الذاكرة خائنة. أعني، مسألة الأسماء. ليبقَ هذا سرًّا بيننا يا صديقي. أنا لا أتعمَّد خلط الأسماء، بل إنها تختلط عليَّ. وكلّما انتبهتُ إلى ذلك، يكون قد فات الأوان، فأجدني مُضطَرًّا إلى خوض المناورات المُعقَّدة لردّ كلّ اسم إلى حيث ينتمي، وتفسير التغيرات التي طرأت عليه. إن البوصلة التي تخلط بين الشمال والجنوب قد تكون خطيرة، خطيرة».

قلتُ له إنه قد أدركه التعب، فلا أحد يمكنه أن يعمل بهذا الإيقاع إلَّا وانهار، وقلتُ له بضرورة الإجازة.

- «إجازة؟ لا إجازة إلَّا في القبر»، أجابني مُتوعِّدًا، وكأنني قد وجَّهتُ إليه إهانة.

ما هي إلَّا لحظة حتى أفضى إليَّ، مُتواضِعًا، بأنه حاول إعداد بطاقات مفهرسة، عندما انتبه إلى **زلَّات النسيان**. ولكن ذلك ضرب من المحال، فهو لا يملك الوقت الكافي حتى لمراجعة البرامج التي أُذيعَت بالفعل: لأن ساعات يومه كلها مُكرَّسة لإنتاج نصوص جديدة.

- «لو توقَّفتُ، تداعى العالَم بأسره»، غمغم قائلًا.

ولكن لماذا لا يساعده معاونوه؟ ولماذا لا يلجأ إليهم متى ساورَته الشكوك؟

- «لن يحدث هذا ما حييت»، أجابني. «لو فعلتُ لفقدوا الشعور نحوي بالاحترام. لا يعدو الواحد منهم أن يكون كالمادة الخام، كالجندي تحت إمرتي، وإن سقطتُ في زلَّةٍ، فواجبه أن يسقط معي».

قطع الحوار بحدة ليلقي خطبةً على النُدُل بشأن المشروب الساخن الذي لم يستسِغه، ثم اضطُرِرنا إلى الإسراع بالعودة إلى الراديو، لأن مسلسل الثالثة كان في انتظاره. وبينما نحن نتبادل تحية الوداع، قلتُ له إنني على استعداد لعمل أي شيء حتى أساعده.

- «لا أطلب منك إلَّا السكوت»، قال لي. وبابتسامته المقتضبة المُثلَّجة، أردف قائلًا: «لا تقلق، فلكل مشكلة عظيمة حلّ عظيم».

وفي علّيتي، راجعتُ صحف المساء تاركًا علامات على الأخبار، كما اتَّفقتُ على إجراء مقابلة في السادسة مع جرَّاح أعصاب يستخدم أدوات تاريخية في الجراحة، أجرى عملية ثقب جمجمة بأدوات تعود إلى حضارة الإنكا، أعاره متحف الأنثروبولوجيا إياها. وفي الثالثة والنصف، بدأتُ أنقِّل عينَيّ بين الساعة والتليفون. اتَّصلَت الخالة خوليا في تمام الرابعة. عند ذاك، لم يكُن پاسكوال وپابليتو الكبير قد وصلا بعد.

- «لقد كلَّمَتني شقيقتي في موعد الغداء»، قالت، بصوت محزون. «وأخبرَتني بأن الفضيحة أكبر مما ينبغي، وبأن والدَيْك في طريقهما إلى هنا حتى يقتلعا عينَيّ. طلبَت مني العودة إلى بوليفيا. ماذا أنا فاعلة؟ يجب عليَّ الرحيل يا بارغيتاس».

- «أتقبلين الزواج بي؟»، سألتُها، فضحكَت ضحكة تكاد تخلو من البهجة.

- «أنا جادٌّ في ما أقول»، أصررت.

- «أتطلب مني الزواج حقًّا؟»، ضحكَت الخالة خوليا الآن بقدر أكبر من التسلية.

- «نعم أم لا؟»، سألتُها. «عجِّلي بالردّ، فالآن يصل پاسكوال وپابليتو الكبير».

- «أتطلب مني الزواج كي تثبت لعائلتك أنك صرتَ كبيرًا؟»، سألَت الخالة خوليا، بحنان.

- «لهذا السبب أيضًا»، اعترفتُ لها.

١٤

منذ نصف قرن مضى، بدأت قصة قداسة الأب دون سيفيرينو أوانكا لايبا، كاهن مكبِّ النفايات المُسمَّى بحيّ ميندوسيتا، الذي يقع بالقرب من حيّ لا بيكتوريا الكروي، إذ بدأت القصة ذات ليلة من ليالي الكرنفال، عندما أقدم شابٌّ من أسرة طيبة - تحبّ الاختلاط بالطبقات الدنيا من الشعب - على اغتصاب غاسلة الثياب المتساهلة، تيريسيتا السوداء، في واحد من أزقة تشيريمويو.

اكتشفَت أنها حبلى، وهي غير مُتزوِّجة، ولها ثمانية أبناء، ويُستبعَد أن تتزوَّج، مع الأخذ في الاعتبار بصغارها الكثيرين، فسارعَت بالاستعانة بخدمات دونيا أنخيليكا، العجوز الحكيمة القاطنة في ميدان إنكيسيسيون، القابلة التي اشتغلَت أكثر ما اشتغلَت بتعبئة الليمبو بالنزلاء (أي أنها كانت مُجهِضة، ببسيط العبارة). مع ذلك، وبرغم الوصفات السامة (المُكوَّنة من بول دونيا أنخيليكا والفئران المنقوعة) التي حملَت القابلةُ تيريسيتا السوداء على شربها، أبَى ثمرةُ الاغتصاب أن يفلت مشيمة الأم، بعناد أنذر بالطباع التي سوف يكون عليها في المستقبل. وهكذا ظلَّ الجنين هناك، ينمو ويتشكَّل، مغروزًا كالمسمار، حتى لم تجد غاسلة الثياب مفرًّا من ولادته، بعد مضي تسعة أشهر على كرنفال الجماع.

سُمِّي سيفيرينو تيمُّنًا بعرَّابه في المعمودية، حارس بناء البرلمان

الذي كان يُدعَى بذلك الاسم، وأخذ لقب العائلة الأول والثاني عن أمه. في طفولته، لم يكُن هناك ما يشي بأنه سوف يغدو كاهنًا، إذ لم تكُن الممارسات التقيَّة ما يروق له، وإنما ترقيص النحلات الدوَّارة واللعب بالطائرات الورقية. وعلى الرغم من ذلك، فلطالما أظهر قوة الشخصية، حتى قبل أن يتمكَّن من الكلام. طبَّقَت الغاسلة تيريسيتا فلسفة التربية التي استلهمَتها بالغريزة إما من إسبرطة وإما من داروين، الفلسفة القائمة على تلقين أبنائها أن الضرورة تقضي بتعلُّم العضّ وتلقِّي العضّات من الآخرين، ما دامَت لديهم رغبة في الاستمرار بهذه الغابة، وبأن مهمة تناول الحليب والطعام تقع على عاتقهم وحدهم منذ عمر الثالثة، لأن غسيل الثياب لعشر ساعات يوميًّا، ثم توزيعها في جميع أرجاء ليما لثماني ساعات أخرى، لا يكفي لغير الإنفاق عليها هي والصغار الذين لم يبلغوا الحدّ الأدنى من العمر الذي يسمح لهم بالاعتماد على أنفسهم.

أما ثمرة الاغتصاب، فلقد أبدى إصرارًا على النجاة يضاهي إصراره على الحياة وهو في بطن أمّه لم يزَل: فتمكَّن من الحصول على الغذاء عن طريق ابتلاع كل النفايات التي يلتقطها من سلال القمامة، مُنازِعًا عليها الشحاذين والكلاب. كانَ إخوته غير الأشقاء يفارقون الحياة متساقطين كالذباب، بداء السلّ أو التسمم. أو كانوا يجتازون الاختبار بصورة جزئية، فيصلون إلى سنّ البلوغ مصابين بالكساح أو الإعاقات الذهنية. أما سيفيرينو أوانكا لايبا، فلقد شبَّ موفور الصحة، قويًّا، في حالة نفسية مقبولة. ولمَّا عجزَت غاسلة الثياب عن العمل (هل أصيبَت برهاب الماء؟)، أصبح ينفق عليها بنفسه، ثم أقام لها جنازةً من الطراز الأول في كاسا غِيمِيت عندما فارقَت الحياة، احتفى بها حيُّ تشيريمويو باعتبارها أفضل جنازة في تاريخ الحيّ (كان سيفيرينو كاهن أبرشية ميندوسيتا آنذاك).

فعل الفتى كل شيء، وسبق أوانه، فتعلَّم الكلام وهو يطلب الصدقة من المشاة بجادة أبانكاي، راسمًا على وجهه تعبيرًا يليق بملاك الوحل الصغير، التعبير الذي رقَّت له قلوب السيدات ذوات الأصول العريقة. ثم عمل مُلمِّع أحذية، وحارس سيارات، وبائع صحف ومُرطِّبات وحلوى تورّون، وجامع خردة، كما عمل مُرشِدًا في الإستاد الرياضي. من كان يقول إن ذلك الطفل، صاحب الأظافر السوداء والقدمَيْن القذرتَيْن والرأس الذي يستشري فيه بيض القمل والثياب المُرقَّعة والجسد المحشور في كنزة ملأى بالثقوب، سوف يغدو بمضي الأعوام هو الكاهن الأشد إثارةً للجدل في بيرو؟

كان تعلُّمه القراءة سرًّا غامضًا، لأنه لم يلمس أرض المدرسة بقدمَيْه قطّ. قيل في حيّ تشيريمويو إن عرَّابه، حارس بناء البرلمان، قد علَّمه التهجِّي، وإنشاء مقاطع الكلمات. أما البقية، فجاءت بقوة الإرادة، كما يليق بأبناء القاع الذين يصلون إلى جائزة نوبل بفضل المثابرة. كان سيفيرينو أوانكا لايبا في الثانية عشرة من العمر، يجوب المدينة طالبًا من ساكني القصور الثيابَ عديمة النفع والأحذية البالية (التي يبيعها لاحقًا في العشوائيات) حين تعرَّف إلى الشخصية التي سوف توفِّر له السبُل اللازمة حتى يصبح قديسًا: مايتيه أونساتيغي، الإقطاعية ابنة الباسك، التي يستحيل أن يعرف المرء أيهما أكبر، نصيبها من الثراء أم نصيبها من الإيمان، مساحة أراضيها أم إيمانها بسيِّد ليمپياس. كانت خارجة من مسكنها المُشيَّد على الطراز الموريسكي بجادة سان فيليپي، في أورانتيا، وبينما السائق يفتح لها باب الكاديلاك، انتبهَت السيدة إلى ثمرة الاغتصاب واقفًا على قارعة الطريق، بجوار عربة الثياب البالية التي جمعها نهار ذلك اليوم. وإذا بتعاسته الشديدة وعينَيْه الذكيتَيْن وقسماته الخليقة بجروٍ عنيدٍ تقع في نفسها موقعًا حسنًا، فقالَت له إنها سوف تزوره عند مغيب الشمس.

ترددَّت الضحكات في حيّ تشيريمويو لمَّا أعلن سيفيرينو أوانكا لايبا أن سيدةً آتية لزيارته مساء اليوم بسيارة فارهة يقودها سائق بالزيِّ الأزرق. ولكن، حين توقَّفَت الكاديلاك في السادسة أمام الزقاق، وأقبلَت دونيا مايتيه أونساتيغي بأناقة الدوقات سائلةً عن تيريسيتا، اقتنع الجميع (وأصابهم الذهول أيضًا). دخلَت دونيا مايتيه إلى صلب الحديث مباشرة، كما يليق بنساء الأعمال اللاتي يضيق وقتهن حتى عن الدورة الشهرية، وقدَّمَت لغاسلة الثياب العرض الذي انتزع منها صرخة سعادة: إذ عرضَت أن تتكفَّل بدراسة سيفيرينو أوانكا لايبا وتقدِّم لأمِّه مكافأةً قدرها عشرة آلاف صول، شريطة أن يغدو الفتى كاهنًا.

وهكذا أصبح ثمرة الاغتصاب تلميذًا في المعهد اللاهوتي سانتو توريبيو دي موغروبيخو، في ماغدالينا دِل مار. بخلاف الحالات الأخرى التي يأتي النداء فيها قبل العمل، اكتشف سيفيرينو أوانكا لايبا أنه قد وُلِد ليصبح كاهنًا بعد التحاقه بالمعهد اللاهوتي. صار طالبًا تقيًّا مجتهدًا، دلَّله مُعلِّموه وافتخرَت به كلٌّ من حاميته وتيريسيتا السوداء. ولكن، برغم حصوله على الدرجات النهائية في اللاتينية واللاهوت وعلم الآبائيات، وإظهاره التديُّن الذي لا يعيبه شيء في القدَّاسات الإلهية والابتهالات وشعائر جلد الذات، فلقد لُوحِظَت عليه منذ طور المراهقة أعراض ما وصفه المدافعون عنه بأنه «نفاد صبر بسبب الغيرة الدينية»، في حين وصفه منتقدوه بأنه «سلوك إجرامي مشاغب أخذه عن حيّ تشيريمويو»، وذلك عندما أثارَت جرأته مناظرات كبرى في المستقبل. على سبيل المثال، بدأ ينادي وسط طلَّاب المعهد اللاهوتي - قبل رسامته كاهنًا - بالنظرية القائلة بضرورة إحياء الحملات الصليبية والعودة إلى محاربة الشيطان، لا بأسلحة الصلوات والقرابين الأنثوية فحسب، وإنما بالأسلحة

الرجولية (تلك التي أكَّد أنها أشدّ فعالية)، أسلحة اللكمات وضربات الرأس، والسكاكين والأعيرة النارية أيضًا لو اقتضَت الحال.

أما رؤساؤه، فهالهم ما بدر منه، وسارعوا بمكافحة هذا الشطط، وإن أيَّدَته دونيا مايتيه أونساتيغي بحرارة. ولمَّا كانت المرأة فاعلة الخير الإقطاعية تقدِّم الدعم لكفالة ثلث طلاب المعهد اللاهوتي، فلقد اضطُرّ رؤساؤه إلى التغافل عما يجري وغضّ العيون وصمّ الآذان عن نظريات سيفيرينو أوانكا لايبا، لأسباب مُتعلِّقة بالميزانية التي ترغم المرء على ما يكره. لم تكُن مُجرَّد نظريات: بل إنه قد دعمها بالممارسة، فلم يمرّ يوم واحد من الأيام التي يُسمَح فيها للطلَّاب بالخروج إلَّا وعاد ابن حيّ تشيريمويو بمثالٍ على ما سمَّاه «الوعظ المُسلَّح». ذات يوم، رأى زوجًا مخمورًا يتعدَّى على زوجته بالضرب في شوارع منطقته المضطربة، فما كان منه إلَّا أن تدخَّل كاسرًا ساقَي الرجل المؤذي ركلًا بالقدم، ثم ألقى عليه موعظةً في سلوك الزوج المسيحي الصالح. وذات يوم آخر، في حافلة سينكو إسكيناس، باغت نشَّالًا مُستجَدًّا وهو يحاول سرقة امرأة طاعنة في السن، فانهال عليه ضربًا برأسه (ثم حمله سيفيرينو أوانكا لايبا بنفسه إلى قسم الطوارئ لخياطة وجهه). وذات يوم آخر، باغت رجلًا وامرأةً يلهوان كالحيوانات وسط الحشائش النامية في غابة ماتامولا، فجلد كليهما حتى سالت دماؤهما، وأرغمهما على القسم بأنهما سوف يتزوَّجان بأسرع ما يمكن، وكلاهما جاثٍ على ركبتَيْه، كما توعَّدهما بالضرب مُجدَّدًا إن لم يفعلا. أما دُرَّةُ التاج (إن جاز الوصف) التي رصَّع بها سيفيرينو أوانكا لايبا مُسلَّمته القائلة بأن «النقاء كالحروف الأبجدية، لا يستوعبه المرء إلَّا بالدماء»، فجاءت مُتمثِّلةً في اللكمة التي سدَّدها إلى مُعلِّمه وأستاذه في الفلسفة التوماوية، الأب الوديع ألِبرتو دي كينتيروس، في قلب المصلى،

عندما حاول الأب أن يطبع قبلةً على فمه، في لفتةِ أخويَّةٍ، أو نزعةِ تضامن. وإن كان الأب ألبِرتو دي كينتيروس رجلًا بسيطًا، بعيدًا عن الحقد كل البعد (التحق بالكهنوت مُتأخِّرًا، بعدما تحقَّق له المجد والثراء في مجال علم النفس بتولّيه حالة مشهورة، عندما عالج الطبيب الشاب الذي قتل ابنته دهسًا بالسيارة في ضواحي پيسكو). وبعودة قداسة الأب كينتيروس من المستشفى بعد خياطة الفم، وتركيب ثلاث أسنان بدلًا من تلك التي فقدها، اعترض على طرد سيفيرينو أوانكا لايبا، بل إنه رفع بنفسه القدَّاس الإلهي الذي رُسِم فيه ثمرةُ الاغتصاب كاهنًا، بالسخاء المعهود في الأرواح العظيمة التي تحوِّل خدَّها الآخَرَ إن لُطِمت على خدِّها الأيمن حتى ترتقي فوق المذابح بعد الموت.

وعلى الرغم من ذلك، فلم تكُن قناعة سيفيرينو أوانكا لايبا بأن من واجب الكنيسة أن تحارب الشرّ باللكمات هي الشيء الوحيد الذي شغل بال رؤسائه عندما كان طالبًا في المعهد اللاهوتي، بل إن ما شغل بالهم أكثر من ذلك إيمانه (المُنزَّه عن الأغراض الشخصية؟) بأن الاستمناء لا يجب إدراجه على تلك القائمة الهائلة، قائمة الخطايا المميتة، بأي حال من الأحوال. وعلى الرغم من تأنيب مُعلِّميه الذين حاولوا تقويم الخطأ الذي وقع فيه، بالاستشهادات التوارتية والصكوك البابوية التي أدانَت أونان[1] بشدة، راح ابن دونيا أنخيليكا المُجهِضة، العنيد كما كان قبل الولادة، يثير زملاءه في الليل مُؤكِّدًا أن تلك الفعلة اليدوية قد أبدعها الرَّب حتى يعوِّض الكهنة عن نذر العفّة ويجعله هينًا على الاحتمال في جميع الأحوال.

---

(١) أونان بن يهوذا: ورد ذكره في الكتاب المُقدَّس والتصق اسمه بالاستمناء. (المترجم)

واحتجّ بقوله إن الخطيئة تكمن في المتعة التي يقدِّمها لحم المرأة، أو لحم **الآخرين** (في قولٍ أشدّ انحرافًا)، ولكن كيف تكمن الخطيئة في التنفيس عن الذات، تلك الفعلة البسيطة الانعزالية العقيمة التي تسمح بها جهود الخيال والأصابع إذا تضافرَت معًا؟ وفي أطروحة قرأها على صفِّ الأب المُبجَّل ليونسيو ساكارياس، ذهب سيفيرينو أوانكا لايبا - من خلال تأويل وقائع يلفّها الغموض في العهد الجديد - إلى اقتراح وجود أسباب تمنع المرء من استبعاد الاحتمال الآتي واعتباره افتراضًا طائشًا، أي الاحتمال الزاعم بأن المسيح بشخصه قد حارب إغواء الدنس بطريقة استمنائية ذات مرة (هل كان ذلك بعد أن تعرَّف إلى مريم المجدلية؟). سقط الأب ساكارياس مغشيًا عليه، وأصبح الطالب الذي شملَته عازفة البيانو الباسكية بحمايتها على وشك أن يُطرَد من المعهد اللاهوتي بتهمة التجديف.

ندم سيفيرينو أوانكا لايبا وطلب المغفرة مُكفِّرًا عن ذنبه كما فُرِض عليه. وأمسك لبعض الوقت عن التبشير بتلك الأفكار المُتطرِّفة التي كانت تُشعِل المُعلِّمين غضبًا، وتلهب الطلَّاب حماسًا. أما على المستوى الشخصي، فهو لم يكفّ عن تطبيقها. وسرعان ما سمعه آباء الاعتراف مرة أخرى وهو يقول، حالما يجثو على ركبتَيْه أمام كرسي الاعتراف الذي يُحدِث صريرًا: «لقد كنتُ عشيق ملكة سبأ ودليلة وزوجة هولوفرنيس خلال الأسبوع الجاري». أما تلك النزوات، فلقد حرمَته من الذهاب في رحلةٍ كان من شأنها أن تثري روحه. ذلك أن القيادات قد اتَّخذَت قرارها بأن توفده إلى الجامعة الغريغورية في روما لإعداد رسالة الدكتوراه، بعدما رُسِم سيفيرينو أوانكا لايبا كاهنًا بوقت قصير، لأنه طالب استثنائي في اجتهاده، لم يشكِّك أحد في توقُّد ذكائه يومًا برغم أفكاره الهاذية الهرطوقية. وإذا بالكاهن حديث العهد يعلن فورًا عن نيته في إعداد أطروحة - شأنه

شأن العلماء الذين فقدوا أبصارهم من فرط ما رجعوا إلى المخطوطات المغبرة في مكتبة الفاتيكان - على أن يكون عنوان الأطروحة كما يلي: **في الرذيلة الانعزالية حصنًا للعفاف الكَنَسي**. قُوبِل مشروعه برفض غاضب، فما كان منه إلَّا أن تخلَّى عن السفر إلى روما، ودفن نفسه في جحيم ميندوسيتا، من حيث لن يعاود الخروج مرة أخرى.

اختار الحيَّ بنفسه لمَّا عرف أن جميع الكهنة في ليما يخافونه كالوباء. لم يخافوا من الكثافة الميكروبية التي شكَّلَت طبوغرافيا الحيّ الهيروغليفية المُؤلَّفة من دروب رملية وأكواخ صُنِعَت بشتّى الخامات - الورق المُقوَّى والصفيح والحصائر والألواح الخشبية والأسمال وأوراق الجرائد - حتى صار الحيّ مُختبَرًا يضمّ أرقى أشكال العدوى والطفيليَّات، بقدر ما كانوا يخشون العنف الاجتماعي الذي ساد ميندوسيتا. وبالفعل، كانت تلك المنطقة العشوائية آنذاك جامعةً تُدرَّس فيها الجريمة، ولا سيما التخصُّصات الإجرامية الأكثر بروليتاريَّةً: السرقة عن طريق الاقتحام، والبغاء، والعراك بالسكاكين، والنصب بالتجزئة، والإتجار بالمُخدِّرات، والقِوادة.

في غضون يومَيْن، ابتنى الأبُّ سيفيرينو أوانكا لايبا بيدَيْه كوخًا من الآجر، تركه بلا أبواب، وزوَّده بفراش صغير مُستعمَل ومرتبة من القشّ ابتاعها في سوق لا پارادا. ثم أعلن أنه سوف يرفع قدَّاسًا إلهيًّا في الساعة السابعة من صباح كل يوم، في الهواء الطلق. كما أعلن أنه سوف يتلقَّى المُعترِفين من الإثنين إلى السبت، النساء من الثانية إلى السادسة، والرجال من السابعة حتى منتصف الليل، تلافيًا للاختلاط بين الجنسَيْن. كما نبَّه إلى عزمه على تنظيم فصول للصغار من الثامنة صباحًا وحتى الثانية مساءً، يتعلَّم فيها أطفال الحيّ

الحروف الأبجدية والأرقام والتعاليم الكَنَسية. ولكن حماسته اصطدمَت بالواقع الصلب، فتحطَّمَت وصارَت شظايًا. اقتصر حضور قدَّاسات الفَجر على حفنة من المُسِنَّات والمُسنِّين من ذوي العيون الرمصاء والاستجابات الجسدية المُحتضِرة، أولئك الذين كانوا يمارسون، في غفلة منهم، تلك العادة الشريرة المُقترِنة بأهل بلدٍ بعينه (أهو البلد المعروف بالأبقار والتانغو؟)، عادة إطلاق الريح وقضاء الحاجة وهم بثيابهم في أثناء القدَّاس الإلهي. أما في ما يتعلَّق بالاعتراف مساءً وفصول الصغار نهارًا، فلم يحضر ولو شخص واحد بدافع الفضول.

ماذا جرى؟ كان مُداوِي الحيّ، خايمي كونتشا، قد نظر بعين الارتياب إلى ذلك المُنافِس المُحتمَل الذي وصل إلى المنطقة، فنظَّم حركة مقاطعة الأبرشية، وهو الرقيب السابق في الحرس المدني صاحب البنيان المتين الذي خلع الزي الرسمي حين وجَّهَت إليه المُؤسَّسةُ أمرًا بأن يعدم الرجل المسكين ذا البشرة الصفراء رميًا بالرصاص، ذلك الرجل الذي وصل إلى كاياو مُتسلِّلًا إلى سفينة قادمة من أحد مرافئ الشرق. ومنذ ذلك الحين، كرَّس نفسه للطب الشعبي الذي لقي في مزاولته نجاحًا طاغيًا، جعل قلبَ ميندوسيتا في راحة يده.

أبلغَت الكاهنَ بالأمرِ واشيةٌ (هي مشعوذة ميندوسيتا السابقة، دونيا مايتيه أونساتيغي، المرأة الباسكية ذات الدماء الزرقاء النيلية التي ضاقَت بها الحال بعد يسر، التي أزاحها خايمي كونتشا عن عرش الحيّ بعد أن كانت ملكته وسيدته)، فعرف الأبُّ سيفيرينو أوانكا لايبا أن اللحظة المواتية لتطبيق نظريته في الوعظ المُسلَّح قد حانت أخيرًا، وإذا هي واحدة من تلك المسرَّات التي تغشى البصر وتشعل الصدر. مضى يقطع الأزقة الملأى بالذباب صائحًا بأعلى

صوت، كالمُنادِي الذي يُعلِن عن السيرك، قائلًا إنه سوف يبارز المُداوِي باليدَيْن يومَ الأحد المقبل، في الحادية عشرة صباحًا، في ملعب كرة القدم، حتى يعرف الناس أيهما أشدّ فحولةً. ولمَّا حضر خايمي كونتشا ذو العضلات المفتولة إلى الكوخ المبني بالآجر، وسأل الأبَّ سيفيرينو إن كان يجدر به أن يفسِّر ما بدر من الكاهن باعتباره تحدّيًا، اكتفى رجل تشيريمويو بسؤاله في برود عما إذا كان يفضِّل التسلُّح بالسكاكين، بدلًا من خوض الشجار بالأيدي العارية. فمضى الرقيب السابق مُبتعِدًا وهو يتلوَّى من شدة الضحك، قائلًا للجيران إنه قد تعوَّد قتلَ كلاب الشارع المُتوحِّشة بضربة واحدة على الدماغ عندما كان حارسًا مدنيًا. أثار عراك الكاهن والمُداوِي ترقُّبًا استثنائيًّا، لم يقتصر على جميع أنحاء ميندوسيتا، إذ حضر الناس من لا بيكتوريا وپوربِنير ومرتفع سان كوسميه وأغوستينو لمشاهدة العراك أيضًا. أقبل الأب سيفيرينو بالسروال والقميص. ورسم علامة الصليب قبل العراك، الذي كان قصيرًا، ولكن جديرًا بالانتباه. جسديًّا، كان رجل تشيريمويو أقلّ قوةً من الحارس المدني السابق، وإن تفوَّق عليه في الحِيَل. ما إن بدأ العراك حتى ألقى الكاهن في عينَي الآخر حفنة من مسحوق الفلفل الحريف الذي أعدّه مسبقًا (كما أوضح لمُشجِّعيه لاحقًا أن: «كل شيء مُباح في المعارك الكريوليَّة»). أما العملاق، جُلْيَاتُ الذي تقهقر أمام مِقلاع دَاوُد الذكي[1]، فبدأ يترنَّح على عمى. عند ذاك أضعفه الأبُّ سيفيرينو بدفقة من الركلات المُوجَّهة إلى المناطق الحسَّاسة، حتى رآه ينثني، وإذا هو يشنّ هجومًا مباشرًا على وجه الحارس المدني باليمين واليسار، من دون أن يمهله

(١) طبقًا لما جاء في الكتاب المُقدَّس، فلقد انتصر دَاوُد على المحارب الضخم جُلْيَاتُ بالمقلاع. (المترجم)

فرصة واحدة، فلم يبدِّل طريقته إلَّا بعدما طرح الآخر أرضًا. عند ذاك أتمَّ المجزرة ركلًا في المعدة والأضلاع. مضى خايمي كونتشا يزمجر ألمًا وخزيًا، معترفًا بهزيمته. وفي غمرة التصفيق، خرّ الأب سيفيرينو أوانكا لايبا على ركبتَيْه، وراح يصلِّي بورع، رافعًا وجهه إلى السماء، عاقدًا يدَيْه على هيئة صليب.

وبسبب تلك الواقعة - التي شقَّت طريقها إلى صفحات الجرائد، وضاق بها رئيس الأساقفة - بدأ الأب سيفيرينو يفوز بمودة أولئك الذين ما زال انضمامهم إلى رعية الأبرشية أمرًا مُحتملًا. وابتداءً من ذلك الوقت، زاد الإقبال على القدَّاسات الإلهية الصباحية. بل إن بعض الأرواح الآثمة، ولا سيما الأنثوية منها، طلبَت الإذن في الاعتراف. وعلى الرغم من ذلك، فلم تشغل تلك الحالات النادرة ولو عُشْر الفترة المُمتدَّة التي حدَّدها كاهن الأبرشية المتفائل عندما احتسب قدرةَ ميندوسيتا على الوقوع في الخطايا بعينه المُجرَّدة. أما الشيء الآخر الذي جعله ينال استحسان أهل الحيّ وضمن له الفوز بالمزيد من الزبائن، فكان الأسلوب الذي عامل به خايمي كونتشا بعد الهزيمة المخزية التي مُنِي بها، فلقد ساعد سيفيرينو أوانكا لايبا الجيران بنفسه على مداواته بالميكروكروم والأرنيكا، وأبلغه بأنه لن يطرده من ميندوسيتا، بل إنه على استعداد لضمّه إلى الأبرشيه بصفته حارسًا لحجرة المُقدَّسات (بكرم نابليون الذي يُقدِّم الشامبانيا إلى جنرال الجيش المهزوم، بل ويُزوِّجه ابنته أيضًا، بعد أن محا جيشَ الجنرال من على وجه الأرض). صرَّح للمُداوِي بتقديم الشربة السحرية بصنوفها، من أجل الصداقة والعداوة والحبّ والشفاء من الحسد، ولكن بتسعيرة معتدلة يضعها كاهن الأبرشية بنفسه، ولم يحظر عليه إلَّا معالجة الشؤون المُقترِنة بالروح. زد على ذلك أنه سمح له بالاستمرار في مزاولة حرفة مُجبِّر العظام، لعلاج الجيران

المصابين بالخلع أو ألم العظام، شريطة ألَّا يحاول علاج المصابين بغير ذلك من الأمراض، أولئك الذين تستدعي الحالة نقلهم إلى المستشفى.

أما الطريقة التي اتَّبعها الأب سيفيرينو أوانكا لايبا لاجتذاب الصغار إلى الفصول التي قُوبِلَت بالاستخفاف - كما تنجذب طيور الأطيش إلى الأسماك والذباب إلى العسل - فكانت طريقة خارجة عن المألوف، جعلَته يتلقَّى أول إنذار شديد اللهجة من هيئة الكنيسة القضائية: إذ أعلن الكاهن أن كل طفل سوف يتلقَّى صورةً مُلوَّنة على سبيل الهدية عن كل أسبوع حضور. ما كان الحشد المُتلهِّف من الأطفال ذوي الثياب الرثّة ليكتفي بذلك الطعم لو لم تكُن تلك التي أُطلِق عليها **صورًا مُلوَّنة**، على سبيل التخفيف، صورًا لنساء عاريات، في واقع الأمر، نساء يصعب أن يخلط المرء بينهن وبين العذراء. أبدى عدد من ربات الأسرة دهشةً حيال أساليبه التعليمية، فأكَّد لهن كاهن الأبرشية برصانة أن **الصور المُلوَّنة** سوف تُبقِي صغارهم بعيدًا عن اللحم الدنس، وتجعلهم أقلّ شقاوةً، وأكثر وداعةً ونعاسًا، وإن بدا ذلك عصيًّا على التصديق.

ولاجتذاب فتيات الحيّ، استعان بتلك المغريات التي جعلَت المرأةَ هي الآثمة الأولى في الكتاب المُقدَّس، كما استعان بخدمات مايتيه أونساتيغي التي ضمَّها إلى طاقم الأبرشية بوصفها مساعدته أيضًا. وبحكمتها التي لا تكتسبها المرأة إلَّا على مدى عشرين عامًا من الخدمة في مواخير تينغو ماريا، عرفَت كيف تفوز بمودة فتيات الحيّ اللاتي ألقَت عليهن الدروس المسلية: طريقة طلاء الشفاه والخدود والأجفان بغير حاجة إلى شراء الزينة من المتاجر، وطريقة صنع الصدور والخصور والأرداف الصناعية باستخدام القطن والوسائد وحتى ورق الجرائد، كما علَّمَتهن الرقصات الرائجة:

الرومبا والأواراتشا والپورّو والمامبو. وعندما حضر مُفتِّشٌ مُوفَد من قيادة الكنيسة ليتفقَّد الأبرشية، رأى في القسم الأنثوي من فصول الصغار جمعًا من البنات يتناوبن على انتعال الحذاء ذي الكعب العالي الوحيد في الحيّ بأسره، ويتهادَيْن في سيرهن برعاية القوَّادة السابقة التي أشرفَت عليهن بوقار، فأخذ يفرك عينَيْه. ولمَّا استردّ القدرة على النطق أخيرًا، سأل الأبَّ سيفيرينو إن كان قد أنشأ معهدًا للعاهرات.

- «الإجابة: نعم»، هكذا جاء ردّ ابن تيريسيتا السوداء، الرجل الذي لم يخشَ الكلمات. «ما دام اشتغالهن بتلك المهنة محتومًا، فليمارسنها بحرفيَّةٍ، على الأقل».

(ولهذا السبب تلقَّى ثاني الإنذارات شديدة اللهجة من هيئة الكنيسة القضائية).

وعلى الرغم من ذلك، فليس صحيحًا أن الأب سيفيرينو كان هو قوَّاد ميندوسيتا الأكبر، على نحو ما زعمَت الشائعات التي نشرها مُنتقِدوه. كل ما في الأمر أنه رجل واقعي، يعرف الحياة شبرًا شبرًا. لم ينشر البغاء، وإنما حاول أن يضفي عليه وقارًا، كما خاض معارك شعواء لوقاية النساء اللاتي يربحن القوت بأجسادهن (أي جميع نساء ميندوسيتا ممن تتراوح أعمارهن بين الثانية عشرة والستين) من الإصابة بالسيلان وحمايتهن من استغلال القوَّادين. أما استئصال قوَّادي الحيّ الذين قُدِّر عددهم بقرابة عشرين (أو إعادة تأهيلهم في بعض الحالات)، فكان عملًا بطوليًّا يندرج في إطار الصحة المجتمعية، أفضى بالأبِّ سيفيرينو إلى الإصابة بعدد من ضربات السكاكين، وتلقَّى عنه تهنئةً واحدة من عمدة لا بيكتوريا. ولقد وظَّف الكاهن في سبيل ذلك فلسفة الوعظ المُسلَّح الخاصة به. ذلك أنه، عن طريق خايمي كونتشا، الذي اتَّخذه مناديًا في الشوارع، أعلن أن

الدين والقانون ينهيان الرجال عن العيش كالطفيليات على حساب كائنات أدنى منهم في المكانة، وبناء على ما تقدَّم، فإن الجار الذي يُقدِم على استغلال النساء لن يجد سوى قبضتَيْه. وهكذا اضطُرّ إلى أن يخلع فكّ پاتشيكو الدهني الكبير، ويفقأ عين الجواد الفحل، ويصيب پِدريتو الهرواة بالعجز الجنسي، ويصيب سامپِدري الذَّكَر بالبله، ويصيب جسد أومباتشانو البرميل برضوض أرجوانية اللون. وفي أثناء حملته الكيخوتية، وقع في أحد الكمائن ذات ليلة، فانهال عليه المُعتَدون ضربًا بالسكاكين، ثم تركوه للكلاب في الوحل ظنًّا منهم بأنه قد فارق الحياة. ولكن صلابة الفتى الدارويني كانت أقوى من نصال السكاكين الصدئة التي طعنَته، فنجا بحياته، وإن ظلّ محتفظًا بنصف دزينة من الندوب - آثار الذكورة التي تركَتها النصال الحديدية على وجهه وجسده، فقالت عنها النساء الشبقات إنها شهية -، تلك الندوب التي أرسلَت قائد الاعتداء إلى مستشفى الأمراض العقلية بعد المحاكمة، لإصابته بالجنون الذي لا شفاء منه، وهو ابن أريكيپا صاحب الاسم الديني واللقب البحري: حزقيال دلفين.

آتَت تضحياته وجهوده الثمارَ المرجوة، فتطهَّرَت ميندوسيتا من القوَّادين على نحوٍ يدعو إلى الدهشة. وصار الأب سيفيرينو معبودَ نساء الحيّ اللاتي واظبن منذ ذلك الحين على حضور القدَّاسات الإلهية بأعداد غفيرة، والاعتراف على يدَيْه كل أسبوع. وللتخفيف من أضرار الحرفة التي كانت توفِّر لهن القوت، دعا الأب سيفيرينو أحد أطباء العمَل الكاثوليكي إلى المنطقة ليسدي إليهن النصائح بشأن الوقاية الجنسية ويلقِّن الواحدة منهن الطرائق العملية الملائمة لاكتشاف إصابة الزبون أو إصابتها هي نفسها بالسيلان في الوقت المناسب. ومن أجل الحالات المستعصية على وسائل منع الحمل التي علَّمَتهن إياها مايتيه أونساتيغي، نقل الأبُّ سيفيرينو تلميذةَ دونيا

أنخيليكا من تشيريمويو إلى ميندوسيتا، بهدف إرسال ثمار الحبِّ المأجور إلى الليمبو بنجاح. أما الإنذار شديد اللهجة الذي تلقَّاه من هيئة الكنيسة القضائية حين بلغها أن كاهن الأبرشية يُؤيِّد استخدام الواقي الذكري واللولب ويشجِّع على الإجهاض، فكان الإنذار الثالث عشر.

وأما الإنذار الرابع عشر، فلقد تلقَّاه بسبب ما سُمِّي **بمدرسة الحِرَف** التي واتَته الجرأة على تأسيسها، ففي تلك المدرسة كان أصحاب الخبرة الواسعة من أهل الحيّ يعلِّمون المُستجَدِّين من أصحاب السجل الجنائي النظيف طرائق التربُّح بشتّى صنوفها، في أحاديث شيِّقة تتخلَّلها القصص الطريفة رائحةً غادية، تحت الغمائم أو النجوم العارضة في ليل ليما. على سبيل المثال، صار في متناول طلَّاب المدرسة أن يتعلَّموا تمارين من شأنها أن تجعل الأصابع كالدخيل الذكي شديد الكتمان القادر على التسلُّل إلى حميمية أي جيب أو جوال أو حافظة أو حقيبة، وتمييز الفريسة المُشتهاة من بين مختلف الأغراض. وهناك، كان الطالب يكتشف أن أشدّ المفاتيح تعقيدًا يمكن استبدالها باستخدام أي سلكٍ معدني إذا وُضِع في ثقب الباب بالصبر الحِرفي اللازم، ويكتشف كيف يمكن تشغيل مُحرِّكات السيارات بمختلف أنواعها (لو تصادف أن لم يكُن المرء هو مالِك السيارة)، ويتعلَّم انتزاع قطع المجوهرات ثم الفرار عدوًا أو بالدراجة، أضف إلى ذلك تسلُّق الأسوار وصولًا إلى نوافذ البيوت وكسر زجاجها في صمت، وإجراء العمليات التجميلية لأي غرض ينتقل من مالكٍ إلى آخر بصورة مفاجئة، وطريقة الخروج من زنازين ليما المُتعدِّدة بغير حاجة إلى تصريح رئيس قسم الشرطة. حتى صناعة السكاكين - أتراها الشائعات وليدة الحسد؟ - وتقطير المخدرات، كلاهما كان يُدرَّس في تلك المدرسة التي سمحَت للأب سيفيرينو بأن

يفوز أخيرًا بصداقة رجال ميندوسيتا ورفقتهم، كما أوقعَته في أول ورطة له بقسم شرطة لا بيكتوريا الذي اقتيد إليه ذات ليلة، وتلقّى تهديدًا بالمحاكمة والسجن باعتباره العقل الذي يُدبِّر الجرائم من خلف الأستار. إلَّا أن حاميته ذات النفوذ الواسع خلَّصَته من تلك الورطة، بطبيعة الحال.

في ذلك الوقت، كان الأب سيفيرينو قد تحوَّل إلى الرمز الشعبي الذي انشغلَت به الصحف والمجلات وإذاعات الراديو. كما صارت مبادراته مثارًا للجدل. هناك من اعتبره قدّيسًا هو الأول من نوعه، سابقًا لأوانه، ينتمي إلى دفعة جديدة من الكهنة الذين سوف يفجِّرون ثورةً في الكنيسة. وهناك من اقتنع بأنه من أتباع الطابور الخامس، ومن أنصار الشيطان، وبأنه مُكلَّف بتقويض بيت القديس بطرس الرسول من الداخل. صارت ميندوسيتا مزارًا سياحيًّا (بفضله أم بسبب ذنوبه؟)، وتوافد الفضوليون والنساء التقيَّات والصحافيون والمُتعجرِفون إلى الحيّ الذي كان في الماضي جنةَ العالَم السفلي لرؤية الأب سيفيرينو ولمسه وإجراء المقابلات معه أو طلب توقيعه. ولقد قسَّمَت تلك الدعاية الكنيسة إلى فرقتَيْن: فرقة أعدَّتها مفيدة، وأخرى اعتبرَتها مُضِرّة بالقضية.

بانتصار، أعلن الأب سيفيرينو أوانكا لايبا أنه لم يبقَ طفلٌ واحد من الأطفال الأحياء في نطاق الأبرشية إلَّا ونال المعمودية، بمن منهم أولئك الذين وُلِدوا في الساعات العشر الأخيرة. أدلى الكاهن بذلك الإعلان بمناسبة الموكب الذي أُقيم تمجيدًا لسيِّد ليمبياس - العقيدة التي أدخلها إلى ميندوسيتا بنفسه، فانتشرَت كالنار في الهشيم -، وهكذا استحوذَت مشاعر الفخر على المؤمنين، وأرسلَت قيادات الكنيسة إلى الكاهن كلمات التهنئة لأول مرة، بعد كل هذه التحذيرات.

وعلى الرغم من ذلك، فلقد أثار ضجّةً في عيد سانتا روسا، شفيعة ليما، يومَ أعلن للعالَم، خلال عظة في الهواء الطلق بملعب ميندوسيتا، أنه لم تكُن هناك علاقةٌ واحدة في حدود الأبرشية التي يكسوها الغبار إلّا وباركها أمام الرَّب على المذبح القائم في الكوخ المبني بالآجر. تملَّكَت الدهشةُ رؤساء الكنيسة البيروفية، إذ كانوا يعلمون تمام العلم أن المُؤسَّسة الأشدّ رسوخًا ومهابةً في إمبراطورية الإنكا السابقة - بخلاف الكنيسة والجيش - هي الدعارة، فجاؤوا للتحقُّق من ذلك العمل البطولي بأنفسهم (هل جاؤوا يجرجرون أقدامهم؟). وباستطلاع البيوت سيئة السمعة في ميندوسيتا، راعهم ما وجدوا، وأحسّوا بذلك المذاق المرير في أفواههم، مذاق الاستهزاء بالطقوس الدينية. تراءت لهم المُبرِّرات التي ساقها الأب سيفيرينو مبهمةً وحافلة بالألفاظ السوقية (لأن فتى تشيريمويو قد نسي الإسبانية الأصيلة المُستخدَمة في المعهد اللاهوتي بعد السنوات الطوال التي أمضاها في العشوائيات، وتبنَّى جميع الكلمات البربرية والألفاظ الدارجة في عالَم ميندوسيتا السفلي)، فكان المُداوي السابق والحارس المدني السابق ليتوما هو الذي فسَّر لهم المنظومة المُتَّبعة للقضاء على العلاقات غير الشرعية، المنظومة البسيطة على نحو ينتهك المُقدَّسات، وتهدف إلى مباركة كل علاقة قائمة بالفعل، أو من المُزمَع أن تقوم، أمام الأناجيل. وبعد فترة اللهو الأولى، يحضر الطرفان للزواج كما أوصى الرَّب على يدَي كاهنهما العزيز، فيقيم الأب سيفيرينو طقوس الزواج من دون أن يثقل عليهما بالأسئلة الوقحة. وهكذا تعدَّدَت زيجات الكثير من الجيران، مع أنهم لم يترمَّلوا مسبقًا - بتلك السرعة الفلكية التي تتفكَّك بها العلاقات ثم يقيم أطرافها علاقات جديدة مع أطراف جديدة - فأصبح الأب سيفيرينو يصلح الأضرار الناشئة عن الوضع القائم، في نطاق الإثم،

بسرِّ الاعتراف المُطهِّر. (ولقد فسَّر ذلك بالشعار الذي جاء هرطوقيًّا، فضلًا عن سوقيّته: «عضَّةُ الحبّ تداريها عضَّةٌ أخرى»). سُحِبَت منه الثقة، وعُنِّف، بل إن رئيس الأساقفة كاد يصفعه على وجهه. بينما احتفل الأب سيفيرينو أوانكا لايبا في تلك المناسبة بالحدث الجلل المُتمثِّل في تلقّيه: الإنذار شديد اللهجة رقم مئة.

وهكذا، بين مبادرات جريئة وتقريعات مُعلَنة - مثيرة للجدل - بين حبّ أولئك واحتقار هؤلاء، بلغ الأب سيفيرينو أوانكا لايبا زهرة العمر: الخمسين. كان رجلًا ذا جبين عريض وأنف معقوف ونظرة ثاقبة وروح مستقيمة صالحة، حافظ على نقائه بتلك القناعة التي توصَّل إليها في أول عهده بالدراسة في المعهد اللاهوتي، القناعة التي حدَّثَته بأن الحبّ المُتخيَّل ليس آثمًا، بل إنه حارس قدير يصون عفَّة المرء، حتى كان أن وصلَت إلى ميندوسيتا تلك المُنحَلَّة المدعوة مايتيه أونساتيغي، كالحية التي نزلَت من الجنَّة واتَّخذَت هيئة المرأة الشهوانية شديدة الخصوبة، الملأى بالبريق الشهي. تظاهرَت بأنها اختصاصية اجتماعية (وإن كانت في حقيقة الأمر - لأنها امرأة برغم كل شيء؟ - عاهرة).

زعمَت بأنها قد عملَت وبذلَت نفسها من أجل الآخرين في أدغال تينغو ماريا، حيث كانت تطهِّر بطون السكان الأصليين من الطفيليات. ثم ولَّت هاربةً في رعب شديد، لأن عصابة من الجرذان آكلة اللحوم قد التهمَت ابنها. كانت تنتمي إلى الطبقة الأرستقراطية، نظرًا إلى دمائها الباسكية. كان حريًّا بالأب سيفيرينو أوانكا لايبا أن يتنبَّه إلى الخطر المحدق مع الأخذ في الاعتبار آفاقها المُتورِّمة ومشيتها الجيلاتينية، ولكنه ارتكب تلك الحماقة المُتمثِّلة في قبولها مُساعِدةً له - كمن ينجذب إلى الهاوية التي سقطَت فيها فضائل راسخة - ظنًّا منه بأن غرضها تخليص الأرواح والقضاء على

الطفيليات، على نحو ما زعمَت. بَيْد أنها، في واقع الأمر، كانت ترمي إلى الإيقاع به في الخطيئة. شرعَت تنفِّذ برنامجها، وجاءت للسُكنَى معه في كوخ الآجر، حيث اتَّخذَت لنفسها فراشًا ثانيًا، يفصل بينه وبين فراش الكاهن ستارةً خفيفة هزلية، والأدهى من ذلك أنها شفَّافة أيضًا. في الليل، وعلى ضوء الشمعة، كانت المرأة الغاوية تمارس التدريبات مُتعلِّلة بأن التمارين تسمح لها بالنوم على نحوٍ أفضل والحفاظ على جسدها موفور الصحة. ولكن، أمن الممكن أن تُوصَف تلك الرقصة الخليقة بجناح الحريم في ألف ليلة وليلة بأنها تمارين سويدية؟ تلك الرقصة التي كانت تؤدّيها المرأة الباسكية في مكانها وهي تتمايل بخصرها وترعش كتفَيْها وتهزّ ساقَيْها وتلوِّح بذراعَيْها، فيلمحها رجل الكهنوت اللاهث من خلال الستارة الخفيفة التي تلقي عليها الشمعةُ ومضاتها وكأنه عرض يبعث على الجنون من عروض خيال الظلّ. في وقت لاحق، بعد أن يستغرق أهل ميندوسيتا في الصمت تحت وطأة النوم، كانت مايتيه أونساتيغي تبلغ من الوقاحة حدًّا يدفعها إلى السؤال بصوتٍ معسول، إذا سمعَت صرير الفراش المجاور: «أتعاني من الأرق، يا أبتِ العزيز؟».

والحقّ أن الجميلة المُفسِدة كانت تعمل اثنتي عشرة ساعة يوميًّا، فتنصرف إلى التطعيم وعلاج الجرب وتطهير المساكن الرثّة وتعريض المُسنِّين للشمس بغرض إخفاء حقيقتها. غير أنها كانت تزاول العمل بالسروال القصير، كاشفةً عن ساقَيْها وذراعَيْها وخصرها، بدعوى أنها قد ألفت تلك الثياب في الأدغال. أما الأب سيفيرينو، فظلّ يؤدِّي رسالة الكهنوت الإبداعية، وإن هزُل بشكل ملحوظ، كما أحاطَت بعينَيْه الهالات السوداء، وأصبحَت عيناه في شرود دائم بحثًا عن مايتيه أونساتيغي التي كان يراها تمرّ فينفرج فمه، ويسيل خيطٌ رفيع من الريق مُرطِّبًا شفتَيْه. في تلك الحقبة، اكتسب عادة السير

واضعًا يدَيْه في جيبَيْه ليل نهار، أما حارسة حجرة المُقدَّسات، دونيا أنخيليكا المُجهِضة السابقة، فلقد تنبَّأت بأنه سوف يبصق دماء السلّ في أي وقت.

أيخضع راعي الكنيسة لتعاويذ الاختصاصية الاجتماعية الخبيثة، أم يسمح له ترياقه بالمقاومة؟ أتفضي به الحال إلى مستشفى الأمراض العقلية؟ إلى القبر؟ بروح رياضية، تابع رعيةُ كنيسةِ ميندوسيتا ذلك الصراع وبدأوا في عقد المراهنات التي كانت تُحدَّد فيها المهلة الزمنية وتُؤخَذ مختلف الاحتمالات الحسَّاسة بعين الاعتبار: فإما تحمل المرأةُ الباسكية بذرةَ الكاهن، وإما يقتلها رجل تشيريمويو حتى يقتل الغواية، وإما يهجر رداء الكهنوت ويتزوَّجها. بَيْد أن الحياة قد تكفَّلَت بهزيمة الجميع بورقة لعبٍ تحمل علامة، بطبيعة الحال.

أطلق الأب سيفيرينو حملةً نشيطة للعودة إلى الحياة المُشترَكة في ميندوسيتا - مُختبَر التجارب المسيحية الحقيقي - مُتعلِّلًا بضرورة العودة إلى كنيسة العهد الأول، كنيسة الأناجيل الطاهرة البسيطة، عندما كان جميع المُؤمنين يعيشون معًا، ويقتسمون حوائجهم. نادى بضرورة انصهار الأزواج في مجموعات مُؤلَّفة من خمسة عشر أو عشرين عضوًا، يتقاسمون العمل والمعيشة والواجبات المنزلية ويسكنون معًا في بيوت مُعَدّة لإيواء خلايا الحياة الاجتماعية الجديدة التي من شأنها أن تحلّ محلّ العلاقة الزوجية التقليدية. قدَّم الأب سيفيرينو نموذجًا، فعمل على توسعة الكوخ، وأنزل فيه حارسَي حجرة المُقدَّسات: الرقيب السابق ليتوما، والمُجهِضة السابقة دونيا أنخيليكا، فضلًا عن الاختصاصية الاجتماعية. كان ذلك المجتمع المُصغَّر هو الأول من نوعه في ميندوسيتا، النموذج الذي يجب إنشاء سائر المجتمعات المُصغَّرة أسوةً به.

قضى الأب سيفيرينو بإقامة المساواة الأكثر ديمقراطية بين

الأعضاء من الجنس الواحد في كل مجتمع كاثوليكي مُصغَّر، وبضرورة رفع الكلفة في الحديث بين الرجال من جهة، وبين النساء من جهة أخرى، وإن أوصى الإناث بمخاطبة الذكور مع حفظ الألقاب ومحاولة الامتناع عن النظر إلى عيونهم دليلًا على الاحترام، حتى لا تُنسَى الاختلافات التي وضعها الرَّبُ بين النساء والرجال من حيث العضلات والذكاء وسلامة الإدراك. أما مهمات الطهي والكنس وجلب الماء من الصنبور وقتل الصراصير والجرذان وغسيل الثياب وغير ذلك من الأنشطة المنزلية، فيتولَّاها الأعضاء بالتناوب. وأما النقود التي يجنيها كل عضو - سيان حصل عليها بطرائق صالحة أم فاسدة - فيجب إيداعها بالكامل في حساب المجتمع الذي يتولَّى إعادة توزيعها بالتساوي بعد سداد النفقات المشتركة. وفي سبيل القضاء على عادة الأسرار الآثمة، لم تعُد للمساكن جدران، كما اقتضَت الضرورةُ ممارسة جميع أنشطة الحياة على مرأى من الآخرين، بدءًا بقضاء الحاجة ووصولًا إلى الملامسة الجنسية.

ولقد أُدينَت تجربة المجتمعات المُصغَّرة المسيحية التي عفا عليها الزمن قبل أن تجتاح قوات الجيش والشرطة حيَّ ميندوسيتا، في تشكيلات سينمائية، مُسلَّحة بالبنادق وقذائف البازوكا ومُزوَّدة بالأقنعة الواقية من الغاز؛ وأُدينَت قبل شنّ هذه الغارة التي حبسَت رجال الحيّ ونساءه في الثكنات على مدى أيام طوال، لا بسبب ما كانوا عليه حقًّا آنذاك أو في الماضي (لصوصًا، ومشاغبين، وعاهرات)، بل لأنهم مُخرِّبون ومُنشَقّون؛ كما أُدينَت قبل أن يقف الأب سيفيرينو أمام المحكمة العسكرية بتهمة إنشاء نقطة انطلاق للشيوعية مُتحامِيًا في رداء الكهنوت (التهمة التي برَّأته المحكمة منها بفضل مساعي حاميته، المليونيرة مايتيه أونساتيغي). إذ أدانَتها هيئة الكنيسة القضائية، طبعًا (في الإنذار شديد اللهجة رقم مئتين وثلاثة وثلاثين)،

ووصفَتها بأنها مريبة من حيث النظرية وطائشة من حيث التطبيق (الرأي الذي أثبتَت الحوادث صحته، آه!). ولكن الإدانة القصوى جاءت من طباع رجال ميندوسيتا ونسائها، لأنهم كانوا يعانون حساسية ملحوظة من السمة الجماعية. كانت المشكلة الأولى تكمن في المعاملات الجنسية. ذلك أن المهاجع الجماعية، حيث تراصَّت الأفرشة بعضها بجوار بعض، قد شهدَت، بواعزٍ من الظلام، اللمسات الأشدّ توهّجًا والمناوشات المنوية والاحتكاكات، فضلًا عن وقائع صريحة كالاغتصاب واللواط والحبل، ما أدَّى إلى مضاعفة جرائم الغيرة. أما المشكلة الثانية، فكانت تكمن في السرقات: لأن المعايشة، بدلًا من القضاء على شهوة التملُّك، أدَّت إلى تفاقمها حدَّ الجنون، فشرع كل جار يسرق جاره ويسلبه حتى البخار العفن الخارج مع أنفاسه. أما المُساكَنة، فبدلًا من مؤاخاة أهل ميندوسيتا، زرعَت بينهم العداوة حدَّ الموت. في تلك الحقبة التي سادَتها الفوضى والجنون، أعلنَت الاختصاصية الاجتماعية (مايتيه أونساتيغي؟) أنها حبلى، فأقرّ الرقيب السابق بأبوّة الطفل. وبعينَيْن دامعتَيْن، بارك الأبُّ سيفيرينو ذلك الرباط الذي نشأ بفضل اختراعاته الاجتماعية-الكاثوليكية. (يُقال إنه، منذ ذلك الحين، قد درج على النحيب في الليل وهو يتغنَّى بالمرثيات للقمر).

ولكنه سرعان ما اضطُرّ إلى مواجهة كارثة أسوأ من فقدان المرأة الباسكية التي لم يتمكَّن من امتلاكها قطّ: إذ وصل إلى ميندوسيتا مُنافسٌ بارز، هو الراعي الإنجيلي دُوُن سِباستيان بيرغوا. كان رجلًا في مقتبل العمر لم يزَل، رياضي المظهر، قوي العضد، ما كاد يصل حتى عقد العزم على أن يكسب حيّ ميندوسيتا كاملًا، بمن فيه كاهن الأبرشية الكاثوليكي ومساعديه الثلاثة، إلى صفّ الدين الحقّ - المُصلَح - في غضون ستة أشهر. كان دُوُن سِباستيان يمتلك السبُل

التي سمحَت له بأن يترك أثرًا قويًّا في نفوس الجيران (علمًا أنه، قبل رسامته راعيًا للكنيسة. . . هل كان طبيبَ نساء من أصحاب الملايين؟): وهكذا ابتنى لنفسه بيتًا من الطوب، ليعطي بذلك أهلَ الحيّ عملًا سخيّ الأجر، ثم بدأ يُقدِّم ما أطلَق عليه **الفطور الديني**، ذلك الفطور المجاني الذي كان يقدِّمه لمن يحضرون عظاته عن الكتاب المُقدَّس ويحفظون ترانيم بعينها. وقع أهل ميندوسيتا في غواية الفصاحة وصوت مُغنِّي الباريتون، أو لعلّهم وقعوا في غواية القهوة بالحليب والخبز والمقالي، فبدأوا يهجرون الآجر الكاثوليكي من أجل الطوب الإنجيلي.

وبطبيعة الحال، لجأ الأب سيفيرينو إلى الوعظ المُسلَّح، فتحدَّى دُوُن سِباستيان بيرغوا حتى يُثبِتا مَن منهما كاهن الرَّب الحقيقي عن طريق اللكمات. ولمَّا كان الوهن قد أصابه من فرط ما عكف على ممارسة عادة أونان الاستمنائية التي سمحَت له بمقاومة إغواءات الشيطان، سقط رجل تشيريمويو مغشيًا عليه مع ثاني لكمة تلقَّاها من دُوُن سِباستيان بيرغوا الذي كان يفرد ساعةً للجمباز والملاكمة كل يوم على مدى عشرين عامًا (في نادي رِميخيوس الرياضي بسان إسيدرو؟). لم يستحوذ اليأس على الأب سيفيرينو بسبب أنفه المُهشَّم وأسنانه القواطع التي فقد منها اثنتَيْن، بل لأنه قد تجرَّع مذلة الهزيمة بسلاحه، وأدرك أنه يخسر رعيته لحساب غريمه يومًا بعد يوم.

ولكن رجل تشيريمويو - كما هو دأب أصحاب الجرأة الذين يزيدون جسارة في وجه الخطر ويعملون بالمَثَل القائل إن «للداء الشديد، دواء أشدّ» - مضى إلى كوخ الآجر ذات يوم، مُحمَّلًا بصفائح ملأى بسائل أخفاه عن أعين الفضوليين، في غموض (ولكن أي أنف حسَّاس كان ليميِّز رائحة الكيروسين). في تلك الليلة، وبينما الجميع نيام، سدّ الأبُّ سيفيرينو ورفيقه الأمين ليتوما أبوابَ

البيت المُشيَّد بالطوب ونوافذه من الخارج، بالألواح الخشبية السميكة والمسامير الغليظة. كان دُوُن سِباستيان بيرغوا مُستغرِقًا في نوم العادلين، يحلم بابن شقيق له وقع في زنى المحارم ثم ندم لأنه وصم أخته بالعار فانتهَت به الحال وقد صار كاهنًا من أتباع البابا في واحد من أحياء ليما العشوائية: أتراه حيّ ميندوسيتا؟ لم يتمكَّن دُوُن سِباستيان بيرغوا من سماع ضربات المطرقة التي سدَّدها ليتوما جاعلًا من المعبد الإنجيلي مصيدة فئران، لأن القابلة السابقة دونيا أنخيليكا قد ناولَته شربةً مُخدِّرةً قوية، نزولًا عند أوامر الأب سيرافينو. ولما سُدَّت منافذ الإرسالية، مضى رجل تيشريمويو يسكب الكيروسين بنفسه. ثم أضرم عود ثقاب وهو يرسم علامة الصليب. همَّ بإلقائه، ولكن شيئًا حمله على التردُّد. رآه الرقيب السابق ليتوما، والاختصاصية الاجتماعية، والمُجهِضة السابقة، وكلاب ميندوسيتا... رأوه طويلًا نحيلًا تحت النجوم، مُعذَّب العينَيْن، وعود الثقاب بين أصابعه، رأوه مُرتابًا لا يدري إن كان يجدر به أن يُضرِم النار في العدو.

أيفعلها؟ أيلقي الأب سيفيرينو أوانكا لايبا عود الثقاب؟ أيجعل ليلَ ميندوسيتا جحيمًا مُستعِرًا؟ أيضيِّع بذلك حياةً كاملةً كرَّسها للدين والمصلحة العامة؟ أم يفتح باب البيت المُشيَّد بالطوب، ويدهس بقدمه الشعلة الصغيرة التي أحرقَت أظافره، حتى يطلب المغفرة من الراعي الإنجيلي جاثيًا على ركبتَيْه؟ كيف تنتهي تلك الحكاية، حكاية العشوائيات؟

١٥

لم يكُن خابيير أول من حدَّثتُهم عن التقدُّم للزواج بالخالة خوليا، وإنما ابنة خالي نانسي، التي اتَّصلتُ بها عقب الحديث الذي دار بيني وبين الخالة خوليا عَبْر التليفون، وعرضتُ عليها أن نذهب إلى السينما. وإن ذهبنا في الواقع إلى مقهى وحانة إل پاتيو، الواقعة بشارع سان مارتين، في ميرافلوريس، حيث يلتقي بحكم العادة أولئك المصارعون الذين كان يستقدمهم إلى ليما ماكس أغيرّي، مُتعهِّد لونا پارك. شغلَت الحانة بيتًا صغيرًا من طابق واحد، صُمِّم ليكون سكنًا للطبقة المُتوسِّطة التي ضاقَت بتحويله إلى حانة بصورة ملحوظة، ولمَّا خلا المكان من الناس آنذاك، تسنَّى لنا أن نتجاذب أطراف الحديث في هدوء، بينما رحتُ أرتشف قهوتي العاشرة في ذلك اليوم، ومضَت نانسي الصغيرة تتناول الكوكاكولا.

ما كدنا نجلس حتى بدأتُ أقلِّب في ذهني طرائق ألطِّف بها من وقع الخبر على نانسي، ولكنها هي التي بادرَت بذكر مُستجدَّات الأخبار. عشية البارحة، عُقِد في بيت الخالة أورتينسيا لقاء حضرَته دزينة من الأقرباء لمناقشة **المسألة**. وهناك، تقرَّر أن يطلب الخال لوتشو وزوجته أولغا من الخالة خوليا أن تعود إلى بوليفيا.

– «يفعلون ذلك من أجلك»، أوضحَت لي نانسي الصغيرة. «يبدو أن والدك قد استشاط غضبًا، فكتب رسالة مُروِّعة».

الآن صار الخالان خورخي ولوتشو، اللذان أحبَّاني كثيرًا، يشعران بالقلق من العقاب الذي ربما أنزله بي والدي. ولقد خطر لهما أنه، لو رحلَت الخالة خوليا قبل وصوله إلى ليما، لهدأ وبات أخفَّ صرامة.

- «الحقّ أن تلك الأمور لم تعُد ذات أهمية الآن»، قلتُ لها مُعتدًّا بذاتي. «لأنني طلبتُ من الخالة خوليا أن تتزوَّجني».

جاءت ردة فعلها كاريكاتورية، لافتة للأنظار، تليق بالأفلام: إذ غصَّت بالكوكاكولا التي كانت تشربها، وأصابتها نوبة سعال مهينة بصدق، وامتلأت عيناها بالدموع.

- «دعي عنك حركات المُهرِّجين، أيتها البلهاء»، انتهرتُها بغضب عارم. «أنا في حاجة إلى مساعدتك».

- «لم يكُن حديثك هو السبب، بل إنني غصصتُ بالمشروب»، تلعثمَت ابنة خالي وهي ما زالت تجفِّف عينَيْها وتتنحنح. وما هي إلَّا ثوانٍ حتى أردفَت خافضةً صوتها: «ولكنك ما زلتَ طفلًا. هل تملك النقود اللازمة للزواج؟ وماذا عن أبيك؟ سوف يقتلك!».

غير أنها راحت تمطرني بالأسئلة في الوقت نفسه، وقد غلبها فضولها المُروِّع، مستفهمةً عن تفاصيل لم يتَّسع وقتي للتفكير فيها: وهل قبلَت خوليتا؟ هل نلوذ بالهرب؟ مَن يشهد على الزواج؟ لا يمكننا الزواج في الكنيسة لأنها مُطلَّقة، أليس كذلك؟ وأين نعيش؟

- «ولكن، يا ماريتو...»، قالت أخيرًا، بعد شلَّال الأسئلة، وأعربَت عن دهشتها مُجدَّدًا. «ألا تدرك أنك في الثامنة عشرة من العمر؟».

انطلقَت ضاحكة، وانطلقتُ ضاحكًا بدوري. قلتُ لها إنها ربما كانت مُحِقّة، ولكن ما يعنيني الآن أن تساعدني على تنفيذ مشروعي.

لقد تربَّينا وخضنا كثيرًا من الأمور معًا، فنشأت بيننا مودة جارفة، وكنتُ أعرف أنها سوف تقف إلى جانبي في أي حال من الأحوال.

- «بالطبع، لو طلبتَ مني ذلك لساعدتُك، وإن كنتُ أساعدك على ارتكاب أفعال مجنونة، وقُتِلتُ معك»، قالت لي أخيرًا. «بالمناسبة، هل فكَّرتَ في ردة فعل العائلة لو أنك تزوَّجتَ حقًّا؟».

وبمزاج رائق جدًّا، أمضينا بعض الوقت ونحن نلعب لعبة «ماذا يقول ويفعل الأخوال والخالات وأبناؤهم وبناتهم متى بلغهم الخبر؟».

ستبكي الخالة أورتينسيا، بينما تذهب الخالة خيسوس إلى الكنيسة، ويصيح الخال خابيير صيحته المعهودة: «يا للخزي!». أما أصغر أبناء الأخوال، خايميتو الذي يبلغ من العمر ثلاثة أعوام ويلثغ في نطقه، فمن شأنه أن يسأل: «ما الزواج يا ماما؟».

انتهَت بنا الحال إلى القهقهة، بضحكة عصبية جعلَت النُدُل يحضرون للتحقُّق من المزحة. وعندما هدأنا، وافقَت نانسي الصغيرة على أن تغدو جاسوستنا، فتخبرنا بكل تحرُّكات العائلة ومكائدها. لم أدرِ كم يومًا تقتضي الإعدادات، وكنتُ في حاجة إلى الوقوف على ما يدبِّر له الأقرباء. ومن جهة أخرى، وافقَت على أن تكون مرسالًا بيني وبين الخالة خوليا، وأن تصحبها إلى الخارج بين الحين والآخر حتى أتمكَّن من لقائها.

- «أوكي، أوكي»، أومأت نانسي. «سأكون جنيتكم. ولكني آمل أن تعاملاني بالمثل إن دعَت الحاجة يومًا».

وبينما نحن في الشارع، نمشي في اتجاه بيتها، رفعَت ابنة خالي يدها إلى رأسها:

- «ما أحسن حظك»، قالت مُتذكِّرةً. «يمكنني الحصول على ما ينقصك تحديدًا: شقة في بناء بشارع پورتا، لها حجرة واحدة ومطبخ

صغير وحمام، في غاية الجمال، وكأنها لعبة صغيرة. وإيجارها خمسمئة صول في الشهر فقط لا غير».

خلَت الشقة من ساكنيها قبل أيام، فعرضَتها صديقتها للإيجار. قالت إن في إمكانها التحدُّث إلى تلك الصديقة. أدهشني الحسّ العملي الذي تحلَّت به ابنة خالي، القادرة على التفكير في المشكلة التي كانت تواجهنا على أرض الواقع في تلك اللحظة، السكن، بينما كنتُ أنا شاردًا في الأجواء الرومانسية للمشكلة. ومن جهة أخرى، كان مبلغ الخمسمئة صول في متناول يدي. ما عاد يعوزني الآن إلَّا كسب المزيد من النقود «من أجل الرفاهيات»، (على نحو ما كان يقول جدّي). لم أفكِّر في الأمر مرتَيْن، بل طلبتُ منها أن تخبر صديقتها بأن لديها مُستأجِرًا.

تركتُ نانسي، ثم هرولتُ إلى بنسيون خابيير بجادة بينتي أوتشو دي خوليو، فوجدتُ البيت معتمًا، ولم تواتِني الجرأة على إيقاظ المالكة حادة المزاج. تملَّكني إحباط عظيم، إذ كنتُ في حاجة إلى البوح بمشروعي الكبير لأعزّ أصدقائي، والاستماع إلى نصائحه. في تلك الليلة، تخلَّلَت نومي الكوابيس المفزعة. تناولتُ الفطور فجرًا بصحبة جدّي، الذي طالما استيقظ مع أولى خيوط الضوء، وهرولتُ إلى البنسيون، حيث وجدتُ خابيير في طريقه إلى الخروج. مشينا صوب جادة لاركو حتى نستقلّ سيارة أجرة مشتركة إلى ليما. كان قد استمع إلى حلقة كاملة من أحد مسلسلات بِدرو كاماتشو الإذاعية عشية البارحة، لأول مرة في حياته، برفقة مالكة البنسيون ونزلاء آخرين، فتأثَّرَ بها كثيرًا.

- «الحقّ أن رفيقك بِدرو كاماتشو قادر على أي شيء!»، قال لي. «أتدري ماذا جرى بالأمس؟ المسلسل عن بنسيون عتيق بليما، تملكه عائلة آتية من الجبال ضاقت بها الحال. كانوا يتناولون الغداء

ويتجاذبون أطراف الحديث، وإذا بزلزال يضرب المكان. جاءَت الصرخات وأصوات الزجاج والأبواب المرتجفة في غاية الإتقان، حتى إنها جعلَتنا نهبّ واقفين، بينما انطلقَت السيدة غارسيا مهرولةً إلى الحديقة. . . ».

تخيَّلتُ الطاحون البارع وهو يطلق الغطيطَ مُقلِّدًا أصداء الأرض السحيقة، ويهزّ الخشاخيش ويفرك كريَّات الزجاج بعضها ببعضٍ قرب الميكروفون مُقلِّدًا رقصة أبنية ليما وبيوتها، ويهشِّم الجوز بقدمه أو يضرب الأحجار بعضها ببعض مُقلِّدًا صوت الأسقف والجدران المُتشقِّقة والأدراج المُتصدِّعة المتهاوية، بينما استحوذ الخوف على خوسيفينا ولوسيانو وباقي المُمثِّلين الذين راحوا يبتهلون ويصرخون ألمًا ويستغيثون تحت نظرات پدرو كاماتشو الرقيبة.

– «ولكن الزلزال أهون ما في الأمر»، قاطع خابيير حديثي عندما رحتُ أخبره بمهارات الطاحون. «الأدهى أن البنسيون قد انهار، ولقي الجميع مصرعهم تحت الأنقاض. لم ينجُ منهم ولو شخص واحد، صدَّقتَ أم لم تصدِّق! إن المُؤلِّف القادر على قتل جميع شخصيات القصة في هزة أرضية واحدة يستحقّ الاحترام».

كنا قد بلغنا موقف سيارات الأجرة المشتركة، فلم يسعني الاحتمال أكثر مما احتملت، وأخبرتُه في أربع كلمات بما جرى عشية البارحة، وبالقرار المصيري الذي اتَّخذتُه، فتظاهر بأنه لم يُفاجأ:

– «حسنًا، أنت أيضًا قادر على أي شيء»، قال، وهو يهزّ رأسه بشفقة. وما هي إلَّا لحظة حتى أردف سائلًا: «هل أنت مُتأكِّد من رغبتك في الزواج؟».

– «لم يسبق لي أن تأكَّدتُ من شيء بهذا القدر في حياتي»، قلتُ جازمًا.

وفي تلك اللحظة، صار الأمر حقيقة. عشية البارحة، عندما طلبتُ يد الخالة خوليا، كنت أشعر وكأنه شيء يفتقر إلى التبصُّر، مُجرَّد كلام، يكاد يكون مزحة. أما الآن، وبعد أن تحدَّثتُ إلى نانسي، فلقد شعرتُ بثقة كبيرة. بدا لي أنني أعلن عن قرار لا رجعة فيه، بعد طول تأمُّل.

- «الحقّ أن أفعالك المجنونة سوف تزجّ بي في السجن»، عقَّب خابيير مُسلِّمًا أمره، في سيارة الأجرة المشتركة. وبعد أن قطعنا عددًا من المربعات السكنية، وبلغنا جادة خابيير پرادو، أردف قائلًا:

- «أمامك وقت قصير، ما دام خالك وزوجته قد طلبا من خوليتا أن تغادر، فلا يمكنها البقاء معهما أيامًا كثيرة. ولا بد من تنفيذ العملية قبل أن يصل «الغول»، فلو جاء والدك لأصبح الأمر عسيرًا».

لزمنا الصمت لبعض الوقت، في حين مضَت سيارة الأجرة المشتركة تقف على كل ناصية بجادة أريكيپا، فتترك الركَّاب أو تُقلِّهم. مررنا أمام مدرسة رايموندي، فاستأنف خابيير الحديث، وقد استحوذَت عليه المشكلة تمامًا:

- «سوف تعوزك النقود. ماذا أنت فاعل؟».

- «سأطلب دفعةً مُقدَّمة من راتبي في الراديو، وأبيع كل أغراضي القديمة، الثياب والكتب، وسأرهن آلتي الكاتبة وساعتي... كل ما يمكن رهنه. ثم أبدأ في البحث عن أعمال أخرى كالمجنون».

- «حتى أنا أستطيع رهن بضعة أشياء، مذياعي وأقلامي وساعتي، علمًا أنها ساعة ذهبية»، قال خابيير، الذي أغمض عينَيْه نصف إغماضة ومضى يحسب ويعدّ على أصابعه: «أستطيع أن أقرضك ما يقرب من ألف صول، على ما أعتقد».

ودَّع كلٌّ منا الآخر في ميدان سان مارتين، واتَّفقنا على اللقاء

ظهرًا بعلّيتي في پانامريكانا. شعرتُ بتحسُّن بعد الحديث إليه، فوصلتُ إلى المكتب رائق المزاج، في غاية التفاؤل. طالعتُ الصحف، وانتقيتُ منها الأخبار. وللمرة الثانية، وجد پاسكوال وپابليتو الكبير نشرات الأخبار الأولى مُعدَّة بالفعل عند وصولهما. كان كلاهما هناك حين اتَّصلَت الخالة خوليا، مع الأسف، وأفسدا عليَّ الاتصال، إذ لم تواتِني الجرأة على إخبارها بأنني قد تحدَّثتُ إلى نانسي وخابيير في حضورهما.

- «لا بدّ أن ألقاكِ اليوم، وإن اقتصر اللقاء على بضع دقائق»، طلبتُ منها. «كل شيء يسير على ما يُرام».

- «لقد سقطَت روحي المعنوية في الحضيض فجأة»، قالت الخالة خوليا. «أنا التي كنتُ أبتسم في وجه الأوقات العصيبة دائمًا، أشعر الآن بأنني في حالة يُرثَى لها».

كان لديها سبب وجيه لتحضر إلى وسط ليما من دون إثارة الشبهات حول مجيئها: حجز تذكرة طيران إلى مدينة لا پاس في مكاتب خطوط الطيران لويد آيريو بوليفيانو. قالت إنها ستمرّ بالراديو قرب الثالثة. لا هي ولا أنا أتينا على ذكر موضوع الزواج، ولكن الإنصات إليها وهي تتكلَّم عن الطائرات أصابني بالغمّ. ما كدتُ أضع سماعة التليفون حتى ذهبت إلى مجلس بلدية ليما للتحقُّق من متطلبات الزواج المدني. كان أحد زملائي يعمل هناك، فأجرى التحرّيات اللازمة من أجلي، ظنًّا بأنها لقريبي الذي ينوي الزواج بأجنبية مُطلَّقة. أشعرَتني المتطلبات بالقلق، فيجب على الخالة خوليا أن تقدِّم شهادة ميلادها وحكم الطلاق مُصدَّقًا من وزارتَي الخارجية البوليفية والبيروفية معًا. أما أنا، فيجب عليَّ تقديم شهادة ميلادي. ولكن، مع الأخذ في الاعتبار أنني لم أبلغ سنّ الرشد بعد، فأنا في حاجة إلى تصريح مُوثَّق من والدَيّ يسمح لي بعقد الزواج، أو «إخلاء

سبيلي» بإقرار منهما أمام قاضي الأحداث (أي الإقرار بأنني شخص بالغ). وكلاهما احتمال مُستبعَد.

خرجتُ من مجلس البلدية وأنا أجري حساباتي: لو فرضنا أن الأوراق بحوزة الخالة خوليا في ليما، فمن شأن التصديق عليها وحده أن يستغرق أسابيع. أما لو لم تكُن الأوراق بحوزتها، واضطُرَّت إلى استخراجها من مجلس البلدية ودار القضاء في بوليفيا، لاستغرق ذلك شهورًا. وماذا عن شهادة ميلادي؟ وُلِدتُ في أريكيپا، ولو كاتبتُ أحد الأقرباء هناك طالبًا منه أن يرسلها، لاستغرق الأمر بعض الوقت (وصار محفوفًا بالمخاطر أيضًا). ظهرَت أمامي المصاعب واحدًا تلو الآخر كالتحدّيات. غير أنها، بدلًا من إقناعي بالعدول عن قراري، جعلَته أشدّ رسوخًا (وأنا العنيد منذ طفولتي). وبينما كنتُ في منتصف الطريق إلى الراديو، بجوار لا پرِنسا، بدَّلتُ مساري فجأة، في ومضة من الإلهام. وفي ما يشبه العدو، توجَّهتُ إلى المنتزه الجامعي الذي وصلتُ إليه وأنا أتصبَّب عرقًا. وفي أمانة كلية الحقوق، استقبلَتني السيدة ريوفريو، المُكلَّفة بإبلاغنا بالدرجات، وعلى وجهها التعبير الأمومي المعهود. أصغَت إليَّ مفعمةً بالطيبة بينما رحتُ أروي لها تلك القصة المُعقَّدة عن الإجراءات القانونية العاجلة والفرصة الفريدة للحصول على عمل من شأنه أن يساعدني على سداد نفقات الدراسة.

- «ممنوع بمقتضى اللائحة»، قالت ممتعضة، وهي تنهض بإنسانيتها الوديعة من المكتب الذي أكلَته العثّة، ثم ذهبَت معي إلى الأرشيف. «تستغلّونني لأن لي قلبًا طيبًا. ذات يوم، سأفقد عملي بسبب هذه الخدمات، ولن يحرِّك أحدُكم إصبعًا من أجلي».

وبينما راحت تنقِّب في سجلَّات الطلَّاب، وتثير سحبًا صغيرة من الغبار جعلَتنا نعطس، قلتُ لها إنها لو فقدَت عملها يومًا،

لأضربَت الكلية. وأخيرًا عثَرت على السجلّ الخاص بي، الذي حوى شهادة ميلادي بالفعل. حذَّرَتني بقولها إنها سوف تعيرني الشهادة نصف ساعة وحسب. لم تكُن بي حاجة إلى أكثر من خمس عشرة دقيقة لأصنع نسختَيْن في المكتبة الواقعة بشارع أسانغارو ثم أردّ واحدة منهما للسيدة ريوفريو. وصلتُ إلى الراديو جذِلًا، وأنا أشعر بقدرتي على سحق جميع التنانين التي تعترض سبيلي.

كنتُ جالسًا إلى مكتبي، بعد أن حرَّرت نشرتَي أخبار أخريين وأجريت لقاءً من أجل برنامج پانامريكانو مع غاوتشو غيرّيرو (عدَّاء المسافات الطويلة الأرجنتيني المُتجنِّس بالجنسية البيروفية، الذي أمضى حياته في ضرب الأرقام القياسية التي يحقِّقها بنفسه. كان يعدو حول أحد الميادين ليل نهار، ويمتلك القدرة على تناول الطعام والحلاقة والكتابة والنوم في أثناء العدو). مضيتُ أحلّ رموز بعض التفاصيل الكامنة خلف الديباجة البيروقراطية في شهادة ميلادي - وُلِدتُ في بوليبارد پارَّا، فذهب جدّي وخالي ألِخاندرو إلى مجلس البلدية لتسجيل وصولي إلى العالَم - وفيما أنا على تلك الحال، دلف پاسكوال وپابليتو الكبير إلى العلّية، وشتَّتا ذهني. أقبلا وهما يتكلَّمان عن حريق، ويضحكان على آهات الضحايا الذين التهمَتهم النيران. حاولتُ الاستمرار في قراءة شهادة الميلاد المبهمة، ولكن التعقيبات التي أدلى بها مُحرِّراي قد صرفَت ذهني مرة أخرى، إذ راحا يتكلَّمان عن احتراق رجال الحرس المدني بقسم شرطة كاياو الذي رشّه مُشعِلُ حرائق مجنون بالبنزين، وظهور جثامين الجميع مُتفحِّمة، بدءًا برئيس القسم ووصولًا إلى المُخبِر الأخير، وحتى الكلب.

- «فاتني هذا الخبر مع أنني طالعتُ جميع الصحف، أين قرأتماه؟»، سألتُهما، وقلتُ لپاسكوال: «أحذِّرك من أن تفرد جميع نشرات اليوم للحريق»، ثم قلتُ لهما: «يا لكما من ساديَّيْن!».

- «ليس خبرًا، بل إنه مسلسل الحادية عشرة الإذاعي»، أوضح لي پابليتو الكبير. «إنها قصة الرقيب ليتوما، مُرعِب مجرمي كاياو».

- «حتى هو تفحَّم كالشواء»، انضمّ پاسكوال إلى الحديث. «أُتيحَت له فرصة الخلاص، لأنه كان في دورية، غير أنه عاد لإنقاذ قائده. لقد أودى به قلبه الطيب».

- «لم يعُد لإنقاذ القائد، وإنما الكلبة تشوكليتو»، تدارك پابليتو الكبير.

- «ذلك شيء لم يتَّضح قطّ»، قال پاسكوال. «لقد سقط عليه أحد قضبان الزنزانة. لو أنك رأيتَ دون پِدرو كاماتشو وهو يحترق. يا له من مُمثِّل قدير!».

- «وما قولك في الطاحون!»، تحمَّس پابليتو الكبير بسخاء. «لو أقسموا لي إن تقليد صوت الحريق بإصبعَيْن شيء ممكن، ما صدَّقت. ولكني رأيتُه بهاتين العينَيْن يا دون ماريو!».

قطع وصولُ خابيير المحادثة، فذهبنا لتناول القهوة المعهودة بمقهى برانسا، حيث أوجزتُ له تحرّياتي، وأطلعتُه على شهادة ميلادي بانتصار.

- «لقد فكَّرتُ في الأمر، ومن واجبي القول إن زواجك حماقة»، بادرني بقوله، شاعرًا بقليل من الضيق. «ليس لأنك طفل وحسب، ولكن مسألة النقود أهمّ من كل ما عداها. سوف ينقسم ظهرك من فرط العمل في أشياء تافهة كي تجد ما تأكله».

- «حتى أنت تكرّر عليَّ الأمور التي سوف يقولها أبي وأمي»، سخرتُ منه. «أتقول إنني سوف أقطع دراسة القانون بسبب الزواج؟ وإنني لن أصبح فقيهًا قانونيًّا كبيرًا ما حييت؟».

- «لن تجد وقتًا حتى للقراءة بسبب الزواج»، أجابني خابيير. «ولن تصبح كاتبًا أبدًا بسبب الزواج».

- «لو مضيتَ قدمًا في هذا الطريق لدبّ شجارٌ بيننا»، حذَّرتُه.

- «حسنًا، سوف أمسك لساني إذن»، ضحك. «لقد أرضيتُ ضميري، وتنبَّأتُ بالمستقبل من أجلك. الحقّ أنني كنتُ سأتزوَّج نانسي الصغيرة اليوم لو شاءت. من أين نبدأ إذن؟».

- «لا توجَد طريقة واحدة لإقناع والدَيّ بالتصريح بهذه الزيجة أو الإقرار «بإخلاء سبيلي»، كما لا يمكن لخوليا الحصول على جميع الأوراق اللازمة، ولذا فالحلّ الوحيد يكمن في العثور على عمدة طيب القلب».

- «لعلّك تعني عمدة يقبل الرشوة»، تدارك. ثم ألقى عليَّ نظرة فاحصة وكأنه يراقب خنفساء. «ولكن، مَن ذا الذي يمكنك أن ترشوه أنت أيها المفلس؟».

- «عمدة شارد، يمكن خداعه بحكاية من نسج الخيال»، أصررتُ.

- «حسنًا، فلنبدأ في البحث عن ذلك المُغفَّل الكبير المُستعِدّ لعقد قرانك بما يخالف جميع القوانين المعمول بها»، انطلق ضاحكًا مرة أخرى. «من المُؤسِف أن خوليتا مُطلَّقة، لو لم تكُن مُطلَّقة لتزوَّجتَها في الكنيسة. ذلك شيء يسير، إذ يكثُر المُغفَّلون وسط الكهنة».

لطالما رفع خابيير من روحي المعنوية. انتهَت بنا الحال إلى المزاح بشأن شهر العسل، والأتعاب التي سوف يتقاضاها مني (مُتمثِّلةً في مساعدته على اختطاف نانسي الصغيرة، طبعًا)، وأعربتُ عن أسفي لأننا لم نكُن في بيورا، حيث ما كانت تواجهنا مشكلة في العثور على المُغفَّل، لأن هرب الزوجات مع العشَّاق والأزواج مع العشيقات أمر شائع للغاية هناك. ودَّع كلٌّ منا الآخر، بعد أن تعهَّدنا

بالبحث عن عمدة بدءًا من ذلك المساء، ورهن جميع ما يمكن الاستغناء عنه من ممتلكاته للإسهام في تلك الزيجة.

كان يجب على الخالة خوليا أن تمرّ في الثالثة. غير أن الساعة أشارت إلى الثالثة والنصف، وهي لم تصل بعد، فبدأ القلق يستحوذ عليّ. في الرابعة بدأت أصابعي تتضارب على الآلة الكاتبة، ورحتُ أدخِّن بلا انقطاع. في الرابعة والنصف، سألني پابليتو الكبير إن لم أكُن بخير، لأن وجهي تراءى ممتقعًا. في الخامسة طلبتُ من پاسكوال أن يتَّصل بمنزل الخال لوتشو سائلًا عنها، فلم تكُن قد وصلَت. كما لم تصل بعد نصف ساعة. ولا في السادسة مساء، ولا في السابعة ليلًا.

بعد نشرة الأخبار الأخيرة، بقيتُ في سيارة الأجرة المشتركة حتى بلغَت جادة أرمينداريس، بدلًا من الترجُّل عنها في الشارع حيث يسكن جدّي وجدّتي. مضيتُ أحوم حول بيت الخال وزوجته، من دون أن تواتيني الجرأة على قرع الباب. من خلال النوافذ، لمحتُ زوجة خالي أولغا وهي تبدِّل ماء المزهرية. وبعد قليل، لمحتُ الخال لوتشو وهو يطفئ أنوار حجرة الطعام. طفتُ بالمربع السكني عدة مرات، وقد استحوذَت عليَّ مشاعر مُتضارِبة: قلق وغضب وحزن، ورغبة في صفع الخالة خوليا وتقبيلها.

كنتُ في نهاية إحدى جولاتي المضطربة حول البيت لمَّا رأيتُها وهي تترجَّل عن سيارة فارهة تحمل لوحة دبلوماسية. اقتربتُ بخطى واسعة، وقد تركَت مشاعر الغيرة والغضب في ساقَيّ رجفةً. عقدتُ العزم على ضرب غريمي، مهما يكُن شخصه. كان سيدًا أشيب الشعر، ومعه سيدة أخرى في السيارة. قدَّمَتني الخالة خوليا بصفتي ابن شقيق نسيبها، وقدَّمَتهما لي بصفتهما سفير بوليفيا وزوجته. انتابني شعور بالهزل والتخفُّف من عبء ثقيل في آن. غادرَت الخالة

خوليا السيارة، فأخذتُ بذراعها، وقطعتُ معها الجادة سائرًا نحو كاسر الأمواج وأنا أكاد أجرّها جرًّا.

- «يا لحدّة المزاج!»، سمعتُها تقول، ونحن نقترب من البحر. «لقد نظرتَ إلى السيد غوموسيو المسكين وكأنك تهمّ بخنقه».

- «أنتِ التي سأخنقها»، قلتُ لها. «أنتظرك منذ الثالثة، والساعة الآن الحادية عشرة ليلًا. أنسيتِ أن بيننا موعدًا؟».

- «لم أنسَ»، أجابَتني بحزم. «وإنما أخلفتُ موعدي عن عمد».

بلغنا الحديقة الصغيرة الواقعة أمام المعهد اللاهوتي للآباء اليسوعيين. خلَت الحديقة من الناس. لم يكُن المطر يتساقط. ومع ذلك، فلقد تلألأ النجيل والغار وشجيرات الغرنوقي بما علق بها من أثر الرطوبة. بينما رسم الضباب مظلّات شبحية حول المخروطات الصفراء الآتية من أعمدة الإنارة.

- «حسنًا، سوف نؤجّل هذا الشجار إلى يوم آخر»، قلتُ لها وأنا أُجلِسها على حافة كاسر الأمواج، المُطِلّ على الجرف، من حيث تصاعد هدير البحر عميقًا، مُتزامِنًا. «أمامنا الآن وقتٌ قصير، ومشكلات كثيرة. ألديكِ هنا شهادة ميلادك وحكم الطلاق؟».

- «لديّ هنا تذكرة الطيران إلى مدينة لا پاس»، قالت وهي تتلمَّس حقيبتها. «أنا راحلة يومَ الأحد، في العاشرة صباحًا. وأنا سعيدة بذلك، فلقد ضقتُ ذرعًا ببيرو وأهل بيرو».

- «أنا آسف لكِ. لا نستطيع السفر إلى بلد آخر في الوقت الحالي»، قلتُ لها وأنا أجلس بجوارها، وأطوّق كتفَيْها بذراعي. «ولكني أعدكِ بأن نذهب للعيش بحجرة علوية في باريس ذات يوم».

حتى تلك اللحظة، وعلى الرغم من الأمور العدوانية التي قالتها، كانت هادئة، ساخرة قليلًا، واثقة جدًّا من نفسها. وإذا

بتجهُّم مرير يرتسم على وجهها فجأةً، فكلَّمَتني بصوت قاسٍ، من دون أن تنظر إليّ:

- «بارغيتاس، لا تُصعِّب الأمر عليَّ. سأعود إلى بوليفيا بسبب أقربائك. أضف إلى ذلك أن ما بيننا حماقةً. تعرف تمام المعرفة أننا لا نستطيع الزواج».

- «بل نستطيع»، قلتُ وأنا أقبِّل خدَّها وعنقها، وأضمّها بقوة، وأتلمَّس نهدَيْها بنهم، مُفتِّشًا عن ثغرها بثغري. «نحن في حاجة إلى عمدة مُغفَّل. وخابيير يعمل على مساعدتي. كما عثرَت نانسي الصغيرة على شقة من أجلنا، في ميرافلوريس. لا سبب يدعو إلى التشاؤم».

سمحَت لي بتقبيلها ومداعبتها، وإن ظلَّت فاترة، في غاية الجدية. أخبرتُها بالحديث الذي جمعني بابنة خالي وخابيير، وتحرّياتي في مجلس البلدية، والطريقة التي حصلتُ بها على شهادة ميلادي. قلتُ لها إنني أحبّها من كل روحي، وإننا سوف نتزوَّج حتى لو اضطُرِرتُ إلى قتل الكثيرين في سبيل ذلك. أصررتُ على مباعدة أسنانها بلساني، فتمنَّعَت، ثم فتحَت ثغرها، وتمكَّنتُ من الولوج بلساني وتذوُّق لثتها وريقها. أحسستُ بذراعها الحرّة تطوِّق عنقي، بينما ضمَّتني الخالة خوليا إليها، وأجهشَت بالبكاء، في نحيب ارتجف له نهداها. مضيتُ أواسيها، بصوت جاء هامسًا، مُتقطِّعًا، ولم أكفّ عن تقبيلها.

- «ما زلتَ طفلًا صغيرًا»، سمعتُها تغمغم، بين ضاحكة ومُتجهِّمة، فمضيتُ أقول لها، مُنقطِع الأنفاس، إنني في حاجة إليها، وإنني أحبّها، وإنني لن أتركها تعود إلى بوليفيا أبدًا، وإنني سأنهي حياتي لو رحلَت. وأخيرًا، استأنفَت الكلام، بنبرة في غاية الخفوت، وحاولَت المزاح قائلةً:

- «"من نام على فراش واحد مع الصغار، أفاق مُبلَّلًا في كل يوم". أسمعتَ بهذا المثل؟».

- «إنه مُبتذَل، ولا يمكن التفوّه به»، أجبتُها، وأنا أجفِّف عينَيْها بشفتَيّ وأناملي. «ألديك الأوراق هنا؟ ماذا عن صديقكِ السفير، هل يمكنه التصديق عليها؟».

تمالكَت نفسها، وأمسكَت عن البكاء ناظرةً إليَّ نظرات حانية.

- «كم يدوم يا بارغيتاس؟»، سألَتني بصوت محزون. «ومتى تشعر بالسأم؟ بعد عام، عامَيْن، ثلاثة؟ في رأيك، أمن العدل أن تهجرني بعد عامَيْن أو ثلاثة، فأُضطَرّ إلى البدء من جديد؟».

- «هل يمكن للسفير أن يصدِّق عليها؟»، ألححتُ في السؤال. «لو صدَّق على الأوراق بالنيابة عن الجانب البوليفي، لصار الحصول على تصديق الجانب البيروفي يسيرًا. سأبحث عن صديقٍ بالوزارة يمكنه أن يساعدنا».

ظلَّت تراقبني، بين مُشفِقة ومُتأثِّرة، بينما الابتسامة ترتسم على وجهها شيئًا فشيئًا.

- «لو أقسمتَ لي أن تحتملني خمسة أعوام، تحبني خلالها وحدي، من دون أن تقع في غرام أخرى، فأنا موافقة»، قالت. «من أجل خمسة أعوام من السعادة، أرتكبُ هذا الجنون».

- «ألديك الأوراق؟»، سألتُها وأنا أرتِّب شعرها، وأقبِّلها. «هل يصدِّق السفير عليها؟».

كانت الأوراق بحوزتها. وبالفعل، تمكَّنا من التصديق عليها لدى سفارة بوليفيا التي ملأتها بعدد لا بأس به من الطوابع والتوقيعات مُتعدِّدة الألوان. لم تستغرق العملية أطول من نصف ساعة. ففي دبلوماسية، صدَّق السفير الحكاية التي أخبرَته بها الخالة خوليا، إذ قالت: إنها في حاجة إلى الأوراق نهارَ ذلك اليوم لإنهاء

الإجراءات التي تسمح لها بإخراج الممتلكات التي آلَت إليها بعد الطلاق من بوليفيا. كما لم نجد صعوبة في التصديق على المستندات البوليفية لدى وزير خارجية بيرو، بفضل المساعدة التي قدَّمها لي أستاذ جامعي يشغل منصب مستشار في وزارة الخارجية، اختلقتُ له مسلسلًا إذاعيًّا آخر شديد التشابك، وأخبرتُه بأن: الأوراق لسيدة مريضة سرطان، في النزع الأخير، مُضطَرّة إلى الزواج بالرجل الذي تعيش معه منذ سنين في أسرع وقت ممكن، حتى تموت والرَّب راضٍ عنها.

وهناك، في حجرة عتيقة الأخشاب من الحقبة الاستعمارية بقصر تورّي تاغلي، يشغلها شباب مُتأنِّقون، وبينما كنتُ أنتظر الموظف - الذي حثّه اتصال أستاذي على الاستعجال - بينما هو يضيف المزيد من الطوابع إلى شهادة ميلاد الخالة خوليا وحكم طلاقها، ويجمع التوقيعات المطلوبة، عند ذاك تناهى إلى سمعي خبر كارثة جديدة: حادثة غرق، شيء لا يكاد يتصوَّره المرء... سفينة إيطالية راسية في مرفأ كاياو، ملأى بالركاب والزائرين الذين كانوا يودِّعونهم، وفجأة، على عكس جميع ما يقول به العقلُ وتقضي به قوانين الفيزياء، دارت السفينة حول نفسها، وانقلبَت على الجانب الأيسر. سرعان ما غرقَت السفينة في المحيط الهادي، ولقي كل من كان على متنها حتفه، إما بالغرق، وإما بالصدمة، وإما بأسنان القروش، على نحو مدهش. كانت سيدتان تتجاذبان أطراف الحديث بجواري، بينما هما تنتظران الانتهاء من أحد الإجراءات. لم يكُن حديثهما على سبيل المزاح، بل كان في غاية الجدية.

- «وقعَت الحادثة في مسلسل إذاعي لِپدرو كاماتشو، أليس كذلك؟»، تدخَّلتُ في حديثهما.

- «في مسلسل الرابعة»، أومأت الكبرى، التي كانت امرأة نحيلة

مفعمة بالحيوية، تتكلَّم بلكنة سلافية ثقيلة. «مسلسل ألبِرتو دي كينتيروس، طبيب القلب».

- «الذي سبق له أن كان طبيب نساء في الشهر الماضي»، أدلَت شابة في مقتبل العمر بدلوها، مبتسمةً، بينما هي تكتب على الآلة الكاتبة. ثم لمسَت صدغها، في إشارة أرادت بها أن أحدهم قد جنّ جنونه.

- «ألم تسمع حلقة الأمس؟»، سألَت السيدة مرافقة الأجنبية بشفقة. كانت تضع نظارة على عينَيْها، وتتكلَّم بلكنة ليمية ثقيلة. «بينما كان دكتور كينتيروس ذاهبًا لقضاء الإجازة في تشيلي مع زوجته وابنته الصغيرة تشارو، غرق ثلاثتهم!».

- «غرقوا جميعًا»، أردفَت السيدة الأجنبية، التي توخَّت الدقة. «ابن شقيقه ريتشارد، وإليانيتا، وزوجها أنتونيس الأصهب الأبله، وحتى روبِنسيتو ابن زنى المحارم. كانوا هناك لوداعهم».

- «ولكن الطريف أن يغرق المُلازِم خايمي كونتشا أيضًا، علمًا أنه من مسلسل آخر، وأنه قد لقي مصرعه في حريق كاياو، منذ ثلاثة أيام»، تدخَّلَت مرة أخرى الفتاة التي كانت قد تركَت الآلة الكاتبة، وهي تكاد تبكي من شدّة الضحك: «لقد أصبحَت تلك المسلسلات الإذاعية مُجرَّد مزحة، ألا توافقونني الرأي؟».

ابتسم لها في وداعةٍ شاب مُتأنِّق، يبدو بمظهر المُثقَّف (المُتخصِّص في حدود الوطن)، وتفضَّل بالنظر إلينا نظرة كان لبِدرو كاماتشو كل الحقّ في نعتها بأنها أرجنتينية:

- «ألم أقُل لكِ إن تمرير الشخصيات من قصة إلى أخرى تقنية ابتكرها بلزاك؟»، قال، نافخًا صدره بحكمةٍ. ولكنه خلص إلى تلك النتيجة التي أوقعَت به: «لو علم بلزاك أنه ينتحل أسلوبه، لأرسله إلى السجن!».

- «لا تكمن المزحة في تمرير الشخصيات من مسلسل إلى آخر، بل في إقامتهم من الموت»، دافعَت الفتاة عن رأيها. «سبق أن احترق الملازم كونتشا وهو يقرأ مجلة بطوط، فكيف يموت الآن غرقًا؟».

- «لأنه رجل سيئ الحظ»، اقترح الشاب المُتأنِّق الذي جاء يحمل أوراقي.

غادرتُ سعيدًا، حاملًا الأوراق المُبارَكة التي مُسِحَت بالزيت المُقدَّس، تاركًا ورائي السيدتَيْن والسكرتيرة والدبلوماسيين الذين اندمجوا في محادثة مفعمة بالحيوية عن كاتب السيناريو البوليفي. كانت الخالة خوليا تنتظرني في أحد المقاهي. أضحكَتها القصة، إذ لم تكُن قد استمعَت إلى المزيد من برامج مُواطِنها.

وباستثناء التصديق على الأوراق، الذي اتَّضح أنه في غاية البساطة، كانت باقي الإجراءات مُحبِطة ومُرهِقة، تلك الإجراءات التي سعيتُ في قضائها خلال ذلك الأسبوع الحافل بالمساعي والتحرّيات اللامتناهية التي أنجزتُها وحدي وبرفقة خابيير في مجالس بلدية ليما. ما عدتُ ألمس أرض محطة الراديو بقدمَيّ إلَّا من أجل برنامج بانامريكانو، وتركتُ نشرات الأخبار كلها بين يدَي باسكوال، الذي استطاع أن يقدِّم إلى المستمعين وليمة حقيقية من الحوادث والجرائم وحوادث الاعتداء والاختطاف التي أراقت من الدماء على موجات راديو بانامريكانا بقدر ما أراق صديقي كاماتشو خلال الإبادة الجماعية المُمنهَجة التي راح يرتكبها ضد أبطال المسلسلات على موجات الراديو المجاور.

كنتُ أبدأ جولاتي في الصباح الباكر. ذهبتُ أولًا إلى مجالس البلدية الأكثر تهالكًا وبُعدًا في وسط المدينة، بمناطق ريماك وپوربِنير وبيتارتي وتشوريوس. في البدء كنتُ أوضح المشكلة وحمرة الخجل بادية على وجهي، ثم أصبحتُ أعرضها بسلاسة.

شرحتُها مرةً، وخمسين مرةً، للعُمَد ونوَّابهم والوكلاء والأمناء وحرَّاس الأبنية والسعاة، فكان الردّ يأتي بالرفض القاطع في كل مرة. كان حجر العثرة هو نفسه دائمًا: لا يمكنني الزواج إلَّا بتصريح مُوثَّق من والدَيّ، أو إقرار «بإخلاء سبيلي» أمام القاضي. بعد ذلك جرَّبتُ حظي في مجالس البلدية بأحياء وسط المدينة، باستثناء ميرافلوريس وسان إسيدرو (حيث يُحتمَل وجود معارف على صلة بالعائلة)، فخرجتُ بنتائج مطابقة. بعد مراجعة المستندات، كان موظفو البلدية يلقون الدعابات التي تلقَّيتُها وكأنها ركلات في المعدة: «ولكن كيف تريد الزواج بأمك؟»، «لا تكُن أبله يا فتى، لماذا تتزوَّج! رافقها وكفى». لم ألمح بصيصًا من الأمل إلَّا في مجلس بلدية سوركو، حيث أخبرنا أمينٌ مكتنز يلتقي طرفا حاجبَيْه بإمكانية ترتيب المسألة مقابل عشرة آلاف صول، «لأن الضرورة تقتضي سدّ أفواه كثيرة». حاولتُ المساومة، وعرضتُ عليه مبلغًا كان ليشقّ عليّ جمعه (خمسة آلاف صول)، فما كان من البدين إلَّا أن تراجع، وكأنما قد فزع من جرأته، وانتهَت به الحال إلى طردنا من مجلس البلدية.

كنتُ أتحدَّث إلى الخالة خوليا عَبْر التليفون مرتَيْن يوميًّا، فأخدعها زاعمًا بأن كل شيء يسير على ما يُرام. كما طلبتُ منها أن تجهِّز حقيبة يدها وتضع فيها ما لا غنى لها عنه من الأغراض، لأنني قد أقول لها «الآن!» في أي لحظة. ولكني شعرتُ بالإحباط يستحوذ عليَّ أكثر فأكثر. في ليلة الجمعة، عدتُ إلى بيت الجدّ والجدّة، فوجدتُ تلغرافًا مُرسَلًا من والدَيّ جاء فيه ما يلي: «نصل يوم الإثنين. على خطوط پاناغرا الجوية. رحلة ٥١٦».

في تلك الليلة، بعد طول تفكيرٍ وتقلُّبٍ في الفراش، أضأتُ المصباح القائم فوق الطاولة المجاورة، وكتبتُ الأشياء التي أنوي

فعلها مُرتَّبة حسب الأولوية، في دفترٍ أدوِّن فيه أفكارًا لكتابة القصص. جاء على رأس القائمة زواجي بالخالة خوليا، لأضع بذلك العائلة أمام أمر واقع قانوني يجب عليهم التسليم به، شاؤوا أم أبوا. لم تبقَ لنا إلّا أيام قليلة، ولقيتُ ممانعة شديدة من موظّفي المجالس البلدية في ليما، حتى رأيت الخيار الأول أقرب إلى اليوتوبيا. أما الخيار الثاني، فكان الهرب معها إلى الخارج. لا إلى بوليفيا. إذ ضقتُ بفكرة العيش معها في ذلك العالم حيث سبق لها أن عاشَت من دوني، وجمعَتها صلات بمعارف كثيرين، بمَن فيهم زوجها السابق نفسه. كان البلد المُرشَّح هو تشيلي. وهكذا يمكنها السفر إلى مدينة لا پاس لخداع العائلة، بينما أهرب أنا إلى تاكنا بالحافلة أو سيارة الأجرة المشتركة، فلا بدّ أن هناك طريقة لعبور الحدود إلى أريكا سرًّا. ومن هناك، أستمرُّ عن طريق البرّ وصولًا إلى سانتياغو، حيث تحضر الخالة خوليا للقائي، أو تنتظر وصولي. أما احتمال السفر والعيش من دون جواز سفر (لأنني في حاجة إلى تصريح من أبي لاستخراجه)، فلم يبدُ لي ضربًا من المحال. بل راقني الأمر، بالنظر إلى الطابع الروائي الذي اتَّسم به. وفي حال سعَت العائلة إلى البحث عني - كما هو مُؤكَّد - وحدَّدَت موقعي، وردَّتني إلى بلدي، سأهرب مُجدَّدًا، كلّما اضطُرِرتُ إلى الهرب، وأعيش على تلك الحال حتى أبلغ الحادية والعشرين، تلك السنّ المشتهاة، سنّ التحرُّر. أما الخيار الثالث، فكان الانتحار تاركًا رسالة مكتوبة بإتقان، حتى أُغرِق أقربائي في الندم.

في وقت مُبكِّر للغاية من اليوم التالي، هرولتُ إلى بنسيون خاببير. كنا نسترجع حوادث اليوم السابق في كل صباح، بينما هو يحلق ذقنه ويغتسل، ثم نُعِدّ خطة عمل من أجل اليوم. وفيما أنا جالس على المرحاض، من حيث رأيتُه يفرك وجهه بالصابون، قرأتُ

عليه محتويات الدفتر، حيث أوجزتُ الخيارات التي يتوقَّف عليها مصيري، بما جاء في الهوامش من تعقيبات. وبينما هو يشطف وجهه، مضى يتوسَّل إليَّ بلجاجةٍ، طالبًا مني إعادة ترتيب الأولويات حتى يتصدَّر الانتحار قائمتي:

- «لو انتحرتَ لصارت النفايات التي كتبتَها جديرةً بالاهتمام، ورغب أصحاب الفضول المَرَضي في قراءتها، وعند ذاك يسهل نشرها في كتاب واحد»، أخذ يقنعني وهو يجفِّف بشرته بحركة محمومة. «هكذا تغدو كاتبًا، ولو تحقَّق لك ذلك بعد الموت».

- «سوف تفوِّت عليَّ نشرة الأخبار الأولى»، رحتُ أستعجله. «دع عنك تقليد المُمثِّل كانتينفلاس، فأنا لا أرى في دعاباتك أدنى قدر من الطرافة».

- «لو انتحرتَ، لما اضطُرِرتَ إلى التغيُّب عن العمل ولا عن الجامعة كما تفعل»، استرسل خابيير وهو يرتدي ثيابه. «الأمثل أن تفعلها اليوم، هذا الصباح، الآن. وهكذا لا أُضطَرّ إلى رهن حوائجي، التي سوف تنتهي بها الحال إلى البيع في المزاد، طبعًا، وهل تُسدِّد لي القرض يومًا؟».

وفي الشارع، بينما مضينا نسرع الخطى لنستقلّ سيارة الأجرة المشتركة، أردف خابيير، وقد خُيِّل إليه أنه مُمثِّل كوميدي من الطراز الرفيع:

- «وأخيرًا، لو انتحرتَ لأصبحتَ مشهورًا، وأُجريَت اللقاءات الصحافية مع أعزّ أصدقائك، وموضع سرك، والشاهد على مأساتك، وظهرَت صوره في الصحف. وماذا عن ابنة خالك نانسي... أتظنّها لن تضعف أمام تلك الدعاية؟».

وفي المكان الذي يُسمَّى (بذلك الاسم الفظيع): صندوق

الرهونات، الواقع في ميدان أرماس، رهنّا آلَتي الكاتبة ومذياعه، ساعتي وأقلامه. وفي النهاية، أقنعتُه برهن ساعته أيضًا. ساومنا بضراوة الذئاب، غير أننا لم نحصل على أكثر من ألفَي صول. خلال الأيام السابقة، بعتُ لمتاجر الثياب المُستعمَلة في شارع لا پاس بدلات وأحذية وأقمصة وربطات عنق وكنزات، من دون أن ينتبه جدّي وجدّتي إلى ذلك، حتى كاد لا يبقى لي من الثياب إلّا ما كنتُ أرتدي آنذاك. وعلى الرغم من ذلك، فلم أجنِ من التضحية بخزانة ثيابي أكثر من أربعمئة صول. غير أنني كنتُ أحسن حظًّا مع رجل الأعمال التقدُّمي، الذي أقنعتُه، بعد نصف ساعة من الدراما، بأن يمنحني راتب أربعة شهور مُقدَّمًا، ثم يخصمها مني شيئًا فشيئًا، على مدى عام كامل. ثم شهدَت المحادثة نهاية غير مُتوقَّعة. رحتُ أقسم له إن هذه النقود من أجل عملية الفتق التي يجب أن تخضع لها جدّتي على وجه السرعة، فلم يتأثّر بقصتي. وإذا هو يقول فجأة: «حسنًا». ثم يردف بابتسامة صديقٍ قائلًا: «اعترفْ بأنك تريد النقود لإجهاض فتاة شابة». فما كان مني إلّا أن خفضتُ عينَي، مُتوسِّلًا إليه حتى يكتم السرّ.

ولمَّا رأى خابيير الكآبة التي خيَّمَت عليَّ بسبب المبلغ الزهيد الذي حصلنا عليه من صندوق الرهونات، رافقني إلى الراديو. اتفقنا على طلب الإذن من العمل حتى نذهب إلى أواتشو في المساء. ربما كانت مجالس البلدية في الأقاليم أكثر عاطفيةً. وصلتُ إلى العلّية وجرس التليفون يرنّ. كانت الخالة خوليا في حالة من الغضب العارم. عشية الأمس، حضرَت الخالة أورتينسيا والخال ألِخاندرو في زيارة إلى بيت الخال لوتشو، فلم يردّ أحدهما التحية التي بادرَت بها.

- «نظرا إلى بازدراء شديد، لم ينقصهما إلّا أن يصفاني

بالعاهرة»، أخبرَتني ساخطة. «اضطُرِرتُ إلى عضّ لساني حتى لا أقول لهما أن يذهبا إلى حيث تعلم جيدًا! ولكني سكتُّ من أجل شقيقتي، ومن أجلنا أيضًا، كيلا أعقِّد الأمور أكثر من ذلك. كيف يجري كل شيء يا بارغيتاس؟».

- «الإثنين، في الصباح الباكر»، قلتُ مُؤكِّدًا. «يجب عليكِ أن تخبريهم بأنكِ سوف تؤجِّلين السفر إلى لا پاس يومًا واحدًا. أكادُ أنتهي من إعداد كل شيء».

- «لا تشغل بالك بشأن "العمدة المُغفَّل"، فلقد تملَّكني الغضب وما عاد يهمّني. حتى إن لم تعثر عليه، سوف نهرب».

- «لماذا لا تتزوَّجان في تشينتشا يا دون ماريو؟»، سمعتُ پاسكوال يسألني، حالما وضعتُ سماعة التليفون. رأى ذهولي، فارتبك قائلًا: «لستُ نمَّامًا أو مُتطفِّلًا. ولكننا نعرف بالأمور عندما نسمع حديثكما، طبعًا. أحاول أن أساعدك. عمدة تشينتشا من أبناء خالي، وهو على استعداد لعقد الزواج في غمضة عين، سواء أكانت الأوراق مُتوفِّرة أم لم تكُن، بلغتَ سنّ الرشد أم لم تبلغ».

في اليوم نفسه، تيسَّر كل شيء بمعجزة، فذهب خابيير وپاسكوال إلى تشينتشا في المساء بسيارة أجرة مشتركة، مُحمَّلَيْن بالأوراق والتعليمات اللازمة لإعداد كل شيء بحلول الإثنين. وفي تلك الأثناء، ذهبتُ مع ابنة خالي نانسي لاستئجار شقة ميرافلوريس الصغيرة، كما طلبتُ الإذن في إجازة من الراديو لمدة ثلاثة أيام (حصلتُ عليها بعد مناقشة ملحمية خضتُها مع خينارو الأب، الذي هدَّدتُه، في طيشٍ مني، بالتخلِّي عن العمل إن هو رفض طلبي)، كما وضعتُ مُخطَّطًا للهرب من ليما. وفي ليلة السبت، عاد خابيير مُحمَّلًا بالأخبار السارة: كان العمدة رجلًا ودودًا، في مقتبل العمر، أخبره خابيير وپاسكوال بالقصة، فضحك احتفاءً بمشروع الهرب،

قائلًا: «يا للرومانسية!». كما احتفظ بالأوراق مُؤكِّدًا لهما أن هناك طريقة لحلّ معضلة موانع الزواج، على أن يظلّ الأمر بين الأصدقاء.

وفي يوم الأحد، أبلغتُ الخالة خوليا عَبْر التليفون بأنني قد عثرتُ على المُغفَّل، وبأننا سوف نهرب في الثامنة من صباح اليوم التالي، ثم نغدو زوجًا وزوجة بحلول الظهيرة.

١٦

وُلِد خواكين إنوستروسا بيلمونت - الذي أشعل ملاعب كرة القدم في وقت لاحق بتحكيم المباريات، وليس بتسجيل الأهداف أو صدّ ركلات الجزاء، ذلك الذي ترك آثارًا وديونًا في حانات ليما بعطشه إلى الكحول - في واحد من تلك البيوت التي ابتناها أصحاب النفوذ الواسع منذ ثلاثين عامًا في لا پِرلا، عندما كانوا يسعون إلى تحويل تلك الأرض البور إلى كوپاكابانا[(١)] ليما (وإن خاب مسعاهم بسبب الرطوبة التي أتلفَت الأحلاق والشعاب الهوائية وسط أبناء الطبقة الأرستقراطية في بيرو. إنه جزاء الجمل الذي يصرّ على المرور من ثقب الإبرة[(٢)]). كان خواكين ابنًا وحيدًا لأسرة موسرة، جمعَتها بنبلاء إسبانيا وفرنسا صلاتُ القرابة المُمتَدّة كغابة كثيفة الأشجار من الألقاب والشعارات. أما والدُ حَكَمِ المستقبل السكّير، فلقد نحَّى الرقوق الحافلة بألقاب النبلاء جانبًا، ونذر حياته لذلك النموذج المعاصر الذي يعنى بمضاعفة الثروة عن طريق الأنشطة التجارية، بدءًا بصناعة صوف الكشمير، وحتى زراعة الفلفل الحارق في

---

(١) كوپاكابانا: منطقة ساحلية شهيرة بمدينة ريو دي جانيرو في البرازيل. (المترجم)

(٢) إشارة إلى الآية الواردة في الكتاب المُقدَّس: «مُرُورُ جَمَلٍ مِنْ ثَقْبِ إِبْرَةٍ أَيْسَرُ مِنْ أَنْ يَدْخُلَ غَنِيٌّ إِلَى مَلَكُوتِ الله» (مرقس ١٠ : ٢٥). (المترجم)

الأمازون. أما الوالدة، تلك السيدة المصابة بتضخّم الغدد اللمفاوية، الزوجة المُضحّية من أجل الآخرين، فلقد أمضَت حياتها في إنفاق المال الذي يجنيه الزوج على الأطباء والمداوين (نظرًا إلى إصابتها بشتّى أمراض الطبقة الراقية من المجتمع). أنجبا خواكين وكلاهما في سنٍّ مُتأخِّرة بعض الشيء، بعد أن توسَّلا إلى الرَّب طويلًا حتى يهب لهما وريثًا. استقبل الأبوان مجيئه بسعادة لا تُوصَف. ومنذ كان في المهد لم يزَل، راودَتهما أحلام المستقبل الذي يغدو فيه ابنهما أميرَ الصناعة، أو ملك الزراعة، أو ساحر الدبلوماسية، أو شيطان السياسة.

ولكن، هل صار مُحكِّم كرة قدمٍ بدافع العصيان والتمرُّد على ذلك المصير المرسوم، مصير المجد المالي والوجاهة الاجتماعية، أم أنه فعل ما فعل بسبب قصور نفسي؟ لا هذا ولا ذاك، بل إن خواكين قد لبَّى نداءً أصيلًا.

بطبيعة الحال، حظي بمختلف المُربِّيات منذ كان طور الرضَّاعة، وحتى بدأ يظهر الزغب تحت أنفه، المُربِّيات اللاتي تعاقبن واحدة تلو الأخرى، واردات من بلدَيْن أجنبيَّيْن: فرنسا وإنجلترا. كما اتُّخِذ له مُعلِّمون من خيرة مدارس ليما حتى يلقِّنوه الأرقام والحروف. وعلى الرغم من ذلك، فلقد انتهَت بهم الحال جميعًا، واحدًا تلو آخر، إلى رفض الأجور الضخمة، وقد أصابهم الإحباط والهستيريا بسبب لامبالاة الطفل الوجودية أمام أي لون من ألوان المعرفة. بلغ الثامنة وهو لم يتعلَّم عمليات الجمع بعد. أما الأبجدية، فحفظ منها الحروف المُتحرِّكة بمشقَّة. ولم يمكنه إلَّا التفوّه بمقاطع صوتية منفردة. كان هادئًا، يجوب حجرات بيت لا پِرلا وقد ارتسمَت على وجهه أمارات الضجر المميت، وسط تكتُّلات من الألعاب التي جيء بها من شتّى أرجاء الكرة الأرضية لإلهائه (مكعبات من ألمانيا،

وقطارات من اليابان، وأحجيات من الصين، وجنود من النمسا، ودراجات ثلاثية الدواليب من الولايات المتحدة الأمريكية). أما الشيء الوحيد الذي بدا قادرًا على انتشاله من سباته الخليق بالبراهِمة في بعض الأحيان، فكان البطاقات الصغيرة التي تصوِّر مشاهد من كرة القدم، تلك التي جاءت مُرفَقةً بشكولاتة مار دِل سور. كان يلصقها بدفاتر مُغلَّفة ويتأمَّلها طوال ساعات وساعات، بفضول.

تملَّك الهلع أبوَيْه أمام الفكرة التي حدَّثَتهما بأن آخر أبناء السلالة مريضٌ بالهيموفيليا، معاقٌ ذهنيًّا، ومن شأنه أن يغدو مثارًا لسخرية العامة، فالتجأ الوالدان إلى العلوم. وهكذا حضر إلى لا پِرلا أطباء بارزون. ولكن نجم نجوم أطباء الأطفال بالمدينة، دكتور ألبِرتو دي كينتيروس، هو الذي أنار بصيرة الأبوَيْن المُعذَّبَيْن:

- «ابنكما مريضٌ بذلك الذي أسمّيه داء الدفيئة»، قال شارحًا. «إن الأزهار التي لا تعيش في الحديقة، وسط الأزهار والحشرات، تنمو ذابلة، وتنبعث منها الرائحة الكريهة. لقد جعله السجن الذهبي بليدًا. لا بدّ من التخلّي عن المُربِّيات والمُعلِّمين، وتسجيل الطفل في إحدى المدارس حتى يخالط أطفالًا في مثل عمره. ولسوف يغدو طبيعيًّا متى هشَّم أحد الرفاق أنفه!».

كان الزوجان المُكابِران على أهبة لتقديم أي تضحية في سبيل انتشال الطفل من البلادة، فوافقا على السماح لخواكينسيتو بالغوص في العالَم السوقي الخارجي. وبطبيعة الحال، وقع الاختيار على أغلى مدرسة في ليما، مدرسة آباء سانتا ماريا. بينما طلب الوالدان أن يُفصَّل الزي المدرسي من أجله باللون المُعتمَد، ولكن من المخمل، لئلَّا تُزال جميع الفواصل الطبقية بين ابنهما وبين سائر الطلاب.

أما وصفة الطبيب الشهير، فآتَت ثمارًا ملموسة. صحيح أن

درجات خواكين كانت استثنائية في ضعفها، إلى الحدّ الذي اضطَرّ الوالدَيْن إلى تقديم تبرُّعات (على شكل زجاج مُعشَّق مُلوَّن من أجل مصلى المدرسة، وأردية صوفية من أجل الشمامسة، ومكاتب متينة من أجل تلاميذ مدرسة المعوزين، إلى آخره)، حتى يتجاوز خواكين الامتحانات بنجاح - إنه الجشع إلى الذهب الذي أسفر عن الانشقاق الطائفي - ولكن الطفل صار اجتماعيًّا بالفعل. ومنذ ذلك الوقت فصاعِدًا، أصبح خواكين يُشاهَد سعيدًا في بعض الأحيان. في تلك الحقبة، ظهرَت عليه أولى بوادر النبوغ (الذي وصفه أبوه غير المُتفهِّم بالإعاقة الذهنية): أي الاهتمام بكرة القدم. تناهى إلى والدَيْه الخبر القائل بأن خواكين لا يكاد ينتعل حذاء كرة القدم حتى يتحوَّل الطفلُ المُتبلِّد الذي لا ينطق إلَّا بكلمات أحادية المقطع كائنًا نابضًا بالحركة، صاخبًا، فسُرّ الأبوان كثيرًا، وسرعان ما اشتريا أرضًا تجاور بيتهما الواقع في لا بِرلا لإقامة ملعب كرة قدم، بأبعاد مُعتبَرة، حيث يمكن لخواكينسيتو أن يتسلَّى كما يحلو له.

ومنذ ذلك الحين، أصبح المرء يشاهد اثني وعشرين طالبًا يترجَّلون عن حافلة سانتا ماريا بجادة پالميراس الضبابية الواقعة في لا بِرلا بعد موعد الانصراف من المدرسة. كان الطلَّاب - الذين تتبدَّل وجوههم يومًا بعد يوم، وإن ظلّ عددهم ثابتًا - يحضرون للعب كرة القدم في ملعب آل إنوستروسا بيلمونت، فتدعو الأسرةُ اللاعبين إلى الشاي والشكولاتة وحلوى الهلام وحلوى المارينغ والمُثلَّجات بعد المباراة. ولقد لذَّت للأبوَيْن الثريَّيْن رؤيةُ ابنهما الصغير خواكين لاهثًا مسرورًا في كل مساء.

لم يدرك رائد زراعة الفلفل في بيرو أن شيئًا غريبًا يجري إلَّا بعد مضي أسابيع، إذ وجد خواكينسيتو يُحكِّم المباراة مرة، واثنتين، وثلاثًا، وعشرًا. كان يركض خلف اللاعبين والصفارة في فمه،

والقبعة الواقية من أشعة الشمس على رأسه، بينما هو يحتسب الأخطاء، ويفرض ركلات الجزاء. لم يبدُ على الطفل أنه يشعر بالنقص نظرًا إلى تولّيه ذلك الدور بدلًا من اللعب. وعلى الرغم من ذلك، غضب المليونير. أيدعوهم إلى بيته، ويسمِّنهم بالحلوى، ويسمح لهم بأن يرافقوا ابنه مُرافقةَ الندِّ للندّ، فيقابلون ذلك بوقاحة ويكلِّفون خواكين بمهمة الحكم الباهتة؟ كاد يفتح أقفاص الدوبرمان ليفزع أولئك الوقحين، وإن اكتفى بنهرهم، فإذا هو يُفاجأ بالفتية يتبرَّأون من ذلك، ويقسمون إن خواكين يحكِّم المباريات لأن التحكيم يروق له. حتى إن المُتضرِّر نفسه أخذ يقسم بالرَّب وبأمه مُؤكِّدًا حديثهم. وبعد مضي بضعة أشهر، رجع الأب إلى مُفكِّرته والتقارير التي أعدّها رؤساء الخدم، فوجد نفسه وجهًا لوجه أمام الأرقام التالية: من أصلِ مئة واثنتي وثلاثين مباراة أُقيمَت على أرض ملعبه، حكَّم خواكين إنوستروسا بيلمونت مئة واثنتي وثلاثين مباراة، ولم يشارك باللعب في مباراة واحدة. تبادل الأبوان نظرةً. ولاشعوريًّا، قال كلٌّ منهما للآخر إن هناك شيئًا على غير ما يُرام: وإلَّا فكيف يكون ذلك هو الوضع الطبيعي؟ ومرة أخرى، التجأ الوالدان إلى العلوم.

استعانا بأشهر مُنجِّمي المدينة، الرجل الذي يقرأ النفوس في النجوم، وعن طريق الأبراج يداوي أرواح الزبائن (الذين كان يفضِّل أن يسمّيهم: «أصدقاءه»). إنه الأستاذ لوسيو أسيميلا، الذي أدلى بحُكْمه بعد أن كشف الطالع مرات كثيرة، واستجوب الأجسام السماوية، وتأمَّل صفحةَ القمر، فوجد الوالدان أن ذلك الحكم هو الأكثر إطراءً، وإن لم يكُن الأوفر قدرًا من الدقة.

- «على مستوى الخلية، يعرف الطفل أنه من الطبقة الأرستقراطية. ولذا لا يحتمل فكرة المساواة بينه وبين الآخرين،

وفاءً منه لأصوله العريقة»، قال شارحًا، وهو يخلع نظارته، (هل خلعها ليبدو بريق الذكاء، الذي يتجلَّى في حدقتَيْه متى أدلى بتنبُّؤاته، أشدّ سطوعًا؟). «يؤثر طفلكما التحكيم على اللعب، لأن مُحكِّم المباراة هو الآمر الناهي. أحسبتما خوانسيتو يمارس الرياضة في ذلك المستطيل الأخضر؟ خطأ، خطأ. بل إنه يشبع شهوةً مُتوارَثة، شهوة السيطرة والتفرُّد والتميُّز الطبقي الذي يجري في دمائه، بلا أدنى شكّ».

وبينما هو يغصّ بالبكاء من فرط السعادة، كاد الأبُّ يخنق ابنه بالقبلات، مُعترِفًا بأنه رجل مُبارَك، كما أضاف صفرًا إلى أتعاب الأستاذ أسيميلا، التي كانت سخية بالفعل. اقتنع بأن هوس خواكين بتحكيم مباريات كرة القدم التي يلعبها رفاقُه ناشئ عن زخم جارف يدفع الابن إلى الخيلاء والاستبداد اللذين سوف يجعلانه مالكً العالَم في المستقبل (أو مالك بيرو، في أسوأ الأحوال). وهكذا بات رجل الصناعة يهجر مكتبه مُتعدِّد الأغراض في كثير من الأمسيات ليحضر إلى إستاد لا بِرلا الخاص - مدفوعًا بضَعفِ الأسد الذي تفيض من عينَيْه الدموع إذا رأى الشبل يفتك بأول حملٍ له - مُتذوِّقًا تلك اللذّة في أبوية، بينما هو يشاهد خواكين وقد ارتدى الزيّ الجميل الذي أهداه إياه، وراح يطلق الصفير راكضًا وراء فوضى الأوغاد (أتراه يعني اللاعبين؟).

وبعد مضي عشرة أعوام، لم يجد الأبوان اللذان اختلط عليهما الأمر بُدًّا من الشروع في القول بأن تلك النبُّؤات الفلكية ربما كانت مغالية في التفاؤل. بلغ خواكين إنوستروسا بيلمونت الثامنة عشرة من العمر، ووصل إلى العام الأخير من المرحلة الثانوية بعد الزملاء الذين بدأ الدراسة معهم بأعوام. بل إنه لم يصل إلَّا بفضل أعمال الأسرة الخيرية. أما جينات فاتِح العالَم التي قال عنها لوسيو أسيميلا

إنها مُموَّهة بتلك النزوة البريئة التي تدفعه إلى تحكيم مباريات كرة القدم، فلم يبدُ لها أدنى أثر في أي مكان. وإنما تجلّى بوضوح مُروِّع أن سليل الأرستقراطيين كارثةٌ مُحقَّقة في كل شيء، عدا احتساب الركلات الحرة. كان مُعدَّل ذكائه، بالحكم على ما يتفوَّه به من أشياء، يضعه في مرتبةٍ تقع بين المُتخلِّفين عقليًّا والقِرَدة، من الناحية الداروينية. أما افتقاره إلى النباهة والطموحات والاهتمام بكل شيء سوى تحكيم المباريات المحموم، فجعل منه كائنًا سمجًا بحقّ.

وعلى الرغم من ذلك، فالحقّ أن الفتى قد أظهر ما يستحقّ أن يُسمَّى بالموهبة في إطار آفته الأولى (إذ كان الكحول آفته الثانية)، فاكتسب وجاهةً وسط مُعلِّمي مدرسة سانتا ماريا وطلَّابها بسبب حياده الوحشي في تحكيم مباريات كرة القدم (في مساحة الملعب **المُقدَّسة**، وفي وقت التنافس **الساحر**؟)، فضلًا عن بصره الثاقب الذي كان يسمح له بأن يكشف عن الركلة الماكرة التي يُسدِّدها لاعبُ الدفاع إلى ساق قلبِ الهجوم، أو ضربة المرفق اللئيمة التي يوجِّهها لاعبُ الجناح إلى حارس المرمى الذي يقفز معه في الهواء، من أي مسافة أو زاوية، كالصقر المُحلِّق فوق السحاب إذا لمح الجرذ الذي سوف يتناوله على الغداء تحت شجرة الخروب. أما معرفته التامة بكل قواعد التحكيم، وحدسه السديد الذي ملأ به الفراغات في القواعد بسرعة البرق، فكان كلاهما خارقًا للمألوف. تجاوزَت شهرته أسوار سانتا ماريا، فبدأ أرستقراطي لا بِرلا يحكِّم المنافسات التي تُقام بين المدارس، وبطولات الحيّ. وذات يوم (في ملعب پوتاو؟)، ذاع الخبر القائل بأن خواكين قد حلّ بديلًا لحكم آخر في واحدة من مباريات دوري الدرجة الثانية.

ولمَّا تخرَّج من المدرسة، واجه الأبوان الحائران مشكلة: مستقبل خواكين. استُبعِدَت فكرة التحاقه بالجامعة، في أسى،

لتجنيب الفتى مشاعر النقص والإهانات التي لا نفع يُرتجَى من ورائها، وإعفاء ثروة الأسرة من نزيف جديد على شكل المزيد من التبرُّعات. أما محاولة تعليمه لغات أجنبية، فلقد باءت بفشل ذريع. إذ قضى خواكين عامًا في الولايات المتحدة، وعامًا في فرنسا، فلم يتعلَّم كلمة واحدة بالإنجليزية أو الفرنسية، وإنما أصيبَت لغته الإسبانية بداء السُّلّ، مع العلم أنها كانت كسيحة من الأساس. ثم عاد إلى ليما، فاستقرّ صانع صوف الكشمير على تسليم أمره، وتقبَّل ألَّا يفتخر ابنه بشهادة واحدة. ملأت خيبةُ الرجاء نفسَ الأب، وحمل ابنه على العمل في شبكات شركات العائلة المُتداخِلة، ما أفضى إلى نتائج كارثية، كالمُتوقَّع، ففي غضون عامَيْن أسفر تدخُّل خواكين أو تقاعسه عن إفلاسِ اثنين من مصانع الغزل، وعجزٍ في موازنة أكثر شركات المجموعة ازدهارًا (شركة المقاولات المُتخصِّصة في إنشاء الطرق). أما مزارع الفلفل القائمة في الأدغال، فمنها ما أتَت عليه الآفات، ومنها ما جرفَته الانهيارات الأرضية، ومنها ما أغرقَته الفيضانات (ما أكَّد أن خواكينسيتو يجلب النحس أيضًا). مذهولًا من افتقار ابنه الهائل إلى الكفاءة، مجروحًا في شعوره بحبّ الذات، فقد الأب طاقته وتحوَّل إلى العدميّة وأهمل تجارته التي سرعان ما استنزفها الوكلاء الجشعون، كما لازمَته حركةٌ لاإرادية أصبحَت مثارًا للسخرية، إذ بات يُخرِج لسانه مُحاوِلًا لعق أذنه (هل كان يأتي بتلك الحركة وهو لا يدري؟). وعلى خطى زوجته، أوقعه التوتُّر والأرق في أيدي علماء النفس وأطباء النفس (ألبِرتو دي كينتيروس؟ لوسيو أسيميلا؟)، الذين سرعان ما انتبهوا إلى بقايا العقل والثروة التي ما زالَت في حوزته.

لم يصل خواكين إنوستروسا بيلمونت إلى مشارف الانتحار بسبب الخراب الاقتصادي والانهيار العقلي الذي أصاب والدَيْه.

لطالما عاش في لا پِرلا، في ذلك المسكن الشبحي الذي بهت طلاؤه وزحف إليه الصدأ وخلا من ساكنيه واجتاحَته القذارة والعناكب وفقد الحدائق وملعب كرة القدم (لسداد الديون). صار الشاب يمضي يومه في تحكيم مباريات الشوارع التي ينظِّمها صعاليك الحي، في الأراضي الخلاء الفاصلة بين بيّابيستا ولا پِرلا. وفي مباراة خاضها الصعاليك الفوضويّون على قارعة الطريق العمومية، واستُخدِم فيها حجران لترسيم حدود المرمى فضلًا عن نافذة وعمود إنارة لترسيم حدود الملعب، تلك المباراة التي حكمها خواكين - الأمير الأنيق الذي يرتدي ثياب السهر لتناول العشاء في الأدغال البكر - وكأنها نهائي بطولة، تعرَّف سليل الأرستقراطيين بتلك التي سوف تجعل منه نجمًا، ومريضًا بتليُّف الكبد: ساريتا أوانكا سالابيريا؟

سبق له أن رآها عدة مرات وهي تلعب في مباريات العامة، كما احتسب عليها أخطاء كثيرة بسبب العنف الذي تنقّض به على الخصم. قيل عنها إنها فتاة مسترجلة، ولكن حتى ذلك القول ما كان ليحدوه إلى التفكير بأن هذا الفتى المراهق ذا البشرة الضاربة إلى الصفرة، الذي ينتعل الحذاء العتيق ويرتدي الجينز والكنزة البالية، كان في واقع الأمر امرأة. بَيْد أنه اكتشف بطريقة إيروتيكية، فذات يوم، احتسب عليها خطأ لا جدال فيه (بعد أن أحرزَت المسترجلة هدفًا بركلة سدَّدَتها إلى الكرة وحارس المرمى معًا)، فراحت تلعن أمه.

- «ماذا قلت؟»، استشاط سليل الأرستقراطيين غضبًا (أتراه مضى يتساءل إن كانت أمه تتناول قرصًا أو تتذوّق دواء الشرب أو تتحمَّل وخزة الإبرة في تلك اللحظات؟). «كرِّر ما قلتَ لو كنتَ رجلًا!».

- «لستُ رجلًا، ولكن هأنذا أكرِّر ما قلت»، أجابت المسترجلة،

ثم راحت تلعن أمَّه مرة أخرى وقد أثرَت شتائمها بصفات القاع السوقية، إنها الكرامة الإسبرطية التي تجعل المرء يمضي إلى المحرقة كيلا يتراجع عما بدر منه.

حاول خواكين أن يكيل لها لكمةً، فلم تجد قبضته مُستقرًّا سوى الهواء. وما هي إلَّا لحظة حتى وجد نفسه طريحًا على الأرض، مُتأثِّرًا بضربة رأس تلقَّاها من المسترجلة التي انهالَت عليه ضربًا باليدَيْن والقدمَيْن والركبتَيْن والمرفقَيْن. وهناك، في ذلك الالتحام الرياضي الذي انتهى بعناق الحبّ، اكتشف - منصعقًا، شبقًا، قاذفًا - أن خصمه امرأة. أما الإثارة التي أسفرَت عنها اشتباكات الملاكمة، وتلك النتوءات غير المُتوقَّعة في جسد الخصم، فكان لها أثر بالغ الشدة، إلى الحدّ الذي غيَّر حياته. وهناك، تصالحا بعد خصام، وعرف أنها تُدعَى ساريتا أوانكا سالابيريا، فدعاها إلى السينما لمشاهدة طرزان، وما هو إلَّا أسبوع حتى عرض عليها الزواج. أبَت ساريتا أن تكون زوجته، بل إنها لم تسمح له حتى بأن يقبِّلها، الرفض الذي أفضى بخواكين إلى الحانات، كما جرَت العادة. وبعد زمن قصير، صار مدمن كحول ميؤوسًا منه، قادرًا على إطفاء عطشه الإفريقي بالكيروسين، بعد أن كان رومانسيًّا يُخفِّف أحزانه بالويسكي. ما الشيء الذي أيقظ في نفس خواكين ذلك الشغف بساريتا أوانكا سالابيريا؟ كانت شابة، ولاعبة كرة قدم لا بأس بها، لها قوام رشيق يليق بالديكة، وبشرة لفحها العراء، وخصلات تتراقص على جبينها. أما بالحكم على ما ترتدي من الثياب وما تفعل من الأشياء ومَن ترافق من الناس، فلم تبدُ راضية عن كونها امرأة. أيُحتمَل أن يكون ذلك - أي الولع بالأصالة، والهوس بغرابة الأطوار - ما جعلها على تلك الدرجة من الجاذبية في عينَي الأرستقراطي؟ يومَ اصطحب المرأةَ المسترجلة إلى بيتِ لا بِرلا

الخرِب لأول مرة، وبعد أن غادر برفقتها، نظر أبواه بعضهما إلى بعضٍ نظرة اشمئزاز. وأودع الرجلُ الثري السابق مرارة روحه في عبارةٍ واحدة: «لم نُربِّ ابنًا غبيًا وحسب، بل إنه مُنحرِف جنسيًّا أيضًا».

ومع أن ساريتا أوانكا سالابيريا هي التي حملَت خواكين على إدمان الكحول، فلقد كانت هي المنصة التي ارتقَت به من مباريات كرة القماش المُقامة في الشوارع إلى بطولات الإستاد الوطني.

لم تكتفِ المسترجلة بالإعراض عن شغف الأرستقراطي، وإنما وجدَت لذَّةً في تعذيبه: فكانت تسمح له بدعوتها إلى السينما ومباريات كرة القدم ومصارعة الثيران والمطاعم، وتتقبَّل هداياه الثمينة (هل أهدر العاشق أنقاض الميراث العائلي على تلك الهدايا؟). ومع ذلك، لم تسمح لخواكين بالتحدُّث إليها عن الحبّ، فهو لا يكاد يحاول أن يفضي إليها بمدى الحبّ الذي يشعر به نحوها، مُتلعثِمًا، بخفرِ الصبي الذي يتورَّد وجهه إذا تغزَّل بزهرةٍ، حتى تهبّ ساريتا أوانكا سالابيريا واقفةً، بغضبٍ عارم، وتجرحه بشتائم مقذعة تليق بحيّ باخو إل پوينتي، وتأمر بالمغادرة. عند ذاك بدأ خواكين يعاقر الشراب، مُتنقِّلًا من حانة إلى أخرى، مازجًا صنوف الكحول حتى يتوصَّل إلى مفعول سريع مُتفجِّر. وفي مشهد مُتكرِّر، كان أبوه وأمه يشاهدانه عائدًا إلى البيت في ساعات البوم الليلي، مُتجاوِزًا حجرات بيت لا پِرلا، مُترنِّحًا، تاركًا خلفه أثرًا من القيء. كان يبدو أنه على وشك الذوبان في الكحول، وإذا باتصال من ساريتا يبعث فيه الحياة، فيمنِّي نفسه بآمال جديدة، وتتكرَّر الدورة الجهنمية من جديد. قوَّضَت المرارةُ الرجلَ صاحب الحركة اللاإرادية، والمرأة المُوسوَسة بالأمراض، فقضيا نحبهما في الوقت نفسه تقريبًا، ودُفِنا في ضريح بمقابر پرِسبيتيرو مايسترو. أما بيت لا

بِرلا المُتضائِل، وباقي أملاك العائلة التي نجَت حتى الآن، فمنها ما آل إلى الدائنين، ومنها ما حجزَت عليه الدولة. وعند ذاك اضطُرّ خواكين إنوستروسا بيلمونت إلى كسب القوت بنفسه.

ومع الأخذ في الاعتبار الشخص محلّ الاعتبار (الذي كان ماضيه يؤكِّد بكل وضوح أنه إما يقضي نحبه من فرط الهزال وإما تنتهي به الحال إلى التسوُّل)، فلقد أبلى بلاءً أحسن من المُتوقَّع. وما المهنة التي وقع اختياره عليها؟ حكم كرة قدم! نخزه الجوع والشوق إلى الاستمرار في تدليل ساريتا المُراوِغة، فبدأ يطلب بعض النقود من الصعاليك الذين يطلبون منه تحكيم مبارياتهم. رآهم يعطونه ما طلب بالتقاسم في ما بينهم - مجموع اثنين واثنين أربعة، ومجموع أربعة واثنين ستة - فأخذ يرفع أتعابه ويدير شؤونه بطريقة أفضل. ولمَّا اشتهرَت مواهبه في الملعب، فلقد حصل على عقود للتحكيم في منافسات الناشئين. وذات يوم، واتَته الجرأة على التقدُّم إلى اتحاد حكام كرة القدم ومُدرِّبيها، طالبًا الانضمام إليه. نجح في الامتحانات بنبوغ دوَّخ أولئك الذين أصبح في وسعه أن يسمِّيهم زملاءه منذ ذلك الحين (على سبيل الزهو؟).

أما ظهور خواكين إنوستروسا بيلمونت في إستاد خوسيه دياس الوطني - بالزيّ الأسود ذي الخيوط البيضاء، والقبعة الخضراء على جبينه، والصفارة المُفضَّضة بين شفتَيْه - فكان حدثًا مشهودًا في كرة القدم المحلية، بل إن صحافيًّا رياضيًّا واسع الخبرة قال إن: «العدل الذي لا يلين والإلهام الفني قد نزلا إلى أرض الملاعب معه». سرعان ما نال شعبيةً بفضل السمات التي ميَّزَته: أي الاستقامة والحياد والسرعة في اكتشاف الأخطاء والبراعة في احتسابها والسلطة (التي جعلَت اللاعبين يخاطبونه بلقب دُون وهم ينظرون إلى الأرض دائمًا)، أضف إلى ذلك اللياقة البدنية التي كانت تسمح له بالركض

طوال دقائق المباراة التسعين من دون أن يبعُد عن الكرة أكثر من عشرة أمتار قطّ. وحسبما قيل في خطاب، كان هو الحكم الوحيد الذي لم يعصَ له اللاعبون أمرًا أو يتعدَّ عليه المشاهدون يومًا، الوحيد الذي كانت تقابله المُدرَّجات بالتصفيق بعد كل مباراة.

هل كان الفضل في تلك المواهب والجهود يعود إلى الوعي المهني المرهف وحسب؟ كان ذلك سببًا إضافيًّا. أما السبب الدفين في نفس خواكين إنوستروسا بيلمونت، فيكمن في محاولته الفوز بإعجاب الفتاة المسترجلة بسحره في التحكيم (وكأنه سرّ الفتى الذي يعيش مُنغَّصًا على الرغم من الانتصارات الكبرى التي يحقِّقها في أوروبا، لأن ما يصبو إليه تصفيق أبناء قريته الصغيرة في جبال الأنديز). استمرّ كلاهما في اللقاء، بصفة شبه يومية، فزعمَت الألسنة النمامة السليطة بأنهما عشيقان، وإن لم يتمكَّن الحَكَم في التغلُّب على مقاومة ساريتا في واقع الأمر، برغم العناد العاطفي الذي لم يتزعزع بمضي الأعوام.

ذات يوم، بعد أن انتشلَته ساريتا من مكانه على أرضية الحانة التي سقط فيها طريحًا بمنطقة كاياو، ومضَت به إلى البنسيون حيث أقام بوسط المدينة، ونظَّفَته من لطخ البصاق ونشارة الخشب، وأرقدَته في الفراش، باحَت إليه بسرٍّ حياتها. وهكذا عرف خواكين إنوستروسا بيلمونت - الذي شحب وجهه كمَن تلقَّى قبلةً من مصاص الدماء - بأمر الحبّ الملعون وزلزال الزواج الذي تعرَّضَت له الفتاة وهي في طور الشباب الأول. عرف أن علاقة عشق مأساوية قد نشأت بالفعل بين ساريتا وبين شقيقها (ريتشارد؟)، وأفضى إلى الحَمْل (كما تنهمر شلالات النار وتتساقط أمطار السمّ فوق البشرية). بدهاء، تزوَّجَت بالرجل الذي كانت ترفضه في ما سبق (أنتونيس الأصهب؟ لويس مارّوكين؟)، حتى يرث ابن زنى المحارم لقبَ عائلةٍ

طاهر. وعلى الرغم من ذلك، اكتشف الزوج الشاب السعيد حيلتها في الوقت المناسب - كما يتسلَّل ذيل الشيطان إلى القِدْر مُفسِدًا الكعك - فما كان منه إلَّا أن نبذ المحتالةَ التي أرادَت إيهامه بأن ذلك الابن له، مع أنه لغيره. اضطُرَّت إلى الإجهاض اضطرارًا، فولَّت ساريتا هاربة من عائلتها العريقة وحيّها السكني ولقب عائلتها الرنَّان. ولمَّا تشرَّدَت وسكنَت الأراضي الخلاء في بيابيستا ولا پِرلا، اكتسبَت لقبَ الفتاة المسترجلة وشخصيتها، فأقسمَت منذ ذلك الحين على ألَّا تسلِّم نفسها لرجال آخرين، وعلى أن تعيش ذَكَرًا إلى الأبد على كل الأصعدة العملية (باستثناء - آهٍ! - الصعيد المنوي؟).

تكشَّفَت له مأساة ساريتا أوانكا سالابيريا بما تخلَّلها من انتهاك للمُقدَّسات وخرق للمحظورات وإخلال بالأعراف المدنية والوصايا الدينية، فلم يقضِ ذلك على شغفه بها، وإنما زاده قوة على قوة. وهكذا فكَّر رجل لا پِرلا في علاج الفتاة المسترجلة من صدماتها، ومصالحتها على المجتمع والرجال. أرادها أن تعود أنثى ليمية، مُدلَّلة، حاذقة، طريفة، مثل لا پيرّيتشولي؟

وبينما كان يشتهر أكثر فأكثر، ويزيد الإقبال عليه لتحكيم المباريات الدولية في ليما والخارج، ويتلقَّى عروضًا للعمل في المكسيك والبرازيل وكولومبيا وفنزويلا، العروض التي كان يرفضها في كل مرة - بوطنية الحكيم الذي يرفض كمبيوترات نيويورك حتى يستمرّ في إجراء التجارب على الفئران المصابة بالسلّ في كلية طبّ سان فرناندو المحلية - مضى يُحكِم حصاره على قلب المرأة التي وقعَت في زنى المحارم.

تراءى له أنه قد لمح بوادر حدَّثَته بأن استسلام ساريتا أوانكا سالابيريا أمرٌ ممكن (كما تُلمَح الإشارات التي ترسلها قبائل الأباتشي بالدخان على التلال، وكما يُسمَع قرع الطبول في الغابة الإفريقية)،

فذات مساء، بعد تناول القهوة والكرواسون في مقهى هايتي بميدان أرماس، تمكَّن خواكين من استبقاء يمين الفتاة بين يدَيْه لأكثر من دقيقة (الوقت الذي احتسبه رأس الحكم بدقة). وبعد زمن قصير، أُقيمَت مباراة خاضها المنتخب الوطني في مواجهة عصابة مِن القَتَلة القادمين مِن بلد مغمور - الأرجنتين، أو شيء من هذا القبيل؟ - جاء أفرادها للعب وقد انتعلوا الأحذية المُدرَّعة بالمسامير، ووضعوا على ركبهم ومرافقهم واقيات كانت في حقيقة الأمر أسلحة تهدف إلى إصابة الخصم بجراح غائرة. لم يلقِ بالًا إلى الحجج (الصحيحة) التي دفعوا بها قائلين إن العادة في بلدهم تقضي بلعب كرة القدم بتلك الطريقة - أتتساوى بذلك كرة القدم والتعذيب والجريمة في هذا البلد؟ - وإنما راح خواكين إنوستروسا بيلمونت يطردهم من الملعب واحدًا تلو آخر، حتى انتهَت المباراة بفوز المنتخب البيروفي فوزًا تقنيًّا، لعدم وجود منافسين، فخرج الحكم محمولًا على أكتاف الجماهير، بطبيعة الحال. ولمَّا انفرد بها في وقت لاحق، طوَّقَت ساريتا أوانكا سالابيريا عنقه بذراعَيْها، وقبَّلَته (أتراها فورة من الوطنية البيروفية؟ أم الحماسة الرياضية؟). وما كاد يمرض (بداء التليُّف الكتوم الذي أخذ يحجِّر كبدَ رجل الملاعب، وبدأ يصيبه بأزمات صحية منتظمة)، حتى شملَته بالعناية، ولم تبرح مكانها بجواره طوال الأسبوع الذي قضاه في مستشفى كاريون. ذات ليلة، رآها خواكين وهي تذرف بعض الدموع (مِن أجله؟). شجَّعه الأمر برمّته، فراح يطلب منها الزواج كل يوم، بحجج مُتجدِّدة. ولكن سدى. حضرَت ساريتا أوانكا سالابيريا جميع المباريات التي كان «يقودها» بنفسه (وهو الذي قارن الصحافيون بين تحكيمه وبين قيادة الأوركسترا)، كما رافقَته خارج البلاد، بل إنها انتقلَت إلى بنسيون كولونيال الذي أقام فيه خواكين مع شقيقته عازفة البيانو وأبوَيْه

المُسنَّيْن. وعلى الرغم من ذلك، رفضَت أن تنزع سمة العفاف عن تلك الصلة الأخوية، وأن تصبح لذَّةً حميمية. وتحت وطأة الريب - زهرة الأقحوان التي تتساقط بتلاتها فلا تنتهي أبدًا - تفاقم إدمان خواكين إنوستروسا بيلمونت على الكحول، حتى أصبح يُشاهَد مخمورًا أكثر مما يُشاهَد واعيًا.

كان الكحول هو كعب أخيل الذي قوَّض حياته المهنية، وحجر العثرة الذي منعه من التحكيم في مباريات أوروبا، حسبما قال العارفون بالأمور. ولكن، من جهة أخرى، كيف يمكن تفسير قدرة رجلٍ يعاقر الخمر مثلما يفعل خواكين على ممارسة مهنة تقتضي لياقة بدنيةً عالية بقدر ما يتطلَّب التحكيم؟ في الواقع، عكف خواكين إنوستروسا بيلمونت على الأمرَيْن في آن واحد، فتزامن كلاهما بدءًا من سنّ الثلاثين، في لغز من تلك الألغاز التي يزخر بها التاريخ: إذ بدأ يحكم المباريات مخمورًا، غارقًا حتى أذنَيْه في الشراب، ثم يواصل التحكيم في خياله بالحانات.

لم ينتقص الكحول من موهبته: فلا شوَّش بصره ولا أضعف سلطته ولا عطَّل مسيرته. وإن شُوهِد في بعض المرات مصابًا بنوبة من الفواق والمباراة في أوجها. كما أكَّد القائلون إنه أحسّ بعطش صحراوي ذات مرة، فما كان منه إلَّا أن انتزع قارورة المُطهِّر من المُمرِّض الذي كان يركض لإسعاف أحد اللاعبين، وشربها كالماء المنعش (في واحدة من الافتراءات التي تعكِّر صفو الهواء وتطعن في الفضيلة). ولكن تلك الأمور - أو النوادر الغرائبية، أو الخرافات التي تحوم حول النبوغ - لم تعطِّل مسيرته الحافلة بالنجاحات.

وهكذا، وسط تصفيق الملاعب المُدوِّي، ونوبات السُّكْر التي أراد بها التخفيف من حدّة شعوره بالندم الذي كان ينخر في روح المُبشِّرِ بالإيمان الحقيقي (إيمان شهود يهوه؟) - وكأنها الكُلَّابة التي

يغرزها مُحقِّق محكمة التفتيش في اللحم، أو مخلعة التعذيب التي تفكِّك العظام - لأنه قد اغتصب فتاة قاصرًا (ساريتا أوانكا سالابيريا؟)، في لا بيكتوريا، ذات ليلة مجنونة من ليالي الشباب، من دون سابق تفكير. . . وفيما هو على تلك الحال، بلغ خواكين إنوستروسا بيلمونت زهرة العمر: الخمسين. كان رجلًا ذا جبين عريض وأنف معقوف ونظرة ثاقبة وروح مستقيمة صالحة، وصل إلى قمة المجال الذي كان يشتغل به.

وفي ظلِّ هذه الأوضاع، شاءت الحال أن تكون ليما مسرحًا لأهم لقاء كروي في منتصف القرن: نهائي بطولة أمريكا الجنوبية الذي أُقيم بين منتخبَي بوليفيا وبيرو، بعد أن أحرز كلٌّ منهما وابلًا مُخزِيًا من الأهداف في شباك غريمه خلال دور نصف النهائي. كان اختيار حكم من بلد محايد لإدارة المباراة أمرًا يُوصَى به، كما جرَت العادة. وعلى الرغم من ذلك، فلقد طالب المنتخبان، ولا سيما المنتخب الأجنبي (بشهامة أهل ألتيپلانو، ونُبْل ساكني الأنديز، وشرف شعوب أيمارا الأصلية)، بأن يكون خواكين إنوستروسا مارّوكين الشهير هو حكم المباراة. ولمَّا هدَّد اللاعبون والبُدلاء والمُدرِّبون بالإضراب إن لم يُقابَل طلبهم بالموافقة، فلقد نزل الاتحاد عند رغبتهم، وعُهِد إلى شاهِدِ يَهْوَه بمهمة تحكيم تلك المباراة التي تنبَّأ لها الجميع بأن تكون مشهودة.

في ذلك الأحد، انقشعَت غيوم ليما الرمادية العنيدة حتى تلهب الشمسُ ذلك اللقاء. كما بات كثير من الناس ليلتهم في العراء، على أمل الحصول على تذاكر دخول (وإن كان من المعروف أنها قد نفدَت منذ شهر مضى). ومنذ مطلع الفجر، صار محيط الإستاد الوطني بأسره يهدر بحشود تبحث عن بائعي تذاكر السوق السوداء، على استعداد لارتكاب أي جريمة في سبيل حضور المباراة. وقبل بدء

المباراة بساعتَيْن، لم يعُد الإستاد يتَّسع لإبرة واحدة. وصل إلى ليما بضع مئات من مواطني البلد الجنوبي الكبير (بوليفيا؟)، قادمين من مرتفعاتهم ذات الهواء النقي بالطائرات أو بالسيارات أو سيرًا على الأقدام، وتركَّزوا في المُدرَّج الشرقي. أما هتافات وصياحات الزائرين والسكان الأصليين، فأشعلَت الأجواء ترقُّبًا لوصول الفريقَيْن.

وأمام ضخامة الحشد الشعبي، عملَت السلطات على اتّخاذ التدابير اللازمة، فجيء إلى مدينة ليما بأشهر فرق الحرس المدني، التي سبق أن طهَّرَت كاياو من المجرمين والمشاغبين في شهور قليلة - بتفانٍ، وبطولة، وبسالة، ورقيّ - لضمان الأمن والتعايش المُتحضِّر في الملعب والمدرجات. أما قائد الفرقة، الرقيب ليتوما الشهير، مرعب المجرمين، فراح يذرع الإستاد بخطى محمومة، ويتفقَّد الأبواب والشوارع المجاورة، مُتحقِّقًا من التزام الدوريات بمواقعها، مُدليًا بتعليمات ملهمة إلى معاونه المُحنَّك، المُلازِم خايمي كونتشا.

وبانطلاق صفارة البداية، كان قد استقرّ في المُدرَّج الغربي كلٌّ من ساريتا أوانكا سالابيريا - التي لم تفوِّت مباراة واحدة من مباريات خواكين، بمازوخية الضحية التي تعيش حياتها مُتعلِّقة بالمُغتصِب -، ودُوُن سِباستيان بيرغوا المُوقَّر، الذي قام في الآونة الأخيرة من فراش الألم، بعد أن لزمه مُتأثِّرًا بالطعنات التي تلقَّاها على يدَي مندوب المبيعات الطبية لويس مارّوكين بيلمونت (أهو الذي كان حاضرًا في المدرج الشمالي من الإستاد، بتصريح خاص جدًّا من إدارة السجون؟)، كما حضرَت زوجته مارغاريتا، وابنته روسا التي تعافَت تمامًا من عضَّات قطيع الجرذان الذي هاجمها (آهٍ، يا لفَجْر الأدغال المشؤوم!). في حين أصيبوا جميعًا بالرضوض، وكادَت تنقطع أنفاسهم وسط الزحام الهادر.

ولكن شيئًا لم يكُن ينذر بالمأساة الوشيكة حين أعلن خواكين إنوستروسا (تِيّو؟ دلفين؟) عن بدء المباراة، بما له من وسامة ورشاقة، بعد أن أُرغِم على الطواف بالملعب في جولة أوليمبية امتنانًا للتصفيق الذي قوبِل به، كما جرَت العادة. بل إن كل شيء جرى في أجواء مفعمة بالحماسة والمروءة: تصرّفات اللاعبين، وتصفيق المُشجّعين احتفاءً بركلات المهاجمين وتصدّيات حراس المرمى. ومن اللحظة الأولى، ظهر بوضوح أن التنبّؤات سوف تتحقّق: إذ بدا اللعب مُتكافِئًا وعادلًا على الرغم من خشونته. كان خواكين إنوستروسا (أبريل؟) أكثر إبداعًا من أي وقتٍ مضى، فانطلق يتزلّج على النجيل وكأنه ينتعل الزلّاجات، من دون أن يعترض طريق اللاعبين، بل إنه كان يقف في أفضل الزوايا دائمًا. أما قراراته المنصفة على صرامتها، فلقد حالَت دون سقوط المباراة في منحدر العنف، وسط ذلك اللهيب الذي من شأنه أن يحوِّل المنافسة إلى معركة. ولأن الإنسان محدود، لم يكُن أحدٌ - ولا حتى قديس من شهود يَهْوَه - قادرًا على صدِّ القَدَر عن تحقيق ما رسَم بلامبالاة الحواة وبرود الإنجليز.

في الشوط الثاني، بينما الفريقان متعادلان بهدفٍ مقابل هدف، وبعد أن بُحَّت أصوات الجماهير والتهبَت أيديهم، بدأت الآليةُ الجهنمية في العمل على نحوٍ لا رادّ له. في حين مضى الرقيب ليتوما والملازم كونتشا يقولان لنفسَيْهما، بسذاجةٍ، إن كل شيء يسير على ما يرام: إذ لم تنغِّص المساء حادثةٌ واحدة، فلا وقعَت سرقة، ولا دبّ شجار، ولا فُقِد طفلٌ.

ولكن، في الرابعة وثلاث عشرة دقيقة، عرف الخمسون ألف مُتفرِّج ما الخارق للمألوف: فمن الركن الأشدّ اختلاطًا في المدرج الجنوبي، انبثق فجأةً رجلٌ - أسود، نحيل، مفرط الطول، له

سنٌّ واحدة بارزة - وإذا هو يتسلَّق السياج بخفَّة، ويقتحم الملعب مُطلِقًا صرخات عصية على الفهم. لم يُفاجأ الناس برؤيته عاريًا إلَّا من قطعة القماش المُتدلِّية من خصره بقدر ما فوجئوا بجسده الذي امتلأ بالندوب من رأسه حتى قدمَيْه. وإذا بصيحة هلع تزلزل المدرجات، فلقد أدرك الجميع أن الرجل الموشوم يسعى إلى قتل الحكم. لم يكُن هنالك مُتَّسع للشك: إذ انطلق العملاق الصارخ مباشرةً نحو معبود هواة كرة القدم (غومِرسيندو إنوستروسا دلفين؟)، الذي لم يرَه، وإنما ظلَّ مُستغرِقًا في فنونه، مُستمِرًا في تحكيم المباراة.

من كان المُعتدِي الوشيك؟ أيُحتمَل أن يكون هو المُتسلِّل الذي وصل إلى كاياو في ملابسات غامضة، ثم ضبطَته دورية الليل؟ أيكون هو ذلك التعيس الذي قضَت عليه السلطات بالإعدام على سبيل القتل الرحيم، ثم أنقذ الملازم (كونتشا؟) حياته ذات ليلة معتمة؟ لا الرقيب ليتوما ولا الملازم كونتشا وجدا الوقت الكافي للتحقُّق من الأمر. أدركا أن مجد الوطن قد يروح ضحية الهجوم إن هما لم يتحرَّكا في الحال، فما كان من الرقيب إلَّا أن أمر الملازم بالتحرُّك، بطريقة التفاهم بالغمز القائمة بين الرئيس والمرؤوس. عند ذاك، أبرز خايمي كونتشا مسدسه من دون أن يقف حتى على قدمَيْه، وأطلق رصاصاته الاثنتي عشرة، فاستقرَّت كلها في أجزاء مُتفرِّقة من جسد الرجل العاري (على بعد خمسين مترًا). وهكذا نفَّذ الملازمُ الأمرَ الذي سبق أن تلقَّاه في الماضي، عملًا بالمثل القائل «أن تأتي متأخرًا خير من ألَّا تأتي أبدًا»، لأن ذلك العاري كان هو الرجل الذي تسلَّل إلى كاياو بالفعل!

رأت الجماهير ذلك الجلَّاد المُحتمَل الذي استهدف معبودهم وقد اخترق جسده وابلٌ من الرصاص، ومع أنهم كانوا يكرهونه قبل

لحظة واحدة، فما كادوا يرونه على تلك الحال حتى تضامنوا وإياه فورًا، بهوائية التفاهة العاطفية، ودلال الأنثى المُتقلِّبة. وإذا هم يجعلون منه ضحية، ويعادون الحرسَ المدني. انطلق في الجوّ صفير استهجان صمّ آذان طيور السماء، عبَّر به الجمهور في مدرجات الشمس والظلّ عن غضبهم العارم بسبب مشهد الرجل الأسود طريح الأرض، هناك، حيث مضى ينزف من الثقوب الاثني عشر في جسده. ارتبك اللاعبون على وقع الرصاص، ولكن إنوستروسا (تِيِّيس أونساتيغي؟)، العظيم، المخلص لنفسه، لم يسمح بقطع الحفل، وظلَّ مُتألِّقًا حول جثمان الدخيل، بينما صمّ صفير الاستهجان أذنَيْه، الصفير الذي زيدَت عليه الآن صيحات وصرخات وشتائم. كانت أولى الوسائد قد بدأت تتساقط - مُحلِّقةً، مُتعدِّدةً الألوان - وما لبَثت أن صارَت طوفانًا من الوسائد المنهمرة فوق فصيل الشرطة بقيادة الرقيب ليتوما، الذي حدَّثه أنفه بقرب الإعصار، فاتَّخذ قراره بالتحرُّك سريعًا، وأصدر أوامره إلى أفراد الحرس المدني بتجهيز القنابل المسيلة للدموع. أراد أن يتجنَّب إراقة الدماء مهما تكلَّف الأمر. وما هي إلَّا لحظات حتى أمر رجاله بإغراق محيط المكان بعدد من القنابل المسيلة للدموع، بعد أن اختُرِقَت حواجز الحلبة عَبْر نقاط كثيرة، وانطلقَت الجماهير إلى الساحة في عدوانية انطلاقةً تليق بهواة مصارعة الثيران المحمومين. خُيِّل إليه أن الدموع والعطسات سوف تهدِّئ من روع الغاضبين، فيعمّ السلام في ساحة أتشو لمصارعة الثيران مرةً أخرى حالما تُبدِّد الريحُ الغازات الكيمياوية. وكلَّف مجموعة مُكوَّنة من أربعة حراس مدنيين بتطويق الملازم خايمي كونتشا، الذي بات هدف مُحدِثي الشغب: العازمين على إعدامه من دون محاكمة، كما يظهر، وإن اضطُرّوا إلى مواجهة الثور أولًا.

بَيْد أن الرقيب ليتوما نسي أمرًا جوهريًّا، نسي أنه هو نفسه، قبل

ساعتَيْن، قد أمر بإقفال الأسوار والحواجز المعدنية لمنع الوصول إلى مدرجات ساحة مصارعة الثيران، لئلَّا يحاول المُتفرِّجون الذين لم يحصلوا على تذاكر أن يقتحموا المكان بالقوة، علمًا أنهم كانوا يحومون حول الساحة مُتوعِّدين. وهكذا، أطلق الحرس المدني على الجمهور دفقةً من القنابل المسيلة للدموع، نزولًا عند الأوامر بدقّة. وما هي إلَّا ثوانٍ قليلة حتى تعالَت الأدخنة الكريهة هنا وهناك، على مدرجات الساحة، فلاذ المشاهدون بالفرار، وانطلقوا قفزًا ودفعًا، متصادمين في ما بينهم، مهرولين صوب أبواب الخروج، كاتمين أفواههم بالمناديل، بينما الدموع تطفر من عيونهم. ولكن الأسوار والحواجز المعدنية قد حبسَت الحضور في الداخل وكبحَت تيارات البشر العاتية. كبحَتها؟ لم تقف في وجههم إلَّا ثوانٍ، كانت كافية لتنقضّ الصفوف الأولى - التي استُخدِمَت وكأنها رؤوس كباش يدفعها القادمون من الخلف - فدقّت الحواجز وأطاحت بها واقتلعَتها وانتزعَتها من الجذور. أما ساكنو ريماك الذين اتَّفق لهم أن كانوا في جولة حول ساحة مصارعة الثيران ذلك الأحد، فتسنَّى لهم أن يشاهدوا استعراضًا وحشيًّا في أصالته، في تمام الرابعة وثلاثين دقيقة من المساء: إذ انشقَّت أبواب ساحة أتشو فجأةً وتحوَّلَت إلى شظايا وسط حسيسٍ محفوف بالموت، وبدأت تلفظ الجثث المنسحقة. ولأن المصائب لا تأتي فرادى، فلقد دُهِسَت الجثث تحت أقدام الحشود التي جُنّ جنونها وهي تلوذ بالفرار عَبْر الفوّهات الدامية. كما سقط أولئك الذين أدخلوا عقيدة شهود يَهْوَه إلى بيرو ضمن أوائل الضحايا الذين أودى بحياتهم هولوكوست باخو إل پوينتي: دُوُن سِباستيان بيرغوا ابن موكيغوا، وزوجته مارغاريتا، وابنته روسا عازفة الناي البارعة. ولقد أودَت بالأسرة المُتديِّنة تلك السمة التي كان لها أن تنقذها: التأنِّي. فما كادَت تقع الحادثة، وما كاد الثور ذو القرنَيْن

يفتك بآكل لحوم البشر المُتسلِّل، حتى أصدر دُوُن سِباستيان بيرغوا أمرًا إلى قبيلته، عاقد الحاجبَيْن، رافعًا إصبعه المُستبِدّة، قائلًا: «انسحبوا!». لم يأمر بالتقهقر شعورًا منه بالخوف، تلك الكلمة التي لا يعرفها الواعظ، وإنما أصدر أمره مدفوعًا بحسن الإدراك، وبالفكرة التي حدَّثَته بأنه لا هو ولا أقرباؤه ينبغي لهم التورُّط في أي فضيحة، كيلا يتَّخذها الأعداء ذريعةً ليحاولوا تمريغ اسم دينه في الوحل. سارع أفراد أسرة بيرغوا بالتخلِّي عن مدرجاتهم التي جاء موقعها في الشمس، ومضوا نزولًا صوب المخرج. وفيما هم على تلك الحال، انفجرَت القنابل المسيلة للدموع. كان ثلاثتهم بجوار الحاجز المعدني السادس، حيث انتظروا أن يُرفَع الحاجز، في ورع. وعند ذاك وقعَت أبصارهم على الحشود المندفعة الآتية من الخلف، هادرةً، دامعة العيون. لم يسعفهم الوقت للندم على الخطايا التي لم يقترفوها، ذلك أنهم تفتَّتوا بالمعنى الحرفي للكلمة، وسحقهم الحشدُ المذعور على الحاجز المعدني (هل صاروا عجينًا، أو حساء بشريًّا؟). وقبل ثانية واحدة من انتقاله إلى الحياة الأخرى، التي كان ينكر وجودها، أسعف الوقتُ دُوُن سِباستيان ليرفع صوته صارخًا، عنيدًا، مؤمنًا، مُهرطِقًا: «لقد مات المسيح على جذع شجرة، وليس على الصليب».

أما موت الرجل المُختَلّ الذي طعن دُوُن سِباستيان بيرغوا واغتصب دونيا مارغاريتا والفنانة، فكان أقلّ قدرًا من الإنصاف (أيجوز مثل هذا القول؟). إذ خُيِّل إلى الشاب مارّوكين دلفين أن فرصته قد حانت عندما تفجَّرَت المأساة: فوطَّن النية على الهرب في خضم الفوضى من الحارس الذي عهدَت إليه إدارة السجون بمرافقته لمشاهدة مباراة مصارعة الثيران التاريخية، ثم الفرار من ليما ومن بيرو، ثم بدء حياة جديدة حافلة بالجنون والجريمة خارج البلاد، باسمٍ غير الاسم. ولكن ما هي إلَّا خمس دقائق حتى تبخَّرَت آماله،

عندما كان من نصيب (لوتشو؟ حزقيال؟) مارّوكين دلفين، ومعه حارس إدارة السجون المدعو تشومپيتاس الذي أمسك بيده على باب الخروج الخامس، ذلك الشرف محلّ الشكّ المُتمثِّل في الانضمام إلى الصف الأول من هواة مصارعة الثيران الذين سحقَتهم الجماهير. (بل إن أصابع الشرطي وأصابع مندوب المبيعات الطبية ظلّت متشابكة حتى بعد أن صار كلاهما جثة هامدة، فصارَت مثارًا للحديث).

أما موت ساريتا أوانكا سالابيريا، فكان أنيقًا، وأقلّ قدرًا من الاختلاط، على أدنى تقدير. وإن كان موتها يمثِّل حالةً فادحة من حالات سوء الفهم، حيث أساءت السلطة تقدير الأفعال والنوايا معًا. حين تفجَّرَت الحوادث، ورأت ساريتا آكلَ لحوم البشر الذي نطحه الثور، ورأت الأدخنة المتصاعدة من القنابل المسيلة للدموع، كما سمعَت صرخات المنسحقين، فاستقرَّت فتاة تينغو ماريا على ضرورة أن تكون بجوار الرجل الذي تحبّه، مدفوعةً إلى ذلك بشغف الحبّ الذي يُبدِّد الخوفَ من الموت. وعلى عكس المُتفرِّجين، مضَت ساريتا نزولًا، مُتَّجِهة إلى حلبة مصارعة الثيران، ما أنقذها من الموت سحقًا، وإن لم ينقذها من عينَي الصقر اللتين رصدها بهما الرقيب ليتوما، الذي لمح خيالًا مبهمًا مُتلهِّفًا يندفع وسط سحب الغازات المُنتشِرة ويقفز مُتجاوِزًا الساتر ويركض صوب مصارع الثيران (الذي لم يكفّ عن إثارة الحيوان ومناورته على ركبتَيْه، برغم كل شيء). ولمَّا كان الرقيب ليتوما على قناعة بأن الواجب يحتِّم صدَّ الاعتداء على الماتادور ما بقي له رمقٌ من الحياة، فلقد أبرز مسدسه وأنهى انطلاقةَ العاشقةِ وحياتها معًا، بثلاث رصاصات سريعة: فسقطَت ساريتا قتيلةً عند قدمَي غومِرسيندو بيلمونت.

من بين الموتى المتساقطين في تلك الأمسية الإغريقية، وحده رجل لا پِرلا لقي ميتةً طبيعية، إن جاز وصف تلك الظاهرة - غير

المألوفة في زمنٍ مُبتذَل - بأنها طبيعية: ظاهرة الرجل الذي توقَّف قلبه وفارق الحياة عندما رأى حبيبته قتيلةً عند قدمَيْه. سقط بجوار ساريتا، فأسعفهما الوقت ليعانق كلٌّ منهما الآخر وهما في النفس الأخير، فدخلا إلى ليلِ العشَّاق التعساء وقد اتَّحد كلٌّ منهما بالآخر، على تلك الحال (مثل عاشقَيْن يُدعيان روميو وچولييت؟). . .

عند ذاك، وبحزن، مضى رجل الشرطة صاحب السجل الناصع يتأمَّل الوضع الذي، على الرغم من خبرته وبراعته، لم يقتصر على اختلال النظام وحسب، بل إن ساحة أتشو والمناطق المحيطة بها صارت مقبرة تحوي جثامين لم يوارِها الثرى، فما كان منه إلَّا أن استخدم الطلقة التي لم يتبقَّ له سواها حتى يُفجِّر دماغه - كالبحَّار الخبير الذي يرافق سفينته إلى قاع المحيط - وينهي بذلك مسيرته (الرجولية، وإن لم يحالفها النجاح). لم يكَد أفراد الحرس المدني يرون رئيسهم وقد لقي مصرعه، حتى سقطَت معنوياتهم في الحضيض، ونسوا أمر الانضباط وروح الجماعة وحبّ المُؤسَّسة، فلم يشغلهم إلَّا التجرُّد من الزي الرسمي والتخفّي بالثياب المدنية التي نزعوها عن أجساد الموتى، ثم الفرار. تمَّ ذلك لعدد منهم، وإن لم يكُن بينهم خايمي كونتشا، الذي أخصاه الناجون ثم شنقوه بحزامه الجلدي على عارضة الباب المُؤدِّي إلى إسطبل الثيران. وهناك انتهى المطاف بقارئ بطوط الوقور، قائد الفرقة المجتهد، بينما راح جسده يتأرجح تحت سماء ليما التي تلبَّدَت بالغيوم وبدأت تبكي رذاذَ الشتاء (أتراها رغبة من السماء في مجاراة الأمور؟). . .

أتنتهي القصة هكذا، بمجزرة دانتيَّة؟ أم تُولَد من رمادها مثل طائر الفينيق (أم الدجاجة؟) وتعود بحلقات جديدة وشخصيات مُتمرِّدة؟ ماذا يجري في هذه المأساة، مأساة مصارعة الثيران؟

١٧

غادرنا ليما في التاسعة صباحًا، بسيارة الأجرة المشتركة التي ركبناها من المنتزه الجامعي. خرجَت الخالة خوليا من بيت خالي وزوجته مُتعلِّلةً بقضاء المشتريات الأخيرة قبل رحلتها، بينما خرجتُ أنا من بيت جدّي وجدّتي وكأنني ذاهب إلى عملي بالراديو. وضعَت الخالة خوليا قميص نوم وثيابًا داخلية نظيفة في أحد الأكياس، بينما وضعتُ أنا في جيوبي فرشة الأسنان والمشط وشفرة الحلاقة (التي ما زلتُ لا أحتاج إليها كثيرًا، في حقيقة الأمر).

اشترى پاسكوال وخابيير التذاكر، وراحا ينتظران وصولنا إلى المنتزه الجامعي. من حسن الحظ أنه لم يكُن هناك راكب واحد سوانا. وفي تكتُّم شديد، جلس پاسكوال وخابيير في المُقدِّمة، بجوار السائق، وتركا المقاعد الخلفية لي أنا والخالة خوليا. كان واحدًا من نهارات الشتاء المعهودة، بسمائها المُلبَّدة ورذاذها المُتَّصل الذي رافقنا عَبْر الصحراء مسافةً لا بأس بها. مضيتُ أنا والخالة خوليا نتبادل القبلات، بشغف، ونضمّ أيدينا، طوال الرحلة تقريبًا، فلم نتفوّه بشيء، وإنما أصغينا إلى حديث پاسكوال وخابيير الذي جاء ممزوجًا بهدير المُحرِّك، وتخلَّلَته بعض التعقيبات التي كان يدلي بها السائق بين الحين والآخر. وصلنا إلى تشينتشا في الحادية عشرة ونصف صباحًا، والشمس بديعةٌ، والدفء لذيذ. كان كل شيء يُبشِّر

بالخير، السماء النقية، وإشراقة الهواء، وجلبة الشوارع الحافلة بالناس. بينما ابتسمَت الخالة خوليا في سرور.

سبقنا پاسكوال وخابيير إلى مجلس البلدية للتحقُّق من إعداد كل شيء، في حين نزلتُ أنا والخالة خوليا بفندق سودامريكانو. كان بيتًا عتيقًا من طابق واحد، مُشيَّدًا بالآجر والأخشاب، له باحة مسقوفة تُستخدَم بوصفها قاعة طعام أيضًا، ويضمّ دزينة من الغرف الصغيرة المُتراصَّة على جانبَي الرواق المُبلَّط، وكأنه ماخور. طلب موظف الاستقبال أوراقنا، ثم قنع ببطاقتي الصحافية، ولكنه ألقى نظرةً ساخرة على الخالة خوليا حين أضفتُ «وزوجته» بجوار لقب عائلتي. نزلنا في حجرة صغيرة، بلاطها مشروخ، تُرَى الأرض من خلاله. كانت الحجرة تضمّ فراشًا مزدوجًا غائصًا يعلوه غطاء منقوش برسوم خضراء على هيئة معين، وكرسيًّا صغيرًا من القشّ، كما ثُبِّتَت في جدارها بضعة مسامير سميكة لتعليق الثياب. ما إن دلفنا إلى الغرفة حتى تعانقنا بحرارة، ومضينا نتبادل القبلات والمداعبات، إلى أن أبعدَتني الخالة خوليا، ضاحكةً:

- «قف مكانك يا بارغيتاس! لا بدّ أن نتزوَّج أولًا».

كانت مُتأثِّرة، وتجلَّى في عينَيْها بريق وبهجة، في حين شعرتُ أنا بحبٍّ جارف نحوها، وسعدتُ بزواجنا. وبينما كنتُ أنتظر ريثما تغسل يدَيْها وتصفِّف شعرها في الحمام المشترك بالرواق، أقسمتُ لنفسي إننا لن نغدو كسائر الأزواج الذين أعرفهم، مُجرَّد كارثة أخرى، بل إننا سوف نعيش في سعادة إلى الأبد، ولن يمنعني الزواج من أن أكون كاتبًا ذات يوم. خرجَت الخالة خوليا أخيرًا، فمشينا إلى مجلس البلدية، وكلانا ممسك بيد الآخر.

وجدنا پاسكوال وخابيير على باب حانة، يتناولان المُرطِّبات. كان العمدة قد ذهب لحضور مراسم افتتاح، ولكنه سرعان ما يعود.

سألتُهما إن كانا على يقين مطلق من الاتفاق مع قريب پاسكوال على عقد زواجنا ظهرًا، فسخرا مني. وأطلق خابيير النكات على العريس الذي لا يطيق الانتظار، مستشهِدًا بمثل يلائم المناسبة: «مَن ترقَّب، تعذَّب». ولتزجية الوقت، ذهبنا نحن الأربعة في جولة تحت أشجار الكافور والبلوط السامقة بميدان أرماس، حيث كان بعض الأولاد يتراكضون، كما ترك بعض المُسنِّين ماسحي الأحذية يلمِّعون أحذيتهم وهم منصرفون إلى مطالعة جرائد ليما. وبعد مضي نصف ساعة، عدنا إلى مجلس البلدية، حيث وجدنا السكرتير النحيل ذا النظارة العريضة للغاية، الذي أبلغنا بالخبر المشؤوم قائلًا إن: العمدة قد رجع من مراسم الافتتاح، ولكنه ذهب لتناول الغداء في إل صول دي تشينتشا.

– «ألم تبلغه بأننا في انتظاره لعقد الزواج؟»، أنَّبه خابيير.

– «جاء في وفد من الناس، ولم تكُن اللحظة مناسبة»، قال السكرتير بمظهر خبير الإتيكيت.

– «سوف نذهب إليه في المطعم، ثم نعود به»، طمأنني پاسكوال. «لا تقلق يا دون ماريو».

وبالسؤال، وجدنا إل صول دي تشينتشا في محيط الميدان. كان مطعمًا كريوليًّا، به طاولات من دون مفارش، وفي القسم الخلفي منه مطبخ يتصاعد منه الشرار والدخان وتحوم حوله النساء مُحمَّلات بقدور نحاسية وصوانٍ ومقالٍ تنبعث منها الروائح. كان في المطعم فونوغراف، تصاعدَت منه موسيقى الفالس بأعلى صوت. كما شُوهِد في المكان حضور كثير. وبينما نحن على باب المطعم، بدأت الخالة خوليا تقول إنه ربما كان الأصوَب أن ننتظر ريثما ينتهي من غدائه. وعند ذاك، تعرَّف العمدةُ پاسكوال من مكانه بأحد الأركان، فناداه. رأينا مُحرِّر پانامريكانا يعانق رجلًا في مقتبل العمر، شبه أشقر، وقف

أمام المائدة التي جلس إليها نصف دزينة من الحضور، كلهم رجال، واستقرّ فوقها نصف دزينة من قوارير البيرة. أشار إلينا پاسكوال حتى نقترب.

- «طبعًا، العروسان، لقد نسيتُ كليًّا»، قال العمدة وهو يشدّ على أيدينا، مُتفحِّصًا الخالة خوليا من رأسها إلى قدمَيْها، بنظرة الخبير. التفت إلى رفاقه الذين راحوا يتأمَّلونه في خضوع، وقال رافعًا صوته حتى يصل إلى مستمعيه أعلى من موسيقى الفالس: «لقد هرب هذان من ليما منذ قليل، وسوف أعقد زواجهما بنفسي».

تعالى الضحك والتصفيق، وامتدَّت إلينا الأيادي، في حين طلب منا العمدة أن نجلس معهم، وطلب المزيد من البيرة لشرب نخب سعادتنا.

- «ولكن، إياكما والجلوس جنبًا إلى جنب، فمن أجل هذا تنتظركما حياة كاملة»، قال في سعادة غامرة، وهو يأخذ بذراع الخالة خوليا ويُجلِسها إلى جواره. «العروس هنا، بجواري، فمن حسن الحظ أن زوجتي ليست حاضرة».

قابل الوفد كلامه بحفاوة. كانوا أكبر من العمدة عمرًا، بعضهم تجار وبعضهم مزارعون بثياب الأعياد، وكلهم مخمور بقدر ما كان مخمورًا. مضوا يسألون پاسكوال عن حياته في ليما، ومتى يعود إلى أرضه، إذ كان بعضهم يعرفه. جالسًا بجوار خابيير، في أقصى طرف الطاولة، حاولتُ أن أبتسم، وشربتُ بضع رشفات من قارورة البيرة شبه الفاترة، بينما رحتُ أعدّ الدقائق.

ما لبث العمدة ورفاقه أن فقدوا الاهتمام بنا، في حين تعاقبَت قوارير البيرة التي قُدِّمَت على حدة في أول الأمر، ثم جاءت مُرفقَةً بأطباق السيبيتشي ويخنة القاروس وبعض الفطائر، ثم قُدِّمَت مرة أخرى على حدة. ما عاد أحد يذكر الزيجة، حتى پاسكوال نفسه،

الذي أخذ يُردِّد أغاني الفالس بعينَيْن مشتعلتَيْن وصوت متثاقل مع العمدة الذي قضى جلسة الغداء كاملةً وهو يتغزَّل بالخالة خوليا، ومضى الآن يحاول أن يضع ذراعه على كتفَيْها، ويتقرَّب منها بوجهه المنتفخ.

جاهدَت الخالة خوليا لتبتسم، وأبقَته بعيدًا عنها، بينما كانت ترشقنا بنظرات الضيق بين الحين والآخر.

- «اطمئنّ يا رفيق»، قال لي خابيير. «فكِّر في زيجتك وحسب».

- «أعتقد بأنها قد خربَت»، قلتُ له حين سمعتُ العمدة، وهو في أوج السعادة، يتكلَّم عن استدعاء عازفي الجيتار وإقفال مطعم إل صول دي تشينتشا والبدء في الرقص. «يبدو لي أن السجن ينتظرني، لأنني سأهشِّم وجه ذلك الأحمق».

كنتُ ثائرًا، عازمًا على تهشيم وجهه إن هو تطاول علينا، حين قمتُ من مكاني وقلتُ للخالة خوليا أننا ذاهبان. هبَّت واقفة من فورها، شاعرةً بالراحة. فلم يحاول العمدة أن يستوقفها. وإنما ظلّ يرفع عقيرته بأغاني المارينيرا، بحسٍّ موسيقي جيد. رآنا ونحن في طريقنا إلى الخروج، فلوَّح بيده مُودِّعًا، بابتسامة مقتضبة وجدتُها ساخرة. أما خابيير، الذي جاء خلفنا، فأخبرنا بأن الأمر لا يعدو أن يكون نوبة سكر. وفي الطريق إلى فندق سودامريكانو الذي ذهبنا إليه سيرًا على الأقدام، رحتُ أسبُّ پاسكوال وألعنه، وحمَّلتُه مسؤولية ذلك الغداء العبثي لسببٍ لا أعلمه.

- «لا تكُن كالطفل المُدلَّل، وتعلَّم كيف تحافظ على برود الأعصاب»، لامني خابيير. «الرجل مخمور حتى النخاع ولا يذكر شيئًا. ولكن لا تشغل بالك، فاليوم يعقد زيجتكما. انتظرا في الفندق حتى يتَّصل بكما».

ما إن بقينا وحدنا في الغرفة حتى ارتمى كلٌّ منا في حضن الآخر، وبدأنا نتبادل القبل في ما يشبه الاستماتة. لم يقُل أحدنا للآخر شيئًا، وإن تكلَّم ثغرانا وأيدينا في طلاقةٍ بتلك الأشياء الجارفة الجميلة التي شعرنا بها. بدأنا نتبادل القبل وكلانا واقفٌ قرب الباب. ثم اقتربنا من الفراش رويدًا رويدًا، حتى جلسنا واستلقينا أخيرًا، من دون أن يتراخى عناقنا القوي لحظة واحدة. رحتُ أداعب جسد الخالة خوليا بيدَيْن شرهتَيْن تفتقران إلى الخبرة، وأنا شبه أعمى من فرط السعادة والرغبة. رحتُ أداعب جسدها وهي بثيابها أولًا، ثم حللتُ أزرار قميصها الذي كان بلون الآجر، وأصبح الآن مُجعَّدًا بشدة. كنتُ أقبِّل نهدَيْها، وإذا بأصابع تزلزل الباب في وقت غير مناسب.

- «كل شيء جاهز أيها العشيقَيْن»، سمعنا صوت خابيير. «أراكما في مجلس البلدية خلال خمس دقائق. المُغفَّل في انتظاركما».

قفزنا من الفراش، في سرور وذهول. تضرَّجَت بشرة الخالة خوليا من فرط الخجل وهي تصلح وضع ثيابها، بينما أغمضتُ أنا عينَيّ كالطفل الصغير، مُفكِّرًا في أمور مُجرَّدة وأشخاص يستحقّون الاحترام - الأرقام، والمُثلَّثات، والدوائر، والجدّة، وأمي... - حتى يتراخى الانتصاب. وفي حمام الرواق، اغتسلنا وصفَّف كلٌّ منا شعره قليلًا، هي أولًا، ثم أنا. وبعد ذلك عدنا إلى مجلس البلدية بخطى في غاية السرعة، حتى وصلنا إلى هناك وقد انقطعَت أنفاسنا. ما لبث السكرتير أن سمح لنا بالدخول إلى مكتب العمدة الفسيح الذي ترَّاصَت فيه نصف دزينة من مقاعد تشبه مكاتب تلاميذ المدارس، وثُبِّت على جداره شعار دولة بيرو الذي أشرف مُهيمِنًا على المكتب، حيث استقرَّت رايات صغيرة وسجلَّات رسمية.

بوجهه المغسول وشعره الذي ما زال رطبًا وهندامه الحسن، انحنى لنا العمدة الأشقر انحناءة رسمية من خلف المكتب. وإذا هو شخص آخر: يراعي الشكليات والوقار كثيرًا. وعلى جانبَي المكتب، ابتسم لنا خابيير وپاسكوال بشقاوة.

- «حسنًا، دعونا نباشر المراسم»، قال العمدة، وإن خانه صوته المُتثاقِل المُتردِّد، الذي بدا وكأنه يتعثَّر في لسانه. «أين الأوراق؟».

- «في حوزتك، سيدي العمدة»، أجابه خابيير بأدبٍ لامتناهي. «لقد سلَّمناك إياها يومَ الجمعة، للتعجيل بالإجراءات، ألَا تذكر؟».

- «لقد أفرطتَ في الشرب حتى لم تعُد تذكر يا ابن الخال!»، ضحك پاسكوال، فجاء صوته مخمورًا بدوره. «أنت نفسك طلبتَ منا أن نتركها لك».

- «حسنًا، إذن فلا بدّ أنها في حوزة السكرتير»، همهم العمدة، في ضيق، ثم نادى وهو يرمق پاسكوال باستياء: «سكرتير!».

استغرق الرجل النحيل ذو النظارة العريضة بضع دقائق في العثور على شهادتَي الميلاد والحكم بطلاق الخالة خوليا. ترقَّبنا في صمت، بينما أخذ العمدة يدخِّن ويتثاءب ناظرًا إلى ساعته، نافد الصبر. وأخيرًا جاء السكرتير مُتفحِّصًا الأوراق بسماجة. ثم غمغم بنبرة بيروقراطية وهو يضعها فوق المكتب:

- «إليك الأوراق، سيدي العمدة. هناك ما يمنع هذه الزيجة، بسبب عمر الشاب، كما قلتُ لك».

- «هل سألك أحدٌ عن شيء؟»، قال پاسكوال وهو يخطو نحوه خطوةً، كمَن يهمّ بخنقه.

- «إنني أؤدِّي واجبي»، أجابه السكرتير. ثم أصرّ بحدّة، مُلتفِتًا إلى رئيس المجلس وهو يشير إليّ: «عمره لا يتجاوز الثامنة عشرة، ولم يقدِّم إذنًا قضائيًّا يسمح له بالزواج».

- «كيف يُعقَل أن يكون لك مساعد بهذا الغباء يا ابن الخال»، انفجر پاسكوال. «ماذا تنتظر لتطرده وتأتي بشخص أكثر ذكاءً بقليل؟».

- «اصمت، لقد لعب الشراب برأسك، وصرتَ عدوانيًّا»، قال العمدة. ثم تنحنح ليكسب بعض الوقت، وعقد ذراعَيْه ناظرًا إليَّ أنا والخالة خوليا نظرة خطيرة. «كنتُ على استعداد للتغاضي عن موانع الزواج حتى أقدِّم لكما خدمة. ولكن الأمر أكثر جدية. مع الأسف الشديد».

- «ماذا؟»، سألتُ حائرًا. «أما كنتَ تعرف بشأن عمري منذ يوم الجمعة؟».

- «ما هذه التمثيلية!»، تدخَّل خابيير. «لقد اتَّفقتَ معي على أن تعقد زيجتهما بلا مشاكل».

- «أتطلب مني ارتكاب جنحة؟»، سخط العمدة أيضًا. ثم أردف وقد ظهر عليه الشعور بالإهانة: «وفوق ذلك، لا ترفع صوتك عليّ. يتفاهم الناس بالكلام، لا بالصراخ».

- «لقد جُنِنتَ يا ابن الخال»، قال پاسكوال خارجًا عن شعوره، ضاربًا المكتب بيده. «سبق أن أبديتَ موافقتك وأنت تعلم بأمر السنّ، قلتَ إنه شيء غير مهم، فلا تأتِ الآن مُتظاهرًا بفقدان الذاكرة، ولا تتظاهر بأنك فقيه قانوني. زوِّجهما فورًا ودع عنك أمور المُخنَّثين!».

- «لا تتفوَّه بكلمات نابية أمام سيدة، ولا تعاقر الشراب مرة أخرى لأن رأسك خفيف!»، قال العمدة بهدوء. ثم التفت إلى السكرتير. وبإيماءة من الرأس، أشار إليه بالانصراف. بقينا وحدنا، فخفض صوته مبتسمًا بمظهر يشي بالتواطؤ: «ألا ترون أن ذلك الرجل جاسوس يعمل لحساب أعدائي؟ الآن وقد انتبه إلى الأمر، لم

أعُد قادرًا على عقد الزواج، وإلّا أوقعتُ نفسي في مأزق شديد للغاية؟».

لم تكُن هناك حجّة واحدة قادرة على إقناعه: أقسمتُ له إن والدَيّ يعيشان في الولايات المتحدة ولهذا لم أقدِّم الإذن القضائي، وأقسمتُ إن أحدًا من أقربائي لن يثير مشكلة، فأنا والخالة خوليا سوف نعيش في الخارج إلى الأبد حالما نتزوَّج.

- «لقد أبرمنا اتفاقًا، لا يمكنك أن تفعل بنا هذه الفعلة الدنيئة»، قال خابيير.

- «لا تكُن بائسًا يا ابن الخال»، أخذ پاسكوال بذراعه. «ألا ترى أننا قد جئنا من ليما؟».

- «اهدأ، ولا تتجمَّعوا ضدي، خطرَت لي فكرة، قُضِي الأمر، لقد انحلَّ كل شيء!»، قال العمدة. ثم هبَّ واقفًا، وغمز لنا بعينه: «تامبو دي مورا! مارتين الصياد! اذهبوا إلى تامبو دي مورا فورًا. أخبروه بأنني أنا الذي أرسلتُكم. مارتين الصياد... إنه رجل زنجي في غاية اللطف. سوف يعقد زيجتكما بكل سرور. هكذا أفضل، لأنها بلدة صغيرة، ولن يثير الأمر أي لغط. مارتين... مارتين العمدة. قدِّموا له إكرامية، وهذا كل شيء. يكاد لا يتقن القراءة والكتابة، ولن يلقي حتى نظرة إلى هذه الأوراق».

حاولتُ إقناعه بأن يأتي معنا، فمازحتُه، وداهنتُه، وتوسَّلتُ إليه، ولكن سدى. قال إن لديه ارتباطات أخرى، العمل، والأسرة التي كانت في انتظاره. رافقنا إلى الباب، مُؤكِّدًا لنا أن كل شيء سوف يتمّ في تامبو دي مورا خلال دقيقتَيْن.

وأمام باب مجلس البلدية، اتَّفقنا مع سائق سيارة أجرة عتيقة، ذات هيكل مُرقَّع، حتى يقلّنا إلى تامبو دي مورا. وفي أثناء الرحلة، مضى خابيير وپاسكوال يتحدَّثان عن العمدة، فقال خابيير إنه أسوأ

من عرف من المنافقين، بينما حاول پاسكوال أن يلقي باللائمة على السكرتير. وإذا بالسائق يدلي بدلوه فجأةً، ويسبّ عمدة تشينتشا ويلعنه قائلًا إنه لا يعيش إلَّا من أجل الصفقات المشبوهة والمحظيات. جلستُ أنا والخالة خوليا وقد تشابكَت يدانا، ورحنا نتبادل النظرات، بينما كنتُ أهمس إليها بين الحين والآخر بأنني أحبّها.

وصلنا إلى تامبو دي مورا مع الغسق. ومن الشاطئ، رأينا قرصًا من النار يغوص في البحر، تحت سماء خلَت من الغمائم، حيث بدأت تنبت آلاف النجوم. مررنا بدزينتَيْن من البيوت الريفية المصنوعة من القصب والطمي، البيوت التي كانت تتألَّف منها البلدة، وسط قوارب مثقوبة وشباك صيد عُلِّقَت على الأوتاد لتُرفَى. تناهَت إلينا رائحة السمك الطازج والبحر. بينما أحاط بنا أطفال سود، أشباه عراه، وأمطرونا بوابل من الأسئلة: مَن نحن، ومِن أين أتينا، وماذا نريد أن نشتري. وأخيرًا عثرنا على بيت العمدة. أما زوجته، المرأة السوداء التي كانت تضرم النار بمروحة يد من القشّ، وتجفِّف بيدها العرق السائل على جبينها، فقالت لنا إنه يصطاد. تحقَّقَت من السماء، ثم أردفَت قائلةً إنه على وشك أن يعود. انتظرنا وصوله على الشاطئ الصغير، وطوال الساعة التي أمضيناها جلوسًا على أحد الجذوع، رأينا القوارب تعود أدراجها بعد الانتهاء من العمل، كما رأينا تلك العملية المُعقَّدة المُتمثِّلة في سحب القوارب فوق الرمال، واكتشفنا كيف تتولَّى زوجات الصيادين العائدين نزعَ أحشاء الأسماك ورؤوسها، على الشاطئ نفسه، بينما الكلاب النهمة تعيقهن عن أداء المهمة. كان مارتين آخر العائدين، إذ رجع بعدما أقبل الظلام وطلع القمر.

كان رجلًا أسود، أشيب الشعر، هائل البطن، كثير الدعابة،

طليق اللسان، لم يرتدِ من الثياب إلَّا السروال العتيق الذي التصق بجلده، على الرغم من برد الليل. بادرناه بالتحية كما لو أنه كائن نزل من السموات، وساعدناه على إرساء القارب، ثم مضينا برفقته إلى بيته الريفي. وفيما نحن سائرون على الضوء الواهن الآتي من مواقد بيوت الصيادين التي لا أبواب لها، أوضحنا له سبب الزيارة، فانطلق ضاحكًا، مُبديًا لنا أسنانًا كبيرة تليق بحصان:

- «إياكم والتفكير حتى في الأمر يا رفاق، ابحثوا عن أبله غيري حتى يؤدِّي هذه المهمة»، قال لنا بصوت موسيقي قوي. «أما أنا، فكدتُ أتلقَّى رصاصة بسبب أمرٍ تافه كهذا».

حكى لنا أنه قد عقد قران رجل وامرأة منذ بضعة أسابيع، مُتغاضيًا عن موانع الزواج، ليسدي بذلك خدمة إلى عمدة تشينتشا. قال إن الفتاة «كانت من بلدة تُدعَى كاتشيتشي، لكل نسائها مكانس طائرة، يحلِّقن فوقها ليلًا!». وبعد أربعة أيام، حضر «زوج العروس» التي سبق لها الزواج منذ عامَيْن، جاء وقد جُنّ جنونه من فرط الغضب، مُتوعِّدًا بقتل القوَّاد الذي تجرَّأ على توثيق زواج هذين الزانييْن.

- «زميلي في تشينتشا يعرف كل الحيل، سوف يذهب إلى السماء مُحلِّقًا من فرط الدهاء!»، قال ساخرًا، وهو يربِّت على بطنه الكبير اللامع بفعل قطرات الماء. «كلّما وجد شيئًا يفوح منه العفن، أهداه إلى مارتين الصياد، وليقع الأسود في الورطة! يا له من داهية!».

لم تكُن هناك طريقة واحدة لإقناعه بالعدول عن رأيه، بل إنه لم يرغب حتى في إلقاء نظرة واحدة على الأوراق. مضيت أنا وخابيير وپاسكوال نسوق الحجج - في حين لزمَت الخالة خوليا الصمت، وراحت تبتسم رغمًا عنها بين الحين والآخر أمام خفة الظلّ الماكرة

التي ميَّزَت الرجل الأسود - فتلقَّاها بالنكات، أو السخرية من عمدة تشينتشا، وإلَّا فكان يعيد على أسماعنا، مُقهقِهًا، حكايةَ الزوج الذي أراد أن يقتله لأنه عقد قران ساحرة كاتشيتشي مع أن زوجها لا قضى نحبه ولا طلَّقها. وصلنا إلى بيته الريفي، فوجدنا في زوجته حليفًا غير مُرتقَب. أخبرها بطلباتنا بنفسه وهو يجفِّف وجهه وذراعَيْه وجذعه العريض، ويتشمَّم رائحة القدر التي تهدر فوق الموقد بشهية مفتوحة.

- «زوِّجهما أيها الأسود منزوع المشاعر!»، قالت له زوجته وهي تشير إلى الخالة خوليا بشفقة. «انظر إلى المسكينة، لقد هرب معها، وهي عاجزة عن الزواج، لا بدّ أنها تعذَّبَت بالأمر كله. ما ضرّك لو تزوَّجا؟ هل لعبَت العمودية برأسك؟».

أخذ مارتين يذرع المكان جيئة وذهابًا، سائرًا بقدمَيْه المُربَّعتَيْن على أرضية البيت الريفي، وهو يلملم الأكواب والفناجين، بينما عاودنا نحن الهجوم، وقدَّمنا له العروض بصنوفها كافةً: بدءًا بالامتنان الأبدي وحتى المكافأة التي تعادل ربح أيام كثيرة من الصيد. ظلَّ مُتمسِّكًا بموقفه. وبغلظة، قال لزوجته ألَّا تدسّ أنفها في ما لا تفقه. غير أنه ما لبث أن استردّ روح الدعابة، فوضع في يد كل منا كوبًا أو فنجانًا، وصبّ لنا شراب البيسكو:

- «حتى لا تكون رحلتكم بلا طائل يا رفاق»، قال مواسيًا، رافعًا كأسه، فلم يُلمَح في كلامه أدنى أثر للسخرية. أما نخب الشراب الذي اقترحه، فكان مشؤومًا، مع الأخذ في الحسبان وضعنا الراهن: «في صحتكم، فلنشرب نخب سعادة الزوجَيْن».

وعند الوداع، قال لنا إننا قد ارتكبنا خطأً بذهابنا إلى تامبو دي مورا، بسبب سابقة فتاة كاتشيتي. أما لو ذهبنا إلى تشينتشا باخا أو إل كارمِن أو سونامپي أو سان پِدرو أو أي من تلك البلدات الصغيرة في الإقليم، لتمّ لنا الزواج فورًا.

- «إن أولئك العُمَد مُجرَّد كسالى، ليس لديهم ما يفعلون، ولذا فهم يسكرون من فرط السعادة حالما يرون زيجةً في الأفق»، صاح بنا.

عدنا إلى حيث كانت سيارة الأجرة في انتظارنا، من دون أن نقول شيئًا، فنبَّهنا سائق الأجرة إلى ضرورة إعادة الاتفاق على الأجر، لأنه اضطُرّ إلى الانتظار طويلًا جدًّا. وفي أثناء العودة إلى تشينتشا، اتَّفقنا على أن نذهب غدًا، في الصباح الباكر، لنجوب المناطق والقرى المحيطة، واحدة تلو أخرى، ونعرض المكافآت السخية حتى نعثر على العمدة اللعين.

- «لقد قاربَت الساعة التاسعة»، قالت الخالة خوليا فجأة. «هل بلغ الخبر شقيقتي؟»

كنتُ قد حفَّظتُ پابليتو الكبير الأشياء التي يجب عليه أن يخبر بها الخال لوتشو أو زوجته أولغا، وجعلتُه يكرِّرها عشر مرات. وإمعانًا في الاحتياط، كتبتُها له على ورقة: «لقد تزوَّج ماريو وخوليا. لا تقلقوا بشأنهما، فهما بخير حال. وخلال بضعة أيام يرجعان إلى ليما». كان يجب عليه أن يتَّصل بهما في التاسعة ليلًا، من هاتف عمومي، ثم يقطع الاتّصال حالما يُبلِغهم بالرسالة. نظرتُ إلى الساعة، على ضوء عود ثقاب: أجل، لقد وصل الخبر إلى العائلة.

- «لا بد أنهم يمطرون نانسي بوابل من الأسئلة الآن»، قالت الخالة خوليا، وهي تجاهد لتُدلِي بالكلام في تلقائية، وكأن الأمر لا يعنيها هي، وإنما يعني آخرين. «يعرفون أنها مُتواطِئة. وسيجعلونها تمرّ بوقت عصيب».

وعلى الطريق الحافلة بالمطبّات، مضَت سيارة الأجرة ترتجّ، وكأنها على وشك أن تتعطَّل في أي لحظة، بينما تصاعد صوت الأزيز من كل قطعة صفيح ومسمار في هيكل السيارة. ألقى القمر

على كثبان الرمال نورًا خافتًا، ورأينا رقعًا من النخيل وأشجار التين والغاف التي كانت تظهر لنا من حين إلى آخر، وكثُرَت النجوم في السماء.

- «إذن، فلقد أخبروا والدك»، قال خابيير. «ما إن غادر الطائرة حتى أخبروه. يا له من استقبال!».

- «أقسمُ بالرَّب إننا سوف نعثر على عمدة»، قال پاسكوال. «لو لم تتزوَّجا غدًا على هذه الأرض، لما عدتُ أستحقّ أن أُدعَى ابن بلدة تشينتشا! وهذه كلمة رجل!».

- «هل أنتما في حاجة إلى عمدة لعقد الزواج؟»، أبدى السائق اهتمامه. «أهربتَ مع الآنسة؟ لماذا لم تخبراني من قبل، لماذا لم تثقا بي! لو أخبرتماني لمضيتُ بكما إلى غروسيو پرادو، العمدة هناك صديقي، وسوف يعقد الزواج فورًا».

اقترحتُ أن نمضي إلى غروسيو پرادو، ولكنه استوقفني قائلًا إن العمدة لن يكون هناك في هذه الساعة، وإنما في مزرعته الصغيرة، التي تبعد قرابة ساعة على ظهر الحمار. الأفضل أن نترك الأمر لليوم التالي. اتَّفقنا على أن يمرَّ بنا في الثامنة، وعرضتُ عليه مكافأة سخية لو ساعدنا مع صديقه.

- «طبعًا»، قال لنا مُشجِّعًا. «وما الذي يطلبه المرء فوق الزواج في بلدة التقية ميلتشوريتا!».

كانت قاعة الطعام بفندق سودامريكانو على وشك الإغلاق، ولكن خابيير أقنع النادل بأن يعدَّ شيئًا من أجلنا. أحضر لنا قوارير الكوكاكولا والبيض المقلي مع الأرز المُسخَّن الذي كدنا لا نتذوَّقه. وفيما نحن نتناول الطعام، أدركنا فجأة أننا نتكلَّم بصوت خفيض، كالمتآمرين، فاستغرقنا في نوبة ضحك. مضيتُ أنا والخالة خوليا إلى حجرتنا، في حين ذهب پاسكوال وخابيير إلى حجرتهما - إذ كانا قد

وطَّنا النية على الرجوع إلى ليما يومذاك، بعد عقد الزواج، ثم باتا ليلتهما في الفندق عندما تبدَّلَت الحال، واشتركا في غرفة واحدة على سبيل التوفير - وبينما نحن في طريقنا، كلٌّ إلى حجرته، رأينا نصف دزينة من الرجال يدخلون إلى المكان، وقد انتعل بعضهم البوط وارتدى سراويل ركوب الخيل، ثم طلبوا قوارير البيرة صياحًا. أما أصوات أولئك الرجال المُشرَّبة بالكحول، وقهقهاتهم، وقرعات كؤوسهم، ونكاتهم الغبية، وأنخابهم السوقية، وأصوات التجشُّؤ والقيء التي صدرَت منهم لاحقًا، فكانت هي الموسيقى التي رافقَتنا ليلة زفافنا. وعلى الرغم من إحباطات البلدية يومذاك، كانت ليلة زفاف جامحة جميلة، مارسنا فيها الحبّ مرات عديدة، بنيران تأجَّجَت مرة تلو أخرى، على الفراش العتيق الذي لا بدّ أنه كان حافلًا بالبراغيث، ذلك الذي أحدث صريرًا يشبه مواء القطط على وقع قبلاتنا، بينما راح كلٌّ منا يقول للآخر إنه يحبّه، وإنه لن يكذبه القول أو يخونه أو يفترق عنه أبدًا، ومضَت أيدينا وشفاهنا تتعلَّم كيف يكون التعارف والإمتاع بينها. ولمَّا جاء أحدهم يقرع بابنا - لأننا قد طلبنا إيقاظنا في السابعة صباحًا - كان السكارى قد سكتوا لتوّهم. أما نحن، فكانت عيوننا مفتوحةً لم تزَل، بينما تشابك جسدي وجسدها عاريَيْن فوق الغطاء المنقوش بالرسوم الخضراء على هيئة معين، مستغرقَيْن في وسن مُسكِر، وكلانا يرنو إلى الآخر بامتنان.

كان الاغتسال في حمام فندق سودامريكانو مهمة شاقة. لم يبدُ أن ذلك الدشّ الصدئ قد استُخدِم من قبل ولو مرة واحدة، إذ كانت خيوط الماء تنطلق منه في جميع الاتجاهات، إلَّا اتجاه المُغتسِل الذي يُضطَرّ إلى تحمُّل ذلك السائل الأسود طويلًا قبل أن تصل المياه النظيفة. خلا الحمام من المناشف، ولم نجد فيه إلَّا مزقة قذرة من

القماش لليدَيْن، ما اضطرّنا إلى تجفيف جسدَيْنا بالملاءات. وعلى الرغم من ذلك، كان كلانا سعيدًا، يجيش صدره بالمشاعر، ووجدنا في تلك العقبات تسليةً. ألفينا خابيير وپاسكوال في قاعة الطعام وقد ارتديا ثياب الخروج، وبدا كلاهما شاحبًا من فرط النعاس، وراحا ينظران باشمئزاز إلى الحالة الكارثية التي ترك عليها قاعةَ الطعامِ سكارى البارحة: رائحة شديدة النتن وأكواب مهشَّمة وأعقاب سجائر وآثار قيء وبصاق مضى أحد العاملين يغمرها بدلاء من نشارة الخشب. خرجنا إلى الشارع لتناول القهوة بالحليب، فذهبنا إلى مقهى صغير من حيث تُرَى أشجار الميدان السامقة الكثيفة. بدأنا يومنا بتلك الشمس القوية وتلك السماء الصافية، فراودنا إحساسٌ غريب، ونحن القادمون من ليما التي يخيِّم عليها الضباب الرمادي. عدنا إلى الفندق، فوجدنا السائق في انتظارنا.

في الطريق إلى غروسيو پرادو - عَبْر درب يكتسي بالغبار وتحفّه كروم العنب ومزارع القطن، من حيث يتبيَّن الناظرُ أفقًا داكنًا تتعالى فيه سلسلة الجبال في ما وراء الصحراء - مضى السائق يثرثر بطلاقة بدَت على طرف النقيض من الخرس الذي خيَّم علينا، ويتحدَّث عن التقية ميلتشوريتا بلا انقطاع: التي كانت تجود بكلِ ما تملك على المساكين، وترعى المرضى والمُسنِّين، وتواسي المُعذَّبين، بل إنها قد اشتهرَت وهي لا تزال على قيد الحياة إلى حدٍّ جعل المؤمنين يحضرون من قرى المنطقة كافة حتى يشاركوها الصلاة. كما أخبرنا ببعض المعجزات التي صنعَتها: ذلك أنها قد شفَت مرضى في النزع الأخير ليس لدائهم علاج، وتحدَّثَت إلى القديسين الذين ظهروا لها، ورأت الرَّب بعينَيْها، وجعلَت وردةً تزهر في حجرٍ ما زال محفوظًا.

- «إنها أكثر شعبيةً من تقية أوماي وسيِّد لورين. يكفي مشهد الأعداد الغفيرة من الناس الذين يزورون صومعتها ويشاركون في

موكبها»، مضى يقول. «من المُجحِف ألّا تُطوَّب قديسةً. عليكم بالتحرُّك والتعجيل بالأمر، فأنتم من ليما. إنه العدل، صدِّقوني».

أخيرًا وصلنا، والتراب عالقٌ بنا من الرؤوس حتى الأقدام، إلى ميدان غروسيو پرادو الفسيح المُربَّع الخالي من الأشجار، فتحقَّقنا من شعبية ميلتشوريتا، لأن أعدادًا كبيرة من الصغار والنساء قد طوَّقوا السيارة، وعرضوا علينا فعلًا وصراخًا أن يصحبونا للتعرُّف بصومعتها، البيت الذي وُلِدَت فيه، المكان الذي أماتَت فيه جسدها وصنعَت المعجزات ودُفِن جثمانها، كما عرضوا علينا الصور المُلوَّنة والصلوات والكتفيّات والميداليات التي تحمل صورة المرأة التقية. اضطُرّ السائق إلى إقناعهم بأننا لسنا حُجَّاجًا ولا سائحين حتى يتركونا في سلام.

أما مقرّ البلدية، ذلك البناء المبني بالآجر المسقوف بالصفيح، بالغ الصغر والفقر، فاستقرّ ذابلًا على أحد جوانب الميدان، مُوصَد الأبواب.

- «لن يلبث رفيقي أن يصل»، قال السائق. «فلننتظره في الظلّ».

جلسنا على الرصيف، تحت الأطناف البارزة من بناء البلدية، من حيث استطعنا أن نرى البيوت المتهالكة والبيوت الريفية المصنوعة من القصب التي تنقطع على مسافة تقلّ عن خمسين مترٍ، بانتهاء الشوارع المستقيمة التي يكسوها التراب، هناك حيث تبدأ بِرَك المياه والصحراء. كانت الخالة خوليا بجواري، مُتَّكِئةً على كتفي، مغمضة العينَيْن. وبعد نصف ساعة - أمضيناها في مشاهدة المُكارِين لدى مرورهم سيرًا على الأقدام أو على ظهور الحمير، والنساء في طريقهن لجلب المياه من الغدير الذي يجري ماؤه عند أحد المنعطفات - مرّ بنا رجلٌ عجوز على صهوة الحصان.

- «أتنتظرون دون خاسينتو؟»، سألَنا، وهو يخلع قبعة من القش. «لقد ذهب إلى إيكا حتى يتحدَّث إلى المُحافِظ لتسريح ابنه من الثكنة العسكرية، فلقد أخذ الجنود ابنه لإلحاقه بالخدمة العسكرية. ولن يعود حتى المساء».

اقترح علينا السائق أن نبقى في غروسيو پرادو، ونذهب إلى مزارات التقية ميلتشوريتا، فصمَّمتُ على أن نجرِّب حظنا في قرى أخرى. وبعد مساومة طالَت وقتًا لا بأس به، قبل الاستمرار معنا حتى الظهيرة.

لم تكُن الساعة قد تجاوزَت التاسعة صباحًا عندما بدأنا المسيرة التي قطعنا خلالها إقليم تشينتشا بأسره تقريبًا، والسيارة ترتجّ عَبْر دروب البغال والطرق التي كادَت كثبان الرمال تأكلها، بينما نحن نقترب من البحر تارة ومن أطراف الجبال تارة. وعند مدخل إل كارمِن، انفجر أحد إطارات السيارة. لم تكُن لدى السائق رافعة، فاضطُرِرنا إلى رفع السيارة نحن الأربعة، بينما هو يبدِّل الإطار. أما الشمس التي حميَت أشعتها حتى صارَت عذابًا، فبدأت ترفع حرارة هيكل السيارة بدءًا من منتصف النهار، بينما انهمر عرقنا جميعًا وكأننا في حمام تركي. بدأت الأدخنة تتصاعد من الرادياتير، فاضطرِرنا إلى حمل صفيحة من الماء لتبريده بين الحين والآخر.

تحدَّثنا إلى ثلاثة أو أربعة عُمَد في عدد من البلدات، فضلًا عن نوَّاب كثيرين في ضياع صغيرة كانت تقتصر على عشرين كوخًا في بعض الأحيان. كانوا رجالًا قرويين، اضطُرِرنا إلى الذهاب للبحث عنهم في مزارعهم الصغيرة حيث يفلحون الأرض، أو في دكاكينهم حيث يبيعون الزيت والسجائر للجيران. بل إننا اضطُرِرنا إلى هزِّ أحدهم - عمدة سونامپي - حتى يستفيق، إذ استغرق في النوم مخمورًا داخل أحد الخنادق. كنتُ أترجَّل عن سيارة الأجرة حالما

نُحدِّد موقع سلطة البلدية، برفقة پاسكوال حينًا، والسائق حينًا، وخابيير حينًا - بعد أن أثبتَت لنا التجربة أننا كلّما زدنا عددًا، زاد شعور العمدة بالرهبة - فنوضح له المسألة. ولكن مهما كانت الحجج المُقدَّمة، كنتُ ألمح الارتياب يرتسم على وجه القروي أو الصياد أو التاجر (قدَّم عمدة تشينتشا باخا نفسه بوصفه «مُداوِيًا»)، وألمح بريق الحذر يتجلَّى في عيونهم لا محالة. لم يصارحنا بالرفض إلَّا اثنان منهم: عمدة ألتو لاران، العجوز الذي كان يُحمِّل البرسيم على ظهور البغال وهو يتحدَّث إلينا قائلًا إنه لا يعقد قران أحد من خارج البلدة، وعمدة سان خوان دي ياناك، المُزارِع الزنجي الذي دبَّ في نفسه ذعرٌ شديد حين رآنا، ظنًّا بأننا من الشرطة، وبأننا قد جئنا لاستجوابه عن شيء. عرف ما نريد، فاستشاط غضبًا: «كلا، إياكما والتفكير حتى في الأمر. ما دام اثنان من أصحاب البشرة البيضاء قد حضرا للزواج في هذه البلدة التي رفع الرَّبُّ يده عنها، فلا بد أن في الأمر شيئًا فاسدًا».

بينما تعلَّل الباقون بحجج متشابهة، كان أكثرها تكرارًا: فقدان السجلّ أو امتلاءه حتى آخره، وعدم قدرة البلدية على إصدار شهادات ميلاد أو وفاة أو عقد قران أحد، كائنًا من كان، حتى يُرسَل إليهم سجلٌّ جديد من تشينتشا. أما الردّ الأوفر حظًّا من الخيال، فجاءنا من عمدة تشابين، الذي قال إنه لا يستطيع أن يعقد قراننا بسبب ضيق الوقت، لأنه مُضطَرّ إلى الذهاب لقتل الثعلب الذي يلتهم دجاجتَيْن أو ثلاثًا في أنحاء المنطقة كل ليلة. ما كدنا نقترب من تحقيق مرادنا إلَّا في پويبلو نويبو، حيث أنصت العمدة إلينا بانتباه، ثم أومأ قائلًا إن التغاضي عن موانع الزواج سوف يكلِّفنا خمسين ليرا. لم يولِ أدنى أهمية لعمري، وبدا عليه التصديق حين أكَّدنا له أن سنّ الرشد الآن صارَت ثمانية عشر عامًا، ولم تعُد واحدًا

وعشرين. اتَّخذنا أمكنتنا أمام لوح من الخشب مُثبَّت فوق برميلَيْن، يقوم مقام المكتب (في بيت ريفي من الآجر، حيث تنتشر الثقوب في السقف الذي تُرَى السماء من خلاله)، وعند ذاك شرع العمدة يتهجَّى المستندات كلمة كلمة. استيقظَت المخاوف في نفسه لأن الخالة خوليا من بوليفيا. أوضحنا له أن الجنسية الأجنبية ليسَت من موانع الزواج، فحتى الأجانب يحقّ لهم الزواج، وعرضنا عليه المزيد من المال، بلا طائل يُرتجَى. «لا أريد الزجّ بنفسي في مشكلات. ربما كانت جنسية الآنسة البوليفية شيئًا خطيرًا»، قال.

عدنا إلى تشينتشا قرابة الثالثة مساء، والحرّ يخنق أنفاسنا، والغبار يكسونا، والكآبة تخيِّم علينا. في الخارج، أجهشَت الخالة خوليا بالبكاء، بينما رحتُ أعانقها وأهمس في سمعها طالبًا منها ألَّا تترك نفسها لتلك الحال، وأقول لها إنني أحبّها، وإننا سوف نتزوَّج حتى لو اضطُرِرنا إلى قطع قرى بيرو كلها.

- «ليس عجزنا عن الزواج هو السبب»، قالَت، من خلال دموعها الثخينة، وهي تحاول الابتسام. «بل لأن الأمر برمّته يبدو هزليًّا».

وفي الفندق، طلبنا من السائق أن يرجع بعد ساعة للذهاب إلى غروسيو پرادو، لعلّ رفيقه يعود.

لم يحسّ أيٌّ من الأربعة بجوع شديد، فاقتصر غداؤنا على شطيرة من الجبن وكوكاكولا، تناولناها وقوفًا، أمام المنضدة. ثم ذهبنا للحصول على قسط من الراحة. وعلى الرغم من سهر ليلة البارحة، وإحباطات النهار، فلقد سمحَت لنا روحنا المعنوية بأن نمارس الحبّ، بحرارة مُتَّقدة، فوق الغطاء المنقوش بالرسوم الخضراء على هيئة معين، على الضوء الخافت الذي يسبح فيه الغبار. ومن الفراش، رأينا بقايا الشمس الواهنة الخافتة المُتسلِّلة عَبْر

منورٍ مرتفع، نوافذه الزجاجية يعلوها الوسخ. وما هي إلَّا أن رحنا في سبات، بدلًا من القيام للقاء شريكَيْنا. استغرقنا في نوم مفعم باللهف ولحظات الذعر، تخلَّلَته موجات عاتية من الرغبة كانت تجعل كلًّا منا يفتِّش عن الآخر ويداعبه مدفوعًا بالغريزة، جاءَت متبوعةً بالكوابيس. في وقتٍ لاحق، أخبر كلٌّ منا الآخر بالكوابيس التي راودَته، فعرفنا أن وجوه الأقرباء كانت حاضرةً في كلتا الحالتَيْن. ضحكَت الخالة خوليا عندما قلتُ لها إنني، في لحظة بعينها من الحلم، شعرتُ وكأنني أعيش إحدى كوارث پِدرو كاماتشو الأخيرة.

أيقظَتني طرقات على الباب. كان الظلام مُخيِّمًا، ومن خلال شقوق المَنوَر، تراءت خيوط النور الكهربائي. صِحتُ قائلًا إنني ذاهب لفتح الباب، وأضرمتُ عود ثقاب ناظرًا إلى الساعة، بينما رحتُ أهزّ رأسي نافضًا عنه خمول السبات. كانت السابعة ليلًا، فشعرتُ وكأن العالَم يتهاوى فوق رأسي. ها قد ضاع يوم آخر. والأدهى من ذلك أن مواردي التي تسمح لي بالاستمرار في البحث عن عمدة لعقد الزواج كادَت تنفد. مضيتُ أتلمَّس طريقي إلى الباب، ثم واربتُه، وهممتُ بتعنيف خابيير لأنه لم يوقظني. وعند ذاك، انتبهتُ إلى الابتسامة الواسعة التي ملأت وجهه.

- «كل شيء جاهز يا بارغيتاس»، قال مزهوًا بنفسه كالطاووس. «عمدة غروسيو پرادو يعمل الآن على تسجيل الزواج وإصدار القسيمة. كفّا عن ارتكاب الإثم وعجِّلا بالحضور، ننتظركما في سيارة الأجرة».

أوصد الباب، وسمعتُه يضحك، مُبتعِدًا. كانت الخالة خوليا قد اعتدلَت في جلستها على الفراش، وأخذَت تفرك عينَيْها. وفي الغبش، تمكَّنتُ من الحدس بتعابير وجهها الذي ارتسم عليه الذهول ممزوجًا بقليل من الارتياب.

- «سأهدي كتابي الأول إلى ذلك السائق»، قلتُ ونحن نرتدي ثيابنا.

- «لا تقرع أجراس النصر بعد»، ابتسمَت الخالة خوليا. «لن أصدِّق حتى لو رأيتُ قسيمة الزواج بعينَي».

خرجنا مندفعَيْن، ولدى مرورنا بقاعة الطعام التي كانت حافلة آنذاك بعدد كبير من الرجال الذين يحتسون البيرة، غازل أحدهم الخالة خوليا غزلًا في غاية الطرافة، فاستغرق كثيرٌ منهم في الضحك. كان پاسكوال وخابيير في سيارة الأجرة، وإن تبدَّلَت السيارة بأخرى، وتبدَّل السائق بآخر.

- «أراد أن يستغلّ الوضع حتى يتذاكى ويتقاضى ضعفَي الأجرة»، أوضح لنا پاسكوال. «فقلنا له أن يذهب إلى حيث يستحقّ، واتفقنا مع هذا الرجل النزيه».

وإذا المخاوف بكل صنوفها تتسلَّل إلى نفسي ظنًّا مني بأن تغيير السائق ربما أحبط الزيجة مرة أخرى. ولكن خابيير طمأننا، فهذا هو السائق الذي مضى بهما إلى غروسيو پرادو في المساء، وليس الآخر. وكما لو كانا طفلَيْن شقيَّيْن، قالا إنهما قد «تركانا نستريح»، لئلَّا تمرّ الخالة خوليا بوقت عصيب في حال قُوبِلنا برفض جديد، ثم ذهبا وحدهما لإنهاء الإجراءات في غروسيو پرادو. دار بينهما وبين العمدة حديث مُطوَّل.

- «إنه رجل خلاسي في غاية الحكمة، من أولئك العظام الذين لا تنجبهم سوى أرض تشينتشا»، قال پاسكوال. «يجب عليك أن تعبِّر عن امتنانك للتقية ميلتشوريتا بحضور موكبها».

أصغى عمدة غروسيو پرادو إلى التفسيرات التي أدلى بها خابيير في هدوء، واطَّلع على جميع المستندات بتروٍّ، وبعد طول تأمُّل، أملى شروطه: ألف صول، فضلًا عن استبدال رقم ثلاثة برقم ستة في

شهادة ميلادي، فأكون بذلك قد وُلِدتُ قبل الموعد الحقيقي بثلاثة أعوام.

- «إنه ذكاء البروليتاريا»، قال خابيير. «نحن طبقة في طريقها إلى الانحدار، صدِّقني. لم يخطر لنا الأمر حتى على بال. أما ذلك الرجل القروي، بحسن إدراكه المُتوقِّد، فما لبث أن رآه في لحظة واحدة. قُضِي الأمر، وأصبحتَ الآن راشدًا».

وهناك، في مجلس البلدية، تعاون كلٌّ من خابيير والعمدة على تبديل الثلاثة بستة، بيدَيْهما. قال الرجل: سيان كان الحبر هو نفسه أم لم يكُن، فوحده المحتوى يهمّ. وصلنا إلى غروسيو پرادو قرابة الثامنة. كانت ليلة صافية، مُرصَّعة بالنجوم، خيَّم عليها دفءٌ لطيف، بينما تلألأ وهج المشاعل في كل بيوت القرية وأكواخها. رأينا بيتًا أسطع إضاءةً، ينبعث منه وميض الشموع القوي آتيًا من بين القصب، فقال لنا پاسكوال وهو يرسم علامة الصليب إنها الصومعة التي عاشَت فيها المرأة التقية.

وفي مقرّ البلدية، كان العمدة ينتهي من تسجيل الزواج في سجلٍّ ضخم أسود الدفّتَيْن. اكتسَت أرضية الحجرة الوحيدة في المقرّ بالتراب الذي ابتلّ منذ قليل، وتصاعَد منه بخار رطب. استقرَّت فوق الطاولة ثلاث شموع مُضرَمة، على بريقها الخافت ظهرَت الجدران المُكلَّسة، وعلم بيرو الوطني المُثبَّت بالدبابيس، ولوحة صغيرة تُصوِّر رئيس الجمهورية. كان العمدة رجلًا خمسينيًّا، بدينًا، له وجه خالٍ من التعابير. مضى يكتب ببطء، بقلم الحبر الذي كان يغمسه في دواة طويلة العنق بعد كل جملة. حيَّاني أنا والخالة خوليا بانحناءة جنائزية. طبقًا لحساباتي، استغرق ما يربو على ساعة كاملة في تسجيل الزواج، مع الأخذ في الحسبان تلك الوتيرة التي كان يكتب بها. وعندما فرغ من الكتابة، قال، من دون أن يتحرَّك:

- «نحن في حاجة إلى شاهدَيْن».

تقدَّم خابيير وپاسكوال، ولكن العمدة لم يقبل سوى الأخير شاهدًا، لأن خابيير لم يبلغ سن الرشد بعد. خرجتُ أتحدَّث إلى السائق الذي مكث في سيارة الأجرة. قبِل الشهادة على زواجنا لقاء مئة صول. كان زنجيًّا نحيفًا، له سنٌّ من ذهب. ظلَّ يدخِّن طوال الوقت، وخيَّم عليه الصمت خلال رحلة الذهاب. وفي تلك اللحظة، عندما أشار العمدة إلى الموضع حيث يجب عليه التوقيع، هزّ رأسه آسفًا.

- «يا للأسف!»، قال، كمن يشعر بالندم. «أين رأى المرء عرسًا بلا قارورة واحدة حتى يشرب الحضور نخب العروسَيْن؟ لا أستطيع الشهادة على شيء كهذا». ثم رمقنا بنظرة شفقة، وأردف من مكانه على عتبة الباب: «انتظروني لحظة».

أغمض العمدة عينَيْه، عاقدًا ذراعَيْه، فبدا وكأنما استغرق في النوم. بينما رحنا نتبادل النظرات أنا والخالة خوليا وپاسكوال وخابيير، ونحن لا ندري ما العمل. وأخيرًا هممتُ بالبحث عن شاهد آخر في الشارع.

- «لا داعي لذلك. سوف يعود»، استوقفني پاسكوال. «أضف إلى ذلك أنه مُحِقٌّ تمامًا. كان علينا التفكير في نخب العروسَيْن. لقد لقَّننا ذلك الزنجي درسًا».

- «لا أحد يملك أعصابًا قادرة على احتمال كل هذا»، همسَت الخالة خوليا وهي تأخذ بيدي. «ألا تشعر وكأنك تسطو على مصرف، بينما الشرطة على وشك الوصول؟».

استغرق الزنجي قرابة عشر دقائق، بدَت أعوامًا، ولكنه عاد في النهاية ممسكًا بقارورتَيْن من النبيذ، فتمكَّنا من استئناف المراسم. وما إن وقَّع الشاهدان حتى طلب العمدة مني أنا والخالة خوليا أن

نوقِّع بدورنا، وفتح نسخة من قانون الأحوال الشخصية، ثم قرَّبها منا على ضوء إحدى الشموع. وبالبطء الذي يكتب به، شرع يقرأ علينا المواد ذات الصلة، والحقوق والواجبات الزوجية. ثم ناولنا قسيمةً، وقال إننا صرنا زوجَيْن. تبادلنا قبلة، وعانقنا الشاهدَيْن والعمدة. فتح السائق قارورتَي النبيذ بأسنانه. خلا المكان من الأكواب، فشربنا من فوَّهة القارورة التي مضينا نمرِّرها من يد إلى يد بعد كل رشفة. وفي طريق العودة إلى تشينتشا - الطريق التي قطعناها جميعًا بسعادة وطمأنينة - حاول خابيير أن يعزف مارش الزفاف صفيرًا، ولكن محاولته باءت بفشل كارثي.

دفعنا أجرة السيارة، ثم ذهبنا إلى ميدان أرماس حتى يستقلّ خابيير وپاسكوال سيارة أجرة مشتركة إلى ليما. كانت إحدى السيارات مُنطَلِقة بعد ساعة، وهكذا وجدنا وقتًا كافيًا لتناول الطعام في إل صول دي تشينتشا. وهناك، وضعنا مُخطَّطًا يذهب خابيير بمقتضاه إلى بيت الخال لوتشو وزوجته أولغا متى وصل إلى ميرافلوريس ليجسّ نبض العائلة، ثم يتَّصل بنا عَبْر الهاتف. بينما نعود نحن إلى ليما في صباح اليوم التالي. أما پاسكوال، فيجب عليه أن يبتكر حجة مقنعة يبرِّر بها غيابه عن الراديو لما يزيد على يومَيْن.

ودَّعناهما في محطة سيارات الأجرة المشتركة، ثم عدنا إلى فندق سودامريكانو ونحن نتجاذب أطراف الحديث كما لو كنا زوجَيْن عجوزَيْن. أحسَّت الخالة خوليا بأنها ليسَت على ما يُرام، ورأت أن نبيذ غروسيو پرادو هو السبب. قلتُ لها إنني وجدتُ ذلك النبيذ في غاية اللذة، ولكني لم أخبرها بأنها كانت أول مرة أتناول النبيذ مدى الحياة.

١٨

وُلِد باردو[١] ليما، كريسانتو مارابيَّاس، في زقاق مُتفرِّع من ميدان سانتا آنا، بوسط المدينة. ومن أسطح ذلك الزقاق، كان يُرسِل إلى الهواء أجمل الطائرات الورقية التي شهدَتها بيرو، تلك الأجسام البديعة المصنوعة من الورق الحريري، التي كانت ترتفع برشاقة فوق باريوس ألتوس، فتخرج راهبات دير الحافيات المُتوحِّدات إلى المناور حتى يختلسن النظر إليها. أما ميلاد ذلك الطفل، الذي من شأنه أن يرفع موسيقى الفالس الكريوليَّة والمارينيرا والبولكا إلى أعالٍ تليق بالطائرات الورقية بعد مضي أعوام، فلقد صادف تحديدًا ذلك اليوم الذي دُشِّنَت فيه طائرة ورقية، أي ذلك الحفل الذي ضمّ خيرة عازفي الجيتار وقارعي طبل الكاخون والمغنيين في الحيّ، بزقاق سانتا آنا. فتحَت القابلة نافذة الحجرة هـ، التي وُلِد فيها الطفل، لتُعلِن أن تعداد ذلك الركن من أركان المدينة قد زاد نسمة واحدة، فتنبَّأت له بأنه: «لو نجا بحياته، لصار مُولعًا بالحفلات الصاخبة».

وإن حامَت الشكوك حول إمكانية نجاته: لأن وزنه كان أقلّ من كيلو واحد، كما بلغَت ساقاه الصغيرتان من الضمور حدًّا جعل عجزه

---

(١) باردو «Bardo»: في تاريخ أوروبا القديم، كان الباردو هو الحكَّاء أو راوي الأشعار والأساطير وما إلى ذلك. (المترجم)

عن السير مدى الحياة أمرًا مُرجَّحًا. أما والده، بالِنتين مارابيَّاس، الذي أمضى حياته في محاولة التبشير بطائفةِ سيِّد ليمپياس في أرجاء الحيّ - حيث أنشأ الرابطة الأخوية التي جعل مقرّها حجرته الخاصة، وأقسم على أن تتفوَّق على أخويةِ سيِّد المعجزات من حيث عدد الأعضاء قبل وفاته، القسم الذي قطعه على نفسه طائشًا، أو ماكرًا، حتى يضمن لنفسه عمرًا مديدًا -، فلقد أعلن أن شفيعه سوف يصنع المعجزة ويخلِّص ابنه ويسمح له بالسير كما يسير المسيحي الطبيعي. أما أمه، ماريا پورتال، الطاهية ذات الأصابع السحرية التي لم تُصَب بنزلة برد قطّ، فلقد تأثَّرَت بشدة حين رأت ابنها الذي طالما حلمَت به وتضرَّعَت إلى الرَّب حتى يهبها إياه، فوجدَته لا يعدو أن يكون ذلك الشيء - أتراه يرقة قردٍ من القردة العليا أم جنينًا تعيسًا؟ - فإذا هي تطرد زوجها من البيت، وتحمِّله المسؤولية، وتتَّهمه أمام أهل الحيّ بأنه من أشباه الرجال، بسبب إسرافه في التقوى.

والحقّ أن كريسانتو مارابيَّاس قد نجا بحياته. وعلى الرغم من ساقَيْه الهزيلتَيْن اللتين تبدوان كالأضحوكة، فلقد تمكَّن من السير على قدمَيْه، وإن خلَت مشيته من كل أثر للرشاقة، بالطبع. إذ كان يمشي كالدمية التي تقطع الخطوة الواحدة مُقسَّمةً على ثلاث حركات منفصلة - برفع الساق، فثني الركبة، فخفضِ القدم - ويمضي ببطء شديد يحمل السائرين إلى جواره على الشعور بأنهم في موكبٍ ديني عالق بالشوارع الضيقة. ولكن كريسانتو أصبح يتنقَّل في أنحاء العالَم بمشيئته وبلا عكَّاز، على الأقل، حسبما قال والداه (اللذان تمّ لهما الصلح). كان دُوُن بالِنتين يحمد سيِّد ليمپياس، جاثيًا على ركبتَيْه في كنيسة سانتا آنا، بعينَيْن رطبتَيْن. في حين قالت ماريا پورتال إن صاحب المعجزة هو أشهر أطباء المدينة، وليس سواه، ذلك الطبيب المُتخصِّص في داء الكساح، الذي جعل عددًا لا حصر له من

مرضى الشلل يصبحون من العدَّائين: إنه دكتور ألبِرتو دي كينتيروس. أعدَّت ماريا ولائم كريوليَّة مشهودة في بيته، بينما علَّمها الحكيم تدريبات وطرائق للتدليك والعناية كي تصبح أطراف كريسانتو قادرةً على حمله والتحرُّك به في طرقات العالَم، برغم الهزال والضمور الشديدَيْن.

لا أحد يملك الزعم بأن كريسانتو مارابيَّاس قد عاش طفولة تشبه تلك التي عاشها باقي أطفال الحي التاريخي حيث قُدِّر له أن يُولَد. مِن حسن الحظّ، أو مِن عُثْر الحظّ، لم يسمح له جسده النحيل بالمشاركة في أيٍّ من تلك الأنشطة التي شكَّلَت أجساد فتية الحيّ وأرواحهم: فلم يلعب بكرةٍ القماش، ولم يتمكَّن من الملاكمة في الحلبة ولا خوض شجار بالأيدي في أحد الأركان، ولم يحدث يومًا أن شارك في إحدى المعارك التي تدور بالمقاليع أو الأحجار أو الركلات في شوارع ليما العتيقة، تلك التي يشتبك فيها صِبيةُ ميدان سانتا آنا وعصابات تشيريمويو وكوتشاركاس وسينكو إسكيناس وسِركادو. لم يتسنَّ له الذهاب مع رفاق المدرسة العمومية الواقعة بميدان سانتا كلارا (حيث تعلَّم القراءة) لسرقة الفاكهة من مزارع كانتوغراندي ونيانيا، أو السباحة عاريًا في ريماك، أو امتطاء ظهور الحمير من دون بردعة في مراعي سانتويو. كان من قصر القامة بحيث بدا على مشارف التقزُّم، نحيفًا كالمكنسة، له بشرة تميل إلى لون الشكولاتة ورثها عن أبيه، وشعر ناعم ورثه عن أمه. بعينَيْه الذكيتَيْن، كان كريسانتو يرنو إلى رفاقه عن بعد، ويراهم يتسلّون ويتعرَّقون ويكبرون ويزيدون قوَّة، في تلك المغامرات التي حُرِم منها، فيرتسم على وجهه تعبير ينمّ عن... أتراه شجنًا مغلوبًا، أم حزنًا هادئًا؟

في حقبة بعينها، بدا أنه سوف يتديَّن مثل أبيه (الذي أمضى حياته

في حمل شتى تماثيل المسيح والعذراء في المواكب الدينية، مُبدِّلًا رداءً دينيًّا بآخر، فضلًا عن انتمائه إلى طائفة سيِّد ليمپياس)، لأن كريسانتو كان شماسًا يواظب على الذهاب إلى كنائس المناطق المحيطة بميدان سانتا آنا طوال أعوام. ولمَّا كان يتوخَّى الدقة، ويحفظ ردود الشعائر عن ظهر قلب، ويبدو بمظهر بريء، فلقد غفر له كهنة المنطقة حركاته البطيئة المُرتبِكة، وأكثروا من استدعائه حتى يمدّ لهم يد العون في القداسات الإلهية ويقرع الجرس خلال طقوس درب الصليب في أسبوع الآلام أو يحمل المبخرة في المواكب الدينية. كانت ماريا پورتال تراه وقد التحف برداء الشمَّاس الذي يبدو أكبر من قياسه دائمًا، وتسمعه يتلو في ورع، بلغة لاتينية سليمة، في دور عبادة ترينيتارياس وسان أندريس وإل كارمِن وبوينا مويرتي وكذلك في كنيسة كوتشاركاس الصغيرة (إذ كان يُستدعَى حتى من ذلك الحي البعيد)، عندئذ كانت أمه تكتم التنهيدة، وهي التي تمنَّت لابنها مسيرةً حافلة يخوضها عسكريًّا أو مغامرًا أو نبيلًا لا يُقاوَم. ولكن مَلِك الجمعيات الأخوية الدينية، بالِنتين مارابيَّاس، شعر بالحماس يغمر قلبه أمام احتمال أن يغدو ابنه الذي وُلِد من دمه كاهنًا.

ولكن الجميع أخطأ، إذ لم تكن للطفل رسالةٌ دينية، وإنما وُهِبَت له حياة داخلية حافلة، بَيْد أنه لم يجد الطرائق ولا الأمكنة ولا الأشياء التي يغذِّي بها رهافة نفسه. مع أن الأجواء الملأى بالشموع البرَّاقة والمباخر والابتهالات والصور المُرصَّعة بالقرابين وتلاوات القداسات الإلهية والطقوس والصلبان والسجدات قد هدَّأت من نهمه المُبكِّر إلى الشِّعر وتعطُّشه إلى الروحانية. كانت ماريا پورتال تساعد الراهبات الحافيات في صنع الحلوى والأشغال المنزلية، ما جعلها واحدة من القلائل الذين سُمِح لهم بعبور الحدود الصارمة التي تفصل

دير الراهبات المُتوحِّدات عما عداه. كانت الطاهية الماهرة تصطحب إلى الدير كريسانتو، الذي مضى يكبر (في السنّ، لا في القامة)، ولكن الراهبات الحافيات ألفن رؤيته (وكأنه مُجرَّد شيء من الأشياء، مِزقة من القماش، شبه كائن، حلية بشرية)، فسمحن له بأن يستمرّ في التسكُّع بدير المُتوحِّدات بينما كانت ماريا پورتال تعين الراهبات على صنع الكعك السماوي والمهلبية المرتجفة والمارينغ الأبيض والبيض المُحلَّى وحلوى المارزيبان التي تُباع لاحقًا لجمع النقود من أجل إرساليات إفريقيا. وهكذا عرف كريسانتو مارابيَّاس الحبّ، وهو في العاشرة من العمر...

كانت الطفلة التي أغوَته في الحال تُدعَى فاطمة، وتقوم بمهمات الخادمة المتواضعة في ذلك الكَوْن الأنثوي للراهبات الحافيات. كانت في مثل عمره. رآها كريسانتو مارابيَّاس أول ما رآها بعد أن انتهَت الصغيرة لتوّها من مسح أروقة الدير المُبلَّطة بألواح الأحجار الجبلية، وهمَّت بريّ شجيرات الورد والسوسن في البستان. كان جسدها محجوبًا في جوال مثقوب، كما ضُمّ شعرها بقطعة من القماش الخشن تشبه الطرحة. وعلى الرغم من ذلك، فلم يمكن للطفلة أن تخفي أصلها: ببشرتها العاجية، والهالات الزرقاء المحيطة بعينَيْها، وذقنها المُكابِر، وكاحلَيْها الرشيقَيْن. كانت طفلة لقيطة - في واحدة من مآسي الدماء الزرقاء التي يحسد عامةُ الشعب أصحابَها عليها - هُجِرَت ذات ليلة من ليالي الشتاء، في محيط شارع خونين، وقد لُفّ جسدها بغطاء سماوي اللون وأُرفِق برسالة مكتوبة بالدموع: «أنا ابنة حبٍّ تعيس، أوقع أسرةً شريفة في اليأس. لا يمكنني العيش في المجتمع، وإلَّا كنتُ دليلًا يدين الخطيئة التي ارتكبها مَن جاءا بي إلى الدنيا، هذان اللذان حُظِر عليهما أن يحبّ أحدهما الآخر، وحيل دونهما ودون استبقائي والاعتراف بي ابنةً لهما، لأنهما

يشتركان في أب واحد وأم واحدة. أما أنتن، أيتها الراهبات الحافيات المُبارَكات، فوحدكن تملكن تنشئتي من دون أن تشعرن بالخزي مني، أو تحملني على الشعور بالخزي. ولسوف يقدِّم والداي المُعذَّبان مكافأةً سخية للدير على هذا العمل الخيري الذي من شأنه أن يفتح لكنّ أبواب الملكوت».

وبجوار ابنة زنى المحارم، عثرَت الراهبات على صرَّة ملأى بالنقود، انتهَت إلى إقناعهن (مثل أكلة لحوم البشر الوثنيين الذين لا بدّ من تبشيرهم بالمسيحية وكسوتهم بالثياب وإطعامهم): وهكذا تقرَّر استبقاؤها خادمةً في الدير. أما لو ثبت أنها صاحبة رسالة دينية، فلسوف تجعل منها الراهبات أَمَةً أخرى من إِمَاء الرَّب ذوات الأردية البيضاء. عُمِّدَت باسم فاطمة، إذ عُثِر عليها يومَ ظهور العذراء مريم للرعاة الصغار في فاطمة بالبرتغال. شبَّت الطفلة على تلك الحال، بعيدًا عن العالَم، بين الجدران البتول، جدران دير الحافيات، في أجواء نقية، ولم ترَ بعينَيْها (قبل كريسانتو) رجلًا سوى دُوُن سِباستيان (بيرغوا؟)، الكاهن العجوز مريض النقرس، الذي كان يحضر مرة واحدة في الأسبوع ليعطي الراهبات حلًّا من خطاياهن الطفيفة (العارضة دائمًا). كانت عذبة الطباع، رقيقة، وديعة، في حين قالت الراهبات الأكثر حكمةً إن بوادر القداسة التي لا تخطئها العين تتجلّى في سلوكها (بنقاء الذهن الذي يضفي على الأنظار حسنًا وعلى الأنفاس طوباويةً).

بذل كريسانتو مارابيَّاس جهدًا خارقًا حتى يتغلَّب على الخجل الذي يلجم لسانه، واقترب من الطفلة سائلًا إن كان بمقدوره أن يساعدها في ريّ البستان، فوافقَت. ومنذ ذلك الحين، كلّما ذهبَت ماريا بورتال إلى الدير، وبينما هي تطهو الطعام مع الراهبات، صار كريسانتو وفاطمة يكنسان العنابر معًا، أو يمسحان الباحات معًا، أو

يبدِّلان أزهار المذبح معًا، أو ينظِّفان زجاج النوافذ معًا، أو يفركان البلاط بالشمع معًا، أو ينفضان الغبار عن كتب الصلوات معًا. ورويدًا رويدًا، نشأ رباط بين الصبي الدميم والطفلة الجميلة، كما يُولَد الحبّ الأول الذي يبقى في ذاكرة المرء دومًا على أنه الحبّ الأفضل، ولكن، هل يقطع الموت ذلك الرباط؟

كان الصبي شبه الكسيح على مشارف الثانية عشرة من العمر حين انتبه بالِنتين مارابيَّاس وماريا پورتال إلى أولى بوادر الهوى الذي سوف يجعل كريسانتو شاعرًا في غاية الإلهام ومُلحِّنًا عظيمًا في زمن قصير.

تمَّ له ذلك خلال الاحتفاليات التي كانت تجمع أهالي ميدان سانتا آنا ما لا يقلّ عن مرة واحدة كل الأسبوع. ففي مأوى السيارات الخاص بتشومپيتاس الخيَّاط، في الباحة الصغيرة الملحقة بمتجر أدوات آل لاماس، بالزقاق حيث عاش بالِنتين، كانت الحفلات الصاخبة تُقام حتى مطلع الفجر على نغم الجيتار وقرع طبول الكاخون وتصفيق الأكفّ وصوت المغنيين، بمناسبة مولد طفل أو تشييع جثمان فقيد (للاحتفال بالفرحة أم لمداواة الأسى؟)، فما كان الأمر يخلو من أسباب جديرة بالاحتفال قطّ. وبينما الشرار ينطلق من الأرض المُبلَّطة على الخطوات التي يخطوها أزواج الراقصين المفعمين بالحيوية - بفعل الشراب المُتوهِّج والأطعمة ذات الرائحة الطيبة التي تعدّها ماريا پورتال - كان كريسانتو مارابيَّاس يرنو إلى عازفي الجيتار وقارعي طبل الكاخون والمغنيين وكأن تلك الأصوات والكلمات شيء خارق للطبيعة. وكان الطفل، كلّما استراح الموسيقيون لتدخين سيجارة أو شرب كأس صغيرة، يقترب من آلات الجيتار بإجلال، ويربِّت عليها بحرص كيلا يُفزِعها، ويضرب الأوتار الستة، فتتعالى النغمات المُركَّبة. . .

وسرعان ما تجلَّت موهبته، ومَلَكته الاستثنائية. كان للكسيح سمعٌ مرهف، يلتقط أي إيقاع ويحفظه من فوره. وعلى الرغم من ضعف يدَيْه، فلقد أتقن مصاحبة أي موسيقى كريوليَّة على طبل الكاخون ببراعة. وفي تلك الاستراحات الفاصلة بين فقرات الأوركسترا لتناول الطعام أو شرب الأنخاب، تعلَّم الأسرار وحده، وبات صديقًا حميمًا لآلات الجيتار. ألف الجيران رؤيته وهو يعزف مع الموسيقيين خلال الحفلات.

لم تنمُ ساقاه، وظلّ مُحتفِظًا بمظهر طفل في الثامنة، مع أنه بلغ الرابعة عشرة من العمر. كان شديد الهزال، عاش حياته يعاني من فقدان شهية مزمن، الأمر الذي يُعَدّ دليلًا دامغًا على طباع الفنَّان التي ميَّزَته، إنها الرشاقة التي تؤاخي بين المُلهَمين. ولو لم تكُن ماريا پورتال هناك، تحشو فمه بهمتها العسكرية، لاختفى **الباردو** الشاب عن الأنظار. ولكن ذلك الجسد الهشّ لم يعرف التعب ما اقترن الأمر بالموسيقى، فكان عازفو الجيتار بالحيِّ يتساقطون على الأرض وقد أدركهم الإجهاد وتشنَّجَت أصابعهم وبُحَّت أصواتهم بعد العزف والغناء طوال ساعات، بينما يظلّ الكسيح هناك، جالسًا على كرسي صغير من القشّ (بقدمَيْن صغيرتَيْن تليقان برجل ياباني، لا تصلان إلى الأرض أبدًا، وأصابع ضئيلة لا تكلّ)، فيستقي من الأوتار أنغامًا أخَّاذة، ويغنِّي كما لو أن الحفل قد بدأ لتوِّه. لم يمتلك صوتًا قويًّا، فما كان ليقدر على تقليد مآثر حزقيال دلفين الشهير، الذي كان يشقّ بصوته زجاج النوافذ القائمة أمامه إذا رفع عقيرته بأغاني فالس بعينها، مِن سلَّم صول. بَيْد أنه استعاض عن نقص القوة بالترتيل مكتمل الصنعة، والتجويد الذي يصل إلى حدِّ الهوس، والنبرات التي لا أخطأت اللحن يومًا ولا أضرَّت به.

وعلى الرغم من ذلك، فهو لم يشتهر مُؤدِّيًا، بل مُؤلِّفًا. ذات

سبت، خلال حفل صاخب أشاع البهجة في زقاق سانتا آنا بمناسبة عيد القديسة التي سُمِّيَت الطاهية تيمُّنًا بها، تحت الرايات المُلوَّنة والشرائط الورقية الملفوفة والصنوج المُعلَّقة، ذاع الخبر القائل بقدرة الفتى الكسيح، ابن باريوس ألتوس، على تأليف الموسيقى الكريوليَّة، فضلًا عن عزفها وإنشادها. ذلك أن الموسيقيين قد فاجأوا الحضور في منتصف الليل بأغنية بولكا قصيرة لم يسبق أن قُدِّمَت من قبل، جاءت كلماتها على شكل حوار بيكاريسكي:

كيف؟

بالمحبة، بالمحبة، بالمحبة.

وماذا تفعل؟

أحمل زهرة، أحمل زهرة، أحمل زهرة.

أين؟

في عروة الثياب، الثياب، الثياب.

لمن؟

لماريا پورتال،

ماريا پورتال، ماريا پورتال...

وإذا بالإيقاع يصيب الحاضرين بعدوى الرغبة القهرية في الرقص والقفز والوثب، وكلمات الأغنية تبدو لهم مُسلِّية ومُؤثِّرة. وهكذا عمّ الفضول جميع الحضور: مَن مُؤلِّف الأغنية؟ التفت الموسيقيون برؤوسهم، وأشاروا إلى كريسانتو مارابيَّاس، الذي خفض عينَيْه، بتواضع العظماء الحقيقيين. أمطرَته ماريا پورتال بالقبلات. أما بالِنتين، عضو الجمعيات الدينية، فلقد جفَّف دمعةً سالَت من عينه.

في حين كافأ جميع أهل الحيّ مُؤلِّفَ الأشعار الجديد بالتصفيق. وهكذا وُلِد فنان جديد، في مدينة المُلثَّمات[١].

كانت مسيرة كريسانتو مارابيَّاس فلكية، (لو أمكن لكلمة «مسيرة»، المقترنة برياضة المشي، أن تصف ذلك الإنجاز الذي كان موسومًا. . . بنفحة إلهية؟). فما هي إلَّا أشهر قليلة حتى ذاعَت أغانيه في ليما، وما هي إلَّا أعوام حتى صارَت محفورة في ذاكرة بيرو وقلبها. أقرَّ له القاصي والداني بأنه أحبَّ المُلحِّنين إلى أهل البلد، وهو لم يتمّ العشرين عامًا بعد. أما أغاني الفالس التي كان يُؤلِّفها، فلقد أشاعت البهجة في حفلات الأثرياء، ورقص على أنغامها أبناء الطبقة المُتوسِّطة في الولائم، وصارَت طبقًا شهيًّا يطيب للفقراء. تنافسَت فرق العاصمة الموسيقية على تقديم أعماله، ولم يبقَ رجل أو امرأة، في بداية المسيرة الغنائية الشاقة، إلَّا وانتقى روائع مارابيَّاس حتى يدرجها على قائمته الخاصة. صدرَت مُؤلَّفاته في أسطوانات، وكُتيِّبات، وبات حضوره ضرورةً لا غنى عنها على موجات الراديو وصفحات المجلات. وفي إطار النمائم والخيال الشعبي، صار المُلحِّن الكسيح ابن باريوس ألتوس أسطورةً.

ولكن الشعبية والمجد لم يلعبا برأس الفتى البسيط الذي تلقَّى هذا التكريم بلا مبالاة البجعات. تخلَّى عن المدرسة في الصف الثاني الإعدادي حتى يتفرَّغ للفن. وبالإكراميات التي كان يتلقَّاها عن العزف خلال الحفلات، أو تقديم أغاني السريناد، أو تأليف القصائد المُطرَّزة، تمكَّن من اقتناء جيتار. تملَّكته السعادة يومَ حصل عليه: إذ وجد فيه موضع الأسرار الذي يبوح إليه بآلامه، ورفيق الوحدة، والصوت الذي يشدو بإلهامه.

---

(١) مدينة المُلثَّمات: يُقصَد بها ليما، إذ اشتهرَت نساؤها باللثام أو غطاء الرأس الذي كُنَّ يحجبن به رؤوسهن في الماضي. (المترجم)

لم يتقن كتابة النوتة الموسيقية ولا قراءتها، ولم يتعلَّم ذلك يومًا. بل كان يؤلِّف سماعًا، بالحدس، فلا يكاد يضع اللحن حتى يتغنَّى به على مسمع من بلاس سانخينيس الخلاسي، مُعلِّم الحيّ، الذي يتولَّى كتابة النوتة الموسيقية. لم يرغب في إدارة موهبته قطّ: فهو لا سجَّل مُؤلَّفاته باسمه، ولا تقاضى عنها أتعابًا، بل إنه كان يكتفي بالتثاؤب كلّما جاءه الأصدقاء يخبرونه بأن أشباه الفنانين محدودي الموهبة ينتحلون موسيقاه وكلماته. وعلى الرغم من ذلك التنزُّه عن الأغراض، استطاع أن يربح قدرًا من المال الذي كانت ترسله إليه شركات الأسطوانات ومحطات الراديو أو المال الذي كان يُطالَب بأن يقبله إذا عزف الموسيقى في إحدى الحفلات. كان يقدِّم تلك النقود إلى والدَيْه، وبعد وفاتهما (وهو في الثلاثين من العمر)، بات ينفقها مع أصدقائه. لم يرغب في مغادرة باريوس ألتوس يومًا، ولا حتى الحجرة هـ الواقعة بالزقاق حيث وُلِد. هل كان السبب شعوره بالألفة والوفاء لأصوله المتواضعة وحبّ القاع؟ صحيح، بلا أدنى شكّ. ولكن السبب الأقوى من كل ما عداه أنه، في ذلك الزقاق الضيِّق، كان على رمية حجر من الصغيرة المدعوة فاطمة التي تجري في عروقها دماء اثنين من ذوي القربى، تلك التي تعرَّف بها وهي خادمة، والآن اتَّخذَت رداء الراهبات، ونذرَت نذور الطاعة والفقر والعفة (آهٍ!)، وصارت عروسًا للرَّب.

كان ذلك السرّ، ولم يزَل، هو سرّ حياته، وعلّة وجود ذلك الحزن الذي عزاه الجميع إلى ضمور ساقَيْه وهيئته غير المتناسقة (إنه عمى الجماهير الذي يخفي جراح الروح). وعلى الرغم مما تقدَّم، فبفضل ذلك التشوُّه الذي جعله يبدو أصغر عمرًا ظلَّ كريسانتو يرافق أمه إلى القلعة الدينية للراهبات الحافيات، حيث كان يتمكَّن من رؤية فتاة الأحلام ما لا يقلّ عن مرة واحدة في الأسبوع. هل أحبَّت

سُوُر[1] فاطمة الرجلَ العاجز مثلما أحبّها؟ ذلك أمرٌ يستحيل الوقوف على حقيقته. ولكن فاطمة، زهرة الدفيئة، التي لا تعرف تلك الأسرار الشبقة، أسرار لقاح الحقول، قد اكتسبَت وعيًا ومشاعر. وبعد أن كانت طفلة، صارَت مراهقة، فامرأة، وهي لا تزال في عالَم الدير المُعقَّم، مُحاطةً بالعجائز. كان كل ما يتناهى إلى أذنَيْها، ويتبدَّى لعينَيْها، ويطوف بخيالها، يمرّ من خلال مصفاة الرهبنة الأخلاقية. كانت حازمةً وسط الحازمات. كيف لها، وهي الفضيلة مُتجسِّدة، أن تحدس بأن ذلك الشيء الذي حسبَته ملكية تخصّ الرَّب وحده (الحب؟)، يمكن أن يتبادله البشر في ما بينهم أيضًا؟ وعلى الرغم من ذلك، فربما أحبَّته، كالماء الذي يتدفَّق من الجبال حتى يلاقي النهر، كالحَمَل الصغير الذي يبحث عن الضرع حتى يرضع الحليب الأبيض قبل أن يفتح عينَيْه. في جميع الأحوال، كان صديقها، والشخص الوحيد في مثل عمرها من بين معارفها، ورفيق الألعاب الذي لم تحظَ بسواه، إن جازَت تسمية كنس الأرضيات ومسح الزجاج وريّ النباتات وإضرام الشموع بالألعاب، تلك المهمات التي كانا يشتركان في إنجازها بينما تعمل ماريا پورتال على تلقين الراهبات سرَّ التطريز، وهي الخيَّاطة البارعة.

والحقّ أن هذين اللذين كانا طفلَيْن، فصارا شابَّيْن، قد تجاذبا أطراف الحديث طويلًا على مدى السنوات الماضية، في محاورات ساذجة. كانت هي بريئة، وكان هو خجولًا، فجمعَتهما أحاديث بريئة تكلَّما فيها عن الحبّ برهافة السوسن وروحانية الحمام، مع أن أحدهما لم يأتِ على ذكره صراحةً، وإنما تكلَّما عن الحبّ من خلال أمور مثل الألوان الجميلة في مجموعة الصور الخاصة بسور فاطمة،

---

(١) سُوُر: لقب يُشار به إلى الراهبات، ويعني «أخت». (المترجم)

والتعريفات التي يدلي بها كريسانتو حتى يفسِّر لها ما عربات الترام وما السيارات وما دور السينما. ولقد حكى مارابيَّاس كل شيء في أغانيه المُهداة إلى المرأة الغامضة التي لم يأتِ على ذكر اسمها قطّ - ومن شاء الفهم، فليفهم - إلَّا في أغنية الفالس ذائعة الشهرة، التي كثيرًا ما حيَّر عنوانها معجبيه: **فاطمة هي عذراء فاطمة**.

وعلى الرغم من علمه بأنه لن يستطيع الخروج بها من الدير والفوز بها أبدًا، كان كريسانتو مارابيَّاس يشعر بالسعادة لرؤية مُلهِمته بضع ساعات من كل أسبوع، فيخرج مُشبَّعًا بالإلهام من تلك اللقاءات القصيرة، وهكذا تولَّدَت الأغاني على إيقاع الموساما‌لا واليارابي والفيستيخو والرسبالوسا. أما المأساة الثانية في حياته (بعد إصابته بالعجز)، فلقد وقعَت يومَ تصادف أن رأته رئيسةُ دير الحافيات وهو يفرغ مثانته. تقلَّب لون الأمّ الراهبة ليتوما عدة مرات، وأصيبَت بنوبة فواق. ثم هرولَت لتسأل ماريا پورتال عن عمر ابنها، فاعترفَت الخياطة بأنه قد أتمَّ الثامنة عشرة، مع أن طوله وقوامه يليقان بصبي في العاشرة. وهكذا حظرَت الأم ليتوما عليه أن يدخل الدير إلى الأبد، وهي ترسم علامة الصليب.

كانت ضربة شبه قاتلة **لباردو** ميدان سانتا آنا، الذي سقط مريضًا بالرومانسية، ذلك الداء العصيّ على العلاج. لزم الفراش أيامًا طوالًا - وقد أصيب بحمّى في غاية الشدّة، ونوبات هذيان منغومة - في حين مضى الأطباء والمداوون يجرِّبون صنوف الدهانات والتعاويذ لردِّه من الغيبوبة التي استغرق فيها. ثم قام بعد أن صار شبحًا يكاد لا يقوى على الوقوف. ولكن الانفصال عن معشوقته كان مفيدًا لفنِّه (وهل كان في الإمكان احتمالٌ آخر؟): لأن ذلك الانفصال قد أضفى على موسيقاه صبغةً عاطفيَّة إلى حدّ البكاء، وجعل كلماته درامية على نحوٍ رجولي. بل إن أغاني الحبّ العظيمة التي ألَّفها كريسانتو مارابيَّاس

تعود إلى تلك الأعوام. أما أصدقاؤه، فكلّما استمعوا إلى تلك الأشعار الأليمة المصحوبة بالعذب من الألحان عن الفتاة الأسيرة، طائر الحسّون حبيس القفص، الحمامة الصغيرة المُقتنَصة، الزهرة المُقتطَفة المُختطَفة، رهينة معبد الرَّب، والرجل العليل الذي أحبّها عن بُعْد بلا أمل، كانوا يتساءلون: «مَن تكون؟». وبالفضول الذي أودى بحواء، أخذوا يحاولون التحقُّق من هوية بطلة أغانيه وسط النساء اللائي حاصرن الفنان. لأن كريسانتو مارابيَّاس، على الرغم من ضآلة جسده ودمامة وجهه، كان يجذب نساء ليما إليه كالمسحورات: النساء ذوات البشرة البيضاء والثروة المُكدَّسة في البنوك، والخلاسيات من بنات الطبقة الدنيا، والزنجيات من بنات العشوائيات، والفتيات اللاتي ما زلن يتعلَّمن مهارات العيش، والعجائز اللائي تزلّ أقدامهن في السير. . . كن يحضرن جميعًا إلى الحجرة ه الداخلية المُتواضعة، مُتعلِّلات بطلب توقيع الفنان. كانت الواحدة منهن تسبِّل عينَيْها، أو تقدِّم له الهدايا، أو تداهنه، أو تلِّمح له، أو تقترح المواعيد، أو تغريه بالخطيئة مباشرةً. هل تعوَّدَت أولئك النساء تفضيل الرجال المُشوَّهين - مثل نساء بلدٍ بعينه، يختال تيهًا حتى في اسم عاصمته (هل تُسمَّى عاصمته «بوينوس بيينتوس»؟ «بوينوس تييمپوس»؟ «آيرِس سالودابليس»؟) - عملًا بالحكم المسبق الغبي الذي يقول بأن الرجال المُشوَّهين أصلح للزواج من الرجال الطبيعيين؟ كلا، بل كان الثراء الفنِّي الذي تميَّز به رجل ميدان سانتا آنا الهزيل يضفي عليه وسامة روحانية تخفي تعاسته الجسمانية، بل وتجعله مرغوبًا. أما كريسانتو مارابيَّاس، فكان يصدّ تلك المحاولات بأدب، برقّة المتعافين من السلّ، ويُخبِر النساء اللاتي يسعين إليه بأنهن يهدرن وقتهن. ثم يُدلِي بعبارة مفعمة بالأسرار، تثير زوبعةً لا تُوصَف من النمائم حوله: «أؤمن بالوفاء، وأنا راعٍ صغير من البرتغال».

آنذاك، عاش حياةً بوهيمية تليق بغجريّ الروح، فكان يستيقظ قرب منتصف النهار، ويتناول غداءه عادةً برفقة كاهن كنيسة سانتا آنا، قاضي التحقيق السابق، غومِرسيندو تِيّو، الذي تأثَّر كثيرًا بواقعة جرَت في مكتبه، إذ أقدم رجلٌ ينتسب إلى طائفة دينية (دون بِدرو باريدا إي سالديبار؟) على تشويه جسده في مكتب القاضي لإثبات براءته من الجريمة التي اتُّهِم بها (جريمة قتل رجل أسود جاء من البرازيل مُتسلِّلًا في جوف سفينة من عابرات المحيطات؟). وهكذا خلع دكتور غومِرسيندو تيّو روبَ القاضي واتَّخذ رداء الكهنة. أما واقعة التشويه، فلقد خلَّدها كريسانتو مارابيَّاس في أغنية من إيقاع الفيستيخو على أنغام الكيخادا والجيتار وطبل الكاخون، بعنوان: **الدماء تبرئني**.

دَرَج **البادو** والأب الكاهن غومِرسيندو على السير معًا في شوارع ليما، حيث كان كريسانتو (الفنان الذي يتغذَّى على الحياة نفسها؟) يرصد الشخوص والأفكار من أجل أغانيه. كانت موسيقاه - التي تناولَت الموروث والتاريخ والفولكلور والنميمية - تُخلِّد شخوص المدينة وتقاليدها بالأنغام. في حلبات مصارعة الديكة المُجاوِرة لميدان سِركادو، وحلبات سانتو كريستو أيضًا، كان مارابيَّاس والأب الكاهن غومِرسيندو يحضران التدريبات التي يُخضِع لها مُرَبّو الديكة أبطالَهم تأهُّبًا للمعارك في كوليسيو دي سانديا، وهكذا وُلِدَت أغنية مارينيرا بعنوان **ماما، احترسي من الفلفل الجاف**. أو كانا يتشمَّسان في ميدان كارمِن ألتو، حيث عثر كريسانتو على فكرة فالس بعنوان **عذراء كارمِن ألتو الصغيرة**، وهو يشاهد مونليون، مُحرِّك الدمَى الذي كان يُسلِّي أهل الحيّ بدُماه المصنوعة من القماش (الفالس الذي جاءت بدايته كما يلي: «أصابعك الصغيرة من أسلاك، وقلبك من القشّ، آه يا حبيبتي!»). ولا شكّ أن

كريسانتو، في تلك الجولات الكريوليَّة التي كان يجوب خلالها مدينة ليما العتيقة، قد مرّ بالنساء العجائز المُتَّشِحات بالأوشحة السوداء، الحاضرات في فالس بعنوان **أيتها التقية، أنتِ أيضًا كنتِ امرأة**. كما رأى الشجارات الدائرة بين المراهقين التي يتطرَّق إليها في أغنية بولكا بعنوان **الصبية الأشقياء**.

كان الصديقان يفترقان قرابة السادسة، فيعود الكاهن إلى الأبرشية حتى يُصلِّي من أجل روح آكلِ لحوم البشر الذي قُتِل في كاياو، بينما يذهب **الباردو** إلى مأوى السيارات الخاص بتشومپيتاس الخيَّاط، هناك حيث يلتقي بجمع من الرفاق المُقرَّبين - سيفوينتيس ضارب طبل الكاخون، وتيبورسيو عازف الكيخادا، (وكذلك المُغنِّية لوسيا أسيميلا؟)، وعازفَي الجيتار فيليپي وخوان پورتوكاريرو - فيتدرَّبون على توزيعات وأغنيات جديدة. وعندما يُقبِل الظلام، يأتي أحدهم بقنينة شراب الپيسكو التي تؤاخي بين الشاربين. وهكذا، بين ألحان وأحاديث، بروفات وكؤوس، تمرّ الساعات، ثم يذهب الجمع إذا أقبل الليل لتناول الطعام في أحد مطاعم المدينة، حيث كان الفنان ضيف شرف دائم. وفي أيام أخرى، كانوا يجدون في انتظارهم حفلات - أعياد ميلاد وخطوبة وزفاف - أو ارتباطات أخرى، في أحد النوادي. ثم كان من عادة الأصدقاء، بعد عودتهم فجرًا، أن يودِّعوا **الباردو** الكسيح على باب بيته. وإذا بخيال شبحٍ مُشوَّه، مُرتبِك في مشيته، يتبدَّى في الزقاق بعد ذهاب الأصدقاء الذين يخلدون إلى النوم في حجراتهم الرثّة، فيجوب الليلَ الرطب ساحبًا خلفه آلة جيتار، وقد اصطبغ بصبغة شبحية تحت رذاذ الفجر وضبابه، ثم يجلس في ميدان سانتا آنا الخالي، على مقعد من الحجر يُشرِف على دير الحافيات. وعند ذاك، تنصت قططُ الفجر إلى أحزن ما صدر عن جيتار أرضي من النغمات المُركَّبة، وأحرّ ما تفتَّق عنه

الإلهام البشري من أغنيات الحبّ. ذات مرة، وبينما هو على تلك الحال، باغتَته بضعُ نساء تقيَّات مُبكِّرات وهو يتغنَّى بصوت خفيض وينتحب أمام الدير، فنشرن تلك الشائعة الرهيبة القائلة بأنه قد وقع في حبّ العذراء مريم، مخمورًا بالكبرياء، وصار يتغنَّى بأغاني السريناد من أجلها عند بزوغ النهار.

مضَت أسابيع، وشهور، وأعوام. وطبَّقَت شهرة كريسانتو مارابيَّاس الآفاق، كما اشتهرَت موسيقاه أيضًا (إنه مصير المنطاد الذي يكبر ويرتفع نحو الشمس). ولكن أحدًا لم يرتَب في أمر شغفه الجارف بسور فاطمة المُتوحِّدة، التي كانت تسير بخطى حثيثة نحو القداسة على مدى الأعوام الماضية كلها... لم يرتَب في الأمر أحد، ولا حتى صديقه الحميم، الكاهن غومِرسيندو ليتوما، الحارس المدني السابق الذي اعتدى عليه أبناؤه وزوجته بالضرب الوحشي (لأنه كان يربِّي الفئران؟)، فتناهى إليه نداء الرَّب وهو يتعافى من ذلك الاعتداء. أما هذان العفيفان، فلم يتسنَّ لهما تبادل كلمة واحدة منذ ذلك اليوم، يومَ اكتشفَت رئيسة الدير (سور لوسيا أسيميلا؟) أن **الباردو** كائنٌ يتمتَّع بالفحولة (برغم ما حدث في ذلك النهار المشؤوم بمكتب قاضي التحقيق؟). وعلى الرغم من ذلك، فلقد نالا تلك السعادة المُتمثِّلة في أن يرى كل منهما الآخر على مرّ الأعوام، وإن يكُن بمشقة، وعن بُعْد. فما إن ترهبنَت سُوُر فاطمة حتى صارت تُناوِب رفيقاتها راهبات الدير في الصلاة بالمصلى، إذ كانت الأمهات الحافيات يتلون الصلاة اثنتَيْن اثنتَيْن، على مدى ساعات اليوم الأربعة والعشرين. كانت مشربيةٌ من الخشب تفصل الراهبات المُناوِبات عن زائري المصلى، وإن سمحَت للحضور على الجانبَيْن برؤية بعضهم بعضًا، على الرغم من دقَّة فتحات المشربية. الأمر الذي يفسِّر تديُّن **باردو** ليما العنيد، إلى حد كبير، ذلك التديُّن الذي جعله مثارًا

لسخرية أهل الحي في كثير من الأحيان، فأجابهم مارابيّاس بأغنية توندِيرو تقول: **أجل، مُؤمِنٌ أنا...**

وبالفعل، كان كريسانتو يقضي ساعات طوالًا من يومه في كنيسة الراهبات الحافيات، التي يدخلها عدة مرات حتى يرسم علامة الصليب ويلقي نظرة من خلال المشربية، فما إن يتعرَّف سُوُر فاطمة - بوخزة في القلب، ونبضات مُتسارِعة، وبرودة في الظهر - ويراها من خلال الثقوب المُربَّعة في المشربية الخشبية جالسةً على أحد كراسي السجود التي تشغلها الخيالات الأبدية ذات الأردية البيضاء، حتى يخرّ على ركبتَيْه جاثيًا فوق البلاط الذي يعود إلى العهد الاستعماري، ويتَّخذ وضعًا مائلًا (بمساعدة جسده الذي يصعب على الناظر إليه التمييز بين الوضع الأمامي والوضع الجانبي)، فيبدو كأنه ينظر إلى المذبح، وإن تعلَّقَت عيناه في واقع الأمر بالسحب المُنسدِلة التي تصل إلى كاحلَي معشوقته والنُدَف المُنشَّاة التي تلفّ جسدها. في بعض الأحيان، كانت سُوُر فاطمة تقطع صلواتها، بأنفاس متسارعة كتلك التي يلتقطها الرياضي متى بذل جهودًا مضاعفة، وترفع عينَيْها إلى المذبح (ذي المُربَّعات؟)، فتتعرَّف خيالَ كريسانتو الدخيل، صديق الطفولة، وعند ذاك ترتسم على وجه الراهبة الأبيض كالثلج بسمةٌ تكاد لا تُدرَك، ويتأجَّج في قلبها المرهف شعورٌ رقيق. بينما تتلاقى العيون. وفي تلك الثواني - التي تشعر خلالها سُوُر فاطمة بضرورة خفض عينَيْها - يقول كلٌّ منهما للآخر أشياء... أتراها أشياء تتضرَّج ملائكة السماء خجلًا لسماعها؟ لأن تلك الفتاة الصغيرة - التي نجَت بمعجزة من إطارات السيارة التي كان يقودها مندوب المبيعات الطبية لوتشو أبريل مارّوكين، حين دهسها ذات صباح مشمس في ضواحي پيسكو، وهي لم تبلغ الخامسة من العمر بعد، فما كان منها إلَّا أن ترهبنَت امتنانًا لعذراء فاطمة - قد انتهَت

مع الوقت إلى حبِّ فنان باريوس ألتوس حبًّا صادقًا، وهي في عزلة الصومعة.

سلَّم كريسانتو مارابيَّاس بألَّا يتزوَّج معشوقته زواجَ الجسد، واكتفى بالتواصل وإياها لا شعوريًّا في المصلى. بَيْد أنه لم يقنع يومًا بتلك الفكرة - شديدة الوطأة على الرجل الذي لم يكُن له حظٌّ من الجمال سوى فنّه - القائلة بأن موسيقاه لم تصل إلى سُوُر فاطمة، أي تلك الأغاني التي ألهمَته إياها وهي لا تدري. راوده شكٌّ في وصول أغاني السريناد إلى معشوقته - وإن كانت نظرة واحدة إلى ضخامة أسوار الدير المُحصَّن تكفي أي رجل سواه ليتأكَّد من عدم وصول الأغاني إليها-، تلك السريناد التي ظلّ يتغنَّى بها كل فَجْرٍ منذ عشرين عامًا، مُجازِفًا بالتعرُّض لالتهاب الرئة.

ذات يوم، بدأ كريسانتو مارابيَّاس يُدرِج الترانيم الدينية الروحانية في قائمة أغانيه: وبعد أن كان يؤلِّف الأغنيات عن الحياة اليومية، بدأ يتغنَّى بمعجزات القديسة روسا والمآثر (الحيوانية؟) للقديس مارتين دي پورّيس وحكايات الشهداء ولعنات بيلاطس البنطي. الأمر الذي لم ينتقص من إعجاب الجماهير به، وإنما ضمن له فريقًا جديدًا من المُتعصِّبين: من الكهنة والرهبان والراهبات وأولئك المنتمين إلى العمل الكاثوليكي. وهكذا ارتقَت الموسيقى الكريوليَّة، وتعطَّرَت بالبخور، وتشبَّعَت بالترانيم، وبدأت في تجاوز أسوار الصالونات والنوادي، وبدأت تُسمَع في أمكنة ما كانت لتخطر على بال قبل ذاك: الكنائس، والمواكب دينية، ودور الخلوة الروحية، والمعاهد اللاهوتية.

استغرق المخطط الماكر عشرة أعوام. ثم حالفه النجاح. إذ لم يملك دير الراهبات الحافيات أن يرفض العرض الذي تلقَّاه ذات يوم من باردو دائرة الكنيسة المُدلَّل، وشاعر لقاءات المؤمنين، وموسيقار

دربِ الصليب، الذي عرض أن يقدِّم ترانيمه في مصلى الدير لصالح إرساليات إفريقيا، فسرعان ما أعلن الموافقة على إقامة الحفل رئيس أساقفة ليما، بحكمته الأرجوانية وسمعه الحكيم، كما سمح بتعليق الخلوة الروحية للراهبات الحافيات حتى ينعمن بالموسيقى. وعرض أن يحضر الحفل بنفسه، مع حاشيته المُؤلَّفة من علية القوم.

أما الحفل، الذي كان حدثًا جللًا في مدينة نواب الملوك، فلقد أقيم يومَ بلغ كريسانتو مارابيَّاس زهرة العمر: الخمسين؟ كان رجلًا ذا جبين ثاقب، وأنف عريض، ونظرة معقوفة، وروح مستقيمة صالحة، يتحلَّى بوجاهة الجسد التي تشفّ عن جمال الروح.

على الرغم من تسليم دعوات شخصية - في إجراء وقائي من تلك الإجراءات التي يسحقها المجتمع سحقًا - وعلى الرغم من التنبيه إلى عدم جواز الحضور بغير دعوات، فلقد فرض الأمرُ الواقع نفسه: وكما تُطوَى قطعةٌ من الورق، تراجع الحاجز الأمني الذي أقامه رجال الشرطة بقيادة الرقيب ليتوما الشهير ومعاونه الملازم خايمي كونتشا أمام الجماهير التي احتشدَت هناك منذ الليلة السابقة، فاجتاحَت جموع الناس المكان وغزَت دير المُتوحِّدات بما حوى من دهاليز وأدراج وردهات، بسلوك مفعم بالجلال. أما المدعوون، فاضطُرّوا إلى الدخول من باب سري يفضي مباشرةً إلى الشرفات العلوية، حيث تكدَّسوا خلف أسوجة عتيقة، وتأهَّبوا للاستمتاع بالعرض.

وفي السادسة مساء، حين دخل **الباردو** إلى المكان برفقة أفراد الأوركسترا والجوقة - وقد ارتسمَت على شفتَيْه ابتسامة الفاتح، ببدلته الكحلية وخطوته الرياضية وشعره الذهبي الذي طفا في مهبّ الريح - قُوبِل بتصفيق حار تردَّد صداه على أسقف المكان تاركًا في نفوس الحافيات أثرًا قويًّا. ومن هناك، بينما كان غومِرسيندو

مارابيَّاس يتأهَّب جاثيًا على ركبتَيْه، ويتلو صلاة «أبانا الذي» و«السلام عليكِ يا مريم» بصوت مغنِّي باريتون، تعرَّفَت عيناه (العسليتان؟) لفيفًا من المعارف وسط الرؤوس.

هناك، في الصفّ الأول، جلس مُنجِّم شهير هو الأستاذ (حزقيال؟) دلفين أسيميلا الذي كان يتحقَّق من مصير السيدات مليونيرات المدينة بتأمُّل السموات وقياس المدّ والجذر والتحرُّكات السرّية، علمًا أنه كان يضعف أمام الموسيقى الكريوليَّة (كما يليق ببساطة الحكيم الذي يلهو بالكريات الزجاجية). كما حضر هناك الرجل الأسود الأكثر شعبية بمدينة ليما، في أبهى حلة، وقد وضع زهرة قرنفل حمراء في عروة السترة، واعتمر قبعة جديدة من القشّ، إنه الأسود الذي عبر المحيط مُتسلِّلًا في جوف... طائرة؟ ثم بدأ حياته هنا من جديد (هل انصرف إلى تلك الهواية المُتحضِّرة التي درَّت عليه ثروة طائلة، هواية قتل الفئران بالسموم التقليدية الشائعة في قبيلته؟). وفي إحدى المصادفات التي ينسجها الشيطان، أو الحظّ، حضر شاهدُ يَهْوَه لوتشو أبريل مارّوكين، الذي أُطلِق عليه لقب **المبتور** بسبب العمل البطولي الذي نفَّذه (هل بتر سبابته اليمنى بسكين فتح رسائل ذي نصلٍ حادّ؟)، وكذلك ساريتا أوانكا سالابيريا، الجميلة الفيكتورية الودود صاحبة الأهواء، التي طالبَته بأن يثبت لها حبّه بدليل في غاية الصعوبة. إذ حضر كلاهما مدفوعًا بالإعجاب المشترك بالموسيقي. وكيف لا يُرَى ريتشارد كينتيروس، ابن حي ميرافلوريس؟ ذلك الذي استقرّ واهنًا وسط الجماهير الكريوليَّة، بعد أن انتهز فرصة فتح أبواب الراهبات الكرمليات - مع الأخذ في الحسبان أن مرة واحدة في العمر تكفي وتفيض عن الحاجة - فتسلَّل إلى دير الراهبات المُتوحِّدات، مُختلِطًا بالناس، حتى يلمح تلك الشقيقة ولو عن بعد (سُوُر فاطمة؟ سُوُر ليتوما؟ سُوُر لوسيا؟)،

تلك الشقيقة التي زجّ بها أبواها في الدير لتخليصها من عشق المحارم الذي وقعَت فيه. حتى آل بيرغوا قد حضروا، وهم الصم والبكم الذين لا يغادرون بنسيون كولونيال أبدًا، حيث عاشوا منصرفين إلى ذلك العمل الخيري المُتمثِّل في تعليم الأطفال الفقراء المحرومين من القدرة على السمع والنطق كيف يتواصلون في ما بينهم بتعابير الوجه والإيماءات. حتى هم قد حضروا، إذ انتقلَت إليهم عدوى الفضول الذي عمّ الجميع، وجاؤوا لرؤية معبود ليما (بسبب عجزهم عن الاستماع إليه).

أما القيامة التي سوف تُغرِق المدينة في الحداد، فلقد اندلعَت بعد أن أعلن الأب غومِرسيندو تيّو عن بدء الحفل. وأمام حالة التنويم بالإيحاء التي استغرق فيها المئات من المشاهدين المُحتشِدين في الردهات والباحات وعلى الأسطح والأدراج، مضى المُغنِّي يرتِّل الأنغام الأخيرة في مناجاته الرائعة: **ديني لا يُباع**، بمصاحبة الأرغن. أما موجة التصفيق التي قُوبِل بها الأب غومِرسيندو، فكانت هي نفسها التي أودَت بالمشاهدين، ذلك أن الخير والشرّ يمتزجان مثل القهوة بالحليب. انتبه الحضور إلى التراتيل أكثر مما ينبغي، واستغرقوا في التصفيق والصياح والهتاف أكثر مما يجب، فاختلطَت عليهم أولى بوادر الكارثة من جهة، والحماس الذي أثاره كناري الرَّبِ المُغرِّد في النفوس من جهة أخرى. لم يأتِ أحدٌ بردة فعل خلال تلك الثواني، عندما كانت الفرصة لا تزال سانحةً للركض والخروج والنجاة. وحين تكشَّف لهم أن تلك الرجفة لم تكُن في أجسادهم، بل إن الأرض هي التي ارتجَّت في هدير بركاني يصمّ الآذان، كان قد فات الأوان. لأن الانهيارات الأولى قد سدَّت الأبواب الثلاثة الوحيدة المفضية إلى دير الراهبات الكرمليات - سواء أكانت تلك مصادفة، أم مشيئة الرَّب، أم قصورًا من جانب

المعماري - وإذا الملاك الحجري العظيم الذي سدَّ البوابة الرئيسية يسحق الرقيب كريسانتو مارابيَّاس، الذي حاول إخلاء الدير عندما بدأ الزلزال بمساعدة العريف خايمي كونتشا والحارس المدني ليتوما. كان ذلك المواطن الشجاع ومعاوناه أوائل ضحايا الحريق الجوفي. وهكذا انتهَت الحال بأولئك الفرسان الثلاثة، فرسان الإطفاء في بيرو، الذين انسحقوا تحت أنقاض تمثال من الجرانيت لا يبالي - كما تنسحق الصراصير تحت الحذاء - على أبواب الكرمليات المُقدَّسة (ترقُّبًا ليوم القيامة؟).

وفي تلك الأثناء، داخل الدير، لقي المؤمنون الذين اجتمعوا هناك من أجل الموسيقى والدين مصرعهم مُتساقِطين كالذباب. وإذا بجوقة من الأنَّات والصيحات والصرخات تعقب التصفيق. لم تقوَ الأحجار النبيلة والآجر العتيق على احتمال هزّة الأعماق (المضطربة، اللانهائية)، فتصدَّعَت الجدران وتقوَّضَت واحدًا تلو آخر، حتى سحقَت أولئك الذين حاولوا تسلُّقها في سبيل الخروج إلى الشارع. وهكذا مات قتلة الجرذان والفئران المشاهير: آل بيرغوا؟ ما هي إلّا ثوانٍ حتى انهارَت شرفات الطابق الثاني، وسط دوي الجحيم وغبار الأعاصير، فألقَت المُتفرِّجين الذين اتَّخذوا لأنفسهم الأمكنة العليا - حتى ينصتوا إلى الأم الراهبة غومِرسيندا على نحو أفضل - فوق أولئك المحتشدين في الباحة، وإذا هم قذائف حية ونيازك بشرية. وهكذا لقي مصرعه عالِم النفس ابن مدينة ليما، لوتشو أبريل مارّوكين، إذ تهشَّمَت جمجمته على البلاط، مع الأخذ في الحسبان أنه هو العالِم الذي عالج نصف أهالي المدينة من الاضطرابات العصبية بعلاج من اختراعه (أيقوم هذا العلاج على لعبة الدمَى الصاخبة؟). بَيْد أن تهدُّم أسقف دير الكرمليات كان هو العامل الذي أودى بأكبر عدد من القتلى في أقصر وقت ممكن، وهكذا قضَت الأمُّ لوسيا أسيميلا في من

قضى، تلك الراهبة التي فازَت بحظٍّ كبير من الشهرة فِي العالَم بعد أن هجرَت طائفتها القديمة، طائفة شهود يَهْوَه، لأنها ألَّفَت كتابًا أثنى عليه البابا: **ازدراء جذع الشجرة باسم الصليب**.

أما الميتة التي لقيها ريتشارد وسُوُر فاطمة، فكانت أشدّ وأشدّ حزنًا (إنه زخم الحبّ الذي لا الدم يعترض سبيله ولا رداء الراهبات!). على مدى القرون التي استغرقها الحريق، ظلّ كلاهما بمأمن من الأذى، متعانقَيْن، بينما القتلى يتساقطون من حولهما مختنقين، منسحقين، محترقين. وبعد أن خمد الحريق، وبين الجمرات والغمائم الكثيفة، مضى العاشقان يتبادلان القُبَل وسط حصيلة الموتى. ثم حانَت لحظة الخروج إلى الشارع. وإذا بريتشارد يطوِّق خصر الأم الراهبة فاطمة بذراعه، ويقتادها صوب واحدة من الفوّهات التي شقَّها وهجُ النيران في الجدار. ولكن ما كاد يخطو العاشقان بضع خطوات حتى انشقَّت الأرض تحت أقدامهما (أتراها خِسَّة الأرض آكلة اللحوم؟ أم عدالة السماء؟). كانت النار قد التهمَت باب الخبيئة التي تعود إلى الحقبة الاستعمارية، حيث تحتفظ الراهبات الكرمليات برفات موتاهن، وهناك سقطا وتهشَّم جسداهما في مدفن العظام، وهما الأخوان (اللوسيفريان؟)[١].

هل كان الشيطان هو الذي أخذهما؟ هل كان الجحيمُ ختامَ الحبِّ القائم بينهما؟ أم أنه الرَّب الذي أشفق عليهما من ذلك العناء الشديد، فرفعهما إلى ملكوت السموات؟ هل انتهَت تلك القصة، قصة الدماء والغناء والروحانية والنيران، أم تكون لها تَتِمَّةٌ خارج الأرض؟

(١) نسبة إلى لوسيفر، وهو من أسماء الشيطان في العقيدة المسيحية. (المترجم)

١٩

اتَّصل بنا خابيير من ليما في السابعة صباحًا. كان الاتّصال في غاية السوء، وإن لم يتمكَّن الأزيز والطنين من مداراة القلق الذي تجلَّى في صوته.

- «أخبار سيئة»، بادر قائلًا. «الكثير والكثير من الأخبار السيئة».

بالأمس، وبينما هما في طريق العودة، حادَت سيارة الأجرة المشتركة التي استقلّها خابيير وپاسكوال عن مسارها على بعد خمسين كيلومترًا من ليما تقريبًا، وانقلبَت على الرمال. لم يتأذَّ أيٌّ منهما، وإن تعرَّض السائق وراكب آخر لإصابات خطيرة. أما استيقاف سيارة أخرى لطلب المساعدة، فكان أشبه بالكابوس. وصل خابيير إلى البنسيون الذي يقطن فيه مُتهالِكًا من فرط التعب. وهناك، تملَّكه ذعرٌ أشدّ وأشدّ. لأن والدي كان في انتظاره على الباب. اقترب منه أبي، شاحبًا، وأبرز له المسدس مُتوعِّدًا بأن يطلق عليه رصاصة ما لم يفصح خابيير عن مكاننا أنا والخالة خوليا فورًا. كاد يموت من شدة الفزع («فأنا لم تسبق لي رؤية المسدسات إلَّا في الأفلام يا رفيق»)، ومضى يقسم بأمِّه وبجميع القديسين قائلًا إنه لا يدري، وإنه لم يرَني منذ أسبوع. وأخيرًا، هدأ والدي بعض الشيء، وترك له رسالة حتى يسلِّمني إياها شخصيًّا. أصابه ما جرى منذ قليل بالذهول («يا لها من

ليلة يا بارغيتاس!»)، ومع ذلك، فما كاد أبي يغادر حتى قرَّر خابيير أن يتحدَّث إلى الخال لوتشو فورًا، ليعرف إن كان الغضب قد بلغ مداه في إطار عائلة أمي أيضًا. تلقَّاه الخال لوتشو بالروب، فتحدَّثا قرابة ساعة كاملة. لم يكُن ثائرًا، بل آسفًا، قلِقًا، حائرًا. أكَّد له خابيير أننا قد تزوَّجنا بمقتضى القوانين كافةً، وأنه حتى هو قد حاول إقناعي بالعدول عن رأيي، ولكن سدى. اقترح الخال لوتشو أن نرجع إلى ليما بأسرع ما يمكن، حتى نواجه المشكلة مباشرة، ونحاول إصلاح الأمور.

- «إن والدك هو المشكلة الكبرى يا بارغيتاس»، ختم خابيير تقريره. «سوف يتقبَّل باقي أفراد عائلتك الأمر شيئًا فشيئًا. ولكن والدك شعلة من الغضب. أنت لا تدري فحوى الرسالة التي تركها من أجلك!».

وبَّختُه لأنه يقرأ رسائل الآخرين، وقلتُ له إننا عائدان إلى ليما فورًا، وإنني سأمرّ به في مقرّ العمل ظهرًا، أو سأتَّصل به. أخبرتُ الخالة خوليا بكل شيء وهي ترتدي الثياب، فلم أخفِ عنها شيئًا، ولكني حاولتُ التهوين من فداحة الأمر.

- «الشيء الذي لم يرُق لي مطلقًا هو المسدس»، عقَّبَت الخالة خوليا. «أفترض بأنني أنا التي يريد أن يطلق عليها الرصاص، أليس كذلك؟ اسمع يا بارغيتاس، أرجو ألا يقتلني حماي وشهر العسل في أوجه. ولكن، ماذا عن الحادثة؟ مسكين خابيير! مسكين پاسكوال! في أي مأزق ورَّطناهما بأفعالنا المجنونة!».

لم يبدُ عليها أدنى أثر للذعر أو الأسى، وإنما بدَت في غاية السرور والتصميم على مواجهة جميع المصائب. وهكذا شعرتُ أنا أيضًا. دفعنا أجر الفندق، ثم ذهبنا لتناول القهوة بالحليب في ميدان

أرماس، وبعد نصف ساعة كنا على الطريق مرة أخرى، في اتجاه ليما، على متن سيارة أجرة مشتركة عتيقة. وطوال الطريق تقريبًا، مضينا نتبادل القبلات على الفم والوجنتَيْن واليدَيْن، وكلٌّ منا يقول للآخر إنه يحبّه، مُستهزِئًا بالنظرات المضطربة التي رمقنا بها السائق والركّاب الذين كانوا يتلصّصون علينا في مرآة الرؤية الخلفية.

وصلنا إلى ليما في العاشرة صباحًا. كان يومًا رماديًّا، أضفى الضباب فيه صبغةً شبحيةً على البيوت والناس، كما خيَّمَت الرطوبة على كل شيء، حتى كان المرء يحسّ وكأنه يتنفَّس ماءً. تركَتنا سيارة الأجرة المشتركة أمام بيت الخال لوتشو وزوجته أولغا. وقبل أن نقرع الباب، ضمّ كلٌّ منا يد الآخر بقوة على سبيل التشجيع. تحلَّت الخالة خوليا بالجدية، بينما أحسستُ بقلبي تتسارع نبضاته.

فتح لنا الخال لوتشو بنفسه، راسمًا على وجهه ابتسامة، جاءت مُروِّعةً في تكلُّفها، ثم طبع قبلة على خد الخالة خوليا، وقبَّلني أنا أيضًا.

- «ما زالت أختكِ في الفراش، ولكنها مستيقظة»، قال للخالة خوليا مشيرًا إلى حجرة النوم. «تفضَّلي إلى الداخل مباشرة».

ذهبتُ أنا وهو للجلوس في الصالة الصغيرة التي يُرَى منها معهد اليسوعيين اللاهوتي وكاسر الأمواج والبحر إذا انقشع الضباب. أما الآن، فلم يُرَ منها إلَّا منظر مُغبَّش، يتبيَّن فيه الناظرُ جدارَ المعهد اللاهوتي وسطحه المُغطَّى بالآجر الأحمر.

- «لن أشدّ أذنَيْك لأنك صرتَ أكبر مما يسمح بذلك»، غمغم الخال لوتشو، الذي بدا واجمًا بحقّ، وظهرَت أمارات الأرق على وجهه. «ألديك أدنى فكرة عما ورطّتَ فيه نفسك، على الأقل؟».

- «كانت تلك هي الطريقة الوحيدة التي تمنعهم من التفريق بيننا»، أجبتُه، مُدلِيًا بعبارات أعددتُها مسبقًا. «أنا وخوليا نحبّ

بعضنا بعضًا. لم نرتكب فعلة مجنونة واحدة. بل إننا فكرنا في الأمر، وكلانا مطمئن إلى ما فعل. أعدك بأننا سوف نمضي إلى الأمام».

- «أنت مُجرَّد طفل صغير، لا مهنة لك ولا مأوى، سوف تُضطَرّ إلى التخلّي عن الجامعة والعمل حتى ينقسم ظهرك للإنفاق على زوجتك»، همس الخال لوتشو وهو يضرم سيجارة ويهزّ رأسه. «لقد وضعتَ الحبل حول عنقك بنفسك. لن يرضى أحد عما جرى، لأننا، أي جميع أفراد العائلة، كنا نتوقَّع منك أن تصبح ذا شأن. من المؤسف أن نراك وقد سقطتَ في الضحالة بسبب نزوة طارئة».

- «لن أتخلَّى عن دراستي، بل إنني سأتخرَّج من الجامعة، وأحقِّق الأمور التي كنتُ سأحقِّقها لو لم أتزوَّج»، أكَّدتُ له، بحماسةٍ. «لا بدّ أن تصدِّقني، وأن تقنع العائلة بأن تصدِّقني. سوف تساعدني خوليا. والآن تنفتح شهيتي على الدراسة والعمل أكثر».

- «مبدئيًّا، لا بدّ من تهدئة والدك، الذي كاد يفقد عقله»، قال الخال لوتشو وقد رقّ فجأةً. إذ فرغ من شدّ أذنَيّ، وبدا الآن راغبًا في مساعدتي. «والدك لا ينصت إلى صوت العقل، ويتوعَّد بإبلاغ الشرطة عن خوليا، وبأشياء لا أدري لها عددًا».

قلتُ له إنني سأتحدَّث إليه وأحاول إقناعه بتقبُّل الأمر الواقع. رمقني الخال لوتشو بنظرةٍ من رأسي حتى قدمَيّ: فمِن المُخزِي أن يرتدي عريسٌ جديد قميصًا قذرًا، ويجب عليَّ الذهاب لتبديل ثيابي والاغتسال، وتهدئة الجدّ والجدّة أيضًا، لأنهما في غاية الانشغال. استرسلنا في الكلام حينًا، وتناولنا القهوة أيضًا، بينما لم تخرج الخالة خوليا من حجرة زوجة خالي أولغا. رحتُ أرهف السمع وأحاول التحقُّق مما إذا كان هناك بكاء أو صراخ أو جدال مسموع. ولكن لا، إذ لم يأتِ من خلال الباب أدنى صوت. أخيرًا جاءت

الخالة خوليا، وحيدة، مُتورِّدة البشرة وكأنها قد تشمَّسَت طويلًا، على الرغم من ابتسامتها.

- «على الأقل، ما زلتِ حيةً، وسليمة»، قال الخال لوتشو. «ظننتُ أختكِ سوف تجذبكِ من شعرك».

- «للوهلة الأولى، كادَت تصفعني على وجهي»، اعترفَت الخالة خوليا وهي تجلس بجواري. «ونعتَتني بأشياء فظيعة، طبعًا. ولكن يبدو أنه ما زال بإمكاني البقاء في البيت إلى أن تتَّضح الأمور، على الرغم من كل شيء».

نهضتُ قائلًا إن الواجب يحتّم عليّ الذهاب إلى راديو پانامريكانا: وإلَّا كانت مأساة لو فقدتُ عملي في هذا الوقت بالتحديد. رافقني الخال لوتشو إلى الباب طالبًا مني أن أعود على الغداء. ثم رأيتُه يبتسم حين قبَّلتُ الخالة خوليا مُودِّعًا.

هرولتُ إلى الدكان القائم على الناصية حتى أتَّصل بابنة خالي نانسي، وشاء حسن الحظّ أن تردّ بنفسها. تعرَّفَتني، فأصابها الخرس. ثم اتَّفقنا على اللقاء خلال عشر دقائق في منتزه سالاسار. وصلتُ إلى المنتزه، فوجدتُ الفتاة الصغيرة هناك، تتحرَّق فضولًا. وقبل أن تخبرني هي بحرف واحد، اضطُرِرتُ إلى سرد مغامرة تشينتشا كاملةً، والإجابة عن الأسئلة اللانهائية التي طرحَتها بشأن تفاصيل عصية على التوقُّع، من قبيل الثوب الذي ارتدَته الخالة خوليا بمناسبة العرس، على سبيل المثال. أما الشيء الذي فتنها إلى حدّ الاستغراق في القهقهة (مع أنها لم تصدِّقني)، فكان النسخة المُشوَّهة قليلًا من القصة، التي قلتُ فيها إن العمدة الذي عقد قراننا كان صيادًا أسود، شبه عارٍ، حافي القدمَيْن. وبعد ذلك، تمكَّنتُ أخيرًا من إقناعها بأن تحكي لي كيف كان وقع الخبر على عائلتي. وكالمُتوقَّع، أخبرَتني بأمر الروحات والغدوات من بيت إلى بيت،

والاجتماعات السرّية المحتدمة، ومكالمات التليفون التي لا يُحصَى لها عدد، والدموع الغزيرة، بل ويبدو أن والدتي قد تلقَّت العزاء والزيارات أيضًا، كما حرص الناس على مرافقتها، وكأنها قد فقدَت ابنها الوحيد. أما نانسي، فلاحقوها بالأسئلة والتهديدات كي تبوح لهم بمكاننا، وهم على قناعة بأنها حليفتنا. غير أنها قاومَت، وأنكرَت على نحو قاطع، بل إنها ذرفَت دموع التماسيح التي جعلَتهم يرتابون في الأمر. حتى نانسي الصغيرة شعرَت بالقلق من أبي.

- «إياك وأن تفكِّر في لقائه حتى يزول عنه الغضب»، نبَّهَتني. «إنه ساخط بشدة، إلى حدٍّ يجعله قادرًا على أن يمحوك من وجه الأرض».

سألتُها عن الشقة الصغيرة التي استأجرَتها من أجلنا، وإذا هي تفاجئني مرة أخرى بحسّها العملي. تحدَّثَت نانسي إلى المالكة صبيحة اليوم. لا بدّ من إصلاح الحمام وتغيير الباب وطلاء الشقة. ولذا فلن تغدو الشقة صالحة للسكنى قبل مضي عشرة أيام. سقط قلبي في قدمَيّ. وبينما سرتُ مُتَّجِهًا إلى بيت الجدّ والجدّة، رحتُ أفكِّر: أي مكان لعين يسعنا اللجوء إليه طوال هذين الأسبوعَيْن!

وصلتُ إلى بيتهما وأنا لم أحلّ المشكلة بعد، فوجدتُ أمي هناك. كانت في الصالة، وما إن رأتني حتى أجهشَت بالبكاء بحرقة. احتضنَتني بقوة، وفيما أخذَت تربِّت على عينَيّ وخدَّيّ، وتغوص بأصابعها في شعري، شبه مختنقة من حدّة النشيج، مضَت تردِّد بأسى لامتناهٍ: «ابني، صغيري، حبيبي، ماذا فعلوا بك! ماذا فعلَت بك تلك المرأة!». لم أكُن قد رأيتُها منذ قرابة عام. وعلى الرغم من النحيب الذي ترك وجهها مُنتفِخًا، وجدتُها تبدو أصغر عمرًا، وجميلة. بذلتُ قصارى جهدي حتى أهدِّئ من روعها، مُؤكِّدًا لها أن أحدًا لم يفعل بي شيئًا، وأنني قد اتَّخذتُ قرار الزواج بنفسي. ما

كانت تسمع اسم خوليا، زوجة ابنها الجديدة، إلَّا واشتدّ بكاؤها. كما استحوذَت عليها نوبات من الغضب، راحت تنعت فيها الخالة خوليا بـ«العجوز»، و«الانتهازية»، و«المُطلَّقة». وفجأة، وسط ذلك المشهد، اكتشفتُ أمرًا لم يسبق أن خطر لي على بال قطّ: إذ اكتشفتُ أنها قد تعذَّبَت بالأسباب الدينية أكثر مما تعذَّبَت خشية القِيل والقال. كانت كاثوليكية شديدة التديُّن، ولم تأبه لأن الخالة خوليا تكبرني في العمر بقدر ما انشغلَت لأنها مُطلَّقة (أي محرومة من الزواج الكنسي).

وأخيرًا، تمكَّنتُ من تهدئتها بمساعدة الجدّ والجدّة، إذ كان العجوزان نموذجًا لحسن التمييز والطيبة والحِلم. اكتفى الجدّ بأن قال لي، وهو يطبع على جبيني قبلته الحادّة المعهودة: «ها هو الشاعر يظهر أخيرًا، لقد جعلتَنا نشعر بالقلق». أما الجدّة، فبعد قبلات وعناقات كثيرة، همسَت في سمعي سائلةً، بصوت خفيض للغاية، كيلا تسمع أمي، بضرب من الشقاوة الخفية: «وماذا عن خولييتا؟ أهي بخير؟».

اغتسلتُ وبدَّلتُ ثيابي - فشعرتُ بالتحرُّر عندما ألقيتُ عني الثياب التي كنتُ أرتديها منذ أربعة أيام - ثم تمكَّنتُ من التحدُّث إلى أمي. كفَّت أمي عن البكاء وتناولَت فنجانًا من الشاي أعدَّته من أجلها الجدّة، التي راحت تربِّت عليها بيدها، جالسةً على ذراع المقعد، وكأنها طفلة صغيرة. حاولتُ أن أرسم على شفتَيْها الابتسامة بمزحةٍ ثبت أنها تنطوي على سوء ذائقة شديد («يا ماما العزيزة، يجب عليكِ أن تكوني سعيدة لأنني تزوَّجتُ من صديقة عزيزة لكِ»)، ثم تحدَّثتُ إليها بقدر أكبر من الرهافة، وأقسمتُ إنني لن أتخلَّى عن دراستي، وسأحصل على شهادة المحاماة، بل إنني ربما عدلتُ عن رأيي بشأن السلك الدبلوماسي البيروفي (رأيي الذي كان مُؤدَّاه أن «مَن لم يكُن

مِنهم أحمق، فهو مُخنَّث يا ماما»)، وربما التحقتُ بالخارجية، حلم حياتها. لانَت أمي رويدًا رويدًا، ومن دون أن تغيب أمارات الحداد عن وجهها لحظة واحدة، سألَتني عن الجامعة وعن درجاتي وعن عملي بالراديو. كما لامَتني على جحودي، لأنني أكاد لا أراسلها. قالت لي إن والدي قد تلقَّى ضربة غاشمة: لأنه هو أيضًا قد علَّق آمالًا كبرى عليَّ، ولذا سيمنع **تلك المرأة** من تخريب حياتي. لقد استشار محامين، فتبيَّن له أن الزواج باطل ويمكن فسخه، كما يمكن اتهام الخالة خوليا بإفساد أخلاق قاصر. ولقد بلغ أبي من العنف حدًّا جعله يعزف عن رؤيتي في الوقت الراهن، حتى لا يقع «حادث جسيم»، كما طالب الخالة خوليا بمغادرة البلد في الحال. وإلَّا، سوف تتحمَّل العواقب.

أجبتُها بأننا قد تزوَّجنا تحديدًا لئلَّا يُفرَّق بيننا، وبأن ترحيل زوجتي إلى خارج البلد بعد الزفاف بيومَيْن أمر في غاية الصعوبة. ولكنها لم ترغب في خوض جدال معي، فكانت تقول: «تعرف أباك، وتعرف طباعه، لا بدّ من إرضائه، وإلَّا...»، ثم تنظر بعينَيْها نظرة ارتياع. في النهاية، قلتُ لها إنني مُتأخِّر على العمل، وإننا سوف نتكلَّم قريبًا. ثم طمأنتُها مرة أخرى على مستقبلي قبل أن أغادر، مُؤكِّدًا أنني سوف أحصل على شهادة المحاماة.

وفي سيارة الأجرة المشتركة المُتَّجِهة إلى وسط ليما، راودني هاجسٌ كئيب: وماذا لو وجدتُ أحدهم يشغل مكتبي؟ لقد تغيَّبتُ عن العمل ثلاثة أيام، وأهملتُ نشرات الأخبار تمامًا على مدى الأسابيع الأخيرة، بسبب إعدادات الزواج المُحبِطة، ولا بدّ أن پاسكوال وپابليتو الكبير قد ارتكبا الفظائع بكل صنوفها في تلك الأثناء. مُتجهِّمًا، فكَّرتُ في ما قد يمثِّله فقدان منصبي، فضلًا عن التعقيدات الشخصية التي واجهَتني في تلك اللحظة. بدأتُ أخترع الحجج

القادرة على أن ترقِّق فؤاد خينارو الابن وخينارو الأب. ثم كانت مفاجأتي شديدة حين دلفتُ إلى بناء پانامريكانا وفرائصي ترتعد، لأن رجل الأعمال التقدُّمي، الذي صادفتُه في المصعد، بادرني بالتحية وكأننا قد التقينا منذ عشر دقائق. في حين تراءى وجهه واجمًا.

- «لقد تأكَّدَت الكارثة»، قال وهو يهزّ رأسه آسفًا. وكأننا قد تحدَّثنا عن الأمر منذ لحظة. «هلَّا قلتَ لي ماذا نحن فاعلون الآن؟ لا بدّ من احتجازه».

غادر المصعد في الطابق الثاني، بينما رسمتُ أنا على وجهي تعبيرًا جنائزيًّا لأحافظ على الالتباس، وغمغمتُ قائلًا «آه، حقًّا، يا للأسف!»، كما لو كنتُ على دراية بموضوع الحديث على أكمل وجه، بينما شعرتُ بسعادة لأن شيئًا على تلك الدرجة من الخطورة قد وقع، صارفًا الأنظار عن غيابي. في العلّية، كان پاسكوال وپابليتو الكبير ينصتان في تجهُّم إلى نيلي، سكرتيرة خينارو الابن، فما كادوا يقابلونني بالتحية، ولم يمازحني أحدهم بشأن زواجي. بل إنهم رمقونني بنظرة كسيرة.

- «لقد أخذوا پِدرو كاماتشو إلى مستشفى الأمراض العقلية»، تلعثم پابليتو الكبير، بصوت مُتهدِّج. «يا له من شيء حزين يا دون ماريو!».

أخبرني ثلاثتهم بالتفاصيل، ولا سيما نيلي، التي كانت تتابع الأمور من مكتب الإدارة. بدأ كل شيء في تلك الأيام التي أمضيتُها مُستغرِقًا في مشاغل الزواج، فجاءَت بدايةُ النهايةِ مُتمثِّلةً في الكوارث، تلك الحرائق والزلازل وحوادث السير والغرق وانحراف عربات القطار عن مسارها والمصائب التي خرَّبَت المسلسلات الإذاعية وأودَت بحياة عشرات الشخصيات في دقائق قليلة. في تلك

المرة، لم يعُد مُمثِّلو راديو سنترال وفنِّيوه الخائفون يشكِّلون درعًا واقيًا لحماية كاتب السيناريو. أو أنهم عجزوا عن منع المستمعين من إبلاغ آل خينارو بحيرتهم وشكواهم. ولكن آل خينارو قد تنبَّهوا إلى ما يجري عن طريق الجرائد التي أخذ الصحافيون المُختَصّون بالشؤون الإذاعية يسخرون من كوارث پِدرو كاماتشو على صفحاتها منذ أيام. وهكذا استدعاه آل خينارو مستفهمين، مبالغين في الحرص، لئلَّا يُغضِبوه أو يجرحوا مشاعره. وإذا هو ينهار في أوج الاجتماع، ويُصاب بأزمة عصبية، ويقول إن: الكوارث مُجرَّد حيلة لبدء القصص من الصفر، لأن الذاكرة قد خذلَته، ولم يعُد على دراية بما حدث في الماضي ولا بهوية الشخصيات ولا بالقصة التي تنتمي إليها كل شخصية، كما اعترف لهم بأن عمله وحياته ولياليه صارَت عذابًا أليمًا في الأسابيع الأخيرة («بينما راح يبكي صارخًا، ويشدّ شعره»، حسبما أكَّدَت نيلي). عرضه آل خينارو على واحد من كبار أطباء ليما، دكتور أونوريو دِلغادو، الذي ما لبث أن أدلى برأيه قائلًا إن كاتب السيناريو لم يكُن في حال تسمح له بالعمل، فلا بدّ لعقله «المرهق» من الحصول على قسط من الراحة.

كنا مستغرقين في القصة التي مضَت تحكيها نيلي حين دقّ جرس التليفون. كان خينارو الابن هو المُتَّصِل، الذي أراد أن يراني على وجه السرعة. نزلتُ إلى مكتبه مُقتنِعًا بأنني سوف أتلقَّى منه تحذيرًا، على أقل تقدير. غير أنه استقبلني كما فعل بالمصعد، مُفترِضًا أنني على دراية بمشكلاته. تحدَّث إلى هافانا عَبْر الهاتف من فوره، ومضى يسبّ ويلعن لأن شبكة سي إم كيو قد استغلَّت الموقف والحالة الطارئة، فضاعفَت السعر أربع مرات.

– «إنها مأساة! حظٌّ عاثر منقطع النظير! كانت تلك البرامج هي الأوفر حظًّا من الإقبال الجماهيري، وتهافت المعلنون عليها»، قال

وهو يقلِّب الأوراق. «أما الاعتماد على قروش سي إم كيو مرة أخرى، فكارثة محققة!».

سألتُه كيف حال پِدرو كاماتشو، وهل رآه، وكم يستغرق من الوقت حتى يتمكَّن من استئناف العمل.

- «لا يوجد أدنى بصيص من الأمل»، تبرَّم، في ما يشبه السخط، وإن انتهى إلى تبنِّي نبرة تنمّ عن الشفقة. «يقول دكتور دِلغادو إن الاضطراب النفسي الذي أصابه قد بلغ مرحلة التميُّع. التميُّع... أتفهم من هذا شيئًا؟ أفترض بأنه مُحطَّم النفس، تالف الرأس، أو شيء من هذا القبيل، أليس كذلك؟ سأل أبي دكتور دِلغادو إن كان التعافي قد يستغرق شهورًا، فأجابه قائلًا: وربما أعوامًا. تصوَّر!».

خفض رأسه، مُثقَلًا، مُتكهِّنًا بما سوف يجري، بثقة قُرَّاء الطالع، فقال إن المعلنين، متى بلغهم أمر استخدامنا السيناريوهات الواردة من شبكة سي إم كيو ابتداءً من الآن، فهم إما يلغون العقود وإما يطالبون بخفض القيمة بنسبة خمسين بالمئة. والأدهى من كل شيء أن المسلسلات الإذاعية الجديدة لن تصل قبل مضي ثلاثة أسابيع أو شهر كامل، لأن كوبا قد سقطَت الآن في فوضى عارمة، وانتشر فيها الإرهاب وجماعات حرب العصابات، كما طالَت الاضطرابات شبكة سي إم كيو، وزُجّ بالناس في السجن... ألف ورطة! ولكن من غير المعقول أن يبقى المستمعون شهرًا بلا مسلسلات إذاعية. سوف يخسر راديو سنترال جمهوره، فتستحوذ عليه إذاعة لا كرونيكا وإذاعة كولونيال اللتان بدأتا في التنافس بقوة على تقديم المسلسلات الإذاعية الأرجنتينية، تلك الأعمال المُبتذَلة.

- «لهذا استدعيتُك، بالمناسبة»، أردف، ناظرًا إليَّ وكأنه قد

اكتشف وجودي هناك في تلك اللحظة. «يجب عليك أن تساعدنا، فأنت شبه مُثقَّف، وسوف يسهل عليك هذا العمل».

كانت المهمة تقتضي الذهاب إلى أرشيف راديو سنترال، حيث يُحتفَظ بالنصوص القديمة التي وصلَت قبل مجيء پِدرو كاماتشو، لأن الضرورة تدعو إلى مراجعتها والبحث عن النصوص الصالحة للاستخدام في الحال، ريثما تصل المسلسلات الإذاعية الطازجة من شبكة سي إم كيو.

- «سوف ندفع لك علاوةً، بالطبع، فنحن لا نستغلّ أحدًا هنا».

شعرتُ بامتنان جارف لخينارو الابن، وأشفقتُ عليه كثيرًا من المشكلات التي يواجهها. حتى وإن لم يدفع لي أكثر من مئة صول، فذلك شيء رائع في حالتي. وبينما أنا في طريق الخروج من مكتبه، استوقفني صوته على الباب:

- «اسمع، صحيح... لقد عرفتُ بأمر زواجك»، التفتُّ إليه، فوجدتُه يشير إليَّ بمودة. «من هي الضحية؟ أفترض أنها امرأة، أليسَت كذلك؟ حسنًا، مبارك. قريبًا نحتسي كأسًا للاحتفال بهذه المناسبة».

اتَّصلتُ من مكتبي بالخالة خوليا، التي قالت إن زوجة خالي أولغا قد لانَت بعض الشيء، ولكنها تتعجَّب في بعض الأحيان بقولها: «يا لكِ من مجنونة!». لم تأسف الخالة خوليا كثيرًا لأن الشقة الصغيرة لم تكُن مُتاحَةً بعد («لقد نمنا على فراشَيْن منفصلَيْن طويلًا، على كل حال، ويمكننا الاستمرار في ذلك أسبوعَيْن آخرَيْن يا بارغيتاس»)، وقالَت لي إنها شعرَت بتفاؤل كبير بعد أن اغتسلَت جيدًا وبدَّلَت ثيابها. نبهتُها إلى أنني لن أذهب لتناول الغداء، فأنا مُضطَرٌّ إلى الخوض في بحر من المسلسلات الإذاعية، وقلتُ لها إننا سوف نلتقي في الليل. أعددتُ برنامج پانامريكانو ونشرتَي أخبار ثم

ذهبتُ للغوص في مخزن راديو سنترال. كان كهفًا خاليًا من الإضاءة، حافلًا ببيوت العناكب. ما كدتُ أدلف إليه حتى سمعتُ أصوات الفئران تركض في العتمة. كانت الأوراق في كل مكان: مُكدَّسة، ومنفرطة، ومُتناثِرة، ومربوطة في حزم. بدأتُ أعطس في الحال مُتأثِّرًا بالغبار والرطوبة. لم يكُن العمل هناك ممكنًا، ولذا شرعتُ أحمل أكداسًا من الورق إلى حجيرة بِدرو كاماتشو، واستقرَّت بي الحال في ذلك الذي كان مكتبه، حيث لم يبقَ له أدنى أثر: لا معجم الأقوال، ولا خارطة ليما، ولا البطاقات الاجتماعية-النفسية-العرقية. زحفَت الفوضى والقذارة الشديدتان إلى نصوص المسلسلات الإذاعية العتيقة الواردة من شبكة سي إم كيو: فأتَت الرطوبة على الحروف، وقرضَت الفئران والصراصير صفحات المسلسلات، كما لوَّثَتها بالفضلات، في حين اختلطَت صفحات النصوص المختلفة كما اختلطَت قصصُ بِدرو كاماتشو. لم تكُن هناك وفرة من الخيارات المختلفة، بل كان أقصى أملي العثور على بعض النصوص التي تصلح للقراءة.

كنتُ قد أمضيتُ ثلاث ساعات من العطس بسبب الحساسية، بينما رحتُ أغوص في تلك القصص المأساوية المعسولة، محاولًا حلَّ ألغاز المسلسلات الإذاعية، وعند ذاك انفتح باب الحجيرة وظهر خابيير.

- «شيء لا يُصدَّق أنك ما زلتَ مهووسًا ببِدرو كاماتشو في هذه اللحظات، على الرغم من جميع مشاكلك»، قال وهو يستشيط غضبًا. «جئتُ من بيت جدّك وجدّتك. أقل ما يمكنك فعله أن تتحقَّق مما يجري، وترتعد خوفًا».

ألقى ظرفَيْن على المكتب الذي فاض بنصوصٍ تبعث على التنهُّد. كان أولهما يضمّ الرسالة التي تركها لي أبي ليلة البارحة.

وجاء فيها ما يلي: «ماريو: أُمهلُ تلك المرأة ثمانية وأربعين ساعة كي تغادر البلد. وإلّا، سوف أرغمها بنفسي على دفع ثمن وقاحتها غاليًا، مُستعينًا على ذلك بما يقتضيه الأمر من النفوذ. أما أنت، فاعلمْ أنني مُسلَّح، وأنني لن أسمح لك بالسخرية مني. إن لم تمتثل لأوامري بحذافيرها، وإن لم تغادر تلك المرأة البلد خلال المهلة التي حدَّدتُها، أرديتُك قتيلًا بخمسة أعيرة نارية كما تُقتَل الكلاب، على قارعة الطريق».

وقَّع الرسالة باسمه كاملًا، وأضاف تذييلًا جاء فيه ما يلي: «لو شئتَ، يمكنك التوجّه إلى الشرطة لطلب الحماية. وها أنا أوقِّع مرة أخرى على قراري بقتلك حيثما وجدتُك، كما تُقتَل الكلاب، حتى يكون كل شيء في غاية الوضوح».

وبالفعل، وقَّع مرة أخرى، بخطٍّ أكثر حيويةً من سابقه. أما الظرف الثاني، فلقد أرسلَته إليَّ جدّتي مع خابيير منذ نصف ساعة، بعد أن تسلَّمَته من حارس مدني، وجاء فيه استدعاء إلى قسم شرطة ميرافلوريس، حيث يجب عليَّ المثول في التاسعة من صباح اليوم التالي.

- «ليس ما ورد في رسالة أبيك هو الأسوأ، وإنما استعداده التام لتنفيذ ما هدَّد به، نظرًا إلى الحال التي رأيتُه عليها أمس»، قال خابيير مُعزِّيًا، وهو يجلس على حافة النافذة. «ماذا نفعل، يا رفيقي العزيز؟».

- «مبدئيًا، نستشير محاميًا»، لم يخطر لي غير ذلك. «بشأن زواجي، والأمر الآخر أيضًا. أتعرف محاميًا يعفينا من دفع الأتعاب، أو يسمح لنا بالدفع لاحقًا؟».

ذهبنا إلى محامٍ شاب، من أقربائه، سبق لنا أن لعبنا معه بالطائرات الورقية على شاطئ ميرافلوريس في بعض المرات. كان

في غاية المودة، وتلقَّى حكاية تشينتشا بحس دعابة، مُلقِيًا بعض النكات. لم يرغب المحامي في تقاضي الأتعاب، كما توقَّع خابيير. أوضح لي أن الزواج لم يكُن باطلًا. وإن أمكن فسخه، على الرغم من ذلك، بسبب التعديل الذي أُدخِل على تاريخ ميلادي. ولكن الأمر يقتضي حكمًا قضائيًّا، وإلَّا بات الزواج «مشروعًا» من تلقاء نفسه بعد مضي عامَيْن، وما عاد في الإمكان فسخه. أما في ما يتعلَّق بالخالة خوليا، فيمكن اتهامها «بإفساد أخلاق قاصر»، وإبلاغ الشرطة عنها، وإلقاء القبض عليها، بصفة مُؤقَّتة على الأقل، ثم تُعقَد المحاكمة لاحقًا. غير أنه كان على يقين من استحالة ثبوت التهمة، مع الأخذ في الحسبان ملابسات القضية، أي علمًا بأنني في الثامنة عشرة ولستُ في الثانية عشرة من العمر. ولذا فمن شأن أي محكمة أن تخلي سبيلها.

- «في جميع الأحوال، لو شاء والدك، فهو يملك أن ينغِّص عيش خوليتا لبعض الوقت»، انتهى خابيير إلى تلك النتيجة ونحن في طريق العودة إلى الراديو عَبْر شارع أونيون. «أيملك نفوذًا في دوائر الحكم بحقّ؟».

لم أكُن على علم بذلك. ربما كان صديقًا لأحد الجنرالات، أو رفيقًا لأحد الوزراء. وباندفاع، اتَّخذتُ قراري بألَّا أنتظر حتى اليوم التالي لأعرف سبب استدعائي إلى قسم الشرطة. طلبتُ من خابيير أن يساعدني على إنقاذ بعض المسلسلات الإذاعية من تلك الحمم الورقية في مقرّ راديو سنترال، حتى نقطع الشكّ باليقين في اليوم نفسه. قبِل طلبي، كما عرض عليَّ أن يزورني ويحمل إليَّ السجائر دائمًا في حال ذهبتُ إلى السجن.

في السادسة مساءً، سلَّمتُ خينارو الابن مسلسلَيْن إذاعيَّيْن، لملمتُ أشلاءهما بالتقريب. ووعدتُه بأن تكون لدي ثلاثة مسلسلات

أخرى في اليوم التالي. ألقيتُ نظرة سريعة على نشرتَي أخبار السابعة والثامنة، ثم وعدتُ پاسكوال بأن أعود من أجل برنامج پانامريكانو.

وبعد مضي نصف ساعة، كنتُ أنا وخابيير في قسم شرطة بينتي أوتشو دي خوليو، بميرافلوريس. انتظرنا وقتًا لا بأس به. وأخيرًا، استقبلنا ضابط - برتبة رائد، بالثياب الرسمية - وقائد التحريات أيضًا. حضر أبي إلى القسم نهار ذلك اليوم، وطلب استجوابي رسميًّا بشأن ما جرى. كانت لديهما قائمة بالأسئلة المكتوبة بخطّ اليد، بينما أخذ الشرطي صاحب الثياب المدنية يسجِّل أجوبتي على الآلة الكاتبة، الأمر الذي استغرق طويلًا، نظرًا إلى تدنِّي مهاراته في الكتابة على الآلة. أقررتُ بزواجي (مُشدِّدًا بقوة على أنني قد تزوَّجتُ «برغبتي ومشيئتي»)، وإن امتنعتُ عن الإفضاء بالقرية ومقرّ البلدية حيث عُقِد زواجنا. كما لم أُجِب حين سُئِلتُ عن الشاهدَيْن. وبالنظر إلى طبيعة الأسئلة، بدا وكأن واضعها محامٍ نصَّاب، سيئ النوايا: سُئِلتُ عن تاريخ ميلادي، وبعد ذلك سُئِلتُ إن كنتُ قد بلغتُ سن الرشد أم لا (وكأن ذلك لم يرِد ضمنًا في السؤال السابق)، وأين أعيش، ومع مَن، وطبعًا، سُئِلتُ عن سنّ الخالة خوليا (التي أشير إليها بلقب **دونيا** خوليا)، السؤال الذي امتنعتُ عن إجابته أيضًا، وقلتُ إن الكشف عن عمر السيدات أمر ينطوي على سوء ذائقة، ما أثار فضولًا طفوليًّا في الشرطيَّيْن، اللذين تبنَّى كلاهما نبرة أبوية، بعد أن ذيَّلتُ الإقرار بتوقيعي، وسألاني «بمحض فضول» عن الفارق العمري بيني وبين «السيدة». وما كدنا نخرج من قسم الشرطة حتى استحوذ عليَّ اكتئاب شديد، وشعور مزعج بأنني قاتل أو سارق.

رأي خابيير أنني قد ارتكبتُ خطأ، فالامتناع عن كشف المكان الذي عُقِد فيه الزواج استفزاز من شأنه الإمعان في إثارة أبي، بلا أدنى فائدة، لأنه سوف يتحقَّق من ذلك في غضون أيام قليلة. شقّ

عليَّ الرجوع إلى الراديو ليلتذاك وأنا في تلك الحالة المعنوية، فذهبتُ إلى بيت الخال لوتشو. فتحَت لي زوجة خالي أولغا، التي استقبلَتني بوجه جاد ونظرة قاتلة، غير أنها لم تقُل لي كلمة واحدة، بل إنها مدَّت لي خدَّها حتى أطبع عليه قبلة. ثم دلفَت معي إلى الصالة، حيث وجدتُ الخال لوتشو والخالة خوليا. كانت نظرة واحدة إليهم تكفيني لأعرف أن الوضع في غاية السوء. سألتُهم عما يجري.

- «لقد ساءت الأمور»، قالَت لي الخالة خوليا وهي تشبك أصابعها بأصابعي، فرأيتُ الضيق الذي أثاره ذلك في نفس زوجة خالي أولغا. «يريد حماي ترحيلي إلى خارج البلد بصفتي شخصًا غير مرغوب فيه».

كان الأخوال خورخي وخوان وبِدرو قد التقوا بأبي مساء ذلك اليوم، فعادوا مذعورين من الحال التي رأوه عليها، بغضبه البارد، ونظرته الثاقبة، وطريقته في الكلام التي وشَت بإصرار لا يلين. كان حاسمًا: إما تغادر الخالة خوليا بيرو في غضون ثمانية وأربعين ساعة، وإما تتحمَّل العواقب. بالفعل، كان أبي صديقًا مُقرَّبًا لوزير العمل في حكومة النظام الديكتاتوري، الجنرال الذي يُدعَى بيَّاكورتا، وربما كانا زميلَيْن في الدراسة. تحدَّث إليه بالفعل، وسوف تُرحَّل الخالة خوليا، ويرافقها الجنود إلى الطيارة، ما لم تغادر بمشيئتها. أما أنا فإما أطيعه، وإما أدفع الثمن غاليًا. وكما فعل بخابيير، أظهر والدي المسدس لأخوالي أيضًا. أكملتُ لهم المشهد، فأطلعتُهم على الرسالة وأخبرتُهم بأمر التحقيق في قسم الشرطة. كانت مزية الرسالة التي تركها لي والدي أنها سمحَت لنا بأن نكسبهم إلى صفنا كليًّا. صبَّ الخال لوتشو بضع كؤوس من الويسكي، وفيما رحنا نشرب، أجهشَت زوجة خالي أولغا بالبكاء فجأة، وتساءلَت كيف يُعقَل أن

تُعامَل أختها معاملة المجرمين، فتتلقَّى التهديدات من الشرطة، وهما سليلتا واحدة من خيرة عائلات بوليفيا.

- «لا بديل عن رحيلي يا بارغيتاس»، قالت الخالة خوليا. رأيتُها تبادل الخال وزوجته نظرة، فأدركتُ أنهم قد تحدَّثوا عن الأمر بالفعل. «لا تنظر إليَّ هكذا، فهذه ليست مؤامرة. لن نفترق إلى الأبد، بل حتى يتجاوز والدك نوبة الغضب فحسب، تجنُّبًا لإثارة المزيد من الفضائح».

سبق أن تحدَّث ثلاثتهم عن الأمر، وتناقشوا بشأنه، ورسموا مُخطَّطًا. بعد استبعاد بوليفيا، اقترحوا أن تذهب الخالة خوليا إلى بالپاراييسو في تشيلي، حيث تعيش جدّتها. لن تمكث هناك أطول من الوقت اللازم حتى تهدأ النفوس، ثم تعود حالما أتَّصل بها. اعترضتُ ثائرًا، وقلتُ إن الخالة خوليا زوجتي، وإنني قد تزوَّجتُها حتى نبقى معًا، وإننا سوف نغادر معًا في جميع الأحوال. ذكَّروني بأنني قاصر: ولا يمكنني استصدار جواز السفر أو مغادرة البلد ما لم أحصل على موافقة أبي. قلتُ إنني سوف أتسلَّل عَبْر الحدود خلسة، فسألوني كم أملك من النقود حتى أذهب للعيش في الخارج. (لم يتبقَّ لي سوى ما يكفي لشراء السجائر بضعة أيام أخرى، بمشقة بالغة: لأن الزواج وإيجار الشقة الصغيرة قد بدَّدا الراتب الذي تلقَّيتُه من راديو پانامريكانا مُقدَّمًا، وكذلك المبلغ الذي تحصَّلتُ عليه مقابل بيع الثياب ورهن مُتعلِّقاتي لدى صندوق الرهونات).

- «لقد تزوَّجنا، وذلك شيء لن ينتزعه منا أحد»، قالت الخالة خوليا بينما هي تبعثر شعري، وتقبِّلني، وقد فاضَت عيناها بالدموع. «إن هي إلَّا بضعة أسابيع، أو بضعة أشهر على أقصى تقدير. لا أريدك أن تتلقَّى رصاصةً بسببي».

وعلى الغداء، مضى الخال لوتشو وزوجته أولغا يدفعان بالحجج

اللازمة لإقناعي: من الواجب عليَّ أن أتعقَّل، بعد أن فعلت ما يحلو لي، وتزوَّجت، الآن يجب عليَّ التنازل بصفة مُؤقَّتة، تجنُّبًا لوقوع شيء لا يمكن إصلاحه. ينبغي لي أن أتفهَّم وضعهما الذي كان شديد الحساسية أمام أبي وسائر أفراد العائلة، مع الأخذ في الحسبان أنها شقيقة الخالة خوليا، وأنه صهرها: ولذا لا يمكنهما الوقوف معها ولا ضدّها. أبديا استعدادًا لتقديم المساعدة، مثلما كانا يفعلان في تلك اللحظات. والآن حان دوري للإسهام بشيء من جانبي. يجب عليَّ البحث عن عمل آخر، خلال الفترة التي ستمضيها الخالة خوليا في بالپاراييسو، وإلَّا فبِمَ نعيش، ومَن ينفق علينا، سحقًا! أما أبي، فلسوف تنتهي به الحال إلى الهدوء، وتقبُّل الواقع.

قرب منتصف الليل، بعد أن ذهب الخال وزوجته إلى الفراش بهدوء، وبينما رحتُ أنا والخالة خوليا نمارس الحبّ على نحو رهيب، بانفعال شديد، وقد خلع كلٌّ منا بعض ثيابه، وأرهف أذنَيْه حتى يسمع أدنى صوت. انتهيتُ إلى تسليم أمري. لم يكُن أمامي حلٌّ آخر. في صباح اليوم التالي نحاول استبدال تذكرة تشيلي بتذكرة لا پاس. بعد مضي نصف ساعة، وبينما أنا سائر في شوارع ميرافلوريس، في طريقي إلى حجرة العازب الصغيرة الخاصة بي، في بيت الجدّ والجدّة، شعرتُ بمرارة وعجز، ورحتُ ألعن نفسي لأنني لا أملك حتى ما يكفي لاقتناء مسدس بدوري.

سافرَت الخالة خوليا إلى تشيلي بعد يومَيْن، على متن طائرة أقلعَت فجرًا. لم تمانع شركة الطيران في تبديل التذكرة، على الرغم من وجود فارق في السعر تمكَّنا من تسديده بفضل قرض بقيمة ألف وخمسمئة صول قدَّمه لنا پاسكوال (الذي تركني مُندهِشًا حين أخبرني بأنه يملك خمسة آلاف صول في حساب ادّخار، ما يمثِّل عملًا بطوليًّا بحق، مع الأخذ في الحسبان راتبه الهزيل). كما بعتُ جميع

الكتب التي كنتُ لا أزال محتفظًا بها لمكتبة في شارع لا پاس، بما في ذلك كتب التشريعات والقوانين، واستبدلتُ بقيمتها خمسين دولارًا، ليكون في حوزة الخالة خوليا شيء من النقود.

رافَقَنا إلى المطار الخال لوتشو وزوجته أولغا، اللذين أمضيتُ الليلة الفائتة في بيتهما، حيث سهرتُ أنا والخالة خوليا، فلا نمنا ولا مارسنا الحب. بعد العشاء، انصرف الخال وزوجته إلى حجرتهما، بينما رحتُ أشاهد الخالة خوليا تعدّ حقيبتها بحرص، وأنا جالس على طرف الفراش. ثم جلسنا في الصالة المعتمة، حيث بقينا ثلاث أو أربع ساعات، وقد شبك كلٌّ منا يده في يد الآخر، وجلس على مقربة شديدة منه، مُتكلِّمًا بصوت خفيض لئلّا نوقظ قريبَيْنا. رحنا نتعانق، ونضمّ وجهَيْنا، ونتبادل القبلات، وإن أمضينا الشطر الأطول من الوقت في التدخين ومجاذبة أطراف الحديث. تكلّمنا عما سنفعل متى التأم شملنا مرة أخرى، وكيف يمكنها أن تمدّ لي يد العون في عملي، وكيف نصل إلى باريس يومًا، بطريقة أو بأخرى، طال الأمد أم قصر، ونسكن في تلك الحجرة العلوية، هناك حيث أغدو كاتبًا، أخيرًا. أخبرتُها بقصة مُواطِنها بِدرو كاماتشو، الذي صار الآن محاطًا بالمجانين، مُحتجَزًا في إحدى العيادات، حيث ينحدر إلى الجنون هو أيضًا، من دون شكّ. اتّفقنا على المراسلة كل يوم، وكتابة رسائل مُطوَّلة يحكي فيها كلانا جميع أفعالنا وخواطرنا ومشاعرنا بإسهاب. وعدتُها بأن أكون قد رتَّبت كل شيء متى عادَت، وبأن أجني من النقود ما يكفي لئلّا نتضوَّر جوعًا. دقّ جرس المنبه في الخامسة، والظلام الدامس لم يزَل مُخيِّمًا. وحين وصلنا إلى مطار ليماتامبو، بعد ساعة، كانت خيوط الفجر الأولى تبدأ في الظهور. ارتدَت الخالة خوليا الثوب الأزرق الذي يروقني، وبدَت جميلة. كما تحلَّت بهدوء شديد وكلانا يوِّدع الآخر، ولكني أحسستُ بها ترتجف بين

ذراعَيّ. بينما شعرتُ أنا بغصة في حلقي، وسالَت الدموع من عينَيّ حين رأيتُها تصعد إلى الطائرة من مكاني بشرفة زائري المطار، والنهار لم يزَل في أوله.

استمرّ منفاها إلى تشيلي شهرًا وأربعة عشر يومًا، فكانت تلك الأسابيع الستة حاسمة عندي، تمكَّنتُ خلالها من الجمع بين سبعة أعمال مختلفة (بفضل مساعي الأصدقاء والمعارف والزملاء والأساتذة الذين قصدتُهم وتوسَّلتُ إليهم وأزعجتُهم ودفعتُهم إلى حدّ الجنون حتى يساعدوني)، من ضمنها عملي براديو پانامريكانا، بطبيعة الحال. كانت أولى الجهات التي التحقت بالعمل لديها مكتبة النادي الوطني القائمة بجوار الراديو، حيث اقتضى واجبي الذهاب إلى هناك لإدخال بيانات الكتب والمجلات الجديدة وإعداد قوائم بالكتب القديمة على مدى ساعتَيْن يوميًّا، بين نشرات الصباح الإخبارية. كما كلَّفني أستاذ تاريخ بجامعة سان ماركوس - حصلتُ على تقديرات مرتفعة في مادته - بالعمل لديه مساعدًا في المساء، من الثالثة إلى الخامسة، في بيته بميرافلوريس، حيث كنتُ أعدّ بطاقات فهرسة عن مختلف الموضوعات الواردة في أعمال المُؤرِّخين، من أجل مشروع كتابة تاريخ بيرو، الذي أسهم فيه بكتابة الأجزاء المُتعلِّقة بالغزو والتحرير. أما أكثر الأشغال الجديدة غرابةً، فهي المهمة التي كلَّفَتني بها مصلحة الرعاية العامة في ليما: كانت مقابر پرِسبيتيرو مايسترو تضمّ عددًا من شواهد القبور التي تعود إلى الحقبة الاستعمارية، والتي فُقِدَت سجلَّاتها، فعُهِد إليَّ بكشف الرموز المكتوبة في شواهد تلك القبور، وإعداد قوائم بالأسماء والتواريخ. كنتُ أؤدي تلك المهمة متى شئت، فانصرفتُ إليها في المساء، بين نشرة أخبار السادسة وبرنامج پانامريكانو. كما تلقَّيتُ عنها أجري بالقطعة: صول واحد عن كل ميت. تعوَّد خابيير مرافقتي، إذ لم يكُن

لديه ما يعمله في تلك الساعة. كان الظلام يخيِّم مُبكِّرًا لأن الوقت شتاء، ما جعل مدير المقابر يعيرنا كشَّافات إضاءة وسلَّمًا لنتمكَّن من قراءة شواهد القبر المرتفعة. كان رجلًا بدينًا، زعم بأنه قد حضر مراسم تنصيب ثمانية من رؤساء بيرو في البرلمان. في بعض الأحيان، كنا نلهو متظاهرين بسماع أصوات وأنَّات وصليل سلاسل، ورؤية خيالات بيضاء وسط القبور، حتى استحوذ علينا الخوف بحقّ. وفضلًا عن التردُّد إلى المقابر مرتَيْن أو ثلاثًا في الأسبوع، صرتُ أنفق نهارات الأحد كلها في ذلك العمل. كانت باقي الأعمال التي اشتغلتُ بها تقف على مسافةٍ تقترب من الأدب وتبتعد عنه (وإن ابتعد الجزء الأكبر عن الأدب). كنتُ أعدّ لقاء أسبوعيًّا مع أحد الشعراء أو الروائيين أو كتَّاب المقالات من أجل ملحق إل كومِرسيو الصادر يوم الأحد، في عمود بعنوان «الرجل وأعماله»، أضف إلى ذلك مقالًا أكتبه لمجلة الثقافة البيروفية، في القسم الذي اخترعتُه بعنوان: «رجال وكتب وأفكار». وأخيرًا، عهد إليَّ أستاذٌ صديق آخر بكتابة نصٍّ عن التعليم المدني من أجل المُتقدِّمين إلى الجامعة الكاثوليكية (مع أنني طالب في جامعة سان ماركوس المُنافِسة)، فصار عليَّ أن أسلِّمه أحد موضوعات برنامج الالتحاق كل إثنين (الموضوعات بالغة التنوُّع، بدءًا برموز الوطن، مرورًا بالأزهار والحيوانات الأصلية، وصولًا إلى الجدل القائم بين العلماء المُتخصِّصين في حضارة السكان الأصليين وأولئك المُتخصِّصين في الحضارة الهسبانية).

وبتلك الأعمال (التي أشعرَتني بأنني أقلِّد بِدرو كاماتشو قليلًا) تمكَّنتُ من مضاعفة دخلي ثلاث مرات، وكسب ما يكفي لشخصَيْن. طلبتُ دفعة من الأجر مُقدَّمًا في كل واحد من الأعمال التي التحقتُ بها، وهكذا تمكَّنتُ من استرداد آلتي الكاتبة المرهونة، الضرورية لتنفيذ المهمات الصحافية (وإن كتبتُ عددًا كبيرًا من المقالات في

راديو پانامريكانا). حتى ابنة خالي نانسي اشترَت بعض الأشياء لتزيين الشقة الصغيرة التي سلَّمَتني المالكة إياها بعد مضي خمسة عشر يومًا بالفعل. شعرتُ بسعادة غامرة نهارَ ذلك اليوم، عندما استحوذتُ على هاتين الحجرتَيْن المرفقتَيْن بحمام في غاية الصغر. ظللتُ أنام في بيت الجدّ والجدّة، إذ اتَّخذتُ قراري بافتتاح الشقة يومَ تصل الخالة خوليا، وإن كنتُ أتردَّد إليها في أغلب الليالي حتى أكتب المقالات وأعدّ قوائم الموتى. لا أحسست بالتعب ولا شعرتُ بالاكتئاب، مع أنني لم أكفّ عن عمل أشياء مختلفة والدخول والخروج من مكان إلى مكان. بالعكس، كنتُ في غاية الحماس، بل وأعتقد بأنني واظبتُ على القراءة كسابق عهدي (وإن اكتفيتُ بالقراءة في الحافلات وسيارات الأجرة المشتركة اللانهائية التي كنتُ أستقلّها يوميًّا).

وفَت الخالة خوليا بما وعدَت، إذ كانت رسائلها تصل يوميًّا، فتسلِّمني الجدّة إياها وفي عينَيْها بريق شقي، بينما هي تهمس متسائلة: «ممن تكون تلك الرسالة؟ ممن يا ترى؟». وأنا أيضًا راسلتُ الخالة خوليا بانتظام. كان ذلك آخر ما أفعل كل ليلة، فصرتُ أكتب إليها والنعاس يلعب برأسي في بعض الأحيان، مُعدِّدًا لها الأمور الكثيرة التي أنجزتُها على مدار اليوم. خلال الأيام التي أعقبَت سفرها، التقيتُ أقربائي الكثيرين واحدًا تلو آخر، في بيت الجدّ والجدّة، وفي بيت الخال لوتشو وزوجته أولغا، وفي الشارع أيضًا، وهكذا تكشَّفَت لي ردود أفعالهم المُتنوِّعة، التي جاء بعضها غير مُتوقَّع، وصدر أشدّها صرامة من الخال پِدرو: الذي لم يردّ التحية، وأولاني ظهره بعد أن رشقني بنظرة جليدية. أما الخالة خيسوس، فأغرورقَت عيناها بالدمع الثخين وعانقَتني هامسةً بصوت مفعم بالدراما: «يا للطفل المسكين!». بينما استقرّ أخوال وخالات آخرون على التصرُّف وكأن شيئًا لم يكُن. أظهروا لي العطف، غير

أنهم لم يأتوا على ذكر الخالة خوليا، مُتظاهِرين بأنهم لا يدرون عن زواجي شيئًا.

أما والدي، فلم أرَه، على علمي بأنه قد هدأ بعض الشيء عندما رحلَت الخالة خوليا عن البلد امتثالًا لطلبه. نزل والداي في بيت أعمامي الذين ما كنتُ أزورهم قطّ، وإن حضرَت أمي يوميًّا إلى بيت الجدّ والجدّة، حيث كنتُ ألتقيها. اتَّخذَت معاملتها مسارًا مُتأرجِحًا، إذ عاملَتني بعطف وأمومة. غير أنها كانت تمتقع وتذرف الدموع كلّما لاحَت المسألة المحظورة في الأفق، بصورة مباشرة أو غير مباشرة، وتؤكِّد بقولها: «لن أتقبَّل الأمر ما حييت». عرضتُ عليها أن تأتي لرؤية الشقة الصغيرة، فشعرَت بالإهانة وكأنني قد وجَّهتُ إليها السباب. ولطالما أشارَت إلى بيع ثيابي وكتبي كما لو كانت مأساة إغريقية. كنتُ أُسكِتُها قائلًا: «يا أمي العزيزة، لا تبدئي مرة أخرى في مسلسلاتك الإذاعية». لم تأتِ على ذكر أبي، كما لم أسأل عنه، وإن بلغني، عن طريق الأقرباء الذين قابلوه، أن غضبه العارم قد أفسح الطريق لشعور باليأس من مصيري، وصار من عادته أن يقول: «يجب عليه أن يطيعني حتى يبلغ الحادية والعشرين. وبعد ذلك، يمكنه أن يضلّ الطريق».

وعلى الرغم من الأعمال المُتعدِّدة التي ارتبطتُ بها، كتبتُ في تلك الأسابيع قصة جديدة بعنوان **التقية والأب نيكولاس**. كانت قصةً تعادي الكهنوت، وتدور في غروسيو پرادو، بطبيعة الحال: عن كاهن ماكر، انتبه إلى شعبية ميلتشوريتا وسط المؤمنين، فقرَّر أن يتَّخذ منها صناعةً لصالحه. وبطموح رجل الأعمال الناجح وبروده، وضع مُخطَّطًا لنشاط تجاري مُتعدِّد الأغراض، يهدف إلى صناعة وبيع الصور المُلوَّنة والكتفيات والأيقونات والآثار المُقدَّسة المُكرَّسة للمرأة التقية بكل صنوفها، وبيع تذاكر الدخول إلى الأمكنة التي

عاشَت فيها، وتلقّي التبرُّعات وبيع بطاقات اليانصيب لبناء مصلى باسمها والتكفُّل بنفقات الوفود التي يُزمَع أن تسافر إلى روما للتعجيل بتطويبها قديسة. كتبتُ خاتمتَيْن مختلفتَيْن، على شكل خبر منشور في الصحف: في الخاتمة الأولى يكتشف أهل غروسيو پرادو الأنشطة التجارية للأب نيكولاس، فيعدمونه بلا محاكمة. أما في الخبر الثاني، فيُرسَم الكاهنُ رئيسًا لأساقفة ليما. (استقررتُ على تخيُّر إحدى الخاتمتَيْن بعد قراءة القصة على الخالة خوليا). كتبتُ القصة في مكتبة النادي الوطني، حيث كانت مهمة إعداد القوائم بالكتب الجديدة عملًا رمزيًا.

أما المسلسلات الإذاعية التي أنقذتُها من مخازن راديو سنترال (وتلقَّيتُ عن تلك المهمة مئتَي صول فوق راتبي)، فكُثِّفَت لتسجيل عدد من الحلقات يكفي لشهر واحد، أي المدة التي استغرقَتها نصوص سي إم كيو في الوصول. ولكن لا هذه الأعمال ولا تلك استطاعَت أن تحتفظ بالأعداد الهائلة من المستمعين الذين اجتذبهم پِدرو كاماتشو، كما توقَّع رجل الأعمال التقدُّمي. تناقص الإقبال الجماهيري، وأصبح خفض التعريفة الإعلانية ضروريًا لئلّا يخسر الراديو معلنيه. وإن لم تترتَّب على الأمر ضربة شديدة الجسامة لآل خينارو، فلطالما كانوا مبتكرين ومفعمين بالحيوية، وهكذا عثروا على منجم ذهب جديد، يتمثَّل في برنامج بعنوان **أجِب تربح أربعة وستين ألف صول**. أذيع البرنامج من سينما لو پاريس، حيث كان المُتسابِقون أصحاب الخبرة في شتى المجالات (السيارات، سوفوكليس، كرة القدم، حضارة الإنكا. . .) يجيبون عن الأسئلة، ويربحون عنها مبالغ مالية قد تصل إلى هذا الرقم. تابعتُ أخبار پِدرو كاماتشو عن طريق خينارو الابن، الذي كنتُ أتناول معه القهوة في مقهى برانسا بشارع كولمينا (وإن صارَت لقاءاتنا الآن شديدة التباعُد في ما بينها). مكث

بِدرو كاماتشو قرابة شهر في عيادة دكتور دِلغادو الخاصة. ولكن، لمَّا كانت تكاليف إقامته في العيادة باهظة، فلقد تمكَّن آل خينارو من نقله إلى لاركو إريرا، مستشفى الأمراض العقلية التابع لمصلحة الرعاية العامة، هناك حيث لقي عناية فائقة، على ما يبدو. ذات أحد، وبعد الانتهاء من تسجيل بيانات القبور في مدافن بِرسبيتيرو مايسترو، ذهبتُ بالحافلة إلى لاركو إريرا وقد وطَّنتُ النية على زيارته. مضيتُ إليه بعبوات من عشبة الليمون والنعنع على سبيل الهدية، حتى يعدّ بها المشروبات الساخنة. ولكني، في اللحظة التي هممتُ فيها بعبور تلك البوابة الخليقة بالسجون مع باقي الزائرين، اتَّخذتُ قراري بألَّا أزوره. لأن الفكرة المُتمثِّلة في رؤية كاتب السيناريو مرة أخرى، في ذلك المكان المُسوَّر المختلط - هناك حيث سبق لنا أن أجرينا بعض التدريبات في مجال علم النفس خلال العام الأول بالجامعة - بعد أن صار مجنونًا آخر ضمن جموع المجانين، قد أورثَتني غمًّا شديدًا منعني الدخول، فدرتُ على عقبَي عائدًا إلى ميرافلوريس.

في ذِلك الإثنين، قلتُ لأمي إنني أودّ لقاء والدي. نصحَتني بأن أتعقَّل، وبألَّا أقول شيئًا قد يستفزّه، وبألَّا أعرِّض نفسي للأذى على يدَيْه، ثم أعطَتني رقم البيت الذي نزل فيه. أخبرني والدي بأنه سوف يستقبلني نهارَ اليوم التالي، في الحادية عشرة، في ذلك الذي كان مكتبه قبل السفر إلى الولايات المتحدة، الواقع بشارع كارابايا، في نهاية رواق مرصوف تقوم على جانبَيْه الشقق والمكاتب. سُمِح لي بالدخول إلى مكتب إدارة شركة إمپورت/ إكسپورت (حيث تعرَّفتُ بعضَ المُوظَّفين الذين سبق لهم العمل معه). كان أبي وحده، جالسًا إلى مكتبه العتيق، وقد ارتدى بدلة بلون القشدة، ولفّ عنقه بربطة خضراء منقوشة بنقاط بيضاء اللون. لاحظتُه شاحبًا بعض الشيء، أكثر نحافةً مما كان عليه منذ عام.

- «صباح الخير يا أبي»، قلتُ من مكاني على عتبة الباب، وأنا أجاهد ليأتي صوتي راسخًا.

- «قُلْ ما عندك»، قال بطريقة أقرب إلى الحياد منها إلى السخط، مشيرًا إلى أحد المقاعد.

جلستُ على حافة المقعد، بينما تنشَّقتُ نفسًا عميقًا، وكأنني رياضيٌّ على وشك أن يخوض اختبارًا.

- «لقد جئتُ أخبرك بما أنا فاعل، الآن وفي المستقبل»، تلعثَمت.

لزم الصمت، مُنتظِرًا مني الاستمرار في الحديث. عندئذ، رحتُ أتكلَّم ببطء شديد حتى أبدو هادئًا، مُتلَصِّصًا على ردود فعله. وبحرص، مضيتُ أخبره بتفاصيل الأعمال التي التحقتُ بها، والأجر الذي أتقاضاه عن كل عمل، وكيف أنظِّم وقتي لإنجاز كل شيء، فضلًا عن تأدية الواجبات المنزلية التي أُكلَّف بها، واجتياز امتحانات الجامعة. لم أكذب، ولكني قدَّمتُ له كل شيء بأفضل صورة ممكنة: فقلتُ إنني قد رتَّبتُ حياتي بذكاء وجدّية، وصرتُ تواقًا للانتهاء من دراستي. سكتُّ، فظلّ أبي صامتًا، مُنتظِرًا مني الانتهاء من الكلام. ابتلعتُ ريقي، واضطُرِرتُ إلى ختام حديثي:

- «كما ترى، يمكنني أن أكسب قوتي، وأنفق على نفسي، وأستمرّ في دراستي»، ثم أردفتُ، وأنا أحسُّ بصوتي يخبو حتى ما عاد يُسمَع إلَّا بمشقة. «جئتُ أطلب منك الإذن في الاتّصال بخوليا. لقد تزوَّجنا، ولا يمكن أن تستمرّ في العيش وحدها».

رفَّت عيناه، وزاد شحوبًا على شحوب، وللحظة خُيِّل إليَّ أنه سوف يُصاب بواحدة من نوبات الغضب التي كانت كابوس طفولتي، غير أنه اكتفى بأن قال بجفاء:

- «إن هذه الزيجة باطلة، كما تعلم. أنت قاصر، ولا يمكنك الزواج إلَّا بإذن مني. وما دمتَ قد تزوَّجتَ، فأنت لم تتمكَّن من ذلك إلَّا عن طريق تزوير الإذن أو شهادة الميلاد. وفي كلتا الحالتَيْن، يسهُل إبطال الزواج».

أوضح لي أن تزوير مستند رسمي شيء خطير، يعاقب عليه القانون. وفي حال اضطُرّ أحدهم إلى دفع الثمن، فلن أكون أنا، القاصر، لأن القضاة سوف يعتبرونني قد فعلتُ ما فعلتُ بتحريض من شخص آخر. أما تلك الراشدة، فستدفع الثمن، وتعتبَر مُحرِّضة، بحكم المنطق. وبعد ذلك الرأي القانوني الذي أورده بصوت جليدي، مضى أبي يتكلَّم طويلًا، تاركًا صوته يشفّ عن شيء من المشاعر التي تعتمل في نفسه، رويدًا رويدًا. قال إنني أحسبه يمقتني، والحقّ أنه طالما أراد مصلحتي، ولو أنه عاملني بصرامة ذات مرة، فالغرض من ذلك إصلاح مواطن النقص في شخصي، وتأهيلي من أجل المستقبل. أما روح التحدِّي والتمرُّد اللذين كنتُ أتَّصف بهما، فلسوف يوديان بي. لقد وضعتُ حول عنقي حبلًا بتلك الزيجة. بينما أبدى هو اعتراضه واضعًا مصلحتي نصب عينَيْه. لم يكُن غرضه أن يؤذيني، بخلاف ما ظننتُ، وإلَّا فمَن هو الأب الذي لا يحبّ ابنه؟ أما في ما عدا ذلك، فهو يتفهَّم أنني قد وقعتُ في الحبّ، ولا بأس في ذلك، لأنه شيء يليق بالرجال على الرغم من كل شيء، فلو اتَّضح أنني مُخنَّث، على سبيل المثال، لكان ذلك أشدّ جسامةً. ولكن زواجي بامرأة مُطلَّقة، مكتملة النضج، وأنا طالب صغير في الثامنة عشرة لم أزَل، ضربٌ من الحماقة غير المحسوبة، وشيء لن أدرك عواقبه الحقيقية إلَّا في وقت لاحق، متى صرتُ بائسًا مُنغَّص العيش بسبب تلك الزيجة. لم يتمنَّ لي شيئًا من ذلك، بل إنه لم يتمنَّ لي سوى أفضل الأشياء وأعظمها. وأخيرًا،

طلب مني أن أحاول التمسُّك بدراستي على الأقلّ، وإلَّا ندمت على ذلك دائمًا. نهض، فنهضتُ أنا أيضًا، وران صمتٌ يبعث على الضيق، أبرزَته نقرات المفاتيح الآتية من الآلات الكاتبة في الحجرة الأخرى. تلعثمتُ مُتعهِّدًا بإنهاء دراستي الجامعية، فأومأ برأسه. ثم عانق كلٌّ منا الآخر مُودِّعًا، بعد ثانية من التردُّد.

ومن مكتبه، ذهبتُ إلى مكتب البريد المركزي، من حيث أرسلتُ التلغراف الآتي: «نلتِ العفو. أُرسلُ إليك تذكرة الطيران في أقرب وقت. قبلاتي». أمضيتُ المساء بين بيت الأستاذ المُؤرِّخ، وعلّية پانامريكانا، والمقابر، بينما رحتُ أعتصر ذهني لأجد الطريقة التي أجمع بها النقود. في تلك الليلة، أعددتُ قائمة بأسماء الأشخاص الذين أنوي الاقتراض منهم، والمبلغ الذي أنوي طلبه من كل واحد. ولكني تسلَّمتُ في اليوم التالي تلغرافًا ورد إلى بيت الجدّ والجدّة، جاء ردًّا على التلغراف الذي قد أرسلتُه: «أصلُ غدًا. على خطوط طيران لان. قبلاتي». ثم عرفتُ في وقت لاحق أنها قد اشترَت تذكرة الطيران بما جنَت من بيع الخواتم والأقراط ودبابيس الزينة والأساور وغالب ثيابها. وهكذا كانت، حين استقبلتُها بمطار ليماتامبو، مساء الخميس، امرأة شديدة الفقر.

مضيتُ بها رأسًا إلى الشقة الصغيرة التي لمَّعَتها ابنة خالي نانسي بالشمع ونظَّفَتها بنفسها، كما زيَّنَتها بوردة حمراء وبطاقة كتبَت فيها: «أهلًا بكِ». تحقَّقَت الخالة خوليا من كل شيء، وكأنها لعبة جديدة. وجدَت تسليةً في مطالعة قوائم القبور التي أحسنتُ ترتيبها، والملاحظات التي دوَّنتُها من أجل مقالات مجلة الثقافة البيروفية، وقائمة الكُتَّاب الذين أنوي إجراء مقابلات معهم ونشرها على صفحات إل كومِرسيو، ومواعيد العمل، والميزانية التي وضعتُها بنفسي وأثبتُّ بها أننا قادران على العيش، من حيث النظرية. قلتُ

لها إنني، بعد أن أمارس الحبَّ معها، سوف أقرأ عليها قصة بعنوان **التقية والأب نيكولاس،** كي تساعدني على انتقاء الخاتمة.

- «آه يا بارغيتاس!»، ضحكَت وهي تخلع ثيابها على عجل. «لقد صرتَ رجلًا شابًّا. والآن عدني بأن تطلق شاربك، حتى يصبح كل شيء على أكمل وجه، ويزول عنك هذا المظهر الطفولي».

٢٠



كان زواجي بالخالة خوليا ناجحًا بحق، واستمرّ أطول كثيرًا مما ذهب إليه جميع أقربائي في مخاوفهم أو رغباتهم أو تكهُّناتهم، بل أطول مما ذهبَت إليه الخالة خوليا نفسها: إذ استمرّ ثمانية أعوام. في تلك الفترة، وبفضل إصراري ومساعدتها وحماسها، أضف إلى ذلك جرعة لا بأس بها من حسن الحظّ، تحقَّقَت نبوءات أخرى (أحلام، ورغبات). وتحقَّق لنا السكن بالحجرة العلوية الشهيرة في باريس. وبطريقة أو أخرى، أصبحتُ كاتبًا، كما صدر لي عدد من الكتب. لم أنتهِ من دراسة الحقوق يومًا. ولكني حصلتُ على شهادة جامعية - حتى أعوِّض العائلةَ بطريقة ما، وأتمكَّن من كسب العيش بسهولة أكبر - في انحراف أكاديمي مضجر بقدر الحقوق: فقه اللغات الرومانسية.

وعندما انفصلنا أنا والخالة خوليا، انهمرَت دموع غزيرة في نطاق عائلتي الكبيرة، لأن جميعهم كانوا مُتيَّمين بها (بدءًا بأمي وأبي، طبعًا). وبعد مضي عام، تزوَّجتُ مرة أخرى، بإحدى بنات الأخوال (ابنة خالي لوتشو وزوجته أولغا، ويا للمصادفة!)، فكانت الفضيحة أقلّ دويًّا من سابقتها (وجاءت على شكل فورة من النمائم، فوق كل شيء). وعلى الرغم من ذلك، فلقد نُسِجَت مؤامرة مثالية لإرغامي على الزواج في الكنيسة، تورَّط فيها حتى رئيس أساقفة ليما

نفسه، إذ كان من أقربائنا، طبعًا، فعجَّل بتوقيع شهادة خلوّ الموانع، مُصرِّحًا بعقد القران. آنذاك، كان أفراد العائلة قد تعافوا من الصدمة، وصاروا يتوقَّعون مني ارتكاب أي فعلة همجية (ما ترتَّب عليه الصفح عن أفعالي مُقدَّمًا).

عشتُ مع الخالة خوليا عامًا في إسبانيا، وخمسة أعوام في فرنسا، ثم بقيتُ أنا في أوروبا، حيث عشتُ مع ابنة خالي پاتريسيا، في لندن أولًا، ثم برشلونة. أبرمتُ اتفاقًا مع إحدى مجلات ليما آنذاك، إذ كنتُ أرسل إليها المقالات، فتدفع المجلة أتعابي على شكل تذكرتَي طيران تسمحان لي بالعودة إلى بيرو كل عام لقضاء بضعة أسابيع. كانت لتلك الأسفار أهمية بالغة عندي، إذ يرجع الفضل إليها في لقائي بالأهل والأصدقاء. طاف بخلدي البقاء في أوروبا إلى أجل غير مُسمّى لعدة أسباب، أهمها أنني كنتُ أجد عملًا يتيح لي أوقات فراغ دائمًا، بصفتي صحافيًا أو مترجمًا أو مُحاضِرًا أو مُعلِّمًا. حين وصلتُ إلى مدريد لأول مرة، قلتُ للخالة خوليا إنني: «سوف أسعى لأكون كاتبًا، ولن أقبل إلَّا بعمل لا يبعدني عن الأدب»، فأجابَتني: «هل أمزِّق تنورتي، وأعتمر العمامة، وأخرج إلى شارع غران بيا بحثًا عن الزبائن بدءًا من اليوم؟». والحقّ أنني كنتُ سعيد الحظّ، فعملتُ مُدرِّس لغة إسبانية بمدرسة بيرلتز في باريس، ومُحرِّر أخبار في فرانس پرس، ومُترجِمًا لحساب منظمة اليونسكو، كما شاركتُ في دوبلاج الأفلام بأستوديو چينڤيلييه، وإعداد برامج الإذاعة والتلفزيون الفرنسيَّيْن. لطالما وجدتُ من العمل ما يسدّ الرمق ويسمح لي بتكريس نصف اليوم للكتابة حصرًا، على أقل تقدير. كانت مشكلتي أن كل ما أكتبه مُقترِنٌ ببيرو، الأمر الذي أورثني شعورًا متزايدًا بانعدام الأمان، بسبب غياب المنظور (وأنا الذي استحوذ عليَّ هاجس الأدب **الواقعي** آنذاك). وعلى الرغم من ذلك،

فأنا لم أتصوَّر حتى فكرة العيش في ليما. إذ كنتُ أقشعرّ، وأقسم بألَّا أعود إلى ذلك النظام ولا حتى جثة هامدة، كلّما ذكرتُ الأعمال السبعة التي التحقتُ بها في ليما، فلم تكفِ إلَّا لسدّ الرمق بمشقة، ولم تسمح لي إلَّا بالوقت الكافي للقراءة والكتابة اختلاسًا، في ثغرات بالغة القصر بين عمل وآخر، بعد أن يكون التعب قد نال مني. ومن جهة أخرى، فلطالما وجدتُ بيرو بلدًا من الحزانى.

ولذا تراءى لي الاتفاق الذي أبرمتُه مع جريدة إكسپريسو أولًا، ثم مجلة كاريتاس، وكأنه مُرسَلٌ من العناية الإلهية، ذلك الاتفاق الذي كان ينصّ على مقايضة مقالاتي بتذكرتَي سفر كل عام. أما ذلك الشهر الذي كنا نقضيه في بيرو سنويًّا، خلال الشتاء بوجه العموم (في يوليو أو أغسطس)، فكان يسمح لي بالغوص في تلك الأجواء والمناظر وحياة الكائنات التي أمضيتُ الشهور الأحد عشر الماضية في محاولة الكتابة عنها. خرجتُ من ذلك بفائدة هائلة (لا أدري إن كانت واقعية، ولكن لا شك في الفائدة النفسية التي فزتُ بها)، إذ كنتُ أستمدُّ جرعة من الطاقة متى استمعتُ إلى اللغة البيروفية وتحدَّثتُ بها مرة أخرى، وأصغيتُ إلى ما يتردَّد حولي من التعابير والألفاظ والنبرات التي كانت تردّني إلى محيط أشعر في أعماق نفسي بأنني وثيق القرب منه في جميع الأحوال، حتى وإن ابتعدتُ عنه وفوَّتُّ على نفسي ما يطرأ فيه من المُستجدَّات والأصداء والرموز كلَّ عام.

ولذا كانت الزيارات إلى ليما إجازات لا أذوق فيها طعم الراحة ثانية واحدة، بالمعنى الحرفي، بل أعود منها إلى أوروبا مُستنفَد القوى. كان أفراد عائلتنا ذات الفروع المُتشابكة كالأدغال وأصدقاؤنا الكثيرون يمطروننا بالدعوات اليومية لتناول الغداء والعشاء. أما البقية الباقية من الوقت، فكنتُ أكرِّسها لمشاغلي الوثائقية. وهكذا سافرتُ

ذات عام في رحلة إلى منطقة ألتو مارانيون، حتى أرى ذلك العالَم وأنصت إليه وأحسّ به عن كثب، ذلك العالَم الذي كان مسرحًا تدور فيه الرواية التي عكفتُ على كتابتها آنذاك. وفي عام آخر، ذهبتُ برفقة أصدقائي الدؤوبين لإجراء حملة استكشافية ممنهجة في الأوكار الليلية - الملاهي الليلية، والحانات، والمواخير -، التي كانت تدور فيها الحياة البائسة لبطل قصة أخرى من قصصي. مزجتُ العمل بالمتعة - لأن تلك **الأبحاث** لم تكُن بالشيء المُلزِم قطّ، أو كانت مُلزِمةً بطريقة نابضة بالحيوية، لأنها هواية وجدتُ فيها متعةً لِذَاتِها، ولم أُقبِل عليها لمُجرَّد الفائدة الأدبية التي يمكنني الحصول عليها - وفي تلك الأسفار، أتيتُ بأمورٍ لم يسبق لي أن أتيت بها يومًا، خلال إقامتي في ليما، وما عدتُ أقبل عليها الآن وقد استقرّ بي المقام في بيرو مرة أخرى: التردُّد إلى النوادي الكريوليَّة والمسارح لمشاهدة الرقصات الفولكلورية، والتجوُّل في عشوائيات الأحياء المُهمَّشة، والتنزُّه في مناطق أكاد لا أعرفها أو أجهلها كليًّا من قبيل كاياو وباخو إل پوينتي وباريوس ألتوس، والمراهنة على سباقات الخيل، والتسلُّل إلى مقابر الكنائس التي ترجع إلى الحقبة الاستعمارية والبيت الذي يُفترَض أنه كان لپيرِّيتشولي.

أما في ذلك العام، فلقد انصرفتُ بالأحرى إلى بحث كتابي، إذ كنتُ أكتب رواية تدور في حقبة الجنرال مانويل أپوليناريو أودريا (١٩٤٨ - ١٩٥٦). وخلال شهر الإجازة الذي أمضيتُه في ليما، كنتُ أتردَّد نهارًا إلى أرشيف الصحف بالمكتبة الوطنية مرتَيْن من كل أسبوع، حيث أتصفَّح المجلات والصحف الصادرة في تلك الأعوام. بل إنني، وبشيء من المازوخية، قرأتُ بعض الخطب التي كتبها من أجل الديكتاتور مستشاروه (الذين كانوا جميعًا من المحامين، بالحكم على بلاغتهم القانونية). وبالخروج من المكتبة

الوطنية، قرب منتصف النهار، كنتُ أقطع جادة أبانكاي التي بدأت في التحوُّل إلى سوق هائلة الضخامة للباعة الجائلين. على أرصفة الجادة، كانت جموع غفيرة من النساء والرجال، الذين يرتدي كثير منهم عباءات الپونتشو والتنانير القروية، تبيع كل ما يمكن للمرء أن يتخيَّله من البضائع المُتراصَّة على أغطية مفروشة على الأرض أو أوراق الجرائد أو في الأكشاك المُرتجَلة باستخدام الصناديق والصفائح والمظلَّات، بدءًا بالإبر ودبابيس الشعر وصولًا إلى الثياب والبدلات، أضف إلى ذلك الأطعمة المطهوة في المكان على المواقد الصغيرة بكل صنوفها، طبعًا. كانت تلك الجادة، أبانكاي، من أكثر الأمكنة تغيُّرًا في ليما. إذ اكتظَّت الآن بالناس، واصطبغَت بصبغة جبال الأنديز، ولم يكُن من الغريب أن يسمع المرء هناك حديثًا بلغة الكيتشوا، وسط روائح المقالي والتوابل شديدة القوة. لم تعُد، بأي حال من الأحوال، تشبه تلك الجادة الصارمة الواسعة التي كانت تضمّ الموظفين، وبعض الشحاذين، حيث درجتُ على السير مُتَّجِهًا إلى المكتبة الوطنية نفسها منذ عشرة أعوام، وأنا طالب في الجامعة. هناك، في تلك المربعات السكنية، كان للناظر أن يرى مشكلة الهجرة من الأرياف إلى العاصمة، وأن يلمسها مُتركِّزةً في ذلك المكان، الهجرة التي ضاعفَت تعداد ليما خلال ذلك العقد، وأسفرَت عن انتشار مكبّات القمامة فوق التلال، والكثبان الرملية، والعشوائيات التي توافد عليها آلاف وآلاف من البشر الذين هجروا الأقاليم تحت وطأة الجفاف والجوع وظروف العمل الشاقة وفي ظلّ غياب الفرص.

وبينما رحتُ أتعرَّف بذلك الوجه الجديد من أوجه المدينة، كنتُ أمشي عَبْر جادة أبانكاي إلى المنتزه الجامعي وذلك المكان الذي كانت تشغله جامعة سان ماركوس في ما مضى (إذ نُقِلَت الكليات إلى ضواحي ليما. أما ذلك القصر الذي درستُ فيه الآداب والقانون،

فصار الآن يضمّ متحفًا وعددًا من المكاتب). لم أفعل ما فعلتُ بدافع الفضول وشيء من الحنين فحسب، بل إنني مضيتُ مدفوعًا بالاهتمام الأدبي أيضًا، لأن بعض حوادث الرواية التي كنتُ أكتبها جرَت في المنتزه الجامعي وقصر سان ماركوس ومكتبات الكتب القديمة ونوادي البلياردو والمقاهي القذرة الواقعة في المنطقة المحيطة.

في نهار ذلك اليوم، على وجه التحديد، كنتُ أقف كالسائح أمام مصلى أبطال الوطن الجميل، وأتأمّل الباعة الجائلين حول المكان - ماسحي الأحذية، وباعة الفطائر والمُثلَّجات والشطائر - وإذا بي أحسّ بأحدهم يمسك كتفي: پابليتو الكبير، الذي كبر في العمر اثني عشر عامًا، ولكنه ظلَّ كما هو.

تعانقنا بقوة. لم يطرأ عليه أدنى تغيُّر، حقًّا: بل ظلّ هو الخلاسي متين البنية الباسم صاحب الأنفاس الخليقة بمريض الربو، الذي لا يرفع قدمَيْه عن الأرض في سيره إلَّا قليلًا حتى ليبدو وكأنه يتزلَّج ماضيًا في طريقه عَبْر الحياة. خلا رأسه من الشعر الأبيض، مع أنه صار على مشارف الستين، من دون شك. بدا شعره مُضمَّخًا بدهان غزير، مُملَّسًا بعناية، وكأنه رجل أرجنتيني في الأربعينيات. وإن بدا أحسن هندامًا بكثير مما كان وهو يشتغل بالصحافة (نظريًّا) في راديو پانامريكانا: إذ ارتدى بدلة خضراء مربعة، ولف حول عنقه ربطة صغيرة صارخة (كانت أول مرة أراه يستخدم ربطة عنق)، وانتعل حذاء لامعًا. سعدتُ برؤيته كثيرًا، فعرضتُ عليه أن نحتسي القهوة معًا. وافق، وانتهَت بنا الحال جالسَيْن إلى طاولة في حانة ومطعم پاليرمو، المكان الذي اقترن في ذاكرتي بأعوام الدراسة الجامعية أيضًا. قلتُ له إنني لن أسأله كيف عاملته الحياة، فرؤيته تكفي ليعرف الناظر أنها قد أحسنَت إليه. ابتسم راضيًا عن نفسه، وقد استقرّ حول سبابته خاتم ذهبي منقوش برسوم من حضارة الإنكا.

- «لا أملك الشكوى»، أومأ برأسه. «فبعد كل هذه المشقات، تبدَّل حظي في عمر مُتقدِّم. ولكن، اسمح لي بدعوتك إلى البيرة قبل كل شيء، لأنني سعدتُ كثيرًا برؤيتك»، نادى النادل، ثم طلبَ بيرة پيلسِن المُثلَّجة، وأطلق ضحكةً أثارَت نوبة الربو المعهودة. «يقولون: مَن تزوَّج، خاب. ولكن زيجتي جاءت بنتائج عكسية».

وبينما رحنا نشرب البيرة، حكى لي پابليتو الكبير، في حديث تخلَّلَته وقفات سكت خلالها مُرغَمًا بأمرٍ من شعابه الهوائية، أن آل خينارو قد نصَّبوه حارسًا بزيّ وقبعة كلاهما قرمزي اللون، على بوابة البناء الذي شيَّدوه في جادة أريكيپا ليكون مقرّ القناة الخامسة، عندما وصل التلفزيون إلى بيرو.

- «مِن صحافي إلى حارس بوابة، يبدو الأمر انحدارًا في المكانة»، قال وهو يهزّ كتفَيْه. «وقد كان، مِن منظور الألقاب. ولكن، هل تُؤكَل الألقاب؟ حصلتُ على زيادة في الأجر، وذلك هو الشيء الأساسي».

لم تكُن حراسة البوابة بالعمل الذي يقسم الظهر: إذ عُهِد إليه بالإعلان عن الزيارات الوافدة، وإحاطة الزائرين بمواقع أقسام التلفزيون، وتنظيم طوابير الوافدين لحضور جلسات البثّ. أما البقية الباقية من اليوم فكان يمضيها في الحديث عن كرة القدم مع الشرطي المُكلَّف بحراسة الناصية. غير أنه، بمضي الشهور - قال وهو يطقطق بلسانه ويتذوَّق ذكرى شهية - بات يُعهَد إليه كل ظهيرة بالذهاب لشراء فطائر الجبن واللحم من حانة بِريسو، التي تقع في أرينالِس، على بعد مربع سكني من القناة الخامسة. فُتِن بها آل خينارو، وكذلك الموظفون والمُمثِّلون والمذيعون والمنتجون، فكان پابليتو الكبير يأتي إليهم بالفطائر، ويتلقَّى عن ذلك إكراميات سخية. وفي تلك الروحات والغدوات ما بين التلفزيون وبِريسو (حين أطلق

عليه فتية الحيّ لقب رجل الإطفاء بسبب زيه)، تعرَّف پابليتو الكبير بزوجة المستقبل، المرأة التي كانت تصنع تلك الفطائر اللذيذة المقرمشة: طاهية بِريسو.

- «ترك الزيّ في نفسها أثرًا قويًّا، وكذلك قبعة الجنرال التي كنتُ أعتمرها. رأتني فوقعَت لا حول لها»، مضى پابليتو الكبير يضحك، ويختنق، ويحتسي البيرة، ثم يختنق من جديد، ويستأنف الحديث. «إنها سمراء بارعة الجمال، أصغر من هذا الذي يتحدَّث إليك بعشرين عامًا. لها نهدان في غاية الإحكام، حتى الرصاص يعجز عن اختراقهما! كما أقول لك يا دون ماريو».

بدأ يجاذبها أطراف الحديث ويتغزَّل بها، فتضحك. وإذا هما يبدآن في المواعدة، ويقعان في الحب، ويعيشان قصة رومانسية كما في الأفلام. كانت السمراء بارعة، مُبادِرة، لها رأس مليء بالمشروعات. أصرَّت على افتتاح مطعم في ما بينهما. كان پابليتو الكبير يسألهما: «وكيف؟»، فتجيبه: «بمكافأة نهاية الخدمة». تراءى له ضربًا من الجنون أن يتخلَّى عن الأمان من أجل شيء غير مضمون، بَيْد أنها حقَّقَت مأربها. وبمكافأة نهاية الخدمة، تسنَّى لهما الحصول على مكان متواضع في شارع پارورو، واضطُرّا إلى الاقتراض من الجميع لشراء الطاولات وتجهيز المطبخ. أما الجدران، فلقد طلاها بنفسه، وكتب فوق الباب اسم: إل پابو ريال. في العام الأول، كادَت أرباح المطعم لا تكفي للاستمرار على قيد الحياة. زدْ على ذلك أن العمل كان في غاية المشقّة، واضطرّهما إلى القيام فجرًا للذهاب إلى سوق لا پارادا للحصول على أفضل المكونات بأحسن الأسعار والتكفُّل بكل شيء بنفسَيْهما: كانت تطهو الطعام، فيقدِّمه پابليتو الكبير ويحاسب الزبائن، ثم يكنسان المطعم ويرتِّبانه بالتعاون في ما بينهما. وكانا ينامان على فراش فوق

الطاولات بعد إغلاق المكان. غير أن المطعم شهد زيادة كبيرة في الإقبال بدءًا من العام الثاني، حتى اضطرَّا إلى اتّخاذ مساعدٍ لإعداد الطعام ونادلٍ لتقديمه. بل انتهَت بهما الحال إلى ردّ الزبائن، لأن المكان ما عاد يتَّسع لهم. وعند ذاك، خطر لتلك السمراء استئجار البيت المجاور، الذي كانت مساحته ثلاثة أضعاف المكان الحالي. وقد فعلا، فلم يندَّما على ذلك. بل إنهما جهَّزا الطابق الثاني أيضًا، وصار لهما بيتٌ صغير أمام مطعم إل پابو ريال. ولمَّا كان التفاهم بينهما رائعًا، فلقد تزوَّجا.

هنَّأته، وسألتُ إن كان قد تعلَّم الطهي.

- «خطرَت لي فكرة»، قال پابليتو الكبير فجأة. «دعنا نصطحب پاسكوال ونتناول الغداء في المطعم. اسمح لي بهذه الدعوة يا دون ماريو».

قبلتُ، لأنني لم أدرِ كيف أرفض الدعوات قطّ. زدْ على ذلك أنني شعرتُ بالفضول يدفعني إلى رؤية پاسكوال. أخبرني پابليتو الكبير بأن پاسكوال يشغل منصب مدير مجلة مُنوَّعات، وبأنه قد أحرز تقدّمًا بدوره. كان يلتقيه في كثير من الأحيان، لأن پاسكوال زبون دائم في مطعم إل پابو ريال.

كان مقرّ مجلة إكسترا يبعُد عن المكان بمسافة كبيرة، ويقع بشارع مُتفرِّع من جادة أريكا، في برينيا. ذهبنا إلى هناك بحافلة لم يكُن لها وجود في زمني. درنا حول المكان غير مرة، لأن پابليتو الكبير لم يتذكَّر العنوان. عثرنا عليه أخيرًا في زقاق ضائع، خلف سينما فانتاسيا. من الخارج، بدا جليًّا أن مجلة إكسترا لا تنعم بالرخاء: إذ عُلِّقَت لافتة تحمل اسم المجلة الأسبوعية بمسمار واحد هزيل بين مرأبَيْن للسيارات. وفي الداخل، كان المرء يكتشف أن

المرأبَيْن قد اتَّصلا في ما بينهما عن طريق فجوة في الجدار، تُرِكَت بلا تسوية ولا إطار، وكأنما البَنَّاء قد تخلَّى عن المهمة وتركها غير مكتملة. ولمداراة الفجوة، وُضِع أمامها بارافان من الورق المُقوَّى المُرصَّع بالكلمات النابية والرسوم البذيئة، كدور المياه العمومية. وعلى جدران المرأب الذي دلفنا إليه، وسط بقع الرطوبة والوسخ، استقرَّت الصور والملصقات وأغلفة مجلة إكسترا: التي يمكن للناظر إليها أن يتعرَّف وجوه لاعبي كرة قدم ومُغنّين، فضلًا عن المجرمين والضحايا، طبعًا. جاء كل غلاف مُرفقًا بعناوين صارخة، استطعتُ أن أقرأ منها عبارات من قبيل: «يقتل الأمَّ حتى يتزوَّج بالابنة»، و«الشرطة تداهم حفلة رقص تنكُّرية: جميع المشاركين فيها من الرجال!». بدا أنهم قد اتَّخذوا من تلك الحجرة مكتب تحرير ومعمل تصوير وأرشيفًا أيضًا. ازدحم المكان بالأشياء حتى بات السير فيه شاقًّا: استقرَّت فوق طاولتَيْن آلتان كاتبتان، أخذ رجلان يضربان مفاتيحهما في استعجال شديد. بينما تراصَّت أكوام النسخ المُرتجَعة من المجلة، التي مضى صبي يرتِّبها في الحزم ويربطها بالحبال. وفي أحد الأركان، استقرَّت خزانة مفتوحة، ملأى بالنيجاتيف والصور وألواح الطباعة. وخلف الطاولة التي استقرَّت فوق ثلاثة من قوالب الطوب بدلًا من السيقان، أخذَت تُسجِّل بعض الفواتير في دفتر الحسابات فتاةٌ ترتدي كنزة حمراء. بدا الأشخاص والأشياء هناك في حالة من التقشُّف الشديد. لم يعترض أحد طريقنا أو يسألنا عن أي شيء أو يردّ تحية المساء.

وعلى الجانب الآخر من البارافان، بين جدران تكسوها الأغلفة المثيرة أيضًا، تراصَّت ثلاثة مكاتب، استقرَّت فوقها لافتات مكتوبة بالحبر إشارةً إلى المناصب التي يشغلها أصحاب المكاتب: مدير عام، ورئيس تحرير، ومدير إداري. دلفنا إلى الحجرة، فإذا بالرجلَيْن

المُنصرِفَيْن إلى المسودات يرفعان رأسَيْهما عندما انتبها إلى حضورنا. أما الشخص الذي كان واقفًا، فهو پاسكوال.

تعانقنا بقوة. تغيَّر پاسكوال كثيرًا، بخلاف پابليتو الكبير، إذ برز بطنه، وزاد وزنه، وتهدَّل لغده، وتجلَّى في تعابير وجهه شيء جعله يكاد يبدو عجوزًا. كما أطلق شاربًا في غاية الغرابة، بدا هتلريًّا على نحو مبهم، وانتشر فيه الشعر الرمادي. لقيني پاسكوال بمظاهر المودة الغامرة. ابتسم، فرأيتُ أنه قد فقد بعض أسنانه. وبعد التحية، قدَّمني إلى الشخص الآخر، صاحب البشرة السمراء والبدلة المُلوَّنة بلون الخردل، الذي ظلّ جالسًا إلى مكتبه.

- «مدير مجلة إكسترا»، قال پاسكوال. «دكتور ريباليياتي».

- «كدتُ أخطئ! فلقد أخبرني پابليتو الكبير بأنك أنت المدير»، قلتُ وأنا أمدّ يدي لدكتور ريباليياتي.

- «صحيح أننا في حالة تدهور، ولكن ليس إلى هذا الحدّ!»، عقَّب الأخير. «تفضَّل بالجلوس، تفضَّل بالجلوس».

- «أنا رئيس تحرير»، أوضح لي پاسكوال. «وهذا مكتبي».

قال له پابليتو الكبير إننا قد جئنا لنصطحبه إلى إل پابو ريال، ونسترجع أيام راديو پانامريكانا. رحَّب بالفكرة، وإن أخبرنا بضرورة الانتظار بضع دقائق، إذ ينبغي له تسليم تلك المسودات في المطبعة القائمة على الناصية. الأمر عاجل، لأنهم على وشك الانتهاء من التحرير. ذهب وتركنا مع دكتور ريباليياتي، وكلٌّ منا ينظر إلى وجه الآخر. عرف دكتور ريباليياتي أنني أعيش في أوروبا، فأمطرني بوابل من الأسئلة: هل كانت الفرنسيات سهلات المنال كما يُقال؟ هل كُنّ على تلك الدرجة من الخبرة والخلاعة في الفراش؟ أصرّ على أن أقدِّم له إحصائيات وجداول مقارنة عن نساء أوروبا. أصحيح أن لنساء كل بلدٍ عادات خاصة؟ كان دكتور ريباليياتي، على سبيل

المثال، قد سمع بأمور في غاية الإثارة، أخبره بها مسافرون مخضرمون (مضى پابليتو الكبير ينصت إليه وهو يقلِّب عينَيْه مُتلذِّذًا). أصحيح أن الإيطاليات مهووسات بمداعبة القضيب بالفم؟ وأن بنات باريس لا يشبعن ما لم يقصفهن الرجل من الخلف؟ وأن الإسكندنافيات يداعبن آباءهن؟ رحتُ أجيب عن وابل الأسئلة ما وسعني ذلك، بينما أطلق دكتور ريباليّاتي غيمةً شهوانية منوية في الأجواء. ولم تمرّ لحظةٌ واحدة إلَّا وشعرتُ بالندم لأنني قد تورَّطتُ في تلك الدعوة إلى الغداء الذي لا شكّ أنه سوف ينتهي في ساعة مُتأخِّرة للغاية. أغرق پابليتو الكبير في الضحك، مُندهِشًا من اكتشافات المدير الإيروتيكية الاجتماعية، وقد بلغَت منه الإثارة مبلغًا شديدًا. وعندما أنهكني فضول المدير، طلبتُ منه التليفون، فرسم على وجهه أمارات السخرية.

- «لقد انقطعَت الخدمة منذ أسبوع، لأننا لم نسدِّد الفاتورة»، قال، بصراحة عدوانية. «لأن هذه المجلة الذي تراها بعينَيْك في طريقها إلى الغرق، وكلنا، نحن الحمقى العاملين هنا، في طريقنا إلى الغرق معها».

ما لبث أن أخبرني، في لذَّة مازوخية، بأن مجلة إكسترا قد ظهرَت في حقبة أودريا، وحظيَت برعاية جيدة آنذاك، إذ كان النظام ينشر الإعلانات على صفحاتها ويقدِّم لها المال في الخفاء، مقابل الهجوم على أشخاص بعينهم، والدفاع عن غيرهم. أضف إلى ذلك أنها كانت واحدة من المجلات القليلة التي سُمِح بصدورها، ولاقَت إقبالًا مشهودًا. ولكن، برحيل أودريا، احتدمَت المنافسة بشدة، فأفلسَت المجلة. ثم تولَّى إدارتها بنفسه وهي على تلك الحال، جثة هامدة، فنهض بالمجلة، وغيَّر توجهاتها، جاعلًا منها مجلة فضائح مثيرة، فسار كل شيء بسلاسة حينًا، على الرغم من الديون

المتراكمة. أما خلال العام الأخير، فساء الوضع كثيرًا بسبب ارتفاع أسعار الورق وتكاليف الطباعة، والحملة المناوئة التي شنّها أعداء المجلة، وتراجُع إقبال المعلنين. زد على ذلك أنهم قد خسروا القضايا التي رفعها الأوغاد الذين اتَّهموهم بالسبّ والقذف. أما الآن وقد استحوذ الخوف على مُلَّاك المجلة، فلقد أهدوا المُحرِّرين جميع الأسهم لئلَّا يدفعوا الثمن متى حانت النهاية، الأمر الذي لن يستغرق طويلًا، مع الأخذ في الاعتبار الوضع المأساوي الذي شهدَته الأسابيع الأخيرة: إذ لم يعُد لديهم من النقود ما يكفي لدفع الرواتب، فبدأ المُوظَّفون في الاستحواذ على الآلات، وبيع المكاتب، وسرقة كل شيء ذي قيمة، مُستبِقين بذلك انهيار المجلة.

- «لن تستمرّ هذه الحال شهرًا واحدًا يا صديقي»، كرَّر، مُتنهِّدًا بصنف من الاستياء السعيد. «نحن جثث هامدة، ألا تشمّ رائحة العفن؟».

هممتُ بالردّ قائلًا إنني أشمّها بالفعل، وإذا بخيال نحيل كالهيكل العظمي يقطع حديثنا، ويدلف إلى الحجرة عَبْر الفجوة الضيقة في غير حاجة إلى تنحية البارافان جانبًا. كان شعره مُصفَّفًا على الطريقة الألمانية، على قدر من الهزل. في حين جعلَته ثيابه يبدو المُشرَّدين. إذ كان يرتدي أوفرول أزرق وقميصًا مُرقَّعًا تحت سترة شديدة الضيق مائلة إلى اللون الرمادي. أما أغرب ما في مظهره، فكان حذاء كرة السلة الضارب إلى الحمرة الذي بلغ من القدم حدًّا جعل صاحب الحذاء يلفّ طرف إحدى الفردتَيْن بحبل، وكأنما النعل قد انفصل عن باقي الحذاء، أو كاد ينفصل. ما إن رآه دكتور ريباليياتي حتى بدأ يعنِّفه:

- «لو حسبتَ نفسك قادرًا على الاستمرار في السخرية مني، فأنت مخطئ»، قال وهو يقترب منه، بمظهر المُتوعِّد، إلى حدٍّ جعل

الهيكل العظمي يقفز إلى الخلف. «ألم يكُن عليك أن تُحضِر مادةً عن وصول مسخ أياكوتشو البارحة؟».

- «لقد أحضرتُها، سيدي المدير. جئتُ إلى هنا أحمل جميع البيانات ذات الصلة، بعد أن أودَع رجالُ الدوريةِ جثمانَ القتيل في مقرّ المديرية بنصف ساعة»، احتجّ الرجل الهزيل.

لا بدّ أن مفاجأتي قد بلغَت من الشدة حدًّا جعلني أبدو كالمُستغرِق في غيبوبة، فهذا النطق المثالي، وتلك النبرة الدافئة، وتلك المصطلحات المُقعَّرة من قبيل «ذات الصلة»، كلها أمور لا تصدر إلَّا عنه هو. ولكن، كيف للناظر أن يرى كاتبَ السيناريو البوليفي في جسد وثياب الفزَّاعة التي فتك بها دكتور ريباليايتي؟

- «لا تكُن كاذبًا. على الأقل، تحلَّ بالشجاعة اللازمة للاعتراف بأخطائك. لم تُحضِر المادة، ولم يتمكَّن ميلكوتشيتا من إتمام تقريره الصحافي. ستكون البيانات منقوصة. وأنا أكره التقارير المنقوصة، لأنه أمر يليق بالصحافة الرديئة!».

- «بل أحضرتُها، سيدي المدير»، أجاب بتهذيب وترقُّب، پِدرو كاماتشو. «وجدتُ مقرّ المجلة موصدًا، في تمام الحادية عشرة وخمسة عشر دقيقة، لأنني سألتُ أحد المارة عن الساعة، سيدي المدير. ثم توجَّهتُ إلى بيت ميلكوتشيتا، علمًا مني بأهمية البيانات. ظللتُ أنتظره على الرصيف حتى الثانية صباحًا، غير أنه لم يحضر لينام هناك. ليس ذنبي، سيدي المدير. لقد علِق رجال الوردية الذين كانوا يحملون المسخَ بسبب انهيار أرضي، ووصلوا في الحادية عشرة بدلًا من التاسعة. لا تتَّهمني بالتقصير في العمل، فالمجلة تأتي عندي في المقام الأول، قبل صحتي، سيدي المدير».

رحتُ أربط الأمور بعضها ببعض، رويدًا رويدًا - وإن لم تخلُ العملية من جهد - وأقرن بين ذكرى پِدرو كاماتشو التي كنتُ محتفظًا

بها، وذلك الماثل أمامي. كانت له العينان الجاحظتان نفسهما، وإن زال عنهما التعصُّب والذبذبة المفعمة بالهوس. والآن بات الضوء الذي يشعّ منهما خافتًا، خامدًا، زائغًا، خائفًا. حتى اللفتات والإيماءات وطريقة الكلام، وحركة الذراع واليد، تلك الحركة غير الطبيعية التي تشبه إشارة منادي السيرك، وحتى الصوت المنغوم الخلَّاب الذي لا يشبهه صوت، كلها أشياء ظلَّت على عهدها.

- «الأمر أنك، بسبب تقتيرك الشديد الذي يمنعك من ركوب الحافلة أو سيارة الأجرة المشتركة، تصل مُتأخِّرًا إلى كل مكان، وتلك هي الحقيقة»، امتعض دكتور ريباليياتي، وقد انتابته حالة من الهستيريا. «لا تكُن جشعًا، سحقًا، أنفقْ المبلغ الزهيد الذي يكلفه ركوب الحافلة، تصلْ إلى وجهتك في الموعد المناسب».

ولكن أوجه الاختلاف قد تفوَّقَت على أوجه التشابه. كان التغيُّر الرئيسي يكمن في تصفيفة الشعر. ذلك أنه، عندما قصّ شعره الذي كان يصل إلى كتفَيْه، وتركه قصيرًا، تضاءل وجهه، وبرزَت عظامه أكثر من ذي قبل، وفقد شخصيته وسطوته. أضف إلى ذلك أنه صار أشدّ نحولًا بكثير، وأصبح يبدو كالحواة، بل إنه كاد يبدو كالشبح. ولكن ربما كانت الثياب هي التي جعلَتني لا أتعرَّفه من اللحظة الأولى. لم تسبق لي رؤيته إلَّا مُتَّشِحًا بالسواد، بالبدلة الجنائزية اللامعة والبابيون اللذين كانا يمثِّلان جزءًا لا يتجزَّأ من شخصيته. أما الآن وقد ارتدى أوفرول العتَّالين، وذلك القميص المُرقَّع، وانتعل ذلك الحذاء ذا النعل المربوط، فصار يبدو كاريكاتير الكاريكاتير الذي كانه منذ اثني عشر عامًا مضَت.

- «أؤكِّد لك أن الأمر ليس كما تظنّ، سيدي المدير»، مضى يدافع عن نفسه، بقناعة راسخة. «لقد أثبتُّ لك أنني أصل إلى أي مكان سيرًا على قدمَيّ أسرع مما أصل بتلك الخردة المتهالكة ذات

الرائحة الكريهة. لا أذهب سيرًا لأنني شديد التقتير، وإنما لتأدية واجباتي بسرعة أكبر. وفي كثير من الأحيان أذهب راكضًا، سيدي المدير».

ما زال باقيًا على عهده في ذلك أيضًا: في الغياب المطلق لحسّ الدعابة. راح يتكلَّم بلا أدنى أثر للطرافة أو الفكاهة أو حتى العاطفة، بطريقة أوتوماتيكية، منزوعة الشخصية، مع أنه صار الآن يتكلَّم بأشياء ما كان ليخطر على بال أحد أنه قد يتفوَّه بها آنذاك.

- «دع عنك الحماقة والهوس، لقد صرتُ أكبر من أن يخدعني أحدهم»، التفت دكتور ريبالياتي إلينا، طالبًا منا أن نشهد على ما يجري. «أسمعتما بحماقة مثل هذه؟ أسمعتما بمن يستطيع المرور بأقسام شرطة ليما سيرًا على قدمَيْه، فيصل إليها أسرع مما يصل بالحافلة؟ يريدني هذا السيد أن أصدِّق هراء من هذا القبيل»، عاود الالتفات إلى كاتب السيناريو البوليفي، الذي لم يحوِّل ناظرَيْه عن المدير، ولم ينظر إلينا حتى بطرف عينه. «يُخيَّل إليَّ أنك تتذكَّر ما أقول كلّما جلستَ أمام صحن الطعام، ولا حاجة بي إلى تذكيرك بأن السماح لك بالعمل هنا خدمة عظيمة نسديها إليك، مع الأخذ في الاعتبار وضعنا بالغ السوء الذي يضطرّنا إلى التخلّي عن المُحرِّرين، دع عنك جامعي البيانات! كُن مُمتنًّا وأدِّ واجباتك على الأقل!».

عند ذاك دلف پاسكوال إلى المكان وهو يقول من مكانه أمام البارافان:

- «كل شيء جاهز، والعدد قيد الطباعة»، ثم اعتذر لأنه جعلنا ننتظر. اقتربتُ من پِدرو كاماتشو وهو يهمّ بالخروج.

- «كيف حالك يا پِدرو؟»، سألتُه وأنا أمدّ له يدي. «ألا تذكرني؟».

نظر إليَّ من رأسي إلى قدمَيّ وهو يغمض عينَيْه نصف إغماضة،

ويمدّ وجهه إلى الأمام، مُتفاجئًا، كما لو كانت أول مرة يراني مدى الحياة. وأخيرًا، مدّ لي يده بتحية جافة، رسمية، بينما هو ينحني انحناءته المعهودة قائلًا:

- «تشرَّفتُ كثيرًا بمعرفتك. صديقك، بِدرو كاماتشو».

- «ولكن... هذا غير معقول»، قلتُ له وقد تملَّكتني حيرة شديدة. «هل تقدَّمتُ في السنّ إلى هذا الحدّ؟».

- «دع عنك التظاهر بفقدان الذاكرة»، ربَّت عليه پاسكوال تربيتة جعلَته يترنَّح. «ألا تذكر حتى أنك كنتَ تشرب القهوة على حسابه في مقهى برانسا طوال الوقت؟».

- «بل عشبة الليمون والنعنع»، قلتُ مازحًا، مُتفرِّسًا، باحثًا عن بادرة واحدة في وجه بِدرو كاماتشو الذي تراءى مُتنبِّهًا وغير آبه في آن واحد. أومأ (فرأيتُ رأسه الذي كاد يبدو حليقًا)، ورسم على وجهه ابتسامةَ مناسباتٍ في غاية الاقتضاب، شفَّت عن أسنانه.

- «إنه مشروب مفيد جدًّا للمعدة، ويساعد على الهضم، وفوق ذلك يحرق الدهون»، قال. وسرعان ما أردف، كأنه يقدِّم تنازلًا حتى يتخلَّص منا: «نعم، ذلك شيء جائز، ولا أنكره. الأرجح أننا التقينا»، ثم كرَّر: «تشرَّفتُ كثيرًا بمعرفتك».

اقترب پابليتو الكبير أيضًا، وأحاط كتف بِدرو كاماتشو بذراعه، في لفتة أبوية ساخرة. وبينما راح يهزّه بشيء من العطف والاستخفاف معًا، توجَّه إليَّ بالحديث قائلًا:

- «لم يعُد بِدريتو يريد أن يتذكَّر ذلك الزمن، عندما كان شخصًا ذا شأن، الآن وقد صار بلا أدنى فائدة»، ضحك پاسكوال، وضحك پابليتو الكبير، بينما تظاهرتُ أنا بالضحك، حتى بِدرو كاماتشو نفسه حاول أن يرسم بسمةً على وجهه. «يحاول إقناعنا بأنه لا يتذكَّرنا، لا أنا ولا پاسكوال»، مسح بيده على شعر بِدرو كاماتشو القصير، وكأنه

يداعب كلبًا صغيرًا. «نحن ذاهبون لتناول الغداء واستعادة ذكريات ذلك الزمن، عندما كنتَ ملكًا. أنت محظوظ يا پِدريتو، اليوم تأكل طعامًا ساخنًا! أنت مدعو إلى الغداء!».

- «كم أنا ممتنٌّ لكم يا رفاق»، قال من فوره، وهو ينحني انحُناءة شعائرية. «ولكني لا أستطيع مرافقتكم، فزوجتي في انتظاري. ولسوف تشعر بالقلق ما لم أحضر على الغداء».

- «إنها تفرض سيطرتها عليك، وتتَّخذك عبدًا لها، يا للعار!»، مضى پابليتو الكبير يهزّه.

- «هل تزوَّجت؟»، سألتُ في ذهول، فأن يكون لپِدرو كاماتشو بيت وزوجة وأبناء... ذلك شيء عجزتُ عن تصوّره. «حسنًا، مبارك، حسبتُك مُتمسِّكًا بالعزوبية».

- «لقد احتفلنا بذكرى زواجنا الخامسة والعشرين»، أجابني، بنبرته المُحدَّدة المُعقَّمة. «إنها زوجة عظيمة يا سيدي. لا مثيل لها في التفاني والطيبة. فرَّقَتنا ظروف الحياة، ثم عادَت لتدعمني عندما صرتُ في حاجة إلى المساعدة. إنها زوجة عظيمة، كما أقول لك. إنها فنانة، فنانة أجنبية»، رأيتُ پابليتو الكبير وپاسكوال ودكتور ريبالياتي يتبادلون نظرة ساخرة، وإن لم يبدُ على پِدرو كاماتشو أنه قد تنبَّه إلى ذلك. وبعد هنيهة من الصمت، أردف قائلًا: «حسنًا، عسى أن تنعموا بوقت طيب يا رفاق، سأكون معكم بخواطري».

- «حذار، لا تخذلني مرة أخرى، لأنها ستكون المرة الأخيرة»، حذَّره دكتور ريباليياتي، وكاتب السيناريو يغيب عن الأنظار خلف البارافان.

لم يكُن وقع خطوات پِدرو كاماتشو قد خمد بعد - لا بد أنه كان في طريقه إلى الباب المفضي إلى الشارع - وإذا بدكتور ريباليياتي وپاسكوال وپابليتو الكبير ينفجرون في القهقهة، بينما راحوا

يتغامزون، ويرسمون على وجوههم تعابير خبيثة، ويشيرون إلى المكان الذي خرج منه.

- «ليس مُغفَّلًا كما يبدو، يتظاهر بأنه مُغفَّل حتى يداري القرون المرفوعة على رأسه!»، قال دكتور ريبالياتي، في مرح. «كلّما تكلَّم عن زوجته، شعرتُ برغبة جارفة تدفعني إلى أن أقول له: كفّ عن نعتها بالفنانة، لأنها باللغة البيروفية الفصيحة تُسمَّى راقصة ستريبتيز رخيصة».

- «لا أحد يتصوَّر إلى أي أنواع الوحوش تنتمي تلك المرأة!»، قال لي پاسكوال، وقد ارتسم على وجهه تعبير يليق بطفل رأى بعينَيْه مسخًا. «إنها امرأة أرجنتينية عجوز، بدينة، شعرها مصبوغ بالأكسجين، ووجهها مُلطَّخ بالزينة. تُقدِّم أغاني التانغو شبه عارية في ميسانيني، ملهى الشحاذين».

- «اصمتا، ولا تكونا جاحدَيْن، فكلاكما ضاجعها»، قال دكتور ريبالياتي. «وأنا أيضًا، بالمناسبة».

- «أي مغنية وأي لغو فارغ! إنها عاهرة»، صاح پابليتو الكبير، وعيناه كالجمر المشتعل. «لقد تأكَّد لي ذلك. ذهبتُ لمشاهدتها في ميسانيني. وبعد الاستعراض، اقتربَت مني وعرضَت عليَّ أن تداعبه بفمها مقابل عشرين ليرا. كلَّا أيتها العجوز، فلقد تساقطَت أسنانكِ، وأنا يلذّ لي أن تعضّه المرأة بنعومة! لن أفعلها ولا حتى بالمجان، حتى لو تلقَّيتُ عن ذلك أجرًا. أقسم لك بأن فمها خالٍ من الأسنان يا دون ماريو».

- «كانا مُتزوِّجَيْن بالفعل، هناك، في بوليفيا، قبل أن يحضر پِدريتو إلى ليما»، قال پاسكوال وهو يفرد أكمام القميص ويرتدي السترة ويلف الربطة حول عنقه. «يبدو أنها قد تخلَّت عنه من أجل العهر. ثم التأم شملهما مرة أخرى حين أودِع في مستشفى الأمراض

العقلية. ولهذا لا يكفّ عن الادعاء بأنها سيدة في غاية التفاني، لأنها عادَت إليه مرة أخرى عندما فقد عقله».

- «يشعر نحوها بامتنان الكلاب، لأنه يجد الطعام بفضلها»، تدارك دكتور ريبالياتي. «أم أنك تظنّ ما يجنيه كاماتشو بجمع المعلومات من الشرطة يسمح لهما بالعيش؟ يجدان ما يسدّ الرمق بفضل الدعارة، وإلّا كان قد أصيب بالسلّ».

- «الحقّ أن پدريتو لا يحتاج إلى كثير من الطعام»، قال پاسكوال. ثم أردف موضحًا لي: «يعيشان في زقاق بسانتو كريستو. يا للدرجة المُتدنِّية التي انحدر إليها! أليس كذلك؟ الدكتور العزيز يأبى أن يصدِّقني حين أخبره بأن پدرو كاماتشو كان شخصًا ذا شأن عندما كان يكتب المسلسلات الإذاعية، وأن الناس كانوا يطلبون توقيعه».

خرجنا من الحجرة. كانت فتاة الفواتير قد اختفَت من مرأب السيارات المجاور ومعها المُحرِّران والفتى الذي يعدّ حزم المجلات. كما أُطفِئَت الأنوار، واصطبغَت الفوضى والأشياء المكُدَّسة بصبغة شبحية. وفي الشارع، أقفل دكتور ريباليتي الباب بالمفتاح. شرعنا في السير نحو جادة أريكا بحثًا عن سيارة أجرة، ومضينا نحن الأربعة في صفّ واحد. سألتُ عن السبب الذي يقصر عمل پدرو كاماتشو على جمع المعلومات، ويمنعه من الاشتغال بالتحرير، لمُجرَّد أن أقول شيئًا.

- «لأنه لا يتقن الكتابة»، قال دكتور ريباليتي، كالمُتوقَّع. «إنه مُبتذَل، ويستخدم كلمات لا يفهمها أحد. إنه نقيض الصحافة. لهذا أكلِّفه بالذهاب إلى أقسام الشرطة. لستُ في حاجة إليه، ولكنه يسلِّيني، إنه مُهرِّجي الخاص، أضفْ إلى ذلك أنه يتقاضى أجرًا أبخس من أجور الخدم»، ضحك ضحكةً بذيئة، وقال سائلًا:

«حسنًا، حتى يكون حديثنا واضحًا، هل أنا مدعو إلى هذا الغداء أم لا؟».

- «بكل تأكيد، غني عن القول إنك مدعو إلى الغداء»، قال بابليتو الكبير. «أنت ودون ماريو ضيفا الشرف».

- «إنه رجل شديد الهوس بأمور كثيرة»، قال باسكوال، عطفًا على حديثنا، بعد أن ركبنا سيارة الأجرة، في الطريق إلى شارع بارورو. «على سبيل المثال، يأبى ركوب الحافلة، ويذهب إلى كل مكان سيرًا على قدمَيْه، زاعمًا بأن ذلك أسرع. يدركني التعب إذا تصوَّرتُ كم يسير في اليوم الواحد، فمُجرَّد الذهاب إلى أقسام شرطة وسط المدينة يقتضي السير كيلومترات كثيرة. أرأيتم الحال التي آل إليها حذاؤه؟».

- «إنه بخيل حقير»، قال دكتور ريبالياتي باشمئزاز.

- «لا أعتقد بأنه بخيل»، دافع عنه بابليتو الكبير. «كل ما في الأمر أن صواميل عقله مُفكَّكة قليلًا، أضفْ إلى ذلك أنه تعيس الحظّ».

كان الغداء طويلًا جدًّا، تعاقبَت خلاله الأطباق الكريوليَّة الحارقة مُتعدِّدة الألوان، كما تخلَّلَته البيرة الباردة، وقليلٌ من كل شيء: الحكايات الساخنة، وطرائف الماضي، ونمائم كثيرة، ونتفة من السياسة. ومرة أخرى، اضطُرِرتُ إلى إشباع ذلك الفضول الجارف بشأن الأوروبيات. بل إن شجارًا بالأيدي كاد يندلع حين سكر دكتور ريبالياتي وبدأ يتعدَّى حدوده مع زوجة بابليتو الكبير، تلك المرأة السمراء الأربعينية التي ما زالت محتفظةً بجاذبيتها. أما أنا، فرحتُ أبتكر الحيل كيلا يزيد واحدٌ من أولئك الثلاثة كلمةً أخرى عن پِدرو كاماتشو طوال المساء الثقيل.

وصلتُ والليل مُقبِلٌ إلى بيت الخال لوتشو وزوجته أولغا (اللذين

صارا حماي وحماتي بعد أن كانا نسيبي ونسيبتي). كان رأسي يؤلمني، والكآبة تستحوذ عليَّ. في حين استقبلَتني ابنة خالي پاتريسيا بوجه تبدو عليه أمارات الجفاء. وقالت إنني ربما كنت أحتال على الخالة خوليا وأخونها بحجة جمع الوثائق من أجل رواياتي، لأنها لم تجرؤ على التفوّه بكلمة واحدة كيلا يحسب الناس أنها ترتكب جريمة ازدراء الثقافة. أما پاتريسيا، فلا يهمّها أن ترتكب جريمة ازدراء الثقافة على الإطلاق. ولذا، فمتى خرجتُ مرة أخرى في الثامنة صباحًا بحجة الذهاب إلى المكتبة الوطنية لقراءة خطب الجنرال مانويل أپولیناريو أودريا، ورجعتُ في الثامنة ليلًا بفم تنبعث منه رائحة البيرة، وعينَيْن حمراوَيْن، ومنديل علقَت به آثار طلّاء الشفاه - في أغلب الظنّ - فلسوف تمزِّق بشرتي، أو تحطِّم صحنًا على رأسي. وابنة خالي پاتريسيا فتاة ذات شخصية قوية، على أتمّ استعداد لتنفيذ ما وعدَتني به.

تمَّت



هذا الكتاب

مضيتُ أفكِّر في حياة بِدرو كاماتشو. أي وسط اجتماعي وأي سلسلة من الأشخاص والصلات والمشكلات والمصادفَات والوقائع أسفرَت عن تلك الرسالة الأدبية (أتراها أدبية؟ وإن لم تكُن كذلك، فماذا تكون؟)، تلك الرسالة التي تحقَّقَت له، وتبلورَت في أعماله، وصار لها جمهور؟ كيف له أن يكون نسخةً هزلية من الكاتب، مع أنه الشخص الوحيد الذي يستحقّ أن يُسمَّى كاتبًا في بيرو، بالنظر إلى الوقت الذي كرَّسه للكتابة والأعمال التي أنجزها؟ أيكون أولئك الساسة والمحامون والمُعلِّمون الذين يحملون ألقاب الشعراء والروائيين والمسرحيين كُتَّابًا لمُجرَّد أن الواحد منهم قد ألَّف كُتَيِّبًا شعريًّا أو مجموعةً قصصية موجزة في فترة قصيرة من حياتهم التي ينفقون أربعة أخماسها في أنشطة بعيدة عن الأدب؟ لماذا يُعَدّ أولئك الذين يتَّخذون الأدبَ زينةً أو حجةً أحقّ من بِدرو كاماتشو بأن يكونوا كُتَّابًا، وهو الذي عاش من أجل الكتابة **وحدها**؟



الغلاف : سكينة صلوَن

